



قرئینو بوسکو

دوت بوسکو

صدیق الشبلی

tradotto da Youssef Coshakgi,
sacerdote Siriano Armeno Cattolico
diocesi di Aleppo, prima edizione 1983.
tradotto versione francese di A. Garnier,
Don Bosco. Une biographie nouvelle. Les
Editions du Cerf, Paris, 1981.
don Gianmaria Gianazza ha riletto la
traduzione araba leggendo la versione
Italiana apportando alcuni termini ed
espressioni.

إلى دون بوسكو
الذي اخترته معلماً وأباً
منذ ربيعي العاشر ،
لكي يُعدّ لي أيضاً ،
رغم كل شيء ،
مكاناً في الفردوس

ٲريزو بوؑكو

كارون برسكو

صديق الشبابة

سيرة جديدة

نقلها إلى العربية الأب يوسف قوشاقي

ترجمة عربية حذف منها بعض الفقرات لكتاب عنوانه بالإيطالية:

DON BOSCO. Una biografia nuova. Elle Di Ci. Torino – Leumann. 1979.

(Traduction française de A. Garnier: DON BOSCO. Une biographie nouvelle.

. Les Editions du Cerf, paris, 1981).

الطبعة الأولى : ١٩٨٣

طبع بإذن الرؤساء

جميع الحقوق محفوظة لإدارة السالبيين الإقليمية في الشرق الأدنى.

مع الشكر لدار النشر (Elle Di Ci) وقد تنازلت مجاناً عن حقوقها في الترجمة والنشر.

صور من تريزيو كيزا (Teresio Chiesa) ودار المحفوظات السالسيّة.

مقدمة الترجمة العربية

يسرني كثيراً أن أقدم للقراء هذه السيرة "الحديثة" لدون بوسكو.

ان وجود السالسيين، أبناء دون بوسكو، في عدة أقطار عربية، ساهم مساهمة كبيرة في ابراز صورة شديدة التأثير لمنشئهم، خصوصاً من خلال مشروعاته المميّزة، الا وهي المدارس الصناعية والمصليات أي مراكز الشبان.

أما الآن، وقد أصبح بوسع أهل الأقطار العربية التعرف من كُتب إلى دون بوسكو، في مراحل حياته العجيبة كما رعاه الله فيها لخير الشعب، فقد تهيأ لهم أن يدركوا من غير عناء موهبته لأن يكون مربياً وهو يعمل عمل الكاهن كل حين في سبيل الله والكنيسة.

ان دون بوسكو محبب إلى القلوب، جذاب، عظيم في إنسانيته، ولكن نفسه في الوقت عينه تواقّة إلى الله، ترى في الحياة المسيحية والقداسة أمراً واحداً، ولم يتردد لحظة في عرضها على تلاميذه، ولا يزال دومنيك سافيو أبهى زهرة لطريقته التربوية في عرض القداسة على الشبان. إن المثال الأعلى الذي أخذ به دون بوسكو الكاهن المربي فعمل بلا كلل ليبعث النشاط في الشبان، لا يزال المثال الأعلى الذي يعمل في السالسيين، فهو، لهذا السبب، في متناول جميع الذين يؤمنون بان " الشبان هم مستقبل العالم"، وفي متناول الذين يحذون حذو دون بوسكو فينادون مثله: "إني أشعر بالارتياح عندما أكون معكم".

أتمنى لهذا الكتاب رواجاً حسناً لدى كل من الشبان والكهول، ولزام عليّ أن أعرب عن شكر السالسيين لجميع الذين يسرّوا صدورهم، وخصوصاً الأب قوشاقي من حلب الشهباء وهو أحد الذين أخرجوا الترجمة العربية الحديثة لأسفار العهد الجديد وقد استطاع في تعريب سيرة دون بوسكو هذه الحفاظ على ما في الأصل الايطالي من طابع شعبي ووصف حي للأحداث، مع أنه نقله من الترجمة الفرنسية (1).

(1) عرض الأب جان ماريا جاناتسا الترجمة العربية على الأصل الايطالي، استكمالاً للفائدة.

عسى القديس يوحنا بوسكو أن يتقبل هذا الكتاب قبولا حسناً، وقد أراد ناشروه أن يكون آية شكر لله على الدعوات السالسية التي ايقظها في نفوس الشبان من العرب، وآية تيمّن بان يشعر غيرهم بالشوق إلى الطريق الانجيلي الذي سلكه دون بوسكو، فيقتفوا آثاره في خدمة الشبان.

الأب فيكتور بوتسو

الرئيس الإقليمي للسالسيين في الشرق الأدنى

كيف ولماذا ألف هذا الكتاب

في أول العام ١٩٧٨ طلب ألي الأب يوحنا راينيري (Raineri)، وهو عضو في المجلس الأعلى للسالسيين، ومدير دار النشر Elle Di Ci أن أكتب سيرة لدون بوسكو تمتاز بأسلوب شعبي تطيب به نفس القارئ ويتصف مضمونه بالرزانة والرصانة. وانطلق صاحبها الطلب كلاهما من أمر يشغل البال وهو أن المؤلفات التي تناولت دون بوسكو في الأعوام الخمسة عشر الأخيرة قد تشعبت تشعباً مطرداً في تيارين:

- الكتب التي لم تأخذ بالحسبان الدروس العامة لزمانه والبحوث الخاصة بشخصه بل استمرت في رواية أجمل أحداث حياته " للأولاد وعامة الشعب"، أن هذه الكتب منتشرة كثيراً واليها يعود الفضل في تعميم معرفة الناس له، ولكنها تؤول في آخر الأمر إلى تحويل شخصه العملاق إلى " مسألة تهّم الأطفال" وإلى "موضوع أفلام كرتون".
- الكتب التي يدرس فيها مؤلفوها المظاهر الأساسية لدون بوسكو وعصره وقد نظروا إلى الأحداث والقصص والوقائع "نظرهم إلى أشياء ممحصّة معروفة" فعكفوا عليها لأمر واحد وهو "إزالة" بعض التفاصيل التي يتضح أنها نتيجة شهادات يُشكّك في صحتها أو من نسج الخيال. إن دون بوسكو، وهو موضوع "حكايات رائعة" تارة، و"بحوث النقد" تارة، يتعرّض للخطر وهو ان لا يعرفه الناس معرفة حسنة وأن يبدو في الوقت نفسه شخصاً تحيط به الأساطير الداعية إلى الشكّ.

إننا نحاول في كتابنا هذا أن نسلك طريقاً ثالثاً:

نروي فيه سيرة دون بوسكو، فلا نأتي إلا بما كان أكيداً، ونأخذ بالحسبان ما يعود إليه الفضل في المغامرة الرائعة الجريئة المثيرة لكاهن فالدوگو (Valdocco) القديس.

ولذلك فإننا نأخذ بالحسبان:

- **الشهادات التي خطها دون بوسكو نفسه** أي كثيراً من الصفحات التي كتبها بيده فحفظت في الوثائق السالسية (ولا سيما الكتاب الخط ذكريات مصلى مار فرنسيس دي سالس: وهي كناية

عن ١٨٠٠ صفحة دفتر كتبها دون بوسكو في ١٨٧٣ ولم تنشر إلا في ١٩٤٦ على يد الأب تشيريا (Ceria).

- المجموعة الضخمة لشهادات تلاميذه ومعاونيه، وقد أدلى بكثير منها أصحابها بعد ما أدوا اليمين، في أثناء التحقيقات من أجل إعلان دون بوسكو طوباوياً (وقد أدخل معظمها في

المجلدات التسعة عشر لذكريات السيرة، تلك المجلدات التي ألفها الآباء لموان Lemoyne وامادبي Amadei وتشيريا Ceria).

- الدراسات الرصينة التي أجريت في الأعوام العشرين الأخيرة (ستيلا Stella ودرامو

Desramaut وفيرث Wirth وفالننتيني Valentini ومولينيريس Molineris ...) وقد تناولوا

الشهادات التي تعتمد اعتماد متيناً على روايات أحداث سيرة دون بوسكو فأوضحوها وضبطوا صلتها بالبيئة، وتمّموها أحياناً من غير أن ينقضوها أو يقللوا من قيمتها.

- دراسات ذات شأن في تاريخ المجتمع والدولة والكنيسة خلال الأعوام ١٨٠٠.

لقد كان من حسن حظي أنني كتبت القسم الوسط من هذا الكتاب، وأنا بالقرب من

الابوين بيترو ستيلا (Pietro Stella) وواجينيو فالننتيني

(Eugenio Valentini). وكان من لطفهما انهما قرأا المسودات المنسوخة بالآلة الكاتبة، وصوّباها تبعاً لإنشائي لها، وقد تيسر لي أن أفحص معهما بعض الأمور الأساسية (كالفصل السادس

والعشرين) وتلقيت منهما اقتراحات ثمينة. وأعاد آخر الأمر الأب كارلو فيوري (Carlo Fiore)

قراءة النص بعد نسخه بالآلة الكاتبة، فأسدى لي النصح لأحكم التنسيق عند الفراغ من العمل.

اني اشكر من صميم قلبي إخواني من غير أن اتوخي البتة التوصل مما قد يكون في الكتاب من أشياء غير صحيحة أو آراء قابلة للجدل، لألقيها على عاتقهم.

وقد يُقدّر هذا الكتاب تقديرات مختلفة كل منها محقّ، ولكن يسعني أن أؤكد على الأقل أنه

كلّني عناء كبيراً وهماً كثيراً.

اتمنى ان يكون هذا الكتاب لقاء فيه فرح ومنتعة بين دون بوسكو وجميع القراء، وان يؤول

بكثير منهم، كما آل بي، إلى دعوة للعودة إلى الأرض المقدسة" أرض فالدوكو"، في الجو الذي

فيه عاش دون بوسكو والأب رو (Rua) والاب كالبيرو (Cagliero) ودومنيك سافيو (Savio)

ويوسف بوتسيّي (Buzzetti)، اذ كان ينمو بالبساطة والفقر، تحت نظر السيدة العذراء، كل ما

أتى به المشروع السالسي من عظيم الحدس والاتجاه والتحقيق.

مهاجر في سنّ الثانية عشرة

كانا في ذلك المساء يمضغان الخبز في المطبخ، وهما يتلقّطان بكلمات مرّة جارحة. نظر

أنطون إلى يوحنا وبجانب صحنه كتاب على عادته، فرفع الصوت قال:

- هذا الكتاب، سأقذف به في النار.

حاولت مرغريتا أمهما أن تُصلح الامر مرة أخرى فقالت:

- إن يوحنا يعمل كسائر الناس، فاذا أراد بعد ذلك أن يقرأ، فماذا يعنيك؟

- يعنيني أنه الي يعود الفضل في قيام هذا الكوخ، فظهري ينقضم وأنا أكّد، وأبى الإنفاق

على فتى صغير سيذهب ليعيش عيشاً رغيّداً، ويتركنا هنا نعيش على البولنتا (١).

ردّ يوحنا عليه ردّاً عنيفاً ولسانه لا يعجز عن الجواب، ولم يولد ليعرض خدّاً بعد آخر،

فضربه أنطون، فخاف يوسف وراقب ما يجري.

حاولت مرغريتا أن تتدخل، ولكن يوحنا تلقى الضربات التي جرت العادة أن تكون نصيبه

بل أسوأ منها. فهو في سنّ الثانية عشرة لا يسعه أن ينازل انطون وقد بلغ التاسعة عشرة.

بكى يوحنا في سريره لغضبه أكثر منه لألمه، وكانت أمة تبكي هي أيضاً، والراجع انها لم تنم

تلك الليلة.

وفي صباح الغد عزمت عزمها فقالت ليوحنا أشدّ كلمات حزن قالتها في حياتها:

-الأفضل أن تترك البيت. إن انطون لا يتحمّلك، فقد يؤذيك في يوم من الأيام.

- وإلى أين أذهب؟...

نفس يوحنا حزينة حتّى الموت، ونفس مرغريتا أيضاً. ذكرت له بضع مزارع في ناحية

موريونديو (Moriondo) ومونكوغو (Moncucco).

(١) لون من الطعام في ايطاليا يصنع من الدقيق وهو قوت الفقراء على الخصوص (شرح من المترجم).

-إن الناس هناك يعرفونني، وسوف يعطونك عملا ولو إلى حين، ثم نرى ما يكون بعد

ذلك.

دُهَبَ وَالتَّلج يتساقط عليه

أعدت له في أثناء النهار صرّة صغيرة فيها قمصانه وكتابه ورغيف صغير. كان ذلك في شباط

(فبراير) فالتلج والجليد يغطيان الطريق والتلال المجاورة.

ذهب يوحنا في صباح الغد، ولبثت ماما مرغريتا على عتبة الباب تنتظر اليه، وتلوح له حتى

حجب عنها التلج مهاجرها الصغير.

ذهب إلى المزارع التي دلتها أمه عليها، فقيل له إنه لا عمل لصبي صغير. لما كان الظهر فرغ

من أكل رغيفه الصغير، وذهب عنه كل أمل، ولم يبق له سوى أن يزور أسرة موليا (Moglia)

للعمل بما قالت له أمه: " تطلب السيد لويس "

وقف عند الباب الذي يؤدّي إلى فسحة الدار، فنظر اليه رجل كبير السنّ كان يغلق الباب.

- عن أي شيء تبحث يا ابني؟

- عن عمل.

- هذا حسن! تابع البحث! إلى اللقاء مرّة أخرى!

وواصل جذب المصراع الثقيل ليوصده. فجمع يوحنا آخر ما عنده من الشجاعة وقال:

- لا بدّ لي من أن أرى السيد لويس.

دخل فإذا أسرة موليا بجانب المدخل تقشر الخيزران لتربط جففات الكرم. نظر اليه لويس

موليا ، وهو مزارع شاب في سنّ الثامنة والعشرين، نظرة الدهش.

- إني أبحث عن السيد لويس.

- أنا هو.

- أرسلتني والدتي وأوصتني ان أجيء اليك لكي أعمل عمل أجير اسطبل.

- ولكن كيف يُلقى إلى خارج الدار صبي صغير مثلك؟ مَنْ أمك؟

- مرغريتا بوسكو. إن أخي انطون يُسيء معاملتي، فقالت لي : اذهب فابحث عن عمل

خادم.

- مسكين أيها الصبي الصغير. نحن في فصل الشتاء. إننا نتعاقد مع الخدم في آخر آذار

(مارس) فحسب. عليك بالصبر. عدّ الآن إلى بيتك.

فقد يوحنا عزيمته وشعر بالإعياء فسالت دموعه من اليأس.

- أسألك أن تحتفظ بي. لا تُعطني أُجرة، ولكن لا تصرفني إلى بيتي - . وواصل كلامه وبه
الجرأة التي تأتي المرء من بؤسه - هأنذا قاعد أرضاً ههنا ولن أتحرك فافعل ما تشاء، فلن أتحرك-.
واخذ وهو يبكي يلتقط سقطة الخيزران المبعثرة ويجمعها.
فأشفقت على الصبي السيدة دوروتيا (Dorotea) وهي امرأة رائعة الجمال في سنّ الخامسة
والعشرين فقالت :

- احتفظ به، يالويس. دعنا نجرّبه ولو بضعة أيام .

وأشفقت عليه أيضاً تريزيا وهي فتاة في الخامسة عشرة. قالت :

- إني في سنّ تمكّني من الذهاب إلى الحقول معكم، فيقوم هذا الصبي مقامي في
الإسطل .

وهكذا أخذ يوحنا بوسكو في شباط ١٨٢٧ يعمل عمل خادم إسطل. أسرة موليا أسرة من
الفلاحين الميسورين وان كانوا كلهم يتعبون من شروق الشمس إلى غيابها. إنهم يعملون في
الأرض وفي الكروم والحقول، وهم يُعنون بالثيران والبقر. إنهم يصلّون معاً، فتجتمع الأسرة في
المساء عند الموقد لتتلو السبحة، ويسير يوم الأحد السيد لويس بالأسرة كلّها إلى القداس الكبير
الذي يقيمه في مونكوغو خوري الرعية الأب كوتينو (Cottino).

إن العمل في إسطل لا عار فيه، ففي المزارع المجاورة يُرى في آخر شهر آذار (مارس)
عشرات من الخدم يعملون في الإسطبلات. انه الطريق المألوف الذي يسلكه كثير من صبيان
الأسر الفقيرة. فان أصحاب العمل يمرون يوم عيد بشارة العذراء مريم في القرى، ويذهبون إلى
الأسواق ليستأجروا الشبان لمّدة عام : هؤلاء عمال موسميون لا أجر لهم سوى معيشتهم. إنهم
يعملون عملاً شاقاً ثمانية أشهر (من نيسان - ابريل إلى تشرين الثاني - نوفمبر) وليس لهم سوى
طعامهم ومسكنهم وخمس عشرة ليرة إيطالية لثيابهم.

ولكن الصبي يوحنا بوسكو يختلف عن سواه. فهو صغير السنّ جداً (لن يكون في سن
الثانية عشرة إلا بعد ستة أشهر) فضلا عن أنه يحفظ في قلبه حلما: حلماً حقيقياً حلّمه ليلا وعيناه
مغمضتان، وقد رواه هو بنفسه.

حلم منزّم للمستقبل

"حلّمتُ وأنا في سنّ التاسعة حلماً ظلّ راسخاً في أعماق نفسي طوال حياتي. بدا لي في هذا
الحلم أنني بالقرب من دارنا، في ساحة كبيرة جداً تجمع فيها حشد من الصبيان يلعبون. وكان
بعضهم يضحك وكثير منهم يكفرون، فلما سمعت ذلك الكفر ألقيت بنفسي لوقتي بينهم،

مستمعلا قبضتي وصوتي لأسكتهم.

فظهر عند ذاك رجل وقور عليه ثياب فاخرة. كان وجهه نيّراً جداً حتى إنه لا يقوى المرء على

أن يحدّق اليه. فناداني باسمي وقال لي :

- ليس بالضرب بل بالوداعة والمحبة يجبُ عليك أن تجعل منهم قديسين. فكلمهم لوقتكَ
- على شناعة الخطيئة وقيمة الفضيلة.

فشعرت بالحياء والخوف، وأجبتُ أني طفل مسكين جاهل. فكفّ الصبيان عن ضرب

بعضهم بعضاً وعن الصياح وتجمعوا حول الذي كان يتكلم، فسألتُ كأني لا اعلم ما أقول :

- من انت حتى تأمر بأشياء مستحيلة؟
- ما دامت هذه الأشياء تبدو لك مستحيلة، فذلك يجب عليك أن تجعلها ممكنة بطاعتك

وحصولك على العلم.

- كيف يمكنني أن أحصل على العلم؟
- سأجعل لك معلّمة تقودك فيمكنك أن تصير عالماً.
- ولكن من أنت؟
- أنا ابن تلك المرأة التي علّمتك أمّك أن ترفع الدعاء إليها ثلاث مرات في اليوم. وأما

اسمي فاسأل أمّي عنه.

ورأيت لوقتي بجانبه سيدة جلييلة المنظر عليها رداء يسطع كالشمس، فدنت منّي وانا في

خجل شديد، وأشارت لي بأن أتقدم، وأخذت بيدي بلطف وقالت: أنظر!

فنظرت فرأيت أن الصبيان قد تواروا جميعاً ورأيت مكانهم حشداً من الجداء والكلاب

والهررة والدببة وكثيراً من سائر الحيوانات .

- هو ذا المكان الذي يجب عليك أن تعمل فيه. كُن متواضعاً قوياً، وما تراه يحدث

الآن لهؤلاء الحيوانات فتعمله إلى أبنائي .

فأدرتُ عيني فظهر مكانَ الوحوش عدد مماثل من الحملان الوداعة تقفز وتجري وتثغو حول

ذلك الرجل وتلك المرأة كأنها تريد أن تكرّمهما.

حينئذ أخذت، وأنا لا أزال أحلم، أبكي واسأل تلك السيدة ان ترضي شرح أمرها على

وجه أوضح لأنني لا أفهم معنى ذلك كله.

فوضعت يدها على رأسي وقالت :

- في الوقت الموافق تفهم كل شيء .

وما قالت ذلك حتى حدثت ضجة أيقظتني . لقد توارى كل شيء فكننت مبهوتاً وخيّل اليّ أن

يدي تؤلمني بسبب من اللكمات التي وزعتها، وأن وجهي يحترق من الألم بسبب من اللطمات التي تلقيتها من هؤلاء الصبيان .

رويتُ في الصباح الحلم لإخوتي أولاً فآخذوا يضحكون مني، ثم رويته لوالدتي وجدتي فكان كل منهم يأتي بتعبيره . قال يوسف : " سُنْصبح راعياً " . وارتأى انطون بخبث : " ستصبح رئيس عصابة لصوص " . وقالت والدتي : " من يدري؟ قد تصبح كاهناً " . وجزمت الجدة جزءاً قاطعاً فقالت: " يجب ترك الأحلام وشأنها " .

كنت أرى رأي الجدة، ومع ذلك لم أستطع قط أن أزيل كله من خاطري " .
أثر ذلك الحلم تأثيراً عميقاً في جميع الأعوام التي تبعت، وقد فهمت ماما مرغريتا (وفهم يوحنا أيضاً بسرعة) أن في ذلك الحلم وحياً للمستقبل.

مائة وثمانون صفحة من الذكريات

ما من أحد في سنّ الثامنة والخمسين يكاد أن يتذكر ما جرى له قبل خمس سنوات، ولكن يكاد جميع الناس يتذكرون ما جرى لهم في سنّ التاسعة أو الحادية عشرة أو الخامسة عشرة، كأنه جرى أول أمس، وما ينفك المرء يحسّ في ركبتيه بالقشرة الخشنة لتلك الأشجار التي كان يتسلقها . يخيل إلينا أننا لمسنا البارحة الشعر الدافئ، شعر الكلب الذي كان يثب بجانبنا في أثناء سباقاتنا الجنونية.

أطاع أمر البابا دون بوسكو فكتب، وهو في سنّ الثامنة والخمسين، تاريخ حياته في العشرات الأولى من عمره، فملاً ثلاثة دفاتر كبيرة (١٨٠ صفحة) بفضل ذاكرته، وكانت أشبه بآلة تصوير (قليلة المنطق لكن حادة البصر). أما التواريخ فقد اختلت قليلاً، وأما الأحداث والذكريات والتفصيلات فقد احتفظت برونق الحياة نفسها .

أوضح في السطر الحادي عشر: " إني اكتب لأبنائي السالسيين الأعزّاء، وأنهى عن نشر هذه الأشياء قبل موتي أو بعده على حدّ سواء " .

عصى السالسيون أمره بعد ثلاث وسبعين سنة، فجعلوا حدّاً لمسألة وجدانية طويلة عسيرة، وهكذا يسعنا اليوم أن نتابع من خلال " دفاتر الذكريات " تاريخ الصبيّ الفلاح يوحنا بوسكو حتى أصغر التفاصيل .

المأساة الصغيرة والمأساة الكبيرة

"كانت أمي تدعى مرغريتا أوغينا (Occhiena) واسم أبي فرنسيس، وكانا فلاحين يكسبان قوتهم كسباً شريعاً بالعمل والاقتصاد".

أبصر يوحنا النور في ١٦ آب (اغسطس) ١٨١٥، وكانت أمه تسميه جيوانين (Giuanin) وهو تصغير جوفائي (يوحنا) وكان شائعاً في جميع بلاد البيمونتة (Piemonte).

كانت وفاة والده أولى ذكرياته. كان فرنسيس بوسكو قد ابتاع داراً صغيرة وبعض الأراضي ولكن كان عليه أن يعمل أيضاً عند ملاك غني في جواره، لكي يعيل خمسة أشخاص يعيشون في بيته. عاد بعد ظهر يوم من أيار (مايو) ١٨١٧ والعرق يتصبب منه، ولم يحنط لأمره بل دخل وهو على تلك الحال إلى مغارة معلمه، وبعد يوضع ساعات نزلت به نوبة شديدة من الحمى، والراجح أنه أصيب بذات الجنب في رئتيه، فأودت بحياته بعد أربعة أيام وهو في سنّ الثالثة والثلاثين. روى دون بوسكو قال: "لم أبلغ بعدُ عامين من عمري حين توفي والدي ولا أذكر حتى ولا وجهه. لا أذكر سوى كلمات أمي: "ها إنك قد أصبحت بلا أب يا جيوانين". خرج جميع الناس من غرفة أبي، وأما أنا فقد أصررت على البقاء فيها، فألحت علي والدتي بلطف فقالت: "تعال يا جيوانين". أجبت: "إذا لم يأت أبي فلن آتي أنا أيضاً". "تعال يا بني، لم يبق لك أب". قالت تلك الكلمات ثم استرسلت في البكاء والنحيب. بكيتُ لأنها بكت. ماذا يسع طفلاً في تلك السنّ أن يفهم؟ ولكن هذه الجملة "أنك بلا أب" بقيت دائماً أبدأ في ذاكرتي. هذا أول حدث من حياتي أحفظ ذكراه".

فصل مشؤوم

وأما الذكرى الثانية عند يوحنا فهي ذكرى الجوع الذي أصابه في تلك السنة. كان يُقال للضيعة الصغيرة التي فيها دار اسرة بوسكو البغي (Becchi)، وهي كناية عن

عشر مزارع مبعثرة على تلة مستطيلة في وسط ريف واسع جداً كله تموج فيه كروم وأحراج. والبكي قسم من قسبة موريالدو (Morialdo) على بعد خمسة كيلو مترات من مركز القضاء وهو كاستلنوفو داستي (Castelnuovo d'Asti).

في السنة ١٨١٧ أصيبت تلال مونفراٲو (كاستلنوفو على الجانب الشمالي لناحية مونفراٲو) كما أصيب البيمونته كله بمحل شديد، فقد تبع جليد الربيع قحط لا نهاية له، فتلفت الزروع وأصاب الريف مجاعة حقيقية حتى إنهم كانوا يعثرون على الشحاذين، وهم موتى في الحفر، والعشب في فمهم.

وُصفت تورينو (Torino) عاصمة البيمونته في وثيقة تعود إلى ذلك الحين، فجاء فيها أنه غرّت العاصمة هجرة كالتى دُكرت في الكتاب المقدس: كانت أرتال من الناس الشّاحبي اللون وليس عليهم سوى الاسمال، تهجر الريف وكانت جماعات من الأسر تنحدر من الوديان والتلال نحو المدينة، وتنزل تجاه الكنائس والقصور لتطلب الصدقة.

وفي تلك السنة الشديدة وجدت مرغريتا نفسها وعلى عاتقها عبء الأسرة كلها. كان يعيش في البيت حماتها (أم فرنسيس العجوز) وهي مسمرة إلى كرسيها، معقدة، وانطون (وعمره تسع سنوات) وهو ابن فرنسيس من زواج سابق، وطفلاهما يوسف ويوحنا (أربع سنوات وستنان). كانت فلاحه أمية فاظهرت في ذلك الوقت صفتها الأولى: صلابه عزيمتها.

روى دون بوسكو قال: "قدّمت أمي الطعام للأسرة ما دام عندها شيء منه ثم سلّمت قدراً من المال إلى جار اسمه برناردو كافالو (Cavallo) لكي يذهب فيأتي بما يؤكل، فمضى إلى مختلف الأسواق ولكنه لم يستطع أن يشتري شيئاً، حتى بأعلى الأثمان. فعاد في المساء بعد يومين وكانوا ينتظرونه بفروغ الصبر، فلما أعاد المال قائلاً إنه لم يحصل على شيء استولى الرعب علينا ولم ندق شيئاً في ذلك اليوم.

فقالت والدتي من غير أن تفقد رباطة جأشها: "أوصاني فرنسيس عند موته بالاتكال على الله. هلمّ نجث على ركبتينا ونصل". وبعد صلاة قصيرة نهضت وأضافت: "للأحوال العسيرة الوسائل الناجعة". فذهبت إلى الإسطبل واستعانت ببرناردو كافالو وذبحت عجلاً، وطبخت شيئاً منه، وأعطتنا ما نأكل، وكنا في آخر رمق. وفي الأيام بعدئذ حصّلت على القمح من مكان بعيد ودفعت ثمناً باهظاً".

كان ذبح عجل حتى هذه العشرات الأخيرة من السنين يُعدّ في أسر فلاحى البيمونته عمل يأس. فان العجل هذا الذي يسمّونه فى الإسطبل، كان رأس مال يمكّن صاحبه، اذا باعه فى السوق، من حلّ معضلة عسيرة كقولك الاصابة بالمرض، فدّبحه يحرم الأسرة آخر ذخرها.

حَدَثٌ غَيْرٌ وَجْهَ الْعَالَمِ

كان الموت والجوع وقلة الأمن أول ذكريات ولد سيكون أباً لجماهير من الايتام، سيعطي الخبز عدداً لا يحصى من الشبان الفقراء.

كانت مأساة أسرة بوسكو على تَلِّ منعزل تُضاف إلى المأساة الكبيرة التي كانت مثل عاصفة قلبت أوروبا وإيطاليا رأساً على عقب في العقود الأخيرة من السنين.

فقد اندلعت في باريس قبل عشرين سنة الثورة الفرنسية التي غيّرت بعد حين وجه العالم.

ليس في نيتنا أن نكتب تاريخها، ولكن يبدو لنا أن ندون بعض مظاهرها وقد كلن لها أثر عميق في حياة يوحنا بوسكو نفسه.

أصبح الجوّ في أوروبا كلها بغتة مُثَقلاً بالتجديد والآمال، وقد دوّى في إيطاليا أيضاً صدى تبديل عظيم. انفجرت فرنسا بعد قرون كان المجتمع فيها مُتَحَجِّراً يعيش في حكم الملك والنبلاء المطلق، فطالب أهل الطبقة البورجوازية والشعب بالاعتراف بحقوقهم، وبإلغاء امتيازات النبلاء وكبار رجال الكليروس. لم تبقَ كلمتا "الحرية" و"المساواة" مما يُهمس به همساً بل أخذ الناس ينادون بهما في وضح النهار.

وقد أعلنت حُقوق الإنسان وسيادة الشعب: "يولد الناس أحراراً متساوين في الحقوق، وهذه الحقوق هي الحرية والتملك، والأمن ومقاومة الظلم، ومصدر كل سيادة الأمة" (مقدمة دستور ١٧٩١). حاربت الجيوش الفرنسية سائر الأمم الأوروبية لكي تؤكد هذه الحقوق (لا من أجل ما يدّعيه ملكٌ من أجل دُرَيْتِهِ).

وجرى ما يجري في جميع أزمنة التبديل الجذري، فقد اختلطت قرارات مُحِقة على وجه تام بأعمال عنف صدرت عن الفتنة والأهواء. وعَمَل كبار أهل الطبقة البورجوازية الذين قادوا الثورة، على أن يكون حقُّ الاقتراع مقصوراً على أصحاب الأملاك وحدهم فقد اعلنوا: "إنّ تدخل الشعب الذي لا عِلْمَ له ولا يملك نفسه في قرارات الحكومة يؤول بسهولة إلى التطرف". وهكذا أَلغَت الثورة جميع الامتيازات ما عدا امتيازات الثروة: نال أهل الطبقة البورجوازية الحرية، وظل الفقراء فقراء.

ويضُاف إلى ذلك أن الثورة المحاذية التي كانت الطبقات الشعبية والفلاحية تقوم بها في الوقت نفسه بَدَت وكأنها تُؤيِّد مزاعم الطبقة البورجوازية.

كان الفلاحون الفرنسيون يهجمون على القصور ويحرقونها. ثم إنهم كانوا في تلك السنين التي سادت فيها مجاعة شديدة، يمنعون بوسائل العنف حرية نقل الغلات، ويشنون معارك حقيقية على جماعة البؤساء الجياع الذين كانوا تائهين في حالة يأس وهم يطلبون القوت.

كان شعب باريس يشتعل حماسة كلها عنف وهوى، فحاصر الملك لويس السادس عشر أناساً اضطروه إلى وضع قبعة الثوريين على رأسه وعلى شرب نخب الأمة لخلاصها، وسبق بعد عشرين يوماً إلى السجن هو وأسرته.

واستولت الثورة المحاذية على الحكم في ما بين شهر آب (اغسطس) ١٧٩٢ وتموز (يوليو) ١٧٩٤، وحلّ مكان أهل الطبقة البورجوازية على رأس الأمة ممثلو الشعب الذين حاولوا تحويل ثورة الحرية إلى ثورة المساواة. وكانت بعض النتائج كارثة، ويا للأسف.

ففي أيلول (سبتمبر) ١٧٩٢ هجمت جماعات من الشعب مسلحة على السجن الغاصّة بالنبلأء، وبأناس زُعم أنهم متآمرون، وقتلت أكثر من ألف شخص وفي كانون الثاني (يناير) ١٧٩٣ أعلن أنّ الملك مذنب وقطع رأسه بالمقصلة.

وفي السنة عينها السنة ١٧٩٣ بدأ عهد الإرهاب، فأُتهم بجريمة الخيانة جميع الأشخاص الذين ظنوا أعداء الثورة، وفي تشرين الأول حُكم على ١٧٠ شخصاً بالمقصلة وفي تموز (يوليو) للسنة التي بعدها حُكم على ١٢٨٥ شخصاً بالمقصلة أيضاً. أُبيد أعداء الثورة على وجه السرعة، من غير أن يراعى ولو ظاهر الإجراءات القضائية.

وكانوا في الوقت نفسه يقومون بإزالة المسيحية عن الوجود على وجه كبير، فحُظرت العبادة المسيحية، وأغلقت الكنائس، وحُطمت الصّور المسيحية، واضطُهد الكهنة، وأقيمت عبادة العقل مكان عبادة الله، وقد رافقت ذلك حفلاتٌ للسخرية حتى في كاتدرائية السيدة العذراء في باريس. وكانت أوروبا تنتظر على تلك الأمور وهي مذهولة. كانت تبدو أحداث باريس في تلك الأشهر، مظاهر من الجنون الجماعي، فشعر بالحيرة حتى أشدّ الناس التزاماً، أولئك الذين عطفوا على الثورة منذ بدء أمرها.

ولمّا تكلم الناس في السنين اللاحقة على الثورة بلهجة الخوف، فقد كان يخطر ببالهم عهدُ الإرهاب في باريس. ولما استعملوا عبارة الازدراء الثورة الديمقراطية عنّوا بها هيجان الرعاع بالعنف والفوضى.

قائد في سن السابعة والعشرين: نابليون

في شهر حزيران (يونيو) للسنة ١٧٩٤ انتهى الإرهاب والديكتاتورية الشعبية بالحكم بالموت على قادتهم أنفسهم، وهم المتعصبون من اليعقوبيين: روبسبير (Robespierre) وسان جوست (Saint Just) وكوتون (Couthon).

وأصبحت الثورة بتحول عنيف لصالح أهل الطبقة البورجوازية، فقد أقرّ الدستور الجديد (الذي نال الموافقة عليه السنة ١٧٩٥) حقّ الاقتراع لثلاثين ألف شخص فحسب (وكان في باريس ستمائة ألف ساكن). وسلّمت مقاليد البلاد إلى الطبقة الصغيرة التي تولّف الملاكين الكبار وحدهم . وشهد الناس رجوعاً إلى الوراء سريعاً فقد تحوّل النظام الجمهوري إلى امبراطورية بكلّ بساطة.

في سنة ١٧٩٦ وصل إلى إيطاليا جيش للثورة على رأسه قائد في السابعة والعشرين من عمره هو نابليون بونابرت. وقد انتصر في وادي نهر البو (Po) على النمساويين في أثناء معارك دامية، وتكلم الجنود الفرنسيون على الإخاء والمساواة والحرية، فأثارت هذه الكلمات، على ما صحب عهد الإرهاب من ظلمات، حماسة عظيمة في الأجيال الناشئة، فألغيت مملكة سردينيا (بيمونته وسافويا وسردينيا Piemonte – Savoia- Sardegna) وذهب الملك إلى المنفى. ولكن نابليون كان عبقرياً جامحاً ينشد الفوزَ بالمجد العسكري الزاهي وما يصحبه من الموت، أكثر منه سيطرة الثورة.

في السنة ١٧٩٩ كان نابليون في مصر. فغزا النمساويون والروس شمال إيطاليا مرّة أخرى: دخل القرى ثانية القوزاق بلحاهم الطويلة الكثّة، وهم راكبون خيل السّهب فعاد نابليون، وعادت الحرب تزرع البؤس حتى في الحقول الخصبة في سهل نهر البو. واغتصب نابليون المال، وعبأ الجنود من جميع نواحي إيطاليا، فاستخدمهم في حرب العصابات في إسبانيا، وفي حملته على روسيا، ذلك البلد البعيد الغامض الذي غزاه وهو على رأس أكبر جيش في التاريخ كله.

ووقعت الهزيمة التامة في الشتاء موسكو الشديد البرد، وحلّت الكارثة بجيشة في أثناء تقهقره، فرأى نابليون حوله ٦٠٠ ألف رجل يموتون وكان بينهم ٢٠ ألف ايطالي، قُتل قبلهم ٢٠ ألف في إسبانيا.

ووقعت من ١٦ إلى ١٩ تشرين الأول (اكتوبر) ١٨١٣ في سهل ليبسيا (Lipsia) المعركة العظيمة، معركة الأمم، فكانت نهاية الامبراطورية الفرنسية الكبيرة، وكانت أيضاً في نظر كثير من الناس دفناً للمثل العليا التي نادى بها الثورة.

وانحدر مرة أخرى النمساويون والألمان والكرواتيون من جبال الألب واجتازوا الايسونزو (Isonzo) نحو حوض نهر البو (Po). أعلنوا جميعاً أنهم جاؤوا ليحرروا إيطاليا، ولكنهم كانوا كجميع المحرّرين، لم يدعهم أحد إلى ذلك. وقد نالوا تعويضهم بنهب الأرياف والمدن. ووثب نابليون وثبة اخيرة في الأيام المائة وفي معركة واترلو (Waterloo) ثم تُوفي في جزيرة صغيرة في

المحيط الاطلسي.

تعبت إيطاليا وأوروبا، وقد عمّهما الخراب وكثر فيهما الأيتام. ذلك بأنّ الحرب عاثت فساداً في الأرياف وقلّ سگانها، على أثر التعبّات التي صادرت الشبان عنوة، لترسلهم إلى الموت في ساحات معارك بعيدة.

إنّ الشعب الذي صاح "الحرية!" خلال سنين كثيرة ينشد الآن السلام وحده.

في جوّ هذه المأساة الكبيرة، مأساة الشعوب، عاشت أسرة بوسكو في السنة ١٨١٧ مأساتها، وكانت محدودة ولكنها شديدة الوطأة عليها.

آخر الملك الساعة خمس عشرة سنة

علم حنا بوسكو بعدئذ من كتب التاريخ أنه ولد في فاتحة عهد جديد، قيل له " عودة النظام الملكي". ابتداءً ذلك العهد في اليوم الأول من تشرين الثاني (نوفمبر) السنة ١٨١٤ بافتتاح مؤتمر في مدينة فينّا، مؤتمر الأمم المنتصرة في مكافحة نابليون. دامت الحقبة في معظم أنحاء إيطاليا حتى ١٨٤٧ أي حتى بدء نهضة إيطاليا السياسيّة التي يقال لها ريزورجيمنتو (Risorgimento). إنّ عودة النظام الملكيّ عهدٌ فيه كثير من الالتباس، فقد عاد الملوك الذين خلعتهم الثورة ونابليون، وفقاً لمشئنة المؤتمر، وجلسوا على عروشهم، وادّعوا أنهم مسحوا ببضعة أسطر من أقلامهم خمساً وعشرين سنة من التاريخ.

فُسمت إيطاليا في العيد الذي أقيم في فينّا ثمانية أقسام كما تقسم الكعكة: مملكة سردينيا (وتشمل البيمونته وساردينيا وسافويا Savoia ونيس Nice ووهبت لها جمهورية جينوى منحة) والمملكة اللومباردو – فينيتو (وهي خاضعة خضوعاً وثيقاً للنمسا) وولاية مودينا وولايتا برما وبياتشينزا (Piacenza) والولاية الكبيرة توسكانا (Toscana) وإمارة لوقا (Lucca) والدول الباباوية ومملكة الصقليتين.

عاد فينّوريو عمانونيل الأول إلى تورينو في مركبة فخمة، يُحدق به النبلاء وهم يرتدون زي النظام القديم وعلى رؤوسهم الشعر المستعار المذنب المرشوش بالمسحوق. وحيّا الجمعُ الملكَ في الشوارع، فالشعب في الريف يريد أمراً واحداً يفوق كل شيء، وهو السلام. ولكن أصحاب الشعر المستعار المرشوش بالمسحوق يريدون أن يضمنوا السلام بإعادة الأمور إلى ما كانت عليه من قبل. إنهم يتجاهلون الأحداث الجديدة الإيجابية التي نبتت ورسخت في إيطاليا ولو من خلال حملات نابليون الدامية.

سار التاريخ في طريقه، وما من شيء يستطيع أن يُعيده إلى الوراء، فالطبقة البورجوازية في

المدن قد أثبتت نفسها طبقة اجتماعية جديدة، والبضائع والناس تسير على شبكة الطرق المتينة التي أنشأها مهندسو نابليون.

إنَّ السَّوادَ الأعظم من الشعب، طوالَ مئات السنين، وُلد وعاش ومات في حكم السلطة نفسها، في القرية نفسها، وقد تحجّر في اكتفائه الذاتية وعاداته المتوارثة عبرَ القرون. حطمت جيوش نابليون ذلك الجمود. لقد أصبحت الهجرة الداخلية ظاهرة جماهيرية وان كانت أسبابها مُفجعة.

والكتب والجرائد تُنقل في العجلات. أجل ، إن الذين يعرفون القراءة قلّة، ولكن الرغبة في المعرفة تشمل جميع الناس والذين يعرفون القراءة، وإن كانوا قليلاً، يذيعون الأخبار : إن الآفاق تتسع. في مؤتمر لوبيانا (Lubiana) في السنة ١٨٢١ حدّر فرنسوا الرابع ملك مودينا هذا التحذير: " إنَّ حرية الصحافة، وتكاثر المدارس، وتمكين جميع الناس من تعلّم القراءة والكتابة، هذه هي البذور الخبيثة التي تُنبت منها الثورات".

نَمَت الزراعة في بلاد البيمونته بعد قليل نمواً جديداً سريعاً وازدهرت. قُطعت الغابات في السهول والتلال، وأصبحت بقاع واسعة صالحة للفلاحة، وغرست آلاف من أشجار التوت، فمكّنت من التوسع السريع في تربية دود القز. وقامت فجأة في كل جهة المصانع والمعامل والآلات لرفع الاثقال الضخمة ونُظمت الصناعة وتُبنت الأسعار.

ألغى فيثوريو عمانوئيل الأول، في اليوم الثاني لعودته، القوانين التي سنّت في الخمس عشرة السنة الأخيرة وأعاد القوانين التي كانت قبل نابليون، واسترجع النبلاء ورؤساء الاكليروس امتيازاتهم، وهكذا فقدت الطبقة البورجوازية دفعة واحدة كثيراً من الحقوق التي كانت حصلت عليها بشقّ النفس.

أياً كانت النتيجة؟ فبينما يؤخر الملك ساعته خمس عشرة سنة، هاجر ميلانو أصحاب الفكر من الطبقة البورجوازية، أمثال سيلفيو بليكو (Silvio Pellico). إن الشبان من الأسر الكبيرة يقاومون في صفوف المعارضة، ويدخلون الجمعيات السرية، ويجعلون آمالهم في أمير حديث السنّ من أسرة سافويا – كارينيانو (Savoia – Carignano)، كارلو البرتو الذي يبدو متنبّهاً للأزمة الجديدة.

وصلت أصداء هذه الأحداث ضعيفةً جداً إلى تلال مونفراتو حيث يقضي يوحنا بوسكو أعوام طفولته في الفقر والسلام.

الأعوام التي قضاها في البيت الوالدي

كانت مرغريتا في التاسعة والعشرين من عمرها لما تُوفِّي زوجها، فكان يَعَسر عليها النهوضُ بالعبء الملقى على عاتقها، ولكنها لم تُضع بضعة أيام في البكاء على نفسها، بل شمّرت عن ساعديها، وأخذت في العمل.

كان عليها أن تقوم بتدبير المنزل، فتغسل الصحون، وتُصلح الطعام، وتستقي الماء، وترتب الغرف. كانت تفعل ذلك في ساعات الفراغ، لأنها كانت تصرف ساعات العمل في رعاية المزروعات والاهتمام بالاسطبل.

كانت، مثل سائر الفلاحات القويّات البنية في الأماكن المجاورة، تقطع الأعشاب، وتحث وتبذر وتحصد السنبل وتربط الضمام، وتنقلها إلى البيدر وتدرسها. وكانت تقلب الأرض في الكروم، وتُعنى بقطف العنب وصنع الخمر.

قد خشنت يداها من العمل الشاق، ومع ذلك كانت تحسن مداعبة أولادها مداعبة ناعمة. كانت تعمل في الأرض، ولكنها كانت قبل كل شيء أمّاً لصغارها.

كانت في تربيتهما لهم تجمع بين اللين والحزم. كتب علماء النفس بعد مائة سنة ان الطفل يحتاج، لكي ينمو نمواً سليماً، إلى حُبّ الأب وما فيه من الشدة، وإلى حُبّ الأم الوادع الفرح، وقالوا أيضاً إن اليتمة تُعرّض الطفل لخطر الميل العاطفيّ إلى جهة واحدة: إلى اللين من غير شدة لأولاد الأم، أو إلى الجفاء القَلق لأولاد الأب.

وجدت ماما مرغريتا في نفسها بالفطرة التوازن الذي جعلها تجمع بين الحزم الهادئ والفرح الذي يبعث الطمأنينة، فاستعملت الواحد بعد الآخر في وقته. إن دون بوسكو مدين كثيراً لأمه في أسلوبه التربويّ.

شخص عظيم

كتب الأب أوفري (Auffray): " جعلت مرغريتا أوّكينا الاحساسَ الديني بالحياة قاعدةً

وسنداً لطريقتها التربوية الفطرية".

كانت العبارة الله يراك من العبارات التي تُكثر من ترديدها على وجه خاص. كانت تترك الأولاد يلعبون في المرح المجاور وتقول لهم، وهم ذاهبون إليها: " اذكروا أن الله يراكم". وإذا رأتهم أحياناً، وقد استولى عليهم شيء من الحقد، أو همّوا باستنباط كذبة، لكي ينفذوا أنفسهم من الحيرة، قالت: " تذكروا أن الله يعلم أفكاركم أيضاً". ولكنها لم تكن تطبع في قلب صغارها صورة إله قاس. إذا كانت الليلة جميلة المنظر، والسماء مرصعة بالنجوم، في أثناء استنشاقهم النسيم الناعم أمام باب الدار، قالت لهم: " هو الله الذي خلق العالم، وجعل في أعلى السماء هذا العدد الكبير من النجوم". وإذا أزهرت المروج، قالت متممة: " كم من الأشياء الجميلة صنع الله في سبيلنا". كانت تقول بعد الحصاد أو قطف العنب، لما كانوا يتنفسون الصعداء، بعد عناء جني الثمار: " لنشكر الرب. لقد كان كريماً معنا، فرزقنا خبز يومنا".

وكانت الأم تدعوهم إلى التفكير حتى بعد الزوبعة أو الأمطار الشديدة التي أتلفت كل شيء: " الله أعطى، الله أخذ. إنه يعرف لماذا كان ذلك. إذا كنا اشراراً لنتذكر ان الله لا يسخر منه".

أخذ يوحنا يعتاد ان يرى بجانب أمّه واخواته والجيران، شخصاً آخر، هو الله وهو شخص عظيم لا يُرى، ولكنه حاضر في كل زمان ومكان، في السماء، وفي الحقول، وعلى وجه الفقراء، وفي صوت الضمير الذي يقول: " لقد أحسنت العمل أو أسأت العمل". إنه شخص تثق به أمّه ثقة لا حدّ لها ومن غير جدل. إنه أب حنون يرزف خبز كل يوم، ويسمح أحياناً ببعض الأشياء التي يعسر نفّهمها (موت الأب، البرد على الكرم) ولكنه "هو" يعرف سببها وذلك كافٍ.

عاد من اللعب ودمه يسيل

كان يوحنا في الرابعة أو الخامسة من عمره لما سلّمت إليه أمه ثلاثة أو أربعة أعواد من القنب لكي يعالجها. إنه عمل صغير جداً ولكنه عمل، وهكذا أخذ يساهم من عنده في معيشة الأسرة التي تقف من عمل جميع أعضائها.

وقد انضم بعدئذ إلى اخوته ليقوم بخدمات البيت، فذهب إلى قطع الحطب، وأوقد النار فنفخ بحدق الجمر الكامن تحت الرماد (لكي يدّخر الأعواد التي غُمست أطرافها في الكبريت) واستقى الماء وقشر البقول، وكنس الغرف، ونظف الاسطبل وذهب بالبقر إلى المرعى، وراقب الخبز وهو يُخبز في الفرن.

وعندما بفرغ من أعماله هذه الصغيرة، التي تراقبها أمّه، يُسرع إلى اللعب في خارج الدار. ولا حاجة به إلى البحث عن فسحة لذلك، فالمرج يمتد إلى المدى البعيد، والأصحاب ينتظرون. هم صبيان أقوياء البنية، كلهم رشاقة، وجوههم خشن خالية من الجمال. إنهم ذاهبون للبحث عن أوكار الخُلد واعشاش العصافير، ويتجابهون في لعب مباريات لا نهاية لها. ومن تلك الألعاب، اللعب "بالليبا" (la lippa) وهو نوع من البيزبول البدائي: يضربون قطعة من الخشب وُضع نصفها الأعلى فوق ثغرة، لكي تقفز، وبينما هي في الهواء، يضربونها مرة ثانية لكي يُرسلوها إلى أبعد ما أمكن. عاد يوحنا ذات يوم بعد الظهر إلى البيت قبل الوقت المعهود، والدم يسيل على وجهه. فقد أصابت خدّه خشبة "الليبا" بمنتهى العنف، فشعرت مرغريتا بالقلق وقالت وهي تداويه:

- ستعودُ إلي في يوم من الأيام وعينٌ من عينيك مقلوعة. لماذا تذهب مع هؤلاء الصبيان؟ وأنت تعلم أنهم كلهم لا خير فيهم.

- إذا كنتِ تريدين أن افعل ما يَسُرُّك فلن أعود إليهم، ولكن ثقي، يا أمّاه، أن سلوكهم يَنحَسِّن عندما أكون معهم، فهناك ألفاظ يكفون عن التفوّه بها.

فتركته مرغريتا ما أراد. ونَمَت الشجاعة عنده أكثر ممّا نَمَت القامة.

يوحنا في سنّ الخامسة، ويوسف في سنّ السابعة. أرسلتهما مرغريتا لكي يرعيا قطيعاً صغيراً من الديوك الهندية. وبينما تطارد هذه الحيوانات الجدد (١) كان الأخوان يلعبان. واذ بيوسف يُعدّ على أصابعه، ثم يصيح أن هناك ديكاً مفقوداً، فأخذا يبحثان عنه وهما قلقان، فلم يَجدا شيئاً، ولكن الديك الهندي حيوان كبير الحجم ولا يمكن أن يَخفى أمره. وبينما يطوف يوحنا بسياج، اكتشف رجلاً فخطر بباله لوقته: هذا هو الذي سرقه. فدعا يوسف ودنا بحزم من الرجل وقال له:

- رُدِّ علينا الديك.

فنظر الغريب اليهما مستغرباً:

- الديك؟ أين هو؟

- أنتَ سرقته. رُدّه علينا وإلا صحنا: "إلى السارق!" فيقبض الناس عليك ويضربونك

بالعصي.

(١) دويبة أشبه بجرادة صغيرة (حاشية من المترجم).

إلهما صبيّان وبوسعه أن يطردهما بأربع لطمات على افخادهما، ولكن حزم هذين الصبيين
يزعجه. فاذا كان هناك فلاحون يعملون على مقربة من المكان، وأخذ الطفلان في الصراخ،
حدث ما قد لا تُحمد عقباه، فذهب إلى السياج واجتذب كيساً وأخرج منه الديك وقال:

- أردتُ أن أمازحكما.

فرد عليه الطفلان وهما يبتعدان:

- ليس هذا المزاح حسناً.

وعند المساء أطلعا أمهما كعادتهما على ما جرى لهما فقالت:

- إنكما عرّضتما أنفسكما لخطر جسيم.

- ولماذا؟

- أول الأمر لأنكما لم تكونا على يقين من أنه هو السارق.

- ولكن لم يكن في المكان شخص سواه.

- ذلك لا يكفي لكي تسمّيا أحداً من الناس سارقاً. ثم أنكما صغيران في حين أنه رجل.

فماذا لو أصابكما باذى؟

- إذا أكان يجب علينا أن نتركه يسرق الديك الهندي؟

- يحسن بالمرء ان يكون شجاعاً ولكن لأن تفقدا ديكاً خير من ان ينالكما احد بسوء.

تمتم يوحنا وهو يفكر:

- احم. إنك على صواب يا أماه ولكن الديك كان كبير الحجم حقاً...

العصا في زاوية المطبخ

ماما مرغريتا امرأة لطيفة جداً ولكنها حازمة شديدة، ويعلم الأولاد أنها، إذا قالت: لا،

فان الأعمال الصبيانية لن تبدل رأيها.

في زاوية من المطبخ عصا من الخيزران مرّنة. إنها لا تستعملها ولكنها لا تُزيلها

أبداً من زاويتها.

ذات يوم ارتكب يوحنا خطأ كبيراً. لا شك في أنه كان يريد الذهاب إلى اللعب على

عجل، فترك باب البيت الأرنب مفتوحاً فهربت كئها إلى المروج. وكانت مطاردتها عملاً شاقاً.

فلما عاد إلى المطبخ أشارت مرغريتا إلى الزاوية وقالت:

- يا يوحنا، اذهب فأتِ بالعصا.

فتنحّى يوحنا نحو الباب وقال:

- ماذا تريدون أن تفعلوا بها؟
- إنتني بها، تَر.

كانت لهجتها حازمة. فأخذ يوحنا العصا ومدّها عن بعد:

- أتريدون ان تضربيني بها على كتفي؟
- ولم لا أفعل، إذا كنتَ ترتكب مثل هذه الحماقات؟
- يا أماه، لن أعود إلى مثل ذلك.

فابتسمت الأم وابتسم هو أيضاً.

ذات يوم اشتدّت فيه حرارة الشمس، عاد يوحنا ويوسف من الكرم وهما يكادان ان يموتا من العطش، فذهبت مرغريتا إلى البئر، واستنقت دلوّاً من الماء البارد، وسقت يوسف أولاً بمغرفة من النحاس الأصفر.

فتجهّم وجه يوحنا، وقد ساءه ان أمه فضّلت أخاه عليه، فلما قدّمت له الماء لتسقيه هو أيضاً، اشار أنه لا يُريده. فلم تُقل مرغريتا شيئاً بل ذهبت بالدلو إلى المطبخ، وأغلقت الباب، فدخل يوحنا بعد لحظة وقال:

- يا أميمة.
- ما الخبر؟
- ألا تسقيني أنا أيضاً؟
- ظننتك غير عطشان.
- عفواً يا أميمة.
- حسّبك هذا.

وقدّمت له أيضاً مغرفة طافحة.

يوحنا في سن الثامنة يتمتع بصحة جيدة، وضحكه صافي النبرة. قامته تميل إلى القصر بنيته متينة، وعينه سوداوان، وشعره مجعد كثّ مثل صوف الخروف. إنه يُحبّ المغامرة والخطر فلا يشتكي أبداً عندما يسلخ جلد ركبتيه.

لقد أخذ يتسلق الأشجار وهو يبحث عن أعشاش العصافير. وقد عاد عليه الأمر بالأذى ذات يوم. فقد كان عش للقرقف في قعر فجوة عميقة من جذع شجرة، فأدخل ذراعه في الثغرة إلى ما بعد المرفق، ثم تعدّر عليه إخراجها. حاول عدة مرات ولكن الذراع في ما يشبه الملزمة أخذت تتورم. كان يوسف ينظر إليه وهو عند جذع الشجرة، فأسرع إلى البيت فجاءت مرغريتا

ومعها سلم فلم تستطع إنقاذه. فلا بُدَّ من استدعاء جار لهم فحضر ومعه مقصٌ للخشب. وكان العرق في اثناء ذلك يتصبب من جبهة يوحنا. وكان يوسف أشدَّ خوفاً من أخيه فصاح به من الأسفل: "سكن روعك. ها إنهم قادمون".

لفَّ الجار ذراع الطفل بإزار مرغريتا واخذ يحزّ الشجرة فكانت سبع ضربات من الازميل أو ثمانٍ كافية لاجراج الذراع.

ولم تجرؤ مرغريتا على لوم ابنها، فقد كان مذلولاً كالكلب بلله المطر. فقالت له هذه الكلمات فقط:

- لا تأتني بمثل ذلك مرّة أخرى.

الشیطان في السقف

كان يوحنا مع أمه ذات يوم من الخريف عند جدّيه في كابريليو (Caprioglio). وعند طعام المساء كانت الأسرة باعضائها الكثيرين حول المائدة في العتمة ولا ضوء سوى ضوء قنديل الزيت. وإذا بهم يسمعون صوتاً غريباً فوق رؤوسهم، فنكّر مرّة ومرّتين وثلاث مرات. فنظر جميع الحضور إلى فوق، وهم يحبسون أنفاسهم. عاد السكوت، ثم عاد الصوت العجيب تحت السقف، وتبعه انزلاق طويل مخنوق، فرسمت النساء إشارة الصليب، والتصق الأولاد بأمهاتهم.

فأخذت امرأة عجوز تروي بكلمات تتصف بالحذر كيف كانوا يسمعون في الماضي تحت السقف، أصواتاً تمتدّ، وانيناً وصيحات مرعبة. قالت وهي تُنتم وترسوم إشارة الصليب:

"كان صاحب الصوت الشيطان، وها هوذا قد عاد".

وساد السكوت حتى تكلم يوحنا فقال بلهجة هادئة:

- أظنه سموراً⁽¹⁾ لا الشيطان.

فقالوا له كما يقال للوقح: عليه بالسكوت. وعاد الصوت كأنه مخنوق، وتبعه حفيف أشبه بالاستغاثة، واتجهت الأفكار وقد ارتسم فيها القلق، إلى خشب السقف وفوقه مستودع للحبوب.

فتكلم يوحنا الصغير ثم قفز من كرسيه وقال:

(1) حيوان يشبه ابن عرس، لونه أحمر مائل إلى السواد يأكل العصافير والدجاج (شرح من المترجم)

- هيا بنا ننظر.

فقالوا: أنت مجنون! مر غريتا، أوقفه! ما من أحد يمازح الشيطان!
ولكن الصبي تهيأ للعمل فأخذ مصباحاً وأوقده وأمسك بعصا، فقالت له مر غريتا:

- أليس الأفضل أن تنتظر حتى غد؟
- يا أميمة، ألسنت خائفة بعض الخوف أنت أيضاً؟
- كلا. هيا بنا ننظر معاً.

فصعد السلم من الخشب، وجاء سائر الحاضرين يحملون القناديل، وهم يقبضون على العصي، فدفع يوحنا باب المستودع، ورفع المصباح لكي يرى رؤية واضحة، فصرخت امرأة صرخة مخنوقة:

- هنا في الزاوية، أنظروا!

فنظروا جميعاً. هناك سلة من الحبّ مقلوبة تسبح وتتحرك وتتقدم. خطا يوحنا خطوة إلى الامام، فصاحوا به:

- لا ، حذار، هذه سلة مسحورة!

فأمسك بها يوحنا باحدى يديه ورفعها، فاذا دجاجة كبيرة مذعورة مأسورة تحت السلة منذ عدد من الساعات غير معروف، تخرج كأنها قذيفة وهي تصيح حتى بُح صوتها.
أخذ جميع الحاضرين يضحكون حول يوحنا كالمجانين. كان الشيطان دجاجة. كانت السلة الخفيفة قد سُندت إلى الجدار في توازن غير ثابت، وكان قد بقي بين أعواد الخيزران شيء من القمح، فأرادت دجاجة أن تلتقطها، فقلبت السلة على ظهرها، وغدت أسيرة تحتها. وتعب الحيوان المسكين من المكوث هناك، وجاعت فحاولت الخروج ونقلت السلة من مكان إلى آخر، فكانت تصدم الأشياء في السقيفة، وتحدث اصواتاً مخنوقة وانزلاقات على خشب السقف.

كسر جرة الزيت

كانت مر غريتا تذهب يوم الخميس من كل أسبوع إلى سوق كاستلنوفو، وهي تحمل سلتين فيهما الجبن، وأفراخ الدجاج، والبقل لتبيعهما. وكانت تعود ومعها شيء من القماش والشمع والملح وبعض الهدايا الصغيرة للأولاد، فينزلون للقائهما مسرعين من خلال الدروب، عندما تأخذ الشمس تميل.

ذات يوم من أيام الخريف، طالت لعبة " اللببنا " إلى ما لا حد له، واذا بالاسطوانة

الصغيرة من الخشب تُنهي شوطها على السطح. فقال يوحنا:

- على خزانة المطبخ اسطوانة اخرى، أنا ذاهب لآتي بها.

ذهب راكضاً، ولكن الخزانة عالية، فاضطّر إلى اعتلاء كرسي، ووقف على رؤوس أصابع قدميه، ومدّ يده فحدثت الكارثة، اذ وقعت جرة الزيت التي على الخزانة إلى الأرض وتحطمت وسال الزيت على القرميد الأحمر.

رأى يوسف أن اخاه لا يعود، ف جاء مسرعاً وشاهد الكارثة ووضع يده على فمه:

- هذه المرّة عند المساء، أمنا...

حاول أن يرتب الأشياء كما كانت، فكُنّست بسرعة شظايا الجرة، ولكن بقعة الزيت لم تمح بل اتسعت واتسع خوفهما أيضاً.

ظلّ يوحنا صامتاً نصف ساعة ثم خرج سكينه من جيبه، وذهب إلى السّياج، وقطع عوداً مرناً حسناً، وأخذ يعمل فيه وهو يغني، ويعمل أيضاً فكره ويبحث عن الكلمات التي سيقولها لأمّه. وزينّت قشرة العود آخر الأمر بثقوب ونقوش.

وعند المساء ذهباً إلى لقاء والدتهما. كان يوسف متردداً يمشي على مهل، وأما يوحنا فانه

يركض، قال:

- مساء الخير، يا أميمة، كيف حالك؟

- بخير وهل أنت بخير؟

- يا أميمة انظري - ومدّ نحوها العود المنقوش.

- ماذا تفعل؟

- إني أستحقّ هذه المرة أن تضربيني. فيا لسوء الحظ، كسرت جرة الزيت.

وروى كلّ شيء من غير ان يتوقف وختم كلامه بقوله:

- أتيتك بعود لأنني استحقّه حقاً. خذيه يا أميمة.

وقدّم لها العود، وهو ينظر إليها نظرات نصفها الندم ونصفها الحيلة.

وراقبته مرغريتا بضع لحظات، ثم اخذت تبتسم، وأخذ يوحنا يضحك فأمسكت أمّه بيده

واتّجها نحو البيت.

- هل تدرك يا يوحنا أنك أخذتَ تصبح كثير الحذق؟ إن مسألة جرة الزيت تسوءني ولكني

- مسرورة بأنك لم تأت فترو لي حكاية كذب، فتنبّه للأمر مرة أخرى لأن الزيت يكلفنا غالياً.

تقدّم يوسف عندئذ وقد رأى أن العاصفة التي كان يخاف أمرها قد زالت. يوسف في سنّ

العاشرة، وهو ينمو وديعاً هادئاً، وليس له سرعة انفعال يوحنا ولا كثرة حركته. إنه صبور،

مكبّ على العمل، فطِن، يحبّ أمّه وأخاه الصغير من كل قلبه ويخاف انطون بعض الخوف.

"أنا أمك لا زوجة أبيك"

أنطون أكبر من يوحنا بسبع سنوات، وهو يظهر وكأنه غلام منقبض على نفسه، قاس عنيف.

إنه يضرب حيناً بعد آخر أخويه الصغيرين بقسوة، فطُر مرغريتا الى الإسراع لتتقدهما من يديه. ولربّما كان غلاماً شديد الإحساس، أثرت فيه تأثيراً سيئاً وفاة أمّه ثم وفاة أبيه. إنه يشعر في صلته بمرغريتا شعوراً حائراً يجعله ينتقل من أوقات تسودها المودة إلى نوبات حادة من الغضب. وفي بعض الأحيان، عندما يأخذه الغيظ، يتقدم نحوها وذراعاها مبسوطتان، وقبضتا يديه تهددان ويصبح بها: "يا رابّة" (١)

كان بوسع مرغريتا أن توقفه عند حدّه بأربع ضربات محكمة (لم تكن سائر الأمهات في ذلك الزمان يتردّدن في استعمال الضرب) ولكنها تكره الضرب فلم ترفع عليه يدها قطّ بل اكتفت بأن تكرر القول بحزم:

- يا أنطون، أنا أمك لا زوجة أبيك. والآن سغن روعك وفكر، ثرّ أنك على خطأ في عمك هذا.

وأنطون عندما يزول غضبه، يذهب إليها ويستغفرها، ولكنه يستسلم إلى الغضب مرّة أخرى من أجل شيء لا شأن له. ويوسف ويوحنا يخافان خوفاً شديداً عندما يشاهدان مثل هذه المشاهد.

(١) الرابّة: زوجة الأب (شرح من المترجم).

أيام الربيع

تعيش أسرة بوسكو عيشة فقيرة. بيت بوسكو هو بين بيوت البكي أكثرها تواضعاً على قلة عددها، إنه بيت له طبقة واحدة ويستعمل للسكن، ومخزناً للحبوب واسطبلًا.

أكياس الذرة الصفراء في المطبخ، ووراء الحاجز الرقيق بقرتان تجتران. في الطبقة العليا غرف للنوم صغيرة معتمة، وهي تحت السطح ليس بينها وبينه شيء.

لا تصل الحالة بهم إلى حدّ البؤس ولكنها حالة فقر حقيقيّ. كلُّ منهم يقوم بقسطه من العمل، وإذا كان العمل في الأرض لا يأتي بالربح، فانه يأتي مع ذلك بشيء منه. الجدران جرداء مطلية بالكلس. ليس عندهم كثير من أكياس الذرة الصفراء، ولكن هذه الاكياس تُفرَّغ بحرص، فتكفي لمعيشتهم آخر الامر. البقرتان تجرّان العجلة والمحراث، فلا تدرّان إلا لبناً قليلاً ليس فيه كثير من الدسم، ولكنه كافٍ.

فأولاد بيت بوسكو لا تنال منهم الكآبة ولا التمرد: بوسع المرء حتى في الفقر ان يكون سعيداً إذا تحلّى بالصبر.

أخذ يوحنا وهو في ما بين الثامنة والتاسعة (١٨٢٣ - ١٨٢٤) يشترك بنشاط في أعمال الأسرة، ويشارك في العيشة العسيرة الخشنة.

كانوا يعملون منذ شروق الشمس إلى غروبها، وتشرق الشمس في الصيف في وقت مبكر. كانت مرغريتا تقول للصبيان عندما يستيقظون في الفجر: "النائم لا يصطاد سمكاً". ولربما سأل يوحنا نفسه غير مرة أين يجد ذلك السمك المبارك.

ان طعام الصباح بسيط جداً: كسرة من الخبز اليابس وماء بارد. تعلّم يوحنا الحفر وقطع العشب واستعمال المقضّب وحلب البقرات. إنه فلاح حقيقي. كان الناس يسافرون سيراً على الاقدام. ان العجلة تمر على مسافة بعيدة وهي تسير في طريق كاستلنوفو وأجرة ركوبها غالية.

وعند المساء يذهبون إلى النوم على فُرُش من أوراق الذرة.

قَدَمَا الْفَقِير

إذا مرض بعضهم مرضاً شديداً في بيت من البيوت المجاورة، جاؤوا إلى مرغريتا فايقظوها، وهم يعرفون أنها لا تردُّ أبداً طلب من يستنجد بها، وهي توظف أحد أولادها لكي يرافقها: - لنذهب! هناك عمل من أعمال المحبة نقوم به.

" القيام بعمل محبة" كانوا يجعلون في هذه العبارة البسيطة جملة من القيم نقول لها اليوم: البذل والسخاء والتزام خدمة القريب والمحبة بالفعل والغَيْرِيَّة.

وكان بوسكو يتذكر أنه كثيراً ما حدث في الشتاء أن فقيراً قرع باب بيتنا. كان الثلج ينزل في خارج البيت، فيطلب الرجل أن ينام في مستودع الحبوب تحت السقف، فكانت مرغريتا، قبل أن تتركه يصعد لينام هناك، تُقدم له صحناً من الحساء الساخن. ثم كانت تنظر إلى قَدَميه وكانتا في أكثر الاحيان في حالة سيئة. كان حذاؤهما وهو من الخشب بالياً يمرُّ منه الماء وسائر الاشياء. ليس عندها زوجان آخران تقدمهما له ولكنها تلفَّ قدميه في خرقة تربطها على قدر استطاعتها. في بيت من بيوت البكي يقيم فرنسيس. كان غنياً فبدد كل ما عنده. إن الأطفال يسخرون منه ويدعون في بعض الاحيان: " صرصور". إن الامهات يُشرنَ اليه ويروينَ لأولادهن حكاية الصرصور والنملة: " كنا نشتغل كالنمل في حين أنه كان يُغني ويستسلم الى الترف. كان قليل الهمّ كالصرصور. والآن أنظروا إلى الحالة التي صار اليها. لا تنسَ هذه الحكاية".

ان ذلك الطاعن في السن المسكين يستحي ان يطلب الصدقة، ويعاني من الجوع أحياناً كثيرة، وعندما يُظلم الليل، تضع مرغريتا على حرف النافذة قَدراً صغيراً من الحساء الساخن فيأتي فرنسيس ويأخذها ويسير في الظلام.

حفظ يوحنا هذه العبر. فالسقاء أفضل من الأذخار. وكان غلام يعمل خادماً في مزرعة مجاورة، واسمه سكندو متى (Secondo Matta). وكان رب عمله يعطيه في الصباح كسرة من الخبز الاسود، ويضع في يده رَسَن بقرتين عليه أن يذهب بهما لكي ترعيا حتى الظهر، وبينما هو نازل نحو الوادي كان يلتقي ويوحنا الذي يسوق هو أيضاً بقرتيه إلى المرعى، وفي يده كسرة من الخبز الابيض، وكان هذا الخبز يُعدُّ حلوى في ذلك الزمان. ذات يوم قال له يوحنا:

- أتريد أن تسرني؟
- أجل.
- أرغب أن نتبادل خبزنا. لا شكَّ في أن خبزك أطيب من خبزي.

كان سكندو مقتنعاً بذلك، وقد روى بنفسه أنه كلما تلاقيا تبادلا خبزهما. لما غدا السيد متى كهلاً، فكَر في الامر فأدرك أن يوحنا بوسكو صَبِي طيب.

قطاع الطرق في الحرج

كان بجانب البيت حرج، فطرق باب مرغريتا غير مرة في الليل جماعات صغيرة من "قطاع الطرق" يطاردهم الحرّس. كانوا يأتون فيطلبون قصعة من الحساء، وشيئاً من التين ليناموا عليه.

إن مرغريتا لا تخاف هؤلاء الزوار، فقد ألفت أمرهم. كان شبان كثيرون يهربون من تعبئة الجيش في أيام نابليون. قال المؤرخون إن عددهم بلغ سبعين في المائة في آخر عهد الامبراطورية. كانوا يعيشون جماعات في الغابات والجبال، وكانوا يقومون باعمال اللصوصية ليعيشوا، أو كانوا يعملون بالأجرة بأسم مستعار، في المزارع المنعزلة. (وكان بين الذين "تمردوا على التعبئة" في جيش نابليون يوحنا ماري فياني Vianney وكان يُظهر أنه فلاح اسمه فنسان وقد صار بعدئذ خوري أرس القديس (Le saint Cure d'Ars).

وما كان يدعو إلى الخوف هو أن وراء هؤلاء قطاع الطرق، يبرز أحياناً كثيرة رجالُ الدرك (وقد أنشأهم في تلك السنوات الملك فيثوريو عمانوئيل الأول) ولكن يسود بيت بوسكو نوع من الهدنة الصامتة. إن رجال الحرّس وقد تعبوا من الصعود، يطلبون من مرغريتا كأس ماء، وفي بعض الأحيان إصبعا من الخمر، ويسمع قطاعُ الطرق في المستودع تحت السقف الأصوات ويذهبون من غير ضجة. " عرف رجالُ الحرّس في كثير من الأحيان من كان مختبئاً في تلك الساعة في البيت، ومع ذلك أظهروا دائماً ابداً أنهم لا يعرفونه، ولم يحاولوا قط أن يقبضوا على أحد". كتب ذلك الكلام يوحنا المعمدان لموان (Lemoigne) وهو أهمُّ كاتب لسيرة دون بوسكو، وقد دار بينهما محادثات ذات شأن عظيم طوال سنوات كثيرة في تورينو.

كان يوحنا يراقب كلّ شيء ويحاول تفهّمه. تعلّم من أمّه أن جنود النظام

الديمقراطي كانوا في ما مضى يطاردون أناساً ظلوا مؤالين للملك وأما الآن فقد انقلب الأمر واصبح المطاردون مطاردين. إن رجال الدرك العائدين للملك يُطاردون الآن الديمقراطيين، بيد أنه لن يمضي وقت كثير حتى تتبدل الامور مرّة أخرى. ان الذين يستأهلون المشانق (هكذا كان المركيز ميخائيل دي كافور Cavour يُسمّى الديمقراطيين) سيصبحون الوزراء وقادة الشرطة والمسؤولين عن الشؤون العامة، وأما المطاردون فهم أناس آخرون.

تعدت مرغريتا هذه التقنيات في الجبهات السياسية، فكانت تقدم قصعة من الحساء وكسرو خبز لكل من يقرع باب بيتها، من غير أن تسأل أبداً إلى أي جهة ينتمي. وقد يحقّ لنا أن نفكر أنّ جميع هذه الاحداث أدّت إلى اقتناع يوحنا بوسكو بما للسياسة والاحزاب من حدود. فقد نظر دائماً إلى السياسة نظره إلى امر يقبل الجدّل ويتبدّل في الحياة. ولذلك أقام حياته على ركائز أكثر

متانة وهي الاهتمام بخير النفوس والأحداث الفقراء، يُقدّم لهم الطعام ويربّيهم. وذلك ما سماه هو بنفسه سياسة صلاة "أبانا الذي في السماوات".

"علمتني امي الصلاة"

ان المحبّة في البكي لا تنبع من حب الانسان أو العاطفة بل من حب الله. ان الرب هو في بيته في أسرة بوسكو. مرغريتا أمية ولكنها تعرف عن ظهر قلبها أجزاء طويلة من التاريخ المقدس والانجيل. انها تؤمن بضرورة الصلاة أي مخاطبة الله ليحصل الانسان على الشجاعة اللازمة للعيش وعمل الخير. كتب دون بوسكو: "علمتني أمي الصلاة ما دمت صغيراً. كانت تجعلني أجتو مع أخويّ صباحاً ومساءً، فكنا نتلو الصلوات المشتركة".

إن الكاهن بعيد، وهي لا تنتظر أن يكون لديه من الوقت ما يمكنه من أن يأتي بينهم فيعلم أطفالها التعليم المسيحي. وهذه بعض الأسئلة والأجوبة من مختصر العقيدة المسيحية التي تعلمتها مرغريتا في سنّ صغرها فعلمتها يوحنا ويوسف وأنطون:

س: ماذا يجب على المسيحي الصالح أن يعمل لدى نهوضه في الصباح؟

ج: إشارة الصليب.

س: فاذا نهض المسيحي الصالح ولبس ثيابه فما الذي يجب عليه أن يعلمه؟

ج: إذا أمكنه جثا أمام صورة تقوية، وجدّد في قلبه الايمان بوجود الله، وتلا بتقوى

الصلاة: إني أعبدك، يا رب ...

س: ماذا يجب عليه أن يعمل قبل أن يبدأ عمله؟

ج: يقدّم عمله إلى الله.

وكانت تلاوة السبحة عملاً من أول الأعمال الدينية التي اشترك فيها يوحنا. كانت السبحة صلاة المساء عند جميع المسيحيين في ذلك الزمان. فإنّ فلاحي البكي أنفسهم، عندما يكرّرون السلام عليك خمسين مرة، يحادثون أمهم أكثر منهم ملكتهم. وتكريرهم الكلمات نفسها خمسين مرة ليس امراً خالياً من المعنى. فقد ضربوا الأرض في النهار مئات الضربات بالمعول، وهم يعرفون حقّ المعرفة أنه لا غنى لهم عن ذلك للحصول على غلات حسنة. وبينما هم يتلون السبحة حبة بعد حبة، فانهم يفكرون باولادهم وحقولهم وبالحياة والموت. وهكذا أخذ يوحنا يكلم السيدة العذراء وهو على يقين من أنها تنظر اليه وتستجيبه.

وذكر دون بوسكو اعترافه الأول أيضاً في ذكرياته: "والدتي هي التي هيأتني له، فرافقتني

إلى الكنيسة، واعترفت قبلي، وأوصت بي المعرف، ثم ساعدتني على الشكر لله".

المدرسة في فصل الفراغ من العمل في الحقول

الراجح ان يوحنا ذهب إلى الصف الابتدائي، وهو في سن التاسعة في شتاء ١٨٢٤ - ١٨٢٥. كانت الدروس تبدأ حينذاك في الثالث من تشرين الثاني (نوفمبر) وتنتهي في الخامس والعشرين من شهر آذار (مارس). كان ذلك الفصل فصل الفراغ في الريف. وأما قلبه وبعده فإنّ سواعد الأحداث الضعيفة نفسها ضرورية في البيت وفي الحقول^(١). كانت مدرسة الناحية في كاستلنوفو تبعد خمسة كيلو مترات من البيت فاضطرّ يوحنا إلى أن يتعلم القراءة عن فلاح يعرفها. ثم إن خالته ماريانا أوغينا شقيقة مرغريتا، وكانت خادمة في بيت الكاهن المدرّس في كابريليو (Gapriglio)، التّمسّت من هذا الكاهن أن يجعل مكاناً لابن شقيقته في مدرسته.

فرضي الأب لاقوا (Lacqua) والراجح أن يوحنا بقي عند خالته ثلاثة أشهر. ومثل ذلك حدث في شتاء ١٨٢٥ - ١٨٢٦ فأخذ أنطون وهو في سنّ التاسعة عشرة يغضب هذه المرة قال: - لم إرساله إلى المدرسة؟ إنه يعرف القراءة والتوقيع باسمه، فذلك زيادة على ما يلزم. فليعملّ بالمجرفة كما أني أعمل بها.

حاولت مرغريتا أن تدعوه إلى التعقل فقالت:

- كلما مضى الوقت أصبح التعلم ضرورياً. ألا ترى أنّ الخياطين والحدّائين أنفسهم يذهبون إلى المدرسة؟ اذا كان في البيت من يعرف الحساب فليس ذلك أمراً فاضلاً عن الحاجة. وما إن تعلم القراءة حتى أولع بالكتب، فطلب إلى الأب لاقوا أن يعيره منها، وكان يقضي أكثر الوقت بعد الظهر أيام الصيف وهو يلتهم الصفحات في فيء الأشجار. وعندما يذهب إلى المرعى فهو موافق على رعاية بقر أصحابه، ما داموا يدعونه يطالع ناعم البال. ولم يصير مع ذلك عبد الكتب. لقد أحب المطالعة ولكنه أحب أيضاً اللعب وتسلق الأشجار.

كان ذات يوم مع أصحابه فرأى عشا من طير الحسون على غصن سنديانة كبيرة، فتسلق الجذع، ورأى أن هناك أفراخاً تصلح لأن توضع في القفص، ولكن العش، لسوء الطالع، في آخر غصن ضخم طويل يكاد أن يكون محاذياً للأرض .

(١) فرض قانون ١٨٢٢ الدراسة الابتدائية. كانت إلزامية ومجاناً، ولكن تستطيع جميع القرى أت تعمل بالقانون .

فكر قليلاً ثم قال لأصحابه من عل: " أنا ذاهب". وزحف رويداً رويداً على الغصن، والغصن يزداد رقّة ومرونة شيئاً فشيئاً. فمدّ يده وأخذ الفراخ الأربعة وأدخلها في قميصه على صدره.

وَبقي الآن أن يعود إلى الوراء على طول الغصن الذي التوى من ثقله. استلقى بتؤدة، ولكنّ رجليه أفلتتا ووجد نفسه مُعلّقاً بيديه على ارتفاع يدعو إلى القلق، فانقبض بحقويه انتفاضة شديدة، وعاد إلى التعلق بساقيه ولكنه لم يكن يقوى على غير ذلك، وتعدّر عليه أن يستلقي على بطنه فوق الغصن ، فالعرق يتصبّب من جبينه قطرات كبيرة، وأصحابه في الاسفل يصرخون ويأتون بكثير من الحركات ولكنهم لا يتدخلون. ولما تعبت ذراعاها القى بنفسه في الهواء فسقط سقطة شديدة. ظلّ بضع دقائق مصعوقاً ثم استطاع الجلوس.

- هل أصيبت بأذى؟

فاستطاع أن يتمم:

- ارجو أنني لم اصب.

- والعصافير؟

- إنها ههنا حيّة - وفتح قميصه واستلّها منه. - ولكنها كلفتني غالياً.

حاول أن يسلك الطريق إلى البيت فكانت جميع أعضائه ترتجف فاضطّر إلى الجلوس مرة

اخرى. ولما استطاع الدخول قال يوسف:

- حالتي سيئة ولكن لا تقل شيئاً لأمي.

إن الليلة التي قضاها في السرير نفعته، ولكنه أحسّ بضعة أيام بآثار تلك السقطة

الشديدة.

شحرور صغير، صغير جداً

إنه مولع بالعصافير. أخذ شحروراً صغيراً جداً من عشه، وربّاه فوضعه في قفص ضفّره من أعواد الصفصاف، وأخذ يعلمه التصفير، فكان العصفور يكرّر ما يتعلمه، وعندما يحضر يوحنا، يُحيّيه بتصفير فيه نغم، ويقفز من عود إلى آخر وينظر إليه بعينه الصغيرة السوداء البرّاقة. إنه شحرور محبب إلى القلب.

ولكن ذات صباح لم يُحيّيه الشحرور بتصفيره فقد خربت هرة القفص والتهمت العصفور،

فأخذ يوحنا يبكي، فحاولت أمه أن تدعوه إلى التعقل، وتؤكّد له أنه سيجد كثيراً من الشحارير

والأعشاش غيرها ولكن ما لهُ والشحارير الأخرى؟ ذلك الشحرور صديقه الصغير الذي قُتل،

فلن يراه أبداً.

ظلّ حزينا عدة أيام، فما استطاع أحدٌ أن يعزّيه. روى الأب لموان (Lemoyne) : "أخذ آخر الامر يفكر في سرعة زوال ما في هذا العالم، وعزم عزمًا لم يكن على قدر سنّه، فقصد ألا يدع قلبه يتعلّق بأي شيء كان في هذه الارض". وكرّر الكلمات نفسها بعد بضع سنوات لما توفي أعزّ أصدقائه، وفي عدة أحداث غيرها.

ويسّر المرء أن يرى دون بوسكو لا ينجح دائماً في التزام ما عزم عليه، فقد كان له أيضاً مثلنا قلب من لحم، يحتاج إلى حب الأشياء الصغيرة والكبيرة. بكى، وقد تفتّر قلبه، عند موت الأب كالوسو (Calosso) ولويس كومولو (Comollo) ولما رأى أول مرة صبياناً وراء قضبان السجن. وقال في من يُسيء إلى الصغار الذين يُعنى بهم: "لو لم يكن ذلك العمل خطيئة، لكنك خنقتهم بيدي". وقال كلُّ من صبيانه: "كان يُحبّني". كتب واحد منهم لويس اوربوني (Orione) "لو قدّر لي لمشيئتُ على الجمر الملتهب لأراه مرةً أخرى وأقول له: شكراً". كانت التربية الدينية في ذلك العصر تُعلم أنه من السوء تعلق القلب بالخلائق. أمّا توجهات المجمع الفاتيكانى الثاني فهي أقرب إلى روح الانجيل. يقول لنا المجمع لا نحول الخلائق إلى أصنام ولكن الله منحنا قلباً لكي نحب من غير خوف. إن إله الفلاسفة خالٍ من الشعور، وأما إله الكتاب المقدس فإنه يُحبّ ويغضب ويتألم ويبكى، وقد اهتز طرباً وتبسّم من المودة.

أرضه

لما بلغ الصبي التاسعة من عمره، أخذ يخرج من صدفة الأسرة الدافئة وينظر إلى ما حوله. وكان يوحنا ينظر أيضاً إلى الأرض ويكتشفها. إنا جميلة، متموجة، هادئة، فيها ينمو شجر التوت والكرم والذرة الصفراء والقنب، وفيها ترعى المواشي الكبيرة والصغيرة. كانت الأحراج الواسعة الكثيفة تُحدث بُقعاً شديدة الخضرة. كان الفلاحون الذين يقبلون الأرض بسلام تحت الشمس رجالاً صبورين، أصلاب العود. إنهم شعب وفيّ للأرض وقد تأصل فيها، شأن الأشجار. لم يكونوا يستحون بأن يرفعوا قبعتهم أمام الكنيسة وأمام الله. ولما كانوا يغلقون أبواب بيوتهم في المساء، كانوا يشعرون وهم بين أسرهم، أنهم ملوك.

كان يوحنا بوسكو ابناً لله كبيراً، ولكنه كان ابن هذه الأرض أيضاً. ألقت إليه السماء نداءً، ولكن الطابع الذي تميّز به أتاه من هذا الهواء الذي استنشقه ومن هذا المناخ الذي كيّفه، وقد حمّل معه دائماً لهجة الشعب العائش في تلك التلال وحمّل في نفسه سمة بيئته.

البهلوان الصغير

لما بلغ يوحنا الصغير التاسعة من عمره أثر فيه "الحلم الكبير" وترك فيه علامته: جمهور الأولاد والرجل الذي يوبخه فيقول له: " ليس بالضربات بل بالوداعة" والسيدة التي تنبئه: " في الوقت الموافق تفهم كل شيء".

فان تلك الليلة، على رغم كلمات الحذر التي قالتها الجدّة، أَلقت شعاعاً من النور على المستقبل. كتب بيتروستيلا (Pietro Stella) : " ان الحلم الذي حلمه يوحنا بوسكو في التاسعة من عمره، كَيْفَ كلّ طريقة عيشه وفكره وقد كَيْفَ سلوك أمّه أيضاً في الشهور والنسبين من بعد، فقد كان ذلك الحلم، لها أيضاً، الكشف عن إرادة علوية، وعلامة واضحة لدعوة ابنها الكهنوتية، وهكذا يمكن المرء أن يفهم صلابة عزمها على السير بيوحنا في الطريق التي تُيسّر له أن يصير كاهناً".

رأى يوحنا في حلمه جيشاً من الصبيان أمر أن يصنع إليهم الخير. فلماذا لا يشرع في ذلك لوقته؟ إنه يعرف من الصبيان عدداً ليس بالقليل: أصحابه في اللعب، والخدم الصغار الذين يعيشون في المزارع المتفرقة في الريف. إن معظمهم صالحون ولكن هناك آخرون قليلو التهذيب يكفرون كالوثنيين.

وهناك كثير من الأسر في الشتاء تسهر معاً في اسطبل كبير، حيث يقوم الثيران والبقر مقام الموقد للتدفئة. فبينما النساء يغزلن، والرجال يدخنون الغليون، يشرع يوحنا يقرأ على الجماعة كتباً يُعيره إياها الأب لاكوا: غيران (Guerin) المسكين وتاريخ برتولدو (Bertoldo) وملوك فرنسا. كان نجاحه باهراً. روى قال: "كان جميع الناس يريدون أن أكون عندهم، في اسطبلهم. كان اناس من كل سينّ ومن كل طبقة ينضمون إلى أصحابي وكان يسعدهم جميعاً أن يصرفوا وقت السهرة وهم يصغون من غير حراك إلى القارئ الغرّ وهو واقف على معقد لكي يراه جميع الحاضرين".

وكان الكتاب المفضّل في تلك السهرات ملوك فرنسا. كان يُروى فيه ما جرى من

مغامرات رائعة معقدة إلى حدّ ما لشارلمان (Charlemagne) وفرسانه: رولان واوليفيه (Olivier) والخائن غاتلون (Ganelon) والكطران توربان (Turpin) والدمار الذي كان ينزله السيف السحري دوراندال (Durandal) . كتب دون بوسكو: " كان جميع الناس يرسمون إشارة الصليب قبل القراءة وبعدها، وكانوا يتلون السلام عليك يا مريم مرة واحدة".

الابواق على التلة

إذا جاء الصيف تغيرت الامور، فالحكايات لا تجذب أحداً، وقد أدرك يوحنا أنه يجب عليه، لكي يجمع أصدقاءه، أن يقوم بعمل خارق العادة. ولكن ماذا؟
إنّ أبواق البهالوين تدوي من على التلة المجاورة. إنه يوم سوق. ذهب يوحنا اليها مع أمّه، فالناس يبيعون ويشترون ويتجادلون ويلهون. إنهم يحتشدون حول المشعوذين والبهالوين. إن أعمال الشعوذة وتمرينات الحذق تستولي علة انتباه الفلاحين الذين يقفون وأفواههم فاعرة. وذلك ما يستطيع أن يفعله هو أيضاً. يجب عليه أن يراقب أسرار البهالوين وأساليب السحرة. ولكن الحفلات الكبرى، ولسوء الطالع، لا تقام إلا في أعياد الشفعاء أي في أعياد القديسين الذين يحمون القرى. فالبهالوين يرقصون على الحبل المشدود، والمشعوذون يقدمون لعبة الاكواب أو ما هو أحسن منها حيلاً، وفيها زيادة من المهارة: كإخراج الحمام والأرنب من القبعات، وخطف شخص عن الأنظار، ونشره قسمين وإعادته سالماً. والذين يقلعون الاسنان من غير ألم ينالون غاية الاعجاب.

ولكن الذي يريد مشاهدة هذه الحفلات يدفع فلسين، فمن أين يحصل عليها؟ استشار

مرغريتا فقالت له:

- دبرّ أمرك كما تشاء ولكن لا تطلب مني مالاً، فليس لدي شيء منه.

دبرّ يوحنا أمره فاصطاد بعض العصافير وباعها، وصنع سيلاً وأقفاصاً، وباعها الباعة

الجوالين، والتقط أعشاباً طبيّة وحملها إلى صيدلي كاستلنوفو.

وهكذا أمكنه الوقوف في الصفوف الأولى للمشاهدين، وراقب الأمور بانتباه، فتفهم سرّ

التوازن الذي يمكّن الرقاص (1) حامله من المشي على الحبل، واسترق بنظره الحركة السريعة التي

تُخفي بها أصابع المشعوذ حيلته، واكتشف حيلاً أخرى كثيرة لا تُخفي .

(1) الرقاص عصا طويلة يحملها وهو يسير على الحبل لكي يحافظ على توازنه (حاشية من المترجم) .

كان قلع السن المنخور سبب ألم شديد لجميع الناس في ذلك الزمان (لم يجرب أول مُخَدَّر للألم في أميركا إلا في السنة ١٨٤٥)، فشهد يوحنا في حفلة أقيمت في سوق السنة ١٨٢٥ قلع سن من غير ألم باستعمال مسحوق سحري. كان الفلاح الذي قدّم نفسه يشكو ألماً شديداً في ضرس من أضراسه، فغمس البهلوان إصبعه في المسحوق في اثناء ضجة الابواق والطبول ، وقلع السن بأن جذبها جذبة سريعة بگماشة أنزلها من كمّه إلى يده. قفز صاحب السن على قدميه وهو يصرخ، ولكن الأبواق تقصف، فعانقه البهلوان حتى كاد أن يخنقه وهو يقول: " شكراً، شكراً، لقد بجحت التجربة نجاحاً تاماً".

كان يوحنا واحداً من القلة الذين رأوا الكماشة تنزل، وانصرف ضاحكاً، فاعاد في البيت تمريناته الأولى. قال: " تَمَرَّنت أياماً حتى نجحت". إن اخراج أرانب من القبعة، والسير على الحبل ، يتطلبان شهوراً من الإعادة والمثابرة والتدرج. كتب دون بوسكو: " قد لا تصدقوني ولكن في سن الحادية عشرة نجحتُ في لعبة الاكواب وقفزة الموت، وكنت أسير على يدي وأركض وأرقص على الحبل".

حفلة في المرج

ذات يوم من أيام الأحد في فصل الصيف، أخبر يوحنا أصدقاءه بأول حفلة يُقيمها، فحقق على سجادة من الأكياس الممددة على العشب، عجائب من التوازن، بعلب وقدر وضعها على رأس أنفه، وطلب من أحد صغار المشاهدين أن يفتح فاه إلى آخر حدّ، واستخرج منه عشرات من الكرى الصغيرة الملونة. واستعمل لذلك عوداً سحرياً ، وختم الحفلة فقفز على الحبل وسار عليه واصدقاؤه يُصقّفون.

وذاع الخبر من بيت إلى بيت. وازداد عدد الحضور، من صغار وكبار وبنات وصبيان، بل أناس من كبار السن، وهم الذين كانوا يستمعون اليه وهو يقرأ في الاسطبل ملوك فرنسا. وأما الآن فانهم يرونه يُخرج من أنف فلاح مذهول ساقية من النقود، ويُحوّل الماء إلى خمر، ويكثر البيض، ويفتح حقيبة سيدة ويُطلق منها حمامة حية تطير. فضحك الناس وصفقوا.

كتب الأب لموان أن أخاه أنطون كان يذهب هو أيضا إلى تلك الالاعاب ولكنه لم يكن يقف قط في الصفوف الأولى، بل كان يختفي وراء شجرة ويذهب. وكان يسخر أحيانا من البهلوان الصغير فيقول:

- هوذا المهّرج البطال. انا احصر عظامي في الحقول وأما هو فيعمل عمل المشعوذ!
كان يوحنا يتألم، وكان يوقف الحفلة أحيانا لكي يعود إلى القيام بها على بعد مائتي متر،

فبتركه انطون وشأنه هناك آخر الأمر. إن هذا الصبي مشعوذ يختلف عن سواه فهو يخرج من جيبه سبحة قبل اللعبة الأخيرة، ويجثو على ركبتيه ويدعو جميع الحاضرين إلى الصلاة، أو يُعيد العظة التي سمعها في كنيسة الرعية في الصباح. تلك هي المساهمة التي يطلبها من الحضور، والأجرة التي يتقاضاها من الصغار والكبار. سيكون يوحنا بوسكو سخياً جداً في بذل تعبته ولكنه، شأن كل امرئ من بلاد الليمونته، سيطلب دائماً أجرة: لا من المال بل من السخاء في سبيل الله أو أطفاله الفقراء.

ثم تأتي الخاتمة الرائعة. يربط حبلاً بين شجرتين، ويتسلق الجذع اليه وهو يحمل رقاصاً بدائياً، في جَوّ من السكوت غير المتوقع والتهافتات الجنونية. كتب: "بعد بضع ساعات من تلك التسلية، وقد تعبتُ تعباً شديداً ، كان كلُّ لهُو ينتهي، فكُنّا نتلو صلاة وجيزة وكان كلُّ من الحاضرين ينصرف إلى بيته".

تناوله القربان أول مرة

اقيم عيد الفصح في السنة ١٨٢٦ في السادس والعشرين من آذار (مارس). في ذلك اليوم تناول يوحنا القربان المقدس المرة الأولى في كنيسة رعية كاستلنوفو، وإلى القارئ ما كتبه في ذكرياته:

"كانت أمي بالقرب مني. في أيام الصوم ذهبت بي إلى الاعتراف وقالت لي:- يا بنيّ يوحنا، إن الله يُعِدُّ لك هديّة عظيمة. استعدّ استعداداً حسناً واعترف اعترافاً حسناً واندم على خطاياك، وعد الله أن تصير أحسن مما كنت عليه قبلاً. فوعدتُ ذلك كله والله أعلم هل ظللتُ وفياً.

وفي ذلك الصباح رافقتني إلى المائدة المقدسة، وشاركتني في الاستعداد والشكر. وفي ذلك اليوم لم تشأ أن أقوم بأعمال مادية بل أن أصرف وقتي في القراءة والصلاة، وكررت لي القول عدة مرات: - كان ذلك اليوم لك، يوماً عظيماً. إن الله استولى على قلبك، والآن عده أن تفعل كل ما بوسعك لتبقى صالحاً حتى آخر حياتك. اذهب فتناول القربان المقدس كثيراً في المستقبل. قل كل شيء دائماً عندما تعترف. كن مطيعاً دائماً أبداً. واضب على درس التعليم الديني، وعلى الاستماع إلى الوعظ ، ولكن اهرب حباً لله من الذين يتحدّثون محادثات قبيحة هربك من الطاعون - .

فعلتُ ما يلزم لكي أعمل بنصائح أمي، ويبدو لي أنه ذلك اليوم حدث شيء من التحسن في سيرتي، ولا سيما في الطاعة والخضوع وهما أمران كنت انفر منهما أشد النفور".

أشدّ شتاء ظلمة في حياتي

كان الشتاء الذي تبع أشدّ ظلمة في حياة يوحنا.

تُوِّفيت جدته (والدة فرنسيس) وكان انطون يزداد ابتعاداً من الأسرة، وأخذت نوبات

عنفه تتكاثر.

وفي آخر أيام تشرين الأول (أكتوبر) لمّحت مرغريتا إلى احتمال إرسال يوحنا سنة أخرى إلى

مدرسة الأب لاکوا، فقد يتعلم المبتدئ الأولى لللاتينية، فردّ انطون على ذلك بعنف:

- أي لاتينية؟ ما حاجتنا إلى اللاتينية في البيت؟ نحتاج إلى العمل، إلى العمل!

والغالب أن مرغريتا كانت تشير إلى احتمال اعتناق يوحنا الحياة الكهنوتية الأمر الذي كان

يبدو لانطون حليماً لا يمكن تحقيقه. فقد سمعه يوحنا يقول مرات كثيرة: "لا بُدّ من عشرة الاف

ليرة ليصير المرء كاهناً". وكان ذلك القدر عظيمًا تعجز عنه أسرة من الفلاحين في ذلك الزمان.

استطاع يوحنا الذهاب حيناً بعد آخر إلى الأب لاکوا في أيام الشتاء ١٨٢٧ - ١٨٢٨ تحت

ستار أشياء يحملها إلى خالته ماريانا وجدّه اللذين كانا يعيشان في كابريليو. كان أنطون يكظم

غيطه، ولكن الاحداث تسارعت ذات يوم وتحوّلت إلى حرب مكشوفة. روى دون بوسكو

نفسه:

"أعلن أنطون لأمي أولاً ثم لي بلهجة الأمر:

- طغح الكيل. اريد أن أنهي أمر كتاب القواعد هذا. لقد اصبحتُ كبيراً قوياً ولم أنكبّ

قطّ على الكتب.

فأخذ مني التكدُّر والغضبُ فأجبتُ بما كان لا ينبغي أن أقوله:

- إن حمارنا لم يذهب إلى المدرسة ولم يفتح كتاباً من الكتب وهو أقوى منك.

فأخرجته هذه الكلمات عن طوره، ولم أستطع إلا بعد الجهد أن أنقذ نفسي من وابل

الضربات والصفعات. وكانت أمي في منتهى الغم، وكنتُ أبكي".

وساعات الحالة في الأيام بعدئذ في جوّ متوتر زاد فيه العداة. كان أنطون مُصرّاً على عناده ولم

يكن يوحنا يقبل ان تدّاس حقوقه وكان يردّ بعنف. ثم انفجرت العاصفة التي رويها في

الصفحات الأولى بسبب كتاب وضعه بجانب صحنه. ولم يتمكن يوحنا من الافلات وتلقّى من

أخيه ضرباً مبرحاً. وفي صباح الغد قالت مرغريتا هذه الكلمات وهي تعرب عن حزن عميق:

"الافضل لك ان تترك البيت".

ذات يوم مظلم من شهر شباط (فبراير) وصل يوحنا إلى مزرعة أسرة موليا حيث قبلوه

قبولهم لأجير، شفقة على دموع ذرفها لما أصابه من حزن لا عزاء له.

ثلاث سنوات في المزرعة وسنة في دار الكاهن

مضت بضعة أيام فقال لويس موليا لدوروتيا (Dorothea) : " لم نخسر إذ أدخلنا هذا الصبيّ في خدمتنا".

أكبّ يوحنا بوسكو على العمل جاداً، وكان مُطيعاً حسن النية، وعمله الاهتمام بالاسطبل، وأشق ما في ذلك العمل تجديد التبن الطريء تحت البقر، وإخراج الروث بالشوكة وعجلة اليد. كان ينظف الحيوانات ويذهب بها ليسقيها، ويصعد الى مستودع العشب، فيلقي في المذود العشب اللازم لذلك اليوم، ويحلب البقر. أجل إن يوحنا لا يقوم بهذا كله وحده. إنه يُطيع وكيلَ البقر الذي يعهد إليه ببعض الأعمال الملائمة لقواه.

وقد أظهر عند المساء أنه صبيّ طيب في وقت الصلاة، فدعته السيدة دوروتيا أحياناً إلى الإشراف على تلاوة السبحة.

وخصّته أسرة موليا بغرفة حسنة مضيئة فيها سرير جيّد لنومه. حالته هنا خير مما كانت في البقي، حيث كان يشارك يوسف في غرفته، ومن الراجح أنه شاركه فيها أنطون أيضاً. بعد بضعة ليالٍ جازف يوحنا فأوقد بقية شمعة، وتلا وقرأ سويعة من الزمن كتاباً من الكتب التي أعاره اياها الأب لاکوا. لم يقل له احد شيئاً فواصل عمله.

مساء السبت استأذن سيّده أن يبيّر صباح الغد إلى مونكوغو، فعاد لطعام الإفطار، ثم رافق السيد موليا، والأسرة كلها إلى القدّاس الكبير.

واستأذن ذلك الاستئذان الغريب في أيام السبت التابعة، فأرادت دورتيا أن ترى إلى أين يذهب الصبيّ: انها تعدّ نفسها مسؤولة عنه لدى أمه، فذهب إلى مونكوكو قبل الفجر، ورأت من بيت صديقة لها يوحنا يصل فيدخل الكنيسة. ورأته يدخل كرسي اعتراف الكاهن فيحضر القدّاس الأول ويتناول القربان المقدس.

كان الناس في ذلك الزمان لا يتناولون القربان المقدس إلا قليلاً جداً. ولم يكونوا يوزّعونه في أثناء القدّاس الكبير، وكان جميع أهل البلد يحضرونه، فمن أراد تناول القربان وجب عليه

الاشتراك في قدّاس يقيمه الكاهن بصوت خافت في ساعة مبكرة.

وبينما تعود به دوروتيا إلى البيت قالت له : " إذا شئت بعد اليوم حضورَ القداس غير

الاحتفالي ، فافعل كما يبدو لك، فلا حاجة بك إلى الاستئذان".

وبينما هو يعترف للأب كوتينو (Cottino) خوري الرعية أسرّ اليه برغبته في أن يصير كاهناً، وأطلعته على ما يعترض سلبيه من المشاكل، فشجّع الأب كوتينو على الاعتراف وتناول القربان المقدس كل أسبوع ، وعلى الصلاة في أثناء النهار وعلى الثقة بالرب، فإذا شاء الله فإن المشاكل سوف تُحلّ. وحثه أيضاً على مواصلة دروسه: وإذا لم يتنافر الأمر في المستقبل وعمله، فسوف يُلقَى عليه مسروراً بضعة دروس ليُعلمه اللاتينية. وأما الآن فإنه يمكنه أن يعيره بعض الكتب.

حبّتان واربع سنابل

عاد ذات يوم يوسف، عمّ صاحب العمل، من الحقول، والعرق يتصبّب منه والمجرفة

على كتفه، وكان الظهر قدّقّ الجرس في قبة مونكوكو، فقعّد الشيخ الكبير على الحشيش وقد

تعب، ليتنفس الصُّعداء، فرأى على غير بعد من المكان يوحنا هو أيضاً على الحشيش ولكنه كان

جائياً يتلو صلاة" التبشير" كما عودّته ماما مرغريتا أن يفعل في الصباح والمساء. فقال يوسف

مُتدّمراً وهو نصف جادّ ونصف هازل:

- مرحى! نحن أصحاب العمل نتعب أشدّ التعب من الصباح إلى المساء حتى نصاب

بالاعياء، وإذا الغلام يهنأ في اثناء ذلك أحسن هناء ويُصلي في سلام الله.

فأجابه يوحنا باللهجة نفسها:

- يا عم يوسف، انت تعلم اني لا اتوانى عندما يجب عليّ أن أعمل، ولكن أمي علمتني أن

أربع سنابل من تنبت من حبّتين عندما يصلي الانسان في حين أنه لا ينبت من أربع حبات سوى

سُنبلتين عندما لا يُصلي الانسان، ولذلك يحسن أن نُصلي قليلا انت أيضاً.

فختم الرجل الكبير السن الكلام بقوله :

- عافاك المولى. هوذا لدينا نحن أيضاً كاهن في البيت.

عندما يأتي فصل الصيف يرعى الغلام البقر، وهو يَنْتَبّه لكيلا تذهب إلى حقول الآخرين

ولا تَأْكُل عشباً مبللاً بالماء على وجهٍ مفرط ولا تتضارب بقرونها.

كان يقعد في ظل الأشجار، والحيوانات ترعى العشب حوله، وكان يجد شيئاً من الوقت

ليقرأ، ولم يكن لويس موليا يتذمر من ذلك ولكنه كان يهز رأسه قائلاً:

- لماذا تقرأ هكذا ؟
- أريد ان أصبر كاهنا.
- أتعلم أنه لا بد اليوم من إنفاق تسعة أو عشرة الاف ليرة للدرس ؟ فأين تجدها؟
- اذا شاء الله خطر الامر ببال بعضهم.

كانت تجيء إلى المروج حيناً بعد آخر أنا (Anna) أكبر بنات أسرة موليا، وكانت في سن الثامنة. رأت أن يوحنا يقرأ بدلاً من أن ينظر إليها تلعب وقالت:

- كُفّ عن القراءة، يا يوحنا.
- سأصير كاهناً ذات يوم وسيجب عليّ أن أعظ واستمع إلى الاعترافات.

فسخرت منه الطفلة:

- أجل، ستصير كاهناً! سَتُظَلُّ بِقَارَأ.

فأجابها ذات يوم:

- إنك تهزأين بي اليوم، يا أنا، ولكن ستأتين وتعترفين لي بخطاياك.

(تزوجت أنا وعاشت طويلاً في موريونودو Moriondo وقد روت تلك الحكاية لاولادها

مرات كثيرة. كانت تذهب إلى فالدوگو Valdocco أربع مرات أو خمسا كل سنة لتعترف للأب بوسكو بخطاياها، وكان هو يرحب بها بفرح كأنها أخته).

فلما عاد الشتاء أذن له أرباب عمله ان يذهب حيناً بعد آخر إلى الأب كوثينو ليتلقى شيئاً من

الدروس، ولكن لم يكن عدد تلك الدروس كبيراً، وكانت بعيدة جداً الواحد عن الآخر فبقيت

بغير جدوى آخر الأمر.

بيد أن صداقة الخوري جعلته يحصل بسهولة على صداقة صبيان مونكوگو. كانت غرفة

الدخول إلى صداقة الخوري جعلته يحصل بسهولة على صداقة صبيان مونكوگو. كانت غرفة

الدخول إلى دار الكاهن في أيام الاسبوع تتحول يوم الأحد إلى مدرسة دينية للأطفال. وكان يوحنا

بوكسو يقوم ببعض الألعاب البهلوانية ويقرأ أطرف حكايات التاريخ المقدس ويُقيم الصلاة مع

أصدقائه الصغار.

ولما كانت رداءة الجوِّ تحُول دون الالتقاء في مونكوگو، كان بعض الصبيان العاملين في

المزارع المجاورة يذهبون إليه في بيت أسرة موليا، فكان يصعد بهم إلى مستودع الحشيش تحت

السقف ويساعدهم على اللهو، ويشرح لهم التعليم الديني.

أقام يوحنا في مزرعة موليا نحو ثلاث سنوات: من شباط (فبراير ٩ ١٨٢٧ إلى تشرين الثاني

(نوفمبر) ١٨٢٩. أكانت تلك السنوات التي ضاعت على دروسه غير مُفيدة للرسالة التي دعاه الله

اليها؟

ذكر بيتروستيلا (Pietro Stella) حَدَّثًا يبدو لأول وهلة شيئاً لا يؤبه له: "ذات يوم لقيت السيدة دوروتيا وابن حميها يوحنا الصبي جاثياً وفي يديه كتاب وعيناه مطبقتان، ووجهه مرفوع نحو السماء، فاضطراً إلى هزّه لشدة ما كان غائصاً في تفكره". وشرح الكاتب ذلك بقوله: "أن تلك السنوات التي فيها تأصلت تأسلا عميقاً الإحساس بالله والتأمل، لم تكن سنوات غير مجدية، فقد استطاع أن يتصل بالله في أثناء عمله في الحقول. كانت سنوات حرارة يتوسل فيها بايمان وهو ينتظر اشارة من الله ومن الناس".

نشر السندرو مانزوني (Manzoni) السنة ١٨٢٧ في ميلانو الطبعة الأولى لكتاب "المخطوبون" ، وأخذ جياكومو ليوباردي (Leopardi) السنة ١٨٢٨ ينظم في ركاناتي (Recanati) قصائده الريفية الكبيرة. واخرج جياكومو روسيني (Rossini) في باريس السنة ١٨٢٩ مسرحيته الغنائية الرائعة "غليوم تل". كان يوحنا بوسكو في أثناء هذه السنوات الثلاث يُنظف البقر في مزرعة نائبة من مونفراتو، ولكنه أخذ يناجي الله.

خاله ميشيل

كانت إقامة يوحنا الطويلة في مزرعة موليا شوكة في قلب ماما مرغريتا. والراجح أنها باحت بما في صدرها لأخيها ميشيل، فلما انتهى العقد (١١ تشرين الثاني "نوفمبر") ذهب إلى ابن اخته ليتحدث اليه، فلقبه يُخرج البقر من الاسطبل.

- إذا، يا يوحنا، أنت مسرور بالبقاء هنا ام لا؟
- كلاً إنني ألقى معاملة حسنة ولكني اريد الدرس. ان السنين تمر، وقد أتممت الرابعة عشرة ومازلتُ كما كنت.

- حسناً رُدّ البقر إلى الاسطبل وارجع إلى البكي. سأكلم أصحاب عملك ثم أذهب إلى سوق كييري (Chieri) ولكن سأمرّ بك في المساء وأرتب كل شيء.
أعدّ يوحنا صرّة ثيابه وودّع السيدة دوروتيا واسطفان والعم يوسف وتريزيا وأنا. لقد صاروا اصدقاء له وسيظلون أصدقاءه طوال حياته.

عاد إلى طريق البكي يسير فيها، ولما صار على مقربة منها، رأته ماما مرغريتا عن بعد، وأسرعت إليه وقالت له:

- إن أنطون في البيت فاصبر قليلاً. اختبئ حتى عودة خالك ميشيل. إذا رآك انطون ظنّ انا هناك حيلة مدبرة والله اعلم ما قد يحدث.

فانساب يوحنا إلى زاوية في السياج وقعد في حفرة. لم ينته الامر بعدُ إذا بل يجب عليه أن

يستعدّ للمعركة.

وصل خاله في أول الليل، وأخذ ابن اخته وقد خدِر جسمه من البرد، وسار به إلى البيت. كان الجو متوتراً ولكن لم تنتشب الحرب. كان انطون قد أتمّ الحادية والعشرين من عمره وكان يستعد للزواج. تلقى انطون ضمناً أنّ معيشة يوحنا ونفقة دروسه لن تكونا على عاتقه، فلم يعترض أيّ اعتراض كان.

اتصل ميشيل بكاهني كاستلنوفو وبوتيليرا (Buttigliera) محاولاً أن يدخل عندهما ابن أخته الطالب، ولكنه أصطدم بعقبات ضخمة. فأتى الحلّ من حيث لم يخطر ببال أحد.

أربعة فلوس من أجل عظة

ففي أيلول (سبتمبر) من السنة ١٨٢٩ جاء الأب يوحنا ملكيور كالوسو (Calosso) إلى موريالدو، وهو في سنّ السبعين، فقد تخلى قبل حين عن رعيته في بروينو (Bruino) لأن صحته ساءت. كان كاهناً جليلاً، أثقلته السنون وحكّته الخبرة في خدمة الرعية، فأقيم مرشداً في موريالدو.

أقيمت رسالة وعظ في تشرين الثاني (نوفمبر) في ناحية بوثيليرا، فذهب إليها يوحنا والأب كالوسو أيضاً.

وبينما الكاهن الكبير السن عائد إلى بيته تنبّه لهذا الصبي في الرابعة عشرة يمشي وحده بين الناس.

- من أين أنت يا بُني؟
- من البكي. ذهبتُ إلى وعظ المرسلين.
- ما أمكنك أن تفهم من جميع هذه الاستشهادات باللاتينية؟ - وكان يبتسم وهو يهز رأسه

وقد كلفه شعره الابيض كالتلج- . لربما كان بوسع أمك أن تُلقى اليك عظة ثلاثمك أحسن من تلك العظة.

- أجل إن أمي تلقي اليّ عظات حسنة مرات كثيرة، ولكن يبدو لي أنني فهمت المرسلين أيضاً.

- أتقول الحقيقة؟ اذا كررت لي أربع كلمات من عظة اليوم أعطيتك أربعة فلوس.

شرع يوحنا في الكلام فأوجز للمرشد العظة من أولها إلى آخرها كأنه يقرأها في كتاب. لم

يدع الاب كالوسو انفعاله يظهر عليه وسأل يوحنا:

- ما اسمك؟
- يوحنا بوسكو. توفي والدي وأنا طفل.

- على أي مدرسة واطببت؟

- تعلمت القراءة والكتابة عند الأب لأكوا في كابريليو. وددتُ لو واصلتُ درسي، ولكن

أخي البكر يُعاند وليس لدع كاهني كاستلنوفو وبوتيليرا متسع من الوقت ليساعداني.

- ولماذا تريد أن تدرس؟

- لأصير كاهناً.

- قل لأمك تأتِ إلي مواجھتي في موربالدو، فقد أتمكّن أنا من مساعدتك مع أخي كبير

السن.

جلست مرغريتا أمام طاولة الأب كالوسو تصغي اليه وهو يقول:

- ان لا بنك ذاكرة خارقة العادة. يجب عليه أن يدرس لوقته ومن غير أن يضيع الوقت. إني

كبير السن ولكني سأعمل كل ما بوسعي أن اعمله.

فاتفقا على أن يجيء يوحنا إلى المرشد ليدرس عنده، على غير بعد كبير من البغي، ويعود

غلى البيت للنوم فحسب، ويساعد ذويه في أوقات العمل الضروري في الحقول.

لقد حصل يوحنا بغبته على ما أعوزه طوال تلك المدة: المعونة الأبوية وراحة الفكر والثقة.

كتب: " سلمتُ أمري لوقتي إلى يدي الأب كالوسو وأطلعتة على جميع أموري وأسررتُ اليه

بجميع ما كنت أقول وبجميع ما أفكر به، فعرفت عند ذلك ما معنى أن يكون للانسان مرشد

دائم، صديق للنفس وفيّ وكنتُ قد حرمتُه مدة طويلة. ومن جملة الامور أنه حظر عليّ نوعاً من

التقشف تعودتُ فرضه على نفسي، ولم يكن يلائم سيّتي. وشجعني على الاعتراف وتناول القربان

المقدس، وعلمني أن أقوم كل يوم بتأمل وجيز أو بشيء من القراءة الروحية إذا فضلتُ ذلك".

"باتطفائه انطفاً كلُّ أمل"

في آخر ايلول (سبتمبر) ١٨٣٠ ذهب يوحنا إلى بيت الأب كالوسو ليقوم عنده الليل أيضاً

(والراجح أنه فعل ذلك لوضع حد للتوتر بينه وبين انطون) فلم يكن يعود إلى البيت إلا مرة في

الاسبوع لكي يُبدّل ثيابه.

كان يتقدم في دروسه تقدماً حسناً سريعاً. وكان الاب بوسكو يذكر ذلك الزمان بانديفاع:

" مامن أحد يستطيع أن يتخيل ارتياحي. كنتُ أحبّ الاب كالوسو حبي لأب، وكنتُ أخدمه في

كل فرصة سانحة. وكان رجل الله ذاك يُظهر لي مودة كبيرة، وقال عدة مرات: " لا تكن في

همّ من مستقبلك. لن أدعك تحتاج إلى شيء ما دمتُ حياً. وإذا متُ فسوف أوقر لك ذلك

ايضاً. " كنت سعيداً على أتمّ وجهه فاذا بكارثة تحطم جميع آمالي".

كان يوحنا صباح يوم من شهر تشرين الثاني (نوفمبر) ١٨٣٠ يبدل صرة ثيابه، فاذا
بامرئ يُخبره أن الأب كالوسو قد أحسَّ بوعكة.

"لم اركض بل طرت" على ما تذكر دون بوسكو. أصيب الاب كالوسو باحتشاء في
القلب، وعرف يوحنا ولكنه لم يستطع أن يخاطبه. وسلم اليه مفتاح صندوق صغير وأفهمه أنا
يُسَلِّمه إلى أحد.

وانتهى الأمر ولم يبقَ للصبي سوى أن يبكي بكاء اليأس على جثمان أبيه الثاني: "بانطفائه
انطفأ كلَّ أمل".

لم يبقَ من الاعلى إلى الأسفل شيء من الأمل سوى المفتاح. كان في الصندوق الصغير ستة
الاف ليرة. وكانت إشارة الأب كالوسو تعني بوضوح أن المال هو ليوحنا، في سبيل مستقبله،
وأيد له ذلك أناسٌ من الذين أسعفوا المحترس، ولكنَّ شخصاً آخر أكَدَّ أنّ اشارات من يموت لا
تعني شيئاً، فالوصية القانونية وحدها تولى الحقوق أو تسلبها".

لما وصل اولاد أخي الأب كالوسو تصرفوا تصرّف القوم الكرام فاستخبروا ثم قالوا ليوحنا:
- يبدو أنّ عمّا كان يُريد أن يترك لك هذا المال. فخذ كل ما شئت.

ففكر قليلا ثم أعلن:

- لا أريد شيئاً.

أوجز دون بوسكو هذه الاحداث في ذكرياته بعبارة واحدة: " جاء ورثة الاب كالوسو
وسلّمت اليهم المفتاح وسائر الاشياء". ذلك العمل عمل سريع يحسم كل خطة فيها طمع. ولما
صار كاهناً اتخذ له شعاراً جملة من الكتاب المقدس هي أيضاً حاسمة: " أعطني النفوس وخذ
البقيّة".

الآن يوحنا وحيد مرة أخرى. أنه في سن الخامسة عشرة ويجد نفسه بلا معلم ولا مال ولا
مشروع للمستقبل. كتب : " بكيْتُ ولم يكن لي عزاء".

الطريق نحو كاستلنوفو

جرى ما جرى ومع ذلك فلا بدّ من مواصلة السير.
 أرادت مرغريتا أن تستدرك مقاومات جديدة من أنطون، فعزمت على تقسيم ممتلكات الأسرة. وهناك سبب آخر لذلك التقسيم لدفع تأويلات مغرضة فقد كان أنطون يوشك أن يتزوج في ٢١ آذار (مارس) بأنا روسو (Rosso) وهي فتاة من كاستلنوفو.
 قُسمت الحقول وقُسم بيت البغي، فأصبح أنطون يملك القسم الشرقي واليه يعود سلم الخشب التي تصعد إلى الطبقة الأولى. وأمّا القسم الآخر فطلت تسكنه مرغريتا ويوسف و يوحنا.
 أخذ يوحنا يسلك طريقه في كانون الاول (دمبر)، فذهب إلى المدارس الرسمية في كاستلنوفو. وقد فتحت الإدارة المحلية بجانب الصفوف الابتدائية، خمسة صفوف لتدريس اللاتينية من درجات مختلفة، ولما كان عدد التلاميذ قليلا في كلّ صف، أخذوا يجتمعون في غرفة صغيرة واحدة إلى معلم واحد: الأب عمانوئيل فيرانو (Virano).

الطعام في القصعة

بدت في أول الأمر الكيلومترات الخمسة التي تفصل بين البغي وكاستلنوفو عقبة يمكن أن يُدّلها يوحنا القوي البنية، وهو في سن الخامسة عشرة، ولكن الدروس مقسومة قسمين: ثلاث ساعات ونصف الساعة قبل الظهر. وثلاث ساعات بعد الظهر. كان الصبيّ يذهب في الصباح ومعه كسرة خبز، ويعود لطعام الغذاء، ثم يرجع إلى سلوك الطريق، ويعود في المساء إلى البيت. كان يسير نحو عشرين كيلومترا في اليوم.
 وجد له خاله ميشيل مكاناً يقيم فيه أثناء النهار، عند رجل طيب اسمه يوحنا روبيرتو (Roberto)، وهو خياط وموسيقيّ البلدة. كان الصبي يتناول عنده طعام الغذاء، وكان يأتي به كل يوم في قصعته.

خمسة كيلومترات في الصباح ومثله في المساء ليس بالشيء السارّ، وخصوصاً في الشتاء. كان

يوحنا يمشي بشجاعة، ولما كان المطر يجعل الطريق وحلاً كئيباً، أو لَمَّا كان الثلج يجعلها ميداناً للترنق، كان يوحنا مثل سائر الفلاحين يخلع حذائيه ويحملها على كتفه. لقد لازمته المطر والثلج والشمس والغبار مدة طويلة. في بعض ليالي كانون الثاني (يناير) لم يجرؤ على سلوك الطريق في العاصفة واستأذن روبرتو في النوم تحت السلم: ولا أسف على طعام العشاء.

ادركت ماما مرغريتا أنّ ابنها قد يفقد صحته على الطريق في ذلك الشتاء، فجاءت وفاوضت الخياط فرضي السيد روبرتو أن يقيم يوحنا عنده اقامة تامة، بأجرة معقولة تُدفع بالحبّ والخمر، فيقدّم له عند الظهر والمساء حساءً ساخناً، وينام تحت السلم، وتزوده أمّه بالخبز. رافقته هي بنفسها إلى كاستلنوفو وقد حملت الكيس الذي يحتوي بضعة أشياء وأمتعة ضرورية لصبي في سن الخامسة عشرة. وأوصلت السيد روبرتو "أن يُلقي عليه نظرة حيناً بعد آخر، وأن يشدّ له أذنه إذا دعت الضرورة إلى ذلك". وقالت ليوحنا: "كرّم السيدة العذراء لكي تجعلك أحسن من ذي قبل".

وجد نفسه في المدرسة مع اولاد في سن العاشرة أو الحادية عشرة. ان معارفه الفكرية ظلت إلى ذلك الحين قليلة، واذا أضيف إلى ذلك ثوب فضفاض يزيد عن حجمه وحذاء ان من الخشب كبيران، فمن اليسير على الورء أن يدرك كيف صار هدفاً للمزاح والسخرية من قِبَل رفاقه. كانوا يدعونهم "بقار البكي".

تألم يوحنا من ذلك وقد كان في الماضي معبود صبيان موريالدو. واذا كان هو من جهته يبذل قصارى جهده ليدرس، فقد كان معلمه يساعده ويقدر شأنه. إن الأب فيرانو صاحب دراية مخدوم. رأى رغبته في الدرس فانفرد به وجعله يتقدم سريعاً. كتب يوحنا ذات يوم إنشاءً حسناً على العازار المذكور في الكتاب المقدس فقرأ الأب فيرانو الانشاء في الصف وعلق عليه بقوله: - إن الذي يكتب هذه الكتابة يحقّ له أن يحتذي حذائي بقار. فالشأن في الحياة للرأس لا للأحذية.

تقوم كاستلنوفو دأستي على مرتفع يبعد نحو عشرين كليومترا من تورينو إلى الشرق. تغطي قمة التلة انقاض قصر، ومعبد القصر بُني على اسم السيدة العذراء في الذروة. كان يوحنا يصعد اليه كثيراً ليسأل السيدة العذراء أن تجعله يصير أحسن من ذي قبل. عدد أهل البلد ثلاثة آلاف تضمّها ستمائة أسرة.

كانت ماما مرغريتا تأتي من البكي كلّ أسبوع فتحمل إلى يوحنا رغيّيه المستديرين الكبيرين، ويجب أن يكفياه مؤونته طوال الاسبوع. كانت تحملها اليه هي بنفسها لكي تطّلع من

كثب على أحوال ابنها، وكانت على صواب في ذلك، فمن بين رفاق يوحنا في المدرسة رعا صغار، ومن اليسير للصبي في تلك السن أن يسلك طريق سوء.

روى دون بوسكو: "تعرّضت في تلك السنة لبعض الخطر بسبب من بعض رفاقي وقد حاولوا أن يُغروني بالقمار في ساعات الدرس. ولما قلت أن لا مال عندي أجابوني: لقد حان لك أن تستيقظ. يجب عليك أن تتعلم الحياة. اسرق من مال معلمك أو من مال أمك. أذكر أنني رددت عليهم: إنّ والدتي تُحِبُّني حبّاً عظيماً فلا أريد أن أشرع في ما سبّب لها كدراً".

كان التعليم في ذلك الزمان مصبوغاً صبغة دينية شديدة. كان نصف الساعة الأولى من الصباح يُصرف دائماً في التعليم الديني، وكانت الحصة الأخيرة من مساء السبت مخصوصة كلها بالثقافة الدينية، وكانت تنتهي بطلبة العذراء القديسة مريم. كان على المعلمين لا أن يُمكنوا تلاميذهم من حضور القداس كل يوم ومن الاعتراف مرة في الشهر فحسب، بل كان عليهم أن يُسهّلوا لهم ذلك كله.

"ليس في البكي سوى حمير"

في نيسان حصل يوحنا حقاً ما كان متأخر فيه، فإذا بحدّث قد جرى أتاه منه عواقب سيئة. أقيم الاب فيرانو خوري رعية موندونيو (Mondonio) فاضطّر إلى ترك المدرسة في يدي الأب نقولا موليا (Moglia).

كان ذلك الكاهن تقيّاً محبّاً للناس ولكنّه كان في الخامسة والسبعين فلم يستطع قط أن يُمسك بزمام تلامذة الصفوف الخمسة الذين يتساكنون في مدرسته، فانتهى به الأمر ذات يوم إلى الغضب وإلى استعمال العصا، فكانت بقية الاسبوع وقت ضجة.

فأتهم الأكبر سناً بأنهم مسؤولون عن اختلال النظام المتواصل، وأظهر لمن يكبرهم جميعاً نفوراً خاصاً، مع أن يوحنا "بقار البكي" يلقي عذاباً شديداً من اضطراب حبل النظام الجماعي فلم يكن المعلم يدع فرصة سانحة تفوته من غير أن يُذله فيقول له:

- ما يسعك أنت أن تفهم من اللاتينية؟ لا ينمو في البكي سوى حمير جيدة جداً، هذا أمرٌ

مفروغ منه، ولكن ليس هناك سوى حمير. أجل إنك تحسن اقتلاع الفطر، والاستيلاء على الاعشاش، فذلك عملك. واما درس اللاتينية فلا.

كان أثرابه قد بدأوا يتركونه وشأنه لما أظهر له الاب فيرانو التقدير، فعادوا إلى شغل حملاتهم عليه، ففضى يوحنا أياماً ضعف فيها عزيمته.

ولكنه أراد ذات يوم أن يثار لنفسه إذ فرض الأب موليا على تلاميذه في أثناء الدرس فرضاً

باللاتينية، وكان على يوحنا أن يقوم بالترجمة مع تلاميذ صفه، فاستأذن المعلم أن يُحاول ترجمة موضوع التلاميذ الذين فوق صفه بصفين.

- من تعدّ نفسك؟ عُد إلى دُرْجك، ولا تُحاول أن تتصرّف تصرّفَ الحمار على عادتك.

فألحّ يوحنا فقبل الأب موليا آخر الأمر:

- إفعل ما تشاء ولكن لا تظنّ أني سأقرأ حماقاتك.

ملك الصبي ما شعر به لما أصابه من التحقير وأكبّ على الترجمة. وكان فيها مشكلات

عسيرة ولكنه شعر أنّه قادر على حلّها. وكان في عداد أول الذين فرغوا منها، فاخذ المعلم الورقة ووضعها جانبا فقال يوحنا:

- أسألك أن تقرأها وتقول لي الأخطاء التي ارتكبتها.

- اذهب إلى مكانك ولا تبرمني .

فلم يتراجع يوحنا بل ظلّ يبتسم ويُصير:

- لا أسألك جهداً كبيراً، بل أن تقرأها فحسب.

قرأها الاب موليا. كانت الترجمة جيدة جداً بل من الجودة ما جعله يخرج عن طوره مرّة

أخرى:

- لقد قلت: لا خير فيك. إنك نسختَ هذا الفرض من الألف إلى الياء.

- وممن نسخته؟

كان أثرابه لا يزالون يعضّون على أقلامهم وهم يبحثون على الجمل الأخيرة. فاغتاظ المعلم:

- هذه قحة ! أسرع إلى مكانك وعُدّ نفسك سعيداً لأنني لم أطرّدك من الصف.

كان تصلب الشرايين قتالا حتى في ذلك الزمان والتغرُّض أيضا.

كانت نهاية تلك السنة سلسلة من أشهر المعاناة. لم يذكر دون بوسكو أسم موليا

في ذكرياته. كان يوقر كبار السن، ولكنه لمح إلى " امرئ عجز عن تحقيق النظام فكاد يجعل كلّ

ما تعلمته في الأشهر السابقة يذهب أدراج الرياح".

الثوب الكهنوتي الذي "يفصل"

وهناك شوكة أخرى تؤلم يوحنا ألماً كبيراً في تلك الأشهر، فقد عرف كاهنين فدّين هما الأب

كالوسو والأب فيرانو فاستنتج أنّه ليس هناك كهنة يختلفون عنهما. كتب : " كان يتفق لي أن

أصادف خوري رعيتي على الطريق يصحبه المرشد، فكنت أسلم عليهما عن بعد، وإذا وصلتُ

إلى القرب منهما كنت أنحني إجلالاً لثوبهما الكهنوتي. وأما هما فكانا يظلان بعبيدين، ويكتفيان

بالرد على سلامي بأدب من غير أن يتوقفا في سيرهما".

كان يبدو أن ثوبهما الكهنوتي الاسود يفصلهما عن سائر الناس. كانوا يعلمون في تلك الأيام ما هو الموقف الأليق برجال الكنيسة: التحفظ والوقار والابتعاد.

"كنت أستاء من ذلك استياءً شديداً فأقول لأصحابي: إذا اتفق لي أن أصير كاهنا فسأفعل ما يخالف ذلك مخالفة تامة، سأنقرّب من الأحداث وسأقول لهم كلاماً طيباً وأنصح لهم نصائح حسنة".

لم يخطر ببال يوحنا أن عزمه هذا سوف يحدث ثورة صامتة بين الكهنة في الثمانين السنة التي ستنتبع. سيدرك الناس في معاهد الكهنوت أن ذلك الصبي كان على صواب، وسيربّون أجيال الكهنة الجديدة لا بحسب الوقار الذي يُبعد، ولكن بحسب اللطف المبتسم الذي يُزلّ البُعد. كان يوحنا في موريالدو يصرف وقت فراغه بعد الدرس، وهو يتجاذب اطراف الحديث بهدوء، والأب كالوسو. كان الكاهن الكبير السن يُحيي ذكر ماضيه، وكان الصبي يحلم في مستقبله. ثم كان يمضي إلى الكنيسة فيُكئّسها، ويرتّب أدوات المطبخ، ويقلب ما في المكتبة حبا للاطلاع على ما فيها.

وأما هنا في كاستلنوفو فان الكهنة يأبون التحدث إليه، فكيف يصرف وقت فراغه؟ كان أول ما صرف فيه وقته الموسيقى. كان السيد روبيرتو معلّم الغناء في الرعية. عنده في البيت بيانو صغير وكان يوحنا يرافقه أحياناً إلى الكنيسة فيتمرنّ على ملامس البيانو الصغير والاورغن.

ولكن روبيرتو هو قبل كل شيء خياط البلدة، فكان العمل الثاني الذي يصرف فيه يوحنا وقته، الجلوس بجانبه وتعلّم خياطة الأزرار، وفتح العرى، ودرز المناديل، وتفصيل السترات، وقد نجح في ذلك نجاحاً حسناً حتى إن معلمه عرض عليه أن يترك المدرسة ويصير عاملاً عنده.

عاد الأب موليا في شهر نيسان (ابريل) يُظهر له الكراهية، وأقنعت الضجّة يوحنا أنه يضيع وقته، فاتفق مع والدته على أن يذهب للعمل بضع ساعات في كل يوم عند حداد اسمه ايفازيو سافيو (Evasio Savio) فتعلم استعمال المطرقة والمبرد والعمل في الكور.

لم يخطر ببال يوحنا بوسكو على الاطلاق حينذاك أن هذه الصناعات سوف تُفيده في فتح ورشات من أجل الصبيان الفقراء في جوار تورينو، وهمّه الواحد عند ذاك أن يدّخر شيئاً من المال، فقد احتاج إليه حاجة كبيرة بعد وقت قليل إذ عزم مع ماما مرغريتا على أن يخطوا في العام القابل خطوة فيها خطر ولكنها حاسمة: الذهاب إلى مدارس كيبيري (Chieri).

"يجب عليّ أن أدرس"

أعدّ يوحنا صرة ثيابه وسلم على السيد روبيرتو ولم يعد إلى البقي بل ذهب إلى سوسامبرينو (Sussambrino) وهي مزرعة استأجرها أخوه يوسف مع يوسف فبرارو (Febraro) وقد تركت مرغريتا هي أيضاً البقي في الوقت الذي تركها فيه ابنها.

قضى يوحنا أشهر الصيف وهو يدرس باجتهاد، وقد أبى أن يجد نفسه متأخراً في كيبيري، ولكنه أبى أيضاً أن يكون عبءاً لا يطاق حمّله على أخيه، ولذلك كان يساعد في أعمال الحقل: فيُصلح أدوات الزراعة في كور مرتجل، ويذهب بالبقر إلى المرعى. وعمله هذا يُتيح له الفرصة السانحة للقراءة والدرس.

ذكرت روزا فبرارو بنت يوسف أنه كان من عادة يوحنا ان يُؤخّذ بكتبه كلّ مأخذ حتى إنّ البقرات كانت تسير على هواها. وكانت ، وهي صغيرة في سن العاشرة، تجري وراءها في الحقول، وتجتاز أخاديد الذرة الصفراء لكي تعيدها إلى التلميذ، قبل أن يشكو من أمره أصحاب عمله.

- إنّ بقراتك تأكل الذرة الصفراء .
- شكراً يا روزا.
- ولكن لماذا تذهب بها إلى المرعى، إذا كنت لا تراقبها بعد ذلك؟
- يجب عليّ أن ادرس يا روزا فأسهو حيناً بعد آخر.
- صحيح أنّك تريد أن تصير كاهناً؟
- نعم
- اذا فإن شئت فسوف أنظر بقراتك، وعلى كل حال يجب عليّ أن احرس بقراتي.

شكرها يوحنا وعاد إلى الانهماك في كتبه.

حلم يعود

صار يوحنا في كاستلنوفو صديقاً لآحد الذين معه في الصف، هو يوسف توركو (Turco).
أبو يوسف صاحب الرنينتا (Renenta) وهي مزرعة مجاورة لسوسامبرينو. إن هذا الفلاح رجل
طيب ومسيحي صالح وهو يمرّ أحياناً بالقرب من يوحنا وهو يدرس.

- نرجو يا يوحنا أنك ستكون موقفاً هذه المرة.
- شكراً ايها السيد توركو، فأنا أيضاً أرجو ذلك، ولا اخاف سوى امر واحد وهو أن لا

تتمكّن والدتي من دفع النفقة في كييري.

- ولكن الله موجود، اليس كذلك؟ فإذا أراد ذلك فإنه يُمهّد الطريق كما ستري.
- علينا بالرجاء ومع ذلك فأني لا أزال أخاف.

ابتسم ولكن في ابتسامته كآبة. وكيف يُنسب إلى الخطأ بعد كلّ ما أصابه!

ذات يوم رآه السيد توركو وابنه يأتي راكضاً سعيداً وكله حماسة . قال:

- إنّ الاخبار حسنة. حلمتُ في هذه الليلة حُلماً. رأيتُ أني سأصير كاهناً وأهتمّ بجمهور

من الصبيان.

فقال السيد توركو حائراً:

- ما ذلك إلا حلم ويا لسوء الحظ.
- لا يسعك أن تفهم ذلك. اما أنا فهذا كافٍ لي. الامر جدّ هذه المرة.

ففي الليلة التي قبلها تفتّح له مرة أخرى الوادي الذي رآه في الحلم وهو في سنّ التاسعة.

رأى مرّة أخرى القطيع والسيدة المتألّنة التي تريد أن تسلمه إليه فكرّرت له قولها: " كن متواضعاً
شجاعاً قوياً ففي الوقت الموافق تفهم كل شيء".

يُقيم أهل ناحية مونتاڤيا (Montafia) عيد شفيحهم في أيام الصيف، وهي غير بعيدة. علم

يوحنا أنهم أقاموا سارية ملساء في أعلاها الجوائز الاولى، وبينها صرّة فيها عشرون ليرة.

قال في نفسه: " ان هذا يُسعفني إسعافاً حسناً". فذهب إلى العيد.

كانت السارية عالية جداً ملساء مدهونة بالزيت والدهن. نظر أطفال الناحية إلى الدوائر

الحديد في الأعلى وقد عُلق بها رزم صغيرة، ولحم مقدّد، وزجاجات من الخمر، والصرة، وكلها

يتأرجح. وبصق بعضهم في كفيه حيناً بعد آخر وحاول التسلق بين هتافات الجمهور. كان جميع

هؤلاء المتسلّقين يبأشرون عملهم بسرعة كبيرة ولكن إذا وصلوا إلى نصف السارية، أخذهم

الاعياء، فانزلقوا بين تصفير المشاهدين وزئيرهم.

وتقدّم يوحنا بغيته بعد ما درس الحالة درساً حسناً. فدنا من أصل السارية، وبصق هو أيضاً في كفيه، ثم اعتنق الجذع فأخذ يصعد ببطء ومن غير أن تتوتر اعصابه. وكان يقعد على مؤخر قدميه أحياناً لكي يتنفس الصعداء. كان يعمل في مونكوغو سنة ليحصل على خمس عشرة ليرة، وهنا فوق رأسه بيضعة أمتار، عشرون ليرة. إنه متأهب ليقضي النهار كله على السارية إذا وجب ذلك.

ظل يرتفع بتؤدة حتى وصل إلى المكان الذي تصبح فيه الشجرة رقيقة، فتنفس الصعداء مرة أخرى وقام بآخر حركات ذراعية وظل الجمهور في الأسفل صامتاً. مدّ يوحنا يده، وفكّ الصرة، وهي تحوي العشرين ليرة، ووضعها بين أسنانه، وجذب أيضاً قطعة من اللحم المقدّد ومندبلاً وانزلق ينزل.

النفور من مدّ اليد للاستعطاء

لم يكن العشرون ليرة التي حصل عليها من السارية الملساء كافية لكي يقوم بنفقة إقامته في كييري. فعليه أن يشتري ثياباً وأحذية وكتباً، وعليه خصوصاً أن يدفع نفقة شهرية. ان دخل مزرعة سوساميرينو ليس منجماً من الذهب. قال يوحنا لأمّه في شهر تشرين الأول (أكتوبر):

- إذا وافقت فاني سأخذ كيسين، واطوف على أسر القرية لأجمع ما أعطاه.

كان في عمله ذلك تضحية بأنفته كبيرة. سوف يصبح يوحنا بوسكو أكبر "شحاذا" في القرن التاسع عشر، ولكن طلب الصدقة شق عليه كثيراً دائماً ابداً. في تشرين الأول ذاك تغلب أول مرة على نفوره من مدّ اليد للاستعطاء.

كانت محلّة موربالدو كناية عن جملة من الضيع والمزارع الصغيرة المتفرقة. ذهب يوحنا من بيت إلى بيت وقرع الباب فقال:

- أنا ابن مرغريتا بوسكو. إني ذاهب إلى كييري لأدرس فأصير كاهناً. أمّي فقيرة فساعدوني إذا كنتم تستطيعونه.

جميع الناس يعرفونه، وقد شهدوا ألعابه وسمعوه يعيد العظات. إنهم يحبّونه كثيراً ولكن الأغنياء قليل عددهم. إنهم يُعطونه بيضاً وذرّة صفراء وبضعة مكابيل من القمح.

مضت امرأة جريئة من البكي إلى كاستلنوفو وذهبت توّأ إلى خوري الرعية الاب دسانو (Dassano) وقالت له إنه من العار أن لا يُساعد مثل ذلك الصبي الطيب، في دروسه، ويُترك

يمضي إلى طلب الصدقة من باب إلى باب. لم يكن يعرف الأب دسانو شيئاً من ذلك فظنّ أنّ يوحنا عاد إلى دروسه في كاستلنوفو في شهر تشرين الثاني (نوفمبر) فاستخبر عنه فتأكّد له صحة الأخبار

فجمع قدراً من المال صغيراً وبعث به إلى مرغريتا ، وأرسل فقال لها تأت وتكلم لوشيا مّتي
(Lucia Matta) وهي ارملة ستنزل في كيبيري لتراقب دروس ابنها.

كانت النصيحة حسنة ، فكلمت مرغريتا تلك السيدة واتفقتا على أن يسكن يوحنا عندها في
كيبيري مع ابنها . الأجرة احدى وعشرون ليرة في الشهر ، لا تستطيع ان تدفعها كلها بالنقود ،
ولكنها وعدت بأن تقدّم قدراً من الدقيق والخمر . وتعهد يوحنا أن يعمل خادماً في البيت : يأتي
بالماء ، ويُعدّ الحطب من أجل المطبخ والموقد ، وينشر الغسيل .

في الأيام الأخيرة من تشرين الأول (اكتوبر) مثل يوحنا بين يدي خوري كاستلنوفو ليحصل
على الإذن بدخول المدرسة ، وكان لا بدّ لكلّ تلميذ ليكتتب في المدارس الرسمية ، من الحصول
على شهادة حسن سلوك من الكاهن ، وكان يتعهد أيضاً أن يراعه في أيام عطلته وأن يخبر بسوء
سلوكه اذا حدث شيء من ذلك . اتخذ هذه التدابير الملك كارلو فيليتيشي (Carlo Felice) الذي
ثوّفي في تورينو في تلك السنة عينها، بعد لقبه "الأحرار" (١) كارلو الشرس.

سار التاريخ سيره

بينما يعيش يوحنا عيشه العسير في تلال كاستلنوفو ، سار التاريخ سيره . لا ننوي أن نرسم
صورة كاملة لتاريخ ايطاليا ، ولم نرسم مثل تلك الصورة في الصفحات السابقة ، ولكن يبدو لنا
أمراً جوهرياً أن نوضح بعض مظاهرها المهمّة ، لأن أبرز أحداث حياة يوحنا بوسكو الشخصية
جرت في ذلك التاريخ ، ومنه أنته مشاعره وأفكاره وإحساسه .
استعاد الأمراء حكمهم القاسي الرجعيّ فهبت لمقاومته الجمعيات السريّة التي دبّرت الفتن
والتمردات بعد أن تسرّبت إلى ايطاليا في السنوات ما بين ١٨١٥ و ١٨٢٠ .

وفي كانون الثاني (يناير) ١٨٢٠ انطلقت الشرارة في مدينة قادش (Cadix) في اسبانيا ، فقد
اضطرّ تمرّد عسكري فرنادو السابع إلى وضع حدّ لحكمه المطلق ومنح دستور يضمن لكلّ
شخص الحريّات الجوهريّة وحق الاقتراع . وأقسم الملك نفسه اليمين لمراعاة ذلك الدستور .
أشعلت الشرارة الحريقَ في ايطاليا بعد ستة أشهر . ثارت فرقة صغيرة من الفرسان في مملكة
الصفليّتين ، وهي تصيح : عاشت حرية الدستور ، فمنح ملك نابولي الشعب بعد ثمانية أيام
دستور قاديش ، وأقسم بالانجيل أنّه يلتزم العمل بذلك الدستور ، وبغته أن يحتفظ بعرشه.

(١) يطلق في ايطاليا "الحرّ" على الذي ينادي بالحريّات (حاشية من المترجم)

في ١٠ آذار (مارس) (اذ كان يوحنا بوسكو في سن السادسة) ابتدأ التمرد العسكري في البيمونته أيضاً ، يقوده الكونت سانتورّي دي سانتاروزا (Santorre di Santarosa) . أنزل علم أسرة سافويا الازرق في ألسندرية ، ورُفِع على القلعة الألوان الثلاثة (وهي تذكر بالثورة الفرنسية وحقوق الانسان التي أعلنتها) . وتمرد حاميتا بنيرولو (Pinerolo) وفرتشيللي (Vercelli) وزحف عقيد في الجيش إلى تورينو على رأس لواء ، فارتعب الملك فيثوريو عمّانويل وأسرع من مونكالييري (Moncalieri) إلى تورينو وجمع مجلس التاج فسمع من عرض عليه أن يمنح الدستور لكيلا يفقد كل شيء ، وبينما هو يهّم بذلك إذا بخير يصل ، فيه أن النمسا عزمت على التدخل في ايطاليا "لتعيد النظام إلى نصابه".

واشدت وطأة الأحداث على فيثوريو عمانوئيل فتخلّى عن عرشه لأخيه كارلو فيلييتشي ، وكان حينذاك في مودينا (Modena) عند حَمِيه فأعلنَ الأمير الشاب كارلو البرتو (Carlo Alberto) وصيّاً على العرش (وهو في سنّ الثالثة والعشرين) .

"اذهب فقل للأمير"

اتصل كارلو البرتو بسانتاروزا (Santarosa) ، وكان يقدر آراءه ، ولكنه لم يستطع قط أن يعزم على الحكم المطلق أو على حكم "الأحرار" . وقد ظهر منذ ذلك الوقت طبعه المتردد وقد أكسبه لقب "الملك تبتتا" أي الملك المتردد الذي يتأخر في عزمه على الأمور . أراد شيئاً واحداً مهما كلفه ثمنه وهو أن يحتفظ بحقه على العرش وأن يدافع عنه في وجه النمساويين والأحرار . اجتمع حشد كبير تحت نوافذ قصر كارينيانو (Carignano) وطلب بالدستور (أتراه كان يعرف الموضوع حتى المعرفة؟) فرضي كارلو البرتو . وفي مساء الثالث عشر من آذار (مارس) ١٨٢١ وقع على الدستور قاش وبعد يومين اقسام اليمين بأن يلتزم العمل به ، وألف حكومة جديدة أصبح فيها سانتاروزا وزيراً للحربية.

لما تلقى كارلو فيلييتشي في مودينا (Modena) رسالة من كارلو البرتو يطلعه على ما جرى ، غضب وصاح بالنبيل كوستا (Costa) الذي أتاه بالرسالة : " اذهب فقل للأمير ك اذا كان لا يزال في عروقه قطرة من الدم الملكي ، فليمض لوقته إلى نوفارا (Novara) وينتظر فيها أوامري". عزم كارلو البرتو بادئ ذي بدء على المقاومة ، ولكن أخباراً مفاجئة وصلت من نابولي : إن جيشاً نمساوياً سحق جيوش الأحرار ، وحل المجلس ، وخلع الحكم الدستوري . فالتجأ الأمير الشاب إلى نوفارا وأذاع هناك بياناً أعلن فيه أنه تخلى عن الوصاية على العرش ، ودعا الناس إلى الخضوع للملك ، وذهب لوقته بعد ذلك غلى المنفى في فيرنزه (Firenze).

وتقدّم عودة كارلو فيلييتشي إلى البيمونتة وصولاً جيش نمساوي أشاع الهزيمة بين متطوعي سانتاروزا و " اعد النظام إلى نصابه" فحكّم بالموت على سبعين من قادة الثورة (كان ثمانية وثمانون منهم قد هربوا إلى سويسرة وفرنسا) وعزل ثلاثمائة ضابط وثلاثمائة موظف مدني، وأغلقت جامعتا تورينو وجينوى لمدة سنة . كتب كارلو فيلييتشي إلى أخيه في المنفى : " إن جميع الذين درسوا في الجامعة فاسدون . الأشرار كلهم أناس متعلمون ، والصالحون هم كلهم جهلة".

كانت "حركات ١٨٢١" ، كما يقال لها في كتب التاريخ ، أحداثاً تناولت البورجوازية وحدها ، وهي كناية عن الطبقات الوسطى من الشعب ، فطلت طبقات الفلاحين والعمال غير مبالية بذلك كله ، بل كانت أحياناً معادية على وجه سافر . كانت الطبقات الوسطى (التجار وصغار المتعهدين والصناعيين ، والموظفون المدنيون والعسكريون) يبعثون من خلال "ثورة الأحرار" هدفاً واحداً هو أن يتحولوا إلى جماعات حاكمة ، إلى زمرة ذات امتياز ، تحل محل الطبقة الأرستقراطية القديمة . إن الإصلاحات المطلوبة والتي وافق عليها دستور قادش لم تكن شعبية ولا ديمقراطية فكان حق الاقتراع مقصوراً على أصحاب قدر من الثروة : كانوا وحدهم يستطيعون أن يبعثوا بممثلين إلى المجلس ، فييدافعون عن مصالحهم ، كما الأمر هو واضح . فما أرادت الثورة الفرنسية فعله من قبل أرادته أيضاً ثورة الأحرار : القضاء على جميع الامتيازات ما عدا امتيازاً واحداً أي الثروة.

" ملك بنعمة الله دون سواه "

لم يعد كارلو فيلييتشي إلى تورينو إلا في شهر تشرين الأول (أكتوبر) ١٨٢١ . كان ذلك الشخص، إذا نظرنا إليه اليوم، عجيباً طريفاً. لم يُرد قط أن يصير ملكاً . كان يُحبّ العيش في العزلة والتواضع وكان شديد التدين . لقد تقبل العرش لأمر واحد هو "واجب الضمير". ولكنه منذ أن تقبله ألزم نفسه العمل إلى أقصى حد بأفكاره في الحكم المطلق الصلب . لم يكن أيُّ فكر أبعد من ذهنه مثل فكر "سيادة الشعب" (وهو مبدأ استنبطه فلاسفة الانوار في سني ١٧٠٠ وأعلنته الثورة الفرنسية) : إنّه هو الملك وليس الشعب.

سلم احتكار التعليم الرسمي إلى رجال الكنيسة ، وأخضع مراقبة الكتب إلى المجلس الكنسي والمطارنة وفرض نظاماً شديداً في المدارس ، والتعليم الديني اليومي ، والصلاة قبل الدرس وبعده . إن المدارس التي ذهب إليها يوحنا بوسكو في كيبيري (اربع سنوات في المدرسة الرسمية وست سنوات في معهد الكهنوت الكبير) والكتب التي قرأها ، وساعات الدوام التي

فُرضت عليه ، والمنظمات التي عاش فيها : ذلك كله حَمَل " علامة مصنع " كارلو فيلييتشي .
عزل الملك اليهود مرةً أخرى في حيٍّ خاصٍّ بهم ، ونزع منهم الحقوق التي اعترف لهم بها
قانون نابليون ، ووافق على أنظمة عسكرية تقضي : " ان الجندي الذي يُلقى صيحات أو
خطابات تدعو إلى التمرد ، يُضرب من مائة إلى مائة وعشرين ضربة عصا ، ويتخللها يوم من
الراحة (نظام القنّاصة) ، وأراد أن يصير كل حكم بالموت "عبرة مفيدة" لكل متهوّس ،
فوافق على "وضع الكماشات المحميّة بالنار" على المحكوم وهو يساق إلى الموت . وهذا هو السبب
الذي من أجله لُقّب "كارلو شرس".

لم يفهم قط ما صاح به بيان مغفل ألفه بروفيريو (Brofferio) ودورانو (Durando) على
جدران تورينو : " يا جلالة الملك ، إنّ رعاياك ليسوا أشياء بعد ، بل هم أشخاص " . إنهم في
نظره رعايا ، وذلك كافٍ ، أي إنهم أناس يجب عليه أن يحفظهم في الطريق الصالح بالشدة .
وصفَ مَسِيْمُو دازيليو (Massimo D Azeglio) عشر سني مُلكه ببضع كلمات : استبداد يفيض
نِيَّاتٍ مستقيمة صالحة .

توفي السنة ١٨٣١ وترك العرش لكارلو ألبرتو ذلك الذي ما أنفك طوال حياته يسميه "الفرخ
الفاقد من أسرتنا" . وقد وجد الوقت اللازم ليقراً الاخبار المزعجة عما يجري في مودينا وبارما
وبولونيا . فان الأحرار (شأنهم في السنة التي قبلها في باريس) قد ثاروا مرة أخرى على حكم
الأمراء المطلق ، فاضطرت النمسا إلى إرسال جيوش تسحق الثورة التي بعثها رجل صناعة اسمه
تشيرو مينوتّي (Cirm Menotti) وقائد اسمه كارلوزوگي (Zucchi) . وخافوا أيضاً أن يجتاح السافويا
لواء من المتطوعين المجتمعين في ليون ولكن الشرطة الفرنسية فرقتهم .

"طويل حزين كالصوم الكبير"

خلفه على عرش تورينو كارلو ألبرتو في سنّ الثالثة والثلاثين . لقد جدّد لنفسه ، في نظر
انصار الحكم المطلق والرجعيين ، "اسماً مُطَهَّراً" في إسبانيا لأثّه حارب الاحرار ، فانقم هؤلاء
فسمّوه في مؤلفاتهم "الخائن" و "الحانث" . كان شاحب اللون، ذا قامّة شاهقة ترتفع مترين
وأربعة سنتمترات . كان الصغار من الشعب في البيمونته يقولون : " طويل حزين كالصوم
الكبير" . أراد أن يُثبت للفريقين المختلفين أنّه لم يظل الامير الذي وقّع على الدستور ، فأمر بقتل
سبعة من أنصار مازيني (Mazzini) بالرصاص في ألسندرية السنة ١٨٣٣ ، وعشرة في جينوى ،
وحكم على سبعين آخرين بالاشغال الشاقة في قذف السفن .

ولكن البيمونته وإيطاليا تبدّلا على رغم المحاولات لإيقاف عجلة التاريخ .

أصبحت البورجوازية طبقة مهّمة حقاً، وإذا لم تفهم بعد ما هي "الحرية الديموقراطية" ،
فانها تحتاج إلى "الحرية التجارية" لكي تنتشر في شبه الجزيرة رخاءً أفضل.
في البيمونته تُحفر القنوات ، وتُجفّف المستنقعات ، وتُقطع الأحراج ، وتوسّع زراعة شجر
التوت والقمّ والكروم ، وتنتشر زراعة البطاطا التي وضعت حدّاً للجماعة الشديدة الدورية في سني
القط ، ويُفتح نحو ثلاثين منجماً للحديد وتوسّع صناعة الخزف . تمتاز برا (Bra) بدباغة
الجلود ، ويُعترف لكونيو (Cuneo) بأنها أول سوق في أوروبا للشرايق . وما إن خفض كارلو البرتو
الضريبة على الصفوف حتى صارت ببيلا (Biella) مركز صناعة للصوف مزدهرة ، فنّمت معامل
الغزل ، ووصلت أولُ غنم "مرينوس" إلى البلاد . وشعر الناس بالحاجة إلى توسيع شبكة
الطرق ، وإلى الشروع في بناء السكك الحديدية .
ومال التفكير السياسي هو ايضا إلى التجدد على وجه لا رجعة فيه . في الأشهر الأخيرة من
السنة ١٨٣١ انشأ مازيني (Mazzini) في مرسليليا "إيطاليا الفتاة" وانتشرت فكرة إيطاليا "الأمة":
انها شخصية تاريخية لها تقاليد ثقافية شعبية ولها حق الحرية والاستقلال . وأخذ الإيطاليون
يدركون على وجه تدرّجي أنّ لهم مصيراً مشتركاً ، وأنه يجب عليهم أن يصيروا حكماً لهذا المصير ،
كلهم معاً أو مكان الملوك الذين عدّوهم إلى ذلك اليوم قطعاً من الفصّر العاجزين.
نشر سيلفيو بليكو (Silvio pellico) في تورينو السنة ١٨٣٢ سُجوني وهو كتيّب هزّ إيطاليا
وجعلها تفكر على وجوه مختلفة . افترض امر النمسا ، بعد ما ظلّت تبدو إلى ذلك الحين حارسة
النظام والرخاء الاجتماعي ، في الصفحات المعتدلة الكئيبة التي أنشأها الكاتب بعدها قضى عشر
سنين في الأعمال الشاقة ، لقذف مراكب امبراطور فيينا فكشّف عن وجه الحكومة النمساوية
واستبدادها القاسي الذي يقمع ويُعدّب .

اعوام النضارة في كييري

كان اليوم الرابع من شهر تشرين الثاني (نوفمبر) وهو يوم نير من الصيف الثاني على ما يقال : بين تشرين (اكتوبر) وتشرين (نوفمبر) صيف ثان . وكان يوحنا بوسكو مسافراً مع رفيق له من سنه اسمه يوحنا فيليبيلو (Filippello) ، مشياً على الاقدام إلى كييري . كان يوحنا وهو على الطريق يُسرّ الى صديقه فيكلمه على دروسه ويروي له احداث حياته في الماضي وما حاول القيام به ، فسأله بغتة فيليبيلو وكان فتى على شيء من السذاجة :

- لم تدرس في المعهد في الماضي وانت مع ذلك تعلم جميع هذه الاشياء الكثيرة ؟ ستصير كاهنا بسرعة .

- أتعرف ما معنى القول أن يصير الانسان كاهناً ؟ على الكاهن اعباء ثقيلة جداً . يجب عليه عندما يقوم بعد طعام الغذاء أو العشاء أن يفكر : لقد تناولت غذائي ، هل أكل ابناء رعيتي ؟ يجب عليه أن يقسم ما عنده بينه وبين الفقراء . يا عزيزي فيليبيلو ، لن أقبل أن أصير خوري رعية . أريد أن أنذر حياتي كلها للأحداث .

بينما يسير الفتيان ، وهما يتكلمان على الجوع والفقراء ، بدأت في ليون على بعد ٢٥٠ كيلومترا فقط في طريق الجو ، ثورة عمال الحرير . نزل آلاف منهم إلى شوارع يحثجون على قلة الاجور ، وساعات العمل غير الانسانية بكثرة عددها : نحو ثمانى عشرة ساعة كل يوم . دامت معارك الشوارع عدة ايام ، ثم انتهت الفتنة ، وقد خنقتها الجيوش التي أرسلتها الحكومة الفرنسية وقتل اكثر من الف رجل . وفي السنة التي بعدها اندلعت الثورة في باريس ، وسببت موت ثمانمائة شخص ، وفي ربيع ١٨٣٤ ثار عمال ليون وباريس معاً وهم يصيحون : " نعيش ونحن نعمل ، أو نموت ونحن نحارب " . فقدفوا بقنابل المدافع .

لم يستطع يوحنا بوسكو الاطلاع على شيء من ذلك ، ولم يتسرب خبر واحد من الصحف الخاضعة للمراقبة الشديدة ، الى مملكة بيمونته . سمع يوحنا حينابعد آخر "بحركات الأحرار" . اكتشفت مؤامرة في تورينو أنهم بها "فرسان الحرية" يقودهم بروفيريو (Brofferio) وبرساني

(Bersani) ، ففضى كارلو البرتو عليها بشدة فكلف ذلك برساني سبع سنوات من السجن في قلعة فينستريلي (Fenestrelle) . كانت "الثورة" التي يتكلمون عليها حيناً بعد آخر بكلمات مبطنة ، تريد أن تشير بايطاليا نحو " الدستور " والاستقلال عن النمسا ، وقد سميت تلك الثورة بعد قليل ريزورجيمنتو (Risorgimento : النهضة) . بيد أن يوحنا لم يكن يُلم أي المام كان بثورة أخرى عميقة جذرية تُبدل شمال اوروبا ، ولن تلبث أن تدخل ايطاليا : هي "الثورة الصناعية" وبها ترتبط " المسألة العمالية" العظيمة الشأن . أخذ يرى نتائجها الاولى المفجعة بعد عشر سنوات لما دخل تورينو .

دعامة بين الصغار

كتب دون بوسكو : " نزلت عند لوشيا متي (Lucia Matta) ، وقد بقيت أرملة ولها صبي ، وكنت أكل وأشرب عندها . وكانت قد جاءت وابنها الى كييري لكي تراقبه وتُعنى به " . وصلت مرغريتا بعد قليل في عربة لبعض الاصدقاء ، ومعها كيسان من الحبوب ، فذهبت الى ابنها لتراه عند السيدة متي فقالت لها : " هوذا ابني ، وهذا مما يجب عليّ دفعه لنفقته . لقد قُمتُ بقسطي ، وسيقوم ابني بقسطه ، وارجو أنك لن تكوني مستاءة منه " .

" كان اول شخص عرفته الاب بلاسيد فاليمبيرتي (Valimberti) واني اذكره أحسن ذكر . فقد نصح لي نصائح حسنة ، وسار بي الى رئيس الدروس وقدمني للاساتذة . كنت قد تعلمتُ الى ذلك الحين تُتقاً من كل شيء ، فلم أحصل على نتيجة طيبة فاخاروا هذا الحلّ وهو أنهم جعلوني في الصف السادس .

فاظهر لي المعلم الاب فاليريانو بونيتي (Pugnetti) كثيراً من المحبة . فقد كان سيّ (سنة عشرة عاما أتممتها) وقامتي تُظهر انني بمظهر الدعامة بين أترابي الصغار . كنت شديد الرغبة في التخلص من هذا المأزق فُقِبتُ ، بعد شهرين في الصف السادس ، لأقدّم فحص الانتقال الى الصف الخامس (١) ، ونجحتُ فيه .

دخلتُ مرتاحاً صغيّ الجديد . كان المعلم الاب العزيز فاليمبيرتي ، ففزتُ بالمرتبة الاولى عدة مرات ، فقُدّمتُ بعد شهرين على وجه استثنائي فحصاً آخر وقُبلتُ في الصف الرابع . كان

(١) كان العدد الترتيبي للصفوف في ايطاليا يختلف عمّا هو عليه في اكثر البلاد العربية في أيامنا فالصف الابتدائي الاول

يُسمّى الصف العاشر ويقال لصف البكالوريا الصف الأول وقس على ذلك الصفوف بينهما (حاشية من

المترجم) .

المعلم فنسان تشيما (Cima) وكان رجلاً شديداً في أمور النظام ، فلما رأى في نصف العام الدراسي تلميذاً طويل القامة ، قوي البنية مثله قال في اثناء الدرس ، مازحاً :

- ان هذا التلميذ إما خُلد كبير وإما فتى ذو قيمة عظيمة .

فاستأنت قليلاً من هذه النكتة وأجيبته :

- بل شيء وسط بين هذين . إني فتى مسكين يرغب رغبة شديدة في القيام بواجبه على وجه حسن ، والتقدم في الدروس .

فأعجبت هذه الكلمات فأضاف بلطف غير منتظر :

- إذا كنت حسن الاستعداد فقد وقعت في أيدي طيبة . لن أدعك بطالاً . كن على ثقة من ذلك . وإذا عرض لك ما يُزعجك فقل لي لوقتكَ وأنا اساعدك .

فشكرته من صميم قلبي " .

حادث لا شأن له ...

كبيرى مدينة صغيرة على بعد عشرة كيلومترات من تورينو : إنها تمّدت في سفح تلة تورينو على الطرف المقابل لعاصمة البيمونته . لما وصل يوحنا إليها كان عدد سكانها ٩ آلاف . كانت مدينة رهبان وحاكة وطلبة .

كانت أديار كثيرة تُؤوي رهباناً وراهبات من مختلف الرهبانيات وهم رهبان القديس عبد الأحد ، والقديس فيلبس دي نيري ، واليسوعيون والفرنسيسكان والحبيسات الخ ...

كان الطلاب يأتون المدينة من جميع نواحي مونفراتو وبلاد استي وكانوا يعيشون عيشة يُرثى لها . كانت الدروس نصف مجّان ولكنّ المِنح الدراسية لم تكن قد أنشئت في ذلك الحين . كان كثير من الطلاب يبذلون بذلاً يصل إلى حد البطولة . كانوا يبحثون بلهفة عن العمل بعد ساعات الدرس فيعملون أوقات محدودة في النسخ أو الاعمال المنزلية في بيوت الاغنياء ، ومراجعة الدروس ، وتنظيف الخيل والعربات . كانوا يُمسكون عن إيقاد النار لكي يقتصدوا في النفقة ، وكانوا يدرسون وقد لُقوا أجسامهم بأغطية صفيقة ، وأرجلهم في أحذية خشب .

عاش يوحنا بوسكو بين التلامذة الفقراء وهو يتحمّل الفقر مثلهم . كانت مرغريتا تأتي حيناً بعد آخر من سوسامبرينو لتسأل لوشيا متى كيف حاله .

كانت الارملة الطيبة تخبرها أخباراً حسنة . فيوحنا يخدم في البيت وهو تقى مُكبٌّ على العمل يساعد ابنها وهو اكبر منه سناً . كان ذلك الشاب لا يُحب المدرسة . صار يوحنا صديقه ونجّح في الذهاب به على الكنيسة ليستغفر الله كسله .

كان يوحنا يسعى بكل وسيلة غلى الاسهام في كسب قسط من نفقته . لقد استطاع أن يربح شيئاً من الفلوس في معمل نجار يعرفه ، وتعلم استعمال الربوب والازميل والمبرد .
"كنت في الصف الرابع منذ شهرين اذ عرض حادث لا شأن له جعل الناس يتكلمون علي . كان معلم اللاتينية يشرح سيرة اجيزيلاس بقلم قرنيليوس نيبوس . كنت في ذلك اليوم قد نسيت كتاب القراءة ، ففتحت كتاب القواعد أمامي لكيلا يشعر المعلم بالأمر ، فتنبّه جيراني لذلك ، وأخذ واحد منهم يدفع جاره بمرفقه ، وبدأ الآخر يضحك .

فسأل المعلم تشيما : " ما الخبر ؟ " فنهضتُ وأنا أمسك كتاب القواعد بيدي ، واستطعت أن أقول عن ظهر قلبي النصّ اللاتيني والشرح فصقّق لي أترابي عفواً .

فاغتاظ المعلم وصاح : تلك اول مرة لم يستطع أن يفرض فيها سيادة النظام ، فارسل الي ضربة على رأسي تمكنت من أن اجتنبها . ثم وضع يده على كتابي كتاب القواعد ، وطلب من الذين حولي أن يرووا له سبب هذا الاختلال في النظام .

- ليس لدى بوسكو كتاب قرنيليوس نيبوس بل كتاب القواعد ، ومع ذلك قرأ كل شيء وشرح كما لو كان قرنيليوس في يده .

نظر المعلم الى الكتاب الذي وضع عليه يده وطلب مني أن أوصل "قراءة" جملتين لقرنيليوس وختم بقوله :

- اني اغفرلك لحسن حافظتك . حاول أن تحسن استعمالها .

كان يوحنا قد أثبت للاب كالوسو حافظته الفائقة . لكن هنا في كييري أخذت تحدث أحداث عجيبة . حلم ذات ليلة أنه يكتب فرضاً في صف اللاتينية ، وما إن استيقظ حتى كتب النص ، وقد تذكره على أحسن وجه وترجمه يساعده فيه كاهن من أصدقائه . أملى المعلم في الصف "ذلك" الفرض بعينه ، واستطاع يوحنا أن يُقدّم ترجمته في سرعة عجيبة .

وحدث ذلك مرةً أخرى على وجه اكثر غرابة اذ سلّم يوحنا ورقته بسرعة عظيمة ، تجاوزت الحد . فقرأها المعلم ونظر الى المسوّدة فصعق : كان على الصفحة تلك قسم من الفرض ، أراد أن يفرضه على التلاميذ ، ولكنه أهمله في آخر لحظة لأنه بدا له مُفرطاً في الطول .

- أين اصطدتَ هذا الفرض ؟

- حلمته .

الحلم حدث قليل الشأن في حياة الناس ولكن "الحلم" قد أصبح ذا قدر عظيم في حياة يوحنا بوسكو ، فكلما مضت الاعوام ازدادت تلك المسألة شأناً في حياته . كان الذي يسمع في سياج فالدوگو دون بوسكو يتمتم بلهجة هادئة : " حلمتُ حلماً "، يدني أذنيه ليسمعه . كان ذلك

الكاهن العجيب يقرأ في الحلم خطايا الاولاد الذين يُريهم ، ويُبئى بموت الملوك ويعرف الاعمال الباهرة التي سيقوم بها في حياته طفلٍ يلعب بالكلل .

جمعية الفرح

كتب دون بوسكو : " في الصفوف الاربعة الاولى اضطررتُ الى أن أتعلم على حسابي كيف أتعامل وأترابي " .

كان فيهم اناس أشرار ، على شدة الحياة المسيحية التي فرضتها المدرسة (وجَبَ على كل تلميذ أن يبرز شهادة شهرية بأنه اعترف) . "بلغت القحةُ بواحد منهم أنه نصح لي بسرقة شيء ثمين من عند سيدتي " . ابتعد يوحنا حقاً في أول امره من هؤلاء الصبيان المساكين ، لكيلا تكون نهايته نهاية الفأرة بين قوائم الهرة ، ولكن سرعان ما يسّر له النجاح المتواصل الذي أصابه في دروسه نفوذاً جعله يبذل علاقاته بهم . لماذا لا يستفيد منه لكي يصنع اليهم الخير ؟

" ان أترابي الذين ارادو جذبي الى السوء كانوا أكثر التلامذة اهمالا لدروسهم ، حتى إنهم اخذوا يلجأون إليّ لأساعدهم في فروض صفهم " .

فساعدهم بل أفرط في مساعدتهم اذ كان يمرّ اليهم من تحت المقعد ترجمات برمتها (وقد أخذ بالجُرم المشهود في أثناء الفحص ، ولم يستطع التخلص من المأزق الحرج الا بفضل صداقة معلمٍ فَرَضَ عليه إعادة ترجمة باللاتينية) .

" هكذا ضمنت لنفسي عطف أترابي وصادقتهم ، فأخذوا يقصدوني في أثناء الفُرص ، من أجل القيام بالفرض ثم للاستماع الى حكاياتي وآخر الأمر من دون أي سبب كان " .
كانوا مسرورين عندما يجتمعون فألفوا نوعا من الجوقة سمّاها يوحنا "جمعية الفرح " وقد سنّ لها قانوناً بسيطاً جداً :

- ١- يُبذ كل عمل ، كل كلام يندى له جبين المسيحي .
- ٢- القيام بالواجبات المدرسية والدينية .
- ٣- الفرح .

ظلّ الفرح عند يوحنا بوسكو فكراً ملازماً لا يُفارقه حتى قال دومنيك سافيو تلميذه المفضّل :
"القداسة عندنا تقوم بالفرح . نحاول أن نتجنب الخطيئة التي تسرق فرح قلبنا " . فالفرح في نظر دون بوسكو هو الطمأنينة العميقة التي تنشأ من معرفة الانسان أنه في يد الله ، أي في يدِ كريمة . إنّه تعريف بسيط لخير ثمين وهو " الرجاء المسيحي " .

" في السنة ١٨٣٢ صيرتُ بين أترابي مثل قائد لجيش صغير " . كانوا يلعبون برمي الهدف (١) والطوّالات (٢) والقفز والركض ، فاذا تعبوا قام يوحنا بالألعاب خفة على طاولة صغيرة توضع على العشب .

"كنتُ أخرج من طاس صغير مائة كُرَيَّة صغيرة ملونة ، ومن إناء صغير فارغ عشرات من البيض ، ومن أنف المشاهدين كراتٍ صغيرة ، وأعرف كم من المال في جيبهم ، وأحوّل الى غبار نقوداً من أي معدن كان لمجرّد وضع إصبعي عليها " .

وكان هذا الفرح كله ينتهي بالصلاة كما كان يحدث في البكي .

"كنا نذهب في كل عيد إلى كنيسة مار انطونيوس حيث كان اليسوعيون يُلقون درساً للتعليم الديني رائعاً وهم يستشهدون بأمثال أذكرها الى اليوم " .

أربعة تحدّيات للبهلوان

غير أنه في يوم من الايام الاحد كان عدد الحضور في كنيسة مار انطونيوس قليلاً ، فقد وصل بهلوان ليقدم بعد ظهر ذلك اليوم حفلة من الالعاب البهلوانية من صنف عال ، ويتحدّى في الركض والقفز أرشق الأحداث في المدينة .

ساء يوحنا أن اصدقاءه تخلّوا منه فذهب ليرى ما الخبر . هناك بطل رياضي حقيقي يركض ويقفز بقوة آلة ويقول إنه ينوي الإقامة في كيبيري مدة من الزمن ، فجمع يوحنا خير اصحابه :
- اذا ظل يقوم بالحفلات بعد ظهر يوم الاحد فان جمعيتنا ستنفكك . يجب أن يغلبه واحدٌ من الذين يتحدّونه وقد تُفرض عليه شروط .

- من يغلبه ؟
- يمكننا أن نجد امراءاً ، فليس ذلك صعب المنال . ففي الركض على سبيل المثال لا أظنني

دونه مقدرة .

يوحنا في سن السابعة عشرة ، ويُحسّ أنه قوي ولكنه أضاف لوقته في ذكرياته " غير أنني لم احسب حساب عواقب كلماتي فقد أخبر البهلوان بالامر رفيقٌ من رفاقي قليل التروّي وهكذا وجدتُ نفسي ملتزماً في مباراة : تلميذ يتحدّى بطلا محترفاً " .

(١) الهدف يقذف بقطعة من الخشب أو المعدن لكي تصل الى أقرب ما أمكن من هدف ما (شرح من المترجم) .
(٢) الطوّالة : أداة خشب لها مكان توضع عليه القدم ويمسك أعلاها باليد (شرح من المترجم) .

واختاروا شارع باب تورينو أرضاً للمباراة ، وكان المطلوب اجتياز المدينة كلها ركضاً ، وكان الرهن عشرين ليرة ، ويوحنا لا يقتنيها ولكن اصدقاء الجمعية تشاركوا في دفعها . ذكر دون بوسكو : " راقب المباراة جمهور من الناس " .

تقدم البهلوان بادئ ذي بدء عشرة امتار : إنه عداء في حين أن يوحنا مسابق للمسافات الوسط . " استعدتُ سريعاً ما كنتُ خسرتُه ، وخلفته ورائي الى حدٍ بعيد حتى إنه وقف في نصف السباق وتخلّى لي عن الفوز " .

انتهت المسابقة ولكن البهلوان طلب الثأر ، و القبول مسألة شرف ، "قال لي:إني اتحدّك في القفز ولكني أراهن على اربعين ليرة .
- إني أوافق " .

فاختار المكان : يجب القفز فوق ساقية يعلو ضفّتها جدارٌ صغير . طار البهلوان وهبط بقديمه عند الحاجز . ذكر دون بوسكو : " لم يكن ممكناً البلوغ الى أبعد من ذلك . كان يمكنني أن أخسر ولكن لم يكن يمكنني أن أفعل ما هو أحسن ، ومع ذلك تلمّستُ حيلةً فقفزتُ القفزة بعينها ، ولكني اعتمدت الجدارَ الصغيرَ بيديّ ، وواصلتُ القفزة " . فمجمّل القول إنه قام بما يشبه قفزة بالعصا . لقد ربح .

استاء البهلوان لخسارته الليرات ولأنّ الناس اخذوا يسخرون منه فقال : " إني اتحدّك تحدّياً آخر . اختر لعبَ الخفة الذي تشاءه " . قبلتُ واخترت العصا السحرية على أن يرتفع الرهنُ الى ٨٠ ليرة . أخذتُ عصا فجلّعتُ في طرفها ثبعةً ووضعتها على كفيّ ، وجعلتها تقفز على رأس الخنصر فالبنصر فالوسطى فالسبابة فالإبهام ثم على ظهر يدي فالمرفق فالكفّ فالدقن فالفم فالانف فالجبين ، وسلكتِ العصا الطريق بعينه وهي تعود القهقري ورَجعتُ إلى كفيّ .

فقال لي مُوكّداً : " لن أخسر هذه المرّة " . وأخذ العصا عينها وسيّرها بمهارة عجيبة حتى شفّتيه ولكن أنفه مفرط في الطول فلامسته واضطر الرجل الى القبض عليها لنلّا تهوي " . فأشفق يوحنا هذه المرة على الرجل وهو بطل ألعاب طيّب . "كان المسكين يرى ماله يذهب . فخرج عن طوره وصرخ : " لا يزال عندي مائة ليرة وانا أراهن بها على التسلق . فالذي يضع قدميه على اقرب مكان من قمة هذه الشجرة يربح " . قبلنا وقد يسرنا أن يربح ، لأننا لا نريد أن يصاب بالافلاس .

فكان البادئ وتسلق الشجرة فوضع قدميه في مكان منها عالٍ جداً حتى إن ما طوله طول الكفّ يكفي لكي يلوي بالشجرة فيهبط المتسلق . وأجمع الناس على أنه لا سبيل الى الارتقاء الى مكان أعلى من ذلك . جاء دوري فصعدتُ على وجه التقريب إلى ذلك المكان بعينه الذي وصل

اليه ، ولكني امسكت بالشجرة وانتفضت فارتفع جسمي عامودياً ، وصار قَدَمَاي أعلى متراً من قدميه . فدوى التصفيق في الأسفل فتعانق اصدقائي وقفزوا فرحاً . اما البائس فقد كان حزيناً حتى كاد يبكي ، فرَدَدنا عليه ماله شريطة أن يدفع لنا ثمن طعام في فندق موريتو (Muretto) ، مطعم الجدار الصغير " .

سجّل دون بوسكو في دفتر ذكرياته عدد الليرات التي كلفه الطعام الجماعي وهو ٢٥ ليرة ، وعدد الليرات التي أمكن الرجل أن يعيدها الى جيبه وهو ٢١٥ . وكتب أيضاً الكلمات التي قالها البطل الرياضي للفتيان بعد ما وعدَ بترك المكان : " إنكم انقذتموني من الإفلاس باعادتكم هذا المال إليّ . إني أشكركم وسأذكركم مسرورا ولكن لن أراهن التلامذة بعد اليوم " .

ذهابه الاول الى تورينو

خرجت جمعية الفرخ من هذا التحدي ثابتة عالية الرأس . كان أعضاؤها يذهبون في ايام العطلة الى تلال سوبيرغا (Superga) فيجمعون الفطر ، ويغنون ويستمتعون بالمناظر ، بل يقومون برحلة سريعة الى تورينو لكي ينظروا باعجاب الى الحصان الرخام على سلم القصر الملكي ، فيجتازون نحو ٣٠ كيلومتراً مشياً على الاقدام ذهاباً وإياباً . كانوا يعودون وقد عضّهم الجوع وكانوا يفيضون في وصف عجائب العاصمة لأصحابهم الأقلّ همة .

شاهد يوحنا بوسكو تورينو أول مرة في اثناء تلك الرحلات . نمت المدينة وازداد عدد سكانها زيادة مذهشة ، بمقدار ثلث العدد في عشرة اعوام ، وقفزت أسعار البيوت واجرة السكن قفزاً سريعاً جداً ، وأحسّ الناس إحساساً مفاجئاً بالنقص في المستشفيات والمأوي لكبار السن والدور والمدارس للولاد .

كارلو البرتوينوي أن ينظر نظرة عملية الى التعليم الشعبي ، ولكنّ وزيره الاول سولا رودلا مرغريتا (Solaro dlla Margarita) ، وهو كاثوليكي محافظ متشدّد ، كان يرى غير رأيه : فإما أن يُعهد بالتعليم إلى الكهنة وأمّا أن يُصبح التعليم خطرا .

في الربيع الذي فيه كان يوحنا بوسكو واصدقاؤه يجوبون التلال ، أقام الاب كوتولنغو (Cottolengo) في طرف المدينة مع خمسة وثلاثين مريضاً رُدوا عن جميع المستشفيات . كان ذلك في ٢٧ نيسان (أبريل) ١٨٣٢ . استأجر الكاهن في ناحية فالدغو بيتاً متهدّماً كان يُستعمل خمارة فوصل إليه مع راهبتين في عجلة يجرّها حمار . فعلق لافتة فوق الباب : " البيت الصغير للعناية الالهية " . لقد أصبح أعجوبة تورينو ، وتمكّن من إيواء عشرة آلاف عليل لا شفاء لهم وقد نبذتهم جميع المستشفيات .

في شهر حزيران (يونيو) سمع يوحنا بوسكو أول مرة باسم فنسان جيوبرتي (Gioberti) .
إنه كاهن شاب من تورينو ، أستاذ الفلسفة في الجامعة . لقد أعتقل لأنه ينتمي الى جمعية سرّية
معادية للحكم الملكي ، فحكّم عليه بالنفي ، وسيق في حراسة شديدة الى الحدود الفرنسية ،
ونُشرَ بعد عشر سنين في بروكسيل كتاباً مشهوراً عنوانه أوليّة الايطاليين ثم صار بعد ثماني عشرة
سنة الوزير الاول في حكومة كارلو البرتو .
في قصر الملكي حيث يذهب اصدقاء الفرح ليلمسوا الحصان الرخام ، منح الملك
الاصلاحات الاولى على وجه بطيء جداً في جوّ من المخاوف والوساوس . وقع على الاصلاح
الأوّل في تلك السنة ، السنة ١٨٣٢ فألغى التعذيب ، تلك البقية اللانسانية من العهود
البربرية .

عهد الصداقة

في خريف ١٨٣٢ ابتدأ يوحنا بوسكو الصف الثالث من صفوف القواعد ثم أنهى في السنتين بعدئذ الصفين اللذين يقال لهما الآداب (١٨٣٣ - ١٨٣٤) والخطابة (١٨٣٤ - ١٨٣٥) وظل يُظهر أنه تلميذ ممتاز ، له حافظة عجيبة وولع بالكتب . روى بشيء من التأسف : " لم اكن في ذلك الوقت أفرق بين المطالعة والدرس . كان يسعني أن أعيد من غير عناء ما جاء في كتاب طالعته . كان الانتباه خلال الدرس كافياً لي لكي احفظ ما هو جوهره ثم إن أمي علمتني أن أنام قليلاً جداً ، فكنت أستطيع أن أصرف ثلثي الليل في مطالعة الكتب ، مستنيراً بالضوء الصغير الذي يأتي من سراجي . كان كُتبي يهودي يُدعى ايليا يعيرني كتب مشاهير الكتبة الايطاليين بفلس لكل منها . وكنت أقرأ كتاباً كل يوم" .

يوحنا في سن الثامنة عشرة وهي سن الصداقات العميقة . ظلّ رئيساً لجيش صغير وأحاط نفسه بدائرة محدودة من الاصدقاء الاحماء .

عرف أولهم في أثناء منازعة جرت في الصف . كان المعلمون منذ ذلك العهد ، لا يُحافظون كلهم على الدقة في المجيء ، وكانت الدقائق الاولى في كثير من الصفوف تتحول الى ضجة . كانت لعبة التقافز تنال إقبالا عظيماً . قال دون بوسكو بلهجة التهكم : " كان الأقلّ حبا للدرس أشهر الابطال" . وصل صبيُّ قبل قليل ، وهو يبدو في سن الخامسة عشرة ، كان يجلس بهدوء الى المقعد ، ويفتح كتابه في أثناء ذلك الهرج والمرج .

" ذات يوم قصده صبي قليل الحياء واخذ بذراعه وقال له :

- هلمّ الى اللعب معنا ، أنت أيضاً .

- لا أعرف اللعب .

- ستتعلّمه ، لا تضطّرني الى إرغامك بركلات من رجلي .

- إذا شئت أن تضربني ، فلك ذلك ولكني لن أتحرّك ...

صفحه الجلفُ صفتين شدينتين كان لهما دويٌّ في الصف كله . لما رأيتُ ذلك شعرتُ بدمي

يغلي في عروقي . انتظرتُ أن يتأثر الذي أهين ، كما يجب ، خصوصاً أنه أقوى الاثنين ، فلم يحدث شيء بل قال للآخر ، وقد اصطبغ وجهه بلون الارجوان وترضض :
- أنت مسرور ؟ دعني إذاً وشأني ، إني اغفر لك " .

"صار لي منذ ذلك الحين صديقاً حميماً ، وبوسعي القول إنه اليه يعود الفضل إذ تعلمت أن أحيا حياة مسيحية " .

اكتشف تحت ظاهر من الضعف غنى روحياً عظيماً ، وصار بداعي الفطرة ، محامياً له ، في وجه التلامذة الغلاظ الشرسين .

الدبوس البشري

تأخر المعلم ذات يوم على عادته ، فعصفت الضجة المعتادة عصفها . " كان بعض الصبيان يريدون أن يضربوا كومولو ورفيقاً طيباً آخر اسمه أنطون كاندلو (Candelo) فأمرتُ بصوت عالٍ أن يُتركا وشأنهما ، ولكن لم يُسمع لي وأخذت المسبات تتطاير فقلت :
- من قال بعد الآن أقوالاً بذيئة كان له أمرٌ معي .

فقام أطولهم قامة وأفجرهم كلاماً حاجزاً في وجهي ، في حين أنّ صفتين نزلتا بوجه كومولو كان لهما دويٌّ . فثار ثائري ، ولكن لم يمكنني أن أمسك بعصا أو كرسي فقبضت على واحد من هؤلاء الصبيان بكتفيه ، واستعملته كما يستعمل دبوس وخبطتُ به كومة الصبيان ، فسقط أربعة منهم أرضاً ، وهرب الآخرون وهم يعوون ... دخل المعلم في تلك اللحظة ، ورأى الأذرع والسُّوق في بلبلة كالتّي ستكون يوم الدين ، فأخذ يصرخ ويوزّع الصفعات يمنة ويسرة .
فلما هدأت العاصفة بعض الهدوء ، طلب أن يُروى له كيف انطلقت البلبلة وكأّنه لم يصدق ما قيل ، فطلب إلينا أن نعيد ما حدث فأخذتُ أضحك وضحك الآخرون أيضاً حتى إن المعلم نسي أن يعاقبنا . وما إن أمكن كومولو أن ينفرد بي ويكلمني حتى قال لي :

- إن قوتك تخيفني . ان الله لم يمنحك إياها لتقتل أترابك . إنه يريد أن يغفر ونصنع الخير

للذين يسيئون إلينا .

أصغى يوحنا الى كومولو ، وسار خلفه فذهب واعترف . إن آية الانجيل التي جاء فيها :
" من لطمك على خدك فاعرض له الآخر " ليس أمراً سهّلاً عليه أن يتعلّمه . لقد فرضه على نفسه بقوة الارادة ، ولكن لن توافق طبعه أبداً ، فاضطرّ الى تكرار كلمات الحلم مراراً : " ليس بالضربات تتخذ لك الاصدقاء بل بالمحبة " .

انذار جاسوسيّ

في اثناء أشهر صيف السنة ١٨٣٣ رأّت كييري سرّية من الفرسان تصل بغتة فشدّت الحراسة على أبواب المدينة وأخذ العسس المسلّح يتنابون الطواف في شوارعها وحُظرت التجمعات .

إن انذاراً جاسوسياً أشاع أنّ أنصار مازيّني (Mazzini) يوشكون أن يثيروا تمرداً في تورينو وفي سائر مدن الليمونته . كانت في السنة الماضية قد وصلت أول أخبار " ايطاليا الفتاة" التي أنشأها مازيّني : فقد أكتشفت نسخٌ لصحيفة هذا الحزب في صندوق له قعر مزدوج وصل من مرسليليا الى جينوى (Genova) . كانت الخطة تقضي بأن تُوقد حرائق في اماكن مختلفة في تورينو وتثار فتن شعبية وتُغتال الأسرة المالكة ، وتعلن الجمهورية (وعلم في ما بعد أنّ مازيّني نفسه سلم الى غلينغا Gallenga الخنجر الذي به يقتل كارلو البرتو) .

إن تسرّب الأخبار والتعبئة السريعة للقوات المسلحة أدّى الى اعتقال المتأمّرين ، فحكم على اثني عشر بالموت وأنفذ الحكم . وفي السنة التي بعدها جدّد أنصار مازيّني محاولتهم الثورية يساعدهم القائد رامورينو (Ramorino) وغاربيالدي (Garibaldi) .

ووصل الأمر بالمراقبة في اثناء تلك الاشهر الى مبالغات مضحكة : حُجز على مخزون من القُبعات لأن بين الالوان التي فيها اللونان الاحمر والازرق ، وهما لونا الثورة الفرنسية ... في آخر السنة ١٨٣٢ - ١٨٣٣ أنهى ابن لوشيا مئى دروسه ، فأخذ يوحنا يبحث عن بيت آخر يعيش فيه . فعرض عليه عملٌ أجير صديق لأسرته اسمه يوحنا بيانتا (Pianta) كان قد فتح مقهى في كييري . كان يُطلب منه أن يُنظف الأمكنة كل صباح قبل ذهابه الى الدروس ، وان يصرف ليلاليه عند مائدة الشرب ، وفي غرفة لعبة البلياردو ، فكان السيد بيانتا يقدّم له سبيل الاجرة الحساء مرّتين كل يوم والسكنى .

قبّل يوحنا لانه لم يحصل على ما هو أحسن من ذلك : إنّه عمل متعب في النهار ، وسهر إلى ساعات متأخرة في الليل بجانب لعبة البلياردو ، وهو يكتب العائلات على السبورة .

في السنة ١٨٨٨ (إذاً بعد خمسين سنة) كان السيد بيانتا لا يزال يذكر : " لم يكن لأحد أن يحصل على فتى أحسن من يوحنا بوسكو . كان كلّ صباح يخدم القداس في كنيسة مار انطونيوس . كانت والدتي العجوز مريضة في بيتي : إن المحبة التي أحسنَ اظهارها لها كانت جديرة بالاعجاب " .

غير انه لم يكن يدعُ للاعجاب المعاملة التي عاملها ذلك الرجل البخيل خادمه الشاب وهو في سن الثامنة عشر . كان على يوحنا أن يُعدّ القهوة والشوكولاته والحلاوى والمثلجات ، لم يكن معلّمه يعطيه سوى الحساء . كانت ماما مرغريتا تأتيه دائماً من البكّي بالخبز وسائر الطعام . وكان

السكن الذي جعله له "عبارة عن فجوة صغيرة فوق الفرن حيث كانت الحلاوى الصغيرة تُخبز ، كان يصعد إليها بسلم ضيقة . وإذا تمدد على سريره ، تجاوزت رجلاه لا طرف فراش القش فحسب بل مدخل المكان بعينه " .

يعقوب لاوي الملقب يونان

كان يدرس في المدرسة التي يذهب إليها يوحنا أولاد يهود أيضاً . كانت قوانين كارلو البرتو تقضي بأن يسكن اليهود في المدن محلة مفصولة من محلة المسيحيين يقال لها حي اليهود . كان يُرَخَّص لهم بالعيش أي انهم كانوا يُعَدُّون وطنيين من درجة ثانية . كان الاطفال اليهود كل اسبوع يتعرضون لسوء المعاملة :فقد كان إيمانهم ينهائم عن كل عمل يوم السبت ، يوم الراحة ، حتى عن فروض المدرسة . فكان عليهم الاختيار بين العمل بما يخالف ضميرهم أو تقبل العلامات الرديئة وسخريات أترابهم .

فساعدهم يوحنا مرات كثيرة فكتب فرض يوم السبت مكانهم ، وصار صديقاً لواحد منهم اسمه يعقوب لاوي ، وكان أترابه يلقبونه "يونان" . كان بينهما امر مشترك، وهو أنهما فقدتا كلاهما أباهما .

كان يوحنا بوسكو يذكر هذه الصداقة بعبارات فيها حرارة ، لا عادة له بها : " كان جميلاً جداً ، يغني بصوت من أحسن الاصوات ، قلّ نظيره . كان يحسن جداً اللعب بالبيلياردو . كُنتُ أخصه بمودة شديدة وكنت اكبر صديق له ، وكان يأتي فيصرف عندي جميع أوقات فراغه . كنا نصرف وقتنا في الغناء والطرب على البيانو والمطالعة وتجادب اطراف الحديث " .
تلك الصداقة المشتعلة النيرة تثبت ان قلب يوحنا لم يكن جافاً ولا موسوساً .

"ان بلبلة مجهولة تخللتها منازعة قد تؤدي الى عواقب وخيمة" سببت ازمة في نفس اليهودي الشاب ، فعرض يوحنا على صديقه ، بدافع المودة لا بدافع الغيرة الدينية المفرطة ، خير ما عنده : ايمانه ، وأعاره كتاب التعليم المسيحي ، " فتعلم في بضعة أشهر الحقائق الجوهرية من الايمان وكان مسروراً جداً بذلك وكان كل يوم يحسن كلامه وسيرته " .

ولكن المأساة في الأسرة ، وكان لا بد من وقوعها ، حدثت لما اكتشفت الأم اليهودية كتاب التعليم المسيحي في غرفة ابنها . فقد شعرت بأنها تقده هو ايضا كما فقدت زوجها ، فأشعبت يوحنا شتائم وقالت له بمرارة : " لقد أفسدته " .

أجابها يوحنا خير جواب تيسر له ولكن من غير جدوى . هدد يونان أهله والحاخام ، فاضطرب الى الابتعاد بعض الوقت من أسرته ، ثم عاد الهدوء شيئاً فشيئاً . في ١٠ آب (اغسطس) تلقى اليهودي الشاب العماد في كاتدرائية كييري . تشهد الوثيقة الرسمية في خزانة المحفوظات : " أنا

سيبستيان شيكيويو (Schioppo) اللاهوتي والقانوني عمدتُ عماداً رسمياً باذن من رئيس أساقفة تورينو الجزيل الوقار والجاه الشاب اليهودي يعقوب لاوي وهو في سن الثامنة عشرة وسميته لويس ... " .

ظل يونان دائماً ابداً صديقاً وفيّاً لدون بوسكو . حتى في السنة ١٨٨٠ كان يذهب اليه ليزوره في فالدوگو ، فكانوا يُحيون ذكرى الايام السعيدة التي قضياها معاً .

تفاحات بلانشار

من الاكيد ان حساء السيد بياننا لم يكن كافياً ليسكن شهية يوحنا بوسكو القوية وهو في سن الثامنة عشر . فقد شكا كثيراً من لجوع خلال تلك السنوات . وكان يشعر بالامر أحياناً كثيرة صديقاً من اصدقائه الشبان اسمه يوسف بلانشار (Blanchard)، فكان يذهب الى أمه (وهي بائعة فاكهة) لكي يملأ جيوبه تفاحاً وكستنة . كانت المرأة الطيبة ترى ما يجري ، ولكن تُظهر أنها لا تراه . وكان يوسف غير مرة يفرغ إناء الفواكه للسبب عينه . فصاح اخوه لياندرو (Leandro) ذات يوم :

- إنك لا ترين شيئاً أبداً ، يا أمي . يوسف يسلب فاكهتك بالكيلويات وأنت لا تشعرين بالأمر .

أجابت السيّدة : أشعر بالأمر على أحسن وجه ولكني اعرف الى أين يذهب بها . ان يوحنا هذا فتى طيب والجوع شيء مؤلم لمن كان في سيئه .

وكان يوحنا ، على جوعه يُفلق دائماً في الحصول على المال ليستعير الكتب من الكُتبيّ ايليا ، ويواصل المطالعة في الليل ، فرأى السيد بياننا ذلك فشهد : " كان يحيي الليل كله أحياناً كثيرة في الدرس . كنت اجده في الصباح وهو لا يزال يدرس مستتيراً بضوء قنديل الموقد " . من يدري ما الذي أثرَ تأثيراً فيه ، أعزيمه الفتى أم الزيت الذي كان القنديل يستهلكه . وكان دون بوسكو يتذكر هو ايضاً تلك الليالي : " لقد اتفق عدة مرات أن ساعة النهوض من النوم دقت ، وانا لا ازال امسك بيدي الكتاب الذي بدأت فراءته في مساء الليلة السابقة " . ولكنه أضاف : " كان ذلك يُدمر صحتي تدميراً جدياً ولذلك نصحت دائماً ان يعمل الانسان ما في وسعه ، من غير ان يزيد عليه شيئاً . لقد اكتشفتُ على حسابي ان الليل جعل للنوم " .

ليس يوحنا بوسكو امرءاً خارق العادة . إنّه مراهق فيه كثير من حسن النية وقلة الصبر . واما الصبر ، والاحساس بحدوده فقد علمته اياهما الحياة ، وشأنه في ذلك شأن جميع الناس .

في سنّ العشرين

أذار (مارس) ١٨٣٤ . لمّا أوشك يوحنا بوسكو أن يُنهي سنة " صف الآداب " طلب الى الآباء الفرنسيين ان يُقبِلَ في رهبانيتهم ، فاتاه بالجواب أحدُ أصحابه في المدرسة اسمه اوجينيو : " ائكَ منتظر في تورينو في دير السيدة مريم للملائكة " .

ذهب إليه مشياً على قدميه وجاء في دفتر القبول للدير : " ان الشاب يوحنا بوسكو من كاستلنوفو مقبول باجماع الاصوات لأئُهُ متحلّ بجميع الصفات المطلوبة . ١٨ نيسان (أبريل) ١٨٣٤ " .

فأعدّ يوحنا لوقته الوثائق ليُدخَلَ دير السلام في كيبيري .

لماذا عزم ذلك الأمر ؟

إنه في سن التاسعة عشرة ، فشعر بأنّه حان له أن يعزم عزمه لحياته . تعب وتألّم ليصير كاهناً ولكن اضطرّ في هذه الأشهر الاخيرة إلى مواجهة بعض عظام المسائل .

مشاكله مع الفقر

وأولها مع الفقر . لن يقبل بعد اليوم أن يُيهض بعبئه كنفّي أمّه . أسرّ بالأمر في ذلك الوقت إلى ايفازيو سافيو (Evasio Savio) وهو صديق له من كاستلنوفو: " كيف تستطيع أمي أن تساعدني بعدئذٍ في مواصلة دروسي ؟ " وحدّث بهذه المسألة بعض الآباء الفرنسيين ، وكانوا يعرفونه حق المعرفة ، فعرضوا عليه لوقتهم : " تعال اليّنا " . ولن يكون ولا ذكراً للمال الذي يُدعى المبتدئون في الحياة الرهبانية الى دفعه لدى دخولهم . أسئنتني منه يوحنا بوسكو .

ولكن هناك مسائل أخرى . نقرأ في ذكرياته: فكرتُ قَبداً لي: إذا صرتُ كاهناً أبرشياً

تعرّضت دعوتي لخطر الغرق تعرضاً أكيدا " . ولم يكن ذلك وسواساً أو خشية سخيفة . كتب بيترو ستيليا : (Pietro Stella) : " في تلك السنين كان من اكثر دواعي الفلق احترافُ رجال الكنيسة : كانوا يعتقدون " الحرفة " الكنسيّة لا بروح ديني صادق ، بل لأسباب بشرية ، ليضمنوا لانفسهم

مستقبلاً . والبليّة الكبرى التي كانت تُخشى ما يُنزل بالكهنوت الفقرُ الباطني ، وقلة الشعور

الديني " .

ولربما كان دليلاً على هذا الخطر الكثيرة المفرطة من الشبان الذين كانوا يسلكون سبيل الكهنوت : ارتفع العدد من ٢٥٠ طالب كهنوت في السنة ١٨٣٤ (في تورينو وكيري وبرا Bra) حتى ٣٥٨ داخلياً ، و٢٠٧ خارجيين في السنة ١٨٤٠ (تورينو وكيري وبرا وجيافينو Giaveno). وذكر يوحنا بوسكو نفسه ان من بين أصحابه من صف " الخطابة " اكتتب عشرون في دروس معهد الكهنوت .

فكان يقابل هذا الاقبال الذي لا يُصدّق ، كثرة الذين كانوا يخلعون الثوب الكهنوتي ، وكان ذلك من دواعي الأسف ، وكثير من الشبان يَعُدّون دخول معهد الكهنوت منذ أوّل الأمر طريقاً مختصراً إلى عمل في التعليم أو الحكومة .

حاول المطارنة ، لمعالجة ذلك الداء ، أن يقلّوا عدد طلاب الكهنوت الخارجيين الذين كانوا يواظبون على المعهد من اجل الدروس والطقوس الدينية ، ويدسّون بين الداخلين حبّ العادات الدنيوية دسّاً لا سبيل إلى ردّه .

الفلاحة ذات المنديل الاسود

في آخر ايام نيسان (أبريل) السنة ١٨٣٤ ذهب يوحنا الى خوري رعيتيه في كاستلنوفو ليلتمس منه الوثائق اللازمة لدخوله الدير ، فنظر الأب دَسَّانو (Dassano) إليه نظرة الحيرة :

- أنت تدخل الدير ؟ أوثراك فكّرت حقاً ؟

- يبدو لي أنني فكّرت .

صعد الاب دَسَّانو الى مزرعة سوسامبرينو وحدّث ماما مرغريتا :

- يُريد يوحنا أن يصير راهباً فرنسيسكانياً . ليس لي شيء على الراهبان ، ولكن يبدو لي أن

ابنك أصلح للعمل في الرعيّة . إنه يُحسن التحدّث الى الناس وجلب الشبان والتحبب اليهم .

فلماذا يذهب إلى دير فيدفن نفسه فيه . ثم يا مرغريتا ، أريد ان أُحدّثك صراحة . لست غنية وقد

اصبحت كبيرة السن . فعندما تصبحين غير قادرة على العمل ، سيكون بوسع ابن هو خوري

رعية ، أن يُسعفك ، في حين أن ابناً راهباً سيكون مفقوداً بالنظر اليك . إنني على يقين من أنه يجب

عليك أن تحوّلته عن هذا المشروع ، وفي ظنّي أني اقول ذلك لخيرك .

القيت ماما مرغريتا منديلها على كتفيها وذهبت الى كيري .

- جاءني الخوري فقال لي إنك تريد دخول الدير . أهذا صحيح ؟

- نعم ، يا أمي . أرجو أنه ليس لديك ما يُخالف رغبتني هذه .

- أصغ اليّ إصغاء حسناً ، يا يوحنا . أريد ان تعمل بمشيئة الرب . يودّ الخوري أن أجعلك

تبدّل رأيك ، لأني قد أحتاج إليك في المستقبل . ولكنني أقول لك هذا : في مثل هذه المسائل لا مكان لأملك . الله قبل كل شيء . منك لا أريد شيئاً . وُلدت فقيرة ، وعشت فقيرة ، وأريد أن أموت فقيرة . لا بل أقول لك هذا في الحال : إذا صرتَ كاهناً ووقعتَ البلوى فاصبحتَ غنياً ، فلن أدوس بقدمي بيتك أبداً . تذكر ذلك ولا تنسه .

كانت هذه الفلاحة العجوز بمنديلها الأسود ، تتكلم بصوت كله ثقة وعلى وجهها أمارات الحزم . هذه الكلمات لن ينساها دون بوسكو قط .

كان يوحنا يهتم أن يعزم عزمه إذا حدث ما لم يكن بالحسبان . " حلمتُ قبل دخولي الدير حلماً من أغرب الأحلام . بدا لي أنني أرى جمهوراً من الرهبان عليهم ثياب ممزقة . كانوا كلهم يركضون في جهات مختلفة . فدنا أحدهم مني وقال لي : انك تطلب السلام ولكنك لن تجد السلام هنا ، إن الله يُعدّ لك بيتاً آخر " .

الحلم أمرٌ لا شأن له كالعادة . ولكن يوحنا كان قد اضطرّ إلى الاعتراف بأنّ الأحلام أحداث مهمة بالنظر إليه ، ولو كانت مزعجة أحياناً . ذهب إلى معرفّه : " رويتُ له كل شيء ولكنه أبقى السماع إلى الكلام على الاحلام والرهبان فقال لي : يجب على كل امرئ في هذه المسائل ان يتبع ميوله ، لا أن يصغي إلى نصائح غيره . فعليك أن تفكر في الأمر وتجزم " .

ما العمل ؟ أحرّ عزمه الى حين وواصل ذهابه إلى المدرسة الرسمية ، ولكن لا يمكن التأجيل إلى ما لا نهاية له . فأسرّ ذات يوم بأمره الى لويس كومولو فتلقى من صديقه القديس نصيحة مألوفة جداً : يُقيم تساعية ، ويكتب رسالة إلى عمّه وكان خوري رعية ، ثم يُطيع طاعة عمياء . ذكر بوسكو : " في آخر يوم من الاسبوع اعترفتُ وتناولتُ بصحبته ، ثم حضرتُ قداساً وخدمت قداساً آخر في مذبح سيدة النعم . ولما رجعنا إلى البيت وجدنا رسالة من الأب كومولو (عم لويس) جاء فيها : تفحصتُ كل شيء فأنصحُ لصديقك ألا يدخل الدير . ليلبس الثوب الكهنوتي ولا يخف أن يفقد دعوته . إذا بقي بمعزل عن الدنيا ، وأخذ بأعمال التقوى ، ذلّ جميع العقبات " .

" لماذا لا يُستشار الأب كافاسو ؟ "

يعني ارتداء الشاب للثوب الكنسي أنه يُصبح طالب كهنوت . ولكن يبقى حل المشكلة

الكبرى : المال . عند ذاك دخل الميدان الأب تشزانو (Cinzano) الذي حل محل الأب دَسَانو في

رعية كاستلنوفو . سمع بما يلقى يوحنا بوسكو من العقبات ، فذهب إلى اثنين من الميسورين في الناحية ، طالباً معونتهما ، فأخذ على عاتقهما معاً نفقة السنة الأخيرة في المدرسة الرسمية . ومع ذلك فلم يكن يوحنا مرتاحاً على وجه تام ، فاقترح عليه ايفازيو سافيو :
- اذهب اذاً إلى الأب كافاسو (Cafasso) في تورينو فاطلب نصيحته . انه شابٌ ولكنه أصلح كاهن وُلِد في كاستلنوفو .

كان الأب كافاسو في الثالثة والعشرين فحسب ، ولكنه كان يُعدُّ مُرشدًا ممتازا . كان كثير من الناس القلقين أو المضطربين يذهبون ليوواجهوه وينالوا نصائحه . كان يعيش في تورينو في دار الكهنة ، وكان يتم دروسه في علم اللاهوت ، وفي الوقت نفسه ، يُسعف المرضى والسجناء . ذهب يوحنا وعرض عليه جميع ما يشعر به من ارتباك ، فقال له الأب كافاسو بكثير من الهدوء ومن غير تردد :

- أتمّ سنتك ، سنة الخطابة ثم ادخل معهد الكهنوت . ان العناية الالهية سوف تُعلمك ما تريده منك . وأما المال فكن ناعم البال في شأنه ، فإن بعض الناس سوف يزودوك به . وجد يوحنا بوسكو في ذلك اللقاء العنصر الذي سيجعل التوازن في حياته . إن مزاجه البركاني سوف يدعوه إلى العيش بين الأحلام والمشروعات ، وأسباب القلق ، والنجاح والخيبة ، وسيبقى بجانبه الأب كافاسو الصديقَ الفطنَ والناصح الحكيم والمحسن الصامت .

لم يُفتح معهد الكهنوت في كييري إلا في السنة ١٨٢٠ فقد أراد رئيس أساقفة تورينو كولومبانو كيافيروتي (Colombano Chiaveroti) كهنة المستقبل ، سَكينة تكاد أن تكون بيئة رهبانية بعيدة من عالم تورينو الصاخب . دخل يوحنا بوسكو المعهد ليعيش فيه طالباً داخلياً أي متاهباً لأن كل ما فيه من حياة التقشف . هكذا نصح له الأب كافاسو الذي حصل له على منحة من عالم اللاهوت غوالا (Guala) من أجل السنة الأولى .

كان على يوحنا أن يقدّم في تورينو محص الدخول الى معهد الكهنوت ، ولكن المدينة كانت عرضة لخطر الكوليرا (وهو يكاد يعكر كل سنة فصل الصيف) فكان الحجز الصحي يُفرض على القادمين إليها ، ولذلك أُقيم الفحص في كييري على يد لجنة منتدبة وانتهى بالنجاح .

قضى يوحنا العطلة الاخيرة قبل ارتداء ثوب طلاب الكهنوت ، في سوسامبرينو وكاستلنوفو عند خوري الرعية فكتب في اثناء تلك العطلة : " كففت عن القيام بأعمال البهلوان ، وأكبت على المطالعات الحسنة . ومع ذلك فقد واصلت اهتمامي بالأولاد ورغبتهم بالحكايات واللحاح والالغاز والأغاني . وكان بضعة منهم ، وقد شبّوا عن الطوق ، لا يعرفون حقائق الايمان ، فعلمتهم

العقيدة والصلوات اليومية . كان ذلك نوعاً من " مصلى " (١) . خمسون من الأحداث يحبوني
ويطيعوني كأني أبوهم " .

علامة الأصل

في السادس شر من آب (أغسطس) لسنة ١٨٣٥ بلغ يوحنا بوسكو سنّ العشرين فصار
رجلاً قوي العزيمة ذكياً ناضجاً . سيدخل في السنوات الحاسمة من تربيته الكهنوتية ، ويحمل في
نفسه طبعاً بيمونتيّاً متيناً علامة لا صله .

حاول هنري بوسكو ، وهو من البروفانس الفرنسية ، ونسبب بعيد للقدّيس ، أن يرسم في
صفحة جميلة ، الميزات البارزة الأصلية للطبع البيمونتي ، فلنحاول ذلك مثله نحن أيضاً من
عندنا .

إن البيمونتي ليس بالرجل اللامع ولا الظريف . إنه لا يسرع الى التفكير ، وهو بطيء الفهم
والتبصر والجواب ، ينقصه الاندفاع والتوقّد والحماسة .

بيد أنه متين قوي ، ومتانته تأتيه خصوصاً من صبره . إنه يتحمّل طويلاً ومن غير تذمر .
ومتانته تأتيه أيضاً من حذوره . فإن حياته الشاقة علّمته أنه من الحكمة التبصير من غير تسرع .
وُلد واقعياً ، فالأفكار الجديدة لا تستهويه . إنه بدرك بالفطرة أنها عرضة للموت وهي في
طور الطفولة الى حد كبير . اذا خطر بباله فكرٌ برّاق ، فإنه يوجّه لوقته الى ميدان العمل . إنه
يعيش في الاشياء الحسيّة الواقعية ، هذا هو موطن قوته . فكثيراً ما يكون الواقع مرّاً شاقّاً
والبيمونتي يقابله بالصبر . إنه صبور الفكر كما إنه صبور القلب .
إنه يُحبّ من غير أن يُنكر . إنه رجل وفيّ . فالوفاء أعلى درجة للثبات وأرفع تعبير عنه وأنقى
ثمرة له : إنه يستلزم الشجاعة .

والبيمونتيّ شجاع . ليس فيه حب مجازفة المتهوسين . إنه جندي أكثر منه محارب ، ولكنه
يحسن الحرب . إنه يحارب حسناً من غير روح مغامرة ، ويفضّل حرب الدفاع على حرب الهجوم
ودعوته هذه الدفاعية تأتيه من حبه الشديد الذي يُكئّه لأرضه وأملاكه وأسرته ، ولو كانت أملاكه
فقيرة وأسرته عبءاً ثقيل الحمل وأرضه تتطلب جهداً كبيراً .

(١) المصلى : مكان يدعى اليه الأحداث للصلاة والتعليم الديني والترفيه . وقد طوّره دون بوسكو على وجه خاص به

كما سيظهر بعدئذ (حاشية من المترجم) .

قد يعرض له أن يُهاجر ولكنه لا يستأصل نفسه من أرضه أبداً . في قعر نفسه كنز لا يفنى من

الصبر والتعلق والتمانة والحدق في العمل .

الله أعلم على أي درجة امتلك دون بوسكو في نفسه هذه الفضائل العائدة الى أصله : الصبر وروح العمل وفنّ الواقع والثبات حتى العناد ، ولكن الله وهب أيضاً لهذا الشاب الذي يوشك أن يدخل معهد الكهنوت ، قلباً واسع الحب ، قلباً لا يستحذى إذا لقي شاباً أدلهم الجهل وأناساً عضّهم البؤس بنابه ، وأشخاصاً جفّت قلوبهم لاغترابهم عن الله . أعتقد أنّ هذه هي النعمة التي أنعم بها على يوحنا بوسكو ، الموهبة الخاصة التي وجب عليه أن يجعلها صفة له على وجه مروع ومجدّد في الوقت نفسه ، بما كان له من الوسائل تأتيه من ملكات أمته .

ان القلب السليم لا يعرف نصف الحلول ، ويجابه تحديات الواقع بلا هوادة ، ويحوّل الصبر البشري الى قلة صبر مسيحية . إنه يرد بوثبة إلى الأمام على الاعتراضات التي تدّعي الفطنة وتحذّر من الأخطار ، فللقديسين حدقٌ ، كثيرٌ من الحدق ، ولكن الناس يكتشفونه دائماً أبداً بعد وقوع الأحداث . أنّ ذلك الحدق أشبه بالجنون وأنه إيمان شديد بالإنسان وباللّه . وما هو بايمان جامد ينتظر كل شيء من السماء، بل إيمان يرى ويخاطر ويشنّ المعركة .

كان دون بوسكو يحيا بذلك الايمان المتأصل في المحبة ، ودوافعها لا دوافع لها ، لأنه يفكر تفكيراً يختلف عن تفكير العقل والحدق الذي لا ينظر إلا الى أمور الأرض . ولذلك لم يفهمه دائماً كثير من الكهنة كانوا من جيله إخوة له مخلصين في خدمة الله ، وتلقوا تربيتهم معه في معهد الكهنوت .

أوجزت الكنيسة كل شيء لما جعلت أول نصّ يُتلى في قداسه ، الكلمات التي قيلت في ابراهيم (وهو أيضاً رجل من عظماء النوع الإنساني وقد نقصته الفطنة على وجه ساطع) : " أعطاه الله حكمة وفطنة لا حدّ لهما وقلباً واسعاً مثل شواطئ البحر " .

معهد الكهنوت والبقع القاتمة

كان ارتداء الثوب الكنسي في ذلك الزمان خطوة عظيمة الشأن ، فالشاب يخلع ثياباً يلبسها جميع الناس ، ويرتدي ثوباً أسود ينحدر من كتفيه إلى كعبيه . ذلك العمل عمل علنيّ ، ومعناه عند جميع الناس : " أنوي أن أصير كاهناً وأن أحمي كما يجب على كل كاهن أن يحيي " . وهناك قطع أخرى تتم زي الشماس : الياقة البيضاء من النسيج المنسّى ، وغطاء الرأس ذو المقابض الثلاثة الصغيرة والطرّة ، والقبعة المستديرة . واللون الموحدّ الإلزاميّ هو اللون الاسود .

قال الأب بوسكو ذات يوم : " احتجتُ دائماً أبدأ الى جميع الناس " . وهذا ما حدث له يوم ارتدى الزيّ الكنسي : قدّم له أهلُ البلد الثوب والقبعة والحذاء وغطاء الرأس بل الجوارب السوداء أيضاً .

٢٥ كانون الأول (دسمبر) ١٨٣٥ . اليوم يوم الأحد، اجتمع في كنيسة كاستلنوفو عدد من المؤمنين يفوق العدد المألوف ، جاؤوا من البگي وموريالدو والقرى المجاورة لأنّ خوري الرعية سيُلبس قبل القداس الكبير الثوبَ يوحنا بوسكو ، ذلك الشاب الطيّب الذي يعرفه جميع الناس .

كتب في ذكرياته : " لما أمرني الخوري الأب تشنزانو (Cinzano) بخلع ثيابي المدنية وهو يقول : " جردك الربُّ من الانسان العتيق وعاداته وأساليبه " ، قلت في سرّي : " كم من الأشياء العتيقة يجب نزعها . الهي ، الهي ، أبطل عاداتي الرديئة " . ولما أعطاني الياقة أضاف : " ألبسك الربُّ الانسان الجديد ، المخلوق بحسب قلب الله في البرّ والحقّ والقداسة " . فواصلتُ في سرّي : " يا رب اجعلني أبدأ حقاً حياةً جديدة ، وفقاً لمشيئتك . ايتها العذراء مريم كوني لي عوناً " .

سبعة مقاصد تقلب الحياة رأساً على عقب

حدثت مفاجأة بعد القداس : دعا الاب تشنزانو يوحنا الى مرافقته الى قرية باردللا

(Bardella) وكان يُقام فيها عيد شفيعها .

" ذهبت اليها لئلا أكرّره ولكن على غير رضا ولم يكن الأمر يسّرني . كنت أبدو دمية في ثياب

جديدة . استعددتُ طوال أسابيع لذلك اليوم ، فوجدت نفسي في مأدبة بين اناس اجتمعوا ليضحكوا ويهذروا ويأكلوا ويلهوا . أي شيء مشترك بين ذلك كله وبين الذي ليس ، قبل بضع ساعات ، ثوب القداسة لئذّر نفسه على وجه تام ؟

لما عدنا الى الدار ، سألتني الخوري لماذا بقيتُ غائصاً في افكاري ، فأجبتّه بكل صراحة أنّ حفلة الصباح تُضادّ ما جرى بعدها . لقد استهجنْتُ منظر كهنة يتصرفون تصرف المهرّجين ، بين اناس جلوس الى المائدة ، وهم نصف سكارى . لو كنتُ أعلم أنّي سأصير كاهناً مثل هؤلاء لآثرت أن أنزع هذه البزّة لوقتي " . سلّم الخوري أنّ الثّماسَ الشابّ على صواب ، وأنقذ نفسه من المأزق الحرج بقولين مبتذلّين . " هذه هي حالة العالم ، يجب قبوله كما هو " و " لا بُدّ من مشاهدة الشر لا جتنابه بعد ذلك " .

قضى يوحنا الأيام الاربعة قبل دخوله معهد الكهنوت في جمع أفكاره بالصمت والتأمل ، وكتبَ سبعة مقاصد تُظهر انقلاباً في أسلوب حياته وهذه هي :

١- لن اذهب الى رؤية حفلات الرقص والتمثيلات والحفلات العامة .

٢- لن أقوم باعمال الخفّة والبهلوان ولن اذهب الى الصيد .

٣- سأكون معتدلاً في الاكل والشراب والراحة .

٤- سأقرأ الكتب الدينية .

٥- سأقاوم الافكار والمحادثات والاقوال والقراءات المخالفة للعفاف .

٦- سأقوم كل يوم بشيء من التأمل والقراءة الروحية .

٧- سأروي كل يوم أحداثاً وأفكاراً من شأنها عمل الخير .

"ذهبتُ الى لوحة للقديسة مريم العذراء ، ووعدت وعداً جازماً بأن أعمل بهذه المقاصد

مهما كلفني الامر من التضحية " .

لم يدرك هدفه لأنه هو أيضاً من لحم وعصب ، ولكنه وجّه سفينة حياته بحزم .

في الثلاثين من شهر تشرين الاول (اكتوبر) وجبّ على يوحنا أن يكون في معهد الكهنوت .

في مساء اليوم الذي قبله ، ورثب وهو في سوسامبرينو ، في حقيبة صغيرة ، الجهاز الصغير الذي

أعدّته له ماما مرغريتا . كتب : " كانت أمي تُحدّق إليّ كأنها تريد أن تقول لي شيئاً . واذا بها

تدعوني وتنفرد بي وتقول لي :

- يا يوحنا لبيست ثوب الكاهن . أشعر بتمام الفرح الذي يسع الأمّ أن تشعر به ، ولكن

أذكر أن ليس الثوب هو الذي يجعلك شريفاً بل الفضيلة . إذا اتفق لك ذات يوم أن تتردد في أمر دعوتك ، فاناشدك محبة الله ألا تُدنس هذا الثوب . انزعه لوقتك . أفضل أن يكون ابني فلاحاً فقيراً على أن يكون كاهناً مهملاً لواجباته . لما ولدتك نذرتك للسيدة . ولما شرعت في دروسك أوصيتك بأن تُحبّ هذه الأمّ التي هي أمنا حباً صادقاً ، والأُن أوصيك ، يا يوحنا ، بأن تكون لها بجملتك .

لما فرغت أمي من كلامها هذا كانت متأثرة شديداً ، فأخذتُ أبكي وأجبتها :

- يا أمي أشكر لك جميع ما صنعت الي . لن أنسى ما قلته لي الآن .

ذهبتُ صباح الغد مُبكرًا الى كيري ، ودخلتُ معهد الكهنوت مساءً ذلك اليوم " .

حيّته الساعة الشمسية في أعلى جدار أبيض أول تحية من معهد الكهنوت . كُتب تحت

الساعة : الساعات بطيئة عند المحزونين ، سريعة عند الفرحين . كانت النصيحة جيدة لشابٍ سيقضي ستّ سنوات متوالية في داخل تلك الجدران .

كان الشماسة في المعبد مصفوفين على وجه تام على المقاعد ، فأطلق الارغن الانغام

الفخمة ، أنغام أنشودة : تعال ايها الروح الخالق . ابتدأت السنة بثلاثة ايام من السكوت التام خُصّت بالرياضة الروحية .

دوام كالحديد

كتب دون بوسكو في الصفحة ٩٠ من ذكرياته : " إن ايام معهد الكهنوت تشبه كلها

بعضها بعضاً على وجه التقريب " . يُظهر هذه الكلمات بوضوح أنّ أشدّ ما عاناه في الاشهر الاولى هو العيش الرتيب .

فدوام الأيام محدّد ، لا يكاد يختلف دقيقة واحدة . انه مُفصّل في لوحة موضوعة بزاوية

بالقرب من الجرس : سلسلة من الساعات ، وانصاف الساعات ، وأرباعها ، فكلما حدّث

تبدّل ، ذهب وكيل النظام الى الجرس ودقّه ، فتخرج الجماعة عند تلك الدقّة ، أو تدخل أو يُؤذن

لها بالكلام ، أو تغوص في الصمت ، أو تدرس ، أو تصلي . وأول شيء يتعلمه من يجتاز ذلك

الباب هو أنّ الجرس صوت الله .

إن نهاراً واحداً يعيشه المرء على هذا النحو شيء مُننّط ، ولكن يجب عليه ان يحاول إعادة

مثل ذلك النهار طوال ثمانية اشهر متتابعة لكي يدرك ما هي الحياة الرتيبة .

إن حصص الوقت التي كانت تقسّم الايام في معهد كيري قد حدّدت تحديداً دقيقاً ، بأمر

كارلو فيلييتشي ، من أجل جميع مدارس المملكة . وكان الأمراء أنفسهم يخضعون لها .

يمكننا ان نتخيل ذلك النظام بإلقاء نظرة على الدوام الذي كان على وليّ العهد فيثوريو عمانوئيل أن يلزمه في القصر الملكي في تورينو ، وهو في سنّ الخامسة عشر في السنة ١٨٣٥ : "النهوض من النوم في الساعة الخامسة ، والقّداس في الساعة السابعة ، الدرس من التاسعة الى الثانية عشرة ، ثم الطعام ، ومن الساعة الثانية بعد الظهر الى السابعة والنصف الفروض المدرسيّة ثم العشاء وفي الساعة العاشرة الصلوات والنوم . في صباح يوم الاحد قّداسان : قّداس بسيط قبل طعام الصباح في معبد القصر ، والقّداس الكبير في الكاتدرائية بعد طعام الصباح " .

إن القّداس في معهد الكهنوت يختلف عنه في القصر الملكي . فهو مصحوب بالتأمل ، وبخمس عشاريات من الوردية (السبحة) . انهم لا يتكلمون في أثناء الطعام بل يستمعون إلى قراءة تاريخ الكنيسة لبركاستيل (Bercastel) ، تُتلى بنبذة واحدة ، فيتناوب الطلاب القراءة من أعلى منبر . والطعام بسيط جداً ، فان الحكمة القائلة : " يأكل الانسان ليعيش ولا يعيش ليأكل " هي من الحكم التي تُكرّر كثيراً .

البقع القاتمة في معهد الكهنوت

كلما مرّت الايام اكتشف يوحنا بقعاً قاتمة في حياة طلاب الكهنوت .

إن وقت الاستراحة يزيل توثر أعصاب هؤلاء الشبان . ذكر دون بوسكو أعباه بالورق وكان مولعاً بها : " لم أكن لاعبا ماهراً ، ومع ذلك كنت أربح دائماً على وجه التقريب . كانت يداي في لآخر اللعب مليونتين بالنقود ، ولكنّي كنت أرى اصحابي متكدرين لأنهم خسروها ، فأصبح أشدّ كدراً منهم . ثم إني كنت أدريم الفكر في الأوراق ، فكان خاطري مشغولاً بملك الكوبا ، وغلام البستوني ، في أثناء العمل والصلاة . عزمت لهذه الأسباب ، في نصف العام الثاني لدرس الفلسفة ، أن أنهى الامر " .

عزم عزمًا لا رجعة بعده على التوقف بعد ان أصاب ربحاً طيباً . إن زميله الذي طلب اليه بالحاح أن يلعب الثار فقير هو أيضاً ، وقد جُرّد من كل شيء وأصبح كفرخ الدجاجة المنتوف حتى أوشك أن يبكي ، ف شعر يوحنا بخجل حقيقي ، وردّ كلّ ما ربحه ، وترك لعب الورق على الاطلاق .

كان شديداً على اللعب بالورق حتى مع إخوانه السالسيين فكان يقول : " تضيع ساعات كثيرة وأما نحن فيجب علينا أن نصرف وقتنا في خدمة الأولاد . عندما لا يبقى لي شيء أعمله ، عندئذ ألعب بالورق " .

وكانت أول مسألة ساءته في كاستلنوفو ، ابتعاد الرؤساء من مرؤوسهم . كانوا لا يظهرون

إلا قليلا ، لكي يحافظوا على الوفاق والكرامة . "كنا نذهب الى المدير وسائر الرؤساء لنواجههم عند عودتنا من العطلة ، وعند ذهابنا اليها ، ولم يكن أحد يذهب إليهم لكي يحدثهم إلا في وقت التوبيخ، فاذا مرَّ رئيس من بين طلاب الكهنوت ، كانوا يهربون كلهم . كم مرّة اشتبهتُ أن أكلهم لأستشيرهم " .

عَلق بييترو ستيللا (Pietro Stella) بقوله : " لم يكن يوحنا يطلب تنازلاً شكلياً بل كان يطالب باكثر من ذلك : كان يطالب بعطف أي ما يقابل المودة التي كان يكتفها لهم . يظهر طبع دون بوسكو في هذه الرغبة بان يقيم جواً من الاخلاص و الحياة المشتركة والود " . كان يرى انه لا بد للمربيين أن يوجدوا وجوداً مادياً بين الشبان لكي ينشأ هذا التيار من الحياة المشتركة ، وكان مقتنعا الى حد بعيد بذلك حتى إنه جعله عنصراً جوهرياً في نظامه التربوي .
والبقعة القاتمة الثانية رآها في بعض أصحابه . كان "كثير من طلاب الكهنوت يتحلون بفضيلة مثالية " ، ولكن هناك "غيرهم خطرون يتحدثون محادثات تستوجب اللوم الشديد " ويُدخلون إلى المعهد "كتباً معادية للدين وكتباً خلاعية " .

واستاء أيضاً يوحنا لأن المواظبة على تناول القربان المقدس حُظرت : "لم يكن بوسعنا أن نتناول القربان المقدس إلا يومَ الاحد وفي الاعياد الخاصة " . فكان على من يريد ان يتغذى بالقربان المقدس " أن يرتكب معصية " .

فبينما يتجه صف الطلاب الطويل ، في الصباح ، نحو غرفة الطعام لأجل الافطار ، كان جماعة يتحوّل عند زاوية الرواق الذي يؤدي إلى كنيسة مار فيلبس ، ويتقبلون القربان المقدس ، ويدفعون ثمن فرارهم الصوم حتى طعام الغداء . " هكذا أكممني أن اتقبل القربان المقدس أكثر مما كان يُؤذن لنا . إني على صواب عندما اسمّيه القوت الفعّال لدعوتي " .

نفحة الاوكسجين يوم الخميس

هناك يوم يكسر ليوحنا ما في نظام الأيام من عيش رتيب ، هو يوم الخميس . كان البواب ، على ما ذكر أصحاب يوحنا ، يدقّ بعد ظهر ذلك اليوم جرس النداء على وجه لا يتغير ويصيح باللهجة العامية : بوش دي كاستلنوف !

وكان طلاب المعهد ، وهم يتلمّسون كل فرصة لسيء من الفكاهة ، يردّدون نداءه ، كما يردّد الصدى الصوت فيصيحون كأنهم منادون في الشوارع ، بلهجة البيمونتيّ والايطالية والفرنسية : بوش دي كاستلنوف ! بوسكو دي كاستلنوفو ! بوا دي شاتونوف (Bois de chateau neuf) .

كان يوحنا يضحك من المزاح المألوف ، ويضحك أيضاً لأنه يعرف من الذي يطلبه : هم إخوان " جمعية الفرح" يريدون أن يروه وينقلوا اليه الاخبار . هم اصدقائه الذين درس معهم في الثانوية ، والاولاد الذين لهامهم بألعابه وحكاياته : إنهم يريدون أن يستمعوا اليه مرة اخرى . ذكر أحد اصحابه : " كان كثير من الاحداث يحدثون به فرحين ، كان يجاذبهم أطراف الحديث ببشاشة ويخاطبهم جميعا " . وبعد الضجة والمزاح والقهقهة كانوا يذهبون الى المعبد ، فيقفون هنيهة عند قدمي السيدة العذراء . يوم الخميس نفحة من الاوكسجين وسعي شبه سرّي لتحقيق فكرة راسخة في ذهنه : رعاية الاحداث واسمها عنده "المصلّى" .

كان يوحنا يُحدّث أحياناً كثيرة اصدقاءه الأحماء حديث ذلك المصلّى . ينشأ في جوار مدينة كبيرة ، وينشأ معه ساحات للعب وأبنية وجماهير من الأولاد ، وكان يقول بهدوء : " لا ألق شيئا ، أنا أراه أحياناً كثيرة في الحلم ليلاً " .

روى الأب لموان ، كاتب سيرة الأب بوسكو : " ان الأب بوزيو (Bosio) ، خوري رعية ليفونه كانافيزي (Levone Canavese) ورفيق الأب بوسكو في معهد كهنوت كييري ، لما جاء أول مرّة الى المصلّى في السنة ١٨٩٠ ، ووصل الى وسط الساحة ، يُحدّق به أعضاء المجلس الاعلى للأباء السالسيين ، أدار نظره حوله ، وتفحص مختلف الابنية وصاح : " ما من شيء مما أراه يبدو لي غريباً . كان دون بوسكو في معهد الكهنوت قد وصف لي هذا كُله بدقة عجيبة ، كأنه رأى بعينه ما تكلم عليه ، وهو كما أراه الآن " .

الاحلام والفقر : إن الجمع بين هذين الأمرين رافق كل فصل من حياة الأب بوسكو ، الاحلام لتوسّع الرجاء على قدر مستقبل رائع ، والفقر لعرقلة عجلات الحاضر . في فحص الستة اشهر (في ذلك العهد السعيد كان يُقام كلّ سنة ثلاثة فحوص : بعد ثلاثة اشهر ، وستة اشهر وفي آخر السنة المدرسية) كانت تُقدّم جائزة قدرها ستون ليرة لطالب من كل صف ، حصل على احسن العلامات في السلوك والدروس . أكبّ يوحنا على كتبه وتوصّل الى الحصول عليها وقد كرر فوزه كلّ سنة : وهكذا كان نصف نفقته مضموناً . يكف نفسه عناء كثيراً . قال : " كل من احتاج الى حلق ذقنه ، او إحكام غطاء رأسه ، أو خياطة ثوبه ، أو ترقيعه وجدني مستعداً لتلبية طلبه " .

بين الصبيان الاغنياء

عادت الكوليرا مرة اخرى في اثناء الفصل الحار للسنة ١٨٣٦ ، ومرة اخرى خافت تورينو ، فعجّل الآباء اليسوعيون في الذهاب بتلاميذهم الداخليين في ثانوية الكرمل ، إلى قصر مونتالدو

(Montaldo) وهو مصيف رائع ، وبحثوا لغرفة النوم عن ناظر يُوثق به فيتولى أيضا مراجعة درس اليونانية ، فبعث الأب كافاسو الشماس بوسكو وقال له : " بوسعك ان تربح شيئاً من المال ". عاش يوحنا من اول تموز (يوليو) حتى ١٧ تشرين الاول (اكتوبر) اول مرة بين أبناء أسر غنية ، وهو يلمس اليد فضائل "أولاد مدللين" وذرائلهم. وقد أقر "أنه شعرَ كم يعسر على الكاهن أن يفوز بالنفوذ الذي لا بد له منه ، لكي يصنع اليهم الخير ". انه مقتنع بان الله يدعو الى الاهتمام بالاولاد الفقراء وحدهم . سيكون ذلك الامر شيئاً من الاشياء التي اقتنع بها اقتناعاً جوهرياً : فكما أنه لم يُدعَ الى تربية الفتيات ، فكذلك لم يُدعَ الى تربية اولاد الاغنياء . وقد أجاب بشيء من الخشونة بعد نحو ثلاثين سنة الاب روفينو (Ruffino) وقد حدّته بإنشاء معهد للنبلاء الشبان : هذا ، لا ، أبداً . إن فيه خرابنا . لقد كان خراباً لرهبانيات أخرى : كان هدفها الاول تربية الشبيبة الفقيرة ، فتخلوا منه ليخدموا النبلاء " .

سحر لويس كومولو

تشرين الاول (اكتوبر) ١٨٣٦ ، في الوقت الذي ترك فيه يوحنا بوسكو قصر مونتالدو ، ليقضي بضعة ايام في كرم سوسامبرينو ، لبس لويس كومولو الثوب الكنسي ، ودخل هو أيضاً مع صديقه يوحنا معهد الكهنوت في كييري فتجددت الالفة بين الصديقين الحميمين : صداقة لا يعكّر صفاءها معكّر . لويس أصغر من يوحنا بعامين ، ولكنه صار لوقته مرة أخرى الدافع الروحي الذي ينشطه. "قلّ أن لا يجيء فيقطع فرصتي . كان يجذبني بذيل ثوبي ، ويطلب إليّ أن اصحبه فيسير بي الى المعبد " .

هناك كان كومولو يشعر بانه في بيته . كان ما يفيض من مشاعره الساذجة لا ينتهي أبداً : زيارة القربان المقدس ، والدعاء من أجل المحتضرين ، وتلاوة الوردية ، وفرض العذراء القديسة ، وعشارية من السبحة من أجل أنفس المطهر .

كان يوحنا ، مثل كثير من المسيحيين الذين يعملون ويتعبون في سبيل ملكوت الله ، يشعر بميل شديد ، لا بل بما يشبه الحنين الى هذه التقوى الخالصة ، الى هذا الاستسلام المطلق لله . غير انه كان يتحسس في تصرّفه بعض الغلو ، وقد اعترف بذلك في ذكرياته بكثير من اللطف . " لم أحاول قط ولو قليلاً أن اقتدي به في تقنّفه . كان يصوم صوماً تاماً طوال الاربعين يوماً ، وكان يصوم يوم السبت ، ولا يتناول في بعض لأيام الخبز والماء . وكان يترك أحياناً الطعام ، ويكتفي باختبز المبلل بالماء ، زاعماً أنّه اصلح للصحة " .

يمكننا ان نقولها صراحة ومن غير لف ودوران : كان ذلك التصرف جَرِيماً متعمداً الى انهاك القوى والموت . ما كان مرشد روجي صالح ليتركه يجري جريه هذا الى الكارثة . لما حاول بعد عشرين سنة دومنيك سافيو سلوك تلك الطريق ، أوقفه دون بوسكو بحزم ، ولكن لم يكن بوسعه في ذلك العهد ان يكون المرشد الحاذق الذي امساه بعدئذ . فقد اعجب كل الاعجاب بتقشف كومولو ، وهو تقشف لا يرعى حقيقة الجسد ، وأعجب بهربه الى الله على وجه أشبه بازدرء كل قيمة من قيم الارض .

وبقي عنده كل حين ذلك الانجذاب الى القديس الفتى لويس كومولو ، والى تلك القداسة التي تفنى فناء سريعاً ، وهي ترتفع نحو السماء . بيد أن طريقه الى السماء ستختلف دائماً عن تلك الطريق ، وستكون طريقاً للقداسة اكثر مراعاة لحقيقة الجسد ، متينة : هي ثمرة صلته المباشرة بالواقع ، وتعلقه بالأحداث وحاجاتهم الماسّة ، وهي مسائل حسيّة ملازمة تنقي كل نظرية وتبسّطها .

طالب كهنوت ضائع

دخل معهد الكهنوت يوحنا فرنسيس جياكوملي (Giacomelli) من أفيليانا (Avigliana) في أول كانون الاول (دسمبر) . لقد ترك شهادة ثمينة ، فكأنه صورّ بوسكو الطالب وهو في الصف الثاني من الفاسفة ، وهذا هو موجزها :

" دخلتُ المعهد شهراً بعد سواي ، فلم اكن اعرف أحداً ، فكننت في الايام الاولى ضائعاً تُحيرني العزلة . ولما جلست في غرفة الدرس أول مرة ، رأيت أمامي طالباً بدا لي أكبر سناً من الآخرين . كان حسن الهيئة ، شعره مضفور ، شاحب اللون ، ضعيف البنية وكان يبدو مريضاً . إنه يوحنا بوسكو . جاء الى لقائي أول مرة رأني فيها وحدي ، بعد الطعام ورافقتي طوال العطلة ، فأظهر لي كثيراً من اللطف . أذكر فيما اذكر أن غطاء رأسي كان مُفرطاً في ارتفاعه ، فكان رفاقي في الصف يسخرون مني ، فجعله يوحنا مُلائماً لقامتي بحركة سريعة من يده .

كان في تلك السنة تلميذان يُدعيان بوسكو ، فارادوا ان يُميّز الواحد من الآخر فأعلن الاول

(الذي صار بعدئذ رئيساً لجمعية نسائية دينية في تورينو اسمها الوردات) بلهجة البيمونتي ما معناه : أنا بوسكو الأكّي دُنيا ، (عود الاكي دنيا غاية في الصلابة ، لا يُلوى) ، وأما يوحنا فقال : انا بوسكو الصفصاف (وعود الصفصاف لِيّن يُلوى بسهولة) . لم يكن مُترَمّماً بل كان سريعاً الى الغضب ، وكان يُظهر للعيان ما يبذله من الشدة الحازمة المتواصلة لكي يملك نفسه . كان يحب الأحداث حبّاً شديداً وكانت سعادته أن يكون بينهم " .

المهنة : كاهن

٢٤ حزيران (يونيو) ١٨٣٧ عيد يوحنا المعمدان . هو عيد يوحنا لأنه عيد شفيعه ، وبدء الأشهر الأربعة للعطلة الصيفية .

سلك الطريق البيضاء التي تسير من كييري الى كاستلنوفو ، ثم الدرب الذي يصعد الى سوسامبرينو : اثنا عشر كيلومترات ، إنها رحلة جميلة . رحبت به مزرعة أخيه بصيحات الديوك ، وابتسامة مشوبة بالخجل من بنت لأخيه وهي طفلة رائعة الجمال .
أنشأ يوسف أسرته منذ بضع سنوات . تزوج السنة ١٨٣٣ ماريًا كالوسو وهي فتاة من كاستلنوفو لم تتم سنّ العشرين .

عاشت بنتهما مرغريتا ثلاثة أشهر فقط ، وفي ربيع ١٨٣٣ ولدت فيلومينا ، وهي طفلة هادئة تنظر بإعجاب الى عمها يوحنا وهو يعمل بالرابوب ، ومخرطة الخشب والكور الحديد ، ويفصل الثياب ، ويخيطها ، ويصنع لها دُمى رائعة من الخرق .

بيده المنجل يحصد السنابل

إنّ العناقيد الخضراء النحيفة شرعت تتخذ شكلها ، وقد أخذ السنبل يشقرّ في الحقول .
عندما يكفّ عن العمل في مشغله الصغير ، يقبض يوحنا على المنجل وينضمّ الى صفّ الحصادين الطويل فيتصّبب العرق من جبينه تحت قبعة القش العريضية .
إنه يشعر بفرح شديد ، وهو يعمل في الهواء الطلق بعد ثمانية أشهر من شبه سجن على مقاعد المدرسة .

رأى ذات يوم في الكرم أرنباً تهرب كالسهم فركض بدافع الغريزة الى البيت ، وحلّ رباط بندقية أخيه من المسمار وبدأ له أنّ مطاردة الأرنب لن تدوم أكثر من دقيقة ، ولكن الحيوان يعدو بكلّ ما يمكنه من السرعة ، ويوحنا عنيد يأبى أن يتخلى من مطاردة الأرنب .
" طاردتها من حقل الى حقل ومن كرم الى كرم ، حتى اجتزت ودياناً وتسلفت التلال .

مضت ساعات ، وأصبح الحيوان آخر الأمر على بعد طلقة بندقية ، فأصبته منذ أول طلقة ، فسقط
وحزنتُ حزناً شديداً لما رأيته يموت . أخذ بعض الأصدقاء يهنؤون بنجاحي الطيب ، ولكني
فحصت نفسي : كنت لابساً قميصاً من غير ثوبي الكهنوتي وعلى رأسي قبعة من القش بعد ما
ركضت خمسة كيلومترات ويدي البندقية ، فشعرتُ بما بلغ الغاية من الخجل " .
ولما عاد الى البيت رجع الى دفتره الذي فيه كتب ما عزم عليه يوم لبس الثوب الكنسي فقرأ
المادة الثانية: " لن أقوم بأعمال الخفة ولا البهلوان ولن أذهب الى الصيد " . فتمتم : " رب اغفر
لي " .

وعاد في أثناء فراغه الى خدمة الأحداث . " كان كثير منهم على أبواب سين السادسة عشرة أو
السابعة عشرة ، ولم يكونوا يعلمون شيئاً من العقيدة . كنت أشعر بغبطة عظيمة ، وانا ألقنهم
التعليم المسيحي ، وكنت أعلم هؤلاء الغلمان القراءة والكتابة ، كنت أعلمهم جميعاً أيّاً كانت
سنهم . كانت الدروس مجاناً ولكني أشرت على بعض الشروط : الموظبة والاصغاء والاعتراف
كلّ شهر " .

"القواعد الفكرية "

٣ تشرين الاول (اكتوبر) ١٨٣٧ . شرع يوحنا يدرس علم اللاهوت في المعهد . " هو
العلم الذي يدرس الله " وهو الدرس الأساسي لمريدي الكهنوت . كان في ذلك الزمان يستمر
خمس سنوات ، ويحتوي في مواده الأكثر شأناً العقيدة (درس الحقائق المسيحية) والأخلاق
(القوانين التي يجب على المسيحي أن يعمل بها) والكتاب المقدس (كلام الله) وتاريخ الكنيسة
(منذ نشأة المسيحية الى العصر الحديث) .

لعلم اللاهوت شأنٌ كبير في حياة كلّ كاهن . في هذه السنوات ، سنوات الشباب
والتأهب ، يهياً ما فيه مقومات الذهن : تركيب الأفكار ودوافع حكمها . إنّ الكاهن سوق يُرهِف
هذا الفكر طوال حياته ، ولربّما يُحوّل اتجاهه بتأثير الأحداث الجديدة ، ولكن سيعسر عليه أن
يبدله . إنّ طريقته في النظر الى الأمور والحكم عليها تتأصل في القاعدة الفكرية التي أعطاها إيّاها
اللاهوت . فهكذا أصبح كاهناً محترفاً .

وكانت سنوات درس علم اللاهوت ذات شأن عظيم عند يوحنا بوسكو أيضاً . أجل لقد
أنعم عليه بمواهب فائقة ولكن كان ابن عصره وعلى الخصوص ابن كنيسة عصره . فمن المهم جداً
لمن يريد تفهّم دون بوسكو ، أن يعرف القواعد الفكرية التي وضعتها الدروس والكتب والتوجيه
الروحي أيضاً والوعظ في أساس ذهنه . إن بيترو ستيليا (Pietro Stella) في المجلد الاول من

كتابه دون بوسكو في تاريخ الشعور الديني الكاثوليكي خصّ تلك المسألة بعشرين صفحة (٥٩ - ٧٨) . إنّ حدود تأليفنا هذا لا تمكّننا من الاستشهاد إلا ببعض أقواله المنيرة :

" كان علم اللاهوت العقائدي في ذلك الزمان يجعل كل شيء في ضوء الحساب الذي سيؤدّيه الناس للعدل الإلهي ، وهم ينتظرون الحياة الأبدية أو الموت الأبدي ، وهدفهم الثواب أو العقاب " .

" كان علم اللاهوت الأدبي يُرَكِّز كلّ شيء على العلاقة بين الوصايا الإلهية والحرية الشخصية . كان يُعَلِّم الحكم على الأعمال بحسب موافقتها للمسئولة لوصية الله " .

" كان الوعظ الذي يُلقَى الى طلاب الكهنوت يعمل على تنمية القلق الذي قد ينشأ في النفوس الشديدة الإحساس . وكان الكلام يدور فيه على الواجبات الجديّة الشديدة التي يفرضها الكهنوت والأخطار العظيمة جدّاً التي تتعرّض لها الخدمة المقدّسة (الأخطار الآتية من العالم والنساء ومختلف أنواع الفساد الأخرى) والحساب الدقيق الذي يطلبه المعلم الإلهي من خدّمه " .

ولنذكر ، ونحن نتكلّم على هذا الموضوع ، أنّ يوحنا بوسكو ، وقد تربّى على هذا النمط من الوعظ ، ربّما بالغ هو أيضاً في بعض الأحيان في الدعوة الى محاسبة الإنسان نفسه ، والى الطرق المتشدّدة في التربية الخلقية . تلك اختبارات عابرة مرّ بها كثير من طلاب الكهنوت في الماضي في معاهد مغلقة معقّمة .

تقدير المرء لنفسه

نرى أنّ اظهارة الميزات الجوهرية للذهن التاريخي الذي تلقاه دون بوسكو خلال هذه السنوات أمر ذو شأن : كيف وُجِّه لكي يُراقب العصر الذي عاش فيه ، وبحسب له الحساب ، وهو عصر له من الشأن ما جعل المؤرخين يطلقون عليه في كتب التاريخ إسم " النهضة " . فلا يمكننا أن نعرف كيف فكّر دون بوسكو في مستقبل الكنيسة والعالم ، إلا اذا تفهّمنا هذا الذهن التاريخي .

كانوا يبدؤون بالنظر الى تجارب الثورة الفرنسية وامبراطورية نابليون نظرهم إلى "الافلاس " . في رسائل الأساقفة وعظات ذلك العصر تكثرت هذه العبارات : " أفضح الثورات . . . " ، " الظلم يسودنا نحن أيضاً " ، " مُزّقت شبكة صياد العصافير فنلنا الحرية " ، إعادة الملوك الى عروشهم " عمل من أعمال الله " .

كان " الافلاس " واضحاً لما انتقل الناس من اعلان المبادئ العظيمة (الحرية والمساواة) إلى ارهاب الثورة وتسلّط نابليون . فان مبدأ فلاسفة عصر النور (الذي تبنته الثورة الفرنسية) أي " العقل هو الطريق الواحد الى الحق والخير " قد أدّى الى عواقب وخيمة .

عكسوا ذلك فأعادوا الى المعيار الديني قيمته ، ولا يمكن حدّه بحدود العقل البشري .
وأعيد الى سلطة الملك قيمتها ، ولم يُجعل لها حدٌ سوى مراعاة القوانين الالهية : يجب على الملك أن
يكبت بحكمته الثيرة القوى الثورية التي تسوق الناس إلى الفوضى والعنف .

إن بعض مظاهر هذه الاعادة للقيم كانت ملتبسة . فقد تؤدّي الى مسيحية فيها تسلط ، والى
تحالف بين العرش والمذبح ، وهما عاجزان عن إدراك أنّ " الحرية والمساواة والاخاء " قيم
مسيحية . إن اسباب الالتباس هذه تعود الى " النظام الكاثوليكي المحافظ " الذي ساد حتى نحو
السنة ١٨٤٨ .

ولكن كانت تنتشر في الخفاء ، حتى في البيئات الكنسية ، أفكارٌ أخرى قوامها " التحرر
الكاثوليكي " . ان أنصار هذا المبدأ يعترفون بقيمة المبادئ العظيمة التي نادى بها الثورة ، وهم
يستتكرون العنف الثوري والتسلط النابليوني ، ويتمتّون نظاماً من السلطات المتوازنة : ملكٌ
يُمسك بزمام الثوريين ، وفي الوقت نفسه يقيم دستور يضمن الحرية والمساواة . فالحرية والمساواة
يتمنونها لجميع الناس ما عدا السوقة .

إن الأحرار والمحافظين يُظهرون كلهم الخوف من " المساواة الشعبية" : فقد أثبت عهدُ
الارهاب أنها تتحول حتما الى تسلط فئة صغيرة ، تزعم أنّها تحكم " باسم الشعب " ، وتُحدث
الفوضى .

كان بين أنصار الحرية الكاثوليك الاكثر شهرة في ذلك الزمان ، أنطون روسميني (Rosmini)
والاسكندر مانزوني (Manzoni) .

أمّا يوحنا بوسكو فتنبّى الذهن التاريخي " للنظام الكاثوليكي المحافظ " . كان يميل الى المبدأ
المحافظ (وقد دعت ضرورة الاحوال التي قامت ، الى تجاوز ذلك المبدأ ، وعند الحاجة ، الى مخالفة
ما كان يفعل أنصار النظام المحافظ) . ولم يكن ممكناً أن يحدث غير ذلك ففي السنة ١٨٣٢ كان
البابا غريغوريوس السادس عشر قد أعلن في رسالته الرعائية ميراري فوس (Mirari Vos) انه لا
يجوز للكاثوليك قبول الحريات العصرية . قال البابا : ان الاعتراف بحرية الضمير ، على سبيل
المثال ، يُساوي بين الحقيقة والضلال . كان نصُّ رسالة البابا في أيدي طلاب الكهنوت ، وكان
يجب عليهم أن يعدّوها موضوع درس وتفكر .

أين كافور ومازيني وغارibaldi ؟

بينما يوحنا في كييري يستوعب هذه الأفكار ، كان كارلو البرتو في تورينو " زعيم " النظام
الكاثوليكي المحافظ . كان التحالف بين العرش والمذبح زاهياً . كان رجال الكنيسة يشغلون

مكان الصدارة في الجامعة فيحضر ممثل لرئيس الأساقفة جميع الامتحانات . دشّن الملك سنة ١٨٣٤ ، في ساحة الترسانة ، البناء التذكاري لتكريم بيترومكا (Pietro Micca) ، ذلك الرجل من الشعب الذي بذل نفسه لانقاذ المدينة . ولكن لم يعظّم في الخطاب شأن فضائل الشعب ، ويا للأسف ، بل فضائل المرؤوس البسيط الجاهل المطيع الذي يبذل نفسه في سبيل ملكه .

في السنة ١٨٣٧ تلك كان دعاء النهضة لا يزالون مُشْتَتِينَ وهزّت النهضة ايطاليا بعدئذ هزة شديدة خلطت الأوراق كلّها بما فيها أفكار حزب المحافظين والاحرار .

كان يوحنا ماستاي فرّيّي (Mastai – Ferretti) الذي اعتلى الكرسي الباباوي عام ١٨٤٦ ، وتسمى بيوس التاسع ، مطران إيمولا (Imola) . كان في سن الخامسة والاربعين فقط وكان يُعدّ مطرانا " غير متحزب" لأنه يستنكر إفراط الشرطة الباباويّة في تصرفها ، ولأنه صديق الكونت بازوليني (Pasolini) أبرز الأحرار في مدينته .

كان كافور (Cavour) ، وهو في سنّ السابعة والعشرين ، يُدير مزارع ليري (Leri) فكان يمشي من غير أن يملّ ، من الصباح الى المساء ، في الحقول والمراعي ومزارع الأرزّ ، ورجلاه في الجزمة وعلى رأسه قبعة من القش . كان ملازماً في حامية جينوى السنة ١٨٣١ . لما سمع بخبر الحركات الثورية صاح : عاشت الجمهورية ، فأرسل إلى وادي أوستا (Valle d'Aosta) وترك الجيش . وكان أبوه حاكم مدينة تورينو وكان لذلك مدير الشرطة ، فأبعده إلى الريف . وفي الفراغ الذي كان له بين وقت قطف العنب وحصاد الأرزّ ، زار أوروبا وأعجب بمجلس باريس ولندن .

وقد واجه ايضا السياسيين الايطاليين المنفيين وقال فيهم " إنهم زمرة من المجانين البُله المتعصّبين ، يسرّني أن أجعل منهم سماداً لشمندري " .

إنّ مازيني ، وهو في سنّ الثانية والثلاثين ، طُرد لعهد قريب من سويسرا وكان يدير منها دسائسه السياسية ، فأقام في بيت من ضواحي لندن ، واخذ يكتب في الصحف ليكسب معيشته ، وأغفى لحيته ، وطفق يجول وحيدا ، لا بسا ثياباً سواد ، في أزقة المدينة التي يغطّيها الضباب .

هرب غاريبالدي (Garibaldi) الى أمريكا بعد أن أخفق عصيان مازيني وانصاره في سافويا ، فنزل في البرازيل وكان في سنّ الثلاثين ، وعمل قرصاناً في بحار الجنوب لخدمة الحكومة الثورية في ريو غرانده (Rio Grande) وألبس بعد قليل جيشه الايطالي القميص الاحمر ذا الشهرة الاسطورية ، بعد ما اشترى بثمان بخس في مونتيفيديو مخزوناً من المآزر صنّعت لجزّاري الارجننتين .

كان فيثوريو عمانوئيل في سنّ السابعة عشرة ، وكان يعيش في القصر الملكي في تورينو عيشة شظف كأثفه في تُكنة . كان يجب عليه أن يرافق أباه الى حفلات العيد والرقص التي تقيمها الطبقة

الارستقراطية ، ويبقى بجانبه واقفاً على قدميه ساعات كثيرة ، وكانت الدقائق الوحيدة التي تملأه فرحاً ، هي تلك التي يقضيها في الاسطبلات . كان يحدث خدم الاسطبلات بلهجة صريحة خشنة ويركب الخيل بجرأة وتبجح . إنه مولع بالعمل والهواء الطلق .

قتاريخ البشر في البلاد القريبة أو في البلاد البعيدة والاحداث الصغيرة أو الكبيرة تتعاقب وتدفع التطور الانساني الى الامام .

في السنة ١٨٣٦ اخترع مورس (Morse) التلغراف الكهربائي ، والابجدية للاشارة بالخطوط والنقاط ، بعد وقت قليل انتشر في العالم كله مستطيل من الورق مفيد هو البرقية ، كان للحكام والجراند الكبيرة أول الامر ، ثم أصبح في متناول جميع الناس .

في السنة ١٨٣٧ مات جياكومو ليوباردي (Leopardi) في أثناء تفشي الكوليرا ، ولم يكن له من العمر سوى تسعة وثلاثين عاماً ، واعتلت الملكة فيكتوريا العرش في انكلترا فبدأت ذلك الملك الطويل الذي شاهد انكلترا تصبح أول الدول الاستعمارية .

في السنة ١٨٣٨ مات المركيز تنكريدي دي بارولو (Tancredi di Barolo) ، الذي كان محافظاً سابقاً لمدينة تورينو فعزمت امرأته على أن تنفق ثروتها الطائلة لتساعد النساء البائسات ، وهكذا أنشئ على حدود تورينو في مكان غير بعيد من الكوتولنغو مشروع الاسعاف للسجينات والبغايا .

وفي السنة ١٨٣٩ أمر الملك فرناندو الثاني بانشاء أول سكة حديد ايطالية ، نابولي – غراناتلو (Granatello) ، وصنع يعقوب ديغر (Deguerre) أول آلة تصوير شمسية : إن يوحنا بوسكو مدين الى هذا المخترع المتواضع بأنه كان من أول القديسين الذين حُفظت لهم صورة صحيحة ، ويعود الفضل في ذلك الى عشرات من الصور الشمسية له .

صار " دون بوسكو "

في العطلة الصيفية لعام ١٨٣٨ دُعي طالب علم اللاهوت يوحنا بوسكو إلى إلقاء الوعظ أوّل مرّة في الفيانو (Alfiano) يوم عيد سيّدة الوردية . روى : " كان خوري الرعية الأب يوسف بيلاتو (Pelato) رجلاً متعلماً شديد التقوى . سألته أن يقول لي رأيه في عظتي فأجاب :

- جميلة جداً ، منسّقة . ستكون واعظاً يجيد الوعظ .
- هل فهم الناس ؟
- لم يفهموا كثيراً . أنا بنفسني وأخي الكاهن وبعض الآخرين قد فهمنا .
- ولكن عظتي بسيطة .
- كانت تبدو لك بسيطة ، ولكنها كانت عند الشعب عالية جداً . إنّ الكلام على جملة من أحداث تاريخ الكنيسة والتاريخ المقدس امر حسن جداً ولكن الناس لا يفهمونه .
- فما العمل اذن ؟
- يجب التخلي من أسلوب الأدب المدرسيّ ، والتكلم بلهجة المكان ، أو ، إذا فضّلتَ ذلك ، باللغة الايطالية ولكن بأسلوب شعبي ، شعبي ، شعبي . لا تنصرف إلى الاثبات بالأدلة ، بل اذكر أمثالا وائتِ بالتشبيهات البسيطة العملية . تذكر أن الناس لا يُصغون إلّا قليلاً ، وأنه يجب على الواعظ أن يشرح حقائق الايمان بأسهل اسلوب ممكن .
- كتب دون بوسكو أنّ هذه النصيحة كانت من أئمن النصائح التي تلقاها في حياته ، وقد أفادته في العظات ودروس التعليم المسيحي وفي تأليف الكتب .

ميثاق غريب مع عالم ما بعد الموت

كان الشهر شهر تشرين الثاني (نوفمبر) لعام ١٨٣٨ ، فبدأ يوحنا السنة الثانية لدراسة علم اللاهوت ، وقد هيمن عليها حدث مفرح وهزّة أصابته في صميمه .

كان لويس كومولو في الشهر الاخير من العطلة الصيفيّة قد تفوّه بأقوال غريبة فنظر الى الكروم من أعلى تلة وتمتم :

- أرجو أن أشرب في العام القادم خمراً أكثر جودة .

- ماذا تعني بقولك ؟

لم يشأ أول الأمر أن يجيب ثم قال :

- أشعر منذ بعض الوقت برغبة شديدة جداً بالذهاب الى السماء ، حتى إنه يبدو لي من

المستحيل أن أعيش كثيراً بعد اليوم في الأرض .

وفي أثناء الاشهر الاولى من العام الدراسي ، أضيف الى ذلك حدث صغير لا يقلّ غرابة

عنه . قرأ يوحنا ولويس معاً صفحة من سيرة بعض القديسين ، فعلق عليها يوحنا بقوله :

- ما أحسن لو استطاع اول من يموت منا ، أن يعود فيخبر الآخر بأخبار عالم ما بعد الموت .
فشغف لويس بهذا العرض وقال بلهجة اليقين :

- اذا لَعقد ميثاقا . فالذي يموت أولاً يأتي ، اذا سمح الله ، فيخبر الآخر هل هو في

الفردوس . أنت موافق ؟

قبض الواحد على يد الآخر .

في صباح الخامس والعشرين من شهر اذار (مارس) للعام ١٨٣٩ ، بينما هما ذاهبان الى

المعبد ، أوقف لويس يوحنا في الرواق ، وقال له ، وقد أرتمت أمارات الجدّ على وجهه :

- لقد انتهى أمري ، أحسّ أني مريض وأحسّ سأموت بعد قليل .

حاول يوحنا ان يتلقى ذلك بالمزاح .

- الأولى لك ان تعترف بأنك تنعم بصحة حسنة جداً فقد سيرنا البارحة معاً في جولة دامت

ساعة . لا تتعلق بالوهم هذا .

ولكن الامر جدّ حقاً ويا لسوء الحظ ، فبينما هما في الكنيسة ، أغمي على لويس ، فاضطّروا

الى نقله الى المستوصف فكانت الحمى عالية تدعو الى الفلق .

في ٣١ اذار (مارس) كان عيد الفصح ، فحُمّل القربان المقدس إلى لويس زاداً أخيراً .

لقد فُقد قواه . في لحظة كان فيها يوحنا بالقرب منه ، أمسك بيده وتمتم :

-ها هوذا الوقت الذي فيه يجب علينا أن يترك الواحد منا الآخر ، أيها العزيز يوحنا. كان في

خاطرنا ، أن نصير كاهنين معاً ، وأن نتساعد ، وأن ينصح واحدنا الآخر ، ولا يشاء الله ذلك .

عدني بأن تصلي من أجلي .

مات في فجر اليوم الثاني من نيسان (ابريل) وهو قابض على يد يوحنا ، ولم يكن قد أتمّ

وهذا هو الحدث الغريب جداً الذي وقع في الثماني والأربعين ساعة بعدئذ . عرف الناسُ

ذلك الحدثَ مما رواه يوحنا بوسكو نفسه :

" في الليلة بين الثالث والرابع من نيسان (أبريل) كنت في السرير ، في مهجع يضمُّ عشرين من طلاب الكهنوت . وفي نحو الساعة الحادية عشرة والنصف ، سُمع صوت يُدويُّ في الرواق ، كأن عجلة ضخمة تجرّها عدة خيول تقترب من الباب ، فاستيقظ الطلاب ولكن لم يتكلم احد ، وصرتُ كالحجر من الرعب ، واقترب الضجّة وتفتح الباب بعنف ، وعندئذ سُمع صوت كومولو الواضح يقول ثلاث مرات : يا بوسكو خلصتُ . ثم توقف الصوت ، فوثب أصحابي من السرير ، والتفت عدد منهم حول ناظر المهجع الاب يوسف فيوريتو دي ريفولي (Fiorito di Rivoli) . تلك أول مرة أذكر فيها أنني خفت . شعرت برعدة شديدة جداً حتى إنني فضلتُ حينئذ لو تأتت لي أن أموت . ان ذلك الرعب أمرضني الى حدّ أنه قربني الى حافة القبر " .
ان الاب لموان الذي عاش بالقرب من الاب بوسكو في المصلى من ١٨٨٣ إلى ١٨٨٨ أكد :
"ان الاب يوسف فيوريتو روى هذا الظهور مرار كثيرة لرؤساء المصلى " .

خبز مصنوع من الذرة وخمرة معتقة

إن "المرض الشديد" الذي أشار إليه ، كان ضرباً من انحطاط للقوة استمر حتى الأشهر الأولى للعام الدراسي اللاحق . كان الطعام يسبب له التقزز ، وكان الارق المتواصل يُنهكه فأمره الطبيب ، بعد عدة أشهر ، بالاخلاء الى الراحة التامة في السرير ، فبقي فيه نحو ثلاثين يوماً .
وقد أفلح في العودة الى الصحة بطريقة غريبة ، تكاد لا تُصدّق . سمعت أمه بأنه في الفراش منذ عدة أيام فجاءت لكي تراه ، ومعها رغيف كبير من الذرة ، وقنينة من الخمر المعتقة من بربره (barbera) . إن هذه المرأة من الشعب جديرة بكل اعجاب . قيل لها ان ابنها مريض ، وليس عند الفلاحين سوى مرض واحد ، هو قلة التغذية ، وكذلك ليس عندهم إلا دواء واحد وهو حسن التغذية . ان الناس في التلال يجهلون كل شيء عن الأمراض ذات الأسماء العسيرة ، والادوية المعقدة .

وقيل يوحنا المشاركة في الأمر فلم يشأ أن يرفض ما تقدّمه له أمّه فيخجلها . تناول لقمة من الخبز ، وشرب جرعة من الخمر ، وواصل عمله من غير أن يشعر بما يفعل . ومن لقمة الى لقمة ، وجرعة الى جرعة أكل الرغيف وشربت الخمر ، واثاه بعد ذلك ، نوم عميق " دام ليلة ويومين متوالين " ولما استيقظ أحسّ أنه شفي .

" كنت أرتجف كلما خطر ببالي أنني التزم طوال حياتي "

استعاد صحته على وجه حسن جداً حتى " إنني أستهيت كسب سنة من الدرس ، بالعمل في اثناء العطلة الصيفية .لم يكن ذلك الاذن يُمنح الا نادراً جداً . مثلتُ بين يدي رئيس الاساقفة فرانسوني (Fransoni) وطلبت اليه أن أدرس في الصيف موضوعات السنة الرابعة ، فنهى السنة الخامسة من معهد الكهنوت في آخر العام الدراسي ١٨٤٠ - ١٨٤١ . وكانت الحجة التي احتججت بها هي سني : فقد تمّ لي أربع وعشرين عاما " .

أراد رئيس الأساقفة أول الأمر أن يعرف نتائج دروسه ومنحه الانعام الذي طلبه، شريطة أن يقدم يوحنا في اول تشرين الثاني (نوفمبر) جميع الفحوص القانونية ، ويُرسم شماساً رسائلياً . أقيم خوري رعية كاستلنوفو فاحصاً ، وأكبَّ يوحنا على العمل بنشاط لا يعرف الملل طوال شهرين فاستعدّ للفحوص وقدمها .

كانت رسامة الشماس الرسائلي خطوة حاسمة في حياة طالب الكهنوت . إن الذي يتقبلها ينذر العفاف حتى آخر حياته ، ولم تكن الكنيسة تقي أحداً من ذلك النذر لأي سبب كان .

كان الذي يتأهب لتقبل هذه الرسامة يُدعى الى الاعتزال في الصمت ، خلال عشرة أيام من الرياضة الروحية ، وكان في أثناء تلك الايام يعترف اعترافاً عاماً بجميع خطاياها ، وكان يُطلب إليه أن يفحص حياته فحصاً تاماً ، لكي يعلم هو بنفسه ، ويعلم معرفه مُمثل الله ، هل يسعه أن يلزم نفسه التزاماً دائماً .

كتب دون بوسكو في هذا الشأن : " كنتُ أرغب في السير الى الأمام ، ولكنني كنت أخاف عندما أفكر بالالتزام الدائم " .

١٩ ايلول (سبتمبر) السنة ١٨٤٠ . دعا الاسقفُ يوحنا بوسكو الى أن يُفكر آخر مرة بعظم شأن الرتبة التي سيتقبلها . اذا عزم على أن ينذر حياته لله نذار دائماً ، فليخط خطوة إلى الامام .

خطا يوحنا خطوة بسيطة على بلاط الكنيسة وبتلك الحركة ترك تركاً دائماً كلَّ عمل دنيوي .

" ان الكاهن لا يذهب وحده الى الفردوس "

تشرين الثاني (نوفمبر) ١٨٤٠ . بدأ في معهد الكهنوت في كييري عامه الخامس والآخر من علم اللاهوت .

٢٨ اذار (مارس) ١٨٤١ رُسم شماساً إنجيلياً . تلك المرحلة هي المرحلة الاخيرة قبل الكهنوت .

٢٦ ايار (مايو) بدأ الشماس يوحنا بوسكو الرياضة الروحية التي يجب أن يستعدّ بها
للمرسامة الكهنوتية ، فدعاه مرشد الرياضة الى التفكير طوال تلك الأيام في كلمات المزمور : " من
يصعد جبل الله ؟ من يقيم في بيت الرب ؟ من طهرت يداه وصفا قلبه ". تفكّر ما في ماضيه ،
فرأى أن يديه منذ أن كانت مرغريتا تضمهما للصلاة ، قد ظلّتا طاهرتين على وجه عجيب .
كتب في دفتر صغير : " إن الكاهن لا يذهب وحده الى السماء . اذا صنع الخير ذهب الى
السماء مع النفوس التي قد خلّصها بقدوته الحسنة . إذا عرضّ الناس للخطيئة ، ذهب الى الهلاك
مع النفوس التي أهلكتها خطيئته . لذلك أبذل جهدي بشجاعة ، لكي اعمل بهذه الاشياء التي
عزمت عليها " .
ورَدَ بعد ذلك تسعة مقاصد اساسية للمستقبل . انها في معظمها تُكرّر وتوضح ما نواه لما
ارتدى الثوب الكنسي ، ولكن ثلاثة منها تعبّر عن العمق الذي سنتّصف به الطريقة الكهنوتية
الخاصة بدون بوسكو وهذه هي :

- أصرّف وقتي كلّه في العمل .
- التحمل والعمل والتواضع في كل شيء ، ودائماً وابدأ ، كلما اقتضى الأمر خلاخ
النفوس .
- ان محبة القديس فرنسيس دي سال ووداعته ستكونان دليليّ في كل شيء .

كاهن للابد

٥ حزيران (يونيو) ١٨٤١ في معبد دار المطرانية ، سجد يوحنا بوسكو وهو لابس القميص
الابيض ووجهه يلامس الأرض أمام المذبح . إن انغام التراتيل الغريغوري الخالية من الزخرف
تنحدر من الارغن . الكهنة وطلاب الكهنوت الحاضرون يستشفعون كبار قديسي الكنيسة الواحد
بعد الآخر : بطرس وبولس وبنديكتوس وبرناردوس وفرنسيس وكاترينا وأغناطيوس . . .
نهض يوحنا وقد اصقّر وجهه لما ناله من التأثر والتعب خلال هذه الأيام الاخيرة المنهكة
للقوة ، وجثا عند قدمي رئيس الأساقفة ، فوضع لويس فرانسوني يديه عليه ورسمه كاهناً للابد
بعد ما طلب نزول الروح القدس عليه .
وبعد بضع دقائق ضمّ يوحنا بوسكو صوته الى صوت رئيس الاساقفة ، وبدأ إقامة القداس
المشترك للمرة الاولى . لقد صار دون^(١) بوسكو .

(١) كلمة "دون" لالايطالية تعال للكاهن (حاشية من المترجم) .

كتب ببساطة بعدئذ : احتفلتُ بقداسي الاول في كنيسة مار فرنسيس الاسيزي ، يعاونني الأب يوسف كافاسو مرشدي وأكبر محسن إلي . كانوا ينتظرونني بفروغ الصبر في بلدي (كان ذلك اليوم عيد الثالث الاقداس) ولم يُقدّم فيه قداس اول منذ سنين كثيرة ، ولكن آثرتُ أن أحتفل به من غير ضجة في تورينو على مذبح الملاك الحارس . أريد أن أُسمّي ذلك اليوم أجمل يوم في حياتي . في الدعاء للمتوفين أثناء القداس ، تذكرتُ الأعراء عليّ والذين أحسنوا الي ولا سيما الأب كالوسو الذي عدّته دائماً أبداً محسناً كبيراً ربيعاً . كان هناك اعتقاد من اعتقادات التقوى يقول إنّ الرب يمنح دائماً أبداً النعمة التي يسألها الكاهن الجديد ، عندما يحتفل بقداسه الاول ، فطلبت بحرارة أن يكون كلامي نافذ المفعول لأتمكن من صنع الخير الى النفوس " .

وأما القداس الثاني فقد أراد دون بوسكو أن يقيمه على مذبح سيّدة التعزية في معبد السيدة الكبير في تورينو . عندما رفع عينيه رآها في العلى ، إنها السيدة المتألّنة كالشمس التي كلّمته في الحلم قبل سبع عشرة سنة فقالت له : " كن متواضعاً شجاعاً قويّاً " . حاول يوحنا بوسكو أن يتواصل الى ذلك . والآن يبدأ الوقت الذي " فيه سيّفهم كل شيء " .

كان في الخميس الذي بعده ، عيد جسد المسيح (وكان ذلك العيد عيداً الزامياً في ذلك العهد) فأقام دون بوسكو القداس في بلده .

دقت الاجراس ودوى صوتها حتى الاماكن البعيدة فاحتشد السكان في الكنيسة . قال : " إنهم يحبوني حباً جمّاً ، وكان كل منهم سعيداً مثلي " . كان الصغار يحملقون عندما يقال لهم إنّ هذا الكاهن كان بهلواناً صغيراً .

وكان الكبار يتذكرون رفيقهم في اللعب والمدرسة . واما الشيوخ فقد رأوه على التلال المجاورة يمرّ مرات كثيرة على الطريق حافي القدمين ، وكُنّبّه في يديه . في ذلك المساء وجدت ماما مرغريتا لحظة من الوقت لتحدّثه حديثاً بينها وبينه : "أما وأنت الآن كاهن ، فأنت أقرب من يسوع . لم أقرأ ما قرأت من الكتب ، ولكن تذكّر أن الشروع في إقامة القداس هو الشروع في التأم . لن تشعر بذلك لوقتك ، ولكنك ستري شيئاً فشيئاً أنّ أمك قالت لك الحق . فكّر من بعد اليوم في خلاص النفوس فحسب ولا تكن في همّ من أمري قط " .

كاهن في مرحلة التدرّب

ماذا يعمل دون بوسكو الآن ؟

إنه ذكيّ ، راغب في العمل ، فقير .

عُرِضَ عليه ثلاثة أماكن للعمل . طلبته أسرة نبيلة من جينوى مُربياً لأولادها . في ذلك

الزمان كان كثير من الأسر الغنيّة تُفضّل على إرسال أولادها إلى المدارس الرسميّة أن تُنزل في دارها الخاصة مُدرّساً يُعهد إليه بتعليمهم وتربيتهم . وكانوا كلّ مرّة على وجه التقريب ، يختارون كاهناً تظهر فيه ضمانات الرّزّانة . وأخبر نبلاء جينوى دون بوسكو أن مرتبه سيكون عشرة آلاف ليرة في العام ، وهو مرتب ممتاز .

ورجا منه سكان البلدة أن يقبل المكان الشاغر الذي خلقه المُرشد في موريالديو ، وأكّدوا له

أنهم سيدفعون له ضعفيّ المعاش المألوف .

وعرض عليه خوري كاستلنوفو الأب تشنزانو (Cinzano) أن يصير وكيله ، وهو أيضا

يضمن له دخلاً حسناً .

ياللغرابة ! حدّثوا كلّهم دون بوسكو حديث المال كأنّ اعتناقه الكهنوت " وظيفة حسنة "

ينالها آخر الامر ، وله ان يستثمرها للربح الماديّ . وماما مرغريتا ، وهي امرأة حرصت دائماً على

الفلس لكي تكون موازنتها سليمة ، ذكّرتة وحدها فقالت له : " إذا صرت كاهناً غنياً فلن أدوسَ

بيتك بقدمي " .

وأراد دون بوسكو ان ينهي الأمر ، فذهب إلى الأب كافاسو في تورينو وسأله :

- ماذا يجب عليّ أن أعمل ؟

- لا تقبل شيئاً ، هلم الى هنا ، الى المركز الكهنوتي ، فنتمّ تدريبك الكهنوتيّ .

كان الأب كافاسو ينظر نظراً بعيداً . لقد أدرك أنّه لا يحسن برسالة دون بوسكو الإنسانية

والروحيّة أن تكتفي بأسرة أو قرية ، وأما تورينو فهي مدينة على قدره : أحياء جديدة وأزمنة

جديدة ، ومسائل جديدة . وسيتربّب على الأب كافاسو امرٌ واحد وهو أن يظلّ ساهراً عليه ،

يدعوه الى الاعتدال .

الاكتشاف الاول : بؤس الضواحي

المركز الكهنوتي دير قديم قريب من كنيسة مار فرنسيس الأسيزي . في تلك الدار يُعدُّ عالمُ اللاهوت لويس غولا (Guala) ، يعاونه الأب كافاسو ، خمسة وأربعين كاهناً لكي يصيروا رُسلًا لزمانهم وللمجتمع الذي سيجب عليهم أن يعيشوا فيه .

إن الاستعداد يدوم عامين (كان على وجه استثنائي ثلاثة أعوام لدون بوسكو) . كان العمل يدور كلَّ يوم حول محاضرتين ، يُلقى إحداها في الصباح الأب غولا ، ويُلقى الأخرى في المساء الأب كافاسو ، وكان الكهنة في أثناء النهار يُرسلون الى بيئة المدينة ليقوموا بخدمتهم : المستشفيات ، والسجون ، وأعمال البرِّ ، البنائيات ذات طبقات كثيرة ، والدور الشعبية ، وسقائف البيوت ، والوعظ في الكنائس ، والتعليم الديني للأطفال ، وإسعاف المرضى وكبار السن .

لا تلقى المحاضرات لتعرض نظريّات لاهوتيّة ، بل للبحث في الاختبارات اليوميّة التي يعيشها الكهنة الشبان بين أهل المدينة . نقول اليوم إنهم يُرسلون ليحللوا تحليلاً حيّاً الحالة الاجتماعيّة والدينيّة ، ليعودوا ويفكروا في عملهم الرعائي الذي يقومون به . أوجز دون بوسكو ذلك كله بخمس كلمات : " كنا نتعلم أن نصير كهنة " .

الأب كافاسو كاهن قصير القامة نحيل أحذب ، ولكنّه يعمل بنشاط لا حدّ له : التعليم والوعظ ، والاعترافات ، والسجون .

صار الاب كافاسو منذ ١٨٤١ المرشد الروحيّ لدون بوسكو ، أي إن دون بوسكو يعترف لديه ويسأله نصائحه قبل كلّ أمر ذي شأن يعزم عليه ، ويظهر له مقاصده ويلزم نفسه بحكمه . كان دون بوسكو إلى ذلك الحين لا يعرف سوى فقر الريف . إنه لا يعرف ماهو البؤس في الاماكن حول المدن . قال له الأب كافاسو : " اذهب إلى هناك وانظر إلى ما حولك " .

شهد ميشيل روا (Rua) " جال منذ أول أيام الأحد في المدينة ليطلّع على حالة الشبان الخلقية " فأخذه اضطراب عظيم لزمه لزوما . الضواحي بُعغ غليان وتمردّ ومناطق بؤس . المراهقون مشردون في الشوارع ، لا عمل لهم ، فاسدو الاخلاق ، مستعدون لأسوء الأفعال . وأضاف الأب روا : " صادف عدداً من الاحداث كبيراً من كلّ سينّ ، تائهين في الشوارع والساحات ، ولا سيما حول المدينة ، يلعبون ويتضاربون ويكفرون ويفعلون ما هو اسوأ من ذلك " .

سوق الاندرة الفتية

اكتشف بالقرب من السوق المركزي في تورينو "سوق الأذرع الفتية". كتب الأب لموان :
"كان الجانب المجاور لبورتا بالاتسو (Porta Palazzo) يغصّ بالباعة الجوالين لعود الثقب ،
ومساحي الاحذية ومنظفي المداخن ، وخدم الإسطبلات ، وموزعي أوراق الدعاية ، ووكلاء
سماسرة السوق ، وكلهم صبيان مساكين يتعيشون بما يتيسر لهم من العمل يوماً بعد يوم .
روى دون بوسكو نفسه في ذكرياته أنّ أول جماعات الصبيان الذين استطاع أن يتقرب
اليهم "كانوا حجّارين وبنّائين وجصاصين ومبطني الشوارع ، وآخرين يأتون من بلاد بعيدة " .
وكان أولاد الأسر الفقيرة ، ولا عمل لهم ، يبحثون عن أيّ شغل كان ، بشرط أن يدرّ
عليهم ما يعيشون به . كانوا أول "نتاج" لتجمّع المهاجرين في " المنطقة السوداء " التي أهدقت
بالمدينة منذ ذلك العهد .

كان دون بوسكو يراهم يتسلقون سقالات البنّائين أو يبحثون عن عمل في متجر ، فيجوبون
الشوارع وهم يُطلقون نداء منظفي المداخن . وكان يراهم يُقلمرون في زوايا الأزقة ، ووجوههم
مقطوبة عليها أمارات العزم على أي عمل كان في سبيل الحصول على مكان حسن في ضوء
الشمس .

وإذا حاول أن يتقرب إليهم ، ابتعدوا بحذر وازدراء . لم يكونوا مثل صبيان البكي يطلبون
حكايات أو ألعاب الخفة . كانوا " الذئاب " ، والحيوانات الضارية التي رآها في حلمه ، ولو كان
يرى في أعماق تلك العيون الخوف أكثر من الضراوة .

الثورة الصناعية

هؤلاء الأولاد في أزقة تورينو هم " نتيجة مشوّهة" للحدث الذي بدأ يقرب العالم راساً على
عقب ، إنه حدث " الثورة الصناعية " .

في السنة ١٧٦٩ سجّل جيمس واط (Jams Watt) اختراع "الآلة البخارية" . كانت هذه
الآلة تستعمل القوة المنبعثة من الحرارة ، فتحرك الرافعات وسيور الحركة . إنّ آلة واحدة من آلات
واط (وقوتها مائة حصان) تنتج قوة تساوي قوة ٨٨٠ رجلاً ، فإذا استعملت في معمل للغزل
أمكن الحصول على ما ينتجه ٢٠٠ الف رجل . وكان يكفي للعناية بالآلات الغزل ٧٥٠ عاملاً
مجمّعين تحت سقف بضعة مستودعات .

أخذت المعامل والعمال (وسموا أيضاً الكادحين) تبرز غلى الوجود . كان الشعب في
الماضي يُقسم الى فلاحين وتجّار وصنّاع . وكانوا يحسبون في عداد الصناع (وهم العمال الذين
يستعملون آلات ملكاً لهم في مصنعهم الخاص بهم) الحاكة الذين يُعالجون القطن والصوف
بأذرعهم .

إن الانتاج ، وقد ضاعفته المعامل ، خفض أسعار الانسجة بغتة ، ووسّع أسواقها كثيراً جداً . وشوهد في الوقت نفسه ازدياد كبير جداً في استعمال الحديد (لصنع الآلات والأنوال والسكك الحديدية) واستخراج الفحم من الأرض (ولابد منه لدفع الآلات البخارية ومعالجة الحديد) .

إن انشاء السكك الحديدية بمقدار كبير ، والسفن البخارية ، وسائر وسائل النقل ، يعود إلى ذلك الزمان أيضاً .

وفي تلك السنوات أيضاً أحرز الطب والرعاية الصحية انتصارات متوالية على الأوبئة الأكثر فتكاً كالطاعون والجذري ، فَمَا عدُّ السكّان في أوروبا نمواً مدهشاً ، فارتفع من ١٨٠ مليوناً في ١٨٠٠ إلى ٢٦٠ في ١٨٥٠ .

وتضاعف عدد المعامل (أي الصناعة) تضاعفاً لا يوقفه شيء ، فأدى الأمر إلى وقوع أزمة عند الصنّاع ، فوثب سيل من الناس يطلبون العمل في المدينة بعد ما هجروا الريف ، فطُبعَت المعامل بطابع خاص : انها مراكز يقوم فيها عدد كبير من العمّال بالعمل عينه ، وهم خاضعون لصاحب العمل .

قامت في انكلترة أيضاً مُدُنُ الفحم ومُدُنُ الحديد ومدن الصناعات النسيجية . تلك هي الثورة الصناعية : ولدت في انكلترة ، وعبرت بسرعة إلى فرنسا وألمانيا وبلجيكا وأميركا . يرى كارلو شيبولا (Carlo Cipolla) (تاريخ الافكار السياسية والاقتصادية والاجتماعية ، ج ٥) أن ذلك التغيير كان واحداً من التغييرين الأعظمين اللذين حدثا في تاريخ الانسان .

اولهما ضائع في ظلمات الازمنة . كان الناس " مجموعة من عصابات الصيادين لا نظام لها ، قصار القامة ، شرسين أشرار " فلما حدثت ثورة العصر الحجري الحديث تحوّلوا إلى زراعي نبات ومربّي مواش . " بين صياد العصر الحجري القديم ومزارع العصر الحجري الحديث هوة ، والفرق هو الفرق الذي يفصل بين حالة المتوحش والمدنيّة " . إن هذا التبدّل الجذري الأول في تاريخ الانسان حدث على مرّ آلاف السنين ، فأتيح للناس الوقت لكي ينسجموا وذلك التبدّل . وأما الثورة العظيمة الثانية ، الثورة الصناعيّة ، " فقد اجتاحت الكرة الأرضية ، وبدلت الحياة ، وقلبت أنظمة الجماعات الانسانية القائمة كلها ، في اثناء سبعة أجيال أو ثمانية " (أي في مئتي وخمسين او مائتي سنة) فوجد الفكر البشري نفسه امام مسائل جديدة ضخمة تتطلب حلاً سريعاً يذهل العقول .

التقدم العظيم المعروف على العالم

إن الثورة الصناعيّة فتحت أبواب عالم كله جديد ، ومصادر للطاقة جديدة غير معروفة :

الفحم الحجريّ والنفط والديناميت . " ان اكتشاف واط تبعته سلسلة من الاختراعات المماثلة " مكنت من استثمار طاقات جديدة للانتاج ، وللخراب أيضاً .

إن النتائج الصناعيّة كانت عظيمة لا يُحصى لها عدد حتى إنه يسعنا القول : الماضي في ١٨٥٠ لم يمض فحسب بل مات .

النوع الانسانيّ ينمو نمواً انفجارياً : ٧٥٠ مليوناً في ١٧٥٠ ، مليار ومائتا مليون في ١٨٥٠ وملياران ونصف المليار في ١٩٥٠ .

ان الرخاء الذي تنشره الثورة الصناعيّة لم يُدرك قطّ من قبل . " في بلد من العصر السابق للصناعة ، يُنفق نصف الدّخل على القوت . جميعُ الدّخل ، عندما تَفَع المجاعات ، وكانت كثيرة ، غيرُ كافٍ لمجرّد البقاء . زال الجوع عن كل بلد صناعيّ ، القوت لا يكفّ سوى ربع الدّخل " .

تبدّلت تبديلاً تاماً شديداً العادات والافكار والمعتقدات والتعليم والاسرة . إن الأجيال الجديدة تجابه مسائل كبيرة عسيرة . لنذكر تكاثر السكان من غير مراقبة ، والأسلحة التي تزداد فتكاً وتفكّك الدولة التقليديّة وتلويث البيئة وإهمال كبار السنّ .

قال جياكومو مرتينا (Giacomo Martina) " أيّاً كانت المسائل القائمة ، فقد استطاع النوع الانسانيّ بالثورة الصناعيّة ، أن يقهر الطبيعة إلى حد بعيد ، وأن يحو المسافات ويحطم كثيراً من العقبات الماديّة التي كانت قد كيّفته طوال آلاف من السنين " .

الثلث الهائل الذي دفعه الانسان

ولكنّ التقدّم الكبير ، ولا سيما في أول مائة سنة ، كلف الانسان ثمناً هائلاً . " ان قلة صغيرة جداً من الناس الأثرياء فرضت عبودية حقيقية على جماعة لا تحصى من الكادحين " كما جاء في الرسالة الباباويّة (الأشياء الجديدة Rerum Novarum) .

في العصر الجديد للنوع الإنسانيّ تُحفر جورة مظلمة : المسألة العمالية . في المدن الصناعيّة تتألف طبقة جديدة ، طبقة الكادحين ، ولا ثروة لهم سوى أذرعهم وأولادهم . إنّ الاحوال التي يعيش فيها الكادحون هي احوال فظيعة .

نستشهد بتحقيق دوليانس (Doll'eans) وفيللرمي (Villerme') : في السنة ١٨٥٠ اخذ نصف سكان انكلترة يتكدّسون في المدن . إن "مساكن" العمال هي على العموم سراديب تتجمع في الواحد منها الأسرة كلها ، ولا هواء فيها ولا نور ، وهي عفنة بسبب من الرطوبة ومجاري

الاقذار . ليس في المعامل من قوانين صحية .

إن الاجرة لا تسدّ رمق الجائع ، ولا تمكّن أبدأ من الحصول على غذاء كافٍ ، والطعام المعتاد هو حساء البصل . إن تفكك الأسر ، وانتشار إدمان شرب الكحول ، والبغاء والإجرام ، وتفشتي أداواء جديدة سببتها بعض الصناعات او الأحوال التي تقام فيها (السل وتصون الرئة) امست احداثا عمّت الجماهير .

لا يعمل في المعامل الرجال والنساء فحسب ، بل هناك ايضاً صغار غدت حياتهم كابوساً . فان النعاس والتعب يسببان كثيراً من الحوادث ، لأنهم كانوا وقوفا على اقدمهم طوال ساعات العمل ويحظر عليهم القعود . إن حياة هؤلاء الصغار البؤساء قصيرة جداً .

كتبت مرغريتا لاسكي (Laski) : " يجمع الأولاد في الأحياء الشعبية من لندن ، ثم يُساقون إلى محطة السكة الحديد ويكدسون في الشاحنات ، ويُرسلون إلى معامل الغزل في لانكشاير (Lancashire) للعمل . إن كثيراً منهم لا يمشون إلا بكّد ، ويستمرّ العمل كلّ يوم اثنتي عشر ساعة ويزيد . إن عمل النسيج تقوم به الآلة ، ولا حاجة الى رجل لكي يعنى بالآلة ، بل يكفي لذلك صبي . إنهم يسقطون من النعاس والتعب في عزلة المعامل المظلمة . يدوم العمل من الفجر إلى الشفق وليس من فراغ لطعام الغداء . إن الأمراض تفتك بالعمال الصغار .

في نحو السنة ١٨٥٠ كان الكادحون الفرنسيون والبلجيكيون والألمان في أحوال مماثلة لأحوال الكادحين الانكليز . إن أسرة الكادحين لا تستطيع البقاء إلا بجهد ، وليس لديها ولا فرنك لتدفع أجرة الطبيب وثمان الأدوية والثياب . أظهر إحصاء أنّ ٦٦ ولدا من ١٠٠ ولد ، يموتون في نانت (فرنسا) قبل سنّ الخامسة . إنّ معدّل حياة العامل بين السنة ١٨٣٠ و ١٨٤٠ هو ١٧ الى ١٩ سنة . في هذه السنوات (وقد تقدّم الكلام على ذلك) ثار عمال ليون وهم ينادون : "نعيش ونحن نعمل ، ونموت ونحن نحارب " ففرّقوهم بنيران المدافع .

مذبحة الأبرياء في ايطاليا أيضا

وصلت الثورة الصناعية إلى ايطاليا متأخرة لقلّة الرأسمال والموادّ الخام . أنشئت معامل النسيج الأولى في لومبارديا – البندقية النمساوية (معمل روسي ROSSI في سكيو Schio السنة ١٨١٧ ، ومعمل مارزوئو Marzotto في فالدانيو Valdagno السنة ١٨٣٦) . ابتدأت الصنّاعة الآلية في ميلانو السنة ١٨٤٦ وكان النموّ الاقتصادي بطيئاً عسيراً .

كتب رودولف موراندو (Morando) يصف الحياة في المؤسسات النسيجية في لومبارديا : "في معامل الحرير ، وهي مؤسسات كبيرة يعمل فيها من مائة الى ٢٠٠ ، كانوا يشغلون أكثرية من

الصغار . إن الأعمال التي يُعهد بها اليهم تتصف بطابع آليّ شديد حتى إن هؤلاء الصغار المساكين يصبحون بلهاً أتمّ وجه . إن العمل يستمر ثلاث عشرة ساعة في الشتاء ، وخمس عشرة أو ست عشرة ساعة في الصيف . في معامل الحرير التي يسيّرهما الماء ، ينقطع العمل أحياناً ، فيُفرض على الصغار العملُ في الليل كلّه . إن مكان العمل رطب غير صحّي ، والنهوض من النوم مُبكر ، وإن الوقوف على القدمين على نحو متعب يسبب أحياناً كثيرة تصلب الغدد ، والتهابات الكساح ، والاورام الباردة كما شهد بذلك طبيب المنطقة الصناعية . وهكذا مات في لومبارديا ١٥ الف ولد في ريعان الصبا " .

وصلت الثورة الصناعية الى تورينو السنة ١٨٤١ بعواقبها المنتظرة . ان الضريبة على الحب والحرير قد انخفضت إنخفاضاً ملموساً ، فاضطّرّ أرباب العمل الى تحسين زرعهم لكي يقاوموا هبوط الأسعار . وفي السنة ١٨٣٩ وافق كارلو البرتو على إنشاء السكّة الحديد من تورينو إلى جينوى ، وعاد فحص مشروع القناة بين جينوى ونهر البو (Po) وفي السنة ١٨٤١ قدّم ميديا (Medail) مشروعه لإنشاء نفق سكة حديد فريجوس (Frejus) . وفي السنة بعدها نظمت الجمعية الزراعية شؤونها وجعل الملك ما له من أرض في بولينزو (Pollenzo) تحت تصرفها لتجربة طرق جديدة للزراعة .

نمت المدينة نمواً سريعاً . ففي السنين بين ١٨٣٨ و ١٨٤٨ ارتفع عدد السكان من ١١٧ ألفاً إلى ١٣٧ الفا : أي زيادة قدرها ١٧ بالمائة . وتقدّم عمل تنظيم المدينة تقدماً سريعاً . في هذه السنين العشر بُنيت ٧٠٠ دار جديدة يزدحم فيها ٧ آلاف أسرة . وظل معدل حركة الهجرة متواصل السير ، وبلغ ذروته في ١٨٤٩ - ١٨٥٠ وقد ذُكر أنّه بلغ ٥٠ ألفاً ان لم يكن مائة ألف . وصلت تورينو أسر فقيرة اة أحداث وحدهم من وادي سيزيا (Sesia) ووديان لاننسو (Lanzo) ومن مونفرّاتو (Monferrato) ومن لومبارديا ، فرأى دون بوسكو في ورشات البناء "أطفالاً في سنّ الثامنة أو العاشرة بعداء من بلدهم ، يعملون عند البنائين فيقضون أيامهم على سقالات خطرة ، في الشمس والريّح ، ويرقون سلالم شديدة الإنحدار ، وهم يحملون الكلس والأجرّ ولا يلقون من المساعدة سوى زجر خشن وضربات " .

كانت الأسرة العماليّة تصعد في المساء إلى سقائف البيوت ، وهي وحدها المساكن التي بوسع العمال دفع أجرتها . وكان دون بوسكو يصعد إليها ليراها فيجدها " منخفضة ، ضيقة كئيبة ، قذرة . إنها تستعمل للنوم والطبخ ، وتستعمل أحياناً معامل لأسر برمتها " .

يحسب حسابيه

إن عصابات من الاحداث تائهة ، وخصوصاً يوم الأحد ، في الأزقة وعلى شاطئ نهر البو .

إنهم ينظرون إلى الناس " المعطرين المبتهجين " وهم يمرون غير مباليين ببؤسهم .
حسب دون بوسكو حسابه بسرعة . إن هؤلاء الصبيان يحتاجون إلى مدرسة ، وعمل يهيئ
لهم مستقبلا أكثر ضماناً ، وانهم يحتاجون الى ما يمكنهم من أن يكونوا أحداثاً ، أي الى ما يلبي
شهوتهم للركض والقفز في فسحات خضراء ، من غير أن يظنوا على الأرصفة ، وإنهم يحتاجون إلى
لقاء الله ليكتشفوا كرامتهم ويظهروها .

لم يكن أول من استنتج مثل هذه الاستنتاجات ، ولم يكن وحده في ذلك . إن ضرورة
مساعدة الجماهير الشعبية أمر شعر به في ذلك الزمان حتى كارلو البرتو .
فالمك في همّ على الخصوص "من الثورة الاخرى" التي في الجو ، الثورة السياسية التي
انفجرت في ١٨٤٧ - ١٨٤٨ والتي قيل لها في ايطاليا "النهضة " . إنه منقسم بين أفكار أنصار
الحكم المطلق (وقد اقسّم كارلو فيلييتشي بأن يدافع عنه حتى الموت) وبين افكار الأحرار الذين
يضغطون ضغطاً متضاعفاً ، لينالوا دستوراً ووحدة ايطاليا . راقب بعينه النمسا (وكانت عدوةً
لكلّ ترضية للأحرار) وانتقل بحذر من مواقف أنصار الحكم المطلق إلى تيارات الاحرار الاكثر
اعتدالا ، فاتصل بمسيمو دازيلو (Massimo d'Azeglio) وقيصر بالبو (Cesare Balbo)
وجياكومو دوراندو (Giacomo Durando) . آلت به هذه المسيرة الطويلة إلى ان يكون رائد
النهضة الاولى . ولكن الملك كان أيضاً في همّ من الأحوال الاجتماعية لمملكته . كان يساند كلّ
مبادرة إلى الإحساس وتعليم الشعب .

كان الكهنة ورجال السياسة منقسمين هم ايضاً في ذلك الزمان ، بحسب ميولهم الموافقة او
المخالفة لأفكار الحرّية ، ولكنهم يجتمعون في صف واحد في ساحة المعركة ، لمكافحة بؤس الناس
المادّي والخُلقيّ .

شهدت تورينو في تلك السنوات قيام سلسلة متنوعة من المدارس الشعبية من أجل العمال .
ففي العام الدراسي ١٨٤٠ - ١٨٤١ بلغ عدد مدارس الذكور المساعدة ، عشرة ، فيها ٩٢٧
تلميذا وكان للإناث تسعُ مدارس فيها ٥١٩ تلميذة . وفي السنة ١٨٤٥ فتحت مدرستان للآليات
والكيمياء التطبيقية لتعليم العمال ، وفي السنة ١٨٤٦ ، كما كتب كارلو اغناطيوس جيولو
(Giulio) "تقدم ٧٠٠ عامل لثمانى مدارس ليلية عائدة لآخوة المدارس المسيحية " .
وأما دون بوسكو فقد ركز نفسه على مسألة الأحداث ، وتنبّه الأب كافاسو لذلك وعزم على
دفعه إلى ابعده ما أمكن .

سَمَى أهل تورينو الأب كافاسو "كاهن المشنقة" إنه ينزل إلى السجون ليعزّي السجناء ،
وإذا حُكّم على واحد منهم بالموت ، تسلّق العجلة وإيّاه ، وأخذ يشجّعه الى أن يَصِلَ إلى مكان
العقوبة بالموت .

كان في ذلك الزمان أربعة سجون في تورينو . إنها في البروج القريبو من بروتا بالاتسو
(Porta Palazzo) وفي شارع القديس عبد الاحد ، وبالقرب من كنيسة القديسين الشهداء ، وفي
سرايب مجلس الشيوخ .

ذات يوم همّ الأب كافاسو بالذهاب لاحدى زيارته المعتادة ، فدعا دون بوسكو الى
مرافقته . إنّ الأروقة المظلمة ، والجدران المعتمة الرطّبة ، ووجوه السجناء الحزينة الشاحبة
أزعجته إزعاجاً شديداً . شعر بالعُتَيان وأحسّ بأنه يكاد يختنق .

ولكنّ الامر الذي أحزنه أكثر من سائر الامور هو منظر الأحداث وراء قضبان الحديد .

كتب : " رأيتُ عدداً كبيراً من الصبيان في سنّ الثانية عشرة إلى الثامنة عشرة كلهم صحتهم
جيدة ، وأقوياء ويبدون أذكيا . رأيتهم هناك لا عمل لهم يأكلهم القمل ، محرومين الخبز الروحيّ
والمادّي فراعني منظرهم " .

عاد إلى السجن عدّة مرات مع الأب كافاسو وأحياناً وحده وحاول أن يتحدّث اليهم لا بإلقاء
التعليم الدينيّ ، والحراس يراقبونه ، بل بكلام الصداقة . كان ردُّهم عليه في أول الامر مرّاً ،
فاضطّرّ الى تحمّل شتائم فظة ، ولكن هذا او ذاك منهم خفّ حذرُهُ رويداً رويداً ، وصار الحوار اكثر
صداقة .

وهكذا استطاع أن يعرف حكايتهم المحزنة : تَدَهوُرهم والغيط الذي جعلهم يصيرون شيئاً
فشيئاً كالوحوش الضارية . كان " ذنُبهم في أكثر الأحيان السرقة ، وسببه الجوع أو اشتهاى شيء
يزيد على القوت غير الكافي ، وأيضا الحقد على الأغنياء الذين كانوا يستغلّون عملهم ويتركونهم في
البؤس .

لم يصنع المجتمع إليهم شيئاً ، وكان يُغلق عليهم هناك .

كان قوتهم الخبز الأسود والماء ، وكان يجب عليهم أن يطيعوا قسراً السجّانين وهم أنفسهم

يخافونهم فيضربونهم لأقلّ الأسباب شأناً . وكانوا يُحبسون في زنانات جماعية يُصبح فيها أسوأهم الأسياد المطلقين .

كتب دون بوسكو : " ما أثر فيّ الخصوص هو ان كثيراً منهم كانوا ، لدى خروجهم عازمين على تبديل حياتهم لتصير حسنة " (ولو لخوفهم من السجن) "ولكن بعد وقت قليل ، كان ينتهي بهم الأمر الى السجن مرّةً أخرى " . فحاول أن يكتشف السبب فاستنتج : " إنهم متروكون وشأنهم " ليس لهم والدون أو إن والديهم ينبذونهم ، لأن السجن " ألحق بهم العار للأبد " .

"قلت في نفسي : إنّ هؤلاء الصبيان يحتاجون إلى صديق لهم في خارج بيوتهم ، يُعنى بهم ويُسعفهم ويُعلمهم ويقودهم إلى الكنيسة ايام العيد ، فلا يعودون عندئذ الى السجن " .

فنجح يوماً بعد يوم في أن يتخذ له منهم بعض الأصدقاء . إنهم يُصغون أحسن من ذي قبل إلى " دروسه للتعليم الديني من وراء قضبان الحديد " . كتب : " كلما أفهمتهم كرامة الانسان شعروا بالفرح في قلوبهم ، وعزموا على أن يحسّنوا سيرتهم " .

ولكن كثيراً ما خُرب كلّ شيء عندما يعود اليهم ، فوجههم متهجّمة ، وأصواتهم المتهكّمة تُنتم أفعال الكفر . ولم ينجح دون بوسكو كلّ مرّة في الإصلاح الامور ، وذات يوم أخذ يبكي .

كانت تلك لحظة من الحيرة فسأل بعضهم :

- لماذا يبكي هذا الكاهن ؟

- لانه يُحبّنا . لو رأنتي أمّي هنا لبكت هي أيضاً .

خوارنة الرعايا ينتظرون

خرج دون بوسكو ذات يوم من السجن فعزم عزمًا لا يُزعزع : " يجب علينا مهما كلف الامر ، ان نحول بين أولاد صغار في هذه السنّ وبين ما يُفضي بهم إلى السجن . أريد أن أكون منقذ هذه الشبيبة " . كتب : "أطلعتُ الأب كافاسو على نيّتي هذه وبحثت عن وسيلة لأحقّقها بالعمل ، كما نصحني " .

كان كهنة آخرون في تورينو يبحثون عن حلّ لمشاكل الأحداث ويتبعون اتجاهات مختلفة .

كان في تورينو ست عشرة رعية : اربع عشرة في المدينة واثنان في الضواحي . كان الخوارنة مطلعين على مشكلة الأحداث ولكنهم كانوا يلبثون ينتظرونهم في المواهب والكنائس من اجل درس التعليم الديني في المساء ، ويوم الأحد ، وأيام الصوم الكبير . إنهم يأسفون على "ذلك الوقت السعيد" الذي فيه كان المهاجرون الصغار يصلون ، وهم يحملون رسالة توصية من خوري الريف الى خوري المدينة . إنهم لا يفتنون أن قواعد السلوك هذه قد زالت بدافع من نموّ المدن ، وأن "ذلك الوقت السعيد " لن يعود .

فجيب اكتشاف خطط جديدة ، والسلوك في طرق جديدة ، ويحسن بالكهنة المساعدين المنصرفين الى الاهتمام بالدفنات والعمادات أن يجربوا رسالة متنقلة بين الحوانيت والمعامل والاسواق .

عولجت في ميلانو حيث الثورة الصناعية قائمة منذ سنوات ، مسألة الأحداث المشردين ، فأمكن المرء أن يشاهد من بعد ذلك اليوم شبكة من المؤسسات الملائمة لحاجات العصر : هي المصلّيات . في السنة ١٨٥٠ نظم التقويم السنوي للأبرشية جدولاً لخمسة عشر مصلّى ، تعود خبرة بعضها على عشرات السنين . شرع الأب لودفيكو بافوني (Ludovico Pavoni) في مصلّاه في بريشيا (Brescia) منذ ١٨٠٩ لخدمة الصبيان "الفقراء الأميين السيء السمعة" .

واما في تورينو فان المسألة ما زالت بلا حلّ . إن حوارنة الرعايا متردّون . في السنة ١٨٤٦ ذهب كهنة تورينو إلى ميلانو ليزوروا مشروعات الشبيبة ، فكانت نتيجة حوارهم : "إن حوارنة الرعايا في مدينة تورينو ، وهم مجتمعون من أجل مؤتمرهم ، بحثوا في ملاءمة المصلّيات لحاجات الوقت فقدرت المخاوف والآمال حقّ قدرها ، ولما كان كل خوري رعيّة غير قادر على تحمّل عبء مصلّى في رعيته ، فقد شجّع الكاهن يوحنا بوسكو على السير في مصلّاه الى أن يتخذ قرار آخر" .

بينما حوارنة الرعايا يتردّون ، الكهنة الشبان يعملون .

تجربة الاب كوغي

كان أولهم الأب كوغي (Cocchi) ، وهو كاهن جاء من دروينت (Druent) وهي بلدة في الريف . رُسم كاهناً في السنة ١٨٣٦ إذ كان يوحنا بوسكو يُنهي سنته الاولى لدرس الفلسفة في معهد الكهنوت .

انشأ السنة ١٨٤١ في موسكينو (Moschino) ، وهي مَحَلّة شديدة الفقر ، سيئة السمعة من قرية فانكيليا (Vanchiglia) ، أول مصلّى في تورينو (و كان قد حاول ذلك في السنة ١٨٤٠) وجعله في حماية الملاك الحارس . كان المصلّى في أرض رعية البشارة من جهة نهر البو .

الأب كوغي كاهن لطيف ، رقيق الاحساس ، له افكار براقّة وحسّ المنشئين أصحاب المبادرات ، ولكن ليس له دائماً الثبات ولا استدراك مُحَقّقي الأعمال . وأفكاره تابعة للأحرار ، وقد اتخذ موقفاً معارضاً للخطة السياسية العائدة الى رئيس الأساقفة والبابا : وهذا ما جعله من

الذين يُشتبه في أمرهم ، وإن كانت محبته النشيطة تهزّ جمود كثير من إخوانه في الكهنوت .

كان في السنة ١٨٤٩ - ١٨٥٠ من الذين بعثوا الحياة في "جمعية المحبة لخير الاحداث الفقراء

المهملين " وساهم بعد مدة في "معهد الصناعيين الأحداث" ومصلى القديس مارتينو، والمدرسة الزراعية في مونكوغو (Moncucco) وهي أيضاً لخير أحداث الطبقات المحرومة .
وفي الوقت الذي قام الأب كوكي بنشاطه، ألقى كهنة آخرون بأنفسهم في العمل الرسولي بين الأحداث . إنهم كهنة "محرّرون" من عبء الالتزامات الرعائية فواظب كثير منهم أولاً يزالون يواظبون على الذهاب الى المركز الكهنوتي ويتعاشرون معاشرة أخوية بسبب تجاربهم الحية التي يحاولون القيام بها معاً .

ذكر دون بوسكو " أن الأب كافاسو نفسه كان منذ سنين كثيرة يُلقى كلَّ يوم أحد من الصيف درساً في التعليم الديني إلى الاحداث أجراء البنائين، في غرفة تابعة لموهف كنيسة مار فرنسيس الأسيزي ، غير أنّ عبء أشغاله جعله ، ويا لسوء الحظ ، يكفّ عن عمل أمسى عزيزاً عليه " .
ودون بوسكو نفسه ، كما قلنا، ما إن دخل المركز حتى انضمّ إلى صفوف هؤلاء الكهنة .
لقد لقي الارتياب والعداء ، والكنهية لقي أيضاً صبياناً ظلوا متعلقين به . " صادفتُ عصابة من الأحداث ، تبعوني في الازفة والساحات لا بل في موهف كنيسة المركز " .

فأراد الأب كافاسو أن يسلم إليه مواصلة درس التعليم الديني الذي يُلقيه إلى البنائين الصغار، ولكنّ يوحنا بوسكو، بعد تجربته التي هزّت نفسه هزة عنيفة في السجن ، فكرّ في شيء آخر أكثر متانة .

أراد أن يحقّق ، كما قال للأب كافاسو ، مركزاً يجد فيه الصبيان الذين تركتهم أسرتهم صديقاً ، ويعرف الذين يخرجون من السجن أنه سيكون لهم فيه عون وسند ، مركزاً غير مرتبط برعية ، بل بشخصه، ويعمل لا يوم الأحد فحسب للتعليم الديني، بل يمتد عمله طوال الاسبوع ، بالصدقة والإسعاف واللقاءات في مكان العمل .

تلاوة صلاة السلام عليك في أول الامر

بدأ العمل بذلك المشروع على وجه فيه شيء من البساطة ، في صباح الثامن من كانون الأول (دسمبر) ١٨٤١ (وقد تحلّى منذ ذلك الوقت بالطرافة التي اتصف بها مصلى دون بوسكو) ، وفي السنة عينها انشا الأب كوكي أول مصلى في تورينو ، وحدث ذلك بعد وصول دون بوسكو الى المركز بخمسة وثلاثين يوماً .

وروى هو بنفسه ذلك المشهد الذي له من اللباقة والبساطة ما للأثر الأدبي الرفيع :
"في يوم عيد العذراء البريئة من الدنس ، كنتُ ألبس الثياب الطقسية لأقيم القداس ، فرأى الشماس المعهود اليه بالخدمة في الموهف ، واسمه يوسف كوموتي (Comotti) ، فتى في زاوية ، فدعاه إلى أن يأتي فيخدم القداس فأجاب خجلاً :

- لا أعرف
- هلمّ . أريد أن تخدم القُدّاس .
- لا أعرف . ما خدمته قطّ .
- ياللحيوان الكبير ! إذا كنت لا تعرف خدمة القُدّاس ، فماذا تجيء إلى الموهف ؟
- قال ذلك غاضباً وأمسك بمنفضة للريش وضرب به ظهرَ الفتى المسكين ورأسه ، وبينما كان الولدُ يُطلق ساقيه للريح رفعتُ صوتي معترضاً :
- ماذا تفعل ؟ لماذا تضربه ؟
- لأنه جاء إلى الموهف من غير أن يعرف خدمة القُدّاس .
- لقد أسأتَ في عملك .
- ما شأنك وإيَّاه ؟
- إته واحد من أصدقائي . إذهب فأت به للوقت : أنا أحتاج على أن أكلّمه " .
- عاد الصبي مطأطئ الرأس : شعره مقصوص وسترته مبقعة بالكلس . إنه مهاجر صغير والراجح أنّ ذويه قالول له : عندما تصل إلى تورينو ، اذهب إلى القُدّاس . جاء ولكنه لم يجرؤ على دخول الكنيسة بين المؤمنين اللابسين الثياب الحسنة ، فحاول أن يدخل من الموهف ، كما جرت عادة الناس في كثير من قرى الريف .
- " سألتُه بلطف :
- هل حضرت القُدّاس ؟
- كلا .
- تعال احضره . وسأكلّمك بعده على مسألة تُسرُّك .
- وعدني بذلك ، وأقمتُ القُدّاس وفرغت من الشكر ، فذهبت به إلى فسحة صغيرة ، وسألته وأنا أبتسم :
- ما اسمك يا صديقي العزيز ؟
- برتلموس غارلي (Garelli) .
- من أيّ بلدٍ أنت ؟
- من أستى (Asti) .
- ما صنعتك ؟
- بئاء .
- أبوك حيّ ؟
- كلا ، لقد مات .

- وأمّك ؟
- لقد ماتت أيضاً .
- كم لك من العمر ؟
- ستّ عشرة سنة .
- أتعرف القراءة والكتابة ؟
- كلا .
- أتعرف أن تغنّي ؟
- مسح الصبي عينيه ونظر إليّ مدهوشاً وأجاب :
- كلا .
- أتعرف أن تصقّر ؟
- أخذ برتلماوس يضحك . وذلك ما كنت أريد . لقد بدأنا نصير صديقين .
- هل تناولتَ القربان المقدس المناولة الاولى ؟
- كلا .
- هل اعترفتَ ؟
- نعم ، لما كنتُ صغيراً .
- أتذهب الى درس التعميم الدينيّ ؟
- لا اجرؤ عليه ، لأنّ الصبيان الأصغر مني يسخرون بي .
- إذا علمتُك التعليم الديني وحدك ، أفتجئ إليه ؟
- بكلّ ارتياح .
- في هذا المكان بعينه ؟
- بشرط ألا أضرب .
- كن ناعم البال . أنت صديقي الآن ولن يضربك أحد . متى تريد أن نبتدىء ؟
- عندما تريد .
- في الحال ؟
- بكلّ سرور ."

جثا دون بوسكو على ركبتيه وتلا صلاة " السلام عليك يا مريم " . قال لابنائه الآباء
 السالسيين بعد خمس وأربعين سنة : " جميع البركات التي نزلت علينا من السماء هي ثمرة تلك
 الصلاة الأولى ، السلام عليك يا مريم ، التي تلوتهها تلاوة حارة وبنية مستقيمة " .

تلا دون بوسكو تلك الصلاة ثم رسم إشارة الصليب قبل أن يبتدئ ، ولكنه رأى أن برتلموس لا يرسمها أو قام بحركة تشبه إشارة الصليب شبهاً بعيداً فعلمه بلطف كيف يفعل ذلك ، وفسر له بلهجة بلد أستي ، (وكلاهما منه) لماذا يُسمّى الله "أباً" . وقال له آخر الأمر :

- أودّ أن تأتي في الاسبوع القابل ، يا برتلموس .

- بكلّ سرور .

- ولكن لا تأتي وحدك . إئت بأصدقائك معك .

كان برتلموس غارلي البناء الصغير السنّ من استي ، أولَ سفير لدون بوسكو إلى العمّال

الأحداث في حيّه ، فروى لهم لقاءه وهذا الكاهن اللطيف "الذي كان يعرف أن يصقّر هو أيضاً" وبلغهم دعوته .

"في الحال" : كلمة تستعمل سِمة

في الحوار الذي بينه وبين برتلموس غارلي وردت كلمة "في الحال" . تبدو هذه الكلمة كسائر الكلمات ، ولكنها حبة ، إذا زرعتها ، أعطتك نبتة .

في ذلك الزمان (١٨٤١) "في الحال" شعار جماعة من الكهنة برمتها في تورينو . كان الناس مترددين في الثورة الصناعية الاولى ، يتعذر عليهم العثور على مخططات معدّة إعداداً تاماً وبرامج للعمل ، فقدف هؤلاء الكهنة بكل نشاطهم ليعملوا "في الحال" شيئاً في سبيل الاحداث الفقراء واليوساء .

ولكن هذه الكلمة "في الحال" ظلت ، على وجه خاصّ ، سِمة دون بوسكو ، ثم سِمة

أبنائه السالسيين الذين اختصّوا بعده بأنهم صاروا رجال "التدخّل السريع" بين الفقراء .

سنعود في الصفحات اللاحقة الى الكلام على دون بوسكو والمسألة الاجتماعية ، ولكن نودّ

أن نقول منذ الآن ، كيف أنّ الضرورة وتعدّر الانتظار دفعاه الى العمل .

يجب أن يعمل شيء ما "في الحال" لأنّ الصّبيان الفقراء لا يستطيعون انتظار

الإصلاحات ، والخطط المنظمة وتبديلات النظام . أجل ان كلمة "في الحال" غير كافية . " اذا

صادفت امرأ يموت جوعا ، فلا تعطه سمكة بل علمه الصيد " . ذلك صواب . ولكن عكس هذه

العبارة صواب أيضاً : "إذا صادفتَ امرأ يموت جوعا فأعطه سمكة لتسئى له أن يتعلم الصيد" .

كلمة "في الحال" غير كافية ومثلها التدخّل الحالي ، ولكن ماذا ينفع إعداد مستقبل يختلف عن

الحاضر ، اذا مات الفقراء جوعا في اثناء ذلك ؟

اتّجه دون بوسكو وابناؤه السالسيون نحو شعار "في الحال" ، نحو التدخّل السريع ،

فأعطوا الأحداث التّعليمَ الدينيّ والخبزَ والتدريبَ الحرفي والصنعةَ يحميها عقد حسن ، وانتظروا أن يُعدَّ الخططَ كاثوليكَ آخرون ، يزاحمهم الاشتراكيون والشيوعيون والفوضويون ، ليهجموا فيبدلوا الدولة الحرّة التي "تتجاهل" برئاء مَنازعات العمل ، اي انها تترك الأقوياء يُهيمنون والضعفاء يُسحقون .

في منبر كنيسة مار فرنسيس الأسيزي كاهن شاب يعظ من صميم قلبه . بالقرب من المذبح
الجانبى أناسٌ من الصبيان البتائين جلوس على درجات حاجز الخورس ، وقد غلبهم النعاس ،
فاستند الواحد على كتف الآخر .
اجتاز دون بوسكو الكنيسة ولمس كتف أولهم فاستيقظوا كلهم مرتبكين ، فتبسم وسألهم
بصوت خافت :

- لماذا تنامون ؟

فقال كبيرهم بصوت أجش : لا نفهم شيئاً .

وأضاف جاره : مهما يكن من أمر فإن هذا الكاهن لا يتكلم من أجلنا على الاطلاق .

- هلموا معي !

فسار بهم وهو يمشي على رؤوس أصابع قدميه إلى الموهف . روى دون بوسكو ، وهو
متأثر ، لأبنائه لسالسيين الأولين : "كان هؤلاء كارلو بوتسييتي (Buzzetti) ويوحنا غاريبولدي
(Gariboldi) وجرمانو (Germano) . كانوا بتائين صغار السن من لومبارديا ، وقد ظلوا
بجانبه ما بين ثلاثين وأربعين سنة وعرفهم جميعُ الناس في فالدوگو ، " كانوا عند ذلك صبياناً
بسطاء ، فأصبحوا اليوم معلّمي صنعة " (ذكريات المصلّى ، ص ١٢٩) .

وصل إلى الموهف برتلماوس ايضاً وأصداؤه وازداد عددهم ، فساعدهم دون بوسكو على
الصلاة ، وألقى إليهم إرشاداً ملائماً حياً ، على نحو حوار تتخلله احداث وأخبار مدهشة ، ثم
جلسوا الى مقاعد الكنيسة ليحضروا قدّاس دون بوسكو .

ولكن وقت الصباح حتى الظهر طويل ، والصبيان ، بعد القداس والرغيف الصغير
للافطار ، يرغبون في اللعب ، فأخذوا يركضون في ساحة المركز ، وبهم شيء من القلق ، فعندما
يمرّ بعض الكهنة يتوقف كلُّ شيء .

بيد أن الأب غوالا والأب كافاسو متفهمان ، فأذنا لصبيان دون بوسكو إذناً رسمياً باللعب
كلّ يوم احد ، في الساحة الصغيرة التابعة للمركز . لم يُلغ ذلك الإذن قط مدة ثلاث سنوات ، مع
ان الصبيان الذين كانوا خمسة عشر لما منّح الاذن، صاروا ثلاثة وعشرين بعد ثلاثة أشهر ،
وثمانين في الصيف الذي بعده ، وقبل ذلك معناه التخلي من الهدوء جميع أيام الأحد ، والحرمان

من قيلولة بعد الظهر . فثمانون صبي تحت النوافذ أشبه بحفلة غناء اول مرة ، ولكنهم في المرة العاشرة يفجرون أعصاب أي امرئ كان .

صور صغيرة ولكن أرغفة صغيرة ايضاً

أدرك دون بوسكو انه لا ينبغي التماذي في الأمر ، فكان ، عندما تتيح الأحوال الجوية الفرصة السانحة ، يذهب بالصبيان الى التنزه بعد الظهر ، على تلة بالقرب من السواقي ، والى معابد السيدة العذراء .

كان ينوي في هذا الشتاء الاول ، ألا يقبل إلا الأحداث "الأكثر عرضة للخطر ، ولا سيّما الذين خرجوا من السجن " ، ولكن دون بوسكو لم يقوَ طوال حياته على صرف صبي طلب البقاء معه ، ففي وقت قليل تألفت فرقته ومعظمها من "الحجّارين والبنّائين وعمّال الجص والمبطين أتوا من نواح بعيدة " ، ولم يستطيعوا ، لمختلف الأسباب ، العودة الى بيوتهم في فصل البطالة (كانون الأول "دسمبر" - آذار "مارس") .

كان الأب غوالا والأب كافاسو يحنّان كهنتهما الشبان على القيام بتجارب شبيهة بتجربة دون بوسكو ن فاخذ الأب كاربانو (Carpano) والأب بونتي (Ponte) ، وهما أصغر سناً منه بست سنوات ، يجمعان منظفي المداخل الأحداث ، من وادي أستى ، وتطوع الأبوان غوالا وكافاسو لاستماع اعترافات الصبيان ، وكانا يأتيان فيحدثانهم ويساعدانهم .

كتب دون بوسكو وهو مرتبك قليلاً : " كان الناس يعطونني بسخاء صوراً ونشرات وكتباً صغيرة وأيقونات وصلباناً صغيرة " ، ولكن لهؤلاء البنّائين الصغار وهؤلاء الذين خرجوا من السجن حاجات أمسّ من حاجاتهم إلى الوراق والأيقونات . فنّبّه أذهان الناس " فزودوني بوسائل لإلباس الذين يحتاجون الى ذلك ، وبغذاء لإطعام الآخرين ، مدة عدة اسابيع ، وعلى الاقل الى ان يستطيعوا ان يكسبوا بأنفسهم خبزهم بعملهم " .

صار شغل دون بوسكو الشاغل طوال الاسبوع البحث عن عمل للذي لا عمل له ، والحصول على شروط أصلح للذي وجد عملاً . " كنت أزورهم في أماكن عملهم في المعامل

والورشات . كان الصبيان يشعرون بفرح عظيم عندما يرون صديقهم يهتمّ بهم ، وكان ذلك يسرّ ايضاً أرباب عملهم ، فيرتاحون الى أن يولوا حمايتهم أحداثاً يلقون إسعافاً طوال الأسبوع وأيام الأعياد " .

كان الذين يخرجون من السجنون يسبّبون المشكلة الأعسر حلاً . كان يحاول " ان يجد لهم

فرداً فرداً عملاً عند معلّم حسن السمعة ، وكان يذهب اليهم ليراهم في اثناء الاسبوع " . وكانت النتائج حسنة : " كانوا يتعودون ان يعيشوا عيشة سوّية وينسون الماضي ويصبحون مسيحيين صالحين ومواطنين شرفاء " (ذكريات المصلّى ، ص ١٢٧) .

كان دون بوسكو يعود كل سبت الى السجن ليواصل اشدّ رسالته عسراً . " كنتُ أذهب إلى السجون ومعى أكياس مليئة بالتبغ أو الفاكهة أو الأربعة الصغيرة ، وغايتي دائماً ابدأ ، أن أخدم الأحداث الذين انتهى بهم الأمر الى ذلك المكان ، لسوء الطالع ، فأجعلهم أصدقائي وأرغبهم في المجيء الى المصلّى عندما يخرجون من السجن " .

اثنا عشر قياساً موسيقياً

٢ شباط (فبراير) ١٨٤٢ . كان عيد إظهار مريم ، وكان عيداً إلزامياً . علم دون بوسكو صبيانه الخمسة والعشرين الغناء . كتب : " إنّ لقاءاتنا أيام الأحد والأعياد ، لولا الموسيقى ، لظلت جسداً بلا روح " . كانوا يُغنّون بأعلى أصواتهم في دروب التلال ، ولكنهم تعلموا أيضاً أن يُرتلوا ترتيلاً لطيفاً مديحاً بسيطاً للسيدة : "مدحوا مريم " .

في عيد الاظهار ذاك ، نظر المؤمنون في أثناء القدّاس بدهشة غلى هؤلاء الخمسة والعشرين من الغرباء الأطوار يُحسنون التراتيل فيكسبون عطفهم .

إن هذا المديح لمريم ، الوجيز جداً (اثنا عشر قياساً موسيقياً بسيطاً) سيطير من مصلّى الى مصلّى ، ومن مدرسة سالسيّة إلى مدرسة سالسيّة ، ولا يزال يمكن سماعه في يومنا (١٩٨١) يرتلّه صبيان من شمال الهند . وقد سمعته أنا بنفسى في وسط مدن الأكوخ في ضاحية برازيليا البائسة .

إنّه أمر يدعو إلى الابتسام أن يفكر المرء بأن النجاح البسيط جداً الذي أصابه دون بوسكو ، يكاد أن يكون معاصراً (ولا فرق بين الحدّثين سوى ثلاثة وثلاثين يوماً) لحدّث موسيقى أشهر كثيراً : ففي ٩ آذار (مارس) أقام الموسيقار الشاب يوسف فيردى (Verdi) في سكالامدينة ميلانو حفلة تمثيل نابوگو (Nabucco) الذي فيه النشيد فانسيورو (Va'pensiero) الذي غزا بعدئذ أوروبا بشهرته .

الصبي الصغير من كارونو

ها هو ذا الربيع . إنّ البتائين الأحداث الذين ذهبوا إلى بيوتهم في أثناء فصل الفراغ من العمل ، يعودون مرّة أخرى إلى تورينو . إن فرقة دون بوسكو تنمو من يوم أحد إلى يوم أحد آخر . فمن كارونو غيرينغلو (Caronno Ghiringhello) (في أيامنا كارونو فاريزينو Varesino) ، وهي ناحية من ولاية ميلانو ، وصل أيضاً يوسف بوتسيّتي الشقيق الصغير لكارلو . إنّه في سنّ

العاشرة فتعلق بدون بوسكو تعلقاً شديداً ولن ينفصل عنه أبداً .

فمن ربيع ١٨٤٢ الى فجر الواحد والثلاثين من كانون الثاني (يناير) ١٨٨٨ وهو تاريخ وفاة

دون بوسكو ، كان يوسف بوتسيبي بجانبه شاهداً هادئاً للتاريخ البشري والإلهي العائد إلى هذا الكاهن . إن كثيراً من أحداث سيرة دون بوسكو ، لو لم يشاهدها البناء الصغير من كاروتو ، بعينه البسيطتين ، وكان دائماً على خطوتين من الأب بوسكو ، لكانت صُنفت بين الخرافات في عصرنا ، عصر الشك وإزالة الاساطير .

" إذا لم يبقَ عندي سوى لقمة خبز . . . "

إنّ ما يجعل الصبيان يتعلقون بدون بوسكو هو لطفه الودّي الصادق . شعروا بذلك اللطف ، وشاهدوه في أعمال حسّية ، وحركات مؤثرة ، فدون بوسكو مستعدّ لتلبيتهم في كل لحظة من النهار .

إذا احتاجوا غلى تعلّم القراءة أو احتاجوا الى ان يقوموا بعمليات الحساب الاربعة ، وجد دون بوسكو الساعات أو الأشخاص لتلقى اليهم الدروس .

إذا كان ربّ عمّ لهم سيئ المعاملة ، أو اذا كانوا بطالين ، اهتم بهم ، وجنّد أصدقاءه لكي يجدوا لهم عملاً أو ربّ عمل صالحاً مسيحياً .

حتى اذا احتاجوا الى المال ، فإنهم يعلمون ان دون بوسكو مستعدّ لإفراغ محفظته في أيديهم .

إذا كان يومهم كئيباً ، متعباً قالوا له : " تعال غلى مشاهدتنا " فذهب اليهم ، ودخل المعامل والورشات . فمشاهدته والتحدّث اليه لحظات من الفرح عندهم .

وإن جملة التي سمعه كثير منهم يقولها ، والتي حفظوها في ذكرتهم حفظهم لكنز ، هي : " اني أحبّك حباً عظيماً حتى اني ، اذا لم يبقَ عندي في يوم من الايام ، سوى لقمة خبز ، لقسمتها بيني وبينك " .

وإذا حدث ما يضطرّه الى توبيخ واحد منهم ، فإنه لا يتردّد ، ولكن لا يفعل ذلك أبداً بمرأى

من الآخرين ، لكيلا يُخجله . إذا وعد شيئاً فإنه مستعدّ لأن يلقي نفسه في النار للوفاء بما وعد .

عمل في إثناء تلك السنوات كثير من الكهنة على صنع الخير إلى الاولاد الفقراء . إن موقفهم

يُوصف بصفة مشتركة بوسعنا أن نسميها "العطف الجدي" . يكفي أت يُقرأ نظام القديس لويس

بافوني (Pavoni) والكتب المدرسية لإخوة المدارس المسيحية : يجب على المرّبي أن يكون لطيفاً مع الاولاد ، ولكن من غير أن يؤدّن لهم بأن يفرطوا في رفع صوتهم أو في إظهار فرحهم بالضجّة ، يجب

أن يفرض الصمت والتفكير وإلا هاج "الوحش الصغير" الكامن في الصبي .

لِعَطْف دون بوسكو صفة غير تلك الصفة . إنه يتحلّى بالفرح . لقد أنشأ جمعية الفرح ، فإنه يعرف قيمة الفرح المتفجّر ، وإطلاق العنان للقوى المضغوطة في هذه الأنبوبة من المواد المتفجرة التي تُسمّيها الشيبية . كان هو نفسه يشجّعهم بقوله لهم : " العبوا واقفروا وضجّوا ، الأمر المهم عندي هو أن لا ترتكبوا خطيئة " .

الهواء الطلق والفسحة التي يمكن الركض فيها حتى ينقطع النفس ، هما المحيط المثالي عند دون بوسكو . أجل ، إنه يراقب الأحداث الذين عنده ، لكيلا يؤذوا أنفسهم او غيرهم . بيد ان مراقبته لهم لم تكن مراقبة تشلّ الحركة ، بل تشجّعها . فهو يشعر انه يجب على المرّبي أن لا يبقى بعيداً من فرح الأحداث ، بل يجب عليه أن يشارك فيه ، وينظّمه اذا لم ينشأ من نفسه ، ويجب عليه ان يحول دون ما قد يهدم ذلك الفرح .

فأحبّه جميع الصبيان وتعلّقوا به تعلقاً مطلقاً ، فكان لقاؤه ساعة عيد عندهم .
لاقى في شارع ميلانو بالقرب من دار الحكومة للمدينة ، صبيّاً يعود من شراء أشياء عُهد اليه بشرائها . يدها مشغولتان بقنينة زيت وكوب خل ، ولكن ما إن رأى دون بوسكو حتى أسرع اليه وهو يصيح : " صباح الخير ، يا دون بوسكو ! " . وكان الزيت والخل يتأرجحان تأرجحاً خطراً في الوعائين .

فضحك دون بوسكو لمشاهدته إيّاه سعيداً ومازحه : " أراهن على أنك لا تقدر أن تعمل مثلي " ، وأخذ يصقّ . فوقع الصبي في الفخّ ، وقد استولى عليه سروره بالقاء ، فوضع القنينة المطلية بالزيت تحت ذراعيه ، وصقّق بيديه على قدر ما استطاع وهو يصيح : " عاش دون بوسكو ! " فانزلقت القنينة والكوب وتحطّما فبقي متجهماً .

- ما أتعسني . إن أمي ستضربني في البيت .

فقال له دون بوسكو :

- لا تقلق . هذه مصيبة تُمكن معالجتها في الحال . فدخلوا حانوتاً واشترى دون بوسكو زيتاً

وخلّاً.

" الرئاسة للبابا والسيف لكارلو البرتو"

في نيسان (أبريل) ١٨٤٢ تورينو في عيد . تزوّج فيتوريو عمانوئيل وليّ العهد بنت

أرشيديوق النمسا رانييري (Ranieri) نائب ملك لومبرديا - فينيسيا . فجرى في أيام العيد حدثان

استثنائيان : على شرفة قصر السيدة عُرض الكفن المقدس ، وعُفي عن ثوار السنة ١٨٢١ الذين

كانوا لا يزالون في المنفى .

تلك خطوة حذرة اخرى خطاها كارلو البرتو نحو الاحرار المعتدلين . وفي السنة التي بعدها نشر في بروكسيل منفي آخر من البيمونتة اسمه جيوبرتي (gioberti) كتاباً أحدث ضجة كبيرة : أولية الايطاليين الخلقية والمدنية . في هذا الكتاب الأفكار المهمة لاصلاحات الأحرار المعتدلين الذين قيل لهم " الغولف الجدد" (Neo – Guelfi) . أكد جيوبرتي أن عظمة إيطاليا مرتبطة ارطباطاً غير قابل للفصل بعظمة البابوية . ولذلك يجب أن يتحقق استقلال إيطاليا بواسطة تحالف الدولات الايطالية في رئاسة البابا . القول : " الرئاسة للبابا والسيف لكارلو البرتو " هو شعار أنصار الغولف الجدد (Neo – Guelfi) .

ابتهج كارلو البرتو بذلك ، ولكنه ظلّ ينظر إلى النمسا بعين الارتياب . في تورينو مناضل آخر لآراء الأحرار المعتدلين اسمه قيصر بالبو (Balbo) يكاد يفرغ من تأليف كتاب آخر أحدث هو أيضاً ضجة : آمال ايطاليا ، فأبلغه الملك على نحو خفي موافقته ولكنه نصح له أيضاً أن يطبعه في باريس . وفي الوقت نفسه أرسل الملك الى الحكومة الفرنسية التابعة للويس فيليب احتجاجاً رسمياً لأنّ الجنرال برّوني (Perrone) الذي حكمنا عليه بالشنق" نال قيادة عالية في ليون . عاد برّوني ، وهو من الاحرار ، الى البيمونتة وهو يحظى بجميع مظاهر الإكرام في السنة ١٨٤٨ ، وقد صار من تشرين الاول (اكتوبر) الى تشرين الثاني (نوفمبر) في تلك السنة ، رئيس الوزارة عند كارلو البرتو . راقب دون بوسكو ذلك كله فازداد حذرُهُ من السياسة .

"ثوبك رقيق جداً "

٣٠ نيسان (أبريل) ١٨٤٢ . مات في كييري الاب كوتولنغو . في بيته الصغير مئات من المرضى المصابين بداء عضال . استدعاه قبل بضع سنوات وزير المالية وقال له :

- أنت مدير البيت الصغير للعناية الالهية ؟
- كلا ، أنا مستخدم بسيط عند العناية الالهية .
- قد يكون ذلك . من أين لك الوسائل لإعالة جميع هؤلاء المرضى ؟
- لقد قلته لك : من العناية الالهية .

ان هذا الرجل تعود أن يضع قدميه راسختين على الارض وان يفحص الوارد والصادر والميزانية ، فذهب عنه صبره فقال :

- ولكن أيها الأب الجليل ، المال ؟ النقود ؟ من أين تأتي بها ؟
- أعود الى سؤالك ؟ لقد قلته مرتين : إن العناية الالهية ترزقنا كل شيء ولم تدعنا قط

نحتاج الى شيء . سأموت وستموت أنت أيضاً يا سيدي الوزير ، ولكن العناية الالهية ستواصل اهتمامها بفقرء البيت الصغير .

لما أخذ صحة الاب كوتولنغو تضعف ، استدعاه الملك كارلو البرتو نفسه الى القصر الملكي ، فقال له بلهجته الجاقة :

- يا أبتِ ، هلا تُفكر في أنك أنت أيضاً خاضع لشريعة الموت التي لا ترحم . فماذا يكون في ذلك اليوم مصير مئات من الايتام والعجزة والمصابين بداء عضال الذين أويتهم في بيتك ؟ .
بينما الملك يتكلم كان كوتولنغو ينظر بطرف عينه من النافذة الكبيرة التي تُرى منها الساحة .
كان يُسمع صوت وقع اقدم بضعة جنود ، فما إن كان يصل رَهطُ منهم حتى يقف تجاه الآخر فقال :

- يا صاحب الجلالة ما الخبر ؟

- هذا تبديل الحرس . إن الرهط القادم يحلّ محلّ الرهط الذاهب .

فابتسم كوتولنغو وقال :

- هذا هو الجواب على سؤالك . سيجري في البيت الصغير تبديل بسيط للحرس ،

سيذهب الأب كوتولنغو وتُرسل العناية الالهية خلفاً له .

جرت الامور كما قال . لما تُوفي ، خلفه الاب انكليزيو (Anglesio) وواصل البيت الصغير

عيشته بهدوء بين سوق المدينة الكبيرة وأبنية مشروعات المركيزة بارولو .

فتذكر دون بوسكو عند ذلك أوّل لقاء له وكوتولنغو . كان قد وصل قبل قليل الى تورينو ،

فذهب الى البيت الصغير ليزوره ، فسأله الاب كوتولنغو عن اسمه، وعن المكان الذي أتى منه ،

ثم قال بلهجة الساهي المتهمم :

- وجهك يوحي الاطمئنان . هلّمّ اعمل في البيت . لن ينقصك العمل .

عاد اليه دون بوسكو ليستمع الى اعتراف المرضى ، ويصرف بضع ساعات مع الاطفال

المعوقين ، وصادفه كوتولنغو ذات يوم (وكاد الفتى دومينيكو بوسّو BOSSO حاضرا) ، فأمسك

بأصابعه شيئاً من نسيج ثوبه فجسّه ثم قال :

- إنه رقيق جداً . عليك بنسيج أمتن لأنّ كثيراً من الصبيان يتعلّقون بثوبك .

كان يتحدث حديث الله من غير تكلف

أخذ الأولاد يتعلّقون بثوب دون بوسكو تعلقاً جيّياً ، فكلما مرّ الزمان ازداد عددُ صبيان

المصلّي ، فتجاوز المائة ، ولم يكونوا محتاجين الى الخبز والعمل فحسب ، بل الى الايمان الذي يغذي

حتى عندما يكون الخبز نادراً . ولم يكن دون بوسكو من انصار الانسان بمعزل عن الله ، بل كاهن الله فعني بأن يلقوا الله .

كتب : " كنت أدهش وأنا ارى طوال الاسبوع ولا سيما أيام الاعياد وكرسيي للاعتراف يُحدق به الأحداث فينتظرون أحياناً وقتاً طويلاً ليتسنى لهم أن يعترفوا " .

لم يكن الاعتراف امراً يسيراً عند الصبيان ، فكان دون بوسكو يساعدهم بأن يوحى اليهم وسائل بسيطة جداً : " إذا كنت لا تحسن التعبير عن فكرك ، فاسأل المعرف أن يساعدك فذلك كافٍ . سيسألك بعض الأسئلة وينتهي الأمر كله " .

كتب بييترو ستيليا (Pietro Stella) : " كان دون بوسكو يستعمل الاعتراف ، وهو شديد الاحساس بمعنى الخطيئة وبحياة الصداقة مع الله ، ولم يكن قاضياً فحسب بل كان على الخصوص أباً ، يرغب في أن يئمي في الاحداث صلة السلام مع الله . في السنين التي قضاها في المركز ، كان على يقين يتضاعف رسوخاً من أنه لن يقود النفوس الى الله بالقسوة ، بل بالرفق " .
وكانت النتيجة الطبيعية للاعتراف ، تناول القربان المقدس ، وكان كثير من الصبيان يُقبلون عليه كلّ اسبوع .

وكان دون بوسكو ، حتى في المحادثات العادّية ما بين الالعب والنزهات ، يتحدث حديث الله . ولم يكن يتكلف شيئاً من الجهد وهو مع الصبيان ليتبادل وإياهم النكات أو الحكايات وليتحدث حديث الله .

وكان في أعظم نشوات الفرح ينظر اليهم فيقول :

- ما أعظم سرورنا عندما سنكون في الفردوس !

وكانوا يتجادلون أحياناً وكان لهم أن ينتقلوا في اسئلتهم من الخير الى الشر والى الحياة والى ما

بعد الموت ، فكان يسأله بعضهم :

- وأنا هل أخلص ؟

فيجيب :

- معاذ الله أن تذهب إلى جهنم ! أتظنُّ الله خلق الفردوس لتتركه فارغاً ؟ أجل إن الزحف

الى فوق يتطلب تضحيات ولكني أريد أن نتلاقى هناك بأجمعنا . ويا للعيد الذي سنقيمه !

صيف السنة ١٨٤٤ . أتمّ دون بوسكو سيره طوال السنوات الثلاث للتدرّب في المركز ونزل الأب كافاسو إلى حيّ فالدوگو ، وذهب إلى اللاهوتي بوريل (Borel) ، المرشد الروحي للملجأ الذي أنشأته المركيزة بارولو ، وقال له :

- أوْدُ أن أرسل إليك هنا كاهناً صالحاً فيحسن أن يعطى غرفةً ومعاشاً .
- ولكن ليس هنا عمل كافٍ لي وحدي .فماذا يُطلب إليه أن يعمل ؟
- دعوه حرّاً . إذا لم نجد له عملاً في المدينة ، أرسله رئيس الاساقفة مساعداً لخوري رعية في الريف ، فيعود أحداث مصلاه الى الشارع ، الأمر الذي سيكون مأساة حقيقية .
- إذا وافقتُ على ذلك . سأحدّثُ المركيزة بالأمر .
- عاد الأب كافاسو الى المركز ، وقال لدون بوسكو :
- أعدّ أمتعتك واذهب الى الملجأ . ستعمل عند الأب بوريل وسيكون لك متسع من الوقت لتهتمّ بصبيانك .

المسح تحت الثوب الفخم

كان للمركيزة جوليا فرنسواز دي كولبير (Colbert) مكان الصدارة غي مجتمع أهل تورينو هاجرت من فرنسا في أيام الثورة ، فتزوجت المركيز كارلو تنكريد فاليتي دي بارولو (Tancredi Falletti di Barolo) وكان في السنة ١٨٢٥ محافظ تورينو .
توفّي المركيز السنة ١٨٣٨ فتركها من غير ولد ، وخلف لها ثروة عظيمة ، فلبست المركيزة وهي في سن الثالثة والخمسين ، تحت ثيابها الأنيقة ، مسحّ التوبة ، ووقفت كلّ مالها على مساعدة الفقراء .

وصرفت خلال عدة أشهر ثلاث ساعات كلّ يوم في سجون النساء ، فتحملت الشنائم وأسباب التحقير ، بل تلقّت عدّة ضربات ، لكي تساعد هؤلاء النساء المسكينات وتعلمهنّ . وقد نالت آخر الأمر من السلطات أن يفصل بين سجون النساء وسجون الرجال ، فنقلت السجنات إلى بناء أصلح للصحة عملت على تهيئته .

وانشأت ايضاً دوراً للايتام ومنازل للشابات العاملات ، وبنّت في فالدوگو ، بالقرب من

بيت كوتولنغو ، "ملجأ" للبعيا اللواتي كنّ يُردن أن يعشن حياة جديدة ، وفتحت بالقرب من المكان "بيت المجدليات" للفتيات المعرّضات للخطر الخُفي ، وهنّ دون سنّ الرابعة عشر . في تلك السنة ١٨٤٤ عينها شرعت في تشييد بناء ثالث هو "المستشفى الصغير للقديسة فيلومينا " ، من أجل البنات الصغيرات المريضات أو المعوقات .

كانت المسؤولة الاولى عن تلك المشروعات الخيرية الثلاثة ومع ذلك ظلت أنيقة رشيقة فكان منزلها موعداً لأشهر أهل الفكر في ذلك العصر . عمل سيلفيو بليكو (Silvio Pellico) امين السرّ لها ، وعندما كتب سجوني كان كميل كافور (Cavour) صديقاً لها ونجياً ، وكان الكاتبان بالزك (Balzac) ولامارتين (Lamartine) يرسلانها ويُطلعانها على ما يجري في فرنسا . ذهب اللاهوتي بوريل إلى المركيزة فقال لها :

- وجدتُ لمستشفاك الصغير مرشداً روحياً اسمه دون بوسكو وهو آتٍ من المركز .
- انا موافقة ، ولكن المستشفى الصغير لا يزال في مرحلة البناء فسنعود الى التحدث بهذا الأمر بعد ستة أشهر .

- لايا سيدتي المركيزة . يجب إدخال دون بوسكو في العمل في الحال ، وإلا أرسل الى مكان آخر . إن الاب كافاسو أوصانا به بإلحاح وكلمني على مصلى أنشأه هذا الكاهن وأضاف : اذا لم نسعه كان إخفاقه خسارة .

فطلبت المركيزة زيارة من الاستعلامات ، ثم اقتنعت فأجرت على دون بوسكو معاشاً سويّاً قدره ٦٠٠ ليرة وخصّته بغرفة بالقرب من غرفة الأب بوريل على غير بعد من الملجأ . وأما دون بوسكو فما إن التقى والمركيزة ، حتى رغب في الحصول على استعلامات مفيدة وضمانات ، وتقبل أن يخدم الملجأ ولكنه اشترط ألا يُضطرّ إلى ترك صبيانه . وكان يطلب خصوصاً أن يتاح له تمام الحرية في استقبال الصبيان الذين يريدون رؤيته في أيام الاسبوع .

كانت المركيزة قد قاربت سنّ الستين ، ولكّنها كانت قد احتفظت على وجه تام بمزاجها الحازم المستقيم ، فأعجبتها تلك الصراحة ، فأذنت للكاهن أن يجمع صبيان مصلاه في أرض ضيقة بجانب المستشفى الصغير الذي كان يُبنى ، وعندما يصبح الامر ممكناً ، تدّعه يتصرف بغرفتين في داخل البناء ، فيجعل منهما معبداً لهم .

تمّ الاتفاق على عمله هناك ، ولكن المكان ضيق لمشروعه .

كان الحملان يتحولون الى رعاة

١٢ تشرين الأول (اكتوبر) لسنة ١٨٤٤ ، يوم السبت . دون بوسكو غارق في افكاره . يجب عليه في صباح الغد أن يقول لصبيانه إن المصلى سينتقل إلى ضواحي فالدوكو " ولكن عدم

تحققي من تلك الاماكن والوسائل والناس تركني في حالة قلق . وفي تلك الليلة حلمتُ حلماً جديداً
بدا لي تابعاً للحلم الذي حلمته في البكي وأنا في سنِّ التاسعة " .

رأى أيضاً جيش الذئاب فأراد الهروب "ولكن امرأة عليها ثياب الراعية ، اشارت لي بان
أصحب هذه العصابات الغريبة ، وكانت تسير في المقدمة . قطعنا ثلاث مراحل ، وفي كل وقفة
كان كثير من هؤلاء الذئاب يتحولون الى حملان . وغلبنى التعب فأردتُ القعود . ولكنَّ الراعية
دعتني إلى مواصلة السير . فاذا بنا في فسحة واسعة وبجانبها رواق داخليّ وفي آخره كنيسة . كان
عدد الحملان يزداد كثيراً ، وجاء رعاة آخرون ليحرسوها ، ولكنَّ قليلاً يثبتون ، فحدث عند ذلك
أشياء غريبة . تحول كثير من الحملان إلى رعاة ، وعنوا بالآخرين ، ودعتني الراعية إلى أن أنظر
نحو الجنوب ، فنظرت فرايت حقلاً ... فقالت لي : أنظر مرة أخرى ... فرأيت كنيسة رائعة
كبيرة ... وفي داخل تلك الكنيسة شريطاً أبيض كُتب عليه بأحرف كبيرة : هنا بيتي ، ومن هنا
ينطلق مجدي " .

وختم دون بوسكو كلامه بعد عشرة أسطر : : لم أومن بذلك كثيراً . ولكنني فهمتُ الأمور
كلما تحققت بعدئذ . فقام هذا الحلم وحلم آخر مقام برنامج في الأمور التي عزمت عليها " .

واما الحلم الآخر فقد رواه للأب بربيرس (Barberis) وللأب لموان (Lemoyne) فدوّناه
لوقتئها (ويمكن المرء أن يقرأه في المجلد الثاني من ذكريات السيرة ، ص ٢٨٩) وهو في معظمه
تكرار للحلم الأول ، على شيء من الاختلاف . نستذكر بعض عناصره المميزة :

"قالت لي سيدة : أنظر . فرأيتُ كنيسة صغيرة منخفضة وساحة صغيرة وعدداً من
الاحداث كثيراً ... ولكن الكنيسة ضاقت بي وبالأحداث فخاطبت السيدة مرةً أخرى فأرتني
كنيسة أخرى اكبر كثيراً ، وبيتاً على غير بعد منها . . . ورأيت حولي عدداً كبيراً من الأحداث . . .
رأيت كنيسة واسعة جداً ، وحولها كثير من الأبنية وفي وسطها نصب جميل " .

أين دون بوسكو ؟ واين المصلّى ؟

١٣ تشرين الاول (اكتوبر) ، يوم الأحد . بشرّ دون بوسكو صبيانية بنقل المصلّى الى القرب
من الملجأ ، فسبّب كلامه بعض الاضطراب . فاندفع دون بوسكو وصورّ ما رآه في الحلم حقيقة
راهنة ، وأخذ الفرحة ، فيشرّ "ان هناك مكاناً واسعاً ينتظرنا وهو كئله لنا ، لكي نغني ونركض
ونقفز ، وسُسُسرُّ به ، وكان كلُّ واحدٍ ينتظر بفروغ الصبر أن يرى ذلك الشيء الجديد" .
٢٠ تشرين الأول (اكتوبر) ، يوم الاحد . اجتاز الصبيان حواجز مكتب الرسوم

الزراعية ، ونزلوا إلى منخفض فالدوگو . كان يمتد حتى الضفة الغربية لنهر الدورا (Dora) ساحة

كلها مروج وحقول فيها مجموعات من الدور المتفرقة ، وكان "البيت الصغير" العائد الى كوتولنغو
"وملجاً" المركيزة بارولو قريبين من ملاهٍ ودورٍ ريفيّة يعيش فيها الناس بسلام . لم يعرف الصبيان
إلى اين يذهبون ، فأخذوا يدقون الأبواب ويصيحون :

- دون بوسكو ! أين دون بوسكو ؟ أين المصلّى ؟

كان الناس يرون أحياناً كثيرة مثل هؤلاء العصابات من الرّاع ، فاقتنعوا بتنّ الامور ستعود
عليهم بالسوء فرفعوا صوتهم :

- وأيّ مصلّى ؟ وأي دون بوسكو ؟ إذهبوا ! انصرفوا من هنا ، وإلا جعلناكم تركضون

للهروب من ضربات المذاري !

"سمعتُ تلك الضجّة وسمعتها اللاهوتي بوريل (Borel) فخرجنا من البيت ، فسكنت

الضجة وأسرعوا للقائنا " .

كان هناك مكان يزيد عن الحاجة للعب والركض ، غير انه لم يكن من موضع يسوده الهدوء
للصلاة والاعتراف وإقامة القداس .

- إن المكان الواسع الذي وعدتكم به لم ينته بناؤه الى الآن ، ولكنّ الذين يريدون ،

يستطيعون الصعود إلى غرفتي وغرفة اللاهوتي بوريل .

فكانت النتيجة ، في يوم الاحد ذلك ، وفي سائر أيام الأحد حتى كانون الاول (دسمبر) ،

أشبه بحالة سمك السنمورة في البرميل . " فقد غصّت الغرفة والأروقة وسائر الأماكن بالصبيان .

كنا اثنين لاستماع الاعترافات ، ولكن عدد الذين يريدون الاعتراف مائتان " ومَنْ يسعه أن يجعل

الهدوء يسود مائتي شاب وهم ينتظرون ؟

"كان الواحد منهم يريد أن يوقد النار في حين أنّ آخر يريد إطفاءها ، وكان الواحد ينضدّ

الحطب والآخر يُلقي عليه الماء . السطل والملقط ومغرفة النار والابريق والمقاعد والأحذية

والكتب ، كان ذلك كله مقلوباً رأساً على عقب لأنهم يريدون كلهم أن يربّوا الاشياء" .

في هذه الاسطر لدون بوسكو شيء من المبالغة الفرحة ، ولكن الذي عاش وقتاً طويلاً بين

الصبيان يعرف أن المبالغة ليست كبيرة .

مرّت ستة أيام أحد على تلك الحال ، اصطفّ فيها صفوفاً مائتان من الأحداث في

الضحى ، وساروا وراء دون بوسكو ، وهم أشبه بجيش صغير ، ليذهبوا إلى القداس في جبل

الكبوشيين أو الى كنيسة سيده التعزية أو الى ساسي (Sassi) .

اللاهوتي بوريل يصحبهم مرات كثيرة : إنه كاهن بسيط شعبيّ سمّاه الناس الكاهن

الصغير لقصر قامته . إنّه يعمل بلا كلل ولا ملل . لقد تولّى رعاية دون بوسكو الشاب ، وأخذ

يساعده مساعدة الصديق بلطف وبماله أيضاً .

ورحب الصبيان أحسن الترحيب بعظات الكاهن القصير ، لأنه يلفظها بلهجة بورتا بالاتسو (Porta Palazzo) الممتعة ، ويمزجها بالأمثال والمزاح والنكات . ولما قالت بعضهم للأب بوريل إنه يجب عليه أن يعظ بطريقة أكثر وقاراً أجاب : " إن العالم يدعو الى الضحك فيجب الوعظ بطريقة تدعو الى الضحك " .

نُدْف الثلج تنفجر في المنقل

٨ كانون الاول (دسمبر) . هَيَّأت آخر الامر الغرقتان اللتان خُصَّتَا بالمعبد ، وقد حان الوقت لذلك ، لأن الثلج يتساقط منذ أول الليل تساقطاً مروّعاً . وفي صباح الغد الثلج كثيف والبرد شديد جداً ، فجاء بمنقل كبير إلى المعبد . ذكر يوسف بوتسيتي أن نُدْف الثلج كانت ، وهو يجتاز الساحة ، تهبط في النار فتتفجر فيها . وجاء الصبيان مع ذلك ، فوجدوا مذبحاً صغيراً وبعض المقاعد . كتب دون بوسكو ببساط : " أقيم القداس ، واعترف عدَّة أحداث وتناولوا القربان المقدس ، فبكيْتُ لأَنَّهُ بدا لي ان المصلّى سيكون من بعد ذلك ثابت دائم " . كان على خطأ . فقد بكى مرة أخرى لا من الفرح ، ولكن من الحزن قبل أن يحصل على مكان دائم ثابت للمصلّى .

بيد أن دون بوسكو وجد منذ الثامن من كانون الاول (دسمبر) ١٨٤٤ شيئاً سيلزم المصلّى : وجد له اسما . سُمِّي مصلّى مار فرنسيس السالسي . لماذا ؟ شرحه دون بوسكو : " لأن المركيزة أمرت برسم صورة ذلك القديس في مدخل المكان ، لأن نشاطنا يتطأب كثيراً من الهدوء والوداعة . جعلنا أنفسنا في حماية مار فرنسيس السالسي لكي ينال لنا حلمه العظيم " . وأراد دون بوسكو أن يفرح صبيانه ، فاشترى كرى خشب ودوائر صغيرة للعبة الهدف وطوّالات (١) (ولم تكن لعبة كرة القدم قد اخترعت) وواصل مساعدته لأفقرهم بالغذاء والثياب

(١) راجع ص ٦٧ ، حاشية ١ ، ٢ .

والاحذية .

أمّا وقد حصل على غرفة ، فانه يأمل أن يزود أذكى صبيانه بشيء من التعليم . فكان الأولاد يقتطعون عند المساء ساعتين من نومهم ، ويأتونه فرقا صغيرة ، ووجوهها مسوَّدة من السحام أو مبيضة من الكلس ، وعلى اكتافها الرنس لتدفع عنها البرد ، وهي سعيدة بأن تحصل

على شيء من الدروس . ولكن الكتب والثياب وادوات للعب تتطلب المال . وكان دون بوسكو يشعر بالحياء والارتباك . إنه يكره الذهاب إلى أسرة غنية ليطلب الصدقة ، فشجّع الأب بوريل بقوله :

- إذا كنت تريد خير صبيانك حقًا ، يجب عليك أن تتقبل هذه التضحية أيضاً .
- فتقبلها دون بوسكو . وكانت أول أسرة قصدها ، بعد ما أعدّها الأب بوريل لاستقباله ، أسرة الفارس غونلا (Gonella) فشرع بالخجل يصبغ وجهه بالحمرة حتى أذنيه ، لما مدّ يده ليتلقى الليرات الثلاثمائة الأولى .
- سأل دون بوسكو مديرا سالسياً بعد ٤٢ سنة ، أن يذهب ليتلقى صدقة ، فسمعه يقول " إنه ينقصه رباطة جأش دون بوسكو " ، فظهرت على وجهه أمارات الجدّ وقال :
- لا تعرف كم كلفني طلب الصدقة .
- لم تذهب عنه تلك الكراهية قط كما أنه لم يتخلّ قط عن كرامته ، فهو ليس بالخجول ولا بالمبتذل . قالت الأسر الثبيلة فيه :
- يُخَيَّل إلى المرء أنه أشبه بملك يدخل .

كان دون بوسكو يُفكر بصبيانه ويقوم أيضاً بما لزم نفسه . كان قد أوضح له أنه يحصل على الضيافة والمعاش ، لكي يقوم بعمله الكهنوتي بين النساء المنكوبات والفتيات اللواتي في الملجأ ، وكان يقول صراحة إنه لا يصلح لتلك الخدمة ، ولكنه يقوم بواجبه قياماً حسناً .

نُبِّح لِنفسنا في معرض لكلامنا أن ندوّن أمراً يُذكر . أكّد دون بوسكو دائماً أنّ رسالته هي خدمة الصبيان لا البنات ، ولكن هذا النفي لم يَصِرْ قط كراهية ، فتقبّل دائماً وببساطة معاونة النساء ووجودهن : من البنت الصغيرة التي كانت تحرس بقرااته في سوسّامبرينو ، وهو يدرس ، حتى مؤازرة الأمهات في فالدوگو (أمّه وأمّ الأب غاستالدي والخالة مريانا ، اخت ماما مرغريتا) . كان مشغل السيّدات ، كما كان يقال له ، بلزق مستوصف الصبيان . نهض دومنيك سافيو من فراشه ، في أيام شتاء السنة ١٨٥٧ ، وقد انهكه الحمى ، وذهب يستدفي في النار التي أوقدها الخالة ماريانا وكانت مريضة هي أيضاً ، وبخها بما للمراهقين من التشدّد ، لأنها

تندب حظّها وتندمر للبلايا التي " أنزلها الله بها " . إن الكراهية للنساء والارتباك الذي زُعم أن وجود النساء سببه لدون بوسكو ، هما ، في رأينا ، أمران اصطنعهما كتبة لسيرته أثر فيهم ميل الى النقش غير سليم .

إخفاق في كنيسة مار بطرس المقيد بالسلاسل

يُرَجَّحُ أَنَّ دُونَ بوسكو أمَّلَ منذَ الأشهرِ الأولى التي قضاها في الملجأ أن يجعلَ المركزيةَ تُبدَّلَ رأيها ويقنعها بأن تخصَّ بالبناء الذي يُشاد الصبيانَ المُشرِّدين لا البنات الصغيرات . وكان في خاطر المركزية نيَّة مخالفة تماماً ، وهي أن يترك بعد حين دون بوسكو الصبيان ، ويوقف نفسه على مشروعاتها .

كان الوهم متبادلاً . وكلما مرَّ الوقت ازداد عدد الصبيان وضجيجهم ، فأتلَّفت شجيرات ورد ، وأظهرت الراهبات قلقهن من تجاور هؤلاء الصبيان و " المجدليَّات " ، وكانت المركزية ترغب رغبة تشتدُّ يوماً بعد يوم في ذهاب المصلى عن مكان مشروعاتها .

ولكن ناك مشكلة : إلى أين يذهبون ؟ كانت الاحلام تُنعش آمال دون بوسكو ، ولكنها ليست خرائط جغرافية واضحة .

حاولوا في أيام الصوم الكبير لسنة ١٨٤٥ أن يغادروا المكان مغادرة جزئية فاجتمع تلامذة صفوف الأكبر سناً في كنيسة مار بطرس المقيد بالسلاسل من أجل التعليم الديني اليومي (وكان مفروضاً على جميع الصبيان في أيام المجيء والصوم الكبير) . وكان يُطلق ذلك الاسم على كنيسة منذورة للصليب ، بلزقها مقبرة لم يُدفن فيها أحد منذ عشر سنين ، وكان للمقبرة (وهي ما زالت ظاهرة في ايامنا في حيِّ فالدوكو) مدخل مسقوف وساحة كبيرة حولها أروقة .

كانت الاجتماعات من أجل التعليم الديني قد جرت بكلِّ نظام ، وكان المسؤول عن المقبرة الاب تيزيو (Tesio) صديقاً لدون بوسكو ، فسأله دون بوسكو في شهر أيار (مايو) أن يكرِّر التجربة على وجه أوسع فينتقل المصلى كلُّه الى كنيسة مار بطرس المقيد بالسلاسل وساحاتها . كان على الاب تيزيو ان يغيب عن تورينو يوم الاحد الموافق ٢٥ ايار (مايو) فأجاب :
- هَلَمْ وصبيانك في الخامس والعشرين ، وهكذا تقوم مقامي من أجل القداس .

ربّما ارتكب الكاهن خطأين . كان يعتقد أن مصلى دون بوسكو مؤلف من بضعة صبيان ، هؤلاء وحدهم الذين رآهم يُصغون إلى التعليم الديني أيام الصوم ، في نظام حسن . يضاف إلى ذلك أنه كان يعتقد (كما رأى ذلك في سائر المشروعات للصبيان) أنهم بعد القداس والطقوس الدينية في الكنيسة ، يعودون إلى بيوتهم ، وقد أكلوا رغيفهم الصغير في ساحة الكنيسة .

جرت الامور على وجه اختلف كثيراً عما تصوَّره ، إذ رات خادمة الكاهن جماعة ضخمة من الصبيان تكدَّسوا في الكنيسة كلها . ولما انتهى القداس التقطوا رغيفة الافطار في الهواء وضجوا ضجيج العاصفة في الساحة وتحت الأروقة . فذهلت الخادمة وكانت تربي بعض الدجاجات تحت الحنايا ، ثم ثار ثائرها وأخذت تصرخ وتركض وتضرب بمقبض المكنسة ، في حين ان دجاجاتها

أصابها الذعر فطارت يُطاردها الصبيان . ووصلت الخادمة في وثبتها الى دون بوسكو وانها عليه أيضاً بالشتائم . وكان ألطف لقب وُقِّعت إلى اطلاقه عليه : " مدَّس الاماكن المقدسة " .

أدرك دون بوسكو أن خير حلّ هو الذهاب . " آثرت أن أوقف الألعاب : ذهبنا ، وفي خاطرنا أن نعود يوم الاحد القابل على وجه اكثر هُذوءاً " .

كان ذلك الامر حادثاً لا شأن له ، لو لم يقع في أحوال مؤثرة . أعلن الأب روا في أثناء التحقيق عن أخبار دون بوسكو : " بعد مدّة طويلة روى لي امرؤ من لانتسو (Lanzo) يُدعى ميلانوتي (Melanotte) ، وقد شهد ما جرى ، أن دون بوسكو ، من غير أن يضطرب او يغضب ، التفت إلى الصبيان وقال : يا للمسكينة ! إنَّها تأمر بالذهاب في حين أنَّها ستكون في القبر يوم الأحد المقبل " .

لما عاد الأب تيزيو ، روت له الخادمة ذلك كله روايتها لكارثة الألعاب فكتب الى البلدية طالباً أن تحظر الألعابُ كُلُّها في حدود المقبرة (ولربما فعل ذلك لكيلا يرجع عن وعده لدون بوسكو) .

قال دون بوسكو وقد أخذه الحزن : " آسف وأنا أقول ذلك ، فإنّ هذه الرسالة كانت آخر رسالة كتبها الاب تيزيو " . فقد تُوفي هو وخادمتة بغته في اسبوع واحد .

عاد أولاد المصلى الى الاجتماع في الملجأ ، بعد التجربة المشؤومة في كنيسة مار بطرس المقيد بالسلاسل ، ولم تفعل المركيزة أي شيء كان لكي تمنعه ، ولكنها ذكّرت دون بوسكو ان المستشفى سيُدشّن في ١٠ اب (أغسطس) . ومن الواضح أنّ الصبيان سيجدون الأبواب مغلقة بعد ذلك اليوم .

١٢ تموز (يوليو) ١٨٤٥ . وصلت رسالة إلى دون بوسكو أذن له فيها ، بناء على توصية رئيس لاساقفة ، " أن يستعمل معبد طواحين المدينة ليُلقي الى الصبيان التعليم الديني من الظهر الى الساعة الثالثة الزوالية ، ويُحظر عليهم دخول الساحة الثانية للأبنية " .
إن كنيسة يستعملها ثلاث ساعات يومَ الاحد ليست قصرأ ملوكياً ، ولكنها شيء يُتيح لهم البقاء . ذكر دون بوسكو : " أخذنا المقاعد والمساجد ، والشمعدانات وبعض الكراسي واللوحات والإطارات الصغيرة كأننا مهاجرون ، واتخذنا لنا مقاماً مقرّنا العام في الاماكن المذكورة آنفا " .

كانت طواحين المدينة في الساحة الكبرى ، ساحة عمانوئيل فيليبيرتو (Filiberto) ، الى اليمين للنازل الى نهر دورا (Dora) ، ولا تزال تقام الى يومنا في هذه الساحة الفسيحة سوق المدينة اليومية الزاهية الالوان ، وتُرثّب فيها صفوف متراصّة للبضائع المعروضة للبيع .

" القُتبيط ، يا اولادي الاعزاء . . . "

لم يكن دون بوسكو راضياً عن هذا التدبير الجديد ولا الصبيان انفسهم . كتب : " لم يكن بالإمكان إقامة القداس ولا منح البركة في المساء ، ولم يكن بالإمكان أيضاً تناول القربان المقدس ، وهو العنصر الجوهرى لمؤسستنا . حتى وقت اللعب كانت عرضة للبلبله ، اذ كان على الصبيان أن

يلعبوا في الشارع أو في الساحة الصغيرة ، تجاه الكنيسة حيث تمرّ العربات والخيول " . وختم كلامه : " اضطررنا الى الاكتفاء بذلك المكان فكنا نصبو الى موضع أفضل " .
استأجر مكاناً في الطبقة الارضية للكنيسة ، وتفنّن في إلقاء التعليم الدينيّ والدرس هناك .

حاول الأب بوريل أن يشدّد عزيمتهم كلهم ، بعظة صارت مشهورة وأطلق الصبيانُ عليها اسم عظة القنبيط . إستهلَّ الكاهن القصير عظته بكلام أضحكهم جميعاً : " إن القنبيط اذا لم يُقلع من مكانه ، ويُغرس في مكان آخر ، لا يصير جميل المنظر ولا ينمو . وتلك حالة مُصلانا . لقد نُقل من مكان الى مكان ، وغرس فيه فنما نمواً عجيباً " . وذكر تاريخ المصلّى ثم ختم كلامه بقوله : " أترانا نبقي هنا مدّةً طويلة ؟ لا يأخذنا القلق . فلنتق بالرب ، فمن الثابت أنّه يباركنا ويعيننا ويفكر فينا " .

ولكن بدأت بعد بضعة ايام من ايام الاحد ، سلسلة من الازعاجات . بعث بعضهم برسالة من امانة سيرّ الطواحين إلى البلدية كُتب فيها جدول من الشكاوى الجسيمة : إن الصبيان يسبّبون للكنيسة وللأبنية دماراً كبيراً ، وإنهم " يؤلفون تجمعاً قد يُتلاعب به في حال وقوع ثورة " (وتلك شكوى عظيمة الخطر في ذلك الوقت) وهم " مزرعة لسوء الاخلاق " .

خُمش جدار برأس مسمار ولكن لا ثورة هناك ولا سوء أخلاق . والعنصر الواحد ذو الشأن (وهو الذي سبب الرسالة) غضب مستأجري البيوت المجاورة . فإنّ العناء والاصوات والالعب ، وما فيها من ضجة ، تقصد سلام يوم الاحد .

فَتَكَدَّر دون بوسكو كثيراً من افتراء الكذب عليهم (وهو يُخلف دائماً بعض الآثار) وتكَدَّر أقلّ كثيراً من القرارات التي بلّغها . إن البلدية لا تُلغي الاذن الممنوح ولكنها لن تجدد في أول كانون الثاني (يناير) الترخيص المعمول به . سوف تصله الرسالة الرسمية التي يرد فيها النكول عن الاذن ، في شهر تشرين الثاني (نوفمبر) وعليه في أثناء ذلك ، أن يحاول " التعقّل " .

حاول دون بوسكو التعقّل فصارت كنيسة الطواحين من ذلك الحين مكاناً للتجمع فحسب . فهو يذهب بهم من هناك لكي يلعبوا في المروج البور على ضفة نهر الدور . وأمّا الصلاة فانهم يذهبون ليقيموها في كنيسة سيدة العمود ، او في ساسي أو سيدة الحقول . كتب : " كنت أقيم القداس في تلك الكنائس وأفسّر الانجيل . وعند المساء كنت ألقى عليهم شيئاً من التعليم الديني ، وأقصّ بعض القصص ، ثم ننشد معاً بضع ترانيل للحمد ، ونقوم بجولات ونزهات حتى ساعة عودة الصبيان الى بيوتهم . ربّما خطر ببال بعضهم ان هذه الحالة العسيرة سوف تبيد فكرة إقامة المصلّى كما يُبيد الدُخان . جرى نقيض ذلك فازداد عدد الصبيان زيادة عظيمة " .

" خُد ، يا ميشيل الصغير ، خُد "

وقع لدون بوسكو في ايلول (سبتمبر) بالقرب من الطواحين مصادفةً من أهمّ مصادفات حياته . كان الصبيان يزدهمون أمامه ليحصلوا على أيقونة . وكان واقفاً على انفراد صبّي صغير في

السن الثامنة ، وعلى ذارعه اليسرى عصابة سوداء للحداد ، فقد تُوفي أبوه قبل شهرين ، فلا يحسنُ به أن يُفحم نفسه في كومة الصَّبَّيان ، ويدفع بمرفقيه لكي يحصل على مكان له . ذهبت الأيقونات ولم يبقَ له منها شيء ، فدنا منه دون بوسكو وقال له :

- خُذْ ، يا ميشيل الصغير ، خُذْ .

يأخذ ماذا ؟ إن هذا الكاهن الغريب الاطوار ، وقد رآه للمرة الاولى ، لم يُعطه شيئاً . بسط إليه يده اليسرى وحدها وتظاهر بقطعها قطعتين بيده اليمنى . رفع الصبي عينيه كمن يسأل فقال له الكاهن :

- سنفعل كل شيء كلانا مناصفة .

ما الذي رآه دون بوسكو في تلك اللحظة ؟ لم يُقله قط . صار ذلك الولد ذراعه اليمنى ، وأول خَلْف له على رأس الرهبانية السالسية واسمه ميشيل روا (Rua) .

لم يفهم تلك الجملة لا في تلك اللحظة ولا بعدئذ ، طوال سنين كثيرة ، ولكنه تعلق بهذا الكاهن وقد شعر بنفسه سعيداً ، وهو بالقرب منه ، وكان الحرارة قد غمرته .

إن ميشيل الصغير يسكن المعمل الملكي للسلاح حيث كان أبوه مستخدماً . مات أربعة من إخوته ، وهم في سن الصغر ، وهو بنفسه نحيل جداً ، ولذلك لا تدعه امه يذهب كثيراً الى المصلى . ولكنه يصادف دون بوسكو عند إخوة المدارس المسيحية حيث يواظب على الصف الثالث الابتدائي .

روى بعدئذ : " لما كان دون بوسكو يأتي ليقم لنا القديس ويعظنا ، فما إن كان يدخل المعبد ، حتى يُخيل أن تيار كهربائياً يسري في هؤلاء الاولاد الكُثر . كنا ننهض ونخرج من مواضعنا ونزدحم حوله فكان لا يصل إلى بعد وقت طويل . لم يكن بوسع الاخوة الطيبين ان يمنعوا ما يبدو قلة للنظام . لم يكن يحدث شيء من ذلك عندما كان يأتي كهنة آخرون " .

كُتب انتزعتها من نومه

في تشرين الاول (اكتوبر) وقع حدث ذو شأن : نُشر تاريخ الكنيسة لاستعمال المدارس : ذلك أول الكتب المدرسية التي كتبها دون بوسكو من أجل صبيانه ، بعد ما انتزعتها من نومه ، وهو يستضيء بمصباح وقوده الكاز ، وأحكمها بسرعة ، وكتبها بخط لا يُقرأ . لم

يكن تاريخ الكنيسة مصنفاً علمياً ، ولن يكون أي كتاب من كتب دون بوسكو ، مؤلفاً علمياً ، إنه اقرب الى المؤلف الشعبي ، يلائم ذهن صبيانه المتواضع ، وثقافتهم المحدودة . في الكتاب كلام على الباباوات وأزهى أحداث الكنيسة وموجز لسيرة القديسين ، ووصف أعمال الاحسان

التي ازدهرت في جميع الازمنة عند شعب الله .

وتبعه بعدئذ التاريخ المقدس (١٨٤٧) ونظام المتر العشري (١٨٤٩) وتاريخ

إيطاليا (١٨٥٥) .

ووجد دون بوسكو من الوقت ما مكنه ، وهو يؤلف الكتب المدرسية ، من كتابة كثير من الكتب والكراريس الأخرى : سير القديسين ، وكتب مطالعة لترويح القلب ، وكتيبات للصلاة والتعليم الديني . لم يكن أي واحد منها تحفة رائعة ، ولكن كل منها يُظهر محبته لصبيانه وللشعب البسيط والكنيسة . وكانت عدة من تلك المؤلفات سبب المتاعب ، فقد وصل الامر ببعضهم الى محاولة البطش به للحيلولة بينه وبين التأليف .

ثلاث غرف في بيت موريثا

في تشرين الثاني (نوفمبر) وصلت رسالة البلدية وقد ابتدأ الشتاء . كتب : " لم يبقَ الجو ملائماً للنزهات والجولات في خارج المدينة ، فاتفقتُ واللاهوتي بوريل أن نستأجر ثلاث غرف ، في بيت موريثا " (وقد زال عن الوجود في أيامنا) . " قضينا أربعة اشهر في ضيق في الغرف الثلاث لبيت موريثا . ولكننا كنا مسرورين بانه يسعنا استقبال الصبيان وتعليمهم وتمكينهم من الاعتراف " .

وذكر دون بوسكو ، وهو يبتسم أنه اضطرّ في تلك الاماكن ، الى مخالفة مقصده الثاني من مقاصده القديمة في معهد الكهنوت : أراد أن يُلهي الصبيان في مكان ضيق جداً ، فعاد الى القيام بألعاب بهلوانية ، ولم يكفَ عنها بعدئذ لأن النتائج كانت باهرة .

وبدأ أيضا يساعده اللاهوتي كاربانو (Carpano) في برنامج منظم لمدرسة ليلية ، يختلف كثيراً عن الدروس التي ألقاها في بعض الفرص السانحة حتى ذلك الوقت .

كان التعليم الرسمي والمدارس الليلية ملائمة لتلك الاختيارات الواقعية التي تجاوز فيها دون بوسكو مواقف المحافظين فوجد موافقاً لمواقف الأحرار . قال دون بوسكو لرئيس لاساقفة ، وقد أظهر القلق : " ليس الامر في معرفة من أين نَسْتَمِدّ المبادرة الجديدة وحيها . يجب البحث في طبيعتها ، فاذا كانت سالحة وُجّهت توجيهاً مسيحياً يُفسدها الروح العدو للدين " .

علامة استفهام كبيرة عن المصلّي

كانون الاول (ديسمبر) . ساءت صحة دون بوسكو على وجه يدعو الى القلق . إيه مرشد

للمستشفى الصغير الذي يأوي إليه البنات المريضات من سنّ الثالثة الى الثانية عشرة ، وهو

مشغول في السجون ، وفي بيت كوتولنغو ، وفي معاهد التربية في المدينة ، ويعمل في مصلاه ،
ويدرس في الليل ، ويذهب إلى الصبيان ليزورهم في مكان عملهم .

وأندر شتاء السنة ١٨٤٥ - ١٨٤٦ بالبرد الشديد . فالشتاء يتأخر في تورينو وهذا من حسن
الطالع ، ولكنه يغطي الأزقة الضيقة بكمّ كثيفة داكنة اللون من الثلج المتجدد ، فيحفظ البرد
المتواصل المضي طوال عدة أشهر .

أظهرت رنتا دون بوسكو في تلك الأشهر ضعفاً يدعو إلى القلق فَشَعَرَ اللاهوتي بوريل
بالامر ، وأخبر المركزية بارولو فأعطت دون بوسكو مائة ليرة من اجل المصلّى وأمرته "أن يتوقف
عن أعماله كلّها حتى يتعافى على وجه تام " .

فأطاع دون بوسكو بالتوقف التام عن كل ما عليه ، إلا ما يعود إلى صبيانه ، ولم يحصل من
ذلك على خير عظيم ، وما لبث أن شعر بذلك . ولكن قلقه على صحته أمر قليل الشأن عند ذلك إذ
قيس بالغيوم السوداء التي تتراكم على المصلّى . كتب بلهجة الاسى : " في ذلك الوقت انتشرت
إشاعات غريبة جداً . سمّى بعض الناس دون بوسكو ثورياً ، وقال غيرهم انه مجنون بل فاسد
العقيدة " .

وأول من وسّموا مشروعه بعلامة استفهام كبيرة هم حوارنة الرعيّة في الناحية . ففي المجلس
الذي عقده في اول ١٨٤٦ كان أحد موضوعات ورقة العمل هو التعليم الديني للصبيان ، فانتهز
خوري كنيسة الكرمل الفرصة السانحة ، ليُعرب عن قلقه في شأن مصلّى دون بوسكو : إن
الصبيان ينفصلون عن الرعايا ، وينتهي بهم الأمر إلى أنهم لا يعرفون حتى خوريهم . أترى ذلك
خيراً أم شراً ؟ إن سائر الحوارنة مثله في قلق .

سارع دون بوسكو إلى القول : " لم تكن المسألة مسألة طموح مستهجن أو حسد . كانوا
يريدون حقاً خلاص النفوس " .

أرادوا أن يوضحوا الحالة ، فأرسلوا إليه موفدين من لدنهم .

أعاد دون بوسكو في ذكرياته تدوين الحوار (ولا شك في أنه كرّره كثيراً طوال تلك
السنين إذ كان فيه أدلة حيوية لدعم مشروعاته) . ننقل اجزائه الجوهرية .

- إنّ مصلاك يُبعد الأحداث عن الرعايا ، يا دون بوسكو ، لماذا لا ترسلهم إليها ؟
- لأنّ أكثرهم لا يعرفون الخوري ولا الرعيّة : يكادون ان يكونوا كلّهم غرباء ، جاؤوا

ليجدوا عملاً ، من وادي أوستا (Val d' Aosta) ، والسافويا (Savoia) ، وبيلا (Biella) ،
ونوفارا (Novara) ، ولومبارديا (Lombardia) .

- لماذا لا تُساعدهم على الانضمام إلى الرعايا التي يعيشون فيها ؟

- ذلك غير ممكن ، فاختلاف اللهجات ، وتبديل المساكن عقبتان كبيرتان . قد يسعنا أن نجرب ذلك ، شريطة ان يأتي خوري فَيَعْرِفَ على الذين يعودون اليه ، ويسير بهم إلى رعيته . ولكن حتى هذا الحلّ عسير : فإنّ كثيراً منهم لا يرعون النظام وسيرتهم غير صالحة . فإنهم لا يتقبلون تلقي الدروس الدينية وإقامة الصلاة إلا إذا استميلوا باللعب والنزهات ، فعلى كل رعية أن تحصل على مكان صالح لاجتماعات ولألعاب تلذهم .

- ذلك أمر مستحيل ، فليس لدينا مكان ، والكهنة مشغولون بأمر آخرى يوم الأحد . لقد روينا سابقاً أن النتيجة بلغت دون بوسكو بعد بضعة ايام : " لم يكن بإمكان كلّ منهم أن يحصل على مصلى في رعيته . ولذلك يشجع الخوارنة دون بوسكو على السير في عمله " . لقد جاء الجواب على العلامة الاولى للاستفهام ، ولكن في الربيع جاءت سائر علامات الاستفهام وكانت أشدّ خطراً .

مصلى يختلف عن غيره

إنّ الميزات الرئيسية لمصلى مار فرنسيس السالسي قد برزت إذن . أدرك دون بوسكو ما وصلت اليه تجربات مصليات ميلانو وبريشيا (Brescia) ومار فيلبس نيري في رومة . كان قد اقتفى آثار الأب كوكي (Cocchi) في تورينو ، ولكنه طبع المشروع بطابعه الخاص . أصبح المصلى في يديه مشروعاً طريفاً ، يختلف عن سائر المصليات لما فيه من الميزات . سنحاول ان نُدوّن جدولها ولو على وجه ناقص وغير أمين . كانت المصليات التقليدية تابعة للرعايا . فأنشأ دون بوسكو مصلى تجاوز مؤسسة الرعيّة ، فأصبح " رعيّة الأحداث الذين لا رعية لهم " كما سماه بعدئذ رئيس الاساقفة فرانسوني (Frasoni) .

ان وجود الكاهن بين الأحداث ، إذا اقترن " بالعطف الممزوج بالجدّ " ، يقلّ من البشاشة ويكره الضجة . وأما دون بوسكو فقد فتح عهد " العطف الممزوج بالفرح " ، فالكاهن هو بنفسه ينشّط الالعب والاسترسال في الفرحة .

كانت المصليات التقليديّة تقتصر على أيام الأعياد ، وكثيراً ما كانت تقصر لقاء الأحداث على ساعتين أو ثلاث ساعات بعد ظهر يوم الأحد ، فوسّع دون بوسكو لقاء الأحداث حتى شمل يوم العيد كلّهُ ثم شمل الاسبوع كلّهُ ، والدروس والزيارات الى أماكن العمل .

إنّ الصبيان الذين يذهبون الى مصلى مألوف ، يذهبون إلى رعيّة ويجدون أنفسهم في كنيسة معروفة ومحدودة . وأمّا مصلى مار فرنسيس السالسي ، وقد زادت في نموّه على وجه غير متوقع الهجرة المستمرة ، فإنّ الصبيان يذهبون إليه طالبين دون بوسكو ليقضوا النهار معه . إن مركز المصلى

ليس المؤسسة المؤلفة من الرعية – الكنيسة بل شخص دون بوسكو ووجوده الدائم المنعش . إن العلاقة ، في لغة اليوم ، ليست علاقة رسمية بل شخصية .
إن سائر المصليات تنتقي أحسن الصبيان ، ووالدوهم هم الذين يقدمونهم ويضمنون حسن سلوكهم . نميل إلى القول إن دون بوسكو يقوم بانتقاءٍ مخالفٍ رأساً على عقب . يبدأ مصلاه بأحداث خرجوا من السجن ، ولا يعرفون أين يجدون صديقاً ، ويواصل عمله بانتقاء بنائين صغار بعداء من أسرهم . إن الصبيان " المرشدين المعرضين للخطر " ظلوا نواة هذا المصّي الذي بقيت أبوابه مفتوحة دائماً أبداً لجميع الصبيان . من الواضح أن دون بوسكو اضطرّ الى أن يطالب صبيانه بحدّ أدنى من حسن الاستعداد والتعاون ، بيد أنّ دون بوسكو لم يصرف نظره عنهم قط ، بل ثابر على كسبهم واحداً أو حاول ، فنجح حيناً وأخفق آخر .

حادث شنق في ألسندرية

في السنة ١٨٤٦ حُكّم بالموت على شابّ في سنّ الثانية والعشرين ، أصبح صديقاً لدون بوسكو في السجن وحُكّم على أبيه أيضاً في الوقت نفسه . كان ينتظر تنفيذ الحكم في ألسندرية ولما ذهب دون بوسكو مُكتئباً إلى الشاب ، أخذ الشاب يبكي وطلب إلى دون بوسكو أن يرافقه في رحلته الاخيرة ، فشعر بالعجز ولم يقوَ على أن يعده بذلك .
وسار رجال الشرطة بالمحكوم عليهما .

وكان على الأب كفافسو أن يلحق بهما في الحافلة البريدية لكي يسعفهما في الساعات

الاخيرة ، فما ان علم أنّ دون بوسكو رفض ، حتى دعاه وصاح به :

- ألا ترى أن في ذلك قساوة ؟ تهيأ فسنركب القطار معاً الى ألسندرية .
- لن أستطيع أبداً تحمّل ذلك المنظر .
- عجل ، لا ندع القطار ينتظرنا .

وصلا الى ألسندرية عند المساء ، قبل يوم تنفيذ الحكم . فلما رأى الشاب دون بوسكو يدخل زنزانه ، الأقى بذراعه حول عنقه ، واسترسل في الشهيق فبكى هو أيضاً ، وصرفا الليلة الأخيرة ، في الصلاة والتحدث إلى الله . وفي الساعة الثانية من الصباح منحه حلّ خطايا ، وأقام القداس

من أجله في الزنزانه ، وشكرا معاً .

دقّ جرس الكاتدرائية دقة الموت وفُتح باب الزنزانه ، ودخل رجال الدرك ، ومعهم الجلاّد

فجثا على ركبته كما تقضي العادة ليستغفر المحكوم عليه بالموت . ثم رُبطت يدا الشاب ، ولقّت عنقه بالحبل .

وبعد بضع دقائق خرجت من الباب الكبير للسجن ، عربية المحكوم عليه ، وبجانبه دون بوسكو ، وتبعتهما عربية فيها أبو الشاب ، يُساعده الأب كافاسو ، وكان الجمع يزدحم في الشوارع صامتاً .

فلما ظهرت المنصة عن بعد ، والمشائق منصوبة عليها ، امتقع لون دون بوسكو ثم أغمي عليه . وكان الاب كافاسو يراقبه ، فتدخل بسرعة ليقف العربتين ويُنزله .

وصل الموكب المفجع إلى المنصة ، وأنفذ الحكم . فلما أفاق دون بوسكو من إغمائه ، كان كل شيء قد تمّ ، فبقي شديد الخجل وتمتم للاب كافاسو :

- اني آسف على هذا الشاب ، فقد كان يثق بي ثقة عظيمة .

- لقد فعلتَ ما استطعت وأما الأمور فدعها لله .

اذار (مارس) ١٨٤٦ . جاء الى دون بوسكو الأب موريتا (Moretta) وهو كاهن صالح .

انه يمسك بيده رزمة من الرسائل .

كتب دون بوسكو : " ان الجيران ، وقد أرهقتهم ضجة في ذهابهم وإيابهم أعلنوا

أنهم سيذهبون جميعاً إذا لم تتوقف اجتماعاتنا لوقتها " .

رغب في ان يقاوم . أليكون أن ما من أحد يستطيع تحمّل الأحداث ؟ الم يكن هؤلاء الكهول

أحداثاً أيضاً ؟ وضع آخر الأمر يده على كتف صديقه الأب موريتا وقال :

- دع عنك القلق ، اننا ذاهبون .

لا يدري إلى اين يذهب ، ولكن الربيع مقبل ، ويا لحسن الطالع ، فلا حاجة بهم إلى

ملجأ .

أفّح دون بوسكو في استنّجار مرّج حوله سّياج في مكان غير بعيد من بيت موريتّا . كان يكفي للذهاب اليه السير خمسين خطوة .

عندما يمّشي المرء اليوم في الشارع السيدة معونة المسيحيين الى اليمين ، فانه يرى قبل ان يجتاز شارع تشينيا (Cigna) مجموعة ضخمة من البيوت .

كان مرّج فيليبّي (Filippi) في ذلك المكان وفي وسطه ما هو أشبه بكوخ كبير فكانوا يرتّبون فيه ادوات اللعب . وكان كلّ يوم أحد ثلاثمائة من الصبيان يطاردون بعضهم بعضا حوله ويلعبون على هواهم . وكان دون بوسكو يجلس في زاوية الى مقعد ويستمع الى الاعترفات . في نحو الساعة العاشرة كان يدقّ الطبل ، فيصطف الأحداث صفوفاً فيدوي البوق ، فيذهبون إلى كنيسة سيّدة التعزية أو إلى الكبّوشيين فيقيم دون بوسكو القدّاس ، ويوزع القربان المقدّس ثم يتناولون طعام الإفطار .

انضمّ صبيّ معاون بّاء اسمه بولس ، منذ أول وصوله من بلده ، إلى جماعة الصبيان الذاهبين إلى جبل الكبّوشيين ، وقد روى :

" أقيم القدّاس فتناول كثير منهم القربان المقدس ، ثم ذهبوا جميعاً الى ساحة الدير لطعام الافطار . رأني دون بوسكو فدنا مني وقال :

- ما اسمك ؟
- باولينو (Paolino)
- هل فطرت ؟
- كلا يا سيدي ، لأنني لم اعترف ولم أتناول القربان المقدّس .
- ولكن لا حاجة إلى الاعتراف والتناول لكي تفطر .
- ماذا يجب ؟
- أن يكون لك شهية للطعام .

فسار بي إلى الفقة وأعطاني ملء يديه خبزاً وثماراً ، ثم نزلتُ معه ولعبتُ في المرّج حتى الليل . منذ ذلك الحين لم أترك المصلّى طوال عدة سنوات ، ولا دون بوسكو العزيز الذي صنع الي

خيراً عظيماً " .

ذات مساء بينما الصبيان يلعبون رأى دون بوسكو وراء السياج صبيّاً في نحو الخامسة عشرة ،

فدعاه :

- أدخُل . من أين جئت ؟ ما أسمك ؟

لم يجب الصبيّ .

- ما بك أنتَ مريض ؟

فتردّد ثم فتح فاه وقال الكلمة حسب :

- انا جائع .

الفقة فارغة . أرسل دون بوسكو من يأتي بخبز من أسرة قريبة وتَرَكَ الصبيّ يأكل ناعم

البال . ثم شرع الصبيّ في التكلم كأنه يريد أن يزيل عبءاً عن قلبه :

- إني سرّاج ، ولكن الذي أعمل عنده صرفني لأنني لا أجيد العمل . بقيت أسرتي في

البلد . في هذه الليلة نمتُ على درجات الكاتدرائية ، وفي هذا الصباح أردتُ أن أسرق لأنني كنتُ

جائعاً . ولكنني خفت . حاولتُ أن أطلب الصدقة ولكن قيل لي : " صحتك حسنة وأنتَ قوي البنية

فاذهب فاعمل " ، ثم سمعت صبيّاناً يصيحون هنا فدنوت .

- اسمع ، انا أعنى بك في هذا المساء وهذه الليلة . سنذهب غداً الى ربّ عمل صالح ،

وسترى أنه يستأجرك واذا اردتَ أن تعود الى هنا أيام العيد كنتُ مسروراً .

- سأعود راغباً .

في أشهر الاقامة في مرج فيليبيّ تحوّلت الاشاعات الغريبة التي تنتشر في شأن دون بوسكو الى

إنذار بثلاثة أخطار : مقاومة السلطة المدنية ، واليقين بأن دون بوسكو مجنون (فتركه لذلك

معاونوه) وتوقُّع ايقاف كلّ شيء على أثر عدم تجديد أجار مرج فيليبي .

المركز والحرس

كانت تلك السنوات سنوات ثورة ، ودخول ثلاثمائة من الأحداث باب المدينة صفوفاً

منتظمة على صوت البوق والطبل يسبّب قلقاً لمدير الشرطة . كتب الأب لموان : " لم تكن المسألة

مسألة أولاد فحسب بل مسألة شبّان طوال القامة أقوياء ، أصحاب جرأة لا يتورّعون من حمل

سكين لا يفارقهم " .

فاستدعى دون بوسكو المركز ميشيل دي كافور أبو كميل وغوستاف ومحافظ المدينة ومدير

الشرطة أيضاً فابتدأ الحوار على نحو ديبلوماسي ، ثم تُوبع بالتهديد العنيف . أدرك دون بوسكو أنهم يفرضون عليه بغتة أن يجعل حداً لعدد أحداثه ويتجنّب إدخالهم المدينة صفوفاً ، ويصرف الأكبر سناً ، لانهم أشدّهم خطراً ، فرفض ، فأخذ كافور يصيح :

- ما لك تهتم بهؤلاء الرعا . دعهم في بيوتهم . لاتحمل هذا العبء ، وإلا فإنّ حالتكم كلّم ستسوء .

فأجاب دون بوسكو بحزم :

- إني أعلم صبياناً مساكين التعليم الديني ، ولا يمكن أن يسيء ذلك الامر الى أحد ، فضلاً عن اني اقوم بكلّ شيء بإذن من رئيس الأساقفة .

- أيعرف رئيس الاساقفة هذه الاشياء كلها ؟ عظيم . أمّا والحالة هذه ، فأنا ذاهب

لأحدّث فرانسوني (Fransoni) وسيكون عليه أن يُنهي جميع هذه الحماقات .

لم يُنه المطران فرانسوني شيئاً قطّ بل دافع عن دون بوسكو .

ومن ذلك اليوم أخذ حرس الشرطة يطوفون على حدود المرج الذي يلعب فيه الصبيان . لم

يعبأ دون بوسكو بالأمر ، ولكنّه أخذ يعيش وهو في قلق شديد . يكفي أن يرتكب أصغر مخالفة

فيُقتضى على مصلاه . إن كافور قوة عظيمة .

أثرى دون بوسكو مجنوناً ؟

إنّ دون بوسكو نفسه ، على غير قصد منه ، تسبّب في ما دعا الى الاشاعة أنّه قد جنّ . أراد

أن يشجّع صبيانه لدى نقلهم من مقبرة الى طاحون ، ومن بيت متهدم الى مرج ، فأخذ يروي لهم أحلامه .

تكلّم على مصلى واسع مهيب وكنائس ومدارس ومعامل والاف من الصبيان ، وكهنة

يتفرّغون لخدمتهم . ان ذلك كلّه لا يوافق الحقيقة كما هي وما تتصف به من البؤس كلّ يوم .

ان الصبيان وحدهم يصلحون لأن يحملوا ، وأعينهم مفتوحة وهم يؤمنون بدون بوسكو .

كرّروا في البيت وفي أماكن العمل ما رواه لهم فلا عجب إذا استنتج جمهور الناس : " مسكين ! لقد

أصبح ذلك عنده هوساً . إن الحالة في وسط هذه الضوضاء المستمرّة كلها ستنتهي به إلى مستشفى

المجانين " .

لم يكن الامر كلاماً خبيثاً أطلقه في الهواء بعضهم بل رأي شائع . ذكر ميشيل روا :

" خدمتُ القديس في مصنع السلاح ، وكنتُ أستعد للذهاب إذ سألني المرشد : " إلى أين

تذهب ؟ " . " الى دون بوسكو ، هذا اليوم يوم الأحد " . " ألا تعلم ؟ إنّه مريض ولا يشفى من

مرضه إلا بجهد " . فاصاب الخبر سويداء قلبي وأحزني حزناً لا يوصف . لو علمت أن أبي مريض لما أحزني ذلك حزناً أشد منه . أسرعتُ إلى المصلى فذهلتُ اذ وجدت دون بوسكو مبتسماً شأنه في سائر اللقاءات . " بلغ من شغفه بأحداثه أنه جن " : كان ذلك المرض موضوع الحديث حينذاك في تورينو " .

فحاول الأب بوريل صديقه ومعاونه الذي يُحبّه كأخ له أن يرده عن رواية أحلامه قال :

- إنك تتكلم على كنيسةٍ وبيتٍ وحديقةٍ من أجل الألعاب ولكن أين هذه الأشياء ؟

تمتم دون بوسكو :

- لا أدري ، ولكنها موجودة لأنني أراها .

حاول ذات يوم الأب بوريل أن يجعله " يتعقل " وهو في غرفته ولكن من غير جدوى ، فطفق

يشهق وخرج وهو يقول : " يا صديقي المسكين دون بوسكو ! لقد هلك حقا " .

يبدو أن دار المطرانية انتدبت مراقباً لكي يطلع على الدرجة التي وصل اليها اختلال عقل

دون بوسكو . واتفق اثنان من اصدقائه الصدوقين ، هما الأب فنسان بونزاتي (Ponzati) والأب

لويس ناسي (Nasi) من جهتهما على أن ينتزعه من هذا المأزق المؤلم .

والرّاجح أنهما أعدّا ما يلزم لفحص طبيّ جيّد في مستشفى الأمراض النفسانية حيث يتسنى

له أن يتلقّى المعالجة اللازمة (وكانت حالة الطبّ في ذلك الوقت كما هي اليوم في بعض القرى

النائية من العالم الثالث) .

كان دون بوسكو ذات مساء يقوم بالتعليم الدينيّ إذ وصلت عربية مغلقة إغلاقاً مُحكماً ، فنزل

منها الأب بونزاتي والأب ناسي ودعّواه الى مرافقتهم الى نزهة .

- أنت متعب فلأن تستنشق الهواء قليلاً سيكون مفيداً لك .

- أقبل بطيب خاطر . أخذ قبعتي وأتبعكما .

فتفتح الباب احد الصّديقين وقال له :

- اصعد .

ولكنّ دون بوسكو أحسّ بالفخ فقال :

- بعدكما ، شكراً .

فألح الزائرون عليه ثم أبيا إفساد الخطة فرضيا بالصعود قلبه . فما إن صارا في داخل العربية

حتى أغلق دون بوسكو الباب بحركة سريعة وأمر الحوذي :

- إلى مستشفى المجانين ! اسرع ! انهما مُنتظران هناك .

دار المجانين او مستشفى الأمراض النفسانية غير بعيدة . كان الممرضون ينتظرون كاهناً

مريضاً فرأوا كاهنين قادمين . فاضطّر المرشدُ إلى التدخل ليُنقذ التاسعين .

كانت السخرية شديدة الوطأة ، فإذا أمعن النظر فيها تبين أنّ ما فعل دون بوسكو أشدّ مما فعل صديقه . وقد استاء منها عندئذ الأب بونزاتي والأب ناسي غاية الاستياء . ثم عادا بعدئذ صديقين صدوقين لدون بوسكو ، ولا سيّما الأب ناسي الذي صار باعنا للنشاط الموسيقي في المصلّى .

غير أم جميع الناس في أثناء ذلك تخلّوا من دون بوسكو ، فكتب بلهجة الأسي : " كان جميع الناس يهربون مني ، وتركني معاوني وحدي بين أربعمئة صبي " .

تلك اللحظة التي فيها تتولى عن المرء " سلامة الرأي " وتتهار . فدون بوسكو إما قدّيس وإما مجنون ، ومن العسير الجزم بين الأمرين فهذه اللحظة أشبه باللمحة التي فيها ألقى فرنسيس الأسيزي ثيابه عند قدمي أبيه ، وذهب وهو يقول " الآن يحق لي أن أقول : أبانا الذي في السماوات " ، وهي أشبه باللمحة التي فيها ألقى كوتولنغو آخر فلوسه وقال ، وقد سُري عنه : " سنرى الآن هل " البيت الصغير " هو مشروع أم مشروع الله " . من يسعه أن يعتب على أناس نفوسهم صغيرة ، وهمهم الحذر والتعقل ، إذا ظنوا فرنسيس وكوتولنغو وبوسكو مجانين ؟

إنّ الحالة غريبة جداً حتى إنها بلغت بدون بوسكو نفسه الى الارتياب في أحلامه . روى دون بوسكو في محاضرة ألقاها في ١٠ أيار (مايو) ١٨٦٤ وأوجزها الشماس الانجيلي بونيّتي (Bonetti) لوقتته ، أنّه رأى في الحلم في تلك الايام ، مسكناً قريباً من المرج سيكون له ولأحداثه . وفي صباح الغد قال للأب بوريل من غير أن يُعلّق على قوله بشيء : " الآن حصلنا على البيت " فدعاه اللاهوتي إلى الذهاب لمشاهدة ذلك البيت . فذهبا اليه : فاذا هو مسكن لنساء يدعو سلوكهن إلى الريبة ، فحزي دون بوسكو وصاح : " هذه وساوس شيطانية والحالة هذه " خجل من نفسه ولكن الحلم نفسه عاوده مرّتين ، فصلّى دون بوسكو باكياً : " اللهم أئرني وأخرجني من هذا الالتباس " . وعاوده الحلم مرة رابعة فقال له صوت : " لا تخف . إن الله على كل شيء قدير " .

الاحتضار في المرج

في تلك الايام وصل الى المرج أصحابه (أترى التركيز قد أرسلهم ؟) فانحنوا على قطع الأرض التي داستها بلا شفقة ثمانمئة من القباقيب والجزمات ، فدعوا دون بوسكو وقالوا له :

- ما هذا : أنّ المرج يُحوّل الى صحراء !

- إن مرجنا سيُصبح على هذا المنوال طريقاً من الأرض المعبّدة .
- عذرا أيها الأب العزيز ، ولكن لا يمكن أن تدوم الحالة هذه ، اننا نَعْفُيك من دفع الأجرة

ولكننا مضطرون إلى صرفك .

كانت المهلة خمسة عشر يوماً لكي يرحل عن المكان .

كان دون بوسكو أشبه بمن صُقع . فبعد ما نزل به من الهوان في الأيام الماضية جاءه همّ

الحصول لوقته على مرج آخر ، ولكنه لم يجد هذه المرة شيئاً . فمن يؤجر مجنوناً ؟

كان الخامس من نيسان (ابريل) ١٨٤٦ وهو يومه الاخير في مرج فيليبّي ، من أشد أيام

حياته مرارة .

ذهب والصبيان إلى سيدة الحقول فتكلم في أثناء القداس ، ولكنه لم يطلب لقلبه أن يأتي

بالتكات المفرحة ، ولم يذكر القنبيط الذي يعاد غرسه . نظر اليهم كما ينظر المرء الى العصفير التي

يريد امرؤ خراب عشها ، ودعاهم الى الاستجداد بالسيدة : إنهم على كل حال في يديها .

حاول عند الظهر محاولة أخيرة لدى الاخوة فيليبّي ، فلم يحصل على شيء . أترأه يضطرّ الى

توديع صبيانه ؟

كتب : " في مساء ذلك اليوم كنت أنظر مُعجَباً الى جمهور الصبيان الذين يلعبون . كنت

وحدي منهوكا وصحتي غير حسنة فاعتزلت وأخذت أسير ذهاباً وإياباً وحدي ، وأنا لا أقوى على

حبس دموعي . ناديتُ : اللهم قل لي ما يجب علي فعله " .

الجذر المغمور الذي تفرّع منه كل شيء

ففي تلك الايام وصل لا رئيس للملائكة بل رجل قصير القامة يُتأتى ، اسمه بانكرازيو

سُوافي (Pancrazio Soave) وهو صانع صودا ومسحوق للغسيل . سأل دون بوسكو :

- أنت تبحث عن مكان لتقيم معملاً ؟

- لا معملاً ، بل مصلى (١) .

- لا أرى الفرق بين الشيين ولكن على كل حال ، المكان موجود ، تعال فانظره . إنّه

للسيد فرنسيس بيناردي (Pinardi) وهو رجل كريم الخلق .

اجتاز دون بوسكو ، وهو لا يزال في البقعة التي يقال لها فالدوگو ، مسافة قدرها نحو مائتي

(١) الكلمتان في الايطالية متشابهتان في اللفظ : (laboratorio , oratorio) (حاشية من المترجم) .

متر ، فوجد نفسه تجاه " بيت حقير له طبقة واحدة وسلّم وشرفة من الخشب المسوس وحوله جنينة

ومروج وحقول " ، وعلى بعد قليل منه ، "البيت الداعي الى الريبة : الذي رآه في حلمه .

" أردتُ أن أرتقي السلّم ولكن بيناردي وسُوافي قالوا لي : لا تفعل ، إن المكان الذي يعرض عليك

هو خلف . كان ذلك المكان مستودعاً " .

إن الحُجاج الذين يجتازون الساحة بجانب كنيسة السيِّدة معونة المسيحيين لا يزالون يرونه في الآخر ، في زاوية من الأبنية : إنه الجذع المغمور المتواضع الذي تفرَّع منه مشروع دون بوسكو الجبَّار . كُتِبَ باحرف ضخمة " معبد بيناردي " لأنه اليوم معبد صغير غُني بالزينة والرسوم الجدارية كما أعاد بناءه الآباء السالسيون السنة ١٩٢٩ .

لمّا وصل إليه دون بوسكو في ذلك اليوم الخامس من نيسان (ابريل) ١٨٤٦ لم يكن سوى مستودع حقير ، منخفض يستند من جهة الشمال الى بيت بناردي ، وحوله جدار صغير يجعل منه ما يشبه الكوخ ، وكان قد بُني قبل قليل ، واستعمله صانع قَبَعَاتٍ معملاً له ثم استعملته الغسّالات مكاناً للغسيل ، لأنّ ساقية تجري بالقرب منه ثم تصبُّ في نهر دوار على بعد قليل . وطول المستودع ١٥ متراً وعرضه ستة وفي جانبيه غرفتان صغيرتان .

فكاد دون بوسكو ان يردَّ العرض قال :

- إنه منخفض جدّاً ، لا يسعني أن استعمله .

فقال بيناردي :

- سأصلحه كما تريد ، وأحفر وأجعل له درجات ، وأبدل خشب الأرض ولكني أريد أن

تقيم فيه معملك .

كرّر الأب بوسكو قوله :

- لا معملاً بل مصلى ، معبداً صغيراً لأجمع فيه الصبيان .

إن التباس الكلمتين على بيناردي أمر يسهل فهمه : كانوا في ذلك الزمان يبنون بالقرب من

الأنهار كثيراً من المعامل والمصانع . تردّد بيناردي لحظة ثم صاح بغتة :

- معبد ؟ هذا أحسن . إنّي مرّتل فسأتي لأساعدك وسأتي بكرسيين ، واحد لي والآخر

لإمراتي .

لم يجزم دون بوسكو الأمر بعد ، ثم قال :

- إذا وعدتني بأن تخفض الأرض خمسين سنتيمتراً فإنّي أقبل .

أبى استنجاره شهراً شهراً بل دفع ثلاثمائة ليرة (وهي أكثر من نصف معاشه لعمله في

المستشفى الصغير) ومن حقه استعمال المستودع الصغير والأرض الضيقة التي حوله ليلعب

الصبيان هناك .

عاد راكضاً الى جماعة الصبيان فتوسطهم وصاح :

- تشجّعوا يا أبنائي . لقد وجدنا مصلى ! سيكون لنا كنيسة ومدرسة وساحة للقفز

واللعب . يوم الأحد نذهب الى بيت بيناردي .

كان ذلك اليوم أحد الشعانين ، الأحد الذي بعده عيد الفصح ، عيد القيامة

لما دقت الاجراس

وفى فرنسيس بيناردي بوعدده فجاء البناءون من غير إبطاء فحفروا وثبتوا الجدران والسقف ، وجدّد النّجارون الأرض وجعلوا فوقها خشباً . يبدو الأمر مستحيلاً في مدة ستة أيام ولكن لا ننسى أنّ نهار العمل كان حينذاك من اثنتي عشرة ساعة الى أربعة عشرة . يوم السبت كان البناء قد جُدد .

وضع دون بوسكو على المذبح الشمعدانات والقنديل وصورة متواضعة لمار فرنسيس السالسي .

كان يوم الثاني عشر من نيسان (أبريل) يوماً عظيماً فدّقت أجراس الكنائس في المدينة كلّها دقاً طويلاً ، ولكن لم يكن من جرس بالقرب من مستودع بيناردي إنما هي مودة دون بوسكو التي دعت صبيانه الى منخفض فالدوگو .

وصلوا إليه موجات متتابعة فملأوا المعبد الصغير والأرض الضيقة والمروج المجاورة . حضروا بصمت وخشوع بركة المعبد ، وقدّاس دون بوسكو ، وقد أقامه لوقته بعد البركة ثم التقطوا الرغيف الصغير وهو يُلقى اليهم في الهواء ، وتفرقوا في المرح وتفجّر الفرح ، الفرح بأنهم حصلوا آخر الامر على بيت " كله لهم " .

ذكر دون بوسكو في خمس صفحات من ذكرياته " الدّوام النموذجي " الذي عمل به طوال سنين كثيرة في مصلى فالدوگو ، وهو دوام فيه إفراط ، هذا أقل ما يمكن القول فيه . أعتقد أنّ قليلا من الناس يجروون اليوم على أن يعرضوا مثل ذلك الدوام على صبيان يواظبون على مصلى أيام الأحاد .

" كانت الكنيسة تُفتح بكرة فتتبدئ الاعترافات حتّى القدّاس ، وموعده في الساعة الثامنة ، ويتأخر أحيانا الى الساعة التاسعة لخدمة جميع الذين كانوا يرغبون في الاعتراف " .

القداس ، فتناول القربان ، ثم تفسير الانجيل وقد بدّل به بعد بضعة ايام من أيام الأحد رواية متسلسلة للتاريخ المقدس . " وبعد الوعظ يأتيّ الدرس حتى الظهر " .

كان دون بوسكو يمنح نفسه ساعة فحسب ليأكل ويستريح . في الساعة الواحدة بعد الظهر تتبدئ الفرصة : كرى الخشب والطوّالات ، والبندقيات والسيوف الخشب ، وأدوات الرياضة البدنيّة . في الساعة الثانية والنصف التعليم الدينيّ ثم تلاوة السبحة ، وقد استمرّت الى الحين الذي فيه صار بوسع الأحداث أن يرتلوا صلاة الغروب ، وكان يتبعها إرشاد وجيز ، وترتيل الطلبات والبركة بالقربان المقدّس .

"وعند الخروج من الكنيسة وقت للتصرف بحرية " فكان بعضهم يتابع درس التعليم الديني ، وغيرهم يتمرّنون على الغناء أو يقرأون ولكن معظمهم يلعبون ويركضون ويقفزون حتى المساء . " كنت أنتهز الفرصة السانحة في أثناء هذه الألعاب الصاخبة للاقتراب من كلّ صبيّ ، فأهمس في أذن الأول أن يُحسّن طاعته ، وفي أذن الآخر أن يكون أكثر إقبالا على التعليم الديني ، وللثالث أنصح أن يأتيّ فيعترف وهلمّ جراً " .

إنه كاهن

كان دون بوسكو يلعب بل يقوم بالألعاب البهلوان أحيانا ، وقد ذكر الأمر صراحة ، ولكنه

كان على الخصوص كاهناً ، وهو يعرف عند الضرورة أن يكون حازماً بلطف . والبرهان على ذلك هذا الحدث من أحداث كثيرة .

دعا صبيّاً عدّة مرّات إلى تناول القربان المقدّس فوعد كلّ مرة ولكنّه لم يفِ بوعدّه . وكان بعد الظهر من بعض الأيام يلعب بنشاط كبير ، فأوقفه دون بوسكو وطلب إليه أن يصحبه على الموهف لأمر ما .

اراد أن يأتي كما هو ، ليس عليه سوى قميصه ، فقلت له : البس سترتك فتعال ، فلما وصلنا الى الموهف قلت له :

- أجبني على هذا المسجد .
 - ماذا تريد ؟
 - أريد ان أستمع إلى اعترافك .
 - لم استعدّ له .
 - أعرف ذلك . استعدّ ثم أستمع إلى اعترافك .
 - احسنت إذا ارغمتني كما فعلت ، ولولا ذلك لما عزمْتُ عليه قط .
- وبينما أتلو صلاة الفرض ، استعدّ قليلاً ثم اعترف وشكر ، ومن ذلك الحين ظلّ مواظباً على القيام بواجباته الدنيّة " .

الوداع على الدورة

عندما يُقبل الليل ، يعود جميع أهل المصلّى إلى المعبد من أجل صلوات المساء ، وهي تنتهي بنشيد ثم يُشاهد أمام المستودع منظر مؤثر يتصف بالفرح .

كتب دون بوسكو : " عند الخروج من الكنيسة كان كلّ واحد يقول : الى اللقاء ، من غير أن يفارق أصحابه . كنت أقول مراراً : اذهبوا الى بيوتكم ، فالليل مُقبل ووالدوكم ينتظرونكم . فكان كلامي يذهب أدراج الرياح . فكان عليّ ان أدعهم يتجمعون وأن يشابك سنّة من أقواهم بنية بين أذرعهم ، ليقيموا شبه مقعد أجلس عليه كأنه عرش ، طوعاً أو كرهاً ، ثم كانوا يصطقون عدة صفوف وهم يحملون دون بوسكو على مقعد أذرعهم ويتقدّمون وهم يُغنون ويضحكون ويضحون حتى يصلوا الى الدورة ، (عند تلاقي جادة كورسو ريجينا التي كان يقال لها جادة القديس مكسيموس وشوارع اخرى) . وكانوا ينشدون هناك أيضاً بعض الأناشيد ثم يسود سكوت تام فيمكنني ان اتمنى لهم جميعاً ليلة سعيدة . فكانوا يجيبون بما بقي لهم من صوتهم : ليلة سعيدة ! فكنت أنزل من عرشي ، فيذهب كلّ منهم إلى أسرته ، في حين أنّ أناساً من أكبرهم سنّاً يرافقونني الى بيتي ، وانا نصف ميت من التعب " .

همس كثير من الصبيان في أذنيه : " تعال اليّ ، دون بوسكو ، لا تدعني وحدي خلال

الاسبوع ". فكان البنائون في ورشات البناء في تورينو يشاهدون منذ يوم الاثنين منظرًا غريبًا :
كاهن يشمر ثوبه ، ويتسلق السقالات ، بين أكياس الكلس وأكداس القرميد . كان دون بوسكو
يقوم بخدمته في المستشفى الصغير والسجون ومدارس المدينة ، ثم يصعد الى فوق ليلقى صبيانه .
كان قدومه عيداً ، فالأسرة التي يعودون اليها عند المساء ليست في أغلب الاحيان أسرة أبيهم
وأهم ، وقد لبثا في بلدهما ، بل أسرة عمّهم أو أحد أنسبائهم أو أحد مواطنيهم ، وأحياناً أسرة
رب العمل وقد سلّمهم والدوهم اليها . لا يشعر الصبيان بكثير من العطف ، فاذا صادفوا صديقاً
صدوقاً يُحبّهم ويساعدهم كان ذلك عندهم عيداً .
ولما كان دون بوسكو يحبّهم ، فإنّه يتوقف لكي يتبادل وربّ العمل بعض الكلمات . إنه
يريد ان يعرف أجرتهم ووقت استراحتهم ، والفرصة التي تُتاح لهم لكي يقدّسوا الأعياد الدينية .
كان من أول الذين طالبوا بعقود عمل قانونية ، لا جل هؤلاء الصبيان وسهر على أن يحافظ عليها
أربابُ العمل .
كان يزور أصدقاءه الصغار ويحصل على أصدقاء غيرهم . شهد الأب روا : " كان يزور
المعامل التي كان فيها كثير من الأجراء ، ويدعوهم كلهم الى مصلاه . وكان يخصّ باهتمامه
الصبيان المهاجرين من بلدهم " .

دون بوسكو يبصق الدم

دون بوسكو إنسان ، ولقوى الانسان حدود . أخذت صحته ، بعد الإرهاق العصبي الذي
أصابه في الربيع ، تتدهور تتدهوراً خطيراً منذ أول أيام اشتداد الحرّ .
كانت المركيزة بارولو تُقدّره كثيراً فدعته في أول أيار (مايو) ١٨٤٦ ، وكان الأب بوريل
حاضراً ، فوضعت أمامه قدرًا من المال عظيمًا ، خمسة آلاف ليرة أي معاش ثماني سنوات وقالت له
بلهجة من يأمر :

- الآن خذ هذا المال واذهب حيث تشاء للراحة التامة .

فأجاب دون بوسكو :

- شكراً لك ، إنك سخية جداً ، ولكني أصير كاهناً لأعنى بصحتي .

- ولا لتقتل نفسك . بلغني أنضك تبصق الدم . إن رئتيك تتمزقان شذّر مذر . كم من

الوقت تستطيع أن تبقى على هذه الحال ؟ كُفّ عن الذهاب الى السجون ، والى بيت موتولنغو ،

وقبل كل شيء اترك هؤلاء الصبيان مدة من الزمن . إن الأب بوريل سيُعنى بهم .

رأى دون بوسكو في هذه الوصايا كلها محاولة من المحاولات الكثيرة لتتحيته عن أحداثه ،

فردّ رداً خشناً :

- هذا أمر لن أَرْضَى به .

فَعِيل صبر المَرَكِيزَة فقالت :

- إذا كُنْتَ تَأبَى للكلام اللطيف ، فسأقول كلاماً قاسياً . إنك تحتاج إلى

المعاشات التي أعطيك لكي تتابع سيرك . أصغ اصغاءً حسناً الى ما أقول لك : إما أن تتخلى عن المصلى ، وتذهب فتستريح ، أو أصرفك .

- إني أوافق . يَسْعَك تَجْدِي كثيراً من الكهنة تجعلينهم مكاني ، ولكن ليس لصبياني مَنْ يُعْنَى بهم ، فلا يسعني ان أتركهم .

لفظ دون بوسكو كلمات فيها بطولة ، ولكنه كان على خطأ . يبدو أن المَرَكِيزَة تُعَدِّبُه ، والحق هو أنها على صواب وسُنْبُدِي الأشهر القابلة ذلك . دون بوسكو كاهن قَدَّيس ، ولكنه شابٌ في الواحدة والثلاثين من عمره وعنيد . لم يدرك بعدُ حَدَّ الاعتدال . أظهرت المَرَكِيزَة ، وكانت في الحادية والستين ، أنها أكثر تعقلاً منه . وهي أيضا امرأة قَدَّيسة . بعد هذه المنازعة الشديدة كما جاء في شهادة الأب جياكوملي (Giacomelli) " جئت أمام دون بوسكو وطلبت بركته " ، وأضاف الأب جياكوملي : " لم تكن تفعل مثل ذلك معي " .

فكُتِبَت رسالة وسَلَمْتها لوقتها إلى الأب بوريل ، ومن الواضح أنها نَوَّت أن يُبَلِّغها دون

بوسكو ، وقد أوجزت وجهة نظرها على النحو هذا :

" ١ . إني أوافق وأثني على مشروع تعليم الصبيان (وان كنت أرى أنه غير مستحسن في جوار مشروعاتي في سبيل فتيات معرّضات للخطر الأخلاقي .

٢ . لما كنتُ في ضميري أنّ صَدَر دون بوسكو يحتاج الى راحة تامة ، فاني سَأَسْتَمِرُّ في ان أدفع له معاشاً صغيراً اذا ابتعد عن تورينو الوقت اللازم ليسترجع صحته ، وهو أمر أرغب فيه من صميم قلبي لاني أقدّره تقديراً عظيماً " .

إذا لم يُطع دون بوسكو فستجد من يقوم مقامه مرشدا للمستشفى الصغير . والى ان يتم

الأمر ، أوصلت إليه مع ذلك ، بطرق منحرفة ن هبة قدرها ثمانمائة ليرة .

بصق دون بوسكو الدم على نحو يدعو الى القلق . ويُرَجَّح كثيراً أن رنَّيْه أُصِيبنا بترشّح يعود

إلى السلّ . وكان مع ذلك يفكر في المستقبل . في الخامس من حزيران (يونيو) ١٨٤٦ استأجر ثلاث غرف في طبقة بيت بيناردي ، كلها يخمس عشرة ليرة في الشهر .

وفي ذلك الحين عاد المَرَكِيز دي كافور إلى مضايقة المصلّى ، فأرسل كلّ يوم أحد سِتَّة من رجال

الشرطة ليراقبوا دون بوسكو . قال دون بوسكو للأب بربيرس السنة ١٨٧٧ : " آسف على أني لم

أحصل على آلة تصوير . ما كان أجمل المنظر لو تيسر لنا أن نرى مرة اخرى هؤلاء المئات من

الاحداث المقبلين عليّ بسمعهم ، وستّة من الحرس الوطنيّ في زيّهم ، وأذرعهم متشابكة ، واقفين

اثنين اثنين ، منتصبين كالأوتاد في ثلاثة أماكن من الكنيسة ، يُقبلون هم أيضاً بسمعهم على العظة . كانوا يخدمونني خدمة عظيمة ، وهم يراقبون أحوالي ، وقد أرسلوا إلي هنا ليراقبوني أنا بنفسي . كان هذا أو ذاك يُكفكف دمه . ما كان أجمل ان يُصوّروا وهم جاثون بين الأحداث ، ينتظرون دورهم بالقرب من كرسيّ للاعتراف ، لأن العظات التي ألقيتها كانت من أجلهم أكثر منها لأجل الأحداث : كنت أتكلم على الخطيئة والموت والدينونة وجهنم " .

" يا رب لا تدعه يموت "

أول يوم احد في تموز (يوليو) ١٨٤٦ . قضى دون بوسكو يوماً مُضنياً في المصلّى والحرارة شديدة ، وبينما هو يعود إلى غرفته في الملجأ أُغمي عليه ، فنُقِل إلى سريره : " سعال والتهابات حادةً وبصق دم متواصل " . يُرَجَّح كثيراً أن هذه الكلمات تعني " ذات الجنب تصحبها حمى شديدة ، وبصق دم " وهو التحام اضطرابات عظيمة الخطر في ذلك الزمان ، ولا سيّما عند مريض سبق أنه عانى من بصق الدم .

" بعد بضعة أيام عُدت هالكا " . زُوِدَ بالقربان المقدس ومسحة المرضى فذاع الخبر لوقته في ورشات البنائين الصغار ، وفي ورشات الاحداث العاملين في المحركات : " دون بوسكو يوشك أن يموت " .

وصل كلّ مساء إلى غرفة الملجأ الصغيرة ، حيث يُحتضَر دون بوسكو ، جماعات من الصبيان المساكين ، وقد أخذهم الذعر . إنهم لا يزالون يلبسون ثيابهم التي لوّثها العمل ، ووجوههم بيضاء من الكلس . لم يتناولوا الطعام لكي يركضوا نحو فالدوگو . إنهم يبكون ويصلّون : " يا رب لا تدعه يموت " .

منع الطبيب كلّ زيارة وحظر الممرض (الذي أقامته من غير إبطاء المركيزة عند سرير دون بوسكو) على أيّ كان دخول غرفة الممرض . إن الصبيان لبائسون .

- دعني أنظر اليه على الأقل .

- لن أدعوه إلى الكلام .

- عندي كلمة واحدة فحسب أقولها له .

- لو علم دون بوسكو أنّي هنا فلا شكّ في أنه كان أدخلني .

ظلّ دون بوسكو ثمانية أيام بين الحياة والموت . وفي اثناء تلك الايام الثمانية لم يشرب صبيانٌ يعملون في شمس حارة كالرصاص المصهور ، جرعة من الماء ، لكي ينتزعوا من السماء شفاءه .

تتابع البناؤون ليلَ نهار في معبد سيدة التعزية . كان هناك دائماً واحد منهم جاثياً

أما السيدة؟ إذا أغمض التعبُ الأعين ، بعد اثنتي عشرة ساعة من العمل ، فهم يقاومون النوم لأنه لا ينبغي أن يموت دون بوسكو .

ووعد العذراء مريم أناسٌ منهم ، بما للولاد من سخاء عفوي ، أن يتلوا السبحة طوال حياتهم ، ووعد غيرهم أن يصوموا على الخبز والماء مدة سنة .

أصيب دون بوسكو يوم السبت بأشدَّ نوبة ، فَقَد قوَّتَه وصار أقلُّ جهد يتقياً الدم ، ولما جاء الليل خاف كثير من الناس أن يأتي أجله ، ولكنه لم يأتِ ، بل جرى خلاف ذلك فاتاه التحسّن : تلك هي النعمة التي انتزعها من العذراء هؤلاء الصبيان الذين لا يسعهم أن يبقوا بلا أب .

بعد الظهر من يوم الأحد في آخر تموز (يوليو) اتجه دون بوسكو الى المصلّى ، وهو يتوكأ على عصا ، فطار الصبيان إلى لقائه فاضطره الكبارُ منهم إلى العودة على كرسيّ ، ورفعوه على أكتافهم ، وحملوه حتى الساحة ، حملهم لمن نال الظفر . أصدقاء دون بوسكو يُعَنّون ويبكون وهو أيضاً يبكي .

دخلوا المعبد الصغير ، وشكروا الربّ معاً ، ولما ساد السكوت ، وقد توتّرت الأعصاب ، استطاع دون بوسكو أن يلفظ بعض الكلمات :

- إني مدين لكم بحياتي ، ولكن كونوا على يقين منذ اليوم من إني أبذلها كلّها في سبيلكم . هذه أهم كلمات لفظها دون بوسكو في حياته . إنها " النذر الرسمي " الذي به نذر نفسه للاحداث ، ولهم دون سواهم . وكلماته الأخرى التي هي تنمة لتلك ، قالها وهو على سرير الموت : " قولوا لصبياني إني انتظرهم جميعاً في الفردوس " .

بذل ما كان له في ذلك اليوم من القوى المحدودة جداً ، في التحدث الى الأحداث فرداً فرداً " لكي يبذل أموراً قابلة بالنذور والوعود التي ألزم كثير منهم أنفسهم بها ، من غير التروّي الكافي لما كنت في خطر الموت " . ذلك عمل غاية في اللطف .

فرض الاطباء على دون بوسكو نقاهة طويلة وراحة تامّة ، فصعد الى البكي الى بين أخويه وامّه ، ولكن وعد صبيانه فقال :

- عندما تتساقط الاوراق أكون هنا مرّةً أخرى بينكم .

" المحفظة أو الحياة "

سافر ركباً حماراً وتوقف في كاستلنوفو " لأنّ الحمار هزّه كثيراً " ، ووصل عند المساء الى البكي .

دوت ساحة الدار بضجة الفرحة التي أحدثها أولاد أخويه ذكوراً وإناثاً ، وهم يرحّبون به .

بنى انطون لنفسه بيتاً صغيراً ازاء البيت الذي سكنه لما كانوا صغاراً . رُزق خمسة أولاد : فرنسيس في الرابعة عشرة ، ومرغريتا في الثانية عشرة ، وتريز في التاسعة ، ويوحنا في السادسة ، وفرانسواز وهي طفلة كلها حياة تناهز الثالثة . وبنى يوسف أيضاً إزاء المسكن الوالدي بيتاً يسكنه وامرأته وماما مرغريتا وأولاده الأربعة : فيلومينا وقد أصبحت الآن في الحادية عشرة ، وروز دومينيكا في الثامنة وفرانسواز في الخامسة ، ولويس الذي لا يزال يستهل في معهده .

أقام دون بوسكو عند يوسف . إن هواء التلال ومودة الام الوادعة والرحلات التي تزداد طولاً عند المساء خلال الكروم حيث بدأ العنب يحمّر ، أعادت إليه الحياة والقوى . كتب حيناً بعد آخر إلى الاب بوريل ليحصل على اخبار صبيانه . شكر " الأب باكيوتّي (Pachioti) والأب بوزيو (Bosio) والأب فولاً (Vola) والأب تريفيروا (Trivero) " الذين يمدّون له يد المساعدة . ذهب في أثناء نزهة في شهر آب (اغسطس) حتى كابريليو (Capriglio) وبينما هو راجع خلال حرج صغير ، سمع صوتاً خشنا يأمره :

- المحفظة أو الحياة !

فأجاب مرعوباً :

- أنا دون بوسكو لا مال عندي .

وتفرّس في الرجل الخارج من العليق ، وهو يلوح بمنجل صغير ، وواصل كلامه بلهجة أخرى :

- كورتيزي (Cortese) أنت تريد قتلي ؟

عرف في الوجه ذي اللحية شاباً صار صديقه في سجون تورينو ، ويذكره الصبي هو أيضاً فودّ لو استطاع ان يتوارى في الارض .

- دون بوسكو اغفر لي ، أنا شقي .

وروى رواية متقطعة ، رواية محزنة ، كثيراً ما يحدث مثلها . خرج من السجن فلم يُقبَل في بيته . " حتى والدتي أدارت لي ظهرها . قالوا لي إنني عار الأسرة " . أما العمل فمن العبث ذكره .

فما إن يعلم الناس أنه سُجن حتى يغلقوا الباب في وجهه . استمع دون بوسكو الى اعترافه قبل أن يصل الى البكي ثم قال له :

- تعال الآن معي ؟

وقدّمه لذويه قال :

- التقيتُ وهذا الصديق القديم ، وسيتناول طعامَ العشاء معنا هذا المساء .

وفي صباح اليوم الثاني أعطاه بعد القدّاس رسالة توصية إلى كاهن وبعض أرباب العمل

الصالحين في تورينو ثم قبله .

تشرين الاول (اكتوبر) ١٨٤٦ . أعدّ دون بوسكو ، وهو ناعم البال ، في أثناء نزهاته الطويلة وحده ، مشروعه للمستقبل القريب . عندما يعود إلى تورينو يذهب فيسكن الغرف التي آجره إياها بيناردي ، وهناك يضيف الذين لا أسرة لهم ، ويتقبل قليلاً منهم كلّ مرة . ولكن المكان غير موافق لكاهن وحده ، ويا لسوء الحظ . فعلى مسافة غير كبيرة من هناك بيت يدعو إلى الريبة : بيت الجمال (Bellezza) ونزل " البستانية " (Giardiniera) حيث يَغني السكيريون حتى نصف الليل فلا بدّ له من أن يسكن معه شخص يصونه من سوء الظن وأحاديث الغيبة التي تنتشر بسرعة .

خطرت أمّه بباله ، ولكن كيف يقول لها ذلك ؟ مرغريتا في سن الثامنة والخمسين . إنها في البگي ملكة . كيف ينتزعها من بيتها وحفدائها وعاداتها اليومية الوداعة ؟ لربّما شعر دون بوسكو بتشجيع لأن الناس يتوقعون قحطاً ينزل بالريف . كان الحصاد سنة ١٨٤٦ رديئاً وكانوا ينتظرون للسنة ١٨٤٧ ما هو أردأ منه .

استنجد ذات مساء بكل شجاعته وقال :

- يا أمي لماذا لا تصحبيني فتصرفي بعض الوقت معي ؟ استأجرتُ ثلاث غرف في فالدوكو وسأوي فيها عن قريب الصبيان المشردين . قلت لي ذات يوم إنك لن تأتييني إذا صرتُ غنياً . وهاءنذا الآن فقير ، مُنقل بالديون . ثم هناك خطر على الكاهن اذا سكن وحده في هذا الحَي . لبنت العجوز تفكر . ذلك عرض لم تتوقعه ، فألحّ دون بوسكو بلطف :

- الا يطلو لك أن تقومي مقامَ الأم لصبياني ؟

فتممّت :

- إذا كنتَ تعتقد أنّ الله يشاء ذلك فأنا قادمة .

غرباء لا شيء عندهم

٣ تشرين الثاني (نوفمبر) يوم الثلاثاء . الأوراق تتساقط بفعل ريح الخريف . ذهب دون

بوسكو الى تورينو وتحت ذراعه كتاب القداس وكتاب الفرض بضغط عليهما . ماما مرغريتا تمشي بجانبه ، وهي تحمل على ذراعها قفّة فيها قليل من الثياب والطعام .

كان دون بوسكو قد بلّغ قرارته قراراته في رسالة كتبها الى الأب بوريل ، وكان الأب القصير قد

أظهر من اللطف ما جعله ينقل من غرفة الملجأ إلى غرف بيت بيناردي الأمتعة القليلة التي يملكها دون بوسكو .

سلك الحاجان الطريق الطويلة مشياً على الاقدام ، فلما وصلا الى الدورة عرفها كاهن صديق لدون بوسكو فدنا منهما لئسّم عليهما فرأهما متعبين ، يعلوهما الغبار فقال :

- ها إنك راجع أيها العزيز دون بوسكو . كيف حالك ؟
 - لقد تعافيتُ ، شكرأ . جئتُ بوالدتي .
 - ولكن لماذا جئتما مشياً على الاقدام ؟
 - لانه تنقصنا هذه - ومررَ لإبهام على السبابة وهو يبتسم .
 - أين تسكنان ؟
 - هنا في بيت بيناردي .
 - ولكن ماذا تعملان لتعيشا من غير دَخل ؟
 - لا أدري ، إنَّ العناية الإلهية ستفكر بالامر .
- فتمتم أخوه في الكهنوت وهو يهزُّ رأسه :
- أنتَ أنتَ دائماً أبداً - ، وأخرج من جيبه ساعة ، وكانت في ذلك الزمان شيئاً نادراً ثميناً ، وقدمها له قائلاً : - وددتُ لو كنتُ غنياً لأساعدك . أفلُ ما بوسعي .
- دخلت مرغريتا قبله مسكنها الجديد : ثلاث غرف صغيرة فارغة تدعو الى الحزن ، فيها سريران وكرسيان وبعض القدور فابتسمت وقالت لابنها :
- في البكي كان شغلي كثيراً كلَّ يوم ، لأرتب الأثاث وألمعه ، وأغسل القدور ، وأما هنا فسيمكنني أن أكون أكثر هدوءاً .
- استراحا ثم أخذا يعملان ناعمي البال . فبينما تصلح ماما مرغريتا شيئاً من الطعام ، علق دون بوسكو صليياً بالحائط ، وصورة للسيدة العذراء ثم هيأ السريرين لليل . وأخذت الأم وابنها يُعنيان معاً وكان يُقال في الأغنية :
- " الويل للعالم اذا ادرك أننا غرباء ، لا شيء عندهم . . . " .
- سمعها صبي اسمه استقان كاستانيو (Castagno) وشاع الخبر بين أحداث فالدوگو :
- " عاد دون بوسكو ! "

كان الأحد القابل الموافق ٨ تشرين الثاني (نوفمبر) ١٨٤٦ يوم عيد كبير . اضطّر دون بوسكو الى القعود على كرسيّ في وسط المرج ، فتحلق الأحداثُ حوله ، فاستمع الى اغانيهم وتهانئهم .

وكان قد ذهب كثير منهم إليه في البغي ، واضطّروه إلى تقديم رجوعه ، وعرضوا عليه الاختيار بين امرين : اما أن تعود إلى فالدوگو وإما أن ننقل المصلّى إلى هنا .
عارض الأب كافاسو رجوعه هذا ، قبل الأوان ، بناء على نصائح الاطباء ، وبلغه رأي رئيس الأساقفة . كتب دون بوسكو : " يؤذن لي بالعودة إلى المصلّى شريطة أن لا أعط سنتين " وأقرّ لوقته : " لم أطع " .

الغرف مضاءة مليئة بالصبيان

كان أوّل شاغل لدون بوسكو العودة الى دروس المساء وتوسيعها : " استأجرتُ غرفة أخرى . نُقيم الدرس في المطبخ وفي غرفة أخرى وفي الموهف والخورس والكنيسة . كان بين التلاميذ صبيانٌ كثيرٍ الطيش يعيثون فساداً أو يقلبون كل شيء رأساً على عقب . وقفتُ بعد بضعة أشهر إلى استئجار غرفتين أخريين " .
ذكر شهود ذلك الزمان : " كان يبتهج المرء عندما يرى عند المساء الغرف مضاءة وهي مليئة بالصبيان والشبان ، واقفين وبيدهم كتاب ، وأمام السبورة ، أو يكتبون على المقاعد ، أو يخطّون حروفاً كبيرة في دفاترهم وهم قاعدون أرضاً " .

جاء الأب كاربانو (Carpano) والاب ناسي (Nasi) والأب تريفيرو (TRIVERO) والأب باكيوتي (Pacchiotti) ليساعده . ان مسألة " هوسه " قد زالت عن الوجود في أثناء مرضه ونقاوته الطويلة ، واذا كان دون بوسكو مصاباً بهوس فقد أثبتَ قدرته على بصق الدم لكي يحقّقه .
لا تزال علاقاته بالمركيزة بارولو متوترة بعض الشيء ، ولا مناصّ من ذلك عندما يمكن كل

منهما أن يقول : " ألم أكن على صواب ؟ " . رأت المركيزة ما توقعته يتحقق : إنهار دون بوسكو وقارب الموت . لقد اضطّر الى الاستراحة الطويلة والنقاهة ، واستمر المصلّى في نشاطه بإدارة الأب

بوريل . وأدرك دون بوسكو أنه أصاب إذا لم يتخلَّ عن المصلى أيًا كان الثمن . ومهما يكن من أمر ، فإنه يتعدَّر عليه بسبب حالته الصحية أن يعود الى عمله في المستشفى ، ولذلك لم يجدد عقدهما . ذهب دون بوسكو حيناً بعد آخر ليعظ البنات الصغيرات وكفَّت المركيزة عن دفع معاش له ولكنها أرسلت اليه ، عن يد الأب بوريل والأب كافاسو ، هبات سخية من " أجل أولاده " حتى السنة ١٨٦٤ وفيها تُوفيت .

البابا ماستاي فريتي "بيوس التاسع"

في الأشهر الأولى للسنة ١٨٤٦ كتب في تورينو الصحافيَّ الشهير دي بوني (De Boni) :
إنني اشعر بالضجر عندما أجول في الامتار المربعة لهذه المدينة المربّعة ، وفيها يتكلم جميع الناس بصوت خافت ، ويمشون مشياً ونيداً . لا أحب الجليد القُطبي الذي يتراكم جبالا ، وتلك الشوارع المستقيمة على قدر ما الناس مائلون ، وآراء الأحرار الحذرة هذه التي يفوح منها رائحة عظة الأحد ، والتي تتلو كلَّ يوم جمعة سُبحة التقدم الكاثوليكي كما يُنادي به الكونت بالبو ، باركه الله " .

أثبتَ دي بوني أنه لم تكن له موهبة النبوة . تورينو مستودع بارود يوشك أن ينفجر حقاً . كان الكونت بالبو يُمثّل آراء الأحرار المعتدلين التي كان لها ، لا بعد سنوات ، بل بعد أشهر مفعول زلزال في إيطاليا كلها .

في حزيران (يونيو) من تلك السنة انُخب مطران إيمولا (Imola) ، المطران " الغير المتحرّب " ، الكردينال ماستاي فريتي ، ليكون بابا فتسمى بيوس التاسع . إنّه رجل شديد التقوى بسيط ، وليس سياسي ولا يؤيد أفكار الأحرار ولكنه يشعر شعوراً عميقاً بكلِّ ما هو إنساني ، ولذلك أجرى بسرعة الإصلاحات المنتظرة منذ سنين كثيرة في الدولة الباباوية والتي تُعدُّ إصلاحات تحررية ، وفي تلك التسمية كثير من الالتباس .

لم تمض بضعة أيام على انتخابه (١٧ تموز يوليو) حتى منَح عفواً سياسياً واسعاً ، مخالفاً بذلك رأي كثير من كرادلته ، فأطلق سراح كثير من السجناء الأحرار ، ولا ذنب لهم سوى أنهم اشتركوا في حركات تحررية .

أراد أن يتفهم موقف السجناء فذهب مراراً ، وهو منتكراً إلى سجن قصر سانت انجلو (Castel Sant' Angelo) وتحدّث إليهم ، فأشاع الذعر بين مدراء السجن ، وزار المستشفيات " ليستمع " إلى شكايات الناس .

وفي الأشهر التي تبعت ، جعل حدّاً لسوء استعمال الشرطة لسلطتها ، وأعلن عزمه الثابت على أن يرى الديبلوماسية النمساوية تراعي أكثر من قبل استقلال الكرسي الرسولي .

وفي ربيع السنة ١٨٤٧ منَح الصحافة بعض الحرّية وأنشأ مجلس دولة يشترك فيه علمائون
يُنْتَخبهم الشعب (فهو يشبه المجلس النيابي بعض الشبه) ، ورخَّص إنشاء حرس وطني (جيش
شعبي) .

حيّا الناسُ البابا بيوس التاسع تحيتهم للبابا الذي كانوا ينتظرونه بتلهف ، بعد صدور كتاب
جيوبرتي أولّية الايطاليين . أشادوا بذكر البابا ماستاي إشدّتهم بالذي سيحقّق الوحدة
والاستقلال لايطاليا في جو من الحرّية . اشددّت الحماسة ، فحيثما ذهب بيوس التاسع ، لم يسعه
أن يُفَلت من الاستعراضات ومظاهر التكريم والسير بالمشاعل في الليل .
ولم يكن الأحرار وحدهم موافقين على سلوك بيوس هذا السبيل ، فقد نادى الذين يميلون إلى
الاشتراكية وممثلو " اليسار الديمقراطي " هم أيضاً بالمعجزة . حتى مترنيخ (Metternich) المستشار
النمساوي المقتدر ، حارس السلطة المطلقة والحفاظ على النظام القديم صاح متأسفاً : " توقعتُ
كل شيء إلا بابا متحرراً " .

لم يكن بيوس التاسع بابا متحرراً ، ومع ذلك اضطرّته الأحداث والأحوال نحو سنتين إلى
القيام بعمل يدعو إلى الالتباس .

أراد مترنيخ في صيف السنة ١٨٥٧ أن يضمن أمنه من بابا متحرر ، فأرسل حامية نمساوية
احتلت المدينة الباباوية فراره (Ferrara) ففسّر الأحرار هذا العمل على أنه القطيعة الحاسمة بين
الكرسي الرسولي والنمسا ، وعدّوه الشرارة لحرب استقلال وشيكة . عرض كارلو البرتو
(Carlo Alberto) جيشه على البابا وعرض غاريبالدي (Garibaldi) من أميركا أن يضع جيش
متطوّعه في تصرفه ، وكتب إليه مازيني (Mazzini) من لندن رسالة عباراتها متلهبة .
كذا صار بيوس التاسع حامل راية الحرية الوطنية ولم يخطر له قطّ أن يسبب حرباً ، ولكنّ
الاحداث سبقتة ، فالجوّ السائد جوّ حرب الاستقلال ، وهم يدعون إليها باسمه .

اصطدام دون بوسكو " بالكهنة الوطنيين

تورينو بعد روما مركز المظاهرات لصالح بيوس التاسع واعماله " المتحررة " .
كان رئيس الاساقفة محافظاً متشدداً فظل محتاراً تجاه تطورات الحالة . إنه يشك كثيراً في أن
البابا يتلقى " توجيهاته " عن بعد من قبل الأحرار ، ولكنّ غيره من مطارنة البيمونتة (وهم مطارنة
فوسّانو Fossano وبنيرولو Pinerolo وبيّلا Biella) انحازوا عن قصد وبحماسة إلى " الاتجاه
الجديد التحرري في الكنيسة " . في السنة ١٨٤٨ كتب جميع مطارنة البيمونتة وسردنيا على وجه
التقريب رسائل رعائية وطنية .

كتب بييترو ستيليا (Pietro Stella) : " حتى دون بوسكو ساهم ولا ريب في الآمال التي عمّت إيطاليا ، وكانت تبدو مراعية لمقام البابا والسلالات الملكية القديمة صاحبة السلطة " . في الطبعة الثانية لكتابه تاريخ الكنيسة الصادرة في مطلع العام ١٨٤٨ سمى صاحب نظرية الأحرار " جيوبيرتي الكبير " ، " ولكن هذا الشعور لم يطل أمده " لأن هذا الوصف زال عن الطبعة اللاحقة . " فقد وقع بسرعة الاصطدام بالكهنة الوطنيين ، وحُفرت حفرة بعيدة الغور بينه وبين الآباء كوكي (Cocchi) وتريفيرو (Trivero) وبونتي (Ponte) .

والرجح أنّ هذا الاصطدام وقع لما أخذ يظهر بوضوح أنّ كثيراً من الأحرار أرادوا أن يستخدموا البابا لأمر واحد هو هدفهم السياسي ولا سيما بعد خطابه في ٢٩ نيسان حين أزال بيوس التاسع الالتباس ازالة نهائية .

وابل من الحجارة شديد

في أثناء ذلك ، والى جانب التاريخ الكبير ، كانت تتوالى في سهل فالدوگو المنخفض ، أحداث التاريخ الصغير اليومي : التعب الخفي لخير الصبيان ، والكفاح الصامت في سبيل دفع الديون .

فقد أفلح دون بوسكو في كانون الأول (ديسمبر) ١٨٤٦ في استئجار جميع غرف بيت بيناردي ، والأرض المجاورة له ، من بانكرازيو سوافي (٧١٠ ليرة في السنة) .

ورمّ جدار سياج المرح المستعمل للالعاب ، وأقام في طرفيه باباً وشبكة من القضبان الحديد ، فهكذا لن يستطيع الرعاع الوقحون الذين يملأون يوم الأحد نزل " البستانية" وسائر البيوت المجاورة ، التسرب الى الساحة وإزعاج الصبيان .

وحولّ دون بوسكو جزءاً من المرح إلى جنية لزرع البقل (وهناك الآن حانوت صغير لبيع أشياء دينية) فأطلق عليها الصبيان اسم " جنية ماما مرغيتا" . فالدراهم للمطبخ نادرة جداً ، بعد ما ينفق على الاستئجار ، ولمساعدة الأحداث ، وماما مرغيتا فلاحه صالحة تسعى للاقتصاد في الصرف بزرع الخس والبطاطا .

في المروج المجاورة تتلاقى يوم الاحد عصابات من الأوباش ، يقامرون بالدراهم ، ويشربون الخمر التي يشترونها في قناني ضخمة من " البستانية" ويحلفون ويشتمون الأحداث القادمين إلى المصلّى . كان دون بوسكو يقترب منهم بصبر ، ويرضى بأن يجالسهم ليلعب معهم بالورق ، وقد استطاع رويداً رويداً أن يجذب بضعة منهم ، ولكن حدث غير مرة أنّه بينما يشرح التعليم الديني في الهواء الطلق ، لجأ الصبيان على كره منهم الى المعبد ، تحت وابل من الحجارة شديد .

كان دون بوسكو يعرف حقّ المعرفة أنّ الأحداث الخمسمائة الذين يجمعهم في مصلاه ليسوا سوى غيظ من فيض المشرّدين في المدينة ، ولا رادع لهم ولا وازع ولا خبز أحياناً .
كانت بورغو فانكيليا (Borgo Vanchiglia) غير البعيدة من الدوكو موبوءة بعصابة من الرعاع ، تضايق رجال الدرك ، وتعيش على سرقة محفظات النقود وسلال الطعام من الناس العائدين من السوق . وكثيراً ما كانوا يتحاربون في معارك رهيبة فظيعة تنتهي بضربات السكاكين .

كان دون بوسكو ، إذا مرّ بالمكان يلقي بنفسه أحياناً بين المتحاربين ، محاولاً " بلجمات ولطمات " ان يفصلهم بعضهم عن بعض ، فأصابته ضربة قبقاب في وجهه . قيل له في الحلم : لا " بالضرب " ولكن للاحلام أيضاً استثناءات .

كاهن سارق

وكان من الوسائل التي استعملها ليأتي بصبيان صالحين إلى المصلّى أن يدخل حانوتاً يعمل فيه الأحداث فيقترب من رب العمل ويقول له :

- أتريد أن تسرني ؟
- إذا امكن الأمر ، يا أبت .
- إنّه ممكن . يوم الأحد تُرسل اليّ هؤلاء الصبيان ، الى المصلّى في فالدوگو سيتأتى لهم ان يتعلّموا شيئاً من العقيدة الدينية فننحسّن سيرتهم .
- إنهم يحتاجون كثيراً إلى تحسين سيرتهم . إنهم كسالى قليلو الحياء .
- لا ، هيئتهم حسنة ، أما ترى ذلك ؟ إذا اتفقنا : يوم الأحد أنتظركم في المصلّى .

سنلعب معاً ونلهو .

وتختلف الوسيلة مع فئة أخرى من الأحداث . وبينما الاب بوريل يهتم بالمصلّى ، يجول دون بوسكو في الساحات وشوارع أطراف المدينة . هناك جماعات من الأحداث يقامرون في الأرصفة ، فبينما اوراق اللعب تدور تُكدّس الدراهم (وتبلغ أحياناً خمس عشرة ليرة) في وسط مندبل .
راقب دون بوسكو الحالة مراقبة حسنة ثم خطف المندبل بسرعة ، وهرب فدهش الأحداث وقفزوا على أقدامهم وركضوا خلفه وهم يصيحون :

- الدراهم ! رد علينا الدراهم !

رأى هؤلاء الصبيان المساكين كلّ شيء إلا كاهناً سارقاً . فظلّ دون بوسكو يركض إلى

المصلّى وصاح :

- أردھا علیکم إذا أمسکتونی . هلمّوا ! اركضوا !

اجتاز بالمصلی ثم بابَ المعبد ، والأحداث یطاردونہ . كان في تلك الساعة الأب كاربانو أو الاب بوريل يعظ في المنبر جمعاً متراصاً من الصبيان فبدأ مشهد تمثيلية : يمثل دون بوسكو دور البائع الجوال فيرفع المنديل ، وهو لا يزال في يده ويصيح :

- نوغا ! نوغا! من يشتري نوغا ؟

فيُظهر الواعظ أنه يخرج عن طوره :

- أخرج من هنا ، يا قليل الحياء ، لسنا هنا في ساحة عامّة .

- ولكن لا بد لي من بيع النوغا . وههنا عدد كبير من الصبيان . ألا يدخل أحد في

المزايدة ؟

يجري الحوار بلهجة العامة ، فيتلوى الاحداث من الضحك ، ويُصغي القادمون الجدد إلى

هذه المنازعة وهم مشدوهون ، اين هم ؟

ويواصل المتحاوران كلامهما في أثناء ذلك ، فيردُّ أحدهما على الآخر ردوداً مضحكة ، ويجيب كلُّ منهما الآخر أجوبة سريعة رشيقة ، فيؤول الكلام الى المنازعة على القمار وعبارات الكفر ، وسعادة العيش بسلام مع الله ، فيأخذ في الضحك عندئذ الذين وصلوا خلف دون بوسكو هم ايضاً ، ويُقبلون برغبة على المسألة التي يبحث فيها .

وينتهي الأمر بالشروع في تراتيل الطلبات فيدون من دون بوسكو ويقولون له :

- أتعطينا الدراهم إذن ؟

- بعد لحظة ، بعد البركة .

ولدى خروجهم من الساحة يعطيهم المال ويضيف إليه طعام العصر ، ويحصل على وعدهم

" بأنهم سيعودون الى اللعب هنا " . ولقد بقي الكثير منهم هناك .

أغاني السكّيرين وصراخهم

شهد استفان كاستانيو (Castagno) وهو صبّي من ذلك الزمان : " كان دون بوسكو دائماً

أول الذين يشتركون في الألعاب ، وباعت النشاط فيها . لا أدري كيف كان يفعل ذلك ، فقد كان

في جميع زوايا الساحة ، وفي وسط كلِّ زمرة . كان يرقب كلَّ شيء بشخصه أو بعينه . كان شعرنا

أشعث ، وكنا أحياناً قذّرين نتدخّل في كل شيء ، غرباء الاطوار . وكان يحلو له أن يكون مع

الاشدّ فقراً . كان يحب أصغر الأولاد كأنه أمهم . كنا نتضارب مرّات كثيرة فنُوسِع بعضنا بعضاً

ضرباً ، فكان هو يفصلنا . كان يرفع يده كأنه يريد الخبط ولكنه لم يضرب قط ، كان يقبض على أذرعنا فيبُعد الواحد عن الآخر " .

وذكر يوسف بوتسيي : " عرفت مئات من الصبيان جاؤوا الى المصلى وليس لهم علم ولا شعور ديني ، فبدّلوا سلوكهم بعد وقت قليل . وكانوا يتعلقون بالمصلى تعلقاً شديداً حتى إنهم لم يفارقوه بعد ذلك ، وكانوا يعترفون ويتناولون القربان المقدّس كلّ يوم أحد " .

والمزعج خصوصاً في الصيف هو ملهى " البستانية" العائد الى بيت " الجمال" وكان يقصده خلق كثير . فمن المعبد الصغير ، عندما يُضطرونّ إلى ترك الأبواب والنوافذ مفتوحة ، تُسمع أغاني السكّيرين وصراخهم ، وفي بعض الاحيان تقع مشاجرات عنيفة فتطغى على صوت الواعظ . وحدث أنّ دون بوسكو اضطرّ الى النزول من المنبر فنزع الكتونة والبطرشيل ودخل الملهى وهدّد الناس باستدعاء رجال الدرك .

واشتدت الحاجة الى حلّ مسألة معاونين له ، فإنّ الأب بوريل والأب كاربانو وسائر الكهنة مشغولون أحياناً كثيرة في أماكن اخرى يومَ الاحد . أين يجد من يراقب ويعلم التعليم الديني ، وعلى الخصوص من يُدرّس في الليل ؟

تذكّر دون بوسكو أنّ " الحملان كانوا يتحوّلون في الحلم إلى رعاة " فاخذ يبحث عن معاونين من بين الصبيان وشرع يُهيئهم فاختر احسن الأحداث من بين الأكبر سنّاً ، وألقى اليهم دروساً خاصّة بهم . كتب الأب لموان (Lemoyne) : " إن هؤلاء المعلمين الصغار ، وكانوا في أوّل الأمر ثمانية أو عشرة ، أدوا شهادة حسنة ، ثم إن بضعة منهم صاروا بعدئذ كهنة ممتازين " . وجاء بعض العلمانيين الصالحين من المدينة فساعدوه : واحد منهم صانع ونحاسان وصيدليّ وسمسار ونجار .

ذكر دون بوسكو حادثة مفاجئة وقعت في شتاء ١٨٤٦ - ١٨٤٧ .

كان صبّي في الرابعة عشرة قد جاء الى المصلّى بعضَ الوقت فسمع أباه ، وكان يسكر كلّ مساء ، ينهاه عن الذهاب الى بيت دون بوسكو ، فأظهر الصبّي الطاعة ، ولكنّه استمرّ في فعله ، فاغتاظ الرجل وكان عطارا ، وهدّد ابنه بان يشقّ له رأسه إذا لم يّطع .
عاد الصبّي مساء الاحد من المصلّى متأخّرا ، فلقي أباه غارقاً في السكر ينتظره ، وبيده فأس صغيرة فرفعها وهو يصيح :

- ذهبت الى بيت دون بوسكو !

فدّعر الصبّي وهرب فلحقه الرجل ، وهو يصرخ بأعلى صوته :

- إذا امسكتك قتلتك !

الشجرة والضباب

وأخذت الأم ، وقد رأت كلّ شيء ، تركض هي أيضاً في إثر زوجها لتتزع السلاح من يده . وصل الصبّي الى المصلّى بعد ما جرى بكل ما تمكّنه سيّئه من السرعة ، فسبق أباه بمسافة حسنة ، ولكنه وجد الباب مُعلّقاً . ففرع مذعوراً ثمّ أعياه التعب ، ولم يرَ أحداً يأتي ليفتح الباب ، فنسلّق شجرة توت عالية قريبة ولم يكن فيها ورق يخفيه ، ولكن الليلة ليلة ضباب .
فوصل السكّير يلهث وبيده فأسه الصغيرة ، فخبط الباب بعنف وا تفق أنّ مرغريتا رأت من نافذتها الولد يصعد شجرة التوت ، فخفت الى الباب لتفتحه بعدما أخبرت دون بوسكو . فما إن فُتح الباب حتى أسرع الرجل لوقته الى السلم ، فصعد الى غرفة دون بوسكو ، وصاح مُهدّداً أيّاه :

- أين ابني ؟
- ابنك ليس هنا .
- بل إنه هنا - . فتح الأبواب والخزانات على مصاريعها - سأجده فاقتله .

فتدخّل دون بوسكو بحزم وقال :

- ياسيدي ، قلتُ لك إنه ليس هنا ، ولكن ، ولو كان هنا ، فإن هذا البيت ليس لك ،

ولا يحقّ لك أن تدخله . فإمّا أن تخرج أو استدعي رجال الدرك .

- لا تتعب نفسك ، أيها الاب ، فاني ذاهب الآن الى رجال الدرك ويجب أن تُردّ عليّ ابني .

- تمام ! لنذهب معاً . عندي بعض الأمور الصغيرة أروبها لهؤلاء الأسياد على سلوكك .

ستكون الفرصة سانحة ممتازة .

وكانت هناك حكايات يريد الرجل إخفاءها ، فترجع وهو يتمم التهديدات .

فدنا دون بوسكو وأمّه من شجرة التوت ودعا الصبي بصوت خافت ، فلم يتلقّ جواباً فألحّ

بصوت أعلى ، من غير جدوى . فخاف وقوع مصيبة ، فصعد ومعه سلم ورآه محملاً فهزّه ، فأخذ

الولد يصرخ وهو في هياج وحنق ، فكادا يسقطان كلاهما من الشجرة ، فاضطّرّ دون بوسكو الى أن

يقمعه وهو يتمم :

- ما هذا أبوك ، هذا دون بوسكو ، لا تخف !

فسكن روعه رويداً رويداً ، وأخذ يبكي بكاء هادئاً . وأفلح دون بوسكو في إنزاله ، ودخل

المطبخ فأعدّت له ماما مرغريتا طعاماً ساخناً ، وبسط دون بوسكو فراشاً لكي يتمكن من النوم

بالقرب من النار وفي اليوم الثاني أرسله الى ربّ عمل صالح في بلدة مجاورة ، لكي يُنقذه من غضب

أبيه ، ولم يستطع العودة إلى بيته إلا بعد ما مضى بعض الوقت .

ولربما نكأ هذا الحادث جرحاً في قلب دون بوسكو . فما من صبيّ واحد من صبياناه يعرف الى

أين يذهب في المساء لينام . إنّهم ينامون تحت الجسور او في مأو ليلية قذرة . فگر منذ بعض الوقت

في إيواء المتروكين أكثر من غيرهم .

كانت محاولته الأولى مساء يوم من أيام نيسان (ابريل) السنة ١٨٤٧ . كان بيت بيناردي

ينتهي بمستودع صغير للشعب اليبس ، فأعدّ العدة لينام هناك ستة من الاحداث فكان الإخفاق

تماماً . ففي صباح اليوم الثاني هرب الضيوف وقد أخذوا الأغطية التي أعارتهم إياها ماما مرغريتا .

گررّ دون بوسكو التجربة بعد بضعة أيام فكانت أسوأ من الأولى : ذهبوا بالعشب والتبن .

ولكنّه لم ييأس .

صبيّ مُبلّل صقعه البرد

كان المطر في يوم من أيام أيار (مايو) يهطل مدراراً ، وما كاد دون بوسكو وأمّه يفرغان من

تناول طعام العشاء حتى فُرع الباب (نتابع رواية الحادث كما جاء في الصفحات التي كتبها دون

بوسكو) . قرعه صبيّ مُبلّل صقعه البرد وهو في نحو الخامسة عشرة قال :

- إني يتيم وقد جئتُ من وادي سيزيا (Sesia) . أنا بناءً ولكني لم أجد عملاً بعد . أشكو
البرد ولا اعرف إلى أين اذهب .
قال له دون بوسكو :
- أدخل قف بجانب النار . إنك مبطل كثيراً فقد تصاب بأذى .
أعدتُ له ماما مرغريتا شيئاً من الطعام ثم سألته :
- والآن إلى أين تذهب ؟
- لا أدري . كان عندي ثلاث ليرات لما وصلتُ الى تورينو ولكني صرفتها كلها .
سكت وأخذ يبكي :
- رجاءً لا تصرفيني .
فكرت مرغريتا بالأغطية التي سُرقت :
- يمكننا أن نحفظك ولكن هل من أحد يقول لي إنك لن تسرق فُدوري ؟
- لا ، يا سيدتي . أنا فقير ولكني ما سرقت قط .
كان دون بوسكو قد خرج تحت المطر لكي يأتي ببعض اللبن فأتى بها ، وصنع بعض القواعد
فوضع عليها بضعة ألواح خشب ، ثم ذهب فسحب فراش سريره ووضعها فوق الألواح وقال :
- ستنام هنا ، يا بُنيّ ، وستبقى طالما تحتاج إلى ذلك . إن دون بوسكو لن يطردك .
دعته أمي الحنون إلى تلاوة الصلوات فأجاب : لا أعرفها .
- سنتلونها معنا .
وهكذا كان ، ثم أُلقت إليه عظة وجيزة على ضرورة العمل والأمانة والدين " .
نظر السالسيون بمودة إلى هذه العظة الوجيهة لماما مرغريتا نظرتهم إلى أول " كلمة المساء "
وهي كناية عن بضع عبارات يقولها المسؤول عن البيت لينتهي النهار . كان دون بوسكو يَعِدُّ هذه
العادة " مفتاح الخلق الكريم والتقدم والنجاح " .
بيد أن ماما مرغريتا لم تكن مقتنعة كثيراً بالتأثير الفعّال لكلماتها ، إذ دون بوسكو في
ذكرياته : " فُقل المطبخ ولم يُفتح إلا في الصباح وهكذا حُفظت الأشياء من السرقة " .
كان ذلك الصبي أوّل يتيم يدخل بيت دون بوسكو ، وأصبحوا في آخر السنة ١٨٤٧ سبعة
ثم صاروا بعدد الآف .

وكان الصبي الثاني في الثانية عشرة وكان من أهل المدينة . صادفه دون بوسكو في جادة
القديس مكسيموس (وقد صارت جادة الملكة مرغريتا) . كان يبكي وجبينه مستند إلى شجرة .
فَقَدَّ أباه وتُوقيت أمه قبل سنة فطرده صاحب الدار ، بعد ما استولى على الأثاث ، ليستوفي الاجرة

التي لم تُدفع له ، فسلمه دون بوسكو إلى ماما مرغريتا ، ووجد له عملاً في محلّ تجارة ، وقد نجح في الحصول على منزلة حسنة وظل دائماً صديق المحسن اليه .

وكان الثالث يوسف بوتسيّتي (Buzzetti) البّناء الصغير من كاروتو غير ينغلو (Caronno Ghiringhello) . دعاه دون بوسكو نفسه مساء يوم من أيام الأحد وهو يوّدع الآخرين فأمسك بيده وقال :

- أتريد أن تأتي فتعيش عندنا ؟
- بكلّ سرور .
- إذا سأكلم كارلو أخاك الكبير على هذا الموضوع .
- وافق الأخ الكبير الذي يجيء الى المصلّى منذ ستّ سنوات ، وواصل يوسف ، وهو في الخامسة عشرة ، عملّ البناء في المدينة ، ولكن بيت ماما مرغريتا صار بيته .

كان الحلاق الصغير يرتجف كالورقة

ثم جاء كارلو غاستيني (Gastini) . ذات يوم من أيام السنة ١٨٤٣ دخل دون بوسكو إلى حلاق ، فدنا منه صبيّ صغير لكي يطلي لحيته بالصابون فسأله :

- ما اسمك ؟ كم عمرك ؟
- كارلينو ، عمري احدى عشرة سنة .
- يا عزيزي كارلينو ، اصنّع رغوة من الصابون حسنة . وأبوك كيف حاله ؟
- مات فليس لي سوى أمّي .
- آه يا بنيّ المسكين ، ياللمصيبة !
- فرغ الصبيّ من بسط رغوة الصابون عليه .
- احسنت ، إذا ابدأ في العمل ، تشجّع ، خذ الموس واحلق لي ذقني .
- فاستولى الفلق على رب العمل فتدخل بقوله :
- رجاءً ، يا أبتّ المحترم . إن الصبيّ لا يعرف الحلاقة . إنّه يبسط الصابون فحسب .
- ولكن لا بدّ له من البدء في العمل هذا اليوم أو ذاك ، أليس كذلك ؟ فيحسن إذاً أن يبدأ بي . الى العمل يا كارلينو !

حلق كارلينو اللحيّتين وهو يرتجف كالورقة ، ولما شرع يدير الموس حول الذقن عرق ، فخدّشّه بعض الخدوش الكبيرة وجرحه بضعة جروح ولكنه قام بعمله . فقال دون بوسكو مبتسماً :

- أحسنت ، أحسنت ، يا كارلينو . أمّا وقد صرنا صديقين ، فأريد أن تأتي فتزورني حيناً بعد آخر .

أخذ غاستيني يكثر من المجيء الى المصلّى وصار صديقاً وفيّاً لدون بوسكو .
في صيف تلك السنة وجده دون بوسكو يبكي عند الحلاق فسأله :

- ماذا جرى لك ؟

- تُوقيت والدتي فطرديني صاحب الدار . أخي الكبير جنّدي ، وإلى أين أذهب الآن ؟

- تعالّ معي .

وبينما هما ينزلان إلى فالدوگو ، سمع كارلو غاستيني تلك الجملة التي سمعها بعدئذ كثير من الأحداث : " ترى ؟ إني كاهن مسكين ولكن ولو لم يبقَ عندي إلا لقمةُ خبز فسأقسمها بيني وبينك " .

هيأت ماما مرغريتا سريراً آخر . وبقي كارلو أكثر من خمسين سنة في المصلّى . كان فرحاً نشيطاً فصار العريف الماهر لجميع الحفلات . كانت تمثليّاته الصغيرة تُضحك جميع الناس ولكنه كان عندما يتكلم على دون بوسكو يبكي كالطفل ويقول : أحبّني . كان يُعّي دوراً تعلمه جميع الناس على ظهر قلبهم : " يجب عليّ أن أعيش - سبعين سنة - هذا ما قاله لي - بابا يوحنا " . كانت تلك النبوة من النبؤات التي لا يُحصى لها عدد يقولها دون بوسكو نصف ضاحك ونصف جادّ . مات كارلو غاستيني في ٢٨ كانون الثاني (يناير) من السنة ١٩٠٢ وكان له من العمر سبعون سنة ويوم واحد .

حوّل دون بوسكو غرفتين مجاورتين إلى مهجع فيه ثمانية أسيرةً وصليب وصورة للسيدة العذراء ولوحة فيها : " الله يراك " .

كان دون بوسكو يُقيم القدّاس مبكراً عند الصباح فيحضره الصبيان ، وهم يتلون صلوات الصباح والوردية . ثم كانوا يذهبون الى العمل في المدينة وفي جيبهم رغيف صغير . كانوا يعودون لطعام الظهر والمساء . وكانت الحساء وافرا ، وكان لون الطعام المُعولّ عليه للغذاء رهين بقول جنّبية ماما مرغريتا والdraهم في محفظة نقود دون بوسكو .

لقد أخذت الدراهم تسبب له مسائل محرّجة جداً منذ تلك الأشهر الأولى ، وسوف تسبّب له

غيرها طوال حياته . لم تكن معاونته الاولى " كونتسة " بل أمه . طلبت تلك الفلاحة الفقيرة أن يُرسل إليها من البكي جهازاً زواجها والخاتم والحلق والقلادة ، تلك الأشياء التي حافظت عليها بحرص إلى ذلك الحين ولم تلبسها قطّ منذ وفاة زوجها ، وباعتها لثّطعم الصبيان الأولين .

رئيس الاساقفة يصدّم رأسه

هذه الصيغة الاولى لاول بيت سالتسي أطلق دون بوسكو عليها اسم " البيت التابع لمصلّي مار فرنسيس دي سال " . نبّه موران فيرث (Morand Wirth) : " هذا عنوان ذو مغزى . إنّه يدلّ على أنّ المصلّي في نظر المؤسس يحتفظ بطابعه المُميّز " .

في شهر ايار (مايو) ١٨٤٧ أنشأ دون بوسكو جمعية مار لويس من اجل صبياناه ، فالذي يدخلها يعزم على ثلاثة أمور : القدوة الحسنة ، واجتناب أحاديث السوء ، والاقبال على الاسرار . وما لبث الجمعية أن صارت جماعة من الشبان تعاهدوا على التعاون للتقدم في الصّلاح . بعد شهر ، في ٢١ حزيران (مايو) احتفل بأبّهة بأول عيد لمارلويس دي غوانزاغا ، فعرض دون بوسكو هذا القديس الفتى عرّضه لمثال الطهارة . وجاء رئيس الاساقفة ليُثبت الذين لم يكونوا قد تُبّتوا .

روى دون بوسكو : " وُضع التاجُ على رأس رئيس الاساقفة فلم يتدكّر في ذلك الحين أنّه لم يكن في الكاتدرائيّة ، فرفع رأسه بغنّه فصدّم التاجُ سقف المعبد ن فضحك الحضور كلّهم وكان هو أول من ضحك ، فتمتم المطران فرانسوني : يجب تكريم صبيان دون بوسكو ووعظهم وأنا مكشوف الرأس " .

وذكر دون بوسكو تفصيلاً آخر مُهمّاً جدّاً لديه : " نُظّم بعد التثبيت نوع من محضر الجلسة دُوّن فيه السرّ واسم الإشبين وكنيته واسم المكان والتاريخ . ثم جُمعت البطاقات وفُرزت بحسب مختلف الرعايا ، وحُمّلت الى رئيس الاساقفة لكي تُرسل إلى خوارنة الرعايا التي تعود اليها " . فقد وافق رئيس الاساقفة بهذا العمل موافقة فعلية على المصلّي وعده " رعيّة الأحداث المشرّدين " وثبّت تأييده لدون بوسكو عند خوارنة رعايا المدينة ، وكانوا لا يزالون يتردّدون في رأيهم .

في ايلول (سبتمبر) اشترى دون بوسكو أول تمثال صغير للسيدة العذراء كلّفه سبعا وعشرين ليرة ، ولا يزال هناك في معبد بيناردي ، يَجده الدّاخِلُ في العتمة إلى اليمين . حمله الصبيان وطافوا به في الأماكن المجاورة كلما احتُفل بالأعياد الكبيرة للسيدة العذراء (والأماكن المجاورة هي بضعة بيوت ومطعم " البستانيّة " وفيه رواده السكّيون الصاخبون ، وساقيتان صغيرتان لريّ الحقول والبساتين ، وزقاق على جانبيه التوت كان يجتاز الساحة التي تُرى في أيامنا بجانب كاتدرائية السيّدة معونة المسّحيين " .

الشارات المثلثة الألوان في أثناء القداس الحبري

ضغط " دعاة الحرية" خلال أشهر السنة ١٨٤٧ على كارلو البرتو لكي يفتح الطريق لبرنامج إصلاحات ، ولكنّ الملك كان يراقب النمسا ، ويريد أن يحتفظ بزمام الأمور . كان يخطو خطوة إلى الامام ، ثم خطوة الى الوراء وهو دائم التردد .

في ايلول (سبتمبر) كان الموسيقار نوفارو يعمل في شارع الوردة الحمراء الرقم ١٠ (وهو في أيامنا شارع العشرين ايلول سبتمبر ٦٨) فوضع النغم لنشيد أرسله اليه غوفريدر ماميلي (Mamelì) من جينوى . لن يكون تحفة فنية ولكنّ هذه الأنغام الموسيقية القليلة وعنوانها " يا إختونا في ايطاليا " ستصبح نشيد النهضة الايطالية .

اول تشرين الأول (اكتوبر) . اجتمع عند المساء في حديقة آل ريباري (Ripari) حشد كبير من أهل تورينو ليصقّقوا للبابا وللملك . وبينما الحشد راجع فرقه الشرطة بغلظ ، وكان ذلك أمر من الملك .

وفي ذلك الشهر صرف كارلو البرتو الكونت سولارودلا مرغريتا (Solaro della Margarita) وزير الخارجية منذ اثني عشر عاماً . وكان يمثل السياسة المحافظة الموالية للنمسا .

حظرت الشرطة في الأيام بعدئذ المظاهرات الشعبية التي تنادي : " عاش بيوس التاسع ! " وأخبر الملك " أنه يفكر في إصلاحات ولكنه يريد أن يلتزم الشعب الهدوء " .

٣٠ تشرين الاول (أكتوبر) . أعلن أنه سيكون للنواحي والولايات مجالس تنتخبها القاعدة . ولكن لن يكون الناخبون جميع المواطنين بل الملاكون الذين يدفعون الضرائب والمعلمون والذين يشغلون وظائف رسميّة فحسب أي أثنان في المائة من جملة السكان ، وصارت مراقبة الصحافة أخفّ وطأة .

أول تشرين الثاني (نوفمبر) . ذهب كارلو البرتو إلى جينوى ، فرافقه خمسون ألف شخص إلى طريق مونكاليري (Moncalieri) وهم يُغنون ويلوحون بالأعلام .

في ذلك الشهر بعينه وقع كارلو البرتو وليوبولدو دي توسكانا وبيوس التاسع على مقدمات " العصبة الإيطالية" أي مقدمات الوحدة الجمركية بين الدول الثلاث . كان الأمر يبدو اتجاهاً واضحاً نحو " تحالف الدول الإيطالية " التي أنبأ به جيوبيرتي .

٤ كانون الأول (ديسمبر) عاد كارلو البرتو من جينوى ، فخرجت مدينة تورينو كلها لاستقباله وطلب تلامذة معهد الكهنوت أيضاً الاذن بالاشتراك في المظاهرة ، فرفض الاذن المطران فرانسوني وهو عدو لكل تجديد متحرر ، ومع ذلك ترك ثمانون من الاكليريكيين معهد الكهنوت وانضموا الى الجمع .

ان تحديهم لرئيس الاساقفة يكاد يكون استفزازاً . في أثناء القداس لعيد ميلاد السنة ١٨٤٧

في الكاتدرائية ، اجتمع الاكليريكيون في دار الخوريّة وعلى صدورهم الشارة المثلثة الألوان ، فكانت النتيجة إغلاق معهد الكهنوت في الأشهر الاولى للسنة ١٨٤٨ .

نار حسنة في الموهف

في شهر كانون الأول (دسمبر) هذا لم يدع دون بوسكو الاحداث الكبيرة تشل نشاطه . ان الصبيان قد أصبحوا الآن عدة مئات ، ثمانمائة على ما قال الأب لموان ، ويأتي بعضهم من أحياء بعيدة جداً . فتشاور دون بوسكو والأب بوريل والأب كربانو فوجدوا أنهم متفقون : يجب فتح مصلى آخر في القسم الجنوبي للمدينة .

كان على جانبي الجادة التي يقال لها اليوم " كورسو فيثوريو " أكواخ حقيرة تسكنها غسالات ، وكانت حبال الثياب المغسولة المنشورة في الشمس والهواء تصبغ هذا الجانب من تورينو الذي يقال له بورتا نوبا (الباب الجديد) بلون النشاط الفلاحي . وكان أهل المدينة الميسورون يقصدونه للتنزه بعد ظهر يوم الأحد ، في حين أنّ جماعات الأطفال البطالين يلعبون لعبة الحرب . حصل دون بوسكو على موافقة رئيس الأساقفة فاستأجر من السيدة فالينتي (Vaglianti) بيتاً صغيراً ومستودعاً ومرجاً بالقرب من جسر الحديد ، باربعمائة وخمسين ليرة في العام ، ثم أخبر صبيانه بهذه العبارات :

" أصدقائي ، عندما يزداد عدد التلّ زيادةً مفرطة فإنّ قسماً منه يذهب فيسكن مكاناً

آخر . إنّنا سنحذو حذوه . سنفتح مصلى آخر ونقيم أسرة جديدة . إنّ الذين منكم يعودون إلى القسم الجنوبي من المدينة لن يُضطروا الى قطع هذه المسافة الكبيرة . سيُمكنهم منذ عيد البريئة من الدنس الذهاب إلى مصلى مار لوييس في بورتا نوبا ، بالقرب من جسر الحديد " .

بارك الأب بوريل المصلى الجديد في ٨ كانون الأول (دسمبر) ١٨٤٧ ، وصار الأب كربانو مديره في ذلك الشتاء الشديد جداً . ذهب اليه وتحت معطفه حزمة حطب ليوقد ناراً في الموهف ويستدفئ بها هو والصبيان الأولون .

في السنة ١٨٤٨ انفجرت الأمم الأوروبية انفجار مستودعات الذخيرة .
اندلعت نيران الثورة على الخصوص في المدن : في باريس (٢٣ - ٢٤ شباط فبراير) وفيينا
(١٣ آذار مارس) وبرلين (٥ آذار) وبودابست (١٥ آذار) والبندقية (١٧ آذار) وميلانو (١٨
آذار) .

كان يمكن المرء أن يشاهد الحروب والمعارك من المتاريس التي تقام في المدن ، ففي خلال
شهرين اشتعلت أوروبا كلها .

كان الانفجار شاملاً عاماً حتى إن القيصر نقولا الروسي ساءل نفسه مذهولاً في ٣ نيسان
(ابريل) : " ما الذي بقي قائماً في أوروبا ؟ " ، وأطلق منذ ذلك الحين في اللغة المشتركة على أي
بليلة تحدث أو على شيء من الفوضى الثامنة والأربعين .
وسنكتفي بالإشارة إلى أهم الأحداث التي أثرت تأثيراً عميقاً في حياة دون بوسكو ، ، ولا سيما
أحداث تورينو والبيمونته التي كيّفت سلوكه واختياراته .

خلف المتاريس الأحرار والوطنيون والعمّال

لا يمكن المرء فهم زلزال ١٨٤٨ إذا لم يحفظ في ذاكرته ثلاثة عوامل مهمّة متشابكة : التيارات
المتحرّرة التي كانت تحارب لإقامة أنظمة دستورية وبرلمانية مكان الاستبداد المطلق ، وتَشوُّق الأمم
الى الاستقلال من الامبراطورية النمساوية ، والحركات العمّالية التي كانت تكافح في سبيل عدالة
اجتماعية اكبر .

يمكننا التعبير عن ذلك برسم هذه الصورة : كان يحارب جنباً الى جنب خلف متاريس
مختلف العواصم الأوروبية المتحرر الذي كان يريد دستوراً ، والوطنيّ الذي يطالب باستقلال وطنه
من الغريب ، والعامل الذي يحارب ربّ العمل وقد فرض عليه العمل من اثنتي عشرة إلى اربع
عشرة ساعة .

كافحت الحركة العمالية على الخصوص في باريس ، فأقامت المتاريس في ٢٤ شباط
(فبراير) في الاحياء الشرقية ، فشقت الطريق للسنة ١٨٤٨ وكان النصر خاطفاً كالبرق ، فقد
خُلع لويس فيليب عن عرش مملكته ، وشوهد أهل الطبقة الوسط والعمال يتآخرون حول أشجار
الحرية ، يباركهم الكهنة ، وأعلن الحقُّ على العمل ، وخُفض يوم العمل الى عشر ساعات ،

وُفُتحت " المعامل الاجتماعية " .

ولكن بعد أربعة أشهر على اثر أخطاء جسيمة ارتكبتها العمال وتعصّب أهل الطبقة الوسط ، جرى قمع خاطف كالبرق أيضاً . فقد هجم على باريس ، حيث تجمع مائة وأربعون الف عامل ، الجنرال كافينياك (Cavaignac) في معركة حامية الوطيس دامت اربعة ايام (٢٣ - ٢٦ حزيران يونيو) وكان القمع شديداً وعاد يوم العمل إلى اثنتي عشرة ساعة .

إن هذا القمع دفع العمّال الى ترك " الاشتراكيّات الانسانية " لاعتناق الماركسيّة وهي أشدّ قساوة وأقل رحمة ، فقد كتب ماركس البيان الشيوعي في كانون الثاني (يناير) ١٨٤٨ .

كان للحركة العمّالية في ايطاليا محاربون خلف متاريس ميلانو وحدها . إن ثورة ١٨٤٨ الإيطالية سادها الاحرار الذين يطالبون الملوك أصحاب السلطة المطلقة بالدستور ، و وطنيون يدعون إلى حرب تحرّر من النمسا . فالنمسا تحتل أراضي لومبارديا وفينيسيا وتشدّد قبضتها على كثير من الدول الأخرى .

في ثورة ١٨٤٨ الايطالية ثلاثة أطوار : الدساتير ، والفتن الشعبية على النمسا ، وحرب الاستقلال التي تزعمها كارلو البرتو .

سُمِّي الدستور " نظاما "

إن الناس في تورينو السنة ١٨٤٨ يفكرون بالحرب وهم يشعرون بأنها ستقع عن قريب ، إنهم يتكلمون على السياسة : ينتقدون ويضعون المشروعات ويطلقون النداءات . الحدث الجديد هو ظهور الصحف السياسية " الحرة " التي ستضاعف عددها شهراً بعد شهر بسبب حرّيّة الصحافة ، ولها نصيب كبير في توجيه الرأي العام .

إنّ المدير الشاب للنهضة وقد صدرت في ١٥ كانون الأول (ديسمبر) ١٨٤٧ هو كميل

بنسو دي كافور الرجل القويّ عند الأحرار . ففي أوّل كانون الثاني (يناير) صدرت

لا كونكورديا (La Concordia = الوفاق) العائدة إلى اليسار الديمقراطي الشعبي ويديرها فاليريو

(Valerio) ، في ٢٦ كانون الثاني (يناير) بدأت في الظهر لوبيينيوني (L'opinione = الرأي)

لدورندو (Durando) وفي حزيران (يونيو) ظهرت غازيتا ديل بوبولو (Gazzetta del Popolo =

صحيفة الشعب) لبوتيرو (Botero) العنيفة السليطة ، وفي تموز (يوليو) الكونسيلياتوري

(Concikiatore = الموقّق) ومديرها الأب غاستالدي (Gastaldi) الذي صار بعدئذ رئيس أساقفة

تورينو ، والأرمونيا (Armonia = التآلف) لغوستاف كافور شقيق كميل ، وآراؤها مستوحاة من

العقيدة الكاثوليكية على وجه واضح .

٣٠ كانون الثاني (يناير) . أعلنت الاخبار في نابولي أنّ الملك فرديناندو منح الدستور وأنّ

الناس في ميلانو يقاطعون التماسويين ، فذهب مجلس تورينو البلدي إلى كارلو ألبرتو وطلب منه الدستور .

قضى كارلو ألبرتو بضعة أيام في القلق ، وخطر له ان يستقبل . إنه لا يجرو على الحنث باليمين التي أقسمها لكارلو فيلييتشي قبل خمس وعشرين سنة . وأما وليّ العرش فيثوريو عمانوئيل فانه يعارض الاستقالة معارضة شديدة : لا يحقّ لأبيه الذي لم يدعه قط إلى التدخل ولو قليلا في شؤون الدولة ، أن يتركه وحده في العاصفة وهي على أشدها .

٧ شباط (فبراير) . جمع كارلو ألبرتو المجلس الاستثنائي للتاج ، وأعلن أنه مستعدّ للنظر في مشروع للدستور (يقال له نظام) فيه تراعى حرمة الدين وشرف الملك ، ولكنه دعا أعضاء المجلس البلدي إلى أن يحولوا دون تجمع الشعب في الساحات فهو لن يقبل ضغطاً عليه .

١٠ شباط (فبراير) وجّه بيوس التاسع نداء إلى الشعب وهو في غليان شديد ، فدعا الناس إلى الإمساك عن المطالبة بإصلاحات لا يسعه منحهم إيّاها ، وختم كلامه بهذا القول : " أيّها الإله العظيم بارك إيطاليا واحتفظ لها نعمة الايمان العظيمة " . واما زعماء الرأي العام وقد عزموا على أن يجعلوا من بيوس التاسع وسيلة لمحاربة النمسا ، فتركوا جانباً " الإصلاحات المستحيلة " و " نعمة الايمان " وأشاعوا في إيطاليا كلّها العبارة " أيّها الإله العظيم بارك إيطاليا " فحسب .

صار ذلك الدُعاء شعار الأحرار وعلامة الحرب ، وحاول بيوس التاسع من غير جدوى إزالة الالتباس ، فلم يُفلح كثيراً ، ولا ريب في أنّ دون بوسكو بدأ عند ذاك يشكّ في حركة المحافظين الجدد وبيتعد عن الأحرار .

وصلت في الايام بعدئذ إلى تورينو أخبار الدستور الممنوح في فيرانزي (Firenze) (١٧ شباط فبراير) والثورة التي اندلعت في باريس (٢٣ شباط) .

فعزم الناس على تنظيم " عيد للشكر على الوعد بالنظام " . فملأت ساحة فيثوريا الرحبة الوفود التي استُقيمت من جميع أنحاء الليمونته وليغوريا وسردينيا وسافويا ، ودُعيت جميع منظمات تورينو للتظاهر بحشودها ، ونزل المركيز روبرتو دازيليو (Roberto d'Azeglio) نفسه إلى فالدوگو ليدعو دون بوسكو وصبياناه .

حديث بين دون بوسكو والمركيز منفردين

أعاد دون بوسكو في ذكريات المصلّى التي كتبها بيده تدوين الحوار الذي دار بينه وبين المركيز ، ويرجّح كثيراً أن الكلمات التي وردت فيه ليست هي عينها التي لفظت (فقد كتب دون بوسكو بعد خمس وعشرين سنة) ولكننا نعتقد أنه حوار مهم جداً ، لأنّ دون بوسكو (الذي فُكر فيه بعد سنين كثيرة) يُفهمنا موقفه من السياسة منذ ذلك الزمن ، ولذلك نثبت فقراته الجوهرية .

" حُدِّدْ لَنَا مَكَانَ خَاصًّا فِي سَاحَةِ فَيْتُورِيُو ، مَعَ جَمِيعِ المَوْسَسَاتِ ، أَيَّا كَانَ اسْمُهَا وَغَايَتُهَا

زَحَالَتُهَا . مَا العَمَلُ ؟ إِذَا رَفَضْتُمْ أُعْلِنْتُ عُدُوًّا لِإِيطَالِيَا . وَإِذَا رَضِيْتُمْ وَافَقْتُمْ عَلَى مَبَادِيءِ كَانَتْ تَبْدُو لِي عَوَاقِبُهَا وَخِيْمَةً .

- لَتَعْرِفِ المَدِينَةُ أَنَّ مَشْرُوعَكَ لَا يَخَالِفُ الأَنْظِمَةَ الحَدِيثَةَ . سَيَكُونُ ذَلِكَ خَيْرًا لَكَ : سَتَزْدَادُ الهَبَاتُ وَتَسْتَكُونُ البَلَدِيَّةُ سَخِيَّةً وَسَاكُونُ أَنَا أَيْضًا سَخِيًّا فِي العَطَاءِ .

- يَا سَيِّدِي المَرْكِيْزِ ، إِنِّي عَازِمٌ عَزْمًا ثَابِتًا عَلَى أَنْ أَكُونَ بَعِيدًا مِنْ كُلِّ مَا لَهُ صِلَةٌ بِالسِّيَاسَةِ ، فَلَا مَعَ وَلَا عَلَى .

- فَمَاذَا تَرِيدُ أَنْ تَعْمَلَ ؟

- أَعْمَلُ مَا اسْتَطِيعُ ، وَلَوْ قَلِيلًا ، فِي سَبِيلِ الشُّبَّانِ المَشْتَرِدِينَ ، فَأَسْعَى بِكُلِّ مَا لَدَيَّ مِنْ قُوَّةٍ ، لِیَصِيرُوا مَسِيحِيَّيْنَ صَالِحِينَ فِي أُمُورِ الدِّينِ ، وَمَوَاطِنِينَ صَالِحِينَ فِي المَجْتَمَعِ المَدْنِيِّ .

- إِنَّكَ عَلَى خَطَأٍ . إِذَا ثَابَرْتَ عَلَى هَذِهِ المَبَادِيءِ فَسَوْفَ يَتَخَلَّى مِنْكَ جَمِيعُ النَّاسِ .

كَانَ دُونَ بُوَسْكَو عَلَى یَقِينٍ مِنْ خِلَافِ ذَلِكَ : لَوْ غُنِيَ بِالسِّيَاسَةِ لَكَانَ النَّاسُ تَخَلَّوْا مِنْهُ

وَخِصُوصًا لَوْ أَظْهَرَ مَشَارَكَتَهُ فِي تَصَرُّفَاتِ حُرَّةٍ . وَاسْتَطَرَدَ بَعْنَادٍ :

- أَدْعُنِي إِلَى أَيِّ شَيْءٍ یُمْكِنُ فِيهِ الكَاهِنُ أَنْ یَعْمَلَ لِلْمَحَبَّةِ ، تَجِدُنِي مُسْتَعَدًّا لِئَنْزِلَ حَيَاتِي وَكُلَّ

مَا عِنْدِي ، وَكَلَنْ أُرِيدُ أَنْ أَبْقَى غَرِيبًا عَنِ السِّيَاسَةِ فِي الحَاضِرِ وَالمُسْتَقْبَلِ .

العصابت العذوة لرجال الكنيسة تهيج

كان الموكب السائر الى ساحة فيتوريو مهيبا : خمسون ألف يسيرون في الشوارع أمام الملك

وهو على جواده . رفض رئيس الأساقفة إقامة القداس وترتيل " إِيَّاكَ نُسَبِّحُ إِلَهُمَّ " فِي كَنِيسَةِ

السيدة العذراء التي تشرف على ساحة فيتوريو ، وأذن أن تُمنَحَ البركة بالقربان فحسب .

خالف الكليريكيون أمر رئيس الأساقفة فتقدموا في الموكب ، وهم يحملون الشارة المثلثة

الألوان ، وعلى الأثر أغلق معهد الكهنوت للاقتصاص ، ولربما كانت هذه القرارات النقطة التي

جعلت الإناء يطفح .

في مساء الثاني من آذار (مارس) هجم جماعات من المتهوسين على دور اليسوعيين بالقرب

من كنيسة الشهداء والكرمل ، فكسروا الزجاج وحطموا الابواب .

وفي الغد التقت الجماعات نفسها حول الراهبات المسّمات " سيّدات القلب الاقدس " وهم

يتلقظون بعبارات التهديد ، وقد جدّوا هجماتهم من غير انقطاع سبعة أيام فردّهم على أعقابهم

الحرس كلّ مرة ، وفي الايام بعدئذ ترك المدينة اليسوعيون والراهبات المذكورة .

وعدت البلبلة الجامعاتُ العدوَّة للدين . كانت تتشدَّق تحت نوافذ المركز الكهنوتي :
"الموت للأب غوالا" وحاولت غزو قصر المريكيزة بارولو لأته شاع أنها تُضيف خمسة عشر
يسوعياً .

٤ اذار (مارس) . وقع كارلو البرتو على النظام برأي من مجلس التاج ، فألغيت السُّلطة
المطلقة للملك ، وبدأ النظام البرلماني .

وجرى ما يبدو غريباً ، فإنَّ تورينو لم تردَّ على ذلك بمظاهر حماسية ، بل استمرت المشاغبات
الصَّاخبة واشتدَّت عداً لرئيس الأساقفة والكهنة وأنصار السُّلطة المطلقة .

٨ اذار (مارس) أنشئ الحرس الوطني لإعادة النظام إلى المدينة ، فافتتح الاككتاب في
ساحة سان كارول فاكتتب خمسمائة من المواطنين في بضع ساعات .

ميلانو تتور وتطلب النجدة

شاعت أخبار خارقة العادة خلال بضعة أيام . ثارت فينا وصرف الامبراطورُ مٲرنِيخَ (٣)
اذار مارس) ومنح بيوس التاسع الدستور (١٤ اذار) . وقعت الثورة في برلين وبودابست
(١٥ اذار) . ومن أشدَّ الأخبار دويًا البندقية ثارت على النمساويين (١٧ اذار مارس) وأن
ميلانو بدأت ثورتها على الجيوش النمساوية التي يقودها راديتزكي (Radetzky) (١٨ اذار
مارس) .

أقام كارلو البرتو قيصر بالبو مؤلف كتاب آمال ايطاليا رئيساً للوزراء ، وذهب الأب انطون
روسيني الى رومة ليكون ممثلاً للبيمونتة لدى البابا .

وفي ١٩ اذار وصل الى ميلانو الكونت اريزي (Arese) حاملاً أخباراً وعرضاً . في اللجنة
المركزية للثورة تيارٌ جمهوري قويٌّ عدوٌّ لكارلو البرتو ولكن تيارٌ غابريو كازاتي (Gabrio Casati)
صديق البيمونتة تفوق عليه ، فطلب مساعدةً عسكريةً من كارلو البرتو .

فنظر مجلس الوزراء والملك في الموقف . ما العمل ؟ فعزموا قبل كلِّ شيء على ارسال جيوش
الى الحدود لتحميها من كل تسربٍ نمساوي يُحتمل وقوعه ، فذهب لواء من حرس الملك الى نهر
التيشينو (Ticino) .

وكانوا في أثناء ذلك لايزالون يتحاربون في ميلانو ، وفي ٢٠ اذار (مارس) عرض هدنة
الفريق راديتزكي القائد العام لجيوش الامبراطور ، فرفض عرضه وفي ٢٢ اذار استولى رجال
لوتشيانو مانارا (Manara) على بورتا توزا (Porta Tosa) فتخلَّى النمساويون عن ميلانو ، وطردوا
أيضاً من البندقية ، حيث أطلق سراح دانيال مانين (Daniele Manin) من السجون ، فنودي به
رئيساً لجمهورية القديس مرقس .

وصاح الجمع في شوارع تورينو : (الحرب ! الحرب! " .

٢٥ آذار (مارس) . وصل الى تورينو عند المساء ممثلو ميلانو المنتصرة ، فطلبوا أن يتدخل

الجيش لوقته ، قبل أن يُعاود النمساويون الهجومَ على المدينة ، واشترطوا شرطين : تبني الألوان الإيطالية الثلاثة مكانَ العلم الأبيض وتأخير دخول الجيش اليمونتي ميلانو ما بعد النصر .

" الحرب للنمسا ! "

عزم مجلس الوزراء على الحرب ، فوافق كارلو البرتو ، وأعلنت الحرب على النمسا ، فظهر

الملك في شرفة القصر الملكي في ساحة كاستلو ، ولوّح بالعلم الإيطاليّ فحيّا الشعبَ الذي صاح " الحرب للنمسا ! " .

في تلك الليلة أسرَّ كارلو البرتو الى صديق له : " لو لم أعلن الحرب لكنتُ خسرت الدولة

ووقعت الثورة . وأما وقد أعلنت الآن ، فهناك خطر عليّ بأن أخسر العرش إذا لم نربح ، ولكني مستعدّ لذلك " .

تلقى القائد باسالاكوا (Passalacqua) الأمر بان يجتاز نهر التيتشينو - وهو يرفع العلم المتلث

الألوان وعليه رمز سافويا بأعلى اللون الابيض .

٢٤ آذار (مارس) . رئيس الأسقف في الكاتدرائية حفلة صلاة بمحضر من الملك وولي

العهد ، ولما خرج المطران فرانسوني صفرّ الناس له وشتموه .

ذهب في الليل كارلو البرتو وابنه الى الجبهة على رأس ٦٠ ألف رجل ، فاحتشد لُحيّيه جمع

عظيم في شارع نهر البو وساحة فيثوريو . كان ذلك أشبه بعيد مهيب ، ولكن الحرب أمر من نوع آخر .

في الأيام التي بعدها تركت تورينو جميعُ الألوية وصودرت الخيل كلّها من أجل المدفعية

والحافلات ، فخيم على المدينة ، وقد خلّت من العربات ، سكوت غريب يجري فيه تيار من الخوف .

تجددت الضجة عند المساء تحت نوافذ رئيس الاساقفة فأرسل اليه وزير الداخلية من أبلغه

أنهم سوف يكونون اه من " الشاكرين إذا غاب عن المدينة مدة من الزمن " ، فذهب المطران فرانسوني إلى سويسرا .

فأمر النائب العام الذي قام مقامه برفع الصلوات من أجل المحاربين، وأوصى لخوارنة

الرعاية بأن يساعدوا أسر الذين يُستدعون الى الجيش ، وأذن للمزارعين بالعمل أيام الاحد في حقول اخوتهم الذين ذهبوا الى الحرب .

فعمدت السلطات الى تدابير مؤلمة ولكن ضرورية ، فعُزل أعلى الموظفين الذين عُذوا رجعيين ، عن المناصب الرسمية ، في حين أنهم كانوا ، قبل بضعة أشهر ، أخلص الذين يعملون للملك ، وسُرَّح حاكم تورينو نفسه المرشال لاتور (la Tour) .

المعارك الحقيقية والمعارك للتمثيل في فالدوگو

كان الصبيان أنفسهم يستنشقون جوّ الحرب ، فكان الأشداء من فانكليا (Vanchiglia) وبورغو دورا (Borgo Dora) وبورتا سوزا (Porta Susa) يخوضون معارك حقيقية في المروج حول فالدوگو ولم تكن المعارك للمزاح ، فقد كان هؤلاء الصبيان يتسلحون بالعصي والسكاكين والحصى ، ويوسعون بعضهم بعضاً ضرباً عنيفاً . كان دون بوسكو يخرج أحياناً كثيرة من بيته لكي يدعو رجال الدرك ، ويُلقي بنفسه معهم بين زمرة المتحمسين .

ذات يوم رأى على غير بعد منه صبيّاً في الخامسة عشرة يغرز سكينه في جوف خصمه ، فحُمِل الى المستشفى على عجل فمات الصبي وهو يتمتم : " ستدفع لي الثمن " .

ذَكَر دون بوسكو بلهجة الأسي : " كانت هذه التحدّيات لا نهاية لها " . فكانت العصابات تتحد أحياناً لتقتذف " بيت خوري الرعية" بالحصى ، فكانت الحجارة تنزل كالمطر على القرميد والنوافذ فيرتعد لها من الخوف يوسف بوتسيّتي (Buzzetti) والآخرون .

أراد دون بوسكو ان يجتذب الصبيان الى المصلّى ، فاستعمل هذا الجوّ ، جوّ الحرب ليخترع لعبة جديدة . كان صديق من أصدقائه اسمه يوسف بروزيو (Brosio) من رجال الدرك في الماضي ، فإذا جاء الى فالدوگو لبس بزّته العسكرية فأثارت الحماسة والتوقيرَ في الأشهر تلك ، فأوحى اليه دون بوسكو أن يؤلف مع الصبيان فوجاً مصعّراً وأن يعلمهم مناورات الحرب وحركاتها .

فرضي بروزيو وحصل من الحكومة على مائتي بندقية من طراز قديم وبذلّ ببطانة البندقيات عصا ، ونفخ بالبوبق وشرع في التمرينات : السير الى الأمام ، وتغيير الأتجاه ، والإغارة بالحربة ، والتراجع والهجوم . كان الفوج يقيم تمثيلات يُصقّق الناس لها كثيراً ويتولى ايضاً المحافظة على النظام في الكنيسة .

ذات يوم من أيّام الأحد ، بينما الجمع يتابع المناورات بشغف بعد الظهر ، وقد اجتذبه اليها صوت البوق ، وقعت الكارثة ، فإن الجيش " المغلوب" تشتتت شدّر مدرّ ، وطارده المنتصرون وقد استولى عليهم نشوة الظفر ، فالتجأ إلى جنينة ماما مرغريتا وطمس بأقدامه الحسّ والبقدونس والبنادورة .

قتألمت " الماما" ألمأ شديداً وقد شهدت الكارثة ، وتمتمت لابنها الواقف بجانبها : " أنظر ، أنظر يا يوحنا ما الذي فعلوا : لقد أتلفوا لي كلَّ شيء " .

" دعني أعود الى البيت"

ويُرجَّح أن مرغريتا ذهب عنها رباط جأشها في الليلة التي تبعت تلك الاحداث . ذهب الصبيان ليناموا فوجدت نفسها على عاداتها أمام كومة من الثياب لا بُدَّ لها من ترقيعها . تركوا لها في آخر السرير قمصاناً ممزّقة ، وبناطل مفتّحة ، وجوارب مثقوبة وقد وجب عليها أن نرّقع ذلك كلّه وهي تستضيء بنور سراج وقوده الزيت ، لأنه ليس لديهم ما يلبسون عند الصباح غير ذلك . كان دون بوسكو واقفاً بجانبها يضع الرقع على مرافق السّترات ، و يصلح الأحذية .

تمتمت بغتة : "يوحنا ، إني متعبة ، دعني أعود إلى البكي . أعمل من الصباح إلى المساء ، وأنا عجوز مسكينة ، وهؤلاء الأولاد يُنلفون لي كلَّ شيء ، لقد عيل صبري " .

لم يرو لها دون بوسكو نكته لیسرّي عنها ولم يَنيس بكلمة ، وما من كلمة تُعزّي هذه المرأة المسكينة . أتى بحركة فحسب : أشار إلى الصليب المعلق بالجدار ، ففهمت الفلاحة العجوز ، فنحت رأسها على الجوارب المثقوبة والقمصان الممزّقة ، وعادت الى الخياطة ولم تتحدث قطّ بعدئذ حديث العودة الى بيتها .

قضت السنين الاخيرة من حياتها بين هؤلاء الصبيان الضجّاجين ، القليلي التربية ولكنهم يحتاجون إلى أمّ ، واكتفت بأن ترفع عينها أكثر قليلاً من ذي قبل الى الصليب لكي تسترجع رباط جأشها . إنها العجوز المسكينة المتعبة .

حرباً إيطالية في لومبارديا

٢٠ اذار (مارس) . يبدو من الأخبار التي تصل أن أحلام " المناصرين للبابا" أخذت تتحقّق بسرعة خاطفة ، فمن الولايات الباباوية انطلق ١٧ الف جندي على رأسهم القائد دوراندو لتأييد جيش كارلو البرتو ، ومن توسكانا سبعة آلاف متطوع يقودهم مونتانلي (Montanelli) ، وأعلنت بارما وسردينيا في استفتائين أنهما تُريدان الانضمام الى البيمونتة .

٦ نيسان (ابريل) . جرفت الحماسة الجماعية فرديناند ودي نابولي ، فأعلن الحرب على النمسا ، وسلّم الى القائد غليوم بيبي (pepe) جيشاً عدد رجاله ١٦ ألفاً ليشترك في الحملة . إن الحرب التي تدور رحاها في لومبارديا حرباً إيطالية .

وصلت إلى تورينو أخبار سارة ، فقد أحرز الجيش أول انتصاراته في مواز امبانو

(Mozambano) وغويتو (Goito) (٨-٩ نيسان أبريل) وغادر غريبالدي أميركا ومعه " اللواء الايطالي " في ١٥ نيسان .

وفي ٢٧ نيسان جرت في الليمونته الانتخابات السياسية الأولى لتسمية ٢٠٤ من النواب فانتخب جيوبرتي في تورينو ونُحِّي كافور .

٣٠ نيسان . عاد جيوبرتي من المنفى فاستقبله الناس استقبالهم للظافرين . وظنّ نفسه رجلَ العناية الإلهية ، وعقد مجلسُ النواب جلساته في ردهة السويسريين في قصر الملكة ونودي بجيوبرتي رئيساً للمجلس .

وقاد اليسار الديموقراطي الغوغانيان فليريو (Valerio) وبروفريو (Brofferio) وأوربانو راتازي (Urbano Ratazzi) ، فاستهل اليسارُ عمله بالطعن في كارلو ألبرتو وشتمه ، زاعماً أنه خائن ، وطلب إعادة النظر في دعاوى العام ١٨٢١ والعام ١٨٣١ وكانت صحف اليسار عنيفة . إنها موافق أقل ما يقال فيها إنها غير مؤاتية ، ورحى الحرب تدور .

ارتعب البلاط الملكي ، فأحرقت الملكة أدلايد (Adelaide) ، وهي بنت أرشودوق

نمساوي ، رسائلها الشخصية ، واغتاظ كارلو البرتو في معسكره أشد الغيظ .

ولكن لم يمض وقت طويل حتى ينصبّ ماء بارد كالجليد على حماسة الايطاليين وغضبهم .

٢٥

إنهيار الآمال

في ٢٧ نيسان (أبريل) ١٨٤٨ وصل إلى رومة الكونت رينيون (Rignon) أرسله كارلو

ألبرتو ، فطلب الى بيوس التاسع تأييداً مادياً ومعنوياً من أجل الحرب ، فأجابته البابا أنه قدّم التأييد المادي بارساله دوراندو و ١٧ ألف جندي الى نهر البو (PO) . وأما التأييد المعنويّ فلا بدّ له من أن يفكر بالأمر : " لو كان بوسعي ان أوقع " ماستاي " ، لأخذتُ القلم ولتّم الأمر في بضع دقائق لأتي إيطالي ، ولكن يجب أن أوقع " بيوس التاسع " ، ويجب على رئيس الكنيسة ان يكون خادم السّلام لا خادم الحرب " . فكر في الأمر يومين آخرين ، وقد فحص المؤرّخون في ذينك اليومين بالمجهر من غير جدوى . يبدو أنّه في هذه الساعات الثماني والأربعين دُكر في التقارير من النمسا والمانيا أن جماهير من الكاثوليك متمرّدة على الكرسيّ الرسوليّ : فهناك خطر الانشقاق .

نهاية الالتباس

٢٨ نيسان (ابريل) . أعلن بيوس التاسع في خطاب الى الكرادلة ، أن إصلاحاته لا تعود إلى آراء الاحرار بل إلى مشاعر انسانية مسيحية . إن حلّا يعني حرباً تُشنّ على الجرمانيين تسبّب في نفسه اضطراباً شديداً . إنّه لا يسأل الله الحرب بل الحرب بل الوفاق والسّلام . أعلن أيضاً استعداداه لأن يصير " رئيس نوع من الجمهورية الجديدة تُحقّق مع شعوب ايطاليا " .

أزال البابا بهذه الكلمات ما أحاط به من الالتباس الكبير على أثر صياحات الاحرار الذين استخدموه لأغراضهم ، وعلى أثر بعض مواقفه المترددة . فان هذه الكلمات أنزلت بأحلام " المناصرين للبابا" ضربة قاتلة وإن كانت ترفض رئاسة " الجمهورية " فحسب ولا ترفض رئاسة " تحالف من الممالك " .

وعلى الأثر بعث بيوس التاسع برسالة الى الامبراطور ، فطلب أن يؤذن للاقطار الايطالية بالاجتماع السّلمي في أمّة واحدة . تلت حركة موافقة لرغبته السّلمية ولكنها وهم من سذاجته . كانت الحماسة قد ثارت ثورة خاطفة ، فانقلب الموقف رأساً على عقب بسرعة خاطفة ،

فوقع شغب في ساحة الحرب ، وفي مختلف العواصم الإيطالية ، فأمر ليوبولدو ملك توسكانا وفرديناندو ملك نابولي جيشهما بالعودة . وذهب ملك نابولي الى أبعد من ذلك ، فعمد الى انقلاب سبّب معارك عنيفة بين المتظاهرين وقوة الحكومة فحلّ المجلس (١٥ أيار مايو) .

وبقيت قوى نابولي بإمرة بيبي (Pepe) وقوى باباوية بإمرة دوراندو ، مع كارلو البرتو على أنها قوى متطوّعة يؤيدها الطلاب الجامعيون التوسكانيون .

كان يوم ٣٠ أيار (مايو) آخر يوم مُسرق في تورينو اذ بلغتهم بشرى انتصار غويتو (Goito) واستسلام بسكييرا (Peschiera) فزُيّنَت الشوارع وأُنيرت النوافذ وصاح النَّاس : " عاش كارلو

البرتو ملك ايطاليا ! " .

ولكنَّ الأيامُ المُرَّةُ تبعَت على الأثرِ اذ استولى راديتزكي على فيتشنيزا (Vicenza) واحتل بادوفا (Padova) وتريفيز (Terviso) ومستري (Mestre) .

أخذت الحرب تُثقل كاهل تورينو ، فأعمال التجارة تضعف ، ولا مال للتداول وأغلق كثير من المحلات التجارية ، وكثر عدد العاطلين عن العمل ، وأضرب صانعو الأحذية والخياطون عن العمل لِقلة أجرتهم .

ويُضاف الى ذلك كله ما يشاع من أنَّ العاصمة سُنقل الى ميلانو . فمدينة مثل تورينو لا بلاط فيها ولا اعمال ادارية ، تعني مدينة نصف عاطلة عن العمل . أخذ يرتجف من الخوف صاحبو العمارات الذين بنّوا كثيراً في السنوات الماضية وعلى عاتقهم كلهم معاً رهن قدره ٦٣٧ مليوناً .

الصحون و " حصة الطعام " في المصلّى

في ذلك الجوِّ من الفقر المنتشر شدَّ الحزام على البطون في مصلّى فالدوگو أيضاً . عندما يعود عند الظهر العمال الصغار الذين يعيشون مع دون بوسكو ، فإنهم يذهبون الى المطبخ وصدقهم في يدهم ليحصلوا على حصتهم . إن القدر التي تغلي على النار تحتوي على الأرزّ والبطاطا والمعجنات واللوبياء أو على خليطٍ مُغدٍ يُنصح به في وقت الحرب أي كستنة مجففة مغلّية مع طحين الذرة الصفراء .

كان دون بوسكو يوزع الحساء ويُبَيِّله بالنكات : " كرمّ الطباخ بشهيتك للطعام " ، " من اراد ذلك النموّ أكثر من الأكل " ، " وددت لو أعطيتك قطعة من اللحم ولكن ليس عندي منه شيء . ومع ذلك إذا أتقنا لنا أن نجد بقرة لا يملكها أحد فسوف نُقيم عيداً عظيماً " .

وأما الفاكهة بعد الطعام فتفاحة ، لا تفاحة لكلّ واحد بل تفاحة واحدة يُقدِّف بها دون بوسكو في الهواء فيأكلها الذي يلتقطها .

المقصف لجميع أهل المصلّى هو " المضخة التي تصبّ الماء بسخاء وهو بارد صحّي " . وفي أثناء الطعام تقفز دجاجة من دجاجات ماما مرغريتا ، وهي تفوق ، لتنقر حصتها من الفئات .

الخبز ثروة الفقير . عند المساء يعطي دون بوسكو كلّ واحد ٢٥ فلساً لكي يشتري الخبز لنفسه ، والسبب هو أنّ الذوق شيء في حين أنّ الصّحة شيء آخر . فمن كان بطنه سليماً ، ولا يهّمه طيب المذاق ، يشتري كعك الجندي ، فيحصل على قدر حسن منه ، في حين أنّ آخرين يفضلون الخبز المألوف المصنوع من العجين الصلب أو من العجين الطريء .

وبعد طعام الظهر وكذلك بعد طعام المساء وهو مماثل على وجه تام لطعام الظهر يغسل كلُّ واحد صحنه ، ويضع ملعقته في جيبه .

من كانت شهيته للأكل شديدة ، يمكنه الذهاب قبل الطعام إلى جنينة ماما مرغريتا ليأخذ شيئاً من الخس ، ويُعدّ لنفسه سلاطة بشيء من الزيت والخل بشترية بما أدخره من المال .
إن الاحوال عسيرة ، فكلُّ صَبِّي يحسب حسابه بدقة الى ما يقارب الفلوس ، ليُدَّخر شيئاً .
فن تدبير الأمور شائع كثيراً . يبلغ الأمر بصبيّ الى بيع فراشه بأربعين فلوساً إلا اذا رده دون بوسكو عن ذلك قبل فوات الأوان . وأرادت ماما مرغريتا أن تدَّخر الفلوس التي تدفع للحلاق فقصّت شعر الصبيان . ذكر الدكتور فيديريكو تشينيا (Cigna) : " كانت القصّة بالمقص تترك في رأسي كثيراً من السلام . فشكوت الأمر ، فقالت الى تلك المرأة القديسة : ان هؤلاء السلام سئصعدك الى الفردوس " .
إنه لألم شديد أن لا يحصل المرء على الطعام الكافي لتغذية أولاده ولو استعمل النكات ، وغير ان ذاك الألم لم يكن أشدّ ما عاناه دون بوسكو .

الولاء للبابا وآفاته

كتب بييترو ستيل (Pietro Stell) : " بعد خطاب بيوس التاسع ، لم يخلُ الجوّ من ساعات توترٍ شديد بين الكهنة المجاهدين في الطليعة في مشروعات الشبيبة ، بين الأب كوكي (Cocchi) والأب بونتي (Ponte) من جهة ، ودون بوسكو من جهة أخرى . ولكنهم كانوا يشعرون كلهم شعوراً مُرهفاً بالوقت الدقيق الذي تمرّ به كنيسة تورينو . ففي ذلك الوقت خصوصاً أحسَّ الكهنة الوطنيون أنه لا ينبغي إهمال اتباع الشعب في أمنيته للوحدة ، إذا أريد نجاحُ الدِّين " .
وكان دون بوسكو من جهته لا يرى غنى عن الولاء للبابا قبل كل شيء (فالى الصبيان الذين صاحوا الى ذلك الحين " عاش بيوس التاسع ! " طلب أن يصيحوا " عاش البابا ! " واشتدّت شكوكه الكبيرة التي كانت عالقة بذهنه من قبل بشأن نشاط الاحرار .
نحن نعلم اليوم ، بعد أكثر من قرن من كلام المؤرخين ، أنّ وحدة إيطاليا كانت فتحاً عظيماً ، ولكن لم يُحصل عليها بأحسن الوسائل . كانت النهضة حدّثاً من صنع البورجوازيين والطبقات الوسط ، ولم يشترك فيها الشعب إلا في بعض المدن . إن الجماعة الفلاحية الكبيرة التي كانت تمثّل سبعين بالمائة من السكان ظلت غريبة عنها ، إن لم تكن عدوة لها صراحة .
كان دون بوسكو فلاحاً ، وكان يُحسّ كراهية غريزية لتلك " الحركات " التي يُوجَّهها مُحامون دُهاة وسياسيون دسّاسون . كان " الشعب الحقيقي " مدعوا في نظرهم الى أمر واحد وهو بذل دمه

في ساحات الحرب . أمّا في رأيه فكانت الحرب عقاباً من عند الله و كارثة للشعب الضعيف
فحسب .

أجل ، عندما ينظر المرء إلى الأمور هذه النظرة ، فان دون بوسكو يظهر محدودا ، ولكنه
يُثبت أيضاً أنه بعيد النظر ، ولا سيما في توجيه مشروعه الناشئ ، فقد اختار طريقاً (الولاء للبابا
من غير اي ارتباط بالاحزاب) مكّنت مصلاّه المتواضع من ان يتحوّل الى رهبانية عالميّة . إن تدوين
التاريخ بالافتراضيات هو لعب باليانصيب ، ولكننا على يقين من أنه لو نزل دون بوسكو الى الشارع
لينشر العلم المثلث الألوان ، ولكننا تكلمنا عليه اليوم كلامنا على كاهن مساعد طيّب ، من ضاحية
تورينو .

إنّ تعلق دون بوسكو بولائه للبابا سبّب له في حينه كثيراً من خيبة الأمل . فان كاهنين كانا
يعملان في مصلى مار لويس خالفا ما نهى عنه ، وقادا الأحداث ، وهم يحملون الأعلام
والشارات ، الى المسيرات السياسية ، وحوّلا العظات الى اجتماعات سياسيّة نشيطة ، فاضطّر
دون بوسكو الى منازعتهما .

وكانت الحالة في فالدوگو أسوأ ، فقد ألقى أحد معاوني دون بوسكو عظة دوتّ فيها " الحرية
والتحرّر والاستقلال " طوال الخطاب . كتب دون بوسكو : " كنتُ في الموقف ، أريد بفروغ
الصبر أن أنهي البلبلة ، ولكنّ الواعظ ما إن منح البركة حتى دعا الكهنة والاحداث الى الانضمام
اليه ، فأخذوا ينشدون بأعلى أصواتهم الأناشيد الوطنيّة وهم يلوّحون بالأعلام تلويحاً عنيفاً ،
وذهبوا بأجمعهم فساروا صفوفاً حول جبل الكبوشيين ، ووعدوا هناك وعداً قاطعاً بالألّا يعودوا الى
المصلى إلا ليستقبلوا استقبالاً له صفة وطنية " .

كتب الأب لموان (Lemoyne) : إن مصلى فالدوگو ظلّ فارغاً على وجه التقريب عدة
أسابيع ، فنزل عدد الصبيان من ٥٠٠ الى أقلّ من مائة .

وكتب دون بوسكو بلهجة الأسي : " لم يحاول أحد من الكهنة أن يعود ، في حين أنّ الاولاد
طلبوا الصفح ، وأكّدوا انهم ضلّوا ، ووعدوا بالطاعة والعمل بالقانون . ولكنّي بقيتُ وحدي
وهناك نحو خمسمائة من الأحداث ولا عون لي سوى عون اللاهوتي بوريل حيناً بعد آخر : لا أدري
كيف استطعتُ أن أظلّ قائماً ، وأنا أعمل على هذا النحو المُرهبق " . قال الاب لموان إن الأكبر سيئاً لم
يعودوا وان المعدّل الوسط لسينّ الصبيان صار من ذلك الحين أقلّ مما كان عليه قبلاً .

الاخبار المفجعة

إنّ الشطر الثاني من ١٨٤٨ شهد سلسلة من الأخبار المفجعة . في حزيران (يونيو) فُمعت

بقنابل المدافع ثورتا براغة (Praga) وباريس ومن ٢٣ الى ٢٦ تموز (يوليو) وقع في مرتفعات كوستوزا (Custozza) الاصطدام الحاسم بين النمساويين والبيمونتة ، وكانت هزيمة كارلو البرتو شديدة جداً حتى إنهم لم يستطيعوا أن يُعدّوا الدفاع عن ميلانو .

وصل الخبر إلى تورينو في ٢٩ تموز (يوليو) فسبب بلبلة كبيرة ، فاضطّرّ الحرسُ الوطني الى احتلال ساحة القصر (Piazza Castello) . في ١ آب (أغسطس) أمر بتعبئة الأفواج الستة والخمسين العائدة الى الحرس الوطني . وتولّت لجنة يرئسها روبرتو دازيليو (D'Azeglio) المحافظة على النظام .

واستمرّت المشاغبات في الأماكن البعيدة من وسط المدينة . وكانت دُور النبلاء والكهنة على الخصوص هدفاً لأعمال الشغب .

في ٦ آب (أغسطس) أسرع جيوبرتي الى مركز القيادة العامّة للملك ، وناشده ألا يُوقع على الهدنة ، ولكنّ كارلو ألبرتو كان مقتنعا أن الجيش لم يبقَ صالحاً للحرب ، فأمر القائد سالاسكو (Salasco) في ٩ آب أن يُوقع عليها . كان ذلك اعترافاً بالهزيمة ونهاية للأمال .

فتار ثائر رجال السّياسة في تورينو على عجز القادة وحيّل الكهنة ، فشرعوا من غير تردّد في إجراء تحقيقات برلمانيّة لمعاقبة المذنبين . كانت العاصمة في غليان شديد . كتب فرنسيس كونياسو (Cognasso) : " وجب اتخاذ تدابير شديدة فبدّلت الحكومة ، وحُظر بيع الصّحف في الشوارع وإعلان بيانات سياسيّة ، والاجتماع في السّاحة للجدل " .

اطلاق الرصاص في معبد بيناردي

كتب دون بوسكو في وصف ذلك الزمان : " كان الناس يرون في كلّ شتيمة تتناول الكاهن والديّن شتيمة مُستحقة ، فقد هُجم عليّ أنا بنفسى عدة مرات في بيتي وفي الشارع . كنت ذات يوم أُلقي درس التعليم الدينيّ فدخلت رصاصة بندقية قديمة من نافذة ، وثقبت ثوبي بين ذراعيّ وخصري ، وذهبت فتركت أثراً كبيراً في الجدار " .

كان دون بوسكو في معبد بيناردي ، فدُعر الصبيان من تلك الضربة غير المتوقعة ، فتولّى طمأننتهم بكلام هزل ، مع ان طلقة البندقية التي أخطأته قيد شعرة قد هزّته هزّاً . قال : " هذا مزاح ثقيل . إنّه يُزعجني من جهة ثوبي . فليس لي سواه ولكنّ السيّدة العذراء تُحبّنا " .

اقتلع أحد الصبيان القذيفة من الجدار وكانت طلقة من الحديد رديئة الصنع .

" وكنت مرة أخرى بين حشد من الصبيان ، فهجم عليّ مجهول في وضح النهار ، وبيده سيكين ، وقد استطعتُ أن أركض بكلّ ما أمكنني من السّرعة فأدخل غرفتي وأغلق بابها . وقد نجا

الأب بوريل أيضاً بمعجزة من طلبة مسدس " .

وكان كثير من الصحف تُذكي نار البغض للكهننة ، وصدرت عناوين ضخمة فيها عداوة لدون بوسكو : " اكتشاف الثورة في فالدوگو " ، " كاهن فالدوگو وأعداء الوطن " .

العمل لإخراج كهنة من نوع جديد

لم تكن هذه العداوة الشديدة تؤلم دون بوسكو فحسب بل كانت تجعله يفكر . كتب : " كان تفكير فيه هذيان يُظهر عداوة للرهبانيات وعلى وجه عام لرجال الدين وجميع أصحاب السلطة في الكنيسة . كان ذلك الصراخ ، صراخ الغيظ والازدراء للدين ، يُبعد الشبيبة عن حسن الخلق والتقوى فَعن الدعوة الى اعتناق الحياة الاكليريكية " .

وكان دون بوسكو يرى أن الخطر الأشدّ هو نضوب الدعوات الكهنوتية . ولم يُضع دون بوسكو وقته في ندب سوء أحوال الزمان بل استعراض المشكلة بوضوح : " ماذا يمكنني عمله في سبيل مساعدة الدعوات ؟ " .

بدأ له أن الشعب لا يعادي الكهنة لأنهم لا يشتركون في حرب الاستقلال الايطالية ، بل لان معظم الكهنة " ليسوا من الشعب " . إنّ الدعوات تنشأ في الأسر النّبيلة والأرستقراطية ، أو على الأقلّ ، في الأسر التي تعيش في رخاء ، في حين أن دعاة العهد الجديد هم العمّال . إذا كان هذا هو السبب الحقيقي ، فحلّ المشكلة ليس في الاشتراك في معركة نوفارا كما حاول الاب كوغي (Cocchi) بعدئذ .

كتب دون بوسكو : " في ذلك الوقت كشف الله كشفاً واضحاً عن الطراز الجديد للكهننة الذي اراد اختياره : لن يكونوا بعدئذ من الأسر الميسورة . يجب اختيار الذين يعملون بالمعول أو المطرقة ، لينضموا إلى صفّ الذين يريدون الحياة الكهنوتية لأنفسهم " . يجب أن يكون الاكليروس من الشعب العامل الفقير .

فأخذ دون بوسكو يعمل لوقته وفقاً لهذه الخطة بما لديه من الوسائل الضعيفة . اختار ثلاثة عشر من الأحداث الذين يُقبلون على المصلّى ، ودعاهم إلى حضور دورة من الرياضة الروحية . أضافهم دون بوسكو طوال النهار ولكن " لم يكن لديه أسرة من أجلهم جميعاً ، فكان عدد منهم يذهبون عند المساء الى بيوتهم ليناموا فيها " .

في أثناء تلك الرياضة اهتمّ دون بوسكو بدروس أخلاق هذا او ذاك ، ليعرفه فيختاره إذا رآه صالحاً للدعوة الكهنوتية . كتب الأب لموان : " كان الهدوء السائد في تلك الايام يضادّ الاضطراب الشديد الذي يسود المدينة " .

واختار من هؤلاء الثلاثة عشر في أثناء السنة بعدها ، أربعة كانوا أفضلهم وواصل تجربته .
كتب : " هكذا كان مصالنا الوضع يترسّخ في حين كانت تجري الأحداث الجسيمة التي
أوشكت أن تغيّر وجه السياسة الإيطالية ووجه العالم أيضاً " .

أخبار مفاجئة من رومة

١٨ آب (اغسطس) . عاد الى تورينو أوّل الألوية المهزومة . إن الجوّ لا يوحي بهجة العيد
ولكن الشعب استقبل بعطف هؤلاء الجنود المتعبين الذين علاهم الغبار .
١٥ ايلول (سبتمبر) . عاد الملك إلى تورينو ، فاستقبلوه استقبالا بارداً كئيباً . في المدينة
إشاعات غريبة : هناك جيوش فرنسية قادمة فتعاود الحرب بمعاونتهم ، الملك يُزعم ان يستقبل ،
الثورة تؤذن بالاندلاع .

١١ تشرين الأول (اكتوبر) . أقام كارلو البرتو رئيساً للوزراء القائد بروني (Perrone)

الذي كان قد حُكم عليه بالموت شنقاً في السنة ١٨٢١ . وحاول يوسف غاربيالدي الذي حُكم
عليه بالموت في السنة ١٨٣٤ أن يقوم بعمل القرصان لمحاربة النمساويين في بحيرة ماجوري
(Maggiore) . واستمرت الاضطرابات في المجلس (حيث طالب اليسار بالعودة إلى الحرب) وفي
المدينة . كتب كونياسو (Cognasso) : " إن أهل جينوى من لواء سافويا يتركون التكنات عند
المساء ، ويأتون ساحة كاستلو ويُحدثون بلبلة فيصرخون : عاش الملك ! عاشت الجمهورية !
عاش السلام ! عاشت الحرب ! سكنانا رديئة ! طعامنا رديء ! " .

في نصف تشرين الثاني (نوفمبر) وصلت أخبار سوء من رومة . قتل الجمعُ بليغرينو روسي
(Pellegrino Rossi) رئيس الوزراء المعتدل لبيوس التاسع ، وفرض "أهل المدينة" على البابا أن
يدعو المجلس التأسيسي وأن يشترك في مجاربة النمسا .

فطاف بشوارع تورينو جماعة من الهائجين وهم يصيحون : " ليسقط بيوس التاسع ! ليسقط
الوزراء الرجعيون ! عاش قاتل بليغرينو روسي ! الحرب ! الحرب ! " .

بدأ الخوف ينتشر ، الخوف من ان تبتدئ الثورة فيتجدد الارهاب ، وقد أوشك تشرين
الثاني (نوفمبر) أن ينتهي ، فوصل من رومة خبر يقول أن بيوس التاسع قد هرب : تظاهر بأنه
يريد الانقياد للجمع ، ولكنه تنكر فلبس ثوب كاهن بسيط ولجأ الى غايتا (Gaeta) في مملكة
نابولي .

وأثر في كارلو ألبرتو ضغط الجماعات الديموقراطية والمظاهرات الشعبية فقبل استقالة بروني
وأقام جيوبرتي رئيساً للوزراء ، فحلّ المجلس في ٣٠ كانون الأول (ديسمبر) وأعلن اجراء

بدأت السنة ١٨٤٨ في حماسة الآمال فانتهت في إيطاليا في ضباب الحيرة ، وانتهت في الأمم الاخرى بنار القمع وحديده ، فبعد باريس وبراعة فُذفت فينًا أيضاً بمدافع قائد ، وألغى برلمان برلين في كانون الاول (دسمبر) .

علامتان تدعوان إلى الرجاء في فالدوگو

في منخفض فالدوگو ، حيث يتراكم الثلج عندما يبتدئ الشتاء ، تلقى دون بوسكو بتواضع علامتين تدعوان الى الرجاء .

لبس واحد من صبيانه الثوب الكهنوتي أوّل مرة ، واسمه اسكانيو سافيو (Ascanio Savio) وهو من بلده وقد تردّد على المصلّى منذ ان كان يُقام بالقرب من " الملجأ" . وجب الآن أن يدخل معهد الكهنوت ، ولكن معهد تورينو مُغلق ، ومعهد كييري في طريق الاغلاق ، فأذِنَتْ له الهيئة الادارية الاسقفية بأن تقام حفلة لبس الثوب الكهنوتيّ في دار كوتولنغو وأن يبقى بعد ذلك في المصلّى ليساعد دون بوسكو .

لم يبقَ دائماً فقد دخل بعد أربع سنوات معهد الكهنوت ، وصار كاهناً أبرشياً ، ولكنه قال في دون بوسكو : " أحببته حُبّي لأبي" وكتب دون بوسكو قس شأنه : " عهدت إليه لوقتي بجانب من المراقبة ودورس التعليم الدينيّ وادارة بضعة صفوف ، وهكذا اخذ حملي يخفّف " . ذلك اول حَمَل يصير راعياً .

وأما الحدث الثاني فقد كان من نوع يختلف اختلافا تاماً .

أقيم في المصلّى عيد رسميّ وقد استعدّ بضعة مئات من الأحداث لتناول القربان المقدس ، فأقام دون بوسكو القداس وهو مقتنع أنّ في بيت القربان حقّة مليئة بالقدسات ، في حين أنها شبه فارغة ، ويا لسوء الحظ ، فقد نسي يوسف بوتسيّتي المسؤول عن الموهف (وعن أي شيء ليس هذا الصبي مسؤولاً ؟) أن يُعدّ حقّة أخرى ، وفطن للأمر بعد كلام التقديس وقد فات الأوان . فلما أخذ الصبيان يتقدمون ليتناولوا القربان المقدّس ، أدرك دون بوسكو أنّه يجب عليه إعادتهم الى مكانهم ، فأبى ان يُسلم بذلك فأخذ يوزّع القدسات القليلة التي في قعر الحقّة .

فاذا بشيء يدهشه بوتسيّتي المسكين الذي يمسك بالطبق : عدد القدسات لا

ينقص ، وتناول القربان جميع الصبيان .

روى الحدث بوتسيّتي مذهولاً لرفاقه ، وقد رواه السنّة ١٨٦٤ للسالسيين الأولين وكان دون

بوسكو حاضراً عندئذ فأكد ، وعلى وجهه علامات الرزّانة : " أجل كان في الحقّة قليل من

القدسات ، ومع ذلك أمكنني أن أناول جميع الذين تقدّموا الى المائدة المقدسة وكانوا كثرًا . كنت متأثرًا ولكن هادئًا وفكرت أنّ معجزة التقديس أكبر من معجزة التكاثر . تبارك الرب في كلّ شيء " .

بينما تهزّ إيطاليا أحداثًا لها دويٌّ بعيد ، فان الرب في زاوية مجهولة من ضاحية تورينو يكثر صامتًا وجوده بين صبيان كاهن فقير . تلك علامة سرّية ولكنها منيرة جدًّا .

٢٦

دون بوسكو والسياسة والمسألة الاجتماعية

سياسة " أبانا الذي في السموات "

في السنة ١٨٤٨ تلقى دون بوسكو أول صدمة مفاجئة من السياسة ، واختار خطة تركها إرثًا

لرهبانه السالسيين الأولين .

أوجزها بعد سنين كثيرة للمطران بونوملي (Bonomelli) راعي ابرشية كريمونا (Cremona) : " أدركت أنه اذا أردتُ عمل شيء من الخير وجب علي ترك كل سياسة جانباً . لقد صنت منها نفسي وهكذا أمكنني أن أصنع شيئاً من غير التعرض لعقبة ، لا بل حصلتُ على عون من حيث لم أتوقع " .

إذا فُكر المرء ملياً في سلوك دون بوسكو ، لا في أحداث ١٨٤٨ فحسب بل في أوقات غيرها كثيرة حافلة بالسياسة وبالسياسة الكبرى ، بدا له أنه يمكن اختصارها على الوجه التالي :
أولاً – اقتنع دون بوسكو بنسبيّة سياسة الاحزاب ، وعدّها عنصراً قابلاً للتبدّل في الحياة (صار برّوني رئيس وزارة لذلك الملك الذي أراد أن يبعث به إلى المشنقة ، كان لا تور La Tour موالياً ولاء مطلقاً لكارلو البرتو ، ومع ذلك عزله ذلك الملك نفسه لأنه " لم يبقَ موالياً " ...) .
أكد بحزم : " لن أكون لحزب من الأحزاب " . فاعتمد أسساً أمتن من اليمين أو اليسار : النفوس يخلصها والأحداث الفقراء يقوتهم ويربّيهم . تلك هي السياسة التي سمّاها سياسة " أبانا الذي في السموات " .

ثانياً – نبّه بحاتّة إلى أن دون بوسكو أكد امتناعه من العمل للسياسة ، وهو مع ذلك عمّل لها كثيراً ومال ، في أغلب الأحيان ، إلى المحافظين وأنصار النمسا . إن هذا التنبيه يبدو لنا صحيحاً إلى حدّ ما ، إذا لم تُؤخذ عبارة " أنصار النمسا " بمعنى الدّم ، بل فُصد بها أنّ دون بوسكو نظر الى النمسا مرّاتٍ كثيرة نظرة العطف . فقد ربّي في معهد الكهنوت (كما أشرنا اليه) تربية محافظة ودُعي الى النظر الى النمسا نظرةً إلى حامية للبابا ، ربّي كذلك لا بمطالعة لكتب السياسة ، ولكن بقراءته رسائل البابا وخطاباته .

فكان من الطبيعي أن يسلك ذلك السلوك ، ويُرجّح أنه لم يَعُدّه سلوكاً سياسياً بل مسألة

إيمان ، أو على الأقلّ ، مسألة ولاء للبابا .

ثم إنّ دون بوسكو كان يعرف كثيراً من أهل تورينو الأحرار والديموقراطيين ، لا كما صاروا اليوم أسطوريين في كتب التاريخ ، بل كما كانوا في حقيقة الحياة اليومية ، محتالين دسّاسين يلعبون على الحبلين (مثلهم كمثّل بروفيريو Brofferio) .

ثالثاً – ويحدث أحياناً لامرئ مثل دون بوسكو أن يُضطرّ ، مع رغبته في العمل بسياسة " أبانا الذي في السموات " ، الى أن يبدي رأيه فيميل الى هذه الجهة او تلك ، فدون بوسكو في مثل هذه الاحوال ينحاز الى جهة البابا ، أي إنّهُ يعتقد رأي البابا .

في يوميات الاب بونيّتي (Bonetti) (٧ تموز يوليو ١٨٦٢) نقرأ ما قال عندئذ : " وجدت نفسي اليوم في بيت بين جماعة من الديموقراطيين فتعرّض الحديث لعدة أشياء لا شأن لها ثم تناول المسائل السياسية لذلك اليوم ، فأراد هؤلاء الاحرار الطيّبون أن يعرفوا رأي دون بوسكو في زحف أهل البيمونتة إلى رومة (كان ذلك ثماني سنوات قبل أحداث بورتا بيا) فأجبتُ صراحة إني مع البابا ، أنا كاثوليكي أطيع البابا طاعة عمياء ، اذا قال البابا لاهل البيمونتة : " تعالوا الى رومة " ، قلت أنا أيضاً : " اذهبوا اليها " . اذا قال اذا قال البابا إنّ زحف أهل البيمونتة غشّ وعمل منكر ، قلت القول عينه . إذا اردنا ان نكون كاثوليكين وجب علينا ان نُفكّر ونؤمن تفكير البابا وإيمانه " .

كان دون بوسكو مع البابا ، قبل أن يجادل وقبل أن يلمح الى رأيه . في ١٨٤٧ - ١٨٤٨ مال دون بوسكو بعض الوقت الى العُوف الجدد (١) : لا لا قتناعه بان ذلك أفضل ، بل لأن ذلك ، في رأيه ، موقف البابا . وبعد خطاب البابا في ٢٩ نيسان ابريل ١٨٤٨ عاد الى رأي المحافظين ، لا لأنه اتجاهه الفكري ، بل لأنه رأى البابا ، اذا بدّل موقفه ، بدّله هو أيضاً على الأثر . " اذا قال البابا لاهل البيمونتة : تعالوا الى رومة ، أنا أيضاً على قوله " .

دون بوسكو والمسألة الاجتماعية

في السنة ١٨٤٨ نشر كارل ماركس البيان الشيوعي . إنه بدء ثورة أقل ضجة من الفتن التي وقعت في تلك السنة ، ولكنها ذهبت إلى ما هو ابعد منها وأعمق . إنّ هذا الموقف الشيوعي الجذري العنيف من " المسألة الاجتماعية " لا يزال يهزّ أمم شمال أوروبا بعد عشرات السنين . إنّه تنديد قاطع بالطبقات المستغلّة إلى الثورة العنيفة " لقلب النظام " المبني على الظلم .

(١) كانوا ينادون : الرئاسة للبابا والسيف لكارلو ألبرتو (راجع ص ١٢٣) (حاشية من المترجم) .

أيّاً كان موقف دون بوسكو من المسألة الاجتماعية ؟ كتب بييترو ستيللا (Pietro Stella) : " لا يبدو أنه ساءل نفسه عن تبدّل الطبقات . لا يبدو أنه أدرك التأثير العظيم للفقر ، وهو حدث مرتبط بالانقلابات الاجتماعية (الكتاب المذكور ، ج ٢ ، ص ٩٥ - ٩٦) .

إذا فُصد القول ان دون بوسكو لم يرَ رؤية " علمية " الحالة الاقتصادية الاجتماعية ولم يتكلم عليها بعبارات فنيّة (رأسمال ، قوة العمل الخ) فنحن موافقون . ولكننا لا نوافق إذا فُصد القول إنّ دون بوسكو لم يفهم عصره ، وترك المشاعر الطيبة وحدها تقوده .

أكد الاب لموان (Lemoyne) الذي أسرّ اليه دون بوسكو بآرائه طوال سنين كثيرة : " كان

من الذين أدركو منذ البدء (وقد قاله ألف مرة) أنّ الحركة الثورية ليست إحصاراً عابراً ، لأن كثير من الوعود للشعب كانت مُحقّة ولأن كثيراً منها كانت تلبي أمنيات الشعب العامل العميقة في العالم كله . كانوا يرغبون في الحصول على المساواة لجميع الناس ، وتحسين حالتهم ، وكان دون بوسكو يعترف أنّ الثروات صارت احتكاراً لجماعة من الرأسماليين القساء ، وأنّ أرباب العمل كانوا يفرضون على العامل ، وهو وحده وأعزل ، عقوداً كلها ظلم في مسألة الأجرة وفي مسألة دوام العمل على حدٍ سواءً (ذكريات سيرة دون بوسكو ، ج ٤ ، ص ٨٠) .

كان دون بوسكو على حدود عهدين للعالم وللكنيسة إذن .

كان أهل الحرف ، في القرون التي تقدّمت الثورة الصناعية ، يجتمعون في " جمعيات " مهنية جامدة لها سمة القرون الوسطى ، ولكنها كانت تتولى حماية العمال إلى حدّ ما . كان عدد الفقراء كبيراً ، ومع ذلك لم يكن قط أشبه بالحشد الضخم التاعس لبني الشعب المتروكين لأنفسهم من غير سند ، وقد خلقتهم المعامل في القرن الأوّل للثورة الصناعية . كان المثال الذي تقتدي به الكنيسة للتدخل في سبيل المساكين هو " الإحسان المنظم " كما انشأه منصور دي بول (١٥٨١ - ١٦٦٢) .

في العهد الصناعي الجديد ، نُبذت " الجمعيات الحرفية " الى النفايات (ومن بين أسباب ذلك النبذ انتصار مبادئ الحرية) ولا حرّية لحشود بني الشعب سوى الحرّية بأن يكونوا فريسة أرباب عمل أقوى جداً يستغلونهم كما يشاؤون . إنّ الأحرار يحرصون على حظر تنظيمات جديدة تدافع عن حقوق العمال ، إسوة بالجمعيات الحرفية القديمة .

لم يكن من خُطّ حسنة حاضرة ، ولا برامج للعمل ، كما قلنا في الصفحات السابقة ، وكان الناس حائرين كما هو دائماً في أول حقبة تاريخية ، فسخر كثير من رجال الكنيسة عزيمتهم للعمل الفوري في سبيل الشعب التاعس ، نافضين الغبار عن وسائل الاحسان التابعة لمار منصور دي بول . ولكن سرعان ما ادركوا أنّ الاحسان غير كافٍ . انه لا يزال غير كافٍ حتى في شكله الجديد المتقدم من الجهة الاجتماعية ، أي المدارس الصناعية وورشات التدريب . كان يجب الكفاح في سبيل العدالة الاجتماعية ومؤسّسات وقوانين تضمن حقوق العمال . كانت الطريق طويلة لقلّة الفهم في حلقات السلطة العليا وللمقاومات العنيفة التي أبدتها الدول التحرّرية .

في السنوات الاولى للثورة الصناعية الايطالية ، ألقى دون بوسكو بنفسه في الأحوال الجديدة بدافع الحاجة الماسّة ، وقد نذر نفسه نذراً تاماً للعمل في سبيل الصبيان الفقراء . إنّ خطته الفوريّة للتدخل السريع صارت العلامة المميزة بدون بوسكو ورهبانه السالسيين الاوليين (لأنه ليس بوسع الفقراء ان ينتظروا الاصلاحات والخطط المنظمة) . فالتعليم الديني والخبز والتعليم المهني ، والصنعة يحميها عقد حسن ، هذه الأشياء هي البرنامج " العاجل " الذي كان أبناء دون بوسكو يحققونه في سبيلهم .

ويبدو لنا أن هذا الاختبار لم يكن عفويًا فحسب ، فقد أصبحت الحالة أكثر وضوحاً على مرّ الأيام ، وازداد وعي دون بوسكو للعصر الذي دُعي ليعيش فيه ، ووعيه لرسالته وما فيها من عظمة وما لها من حدود .

ما معنى القول " ترك كل سياسة جانباً ؟ "

قال دون بوسكو في السنة ١٨٤٨ للمطران بونوملي : " أدركت أنه ، إذا أردتُ عملَ شيء من الخير ، وجب عليّ ترك كل سياسة جانباً " .

كلمة سياسة لا تعني تحالف الأحزاب فحسب بل تعني ، عند ذلك ، موقف الإنسان من المسألة الاجتماعية : أن يكون مع تحرير الاسعار أو عليه ، وتدخلُ الدولة في شؤون العمل ، والتعاونيات على مثال أوين (Owen) ، والنقابات ، والتشريع الاجتماعي الذي طالب به في ألمانيا المطران كيثلير (Ketteler) الخ ...

" ترك كل سياسة جانباً " يعني أيضاً الابتعاد عن التدخل في المنازعات الاجتماعية ، وهي جزءٌ من برنامج الأحزاب السياسيّة ، فلم يشأ أن يكون مع واحد على آخر . ولو صنّف كاهناً اشتراكياً ، لكان فقدَ لوقته كلّ مساعدة تأتيه من الميسورين ، وكان يحتاج عندئذ إلى المساعدة لأنه لم يشأ أن يترك الأحداث مشرّدين في الشارع . إنه يفعل الخير ، بل يفعل كثيراً من الخير حقاً للفقراء .

مخطط بسيط بدائي

اختار مخطّطاً بسيطاً لكي يدعو الى التفكير الأغنياء والميسورين الذين يجب عليهم أن يساعده : " إنّ الفقراء مُعرّضون لخطر وهو أن تجرفهم الثورة ، لأنّ البؤس لا يُطاق ، وإن هذه الحالة لا تليق بشعب مسيحي ، فيجب على الأغنياء أن يجعلوا خيراتهم في متناول الفقراء . وإذا لم يفعلوا ذلك ، لم يكونوا مسيحيين . إنّ الفقراء بدافع البؤس سيطالبون أن يقاسمهم الأغنياء خيراتهم ويضعون السكين على اعناقهم . إنهم سيفجّرون الثورة التي ستجلب البلبلة والعنف كما جرى في أيام الارهاب في الثورة الفرنسية . سيكون ذلك كُله نتيجة قساوة الأغنياء الذين أبوا مساعدتهم على الخروج من البؤس " .

إذا رجعنا الى المثل الانجيلي كان دون بوسكو السامريّ الشفيق الذي لقي من جرحه اللصوص ، فأخرجه من الحفرة وحمله الى الفندق وأنفق عليه لمعالجته . إنه ليس سياسياً يُسرع الى وضع خطة لسنّ قانون غايته قمع اللصوصية .

كلما مرّت السنون ادرك أنّ العمل " الفوري " لا يكفي ، وأنّ للاحسان حدوداً واضحة .
وهو يعرف أنّه ليس وحده في الكنيسة ، فقال بضع مرات للسالسيين : " أجل ، يجب أن يكون في
الدنيا أناس يهتمون بالشؤون السياسية ، لينصحووا وليحدّروا من الاخطار ، أو ليقوموا بغير ذلك ،
ولكن هذا السعي ليس لنا ، نحن الفقراء " (ذكريات سيرة دون بوسكو ، ج ١٦ ،
ص ٢٩١) ، " لا تخلو الكنيسة من أناس يُحسنون معالجة هذه المسائل العويصة العسيرة . في
الجيش أناس جُعلوا للمحاربة ، وأناس وُكل إليهم الاهتمام بالامتعة وسائر الاعمال ، وهي أيضاً
ضرورية للتعاون في سبيل النصر " (ذكريات السيرة ، ج ٣ ، ص ٤٨٧) .
يمكن الجدل في هذا الامر وهو أن يُفضّل المرء التّدخّل الفوري والامتناع من الخوض في
مناقشة سياسة بغية الحصول على المساعدة من جميع الجهات ، ولكن لا يُمكن الجدل في النتائج التي
أصابها الذي فضّل التّدخّل الفوري : وهي معجزة حقيقية لخير الأحداث الفقراء ، اعترف بها
حتى الذين يفكّرون تفكيراً مختلفاً ، بل الذي خرج من دُور دون بوسكو الخيرية ، فكافح في سبيل
الفقراء بمشروعات مختلفة .

(هذان مثلان فحسب : ساندرو برتيني Sandro Pertini تلميذ قديم لفاراتسي Varazze
واشترافي ملحد صار رئيس الجمهورية الايطالية فكتب الى الاب بورلّا Borella معلمه : " إنني
أدرك اليوم أنّ الحبّ غير المحدود الذي أكنّه للمظلومين التعسّين بدأ ينشأ فيّ لما كنت أعيش بالقرب
منك . إن حياة قديسك الجديرة بالاعجاب لَقننتي المبادئ الأولى لهذا الحب " . وأكّد المؤرخ
جياكومو مارتينا Martina فقال : " كان يبدو ان سالسيّ الجيل الأول ، عندما يَصِلون الى مدن
اقليم رومانيا التي يسكنها " الحمر " وأعداء رجال الكنيسة ، سيخفقون لا محالة . ولكن كان يجري
خلاف ذلك ، فكانوا يهجمون بصبيان المصلّى والجوقة الموسيقيّة ، فيصيرون في وقت قليل أصدقاء
جميع الناس فيقولون : هؤلاء ليسوا كهنة كسائر الكهنة) .

وماذا لو اختار موقفاً آخر ؟

هناك أمرٌ يبدو أكيداً : لو اختار دون بوسكو أن يخوض التّقاش الاجتماعي ، لفتح قليلاً
من المدارس وورشات العمل . ولربّما كان اختياره اكثر مدعاة للجدل اليوم ، فقد أكد هو بنفسه
في ٢٤ حزيران (يونيو) ١٨٨٤ : " ماذا ينفعا أن نُلقى بأنفسنا في السياسة ؟ فما الذي
نحصل عليه بقوانا ؟ لا شيء سوى أن نصبح على الأغلب عاجزين عن مواصلة أعمالنا
الخيرية " (ذكريات السيرة ، ج ١٦ ، ص ٢٩١) .

إذا اختصرنا موقفه أشدّ اختصاراً أمكننا القول إن دون بوسكو بين أمرين لا بدّ له من اختيار

أحدهما :

- وإمّا محاربة نتائج الظلم الاجتماعي (بمساعدة الصبيان الفقراء وذلك بأن يطلب ويقبل مساعدة أيّ كان لإنشاء المدارس وورشات العمل) .

- أو محاربة أسباب الظلم الاجتماعي (باكتشاف أشكال جديدة للتتديد العلني وبإنشاء جمعيات للعمالا الاحداث وبرفض التعاون والاحسان من قبل أشخاص مُغلق عليهم في نظام سياسي اقتصادي مبني على الاستغلال) فتكون العقابّة ، على وجه واضح ، نضوب ينابيع الإحسان وترك الصبيان الفقراء لمصيرهم .

في الحالة الأولى يُنفذ الشبيبة من الأخطار الفورية ، ولكن هناك خطر وهو أن " يستخدمه " أصحاب النظام القائم ، لأنه يربّي عمّالا مطيعين مستخدمين فلا يزعمون الأقوياء آخر الأمر .

في الحالة الاخرى ، يطلب تبديل النظام ، ولكن هناك خطر العجز عن مجابهة المشاكل الفوريّة التي تسحق الفقراء .

كان الإختبار مفعباً ، لا عند دون بوسكو وحده بل عند كثير من رجال الكنيسة . فأياً كان الحلّ المختار لا يُعمل " كلُّ " ما يجب عمله .

إختار دون بوسكو الطريق الأولى لحاجات الوقت الماسّة . وعندما يعترف بحدودها يشعر بتأييد يأتيه من عمل الكنيسة كله : " لنترك لرهبانيات أخرى ، أشد منا بأساً ، المواقف السياسيّة والعمل السياسي . واما نحن فنذهب إلى الفقراء توّاً " .

المواهب في الكنيسة كثيرة لخير الجماعة . تلقى دون بوسكو موهبة التدخّل السريع لخير الصبيان الفقراء . إنها موهبة تختلف عن مواهب غيرها ولا تنقصها وقد نالها كهنة آخرون وكانت كلها غنيّة بالثمار المفيدة لشعب الله .

٢٧

١٨٤٩ سنة عميقة كلّها شوك

كتب دون بوسكو : " كانت السنة ١٨٤٩ عميقة كلّها شوك ، فقد كلّفنا تعبا مُضنياً وبذلاً

جسيماً " .

ابتدأت السنة نبياً محزن من أسرته . ففي ١٨ كانون الثاني (يناير) تُوفي أخوه أنطون وفاة شبة فجائية وهو في الاحدى والاربعين فقط . كان في الأوقات الاخيرة يُكثر من المجيء الى المصلى ليلتقي وأمه مرغريتا وأخاه وكانوا يتكلمون على الغلات الضعيفة والضرائب الباهظة التي كانت الحكومة تُثقل بها كاهلَ الفلاحين لتمويل الحرب ، وكان يُطلعهما على أخبار الاولاد السبعة الذين ينمون نمواً طبيعياً .

كانت الاعوام قد قرّبت بين الأخوين . وكان يبدو بعيداً جداً الوقت الذي فيه كانت علاقاتهم باردة .

في أول شباط (فبراير) رئس كارلو البرتو افتتاح المجلس النيابي الذي نشأ عن الانتخابات الاخيرة ، فاستقبلته الأكثرية اليسارية الكبيرة بسكوت العدا . وهتف الناس في الشوارع :
" عاشت الحرب ! ليسقط الكهنة ! عاشت الجمهورية ! " ، وظهرت في الصفحات صوراً
كاريكاتورية بذيئة لبيوس التاسع " الخائن لاطاليا " . وفي صحيفة الفسكيّو (Il Fischietto =
الصفير الصغير) هُجى دون بوسكو بنهكم غليظ ، فسمّوه " الفديس ومجري المعجزات في فالدوگو " .

عادت عصابات الرّاعاع إلى هجماتنا بالحصى على بيت بيناردي ، وقد استأجره كُله دون بوسكو .

إذا خرج دون بوسكو طلب بروزيو (Brosio) الدركي أن يرافقه ، وهو الذي روى : " لما كنا نمرّ في الجادة التي يقال لها اليوم جادة الملكة مرغريتا كانت جماعة من الأوباش الصغار يشتمون

كلّ مرّة دون بوسكو ويرفعون أصواتهم بشنائم قبيح ، أو يغنون أغاني بذيئة ، فأردت ذات يوم أن أصفعهم ، ولكن دون بوسكو وقف واستطاع أن يدنو من بعضهم واشترى ثماراً من بائعة غير بعيدة وقدمها لأصدقائه كما كان يسميهم " .

إخفاق " صديق الشبيبة "

دون بوسكو مشغول البال بالأذى الذي تلحقه بالشبان الصحف العدوّة للدين ، فهي تُباع في الشارع وتُعلّق بالجران . الجرائد الكاثوليكية قليلة ، وينقصها ما يستهوي الناس .

ما أكثر هموم دون بوسكو ، ومع ذلك فقد أضاف إليها همّ إنشاء صحيفة ونشرها وإدارتها .
سمّاها صديق الشبيبة وكان يُخرجها ثلاثة أعداد في الاسبوع وكان يساعده في إعدادها الأب
كاربانو والاب كيافيس (Chiaves) . وكان يطبعها عند سيبراني - فيريرو (Speirani - Ferrero) .
أفلس دون بوسكو بعد وقت قليل . كان عدد المشتركين في الثلاثة الأشهر الاولى ١٣٧ وفي
الثلاثة الأشهر الثانية ١١٦ عدد الصحف التي طبعت ٦١ ، واضطّرّ دون بوسكو الى أن يدفع
لصاحب المطبعة ٢٧٢ ليرة كانت ديناً عليه .
ولكنه لم يندم على ذلك قطّ ، فقد حاول عمل الخير فاصطدم أوّل مرة بما عند الصالحين " من
طمأنينة في قلّة الوعي " . سوف يجرّ الصحافة الكاثوليكيّة في إيطاليا وراءه كما تُجرّ سلسلة ثقيلة مدّة
تزيد على مائة سنة .

الحرب مرة أخرى

في أثناء ذلك عاد جوّ تورينو جوّ حرب
في ٢٠ شباط (فبراير) استقال جيوبيرتي فخلفه وزير الحرب كيودو (Chiodo) في رئاسة
الحكومة . كان اليسار الديمقراطيّ ، وهو سيّد الموقف ، يحرّض الناس على العودة الى الحرب .
في ٢ آذار (مارس) قدّم المجلس النيابي طلباً الى الملك : " إنّ نواب الشعب يحثونك على العمل
وإعلان الحرب . إنّنا واثقون بجيشنا " .
١٢ آذار . نُفِضت الهدنة وعادوا الى الحرب بعد ثمانية أيام . ذهب ٧٥ ألف رجل الى
الحدود ، ومضى الملك الى ألسنّدرية ولكن لا حماسة عند الجنود هذه المرّة . رفض لواء سافويا
السير ، وهرب أناسٌ من الجنود فقتل بعضهم بإطلاق الرصاص عليهم .
في لومبارديا هتف راديتزكي (Radetzky) بشعاره الجديد للجنود : " إلى تورينو ! " .
٢٣ آذار . انتهى كلُّ شيء وخسر كارلو البرتو المعركة والحرب ، وعمّت الفوضى وتشتّت
الجنود في الطرق ، لا سلاح لهم ولا قيادة ، وهم يهتفون : " الى البيت ! ليدفع الثمن بيوس
التاسع ! ليدفع الثمن الأغنياء ! ليدفع الثمن مريدو الحرب ! نحن نعود الى بيوتنا " .
في الساعة الأولى من الصباح استقال كارلو البرتو وذهب الى المنفى وكذلك ذهب ابنه الشاب
فيتوريو عمانوئيل ولم يقبل أن يخلف أباه .

البقيّة الباقية من الحرية

كانت البلاد وتورينو في حالة يُرثى لها . فلما علم الناس أن النمساويين فرضوا ٢٠٠ مليون ليرة تعويضاً من أضرار الحرب واحتلوا السندرية ، ثار ثائر المعارضة الديمقراطية وتكلموا صراحة على إعلان الجمهورية ، وطالبوا بالعودة الى الحرب حتى النهاية .

لم يبقَ من النار التي التهبت التهاباً كبيراً سنة ١٨٤٨ سوى قليل من الجمر . فالمجاهدون الذين التقوا جنباً الى جنب خلف المتاريس في الربيع ، غلبوا كلهم على وجه التقريب ، والوطنيون الذين طالبوا بالاستقلال أسكتتهم المدفعية النمساوية ، وعاد العمال الى العمل ١٢ ساعة في اليوم ، وألغيت الدساتير الحرة كلها على وجه التقريب وبقي " النظام " في البيمونتة وحده . ومع ذلك فقد ثبت أن هذه البقية الباقية من الحرية كانت ذات شأن عظيم . حتى سائر البذور ، وبذور الحرية والمساواة التي بدت مبعثرة في رواسب القمع ، نمت رويداً رويداً على مرّ الأعوام .

غرق " الكهنة الوطنيين "

في نوفارا (Novara) غرق الكهنة الوطنيون البيمونتيون أيضاً . اقتنع الاب كوكي (Cocchi) أنه يجب إتباع الشعب ، فقاد جماعة كبيرة من صبيان مصلى فانكيليا للاشتراك في معركة نوفارا ، فلما وصل الثبّان المائتان الى فرتشلي (Vercelli) لم يحصلوا على اعتراف قائد الفرقة بأنهم جنود ، فلم يجدوا لانفسهم طعاماً ولا مأوى لليل ، وصادفوا جنوداً من أهل البيمونتة المنهزمين ، فعادوا الى تورينو ، ودخلوا المدينة ليلاً وهم نصف أموات من التعب . كان ذلك الحدّ هزيمة للكاهن المذكور .

ظلّ مصلى فانكيليا مُغلّقاً عدة أشهر وعاش الأب كوكي مختبئاً ، وعاد الى الظهور في تشرين الأول (اكتوبر) فانشأ مع كاهنين آخرين مشروع ملجأ خيريّ لطلاب الصناعة الصغار ، ومن هناك انبثقت المؤسسة الكبيرة لطلاب الصناعة الصغار . فقد أدت الأمور الى الاعتراف بان نهج دون بوسكو " غير السياسي " نهج حسن .

٣٣ ليرة للبابا

ازداد سكان تورينو في أثناء تلك الاشهر بقدم عشرات الآلاف من اللاجئين ، فكانت الحياة عسيرة ، وأجرة المساكن عالية جداً ، في حين أن الرواتب منخفضة . تكلم اللاجئ الاشتراكي الفرنسي كورديروا (Coeurderoy) على ما في الأحياء الشعبية من بؤس شديد . ليس هناك صناعة نشيط ، وفرض على المال المتداول ضرائب باهظة ، واليد العاملة لا تزال وافرة في السوق ، مع أنه تُبنى دُور جديدة بلا انقطاع ، وتُوجر قبل أن يتمّ بناؤها . كان بيوس التاسع لا يزال في المنفى في غايتا (Gaeta) ، فدعا المركز غوستاف كافور والأب

فالينوتي (Valinotti) النَّاسَ إِلَى جمع المال بِاسم " درهم مار بطرس " . فساهم صبيانُ المصلَى فيه ، وجمعوا ما عندهم من فلوس ، فسلموا الى اللجنة في آخر آذار (مارس) ٢٣ ليرة ورسالة تمنيات طيبة الى البابا .

في ٢ أيار (مايو) وصل الى دون بوسكو رسالة من السفير الباباويّ : " إنَّ قداسة البابا شعر بما أتلج صدوره لما تلقى هبة طلابكم الصنّاعيين الفقراء الودّية البريئة ، وعبارات تعلقهم التي شأوا أن يضمّوها اليها . أرجو ان تبلغهم كم كانت تلك الهيبة سارة وفدّرت كثيراً لأنها أتت من الفقير " . وشكر البابا هو أيضاً فأرسل رزمة فيها ٧٢٠ سبحة لم تُصل الى تورينو الا في ٢١ نيسان (ابريل) ١٨٥٠ .

قلبان صغيران " للشكر على نعمة "

٢٤ حزيران (يونيو) عيد يوحنا المعمدان ، وهو عيد دون بوسكو . عزم كارلو غاستيني (Gastini) وفيليتشي ريفليو (Reviglio) ، على ما في تلك الأيام من الشدة ، أن يهديا هديّة صغيرة الى دون بوسكو ، وقد اتفقا على ذلك في الخفاء منذ أشهر ، فأدخرا من ثمن خبزهما ، وحرصا على جمع قليل مما ادّخراه وعلى ما أتاهما من الحلوانات الصغيرة . ولكن ماذا يشتريان والأسعار عالية كما تُقرأ في واجهات الحوانيت ؟ اتفقا آخر الامر على شراء قلبين صغيرين من الفضة ، كالقلوب التي يشتريها الناس ليقدموها للسيدة مريم العذراء " شكرا على نعمة حصلوا عليها " . كان اختيارها غريباً ولكن لطيفا شديد التأثير .

في المساء قبل العيد ، لما ذهب جميع أهل المصلَى الى مضاجعهم ، قصدا باب غرفة دون بوسكو فقرعاه ، وقدماهما له ، والاحمرار يعلوهما حتى أذانهما .
كتب الأب لموان (Lemoyne) : " في الغد عرف جميع أهل المصلَى أمر الهدية وقد أخذهم شيء من الحسد " .

أربعة صبيان ومنديل أبيض

غاستيني ورفيليو صبيان يرقبهما دون بوسكو . في السنة ١٨٤٨ اشتركا في الرياضة الروحية مع الأحد عشر الآخرين . وفي تلك السنة عادا الى الاشتراك فيها مع تسعة وستين آخرين فقسما الى فريقين . كانت الفكرة العالقة بذهن دون بوسكو كلّ حين هي " تتبّع جملة من الصبيان ومعرفتهم واختيارهم " لأنه يُرجى أن تكون لهم دعوة كهنوتية .

لما انتهت الرياضة الروحية ، دعا يوسف بوتسيي (Buzzetti) وجياكومو بليا (Bellia) وكارلو غاستيني (Gastini) وفيليتشي ريفليو (Reviglio) وقال لهم :

- هناك حاجة إلى مساعدتي في المصلى .
- إلى مساعدتك كيف ؟
- قبل كل شيء تعودون الى دروسكم ، الى دروس مكثفة تدخل فيها اللاتينية أيضاً ، ثم
- إذا شاء الله تصيرون كهنة .

نظر الأربعة بعضهم الى بعض في عيونهم ، فوافقوا واشترط دون بوسكو شرطاً واحداً ،

فأخرج من جيبه منديلاً أبيض وعبث به بيديه :

- اسألكم أن تكونوا في يدي مثل هذا المنديل فتطيعوني في كل شيء .

من بين الأربعة كان بلنيا (Bellia) وحده قد أتم جميع الصفوف الابتدائية ، فسلمهم دون

بوسكو في آب (أغسطس) الى يدي الاهوتي كيافيس (Chiaves) لكي يعلمهم الايطالية تعليماً

مكثفاً ، وفي ايلول (سبتمبر) سار بهم الى بيت يوسف في البكي ودرّسهم اللاتينية .

في تشرين الأول (اكتوبر) عادوا الى تورينو في الوقت الموافق ، ليشاركوا في تشييع الجنازة

التي أقامتها المدينة كلها لكارلو البرتو ، وقد توفي في بورتو في البرتغال .

فوج بورغو فانكياليا

في ذلك الشهر ، شهر تشرين الأول ، أعاد دون بوسكو فتح مصلى الملاك الحارس في بورغو

فانكياليا ، بعد ما حصل على موافقة رئيس الأساقفة ، وكان المصلى كناية عن مستودعين

للعربات ، وغرفتين ، وغرفة أكبر هيئت لتكون معبداً . وكانت الأجرة تسعمائة ليرة في السنة .

وعُهد بإدارته الى الأب كربانو (Carpano) بعدما ترك للأب بونتي (Ponte) مصلى مار لويس .

أستوفنت في بورغو فانكياليا المعارك الضارية التي كانت العصابات تشنها ، فأرسل دون

بوسكو الدركي بروزيو (Brosio) الى الأب كربانو لكي يساعده ، فجهّز بروزيو هنا أيضاً فوجاً

شديد البأس سريعاً الى اللعب وسريعاً أيضاً الى كيل الضربات عندما تدعو الحاجة إليها .

روى بروزيو : " ذات يوم أحد تقدّم أربعة من الأوباش ، وقد تسلّحوا بالحجارة والعصيّ

والسكاكين يريدون دخول المصلى وبلغ الخوف من المدير أنه كان يرتجف كالورقة . وأما أنا فلما

رأيتُ أنهم مُصمّمون حقاً على الهجوم أغلقت الباب وجمعت من الصبيان أكبرهم سناً ، ووزعتُ

عليهم بندقيّات من الخشب ، وقسمت الأحداث الى أربع فصائل ، وأمرتهم ، اذا هُجم عليهم ،

أن يردّوا كلهم معاً في كل مكان ، على الهاجمين ، عندما أشير لهم بذلك ، وأن يخطبوا بلا شفقة .

ثم جمعتُ الصغار وكانوا يبكون من الخوف ، وخبأتهم في الكنيسة ووقفتُ حارساً عند باب

المدخل ، والهاجمون يحاولون قلبه بضربهم له بكل قواهم . وذهب بعض الناس في أثناء ذلك فنّبه

جنود الخيالة فوصلوا وسيوفهم مسلولة " .

وانتهى الأمر بخير في هذه المرة .

في ١٨ تشرين الثاني (نوفمبر) جاء الأب جياكوملي ، صاحبُ دون بوسكو في معهد الكهنوت في كييري ، فسكن عنده ولبث في فالدوگو سنتين ، فاستطاع دون بوسكو بمساعدته وبمساعدة طالب الكهنوت أسكانيو سافيو أن يزيد عدد الصبيان الذين يُضافون ، " الداخلين " ، فبلغ ٣٠ . فصاروا ٣٦١ في السنة ١٨٥٢ ، و٧٦ في ١٨٥٣ ، و ١١٥ في ١٨٥٤ ، وفي السنة ١٨٦٠ صاروا ٤٧٠ و ٦٠٠ في السنة ١٨٦١ ، وكان أكبر ما بلغ عددهم ٨٠٠ . وظلت حياة هؤلاء الصبيان فقيرة جداً : إنهم في الشتاء يُعانون الصقيع في الكنيسة والأماكن الأخرى ما عدا المطبخ وغرفة فيها موقد يشعل فيه الحطب ، الفراش من الصوف أو الشعر هو شيء فاخر مقصور على بضعة منهم ، في حين أن معظمهم ينامون على اكياس من الورق اليابس أو التبن . سلم دون بوسكو المال القليل الذي تملكه الجماعة إلى يوسف بوتسيي ، وقد بلغ السابعة عشرة في ١٨٤٩ فتعجب من تلك الثقة العظيمة . أيام الأحاد كان يشترك هؤلاء الصبيان " الداخلين " في حياة الصبيان الخمسمائة الذين يملأون المصلى وفي العابهم ونزهاتهم .

٢٠ تشرين الثاني (نوفمبر) . ألغى فيثوريو عمانوئيل في بيانه في مونكالييري (Moncalieri) المجلسَ مرّةً أخرى ، ودعا الناخبين ، البالغ عددهم تسعين ألفاً ، الى انتخابات جديدة . وقد لأم بكلمات شديدة اليسارَ الديموقراطيّ بأنه خرب الأمة ، ودعا الناخبين الى ارسال اناس أكثر اعتدالا الى المجالس .

وجرت الانتخابات في ٩ كانون الأول (ديسمبر) في بدء شتاء يُنذر بأن يكون بارداً كثيباً . ووافق النواب صامتين على معاهد الصلح . فكتب كونياسو (Cognasso) : " لم تكن المعاهدة

معاهدة الصلح بل هدنة عشر سنوات . عشر سنوات تمضي في العمل بسكوت " .

أربعة فلوس من أجل البولنتا

في الأيام الأخيرة من ١٨٤٩ ، وبينما يشكو الجوع كثير من الناس حول تورينو ، على ما جاء في الأخبار ، سجّل تاريخ دون بوسكو بضعة أحداث عجيبة ، بوسعنا ان نسميها بعبارة لا مبالغة فيها " المعجزات الصغيرة التي ينالها كاهن من أجل صغار الناس " .

روى المعجزة الأولى يوسف بروزيو الدركي في رسالة الى الأب بونيي .

" كنت ذاتَ يومٍ عند دون بوسكو ، فجاء رجل يطلب الصدقة فقال إن له خمسة أولاد لم يأكلوا منذ يومٍ كله ، ففتش جيبه ، فلم يجد فيها سوى أربعة فلوس (عشرين سنتيما) فأعطاه إياه وباركه . فلما أصبحنا لوحدنا قال لي دون بوسكو إنه آسف لأنه لم يكن لديه من المال ما هو أكثر ، فلو كان لديه مائة ليرة لأعطاه إياها . قلت له :

- كيف تعرف أنه قال الحقيقة ؟ وإذا كان محتالاً ؟
- لا ، إنه صادق أمين ، بل أضيف أنه نشيط ، شديد التعلق بأسرته .
- كيف تعرف ذلك ؟

فأمسك دون بوسكو بيدي ونظر في عيني وقال بصوت خافت :

- قرأتُ ذلك في قلبه .
- يا للعجب ! إذا كانت الحالة هذه فأنت ترى خطايي أيضاً .

فأجابني ضاحكاً :

- أجل ، اني أشم رائحتها .

يجب عليّ القول إنه كان يقرأ حقاً ما في القلب . فإذا نسيت شيئاً في أثناء الاعتراف ، أظهر لي الحقيقة كما هي ، مع أنني كنتُ أسكن على بعد كيلو متر من بيته . قمتُ ذاتَ يومٍ بعملٍ شخيّ كلفني بدلاً كبيراً ولم يدر به أحد . ذهبتُ الى المصلّى فما إن رأني دون بوسكو حتى أمسك بيدي ، وقال لي : " يا لئلاجر العظيم الذي أعددتَه لنفسك في الفردوس ! " . فسألته : " ماذا فعلتُ ؟ " فذكر لي ما حدث بحذافيره .

وصادفت بعد مدة في تورينو الرجلَ الذي كان دون بوسكو قد أعطاه أربعة فلوس فعرفني فواقفني وقال لي إنه ذهب فاشترى بالفلوس الأربعة دقيقاً من أجل البولنتا فأكل هو وأسرته حتى شعبوا . وأضاف : إننا نسميه في الأسرة " كاهنَ معجزة البونتتا " لأنَّ ما يُحصل عليه من الدقيق بأربعة فلوس يكاد لا يكفي لشخصين وكنا سبعة فأكلنا وشبعنا " .

" دعوته باسمه : كارلو ! "

وأما المعجزة الثانية فقد روتها المركيزة ماريا فاساني (Fassati) التي ولدت في أسرة دي مسّتر ، في رسالة كتبتها بالفرنسية : " سمعت هذه الرواية من قَم دون بوسكو بنفسه وقد حاولتُ أن اكتبها بكلّ أمانة ممكنة .

ذات يومٍ جاء من طلب دون بوسكو ليذهب الى شابٍ كان من عادته أن يتردّد الى المصلّى ، وقيل له إنه مصاب بعلةٍ شديدة . كان دون بوسكو غائباً ولم يُعدّ الى تورينو إلا بعد يومين ، فلم يمكنه الذهاب الى المريض إلا في الغد نحو الساعة الرابعة من بعد الظهر .

فلما وصل الى بيت المريض ، رأى على الباب بساط الرحمة عليه اسم الشاب الذي يبحث

عنه . صعد مع ذلك ليَرى أهله المساكين ويعزّيهم ، فوجدهم يذرفون الدموع ، فأخبروه أن ابنهم تُوقى منذ الصباح . فسأل هل يسعه الصعود الى الغرفة التي فيها المتوقى لكي يراه مرّة أخرى ، فذهب به خادم اليها .

قال دون بوسكو : دخلتُ الغرفة فخطر لي أنّه لم يمت ، فدنوت من السرير ودعوته باسمه : كارلو ! ففتح عينيه وحيّاني مستغرباً وهتف : آه يا دون بوسكو ، لقد أيقظتني من حلم رهيب . عند ذات دُعر عدّة اشخاص كانوا في الغرفة أشدّ الذعر ، فهربوا وهم يصرخون بأعلى صوتهم ، وقلبوا الشمعدانات . فأسرع دون بوسكو الى تمزيق الكفن الذي خيط فيه الشابّ ولا يزال يتكلّم فيقول : خَيْل إليّ أيّ أدفع في مغارة طويلة مظلمة ضيقة جداً ، حتى إنني لا استطيع التنفس إلا بكّد . وكنتُ أرى في آخرها ما هو أشبه بفسحة أعرض وأكثر نوراً ، فيها تُحاكم نفوس كثيرة . فكان غمّي ورعبي يتضاعفان كلّ حين ، لأنني كنت أرى عدداً كثيراً من المحكوم عليهم ، وجاء دوري آخر الأمر وحن ان أشاركهم في مصيرهم الرّهيب لاني أسأت اعترافي الأخير ، فاذا بك توقظني " .

وفي أثناء ذلك هرع أبو كارلو وأمه وقد سمعا أنّ ابنهما حيّ فسلم عليهما الشابّ من كلّ قلبه ولكنه قال لهما لا يَرجوا شفاءه . ثم قبلهما ، وطلب أن يُترك هو ودون بوسكو . فروى له أنّه كان من سوء طالعه أنّه سقط سقطة عدّها خطيئة مميتة وأحسّ أنّه في حالة شديدة من المرض ، فأرسل يستدعيه وهو مصمّم على أن يعترف بخطيئته . ولكنهم لم يجدوه فأتوه بكاهن آخر لا يعرفه فلم يجروء على ان يكشف عن تلك الخطيئة . وكان الله قد أراه أنّه استحق جهنم من جرّاء ذلك الاعتراف الكاذب . فاعترف لوقته بكثير من التأسّف ، وما إن نال نعمة الغفران حتى أطبق عينيه ولفظ الروح بهدوء " .

سَلّة من الكستنة لا تفرغ أبداً

وأما الحدث الثالث ، فقد رواه يوسف بوتسيّي وأيده كارلو توماتيس (Tomatis) وكان من أول الصبّيان الذين أضافهم دون بوسكو .

يوم ذكرى الاموات (١) سار دون بوسكو بجميع الصبيان الذين يتزوّدون الى المصلّى يوم الأحد وأيام الأعياد ، إلى المقبرة ليزوروا ويصلّوا فيها ، ووعدهم باعطائهم عند عودتهم كستنة مطبوخة ، وطلب شراء ثلاثة أكياس كبيرة منها .

لم تفهم ماما مارغريتا ما أراد ، فلم تطبخ سوى ثلاثة كيلوات أو أربعة .

وصل يوسف بوتسيي " الوكيل الشاب " الى البيت قبل غيره فرأى ما جرى وقال :

- انّ دون بوسكو سيستاء من ذلك فيجب إخباره لوقته .

ولكنّ بوتسيي لم يُفلح في شرح الأمر في بلبلّة الجماعة ، وقد عادت جائعة كلها ، فأخذ دون بوسكو السلّة الصغيرة وجعل يوزّع الكستنة بالمغرفة الصغيرة ، وكلها ثقوب ، فصاح به بوتسيي في الهرج والمرج :

- لا تُعطِ ذلك كله ، فلن يكون ما يُوزّع عليهم جميعاً .
- ولكن في المطبخ ثلاثة أكياس .
- كلا ، ليس سوى هذا ! سوى هذا!

حاول بوتسيي ان يجيبه هذا الجواب والصبيان يضجّون ويتدافعون كالأمواج المتتابعة ، فارتبك دون بوسكو وقال :

- لقد وعدتُ جميع الصبيان أن أعطيهم منها فواصل التوزيع طالما بقي شيء منها .
- وواصل إعطاء كلّ واحد مغرفة فنظر بوتسيي ، وهو متوترّ الأعصاب ، الى بضع الحففات التي بقيت في قعر السلّة ، والى صفّ المنتظرين وهو يزداد طولاً . وأخذ شخص آخر يُراقب هو أيضاً . وإذا بالسكوت يسود . إن مئات العيون المُحَمَلقة لا تتحول عن هذه السلّة التي لا تفرغ .
- فقد كان من الكستنة نصيب لجميع الصبيان ، ولا شك في أنهم في ذلك المساء هتفوا أوّل مرّة وأيديهم مليئة بالكستنة البخسة الثمن : " دون بوسكو قدّيس ! " .

(١) وهو في ٢ تشرين الثاني (نوفمبر) عند اللاتين (حاشية من المترجم) .

الحصول على معونة لمصلاه .

في يوم من أيام الاحد من شهر كانون الثاني (يناير) نزلت الى فالدوگو بعد الظهر لجنة مؤلفة من ثلاثة شيوخ ، اسماؤهم سكلوبيس (Sclopis) وبالافيتشيني (Pallavicini) وكولينيو (Collegno) لتزور المشروع وتضع تقريراً ترفعه الى مجلس الشيوخ والوزراء .
سُرّت اللجنة بما رأت ، فقد شاهدت خمسمائة صبيّ يلعبون في الساحات والمروج ،
ويصلون محتشدين في المعبد وما حوله ، وسألوا أسئلة دقيقة عن البيت الذي يلقي فيه الضيافة
ثلاثون من الداخليين .

سأل الكونت سكلوبيس على سبيل المصادفة صديقاً اسمه يوسف فانزينو (Vanzino) ، فعلم أنه من فاريزي (Varese) وأنه حجار يتيم الأب ، ووفق أيضاً في أن يعلم من الصبيّ ، بين نوبتين من الدموع ، أن أمّه في السجن . سأل الكونت ، وبه شيء من الارتباك :

- إلى أين تذهب لتنام ؟
- كنت انام ، الى هذه الأيام التي مضت ، في بيت ربّ عملي ، ولكن دون بوسكو قبلني

الآن في بيته .

كتب بالافيتشيني التقرير المرفوع الى مجلس الشيوخ ، وذلك التقرير مسجّل في الأعمال الرسمية في ١ آذار (مارس) . ولقد جاء فيه : " أن مؤسسة الكاهن الرفيع الشأن النشط يوحنا بوسكو تثبت أنّها دينية خلقية مفيدة على وجه عالٍ . إذا توقفت عن أعمالها ، أو زالت عن الوجود لقلّة المال ، نزلت بالمدينة خسارة جسيمة . إن لجنتنا تلتزم بالحاح من وزير الداخلية أن يرتضي بمدّ يد المساعدة الفعّالة الى مشروع عظيم الفائدة والنفع " .

عادت هذه الكلمات على دون بوسكو من جهة الليرات بثلاث ورقات من فئة المائة ليرة ، منحها مجلس الشيوخ ، وبورقتين من فئة الألف منحها الوزير أوربانو راتازي (Rattazzi) .

ولكن لم تكن الليرات (وقد وصلت وبوركت) المنفعة الكبرى . ففي بلاد البيمونته اندلعت ، بعد وقت قليل ، منازعة طويلة الامد هوجاء بين الدولة والكنيسة ، وان زيارة الشيوخ الثلاثة وتقريرها اللذين التمسهما دون بوسكو مكّنا المصلّى من التغلب على العاصفة الشديدة من غير أذى جسيم .

رئيس الاساقفة المعتقل

في كانون الاول (ديسمبر) وقع ألف من رجال الكنيسة وعشرة آلاف من أهل تورينو على طلب أرسل الى رئيس الوزارة دازيليو (D'Azeglio) وكانوا يلتمسون فيه عودة رئيس الاساقفة فرانسوني (Fransoni) ، ولم يزل منفياً في جنيف .

كثر الذهاب والإياب بين الملك والوزراء ورئيس أساقفة جينوى ولكن المطران فرانسوني استطاع العودة إلى تورينو .

كانت أيام مستعرة ، وكانوا في مجلس النواب يتناقشون في مشروعات القوانين التي اقترحها وزير العدل سيكاردى (Siccardi) ، وقد طالب الغاء بعض الامتيازات القديمة لرجال الكنيسة : الحصانة الكنسيّة (المطارنة والكهنة الذين يرتكبون ذنوباً تخالف الحق العام لا يُحاكمون من بعد لدى المحاكم الكنسية ، بل لدى المحاكم العلمانية) وحق اللجوء (لم يكن للشرطة الى ذلك الحين أن تعتقل الذين يرتكبون ذنباً ، اذا التجأوا الى كنيسة أو دير) ، وإمكانية زيادة أموال الكنيسة .

في ٨ نيسان (ابريل) وافق مجلس النواب ومجلس الشيوخ على قوانين سيكاردى ، وفي ٩ نيسان ثبتها الملك . فهاجت في المدينة لعصابات العدو للكنيسة ، وتألّفت مواكب من تلقاء نفسها وفيها اناس يصرخون : " ليسقط الكهنة ! عاش سيكاردى ! " . وكان مكان الالتقاء دار رئيس الاساقفة ، واقتصر الامر بادئ ذي بدء على الهتافات والشتائم : " الموت لفرانسوني ! الطرد للسفير الباباوي ! " . ثم أضيف الى ذلك إلقاء الحجارة ، فتكسّر زجاج النوافذ ، وحاولوا تحطيم باب المنزل فاضطرت فرق الخيالة الى التدخل وسيوفهم مسلولة .

ردّ رجال الكنيسة على ذلك لوقتهم ، فاحتجّ بيوس التاسع احتجاجاً شديداً برسالة كتبها الكردينال أنطونلي (Antonelli) ، وطلب السفير الباباويّ جواز سفره وغادر الليمونته ، وفي ١٨ نيسان (ابريل) بعث رئيس الأساقفة الى جميع الكهنة في الرعايا برسالة عامة سرّية فيها حذر على كل كاهن المثل لدى محكمة عامّة بغير اذن منه .

في ٢١ نيسان دهمت الشرطة مطبعة بوتّا (Botta) التي طبعت الرسالة العامة ، ومراكز البريد ، ودار الاسقف ، وحُجزت الرسالة وعُدّت محرّضة على التمرد ، ودُعي المطران فرانسوني الى المحكمة المدنيّة فرفض المثل لديها ، فاعتقل وأرسل الى القلعة العسكريّة .

شهدت تورينو برهة من التوتّر الشديد ، فالمقاومة الكاثوليكية قويّة جداً ، واو كانت قليلة التمثيل في المجلس (الذي لا يصوّت له سوى اثنين بالمائة من السكان) . ولما استقبل الكونت فيالاردى (Vialardi) رئيس الأساقفة فاضت دموعه ، وتخلّى للاسقف القائد العامّ امبرور (Imperor) عن بيته ، وطلبت وفود كثيرة الى الملك أن يزور السجين .

وفي آخر تموز (يوليو) توتّرت الحالة بين الحكومة ورئيس الاساقفة ، اذ مرض بيتروديروسي دي سانتاروزا (Derossi di Santarosa) ، وزير الزراعة ، مرضاً شديداً فطلب الأسرار المقدسة . فتلقّى الخوري ، وكان راهباً من " خدام العذراء " ، أمراً بأن يفرض على المريض الرجوع عن موافقته على قوانين سيكاردى . فأبى سانتاروزا فمات في ٥ آب (اغسطس) من غير

الزاد الأخير .

عادت الاضطرابات الى شوارع تورينو ، وطُرد رهبان الرهبنة المذكورة ، وطلب وزير الحرب الفونس لا مارمورا (La Marmora) إلى فرانسوني أن يتخلى عن الأسقفية ، فلما أبى ذلك أمرَ الدركَ باعتقاله في ٧ آب وسجنه في حصن فنستريلي (Fenestrelle) ، بالقرب من الحدود الفرنسية . وفي ٢٨ ايلول (سبتمبر) نُفي رئيس الأساقفة من هناك الى خارج البلاد .

فهجمت جماعات عنيفة على أديار المدينة ، فاضطّر رهبان التقدمة ومار برنابا وعبد الأحد الى التحصن في أديارهم . وفي ١٤ آب جاء أمرٌ اسمه فولباتو (Volpato) إلى فالدوگو ، ونبّه دون بوسكو الى أن المصلّى أيضاً سيُهجم عليه عند المساء ، فالأفضل له أن يذهب لوقته مع صبيانه .

فكر دون بوسكو ، ثم عزم على البقاء . في الساعة الرابعة بعد الظهر نزل رتل المتظاهرين الى القرب من المصلّى . وكان بينهم ، على ما جاء في شهادة الأب لموان (Lemoyne) ، رجل أحسن إليه دون بوسكو ، فوقف الجماعات الاولى وقال :

- لا يحسن الهجوم على المصلّى ، فلن نجد سوى أولاد فقراء وكاهن يعولهم . دون بوسكو من الشعب مثلنا . فلندعه ناعم البال .

وقع جدال ، ثم اتجه الرتل إلى جهة اخرى .

الفريق الجديد وأعضاؤه الاربعة

كان دون بوسكو يواصل عمله بسكوت في أثناء العاصفة . وواصل ريفيليو (Reviglio) وبليا (Bellia) وبوتسيي (Buzzetti) وغاستيني (Gastini) دروسهم المكثفة ، وأوشكوا أن ينهوا استعدادهم للفحص الذي يتقدم ارتداء الثوب الكنسي . وفرغ ميكيلينو روا (Rua) في صيف ١٨٥٠ من دروسه الابتدائية عند إخوة المدارس المسيحية ، ولم ينسَهُ دون بوسكو ، فانفرد به ذات يوم وقال له :

- ماذا تنوي العمل في العام القادم ؟
 - إن أمي حَدّثت مدير معمل السلاح ، فهم يرضون أن أعمل في الورشات ، وهكذا
- استطيع مساعدة أسرتي .
- وأنا حَدّثت امرأ فقال لي معلّمك أن الله الكريم وهب لك ذكاءً حسناً ، فإذا لم تواصل دروسك كان ذلك امرأ يدعو الى الأسى . أتوافق على ذلك؟
 - أجل أوافق ، ولكن أمي فقيرة ومات أبي ، فالى أين تريد أن أذهب فأحصل على المال لأدرس ؟

- أنا أفكر فيه . لك أن تسأل والدتك أمراً واحداً وهو أن تدعك تبدأ دروس اللاتينية .

نظرت أمه حُنيئة ماريا إلى ولدها الطويل القامة الشاحب اللون ، وسمعتة يتكلم على دون بوسكو بحماسة فأجابت :

- إني مسرورة ، ميكليانو ، ولكن أتصمد صحتك ، لقد دعا الرب إليه أربعة من إخوتك ، وأنت أكثر منهم هزالا . قل لدون بوسكو لا يدعك تفرط في الانكباب على الكتب .

كان ميكليانو يسكن على غير بعد من المصلى ، وكان قليل الصحة حقاً ، فتركه دون بوسكو سنتين أخريين في بيت أمه . ولكنه في تشرين الثاني (نوفمبر) ١٨٥٠ بدأ يرسله الى مدرسة خاصة للمعلم يوسف بونزانينو (Bonzanino) ، وكان في المساء يعيد له هو بنفسه درس الحساب ، ونظام المتر العشري . وكان بجانب روا الشبان أنجلو سافيو (Savio) وفرنتشيسيا (Francesca) وانفوسّي (Anfossi) وهم الفريق الثاني المؤلف من الأربعة الذين كان دون بوسكو يرجو أن يسير بهم الى الكهنوت .

وبينما بوتسيّي يساعد دون بوسكو بوم الأحد ، كان ميشيل روا وأنجلو سافيو يذهبان الى مصلّي فانكليا وبورتا نوبا حيث كانا يساعدان على مراقبة الأولاد والتعليم المسيحي .

٢ شباط (فبراير) ١٨٥١ . بعد ٤ أشهر من الدرس المكثف نجح الصبيان الأربعة نجاحاً

باهراً في فحص لدى اللجنة الأسقفية في تورينو ، فتلقّى بوتسيّي وغاستيني وبلياً ورفيليو الثوب الكنسي في المصلى . وتهلّل دون بوسكو فرحاً إذ بدا له أنّ الحملان الأولين يسلكون الطريق آخر الأمر لكي يصيروا رعاة . كان على خطأ : من هؤلاء الشبان الذين يبتدون في الغد دروس الفلسفة لم يصير كاهناً سوى بلياً ورفيليو ، ولكنهما لم يبقيا في المصلى . وأما غاستيني فقد خارت عزيمته بعد حين ، وبقي بوتسيّي مع دون بوسكو ولكنه لم يصير كاهناً . فما رجاه دون بوسكو في أول أمره ،

حققه هذا الصبي الطويل القامة الشاحب اللون الذي ظل يعيش مع أمه ، ميشيل روا .

٣٠ ألف ليلة وشيء من الدّوار

لبس الشبان الأربعة الأولون الثوب الكنسي ، ففكر دون بوسكو في إسكانهم ، ولا يحسن العيش في مكان مؤجر قد يباع بين ليلة وضحاها لشخص آخر . في يوم من أيام الأحد بينما الأب بوريل يعظ بعد الظهر ، بادر دون بوسكو فرنسيس بيناردي بقوله :

- إذا طلبت منّي ثمناً مقبولاً فإني أشتري بيّتك كله .
- إني أطلب منك ذلك الثمن المقبول . كم تعرض ؟
- طلبت من رجل رصين هو المهندس سببزيا (Spezia) أن يُخمنه فقال لي إنّه يقدر في الأحوال

الحاضرة بتمن قدره من ستة وعشرين ألف ليرة إلى ثمانية وعشرين . إنني أعوض عليك ٣٠ ألفا .

- يكون الدفع عدًا ونقدًا مرة واحدة .
- أوافق .
- صافحني . نوقّع على العقد بعد خمسة عشر يوما .

صافحه دون بوسكو ، وأحسّ بشيء من الدوار . ٣٠ ألف ليرة في ذلك الوقت تساوي على مايزيد على خمسين مليون ليرة في أيامنا . أين يجد هذا المال في خمسة عشر يوما ؟ كتب دون بوسكو ببساطة :

" حينئذ ابتدأ عمل رائع قامت به العناية الالهية . في مساء ذلك اليوم أتاني الأب كافاسو ،

وهو أمر غير معهود في أيام الأعياد ، وقال لي إنّ امرأة تقيّة ، الكونتسا كاساتسا ريكاردي (Casazza – Riccardi) عهدت إليه بإعطائي عشرة آلاف ليرة لأصرفها في ما يبدو لي الأفضل لخدمة تؤول إلى مجد الله . وفي اليوم الذي بعده جاء راهب رومينيّاتي فوافق على اقراضي ٢٠ ألف ليرة" . كان القرض بفائدة قدرها ٤ بالمائة ، ولكن الأب روميني لم يُلحَ قطّ في تلقّي الفوائد والرأسمال . " وأضاف الآلاف الثلاثة الناقصة الفارسُ كوتا (Cotta) وكان قد نُظّم عقد البيع في مصرفه " .

كان ذلك في ١٩ شباط ١٨٥١ (فبراير) . ومن العسير أن لا نرى في ما حدث تدخّل الله ، واعسر منه عند دون بوسكو ان لا يُواصل سيره إلى الأمام في الطريق ذلك .

" البورسيونكولا " السالسية

في مساء يوم من ذلك الشهر ، بينما ماما مرغريتا ترقع ثياب الأولاد ، وهم نائمون ، تتمم

دون بوسكو كأنه يحدث نفسه :

- والآن أريد أن أبني كنيسة جميلة إكراماً لمار فرنسيس دي سال .

فسقط الخيط والابرة من يدي مرغريتا :

- كنيسة ! ولكن من أين تأخذ المال ؟ لا نوقّق الآن في إعطاء هؤلاء الأولاد المساكين الخبز

والثياب ، وأنت تتكلم على كنيسة جديدة . أرجو أن تفكّر في الأمر ملياً وأن تتفوق والله اتفاقاً حسناً قبل أن تزجّ نفسك في مغامرة مثل هذه .

- أمّاه ، لو كان عندك مالٌ أفطعطينه أيّاه ؟
- أجل ، ولكن لا مال عندي .

- والله الذي هو أكرم وأكثر سخاء منك أفلا يُعطيني إياه ؟

كيف يَسع الأم " أن تناقش " مثل هذا الولد ؟

وكان لدون بوسكو من جهة أخرى أسباب حسنة في ما أراده : كان معبد بيناردي قد وُسِّع ، ولكنه لم يكن يتسع للصبيان حتى لو وُسِّعت مساحته ثلاثة أضعاف . كتب دون بوسكو : " يُضاف الى ذلك أنه كان لا بُدَّ من نزول درجتين لدخوله . كنا نغرق في الشتاء وفي أوقات المطر ، في حين أننا كنا نختنق في الصيف من الحر والروائح الكريهة " .

طلب الى الفارس بلانشيه (Blanchier) أن يرسم المخطَّط وتعهَّد البناء فريدريكو بوگا

(Bocca) . قال له دون بوسكو ضاحكاً :

- أنبَّهك أنه لن يكون لَدَيَّ أحياناً مال أدفعه لك .
- عندئذٍ نعمل ببطء .
- لا ، لا ، لا ، أريد خلاف ذلك فَنسِير سيراً سريعاً ويَتَمَّ بناءُ الكنيسة بعد سنة .

فهزَّ فريدريكو بوگا كتفيه :

- إذاً سنسير سيراً سريعاً ، ولكن أسرع أنت أيضاً في دفع المال .

ذكر دون بوسكو : " حُفرت الأُسُس فيورك الحجر الأوَّل في ٢٠ تموز (يوليو) ١٨٥١ "

فوضعه الفارس يوسف كوئا ، وهو واحد من أكبر المحسنين ، وقرأ كلمة الشكر ميشيل روا ، وألقى الخطاب الأب باريرا (Barrera) . جرت عادة الناس أن يببالغوا في مثل هذه الأحوال فيبحثوا عن التشبيهات الحسنة الوقع . أتى باريرا هو أيضاً بتشبيهه الحسن ، ولكنه لم يوفق في المبالغة قال : " إن هذا الحجر هو حَبَّة الخردل ، سينمو فيصير مثل شجرة ويأتي كثير من الأولاد فيأوون اليها " . كان المال سبب صداع كبير . قرع دون بوسكو جميع الأبواب التي يعرفها وغيرها كثيرة ، ولكن جُلَّ ما أفلح في جمعه ٣٥ ألف ليرة . كانت تنقصه ٣٠ ألف ليرة .

وجَّه مطران بيلا (Biella) صاحب السيادة لوزانا (Losana) رسالة إلى جميع أهل أبرشيته ،

وذكر " جميع الصبيان البنائين من بيلا " الذين يُساعدهم المصلَّى ، وطلب جميعاً للتبرعات خاصاً ، في يوم من أيام الاحد . أمل دون بوسكو كثيراً ، ولكن النتيجة كانت ضئيلة : الف ليرة .

وكان الصبيان هم أيضاً يساعده على قدر طاقتهم . ذكر الأب يوحنا توركي (Turchi) :

" وصلت جدران الكنيسة الى علو الزجاج الملون ، و لكني كنت ورفاقي مشغولين في حمل القرميد الى السقالات " .

أراد دون بوسكو جمع هذه الثلاثين ألف ليرة المباركة التي تنقصه ، فزج نفسه في يانصيب عام

للمرة الأولى . روى : " تلقينا ثلاثة آلاف وثلاثمائة هبة وقد تبرَّع البابا والملِك والملكة الأم وزوجة

الملك بهباتهم " . وعُرِضَت الجوائز علانية في ردهة كبيرة خلف كنيسة مَار عبد الأحد . ونُظِم جدول الجوائز في نشرة مطوية ضخمة .

سبب بيع البطاقات كثيراً من الإهانات لدون بوسكو ، ولكن المال الذي تلقاه بلغ قدراً حسناً حقاً : ٢٦ الف ليرة صافية . فكلماً وجد نفسه في عسر بعد تلك التجربة فكر في يانصيب . وفي آخر رسائل كتبها قبل موته ، بيد باتت ترتجف ، أوصى " بقبول دفتر من البطاقات من أجل يا نصيبي " .

كُرِّست الكنيسة في ٢٠ حزيران (يوليو) ١٨٦٢ ، (وهي لا تزال هناك في أقصى بيت بيناردي ، وتبدو صغيرة بجانب عظمة كاتدرائية السيِّدة العذراء معونة المسيحيين التي تُمَدُّ الى أبعد ثلاثة أمتار من بابها) . إنها " البورسيونكولا" ^(١) السالسيَّة . في داخل تلك الجدران ، مدَّة ستة عشر عاماً ، خفق قلب مشروع دون بوسكو .

كان القديس دومنيك سافيو في حدائته يأتي هناك ليصلي ، ونذر نفسه لها أمام المذبح الصغير للسيدة ، الى اليمين . وفي تلك الكنيسة خدم ميشيل ماغوني (Magone) ، صبي كارمانيو لا (Carmagnola) ، وفرنسيس بسوگو (Besucco) ، الصبي الصغير من الارجنترا (Argntera) الذي جدَّد سنة ١٨٦٣ أخلاق دومنيك سافيو الكريمة إلى حدِّ البطولة .

أقام ميشيل روا قدَّاسه الاول هناك . إلى تلك الكنيسة ترددت عدة مرات كلَّ يوم طوال أربع سنوات ماما مرغريتا وهي طاعنة في السن ، متعبة . هناك حصلت على الشجاعة لتعود كلَّ يوم الى العمل في سبيل الأولاد الفقراء .

(١) أول بيت لرهبانية مار فرنسيس الأسيزي وقد صار بعدئذ معبدا بالقرب من مدينة أسيز (حاشية من المترجم).

خزعة من الشيطان

كتب دون بوسكو : " كان يمكننا بعد قيام الكنيسة الجديدة أن نتيح للاصغر سيئاً الراغبين في الأمر ، الاشتراك في الصلوات وفي دروس الليل والنهار (فقد كانوا يستعملون معبد بيناردي والكنيسة والموهف الجديدين ، النهار كله ، غرضاً للدروس) . ولكن كيف السبيل الى سدِّ حاجة عدد كبير من الأولاد الفقراء الذين كانوا لا ينفكون يطلبون ان يُضافوا ؟ ... استنتج بلهجة هادئة : " في هذا الوقت وقت الحاجة القصوى ، عزم على بناء جناح جديد للعمارة " .

كان قد مضى قسم كبير من الخريف ، ولكنهم أكتبوا على العمل بكل سرعة ووصلوا الى السطح على عجل . بيد أن الأمطار ابتدأت عند ذاك : " حدث طوفان عدّة أيام في النهار والليل . كان الماء يتصبّب ويجرف الاسمنت الطريء المبلّل فلا يترك سوى القرميد والحجر المغسول " . وكتب دون بوسكو أيضاً : " في نصف الليل من ٢ كانون الأول (ديسمبر) سمعت طقّة شديدة تعالت وتضاعفت على نحو مخيف . هي الجدران تنهار بضجة " .

قال دون بوسكو للصبيان المذعورين : " هذه خز عبلة من الشيطان ولكننا سبّعيد بناء كل شيء بعون السيدة العذراء " .

كان الشيطان قد أسهم بقسطه ، ولكن الوكيل الأب جيرودي (Giraudi) الذي استطاع أن يفحص ما بقي من تلك الجدران أكد أنها كانت محشوة بالحجارة ورمل السواقي وكان الكلس غير كافٍ . أراد دون بوسكو أن يقتصد في النفقات وأراد المُتَعَهِّدُ هو أيضاً ان يربح شيئاً

كانت خسارة دون بوسكو عشرة الاف ليرة . استطاعوا العودة إلى العمل في الربيع وتمّ البناء في تشرين الثاني (نوفمبر) ١٨٥٣ فكتب دون بوسكو : " كنا نحتاج حاجة ماسة الى أمان ، فأسرعنا في الانتقال إليه واستطعنا تنظيم الصفوف وغرفة الطعام والمهجع ، وإعداد ما يلزم ، وارتفع عددُ الداخلين الى ٦٥ " .

في ١٧ شباط (فبراير) و ٢٦ آذار (مارس) ١٨٤٨ مَنَح كارلو البرتو " المساواة في الحقوق المدنية" ، منحها البروتستانت واليهود ولم يكونوا الى ذلك الحين سوى " موضوع للتسامح" .
فكر الكاثوليك أن البروتستانت، وقد حصلوا على المساواة في الحقوق ، سيلزمون الهدوء .
فحدث خلافه إذا رأوا بقلق شيعة الفودوا (Vaudois) يتأهّب لِشَنِّ حملة حقيقيّة من الدعاية لمذهبهم ، فقد طبعت ثلاث صحف : البشارة والنور الانجيلي والمبجح البيمونتي (Il Rogantino Piemontese) ونشرت كتب دعاية وباعتها بثمن بخس ، ونظّمت حلقات من المحاضرات .

كان ذلك أول النقاء وتعدّد الآراء . استاء كاثوليك البيمونته ، ولكنهم لم يكونوا يعرفون عمل ما هو أحسن من ذلك . كتب دون بوسكو : " كانوا متكلين على القوانين المدنية التي حمّتهم ودفعت عنهم ، فلم يكن لهم سوى بضع صحف وبضعة مؤلفات ثقافية ، فلا نشرة دورية ، ولا كتاب يوضع في أيدي العامة من الشعب " .

اجتمع مطارنة البيمونته سنة ١٨٤٩ في فيلانوفيتا (Villanovetta) وختموا كلامهم بهذا القول : " إن الاستياء لا يجدي نفعاً ، فيجب الردّ بالعمل ومباشرة الطباعة والوعظ " .
وكانت النتائج للاجتماعات نشر مجموعة الكتب الصالحة (ايلول سبتمبر ١٨٤٩)
وجريدة الجرس (آذار مارس ١٨٥٠) والقراءات الكاثوليكية (آذار ١٨٥٣)
كانت القراءات هذه ، وهي سلسلة من الكتب الصغيرة الرشيقة ، ثمرة مخيطة دون بوسكو ، وقد أيدها تأييداً خاصاً مطران ايفريا (Ivrea) . وأوضح البرنامج ما ابتغاه الناشرون :
" ١ . تكتب الكتب بإنشاء بسيط وأسلوب شعبيّ ، وتحتوي موضوعات تقتصر على الديانة الكاثوليكية .

٢ . يُنشر كلّ شهر جزء فيه من ١٠٠ الى ١٠٨ صفحة . الاشتراك السنوي ليرة و ٨٠ سنتيماً " .

لا حوار بل جدار قبالة جدار

أنشأ الأعداد الستة الأولى دون بوسكو ، فصدرت بين آذار (مارس) وآب (أغسطس) ١٨٣٥ وكان العنوان العامّ : الكاثوليكي المتعلم دينه . ذكر دون بوسكو وهو يبتسم أنه حاول أن يجد مطراناً يمنحه الموافقة الكنسيّة على أجزاء الستة الأولى ، فأجابه النائب العامّ لأبرشية تورينو :
" لا أرغب في وضع توقيع في ذيل هذه الورقة . إنك تتحدى أعداءك وتجاههم " . كان دون بوسكو قد كتب بحزم من يذهب الى الحرب ولم يخطر له ما هو " الحوار " . كان أنشاؤه انشاء " جدار قبالة جدار " . لا بُدّ من إنقاذ الاحداث والناس في سبيل الكنيسة والله والحياة الابدية ،

ولذلك لا بُدَّ من الكفاح والحرب واستعمال جميع الوسائل " لمقاومة التّيّار الذي يحاول جرف المجتمع والدين في مَوْجِه الفساد " .

كان دون بوسكو يوجس بعض القلق عندما يذكر إفلاس صديق الشبيبة ، غير أن القراءات الكاثوليكية لقيت قبولاً واسعاً جداً من لدن عدد كبير جداً من القراء . " ولكنها كانت فاتحة نوبات غضب من قبل البروتستانت " .

نزل القسيسان الفودوا ، بيرت (Bert) وميّي (Meille) ، والقسيس الانجيلي بونيو (Pugno) إلى فالدوگو وحاول إقناع دون بوسكو بالكفّ عن نشر القراءات ، أو أن يلطف لهجتها على الأقلّ فلم ينالوا شيئاً .

" ذات يوم من أيام الاحد في كانون الثاني (يناير) أُخبرتُ عند المساء بقدم سيّدين فدخلا وأثنيا عليّ :

- أيّها الأب ، إنك تتحلّى بصفة عظيمة ، فبوسعك أن تجعل الشعب يفهمك ويقرأك . فالأولى لك أن تنصرف إلى التاريخ والجغرافيا والفيزياء . وأمّا القراءات الكاثوليكية فاتركها جانباً لأنها موضوعات طُرقت كثيراً جداً .

- أجل ، لقد بُحثَ فيها المؤلفات الثقافية ، ولكن ما من أحد جعلها في متناول الشعب .

- إننا متأهبون لمساعدتك بالمال ، إذا شرعت في مؤلّف تاريخي وكففتَ عن العمل غير المفيد (وقدّما لي أربع ورقات كل منها ألف ليرة) .

- إذا كان هذا العمل غير مفيد ، فلم إنفاق المال لأكفّ عن مواصلته ؟ أما صرتُ كاهناً نذرتُ نفسي لخير الكنيسة والفقراء ، وإني عازم على مواصلة عملي بما فيه كتابة القراءات الكاثوليكية وطبعها " .

تغيّرت اللهجة وتحوّلت الأصوات الى التهديد :

- إنك على خطأ . إذا خرجتَ من هنا ، أفأنتَ على يقين من العودة الى هذا المكان ؟ فُتمتُ وفتحتُ باب المكتب وقلت : - بوتسيّي ، سر بهذين السيّدين إلى الباب الكبير .

خمر وكستنة

تمتم هذان السيّدان ، وهما يخرجان : " سنرى بعضنا بعض مرة أخرى " . شرح دون بوسكو في آخر فصل من ذكرياته كيف عادا اليه وعلّق على ذلك بقوله : " يبدو أنه كان هناك مؤامرة عليّ " . نورد ما رواه فنوجز ما يبدو لنا إيجازه ضروريّاً .

"بينما أدرّس ذات مساءً ، جاءني يطلبانني على عجل : في نزل القلب الذهبي (شارع كوتولنغو رقم ٣٤) رجل يُشرف على الموت . ذهبتُ ، ولكن أردت أن يصحبني بضعة صبيان من الأكبر سنّاً ، مع أنّهم بذلوا جهدهم ليمنعوني من الذهاب . فلما وصلنا إلى القلب الذهبي ساروا بي إلى ردهة في الطبقة الأرضية ، فيها يأكل الكستنة جماعةً من أهل اللهو ، فأرادوا أن اشاركهم وأواكلهم فأبيتُ . قالوا :

- هلاّ تريد أن تشرب كأساً من الخمر ؟ انّ جرعة منها لا تؤذيكَ .

فصبّوا الخمر لجميع الحاضرين ، ولكن ، لما جاء دوري ، ذهب أحدهم على غير لباقة ليأتي بقنينة غيرها ، فتناولت الكأس وقلت : " أشرب نخبكم " ، ثم أعدتها الى المائدة .

- لا تفعل ذلك . إنه لا يحسن . هذه شتيمة .
- ولكن لا رغبة لي في الشرب .

فأخذوا في التهديد :

- لا مناصّ من الامر - يجب عليك أن تشرب .
فأمسك الواحد منهم بكتفي اليسرى والآخر بكتفي اليمنى .

- يجب عليك أن تشرب طوعاً أو كرهاً .
- اذا كنتما تُصيران على أن أشرب فاتركا ذراعيّ طليقتين على الاقلّ (قلت ذلك وتقلّتُ من

أيديهما) ولما كنتُ لا استطيع شرب هذه الكأس ، فأنا ذاهب لأعطيها واحداً من الأحداث الذين معي فيشربها بدلاً مني .

وبينما أُلّفظ هذه الكلمات خطوت خطوة كبيرة نحو الباب ، ففتحتهُ على مصراعيه ودعوت الصبيان الى الدخول . فلما رأوا هؤلاء الصبيان الكبار ، غيّرُوا لهجتهم وقالوا إن المريض سيعترف في الغد . " حَقّق الامرَ شخص صديق لي وبلّغني أنّ امرأ دفع لهم ثمن العشاء بشرط أن يسقوني خمره أعدّها لي " .

" دسيسة للفتك بي "

" ان محاولات الاعتداء عليّ التي أرويتها تبدو تليفياً ، وهي مع ذلك حقيقيّة وشهدها أناس كثيرون .

ذات يوم احد من ايلول (سبتمبر) دُعيتُ على عجل عند المساء إلى بيت ساردي (Sardi) ، بالقرب من " الملجأ " لا ستمع إلى اعتراف مريضة مشرفة على الموت ، فدعوتُ بضعة من أكبر صبياني سنّاً ، ليقتنوا آتاري : لقد أخذتُ أتحدّر من جميع الناس . لبث بعض الصبيان في أسفل السلم ، وصعد معي يوسف بوتسيتي (Buzzetti) وهياسنت أرنو (Arnaud) إلى الطبقة العليا ، الى القرب من باب غرفة المريضة .

دخلتُ فرأيت امرأة تلهث كأثما أوشتك أن تلفظ الروح ، فرجوتُ من الأشخاص الأربعة

الحاضرين أن يبتعدوا لكي أستمع الى اعترافها . فهتقت العجوز :

- أريد ، قبل أت تستمع الى اعترافي ، أن يطلب مني هذا اللص الصفح .
- لم أفعل لك شيئاً .

فصاح شخص ثالث بعد أن قفز على قدميه : " صه ! " . فوقعت مشاجرة عنيفة ، وقبل

أن أدرك ما الذي يجري ، أطفأ بعضهم النور وانهال عليّ وابل من ضربات العصي ، فأسرعت إلى

إمساك كرسيّ ورفعه فوق رأسي وأنا أهرع الى الباب ، فكسرت الكرسيّ ضرباتُ العصي المُعدّة

للفتك بي ، وأصابت ضربة واحدة إبهامَ يدي اليسرى ، وقلعت ظفري ونصف عقدة من إبهامي .

فعدتُ الى بيتي وأنا بين الصبيان الذين معي "

ذكر دون بوسكو : " يبدو أن كلَّ شيء قد أعدّ لكي يجعلني أكفّ عن مواجهة البروتستانت

في مؤلفاتي " .

" الأغبّر "

" إنّ الدسائس الكثيرة التي حيكت للفتك بي دعنتي الى الامتناع من الذهاب الى تورينو

والعودة منها وانا وحدي (فبين المصلّى والمدينة ساحة كبيرة من أرض غير مزروعة ، فيها كثير من

العليق وشجر الاكاسيا ولم يكن لي بد من اجتيازها في ذلك الحين) .

ذات مساء رجعت الى البيت في الظلام ، وأنا أوجس بعض الذعر ، فدنا مني كلب كبير

أغبّر أفرغني لأوّل وهلة ولكني داعبته كأني صاحبه ، فصرنا صديقين على عجل ، ورافقتني الى

المصلّى . وقد تكرّر ذلك عدة مرات . بوسعي أن أقول أن " الأغبّر " خدمني خدمات حسنة ،
وهذه بعضها .

في آخر شهر تشرين الثاني (نوفمبر) ١٨٥٤ عدت من المدينة وحدي في مساءٍ كله غيوم

ومطر ، فإذا بي أشعر أنّ رجلين يمشيان أمامي على بعد منّي ، يسرعان ويبطئان في سيرهما على

قدر ما أسرع أو أبطئ بنفسي . فحاولت العودة من حيث جنّت ، ولكن فات الأوان ، فقفزا

قفزتين وصارا فوقي وألقيا رداء على رأسي من غير أن ينبسا بكلمة . فظهر الأغبّر عند ذلك فألقى

بيديه على وجه الأول وعضّ الآخر بأنيابه ، فأخذنا يصرخان :

- أدع هذا الكلب .
- سادعوه ، إذا تركتmani وشأني .

فتوسّلا بقولهما :

- أدعُه لوقتكَ !

وكان الأغبِر يواصل عواءه كالكذّيب الكلب ، فهربا ، ورافقتني إلى البيت وهو يسير بجانبني .
في كل مساء لم يرافقتني فيه أحد ، كنت لدى وصولي الى بقعة الأدغال أرى الأغبِر قادماً ،
وقد رآه أحداثُ المصلّي مرات كثيرة يدخل السّاحة . وذات يوم أراد صبيّان ، وقد استولى عليهما
الخوف ، أن يهجما عليه بالحصى ، ولكن يوسف بوتسيّتي تدخل بقوله :
- أتركاه وشأنه ، إنه كلب دون بوسكو .

فأخذنا في مداعبته ورافقاه الى غرفة الطعام حيث كنت أتناول طعام العشاء مع بعض الكهنة
وأميّ . كانوا ينظرون اليه بفزع فقلت :
- لا تخافوا ، هذا صديقي الأغبِر ، دعوه يأتي .

فدار دورة كبيرة حول المائدة ، ودنا مني وهو في فرح عظيم ، فقدّمت له شيئاً من الحساء
والخبز والطعام ولكنه رفض كلّ شيء ، وأسند رأسه الى غطاء المائدة كأنه يريد أن يقول لي : مساء
الخير ، وترك الأحداث يسيرون به الى الباب . أذكر أنني وصلت متأخراً الى البيت في ذلك المساء
فجاء بي صديق لي في عربته " .

وروى كارلو توماتس (Tomatis) وكان يتردد الى مصلّي في تلك السنوات : " كان الكلب
عظيم القدّ حقاً . وكثيراً ما هتفت ماما مرغريتا إذا رأته : أه يا للحيوان الضخم القبيح ! كان
خطمه خطم ذئب ، وأنفه مستطيل ، وأذناه منتصبتان ، وشعره أغبِر ، وعلوه متر " .
شهد ميشيل روا الذي رأى الأغبِر مرتين أن دون بوسكو أراد الخروج ذات مساء لأسباب
ضرورية ، ولكنه وجد الكلب مستلقياً عند العتبة ، فحاول إبعاده أو تخطّية ، فكان الأغبِر يهرّ كل
مرة ويدفعه الى الوراء . فقالت ماما مرغريتا لابنها وقد أصبحت الآن تعرف الحيوان : " اذا كنت
لا تريد الاستماع إليّ فاستمع على الأقلّ الى الكلب ، لا تخرج " . علم دون بوسكو في الغد أن

امراً سيّء النية يحمل مسدّساً كان ينتظره في منعطف الطريق .

لقد رغب دون بوسكو عدة مرّات في أن يعرف من أين يأتي ذلك الكلب ، فلم يستطع
العثور على شيء . وفي ١٨٧٢ أيضاً سألته البارونة أزيليا فاسّاتي (Azelia Fassati) رأيه في ذلك
الكلب ، فابتسم وهو يجيب : " إذا قلتُ إنّه كان ملاكاً قلتُ قولاً مضحكاً ، ولكن لا يمكن القول
إنه كان كلباً عادياً " .

النوم عند صانع الأحذية

كان دون بوسكو في أثناء النهار يعمل في سبيل صديانه ، فيذهب الى مختلف الجهات بحثاً عن المال ، ويستمتع الى الاعترافات ويعظ في عدة مؤسسات من المدينة . وكان في الليل يقتطع بضع ساعات من ساعات نومه لرقع الثياب والاحذية ، وتأليف الكتب ، فكان النعاس يتراكم فيستولي عليه النوم بغتة .

ذكر يوحنا كالبيرو (Cagliero) أنه كان بعد الطعام الغداء ينام بغتة في بعض الأحيان وهو جالس الى كرسيه ورأسه منحن على صدره ، فكان الذين في المكان يتركونه وهم يسيرون من غير ضجة على رؤوس أصابع أقدامهم ، لئلا يوقظوه .

كانت تلك الساعة أشدَّ ساعات النهار عليه ، فكان يخرج ليقوم بما لزم من الأعمال في المدينة ، ويزور المحسنين ليلتمس منهم العون . كان يقول وهو يبتسم : " إني أبقى صاحياً وانا ماشٍ " . ولكنه لم يفلح كلَّ مرة .

كان بعد الظهر من ذات يوم في الساحة قبالة كنيسة السيدة معونة المسيحيين فأخذ منه النعاس كلَّ مأخذ ، فلم يدر أين هو ولا أين يذهب ، وكان بالقرب منه حانوت صانع أحذية ، فدخله ، وسال صاحبه أن يدعه ينام على كرسيّ بضع دقائق .

- أدخل - أدخل ، أيها الأب الجليل ، ولكن يسوءني أني سأزعجك بضربات مطرقتي .
- كلا ، لن تزعجني .

فجلس بجانب منضدة للعمل ، ونام من الساعة الثانية والنصف بعد الظهر حتى الساعة

الخامسة ونصف . فلما أفاق من النوم نظر حوله فرأى الساعة فقال :

- آه ما أشقاني ! لماذا لم توقظني ؟

فأجاب ذلك الرجل الطيب :

- يا عزيزي ، كنت نائماً هنيئاً حتى اني لو أيقظتك لعددتُ عملي خطيئة . آه وددتُ لو

أنام أنا مثل هذا النوم .

٣٠

ست ورشات عمل

في محفوظات الرهبانية السالسية وثيقتان ثمينتان : عقْدُ لتعليم صناعة ، مكتوب في ورقة غير

رسمية مؤرخة في تشرين الثاني (نوفمبر) للسنة ١٨٥١ ، وعقد آخر هو أيضاً لتعليم الصناعة ، مكتوب في ورقة لها طابع قدره ٤٠ سنتيماً ومؤرخ في ٨ شباط (فبراير) . وعلى كلا العقدين وقّع ربُّ عمل وطالب الصناعة ودون بوسكو .

هذه هي الموادّ الشّان في العقد الأول :

" تمّ الاتفاق بموجب هذا العقد الخاصّ الذي نُظّم في بيت مُصلّى مار فرنسيس دي سال :

١. يتقبّل السيد ايمينو (Aimino) الشابّ يوسف بوردوني (Bordone) المولود في بيّلا

(Biella) طالباً في في صناعة الزجاج ، ويعدّ ويتعهد بأنّ يعلمه هذه الصناعة في مدة ثلاث سنوات ، ويُطلعه في أثناء تدريبه على ما يلزمه من المعرفة وعلى أحسن الطرق الخاصّة بصناعته ، ويزوّده بالنصائح الموافقة ليسلك سلوكاً حسناً ويهدّبه ، إذا أذنب ، بالكلام لا بغير ذلك ، ويتعهد بأنّ يُبقيه من غير انقطاع في الأعمال العائدة الى صناعته دون سواها وأنّ يُعنى بالألّا يتجاوز قواه .

٢. يجب على ربّ العمل المذكور أت يترك طالب الصناعة حرّاً على وجه تامّ كلّ يوم

أحد ، وكلّ يوم عيد في السنة .

٣. يتعهد ربُّ العمل أن يدفع لطالب الصناعة ليرة كلّ يوم في السنة الأولى ، وليرة

ونصف الليرة في السنة الثانية ، وليرتين في الثالثة ، ويمنحه خمسة عشر يوماً من العطلة كلّ سنة .

٥. يعدّ يوسف بوردوني بأنّ يعمل ، في أثناء تدريبه عند معلّمه ربّ عمله ، بنشاط ومثابرة

واجتهاد ، وأن يكون طيّعاً مطيعاً موقراً لمعلّمه .

٧. يعدّ مدير المصلّى أن يُقدّم عونته في أمور حسن سلوك طالب الصناعة .

معالجة جروح كثيرة

عالج دون بوسكو جروحاً كثيرة في هاتين الوثيقتين وما أشبههما . كان بعض أرباب العمل

يستغلّون طلاب الصناعة الصغار كأثمّ خدَم او مساعدون للطباخين ، فألزمهم دون بوسكو أن

يستخدموهم في صناعتهم وحدها . كان أرباب العمل يضربونهم ، ففرض دون بوسكو أن يكون

التهديب بالكلام وحده . وقد اهتّم بصحتهم وراحتهم يومَ الأحد وعطلتهم السنويّة ، وفرض

أجرة " تصاعديّة " ، لأن السنة الثالثة للتدريب كانت سنة إنتاج عاديّ .

وأما العقد الثاني فكان عليه طابع الملك وكان يبتدئ بهذه الديباجة : " عقد بين السيد يوسف برتولينو (Bertolino) المعلم النجار ، المقيم في تورينو ، والفتى يوسف اوداسو (Odasso) المولود في موندوفي (Mondovi) ، بمحضر من الأب الجليل يوحنا بوسكو وبمساعدة وكفالة أبي الفتى فنسان اوداسو المولود في غارسيو (Garessio) والمقيم في هذه العاصمة " . يكاد ان يكون العقد نسخة للعقد الاول ، ما عدا أمراً مُهمّاً : حتّى دون بوسكو صاحب الصناعة على أن يكون لا " ربّ عمل " بل " أب " . فقد ورد في البند الأوّل :

" إن السيّد يوسف برتولينو المعلم النجار . . . يتعهّد أن يُزوّد الفتى اوداسو طوال مدّة تدريبه . . . بالنصائح المفيدة التي يزوّد بها الأب البارّ ذات ابنه ، في أمور سيرته الخلقية والمدنية ، وأن يهدّبه تهذيب الصديق للصديق ، عندما يرتكب ذنوباً ، فلا يستعمل سوى التوبيخ الضّروري ليهدّبه ، من غير أن يعمد أبداً الى سوء المعاملة " .

لم يخترع دون بوسكو عقود التدريب الحرفي ، فإنّ مشروع التسوّل المتقّف ، الذي أنشئ السنة ١٧٧٤ ، استعمل هذه العقود منذ أمد بعيد . ولكنّ العقدين اللذين وقّع عليهما دون بوسكو هما من أقدم العقود المحفوظة في تورينو . يجوز للمرء أن يفكر (الى أن تُكذب الأمر وثائق جديدة) أنه ما من أحد ، غير مشروع التسوّل ودون بوسكو ، اهتم بالدفاع عن طلاب الصناعات . فلم يفكر بذلك الوالدون ، وكلّهم على وجه التقريب فقراء أميّون ، ولم تُفكر به السلطات المدنية التي كانت تتبّع النظريّات الحرّة ، الموافقة على أن يُستغلّ الأحداث ، عملاً بقوانين " المزاحمة الحرّة " .

وحده وأعزل في يدي رب العمل

كان بيت المصلّى في أول أمره يتقبّل على وجه خاص العمّال الحديثي السنّ ، (وقد سمّاه دون بوسكو الملجأ ، وسنّسميه البيت إسوة بالاصطلاحات الدارجة في أيامنا) . كان أولهم صبيّ من وادي سيزيا (Sesia) وقد لجأ إلى مطبخ ماما مرغريتا في يوم ماطر ، ثم جاء بوتسيّتي (Buzzetti) وغاستيني (Gastini) ، وجاء بعدهم كلّ سنة عشرات وعشرات . لبث فيه بعضهم ثلاث سنوات ، وغيرهم شهرين ، وآخرون طوال عمرهم ، ولم يؤلّف الطلاب أكثرية الداخلين إلا بعد ١٨٥٦ .

وكان سبب الافضلية الممنوحة للعمّال حالة البؤس التي كانوا عليها ، فالأوامر الملكية التي ألغت الجمعيات الحرفية ، ألقت العامل الصغیر السنّ وحده وأعزل ، في يدي رب العمل .

رَخَّصَ كارلو ألبرتو على غير رضا في انشاء " جمعيات الاسعاف " وكان الأحرار يقاومونها هم أيضاً .
سَلَّمَ دون بوسكو صبيانه الى ارباب العمل ، وحمّاهم بعقود حسنة ، وذهب ليتقدّمهم في
الحوانيت كل أسبوع ، " على أنه مسؤول لدى الأسرة " . واذا لم يرعَ ربُّ العمل شروط العقد
انصرف دون بوسكو بالفتى .

لما شُيِّدَ البناء الجديد في السنة ١٨٥٣ ، عَزَمَ دون بوسكو على أن يُقيم في بيته بعينه الورشاتِ
الأولى للعمل ، وقد دعاه الى ذلك سببان : " سوء السلوك والكفر " اللذان يلقاهما الصبيان عند
العُمال الكهول في الحوانيت ، والعون الذي به تستطيع الورشات المتكاملة لصانعي الاحذية
والخياطين وعُمال الطباعة ، أن تزوّد المصلّى .

طاولتا عمل بادئ ذي بدء

في خريف ١٨٥٣ فتح دون بوسكو ورشة صانعي الاحذية والخياطين . خُصَّت ورشة
صانعي الاحذية بمكان ضيق جداً ، كان يُستعمل حينذاك موهفأ صغيراً لمعبد بيناردي بالقرب من
قبة الجرس ، وكانت الورشة كناية عن طاولتين وأربعة مقاعد مدوّرة . كان دون بوسكو أول
مُدرب ، فكان يقعد قبالة الطاولة فيضرب بالمطرقة على نعل ، أمام أربعة صبيان ثم يعلمهم
استعمال المخرز والسلك . وتخلّى بعد بضعة ايام عن مكانه لعبد الاحد غوفي (Goffi) ، بواب
المصلّى .

وأقيم الخياطون في المطبخ في حين ان القدور ومواقد الطبخ نُقلت الى البناء الجديد . وكان
أول المدرّبين للخياطين ماما مرغريتا ودون بوسكو أيضاً الذي علّم الخياطة والتفصيل كما تعلمهما
من يوحنا روبرتو في كاستلنوفو .

وفي الأشهر الاولى من السنة ١٨٥٤ فتح ، وهو يكاد ان يلهو ، الورشة الثالثة : تجليد
الكتب ، ولا يعرف تلك الصناعة ولا صبيُّ واحد من الصبيان . فبينما هو ذات يوم في حلقة
الاحداث بسط على طاولة الورقات المطبوعة لآخر كرّاس له ، الملائكة الحراس ، ثم مدّ إصبعه
نحو صبيِّ :

- ستعمل عمل المجلد !
- أنا ؟ ولكني لا أدري ولا معنى ذلك .
- الأمر سهل . هلمّ الى هنا . أتري ؟ ان هذه الطلاحي تُسمّى " ملازم " يجب طيها في

نصفها ثم مرة أخرى ثم مرة أخرى ثم مرة أخرى . الى العمل ، فلنحاول .

طويت الطلاحي كلّها بعون سائر الصبيان الذين حول الطاولة ووضعَ دون بوسكو

" الملازم " بعضها فوق بعضها الآخر ثم قال :

- ها هو الكتاب قد صنّع والآن تجب خياطته .

دُعيت ماما مرغريتا الى مساعدتهم ، فنّم ذلك باستعمال إبرة صلبة ، وبضع شّكات للاصابع ، وكانت مادّة اللصق لتثبيت الغلاف شيئاً من الدقيق المبلّل بالماء . بقيت عملية لا بُدّ منها وهي قصّ حافة الكتاب . ولكن كيف العمل ؟ ارتأى الصبيان الواقفون حول الطاولة آراء مختلفة : استعمال المقص أو سكين أو مبرد . فذهب دون بوسكو الى المطبخ وأمسك بفرّامة من الفولاذ تُستعمل لتقطيع البصل والبقدونس ، فقطع طرف الطلاحي ببعض الضربات السريعة ، فضحك الصبيان ودون بوسكو أيضاً . ها إنّ الورشة قد دُشّنت . ثمّ هُيأت في ردهة من البناء الجديد بعد حين .

سنة للحصول على المطبعة

وفي آخر السنة ١٨٥٦ دُشّنت الورشة الرابعة ، ورشة النجارة . فصارت ذا شأن لساعتها : فأخرج جماعة من الصبيان من معامل المدينة ، وأقيموا في ردهة واسعة مزوّدة بالطاولات والأدوات وقدر من الخشب المخزون . كان السيد كوريو (Corio) أوّل رئيس للمعمل . وكانت الورشة الخامسة تُنتظر أشدّ من سائر الورشات كلها ، وهي الطباعة ، وقد اضطرّ دون بوسكو إلى شنّ حرب دامت نحو سنة ليحصل على رخصة من محافظة المدينة في ٣١ كانون الأول (ديسمبر) ١٨٦١ ، وابتدأ العمل بإمرة رئيس العمال أندريا جياردينو (Giardino) وبمساعدة يوسف بوتسييّي .

لا نعرف معرفة دقيقة اليوم الذي أخذت فيه المطبعة في العمل . ولكنّ العمال الفتيان بلّغوا المحسنين الحدث بنشرة مطبوعة .

وكان أوّل كتاب خرج من مطابع " مطبعة مصلى مار فرنسيس دي سال " كرّاساً للأب

شميد (Schmid) : ثاوفيلوس أو الحبيس الشاب ، قصّة للفكاهة . ثم طُبعت حلقة

لسلسلة القراءات الكاثوليكية لعدد أيار (مايو) ١٨٦٢ ، ومنذ ذلك الحين طُبعت

القراءات الكاثوليكية دائماً في مطبعة المصلى ما عدا بعضها .

كانت البداية بسيطة : ألنا طباعة يديرها الصبيان بقوة معصمهم . ولكن هذه المطبعة

صارت ذات شأن ، ودون بوسكو حيّ يبرزق ، وزدّت بالأدوات الحديثة ، وغدت تنافس أحسن

مطابع المدينة : ٤ مكابس و ١٢ آلة دوّارة يسيّرهما محرّك وآلة للكليشيات ومسبك للحروف وآلة

للنسخ .

وفي ١٨٦٢ فتح دون بوسكو الورشة السادسة ، ورشة الحديد ، وهي آخر الورشات وَجَدَهُ ورشات الميكانيك العصرية .

اربع محاولات للحصول على الطريقة المثلى

أراد دون بوسكو أن تعمل ورشاته فاعترضته عقبات كثيرة ، فجرّب عدّة تجارب الواحدة تلو الأخرى .

استأجر أوّل الأمر رؤساءً للعمال بأجرة مألوفة ، فكانت النتيجة أنّهم اهتمّوا بالأعمال ولكنهم لم يهتمّوا بتقدّم التلاميذ ، ولا بحسن سير المعمل .

وكانت التجربة الثانية أنه ترك لرؤساء العمّال التبعة التامة بما فيها همّ الحصول على عقود عمل ، كأنهم أرباب العمل ، فكانت النتيجة أنّ الصبيان عوملوا كما يُعامل الأجراء فخرّجوا من سلطة المدير .

وكانت التجربة الثالثة أن دون بوسكو أخذ على عاتقه التبعة الخلقية والادارية للورشات ، ولم يترك لرؤساء العمّال سوى التلعيّم المهني لطلاب الصناعة ، فكانت النتيجة سلبية مرة أخرى : خاف المُدرّبون أن يسبقهم أحسن الطلاب فعلموهم تعليماً قليلاً وتركوا الطلاب يستسلمون الى الكسل .

وجد دون بوسكو الطريقة المثلى لما أفلح في تدريب رؤساء الورشات متعلّقين به تعلقاً تاماً ، وهم معاونون السالسيون : إنهم مثل طلاب الكهنوت أو الكهنة ، ولكنهم وقفوا أنفسهم للمدارس المهنية .

" من لم يكن فقيراً حقاً فلا مكان له في هذه الدار "

لا ينبغي لبّيت المصلّى أن يصير " معمل عمّال " بل بيت تربية حقيقي . لذلك تخيل دون بوسكو للعام الدراسي ١٨٥٤ - ١٨٥٥ " نظاماً " يرسم وجه المشروع للصنّاع الأحداث (ففي ملحق للنظام يدور الكلام على التلامذة الأحداث) .

يجب على الصانع الحدّث ، يُقبل في المصلّى ، أن يكون في سنّ بين الثانية عشرة والثامنة عشرة ، و " أن يكون يتيم الأب والأم فقيراً متروكاً على وجه تامّ . إذا كان له إخوة أو أخوات يمكنهم الاهتمام بتربيته فليس مكانه في المصلّى " .

عرّف النظام إلى الصبيان " الأشخاص الذين يجب على كل ولد أن يخضع لهم والذين سيُعدّون رؤساء البيت " . هم الرئيس (المسؤول عن واجبات كلّ واحد منهم ، وعن اخلاق

أولاد المصلّى) ، والوكيل أو القيم ، والمرشد الروحيّ (ويُعهد إليه بتلبية حاجات الأحداث الروحية) ، والناظر (يوزّع الطعام ويكون حاضراً في المائدة والورشة وغرفة النوم) .
وأوصى بفضائل أساسية هي التقوى لله والعمل والطاعة للرؤساء والصدّاقة بين الأتراب ومراعاة الاخلاق الكريمة . ووضع قواعد للسلوك في داخل البيت وخارجه ، وذكر " ثلاث خطايا يجب تجنّبها تجنباً مطلقاً " وهي الكفر والفحش والسرقة ، وأعلن " أشياء محرّمة تحريماً شديداً " وهي الاحتفاظ بالمال ، والألعاب الخطرة ، والتدخين ، والخروج لتناول الطعام عند الأقارب أو الأصدقاء .

ونصّ الدوام على النهوض في الصباح الباكر ثم القداس تتخلله الصلوات و السبحة ، والإفطار والعمل . ويجتمعون لطعام الظهر والفرصة الكبرى بعده ، ثم يعودون إلى العمل . هناك عند المساء الوقت اللازم للفروض المدرسية . ويختم النهار بصلوات المساء وبعض الكلمات يلقيها دون بوسكو إلى الأسرة كلها : كلمة المساء .
يُدعى الأحداث كلّ شهر إلى رياضة روحية قصيرة (تمرين المينة الصالحة) ، وفي كل سنة الى وقت قصير من الرياضة الروحية .

كان دون بوسكو دائماً ، في الشؤون الدينية ، أقلّ تشديداً مع العمّال منه مع التلامذة الأحداث ، ولكنّه رأى بين طلاب الصناعة صبياناً لهم ميول روحية جدية بالاعجاب ، فساعدهم السنة ١٨٥٩ على إنشاء " أخوية مار يوسف " وهي تجمّع توحّي ضمّ أحسن الصبيان وتدريبهم على أن يحيوا حياة مسيحية نشيطة رسولية .

تشرين الثاني (نوفمبر) ١٨٥١ . وصل دون بوسكو الى وطنه كاستلنوفو داستي . يجب عليه أن يُلقى عند المساء في الكنيسة عظة الصلاة من أجل المتوفين . وكان بين أولاد الخورس صبيّ صغير صحبه الى المنبر ، ولبت ينظر اليه وفمه مفتوح طوال وقت العظة . تنبّه دون بوسكو الى أنّ الصبي يواصل النظر اليه صامتاً ، عندما يعودان الى الموهف ، فهتف به :

- يبدو أنك تريد أن تقول لي شيئاً ، أليس كذلك ؟
- أجل ، يا سيدي . أريد أن اذهب معك الى تورينو لأدرس فأصير كاهناً .
- حسناً . قلّ لأمك تأت بعد العشاء دار الكاهن .

اسم هذا الصبي يوحنا كالبيرو (Cagliero) وهو يتيم الأب . جاءت الأم مع يوحنا بعد العشاء فقال دون بوسكو مازحاً :

- إذأ ، ياتريزا ، أصحيح أنك تريدين أن تبيعيني ابنك ؟
فأجابت السيدة ضاحكة :

- كلا . عندنا هنا نبيع العجول ، وأمّا الصبيان فاننا نُهديهم هدية .
- ذلك أحسن كثيراً . أعدّي له شيئاً من الثياب ، وغداً أذهب به .

في الغد كان يوحنا كالبيرو عند الفجر في الكنيسة ، فخدم قدّاس دون بوسكو ، وتناول طعام الإفطار معه ، وقبّل أمّه ، وصاح ، وصرّته تحت ذراعيه بلهجة من فقد صبره :

- إذأ ، يا دون بوسكو ، أنذهب ؟

" ينام في قفة خبز "

سلكا الطريق الطويلة سيراً على أقدامهما ، والواقع أن يوحنا سلكها مرّتين لأنّه كان ، وهو يُحدّث دون بوسكو ، يركض الى الأمام فيصطاد الفراشات في المروج ، ويتخطى الحفر . ذكر

كالبيرو:

" سألني دون بوسكو في الطريق ألف سؤال ، فأجبته أنا ألف جواب ، ومنذ ذلك الحين لن يبقى لديّ سرٌّ لا يعرفه ، قال لي مازحاً ، وهو يستمع الى ما أهزل به ، أنه يجب عليّ أن أتحمّن . وصلنا آخر الأمر الى تورينو .

كان ذلك في مساء الثاني من تشرين (نوفمبر) وكنا متعبين . عرفني دون بوسكو الى

ماما مرغريتا بقوله :

- يا أميمة ، جنتك بصبي صغير من كاستلنوفو .

فأجابت مرغريتا :

- أجل ، لا عمل لك سوى أن تأتيني بصبيان ، وأنا ل أدري أين أضعهم .
- إن هذا من الصغر ما يمكننا من أن نضعه في قفة أصابع الخبز (1) ، نعلقها بحبل في العارضة ، كما يُعلّق قفص الكناري .

أخذت ماما مرغريتا تضحك فبحثت لي عن مكان ، والحقيقة انه لا مكان فارغ على

الاطلاق فاضطرت الى النوم تلك الليلة في أسفل سرير أحد أترابي .

في الغد شاهدتُ الفقر الذي يسود البيت : كانت غرف نومنا في الطبقة الأرضية ضيقة ، والأرض مفروشة بحصى الشارع ، ولم يكن في المطبخ سوى بضعة صحن من القصدير ومثل عددها من الملاعق . رأينا الشوكات والسكاكين والفوط بعد عدة سنوات فحسب . كان دون بوسكو يقدّم لنا الطعام ويُساعدنا على ترتيب غرفة النوم وينظف ثيابنا ويرقعها ويخدمنا أصغر الخدمات . كنا نجعل كل شيء مشتركاً بيننا . كنا نشعر أننا أسرة أكثر منا في معهد ، يدير شؤوننا أبٌ يُحبنا ، ولا همّ له سوى خيرنا الروحي والمادي " .

أظهرنا يوحنا كالييرو ومنذ البدء ذكاءً حاداً ومزاجاً مرحاً . وكان يحبّ اللعب حباً طافحاً .

كان ميشيل رُواً لا يزال يعيش عند أمّه ، ولكنه كان في الصباح يسير في طليعة جماعة التلامذة

الصغيرة ، فيذهبون معاً الى المعلم بونزانينو (Bonzanino) في المدينة . كان دون بوسكو قد أقام روا

ناظراً ليمنع كائناً من كان من بليلة الدرس . لم يُفلح روا إلا نادراً في كبح جماح كالييرو . فما إن

كانوا يخرجون من المصلّى ، حتى يُغيّر يوحنا اتجاهه راكضاً الى بورتا بلاتسو ، ويقف تجاه

البهالوين وأكواخ الباعة ، ثم كان يذهب وهو راكض أيضاً الى المدرسة ، فاذا وصل الآخرون كان

(1) يصنعون في بلاد البيمونته خيزا أشبه بالأصابع (حاشية من المترجم)

هو قبلهم قبالة الباب ، والعرق يتصبب منه ولكنه مسرور . كان ميشيل ينظر اليه شزراً ويقول له :

- لماذا لم نبق معنا ؟
- لأنه يحلو لي أن أسلك طريقاً آخر ، فأبى سوء في ذلك ؟
- يجب عليك أن تكون طائعاً .
- ألسنتُ طائعا ؟ يجب عليّ أن أذهب الى المدرسة ، فأذهب . يجب عليّ أن أكون فيها في

الوقت المحدّد ، فأنا فيها عند ذاك . فماذا يهّمك إذا كان يحلو لي أن أذهب الى البهالوين فأنظر

اليها ؟

صار بعدئذ أول مطران وكردينال سالتسي . كان ، الى جانب الأب روا ، ركنًا من أمتن

أركان الرهبانية السالسيّة ، ولكن روا وكالبيرو لبثا مختلفين كل الاختلاف من جهة المزاج : فروا منصباً على العمل ، مثابر عليه ، يُكثر التفكير. في حين أنّ كالبيرو مقدام ، مرهف الشعور ، سريع الانفعال . وكلاهما متأهب ليلقي بنفسه في النار من أجل دون بوسكو .

" ستعبر البحر الأحمر والصحراء "

٢٢ ايلول (سبتمبر) ١٨٥٢ . دخل ميشيل روا المصلّى تلميذاً داخلياً ليبقى فيه ، وفي الغد ذهب الى البگي سيراً على الأقدام مع دون بوسكو وماما مرغريتا وقد بلغت الثانية والستين ، و ٢٦ من أترابه . ألقى دون بوسكو عظات التساعية استعداداً لعيد الوردية في كاستلنوفو ، وقد أضاف الصبيان أخوه يوسف .

دعا دون بوسكو ميشيل قبل الذهاب فقال له :

- إني أحتاج في العام القابل الى أن تمدّ لي يد العون الجدّي لتسيير شؤون البيت . في ٣ تشرين الأول (أكتوبر) يقيم عيد سيدة الوردية ، وسيأتي خوري كاستلنوفو الى البگي ، وستلبس في المعبد الصغير ثوب رجال الاكليروس ، وعندما نعود الى المصلّى تكون مساعداً وتعلم أترابك .
أوافق على ذلك ؟
- أوافق .

ذكر الأب روا أنّ دون بوسكو مساء العيد قطع السكوت في العربة التي تعود بهما الى تورينو فقال له :

- عزيزي روا ، إنك تبدأ الآن حياة جديدة ، ولكن اعلم أنه يجب عليك ، قبل دخول أرض الميعاد ، اجتياز البحر الأحمر والصحراء . إذا ساعدتني ، اجتزناهما كلانا اجتيازاً هادئاً ووصلنا إلى أرض الميعاد .

فكر ميشيل قليلاً فلم يُحسن فهم ذلك الكلام ، ثم قطع السكوت فسأل :

- أتذكر لقاءنا الأول ؟ ورزعت ايقونات ولكن لم يبق لي واحدة منها ، فقامت بحركة غريبة كأني تُريد أن تعطيني نصف يدك . فماذا كان يعني ذلك ؟

- أما فهمت إلى الآن ؟ قصدت أننا نعمل كلانا كلّ شيء ، فيعمل كلّ منا نصفه . كلّ ما

سيكون لي ، سيكون لك أيضاً : الديون والأعباء والمضايق - . فابتسم دون بوسكو . - ولكن ستري أنه ستحدث أشياء حسنة جداً وآخر الامر أحسنها : الفردوس .

ضمان لخمسين سنة

ثلاثاء عيد الفصح ١٨٥٣ . تلبّدت السماء بالغيوم القاتمة . يوحنا فرننتشيسيا (Francesia) وميشيل روا ريفقان في الصف ، وصديقان للحياة والموت ، وهما يراجعان درسهما للايطالية ، ولكن ميشيل ساه غافل . يبدو أنه قد استولى عليه حزن شديد فسأله فرننتشيسيا مرتين السؤال عينه ، ثم أغلق الكتاب حانقاً :

- ما الذي أصابك اليوم ؟

فعضّ ميشيل على شفتيه وتمتم :

- مات أخي يوحنا . . . وسيكون دوري في المرّة الآتية . . .

كان آخر الإخوة الذين يعيشون في البيت . ستبقى بعد ذلك أمّم وحدها في مسكن معمل السلاح . بلغ الخبر دون بوسكو فأراد أن يسلي ميشيل ، فسار به في تورينو ، وكان يجب عليه أن يُنهي مسألة بالقرب من كنيسة السيّدة العذراء مريم على ضفّة نهر البو . سار سيراً حثيثاً وهما يتكلمان على المصلّى ، وكانت قد احتفلت تورينو في الأيام التي مضت باليوبيل الخمسيني الثامن " لمعجزة القربان المقدس " الشهيرة ، وقد طبع دون بوسكو كرّاساً تخاطفه الناس تخاطفاً . وقف دون بوسكو بغته وقال على مهل :

- بعد خمسين سنة سيحتفلون باليوبيل الخمسيني التاسع للمعجزة ، ولن أكون هناك ، وأنت ستكون . فلا تنسَ طبع كتيبي طبعة جديدة .

حاول ميشيل أن يتخيّل ذلك التاريخ البعيد بعداً سحيقاً : ١٩٠٣ ! فهزّ رأسه :

- انك تسرع السير ، يا دون بوسكو ، بقولك إنني سأكون هناك . أمّا أنا فإنّي أخاف حقاً أن يعبث بي الموت .

فقاطعه دون بوسكو :

- لن يعبث بك ولن يُحسن إليك . إنني أضمن لك أنك ستكون هناك ، فجَدّد طبع هذا

الكتيّب . أتوافق على ذلك ؟

(في السنة ١٩٠٣ كان الأب روا لا يزال هناك خلفاً لدون بوسكو على رأس الرهبانية السالسيّة ، وكان في الخامس والستين فطبع الكراس طبعة جديدة) .

الأسياذ الصغار والمعدمون

اهتمّ دون بوسكو بالعمال الصغار ، ولكنه لم يهمل الطلبة . وكان يهدف ، كما أشرنا الى ذلك عدة مرات ، الى إعداد معاونين له من شمامسة وكهنة يساعده في أعماله ، والى اعداد

دعوات كهنوتية للابريشيات أيضاً ، باختيار أناس من الصبيان " الذين ينمون بين المعول والمطرقة " ، لكي يعالج مسألة قلة الكهنة .

إن الجماعة الاولى المؤلفة من الشبان الأربعة التي أعدها خيبت آماله بعض الشيء كما قلنا .
واما روا (Rua) وكالبيرو (Cagliero) وفرنتشيسيا (Francesia) فقد لبوا ما رجاه أحسن تلبية . وهناك بجانبهم انجيلو سافيو (Savio) وروكييتي (Rochietti) وتوركي (Turchi) ودورانو (Durando) وتشيروتي (Cerruti) يتقدمون تقدماً حسناً .

أنشئ قسم الطلاب الداخلي على عجل ، ولكنه نما نمواً حسناً : ١٢ من الداخلين في السنة ١٨٥٠ ، و ٣٥ في السنة ١٨٥٤ ، و ٦٣ في السنة ١٨٥٥ ، و ١٢١ في السنة ١٨٥٧ . . .

كان تلامذة الصفوف اللاتينية الثلاثة الأولى يذهبون الى بونزانينو (Bonzanino) للدرس ثم يدخلون صقي علم البيان والخطابة عند الأب متى بگو (Picco) الذي كان يدرس في حي سيدة التعزية . كان يتردد إلى هاتين المدرستين الخاصتين أولاد الأسر الميسورة في تورينو ، ويدفعون أجرة عالية ، وأما صبيان دون بوسكو فإنهم يُقبلون فيهما مجاناً .

سخر " الأسياد الصغار " أول الأمر " بالمُعْدمين " الذين يأتون المدرسة ، وهم يرتدون معاطف عسكريّة " وهي تُظهر لابسيها بمظهر المُهْرَبين أو بمظهر يدعو الى السخرية " . (كان دون بوسكو قد تلقى تلك المعاطف والقبعات العسكريّة هدية من الوزارة . وقال الأب لموان إنها أشبه بالأغطية أكثر منها بالمعاطف ، ولكنها كانت تقى لابسيها المطر والثلج) . لم يكن بونزانينو ليتسامح بالسخرية فقال بلهجة شديدة : " ان قيمة صبيّ تقدّر بدفاتر فروضه ، لا بلون المعاطف " . فان العلامات قد دلّت أن الأولاد المدللين هم الذين كانوا " المعدمين " . إن صبيان دون بوسكو يدرسون ، ودون بوسكو يعرف في حبه لهم أن يكون شديد الطلب ، وهو لا يتحمل الكسالى .
أعلن الاستاذ برييري (Prieri) من جامعة تورينو في السنة ١٨٦٣ : " عند دون بوسكو درس بل إقبال على الدرس " .

" أراني سعيداً بين الصبيان "

ليس الذهاب إلى المدينة والعودة منها مراراً المثال الأعلى عند دون بوسكو . يُضاف إليه أن غرف الدرس عند بونزانينو وبگو لم تبق لتستوعب جميع تلاميذ المصلّى .

فما إن أنهى يوحنا المعدان فرنشيسيا (Francesia) ، وهو في سنّ السابعة عشرة ، دروسه اللاتينية على نحو باهر ، حتى عُهد اليه بالصف الثالث للمعهد . كان ذلك في تشرين الثاني (نوفمبر) ١٨٥٥ ، وفي السنة التي بعدها أنشئ الصقان الاول والثاني ، يديرهما علماني صديق لدون بوسكو هو الأستاذ بيانكي (Bianchi) . وفي السنة ١٨٦١ تجاوز عدد طلاب الصفوف الثلاثة

المائتين . وكان المعلمون الشامسة الشبان فرنثشيسيا وبروفيرا (Provera) وأنفوسّي (Anfossi) ودورانو (Durando) وتشيروتي (Cerruti) .

فُرض في ملحق " النظام " للتلامذة أنّه يجب على الطالب ليقبل في المعبد ، أن يتم ثلاثة شروط : " يكون أهلاً للدرس على وجه خاص ، وذا تقوى مثاليّة ، وراغباً في اعتناق الحياة الكنسية ، فيترك له اختيار دعوته في آخر درسه اللاتينية " .
أمّا بالنسبة لقبول الطالب فلا يُشترط شرطاً قاطعاً أن يكون يتيماً أو فقيراً معدماً . بيد أن معظم التلاميذ أتوا من البيئات الفقيرة ، وحكاية المعاطف العسكرية تؤيد ذلك تأييداً كافياً .
إن دوام طلاب الصناعة ودوام التلاميذ متوافقان ، فيصرف الأولون في الورشات الساعات التي يصرفها التلاميذ في الصف وغرفة الدرس .

كتب الأب لموان : " ساس دون بوسكو المصلّي وأداره حتى السنة ١٨٥٨ كما يفعل الأب بذات أسرته . لم يرَ الأحداثُ فرقاً كبيراً بين المصلّي وبيتهم ، فلم يكونوا يذهبون من مكان الى آخر وهم مصطفون ، ولم يكن لهم ناظرون متشدّدون ، ولا نظام دقيق " .

كان دون بوسكو بين الصبيان كلما أمكنه الأمر وكان يقول : " لا يسعني العيش بلا صبياني " . فلا بُدَّ من سبب خطير ليحول بينه وبين وجوده في وسطهم ، يُحدّثهم ويلعب معهم . ظلّ مدة طويلة يُقيم معهم في غرفة الدرس لا لأنه لم يكن هناك ناظر ، ولكن لأنه " يرى نفسه سعيداً هناك " . كان يكتب ، وهو جالس الى مقعد مثل مقاعد الصبيان ، " كتابه الآتي أو يُفكّر فيه " . حتى السنة ١٨٧٩ عندما ينتهي العشاء ، يغزو الغرفة التي فيها يُنهي طعامه ، فيضُّ من الصبيان فيتزاحمون على أقرب مكان منه ليروه ويسألوه أسئلة ويصغوا اليه ويضحكوا من نكاته وفكاهاته . يجلسون حوله وعلى الموائد تجاهه ، وبعضهم جالس وبعضهم واقف بل آخرون جاثون على ركبهم . إن هذه المواجهة من غير تكلف تسرّ دون بوسكو كثيراً : " هذه أحسن قطعة من عشاءه ، عشاء الفقراء " .

" لم يكن بوسع دون بوسكو أن يفهم "

كان الجوّ الديني الذي يحيط بالتلاميذ الاحداث جوّاً شديد التقوى حقّاً . إنهم النباتات النحيفة للدعوات الكهنوتية المستقبلية . أراد دون بوسكو أن يغمرهم جوّاً من الروح الديني المريمي الكنسي .

الأعترافُ عادةً أسبوعية أو نصف شهرية لجميع الذين في المعبد . يستمع دون بوسكو الى الاعترافات ساعتين أو ثلاث ساعات كلّ يوم ، وفي الأيام التي تتقدم الاعياد ، يستمع الى الاعترافات طوال ما بعد الظهر . إن سمعته المُتبّنة إثباتاً كبيراً بأنّ له القدرة على قراءة الخطايا تحت

على الثقة التامة . وصار تناول القربان المقدس ، بضع سنوات بعد فتح المصلّى ، عادة يومية عند كثير من الأحداث ، ولم يكن هناك سوى قليل منهم لا يتناول القربان المقدس الا مرة في الأسبوع على التقليل .

كانوا يستنشقون تكريم السيدة العذراء ، وقد بلغ شأواً عجبياً في سنوات دومنيك سافيو ، وفي أثناء بناء الكنيسة الكبيرة لمريم معونة المسيحيين .

الحُبُّ للبابا شيء ثابت في ذهن دون بوسكو المسيحي . قالوا إنه باباويّ أكثر من البابا ، ولم يخطئوا كل الخطأ . لم تكن المسألة مسألة ألفاظ فحسب : سيستنفذ دون بوسكو سنواته الأخيرة ليُطيع رغبة البابا . فكان الصبيان يندمجون في حالته الفكرية .

كان من الممكن أيضاً أن يخطأ ، ورأى بعض علماء النفس وشؤون الكنيسة في عصرنا أنه خطأ خطأ جسيماً في مسألة عطلة تلامذته في أسرهم . أراد أن تكون قصيرة الى أقصى حدّ . كان يرى أنّها " خطر جسيم " على الدعوات .

يقول خبراء اليوم : " لم يكن بوسع دون بوسكو ، وهو رجل من عصره ، أن يفهم قيمة الأسرة والرعيّة ، وهي كنيسة محليةّة ، في بعث الدعوات " . قد يساور بعضُ التردُّد ذهنَ من يفوه بهذا الحكم القاطع إذا نظر إلى الأرقام : في السنة ١٨٦١ وحدها ظهرت ٣٤ دعوة كهنوتية في المصلّى . سمّى أعداءُ الكنيسة بيته " معمل الدعوات " . بلغ في آخر حياته عدد الكهنة الذين خرجوا من فالدوگو عدة آلاف ، ولم يكونوا جيشاً من المكبوتين .

كان دون بوسكو على يقين من أنه ، اذا كان يُطلب من الكاهن العفاف ، فلا بدّ من حماية " طالب الكهنوت " في أيام المراهقة وهي أيام حرجة . ذلك رأيٌ جدير بأن يُعاد التفكير فيه من غير أن يُهمل ما للأسرة والكنيسة المحلية من قيمة .

٢٦ كانون الثاني (يناير) ١٨٥٤ . في تورينو برد أشبه ببرد القطب ، ولكن تسود غرفة دون بوسكو الصغيرة حرارة كالتّي يجب أن تسود . دون بوسكو يتكلم ، وأربعة من الشبان يَعُدُّونَ من غير نظام وراء كلماته :

- أنتم ترون أنّ دون بوسكو يبذل ما بوسعهُ ، ولكنه وحده . فاذا مَدَدْتُم إليّ يدَ المساعدة أجرينا معاً معجزات . إنّ ألّوفا من الصبيان الفقراء ينتظروننا . أوْكَدْ لَكُمْ أنّ السيدة العذراء مريم سترزقنا مصليّات كبيرة واسعة وكنائس وبيوتاً ومدارس وورشات وكثيراً من الكهنة المصمّمين على مساعدتنا ، وذلك في ايطاليا وأوروبّا ، لا بل في أميركا . ورأى بينكم منذ الآن تاج مطران .

دُهل الصبيان الأربعة ونظر بعضهم الى بعض ، وظنوا أنهم يحلمون ، وأمّا دون بوسكو فإِنَّه لا يحلم . انه جادّ ويبدو كمن يقرأ المستقبل . قال :

- إنّ السيدة تريد أن نباشر جمعيتنا . إني أساءل نفسي منذ مدة طويلة عن الاسم الذي نطلقه عليها . عزمت على أن نتسمّى سالسيتين .

بين هؤلاء الأحداث الأربعة حجارة الأساس للرهبانية السالسيّة . دَوْن ميشيل روا في دفتره ذلك المساء : " اجتمعنا عند دون بوسكو : روغيّتي (Rocchiatti) وأرتيليا (Artiglia) وكالبيرو (Cagliari) وروا (Rua) . عُرِضَ علينا أن نقوم بمحاولة نتمرّن فيها على عمل محبّة للقريب ، بعون من الرب ومار فرنسيس دي سال . وسنبرز وعداً فيما بعد ، ثم نذراً للرب اذا أمكننا . على الذين يقومون بتلك المحاولة وعلى الذين سيقومون بها في المستقبل يُطلق اسم السالسيين " .

المظلة والورد

إنّ توقّعات المستقبل التي بلّغها دون بوسكو الأحداث في ذلك المساء ، هي تلك التي جعلت

بعض الناس قبل بضع سنوات يحسبونه مجنوناً ، وكادوا أن يرسلوه الى مستشفى المجانين . ولكن دون بوسكو كرّر أقواله بثقة وصلابة رأي لأته ، كما قال الأب بوريل ، " رآها في الحُلم " . في السنة ١٨٤٧ حلم " حلماً أساسياً " قامَ عنده مقام برنامج في الشؤون اليوميّة ، كما قال هو بنفسه . لقد روى ذلك الحُلم في السنة ١٨٦٤ ، في غرفة انتظاره ، للسالسيين الأولين وكان بينهم الأب روا والأب كالبيرو والأب دوراندو والأب بربيرس (Barberis) .

" ذات يوم من السنة ١٨٤٧ فكّرتُ مَلِيّاً في وسيلة أعمل بها الخير للشبيبة ، فترأيت لي ملكة السماء (تلك عبارة قلّ أن أستعملها دون بوسكو فهو يقول على العموم : رأيت في الحلم امرأة

جميلة جداً) فقادتني إلى حديقة خَلَابَة فيها حنايا مثقلة بالأوراق والأزهار . كانت تلك الحنايا تشرف على مظلة رائعة تَحْفُ بها وتغطيها شجيرات الورد المزهرة . وكانت الورد تَعْطِي الأرض كلها أيضاً . قالت لي العذراء المباركة :

- اخلع حذائك وامش تحت هذه المظلة ، هذه هي الطريق التي يجب عليك أن تسلكها .
أسعدني اتي خلعتُ حذائي ، ولو دُستُ تلك الورد ، لأخذني الأسف . بدأتُ أمشي ،
ولكن رأيتُ لوقتي أن الأزهار تُخفي شوكا حاداً ، فاضطرتُ إلى التوقف وقلت للتي تقودني :
- الآن لا بد لي من الحذائين .

فأجابت :

- أجل ، لا بُدَّ من حذائين حسنين .

فاحتذيتُ وعدتُ إلى السير . فرافقتني عدد من الأصحاب وصلوا قبل قليل وسألوني أن

يسيروا معي .

كانت تنزل أغصان كثيرة من فوق كأنها أقواس من الزهر ، ولم أشاهد سوى ورود عن اليمين واليسار ، ووروداً فوق رأسي ووروداً أمامي ولكن ساقِي كانتا تعلقان بالفروع المبعثرة على الأرض فُجرحان . وبينما أبعد غصناً يعترض المكان ، شككتُ جسمي فسال الدم من يديّ ومن جسمي كله . كانت الورد تُخفي قدراً من الشوك عظيماً .

قال لي جميع الذين رأوني ماشياً : " دون بوسكو يمشي دائماً أبداً على الورد . كل شيء

يؤاتيه على وجه حسن " ولم يروا أن الشوك يمزق أعضائي المسكينة .

تبعني كثير من طلاب الكهنوت والكهنة والعلمانيين الذين دعوتهم ، تبعوني فرحين ، وقد

أغراهم جمال تلك الأزهار ولكنهم فهموا أنه يجب عليهم أن يتقدّموا من خلال الشوك فأخذوا

يصرخون : " لقد خُدعنا ! " فكان كثير منهم يذهبون ، فبقيتُ وحدي فاخذت أبكي وأقول :

" أيمكنني أن أجتاز وحدي ذلك الطريق كله ؟ " .

ولكن لم ألبث أن نلتُ العزاء فقد رأيتُ جمعا من الكهنة والشمامسة والعلمانيين قالوا لي :

" نحن لك بكلّ ما فينا ، نحن متأهبون لنتبعك " . فعدتُ إلى السير على الطريق ماشياً أمامهم ،

ففتّرت همّة أناس منهم فقط ، فتوقفوا ووصل معظمهم معي إلى نصف الطريق .

اجتزت المظلة كلها فوجدت نفسي في حديقة رائعة ، وكان صحبي القليل الذين يتبعوني في

حالة هُزال وقد شعت شعرهم ، وسال دمهم ، فهبّ نسيم خفيف فتعافوا كلهم لهبوه . وهبّت

ريح أخرى فحدث ما يشبه السحر فوجدت نفسي يحدق بي عدد لا يحصى من الأحداث وطلاب

الكهنوت والعلمانيين معاونين ومن الكهنة أيضاً ، فباشروا العمل معي في قيادة الشبيبة . عرفتُ

بعضاً منهم في حين أنّ غيرهم كثيرين لم أعرفهم قبل .

فسألتني السيدة العذراء التي كانت لي دليلاً :

- أتعرف معنى ما تراه الآن وكلّ ما رأيته قبل ؟
- لا .

- ان الطريق التي سلكتها من خلال الورود والشوك تمثل همّ الشبيبة التي سيجب عليك أن تحمل عبءه . الشوك هو العقبات والآلام والمضايق التي تصيبك . وكلن لا تياس فبالمحبة والتشف تغلب ، وتصل إلى الورود من غير شوك .
فما إن فرغت أم الله كلامها حتى عدت إلى نفسي فوجدتني في غرفتي .
وختم كلامه بقوله : " رويت لكم ذلك لكي يكون كلُّ منا على يقين من أنّ السيدة العذراء مريم تريد رهبانيتنا ، ولكي يزدادَ عزمنا على العمل في سبيل مجد الله الأعظم " .

كانت تلك الطمأنينة الهادئة رائدَ دون بوسكو فكان " يُلقى الشبكة " بين أحداثه لينمي عدد السالسيين في المستقبل . كان يقول قول من يتكلم مصادفة : " أحبّ دون بوسكو ؟ أيلولوا لك أن تبقى معي ؟ " أو : " ألا تمُدُّ ليّ العون لمساعدة الأحداث ؟ إنك ترى أنّه لو كان عندي مائة كاهن ومائة طالب كهنوت ، لكان عندي عمل لهم جميعاً ، ولأمكننا أن نذهب في العالم كله " . .
هذه الاقوال مألوفة عند الصبيان . إنهم يتكلمون مرتاحين على " مصليات المستقبل " وأحلام دون بوسكو و " البقاء أو عدم البقاء معه " . ذات مساء من السنة ١٨٥١ ألقى دون بوسكو من نافذة في الطبقة الأولى حفنة من السكاكر الى الأولاد . كان ذلك يوليهم فرحاً عظيماً ، فصاح به صبيٌّ رآه يبتسم في نافذته : " آه يا دون بوسكو ، لو كان يتيسّر لنا أن نرى جميع أطراف العالم وفيها مُصليات في كل مكان ! " . فرفع دون بوسكو نظره الهادئ نحو السماء وأجاب : " من يعلم ؟ ألا يأتي يوم فيه يتفرق أولاد المصلّي في العالم كله ؟ " .

" كم تعطيني أجرة ؟ "

في أفيليانا (Avigliana) يعيش كاهن أكبر من دون بوسكو سيّاً بثلاثة أعوام ، واسمه الأب فيثوريو الاسوناتّي (Alasonatti) ، وقد صادف دون بوسكو بضع مرات في الرياضات الروحية في لانتسو (Lanzo) ، فتصادقا . الأب الاسوناتّي معلم مدرسة ابتدائية في أفيليانا وهو يُحسن عمله في تعليمه الأولاد . إنه يميل إلى التشدد ويفرض سلوكاً كلّهُ جيّدٌ ولكنهم يُحبّونه .
داعبه دون بوسكو للمزاح فقال له :

- كم ولداً عندك؟ ثلاثون؟ ولا تستحيي؟ كيف ترضى بالعمل لثلاثين طفل فقط؟

هلم ! تعال ساعدني في تورينو .

- كم تعطيني أجرة ؟
- الخبز والعمل والفردوس . لن يُمكنك ان تكدّس كثيراً من الليرات وأمّا النوم فسيمكنك أن تقتصد فيه كثيراً .

ومن مزاح إلى مزاح أخذ الأب الاسونائي يفكر بجِدّ ، وعلمَ دون بوسكو بالأمر وفي الأشهر الأولى من ١٨٥٤ كتب إليه رسالة قال له فيها هذه الكلمات فحسب : " تعالَ ساعدني في تلاوة صلاة الفرض " .

في الرابع عشر من آب (أغسطس) وصل الأب الاسونائي الى المصلّى ، وفي يده حقيبة صغيرة وكتاب صلاة الفرض تحت ذراعه ، بعد ما فرغ من حلّ جميع مسائله . عانق دون بوسكو ثم قال له :

- لَبَيْكَ : أين يجب علي أن امكث لأتلو صلاة الفرض ؟
ذهب به دون بوسكو إلى مكتبه حيث تحفظ دفاتر الحساب وقال :
- هذه مملكتك . لقد درّست الحساب مدة طويلة ، فلا شك في أنك تحسن عمليات الجمع والطرح .

فقال الأب الاسونائي بلهجة الجِدّ :

- منذ الآن مُرُ أطعك ، ولا تترقّق في أمري ، فاني أريد أكسب الفردوس لنفسي .
ومن ذلك الحين صار الأب الاسونائي للأب بوسكو ظلّه المتواضع مع شيء من التشدّد .
خفّف عنه جميع ما يمكن من الأعمال : التدبير العام للبيت ، والثيابة ومسك دفاتر الوارد والصادر والسجلات ، وأعسر المراسلة وأصعبها .

إذا شعر بالتعب ولما أخذت صحته تزول فيما بعد ، قرأ في كتاب الصلاة ورقة صغيرة وضعها فيه ، لتكون علامة : " يا فيثوريو ماذا جئت تعمل ؟ " . وأضاف إلى جانبها عبارة يكررها دون

بوسكو كثيراً على ذويه عندما يراهم متعبين : " سنستريح في الفردوس " .
كان على الأب ألا سونائي في غد وصوله إلى فالدوگو أن يبّاشر رسالته على نحو غير مألوف ، إذ طلب إليه أن يذهب لاسعاف مريض اصابته الكوليرا ، فقد تفشّت الكوليرا في تورينو تفشياً شديداً مفاجئاً .

الموت في شوارع بورغو دورا

وصل الخبر المروّع إلى تورينو في تموز (يوليو) . دخلت الكوليرا في ليغوريا فأودت بحياة ٣ آلاف ماتوا في جينوى ، فخرج الملك والملكة من المدينة في عربة مغبقة ولجأ إلى قصر كاسيليتي

(Caselette) في مدخل وادي لا نتسو (Lanzo) وسوزا (Susa) .

كان مركز الوباء بورغو دورا (Borgo Dora) على بعد خطوات من فالدوگو . هناك في بيوت فقيرة وأكواخ كان يتكدس المهاجرون ، وهم قوم غداؤهم قليل ولا تمكنهم مراعاة أصول

النظافة . في شهر واحد أصيب ٨٠٠ ومات ٥٠٠ .

وجّه المحافظ نوّتا (Notta) نداء إلى أهل المدينة : يجب أن يَهَبّ أناس مقدامون لاسعاف

المرضى فينقلوهم إلى المستشفيات لئلا تنتشر العدوى .

في ٥ آب (أغسطس) ١٨٥٤ وفيه عيد سيّدة الثلوج ، خطب دون بوسكو في صبيانه فبدأ

بوعد :

- اذا جعلتم أنفسكم جميعاً في حالة يرضى عنها الله ولم تتركبوا خطيئة كبيرة ، فإني أؤكد لكم أن الكوليرا لن تصيب أحداً منكم .

ثم وجّه إليهم دعوة :

- تعلمون أنّ المحافظ وجّه نداء . هناك حاجة إلى المرضى والمسعفين ليعنوا بالذين

أصابتهم الكوليرا . إنّ كثيراً منكم صغار السنّ ، ولكن اذا رغب أناس من الأكبر سنّاً في الذهاب معي إلى المستشفيات والمنازل الخاصة ، فسنعمل معاً عملاً حسناً يرضى عنه الرب .

في مساء ذلك اليوم اكتتب أربعة عشر ، وبعد بضعة أيام افلح ثلاثون آخرون في الفوز بإذن

الانضمام إلى الأوّلين . إنّ سنّهم صغيرة جداً .

كانت تلك الأيام جهد مضمّن وليس فيه شيء من الأغراء . نصح الاطباء بأن يُعالج المرضى

بتمسيد سوقهم وفركها ليعرقوا عرقاً غزيراً . فُسّم الصّبيان ثلاثة أقسام : فأكبرهم سنّاً يعملون

وقت الدوام كله في المستشفيات وبيوت المصابين ، وقسم ثانٍ يجول ليكتشف المرضى الجدد،

والقسم الثال (الاصغر سنّاً) يبقون في المصلّى متأهبين لتلبية كل نداء .

احتاط دون بوسكو كلّ حيطة ، فكلّ منهم يحمل قنينة من الخلّ ، ويجب عليه أن يغسل يديه

بعد ما يلمس المرضى .

روى الأب لموان (Lemoyne) : " حدث مراراً كثيرة أنّ المرضى نقصتهم الشّرّاشف

والأغطية والثياب ، فكان الصبيان يأتون فيخبرون ماما مرغريتا فكانت تذهب إلى غرفة الثياب ،

وتعطيهم قليل ما عندها . فبعد بضعة أيام لم يبقَ عندها شيء فجاء مُمرّض صغير السنّ فأخبرها أنّ

امراً بانساً يتململ بلا شرف على فراشه الحقير وقال : " أليس عندك ما يُغطّيه ؟ " . فكَرّت

مرغريتا ثم ذهبت فنزعت الغطاء الابيض من على المذبح وأعطته الصبي : " احمله إلى مريضك .

لا أظنُّ أنّ الرب سيَندمّر " .

عمالقة وجوههم حزينة

يوحنا كالبيرو (Cagliero) في السادسة عشرة من عمره . عاد ذات مساء في آخر آب (أغسطس) من المستشفى إلى البيت فشعر بوعكة . والراجح أنه أكل فاكهة فاسدة في حرّ تلك الأيام الشديد . فدعا دون بوسكو الطبيب لوقته فأعرب عن تشخيص رهيب : " إنّه التيفوس " . برّحت به الحمى طوال شهر أيلول (سبتمبر) كلّه ولم يبقَ له في الأيام الأخيرة سوى الجلد والعظم ، وشعر بأنه ماضٍ إلى الموت ، فدُعي طبيبان ليفحصاه فقالا إنه لا أمل من شفائه ، وأشارا بان يُمنح الاسرار الأخيرة .

فاضطرب دون بوسكو اضطراباً شديداً وهو يحب هذا الصبي من صميم قلبه ، فلم يقوَ على أن يبلغه الخبر ، فطلب الى يوسف بوتسيّتي (Buzzetti) أن يفعل بمنتهى اللطف ، ونزل في أثناء ذلك الى الكنيسة فجاء بالزاد الاخير .

وما كاد يوسف بوتسيّتي يكلم كالبيرو عاد دون بوسكو ، وهو يحمل حقّ القربان المقدس ، ولكنه لم يتقدّم بل لبث بضع ثوانٍ ينظر في الهواء كماّته يرى منظرأ لا يستطيع الآخرون أن يروه ، ثم تقدّم نحو سرير المريض ، وقد حدث فيه تبدل عميق . زال ما كان فيه من حزن واضطراب قبل دقائق . إنّه فرح بيتسم . تتمم يوحنا :

- أهذا اعترافي الأخير ؟ أموت حقاً بعد قليل ؟
- كلا ، لم يحن بعد يوم ذهابك الى السماء . هناك أشياء كثيرة يجب أن تقوم بها : سنشفي وتلبس الثوب الكنسي . . . وتصير كاهنا . . . ، ثم تجول جولات كثيرة ، وكتاب الصلاة تحت ذراعك . . . وسوف نُسلم كتاب صلاة الفرض الى غيرك ، وسوف تذهب الى مكان بعيد ، بعيد .

قال دون بوسكو هذه الكلمات ثم أعاد الزاد الأخير الى الكنيسة .
زالت الحمى بعد بضعة أيام عن يوحنا ، فاستطاع الذهاب الى كاستلفوفو (Castelnuovo) ليقضي فيه مدة طويلة ينقه فيها .

تساءل بوتسيّتي وكالبيرو مدة من الزمن ما الذي رآه دون بوسكو لدى دخوله الغرفة ، فأجاب عن ذلك دون بوسكو نفسه فيما بعد :
" وطئتُ العتبة بقدمي إذ رأيت نوراً باهراً . كانت حمامة ناصعة البياض ، تحمل غصناً من الزيتون ، تنزل نحو سرير المريض فتوقفت على بعد بضعة سنتيمترات من وجه كالبيرو الشاحب اللون ، وثركت الغصن يسقط على جبينه . وبدا لي لوقته أنّ جدران الغرفة قد تفتّحت وكشفت

عن آفاق بعيدة ، تحفّ بها الاسرار وظهر حول السرير جَمْعٌ من الخيالات البدائية كأنها رجال متوحشون قامتهم قامة العمالقة . كانت بَشَرَتهم داكنة اللون عليها وشم غريب يضرب إلى الحمرة . كان هؤلاء العمالقة ينحنون على المريض بوجه علته الأنفة والحزن ، واخذوا يتمتمون مرتعدين : إذا مات فمن يَهْبُ إلى نجدتنا ؟ لم تدم الرؤيا إلا وقتاً قليلاً ولكني أيقنتُ يقيناً مطلقاً أنّ كالبيرو سيُشفى " .

ثماني دقائق من أجل صفحة

لما نزلت أوّل الأمطار في تشرين الأول (أكتوبر) خفّت اصابات الكوليرا كثيراً ومع ان بعض الإصابات ظهرت قبل الشتاء ، أعلن في ٢١ تشرين الثاني (نوفمبر) أنّ حالة الطوارئ قد انتهت . من ١ آب (أغسطس) إلى ٢١ تشرين الثاني سُجّلت في المدينة ٢٥٠٠ أصابة فمات ١٤٠٠ من المصابين .

عاد صيبان دون بوسكو إلى المدرسة من غير أن يُصاب أحد منهم ، وذهب أناس منهم إلى بيوتهم لعطلة قصيرة .

وصعد دون بوسكو الى البگي (Becchi) شأنه في سائر السنين ، من أجل عيد سيده الوردية ، وبينما هو هناك زاره صديق له في ايام معهد الكهنوت ، الأب كولبيرو (Cugliero) وهو مدرّس في مدرسة ابتدائية في موندونيو (Mondonio) فسلم عليه ثم أخذ يقول :

- بلغني أنك تقبل مع الرعاع الصغار في مصلاك صيبانا حسني السيرة ، يرجى أن يصيروا

كهنة . عندي في موندونيو صبيّ يوافقك . اسمه دومنيك سافيو . ليس له من الصحة الا القليل ولكن له من الصلاح ما يجعلني أراهنك أنك لم تعرف قط ولداً مثله . إنه مار لويس دي غونزاغا حقاً .

فابتسم دون بوسكو وقال :

- إنّك تبالغ ! ومهما يكن من أمر ، فبوسعي أن أنظر ما هو . إني باق هنا بضعة أيام ، فدعني أعرفه هو وأعرف أباه معه . سنتحدث وسنرى من أي نسيج صنّع .

٢ تشرين الأول (أكتوبر) ١٨٥٤ . جرى اللقاء قبالة بيت يوسف . لقد أثر في دون بوسكو تأثيراً عظيماً فرواه رواية مفصّلة غاية في التفصيل حتى أدقّ الأمور منها ، كأنه سجّلها تسجيلاً .

اللغة لغة سني ١٨٠٠ ولكن المشهد حيّ إنه يُخيّل إلى المرء أنّه يشهده :

" في أول يوم من تشرين الأول رأيت في الصباح الباكر صبيّاً يصحبه أبوه ، يدنو مني

ليحدّثني ، فاجتذب ناظريّ وجهه المشرق ومنظره وهو يبتسم ويُظهر التوقير . فقلت له :

- من أنتَ ومن أين جئتَ ؟
- أنا دومنيك سافيو الذي كلمك عليه الأب كولبيرو ، وقد جننا من موندونيو .
فانفردتُ به ، وبعدهما تحدّثنا عن الدروس التي درسها ، والحياة التي عاشها إلى ذلك
الحين ، سادت الثقة التامة بيننا ، وثق بي ووثقتُ به .
ميّزت في هذا الصبي نفساً كما يريد لها روح الربّ حقاً ، ودهشت للنناج التي حصلت عليها
النعمة الالهية من صبيّ في هذه السنّ من الحداثة .
وبعدما تحدّثنا حديثاً على شيء من الطول ، وقبل أن أدعو أباه ، قال لي هذه الكلمات
بالحرف الواحد :

- اذاً ، ما رأيك ؟ أتذهب بي إلى تورينو لأدرس ؟
- أجل ، يبدو لي أنّ هناك نسيجاً حسناً .
- لماذا ينفع هذا النسيج ؟
- لصنع ثوب حسن يُهدى إلى الرب .
- اذاً أنا النسيج وستكون أنتَ الخياط . تأخذني معك لتصنع ثوباً حسناً للربّ .
- ولكن ماذا تعمل عندما تفرغ من درس اللاتينية ؟
- إذا أنعم الرب عليّ بالنعم اللازمة ، فأني أُرغب رغبة شديدة في أن أصير كاهناً .
- حسناً . أريد الآن أن أعلم هل لك المؤهلات الكافية للدروس . خذ هذا الكتاب
الصغير (وهو جزء من القراءات الكاثوليكية) وتعلم هذه الصفحة . غداً تعود فتتلوها عليّ .
قلتُ ذلك ، تركته حراً لكي يذهب إلى اللعب ، وأخذتُ أحدثُ أباه . فلم يمض عليّ .
من عشر دقائق حتى عاد دومنيك وهو يضحك ، فقال لي :
- إذا شئتُ أتلو عليك الصفحة الآن .

فأخذت الكتاب ودهشت دهشاً عظيماً إذا اضطررتُ إلى الاعتراف بأنه لم يتعلم كلام النصّ
فحسب ، بل فهم فهماً تاماً معنى الأشياء التي وردت فيه .
قلتُ له :

- مرحى ! لقد تعلمت الأمثلة قبل الوقت المحدد لها ، وأنا أجيبك قبل الوقت المحدد :
- أذهبُ بك إلى تورينو ، وأعدُّك منذ الآن واحداً من أولادي الأعزاء ، واشرع أنت أيضاً منذ الآن
في الصلاة لله لكي يُعيننا أنا وانت لنعمل بمشيئته .
لم يدر كيف يُعرب لي عن سروره وشكره إعراباً أحسن من أن يمسك بيدي ويقبلها عدة
مرّات ثم قال :

- أرجو أن أسلك سلوكاً لن تشكو شيئاً منه أبداً " .

فكر دون بوسكو في كلام الأب كولبيرو فاضطّرّ الى الاستنتاج أنّه لم يبالغ فيه . لو رأى مار لويس النورَ في تلال مونفراتو وكان ابن فلاح ، لما اختلف عن هذا الصبّي المبتسم الذي يريد أن يصير " ثوباً حسناً يُهدى الى الرب " .

لوحة غامضة المعنى

في أثناء ذلك خالف يوحنا كالبيرو الفطنة وهو ينقه في كاستلنوفو ، فتناول كثيراً من العنب ، وكان ذلك في وقت قطف العنب فعاودته حمّى شديدة . فبلغ الخبر دون بوسكو ، فذهب إليه ليراه .

فلقيَ أمّه يائسة :

- هلك ابني يوحنا . إنه يهذي ويقول إنّه سيلبس الثوب الكهنوتي ، في حين أنّ الحمّى تودي به .

- كلا ، يا عزيزتي تريزيا الطيّبة ، إن ابنك لا يهذي . أعدّي له هذا الثوب فسألّبه في تشرين الثاني (نوفمبر) . لن تسلبك إياه الحمّى ، فهناك أشياء كثيرة يجب عليه أن يقوم بها في هذه الدنيا .

وذلك ما جرى ، ففي ٢٢ تشرين الثاني الموافق عيد القديسة سيسيليا لبس يوحنا كالبيرو الثوب الكهنوتي ، بعدما تعافى على أتمّ وجه . وأذن رئيس معهد الكهنوت التابع للابريشية ، الأب فوليوّتي (Vogliotti) للشّمّاس كالبيرو أت يتردّد الى دروس معهد الكهنوت ، ويظلّ مقيماً عند دون بوسكو .

في تلك الفترة ، في ٢٩ تشرين الأول (أكتوبر) كان دومنيك سافيو قد انضمّ إلى المصلّى ، فلما دخل وأباه مكتب دون بوسكو ، تَنَبّه لوقته للوحة كبيرة في الجدار عليها كلمات غامضة باللاتينية لم يفهما : Dd mihi animas, coetera tolle .

لما ذهب أبوه ، تغلب على ما أخذه من التردّد بادئ ذي بدء وسأل دون بوسكو عن معنى الكلمات المعقّلة في الجدار ، فأعانه دون بوسكو على ترجمتها : " ربّ أعطني النفوس وخذّ البقية " . إنه الشعار الذي اختاره دون بوسكو للقيام برسالته . روى دون بوسكو أنّ دومنيك لما فهم ، ظلّ يفكر لحظة ثم أعلن : " فهمتُ ، لا يُتاجر هنا بالمال بل يُتاجر بالنفوس . أرجوا أن تكون نفسي شيئاً من تلك التجارة " .

هكذا بدأت حياة دومنيك اليومية الرتيبة ، ولا شك في أنّه ارتدى المعطف العسكري هو أيضاً ، وذهب كل صباح مع الجماعة الصغيرة التي يقودها الأب روا الى مدرسة بونزانينو . كان

نهاره نهار تلميذ صغير لا تنوع فيه : الفروض والأمثولات والكتب والأتراب . كتب دون بوسكو وقد تتبَّعه يوماً بعد يوم : " منذ ذلك اليوم أكبَّ على القيام بواجبه إكباباً دقيقاً يعسر على المرء أن يفوقه فيه " .

مصايح ملوثة على ضفاف نهر البو

في آخر تشرين الثاني (نوفمبر) ساد المصلى جوٌ خاصّ ، فقد باشروا تساعية العذراء البريئة من الدنس ، والسنة هي السنة ١٨٥٤ وقد أذاع بيوس التاسع من رومة أنّه سيُعلن في ٨ كانون الأول (ديسمبر) عقيدة الحبل بمریم بلا دنس ، فأيقظ في العالم الكاثوليكي الحُبَّ للعذراء ، فأخذوا يُعدّون حفلات عظيمة .

شعر دون بوسكو بأنّ السيدة العذراء مريم " تقوده بيده " فيحدّث حديثها كل مساء اولاد المصلى ، فأقاموا التساعية بتقوى كبيرة . وكلم الصبيان في الساحة أو في مكتبه ، فسألهم ماذا يريدون أن يُقدّموا للسيدة في عيدها ، فاجابه دومنيك سافيو : " سأشئن حرباً لا رحمة فيها على الخطيئة المميّنة ، وأريد أن أصلي للرب والعذراء حقاً لكي يُميتاني فلا يدعاني أسقط في الخطيئة " . ذلك تكرر لوعده وعده لما تناول القربان المقدس أوّل مرّة : " الموت ولا الخطيئة " . وليست

هذه العبارة عبارة جديدة استنبطها ، بل الكلمات الاخيرة لفعل الندامة الذي كان يُتلى في ذلك الزمان بعد الاعتراف . وقد تبناها كثير من الاولاد التزاماً لهم ، لدى أول لقاء بينهم وبين يسوع في القربان المقدس . ولا يخلو من الطرافة أن نجد أيضاً بين " الوعد " التي أوحى بها الملكة أديلائيد ، زوجة فيثوريو عمانوئيل ، الى وليّ العهد اومبرتو أمير سافيا الذي صار ملكاً في كانون الاول (ديسمبر) ١٨٤٨ ، وكان في سنّ دومنيك سافيو على التقريب (فقد وُلد في ١٨٤٢ واومبرتو في ١٨٤٤) . ويشعر المرء بانفعال شديد اذ يُفكر أنّ ألوفاً من الأولاد ينسون هذا الالتزام في ألعاب طفولتهم . واما دومنيك فقد ظلّ وفياً له على وجه بطولي حتى الموت .

٨ كانون الاول (ديسمبر) . أعلن بيوس التاسع ، أمام جمع مهيب من الكرادلة والأساقفة ، حقيقة يجب الايمان بها ، وهي أنّ مريم كانت منذ أوّل لحظة لوجودها مصنونة من " الخطيئة الأصلية " .

دخل دومنيك سافيو ، في أثناء فترة من يوم عيد المصلى ، إلى كنيسة مار فرنسيس دي سال ، وجثا أمام السيّدة ، وأخرج من جيبه بطاقة كتب فيها بعض الأسطر . لقد نذر نفسه لأمّ الله ، فكتب دعاء صغيراً صار مشهوراً في العالم السالسيّ كله : " يا مريم ، إني أعطيك قلبي فاجعليه لك دائماً أبداً . يا يسوع ومريم ، إبقيا صديقَيّ دائماً أبداً ، ولكن أشفقا عليّ فأميتاني ، فذلك أفضل من أن أتبلى بارتكاب ولو خطيئة واحدة " .

وفي المساء كانت مدينة تورينو كلها تتوهج من الأنوار ، فإنّ ألوفاً من المصابيح الصغيرة الملونة تتلألأ في النوافذ والأسطحه وضياف نهر البو . ونزل الجمع إلى الشوارع واتجه موكب عظيم نحو كنيسة سيّدة التعزية ، وسار أحداث فالدوگو أيضاً حول دون بوسكو ، وهم ينشدون في شوارع المدينة .

اليتيم الصغير من ميمم القديس دومنيك

سنة ١٨٥٤ فيها أجهد دون بوسكو نفسه كثيراً فانتهدت بحادث مؤلم . فتحت البلدية على عجل ، بالقرب من كنيسة القديس دومنيك ، داراً للأيتام مؤقتة لا يواء نحو مائة من الأطفال أودت الكوليرا بحياة آبائهم وأمّهاتهم . فلما وافت أوّل أيام البرد ، طلب المحافظ نوتّا (Notta) إلى المؤسسات الكاثوليكية أن تتبّى أناساً منهم ، فقبل دون بوسكو عشرين يتيماً اسم واحد منهم بيترو إنريا (Enria) فذمر في روايته للحادث :

" ذات يوم وصل دون بوسكو ، ولم أكن قد رأيته قط ، فسألني عن اسم أسرتي واسمي ، ثم قال لي :

- أتريد أن تجيء معي ؟ سنكون صديقين وفيين دائماً أبداً .
- نعم ، سيّدي .
- والذي بجانبك أهو أخوك ؟
- نعم ، سيدي .
- قل له يأت معنا هو أيضاً .

بعد بضعة أيام سير بنا إلى المصلّى مع بعض الآخرين . كانت أمي قد ماتت بالكوليرا ، وكان أبي في ذلك الحين مصاباً بالداء نفسه . أذكر أنّ دون بوسكو كانت تصيح به أمه :

- إنك تقبل دائماً أولاداً جدداً ، ولكن كيف يمكننا إطعامهم وإلباسهم ؟

وما إن دخلتُ أنا نفسي حتى اضطررتُ الى النوم بضع ليالٍ على كومة من ورق الشجر ، وليس لي غطاء صغير . وكان دون بوسكو وأمّه عند المساء يُرَقعان بناطلنا وستراننا الممزّقة ، لانه لم يكن لنا سوى واحدة من كل منهما " .

هياً دون بوسكو للأيتام مكاناً خاصاً في البناء الجديد ، تولى تدريسهم أكثر من سنة وحده بادئ ذي بدء ، ثمّ استعان بالشمامسة وأصدقاء له . كان سائر أهل المصلّى يسمّونهم " الصف الصغير جداً " لأنّ الأيتام كان صغاراً جداً . لزم بيترو إنريا طوال حياته دون بوسكو ، وهو الذي عُني به عناية الابن بأبيه في مرضه الأخير وأطبق له عينيه .

كانت الكوليرا قد سببت للمدينة كثيراً من السوء ، ولكنها مع ذلك صنعت شيئاً من الخير الى المصلى ، ولو عن نحو غير مباشر ، فان العون الذي بذله الأحداث بسخاء في سبيل المصابين ، جعل أهل المدينة يعرفونه ويقدرّونه . وقد اكتسب له ثناءً رسمي من المحافظ ثقة أصحاب السلطة . وهناك أمر يكاد لا يُصدّق وهو أنه لم يُصَبّ بالبواباء أحد من هؤلاء الأحداث ويُمكن القول إنهم غاصوا في العدوى ، فاقتنع كثير من الناس أنه يجب حمل " هذيان " دون بوسكو على محل الجدّ .

٣٣

١٨٥٥ : " الجانحون الأحداث " من السجن العام

شَهدت السنة 1855مجابهة جديدة شديدة جداً بين الدولة أو الكنيسة .
في تشرين الأول (أكتوبر) ١٨٥٢ صار كميلو كافور رئيساً للوزارة ، فأحدث تجديداً

اقتصادياً حسناً في البيومنته ، فأُنشِئت فيه ٨٥٠ كيلو متراً من السكة الحديد أي ما يساوي كلّ ما انشئ في سائر ايطاليا ، وازدهرت الصناعة والزراعة . وفي آخر ١٨٥٤ قدّم الوزير أوربانو راتاتسي (Rattazzi) إلى مجلس النواب مشروع قانون ، زُعم أنه إصلاح اقتصادي . كتب المؤرّخ فرنسيس ترانيو (Traniello) : " هدفه واضح يرمي إلى تقليص نفوذ الكنيسة " فعرض إلغاء الرهبانيات التأمّلية ، أي التي لا تهتمّ بالتعليم ولا بالوعظ ولا بأسعاف المرضى ، واستيلاء الدولة على أملاكها " فيمكنها أن تسدّ حاجات أفقر الرعايا " .

وأضاف ترانيو : ذلك تدخّل جسيم جداً من الدولة في حياة الكنيسة ، لأن الدولة تولي نفسها الحق على أن تقرر ، بموجب مقياس إنتاجي ، مَنْ هي الرهبانية التي بوسعها أن تكون نافعة للمجتمع . وكان متوقعاً أن ينال القانون موافقة مجلس النواب ، على رغم المعارضة الكاثوليكية الشديدة ، وأن ينال موافقة مجلس الشيوخ أيضاً وإن بكّد .

" جنازات عظيمة في البلاط الملكي ! "

بعد ظهر يوم من أيام كانون الأول (دسمبر) ١٨٥٤ كان دون بوسكو لا بساً ققازين عتيقين لشدة البرد القارس ويُمسك بيديه رزمة من الرسائل كما قال بعض الشهود ، وكان يروي للأب الاسوناتي وروا وكالبيرو وفرنتشيسيا وبوتسيتي وأنفوسّي أنه حلم حلماً غريباً : كان في وسط ساحة اللعب ، فاذا به يرى حاجباً من بلاط الملك لابساً ثياباً حمراً يأتي فيصرخ : " جنازة عظيمة في البلاط الملكي ! جنازة عظيمة في البلاط الملكي ! " . فقال لشمامسته إنه كتب منذ نهوضه من النوم رسالة إلى الملك روى له فيها حلمه .

وبعد خمسة أيّام تكرر الحلم ، فعاد الحاجب الأحمر على حسان وصرخ : " بلّغ : لا جنازة

عظيمة في بلاط الملك ، بل جنازات عظيمة في البلاط الملكي " . عند الفجر كتب دون بوسكو رسالة أخرى الى الملك ونصح له " أن يعمل على إبعاد التهديد بالعقوبات ، والتمس منه أن يقاوم بكل قواه القانون المذكور " .

٥ كانون الثاني (يناير) ١٨٥٥ . مرضت الملكة الأم ماريّا تريزا مرضاً شديداً ، وساءت حالتها سريعاً فماتت في ١٢ كانون الثاني وهي في الرابعة والخمسين من عمرها . نُقل جثمانها الى مدفن أسرة سافويا في كنيسة سوبرغا (Superga) في ١٦ كانون الثاني ، وهو يوم برده شديد جداً . ٢٠ كانون الثاني . زُرّدت بسرّ المرضى الملكة ماري أديلائيّد زوجة الملك فيثوريو عمانوئيل الثاني ، وكانت قبل اثني عشر يوماً قد وضعت ولداً ، فلم تُعافَ بل ماتت في اليوم المذكور أعلاه ،

وليس لها من العمر سوى ٣٣ سنة .

١١ شباط (فبراير) . مات الأمير فردينان دي سافويا دوق جينوى ، وشقيق الملك ، بعد

أن أصيب بمرض شديد وكان في الثالثة والثلاثين .

كتب الأب لموان : " لم يعرف أحلام دون بوسكو ورسائله الى الملك سوى شمامسة المصلى ، فارتعبوا لما رأوا نبؤات دون بوسكو تتمّ على ذلك النحو الصاعق . حتى في زمن الوباء لم تُفتح قط ثلاثة قبور ملكية خلال شهر واحد " .

أكد الأب فرننتشيسيا أنّ الملك فيثوريو عمانوئيل الثاني نزل مرتين إلى فالدوگو ليلقى دون بوسكو وانه كان ناقماً عليه .

ومهما يكن الأمر ، فقد وافق مجلس النواب على قانون الإلغاء بأربعة وتسعين صوتاً لثلاثة وعشرين صوتاً مخالفاً ، ووافق مجلس الشيوخ أيضاً (٥٣ صوتاً لقاء ٤٢) ، ووقع الملك عليه في ٢١ أيار (مايو) . وهكذا ألغي ، حسب الأرقام التي ذكرها الأب لموان ، ٣٣٤ ديراً فيها ٥٤٥٦ شخصاً . فأعلن في رومة الحرم الكبير " لأصحاب القانون وللداعين إليه ولمنفذيه " (والحلّ من الحرم هذا محفوظ للبابا) .

وفي أثناء ذلك تُوفي في ١٧ أيار الولد الذي رُزقه الملك واسمه فيثوريو عمانوئيل ليوبولدو ، ولم يبلغ الشهر الرابع من عمره .

كان من سوء الطالع أنّ دون بوسكو قد أنبأ إنباءً دقيقاً بكل شيء ، سواءً أكان قديساً أم داعية شؤم ، على حسب الجهة التي يُنظر منها إليه .

السالسيّ الأول

استمرّ دون بوسكو في جمع شمامسة كلّ أسبوع من غير ضجة ، فكان يتكلم على الفقر والعفاف والطاعة ، وهي الفضائل الثلاث التي عدّتها الكنيسة دائماً أبدأً " الطريق للوصول الى الله " . وشرح لهم أن كل من صار راهباً يَندُر أنه يلتزم هذه الفضائل ، أي أنه يعدّ الله وعداً رسمياً العمل بها طوال حياته .

بدأ له في آخر السنة الأولى أنّ ميشيل روا هو أحسنهم استعداداً ، فسأله : " أيسرُه أن يندُر نذور الفقر والعفاف والطاعة لثلاث سنوات ؟ " . قال ميشيل بعددّز إنّه ظنّ المسألة " مسألة الارتباط بدون بوسكو على نحو أوثق " فرضي .

في ٢٥ آذار (مارس) ، عيد البشارة ، أُقيمت في الغرفة الصغيرة التي يُقيم فيها، حفلة من غير أبهة . وقف دون بوسكو يُصغي ، وميشيل روا جاثٍ على ركبته أمام الصليب يُتمتم جملة : " أنذر الله أن أكون فقيراً عفيفاً طائعاً ، وأضع نفسي في يدي دون بوسكو . . . " . ولم يكن هناك شاهد ، ومع ذلك فقد وُلِدَت في تلك اللحظة رهبانية دينية . دون بوسكو هو المنشء ، وميشيل

روا هو أول سالسيّ

ومنذ ذلك الحين صار النوم أعسرَ الأمور عليه ، وعلى كالييرو وفرنتشيسيا ، لا لأنهم غير راغبين في النوم ، فقد حدث لهم أنهم ناموا وقوفاً ، بل لأنهم لا يجدون الوقت اللازم ليناموا .
وجب عليهم ان يُواصلوا دروسهم ، ويقدموا جميع الفحوص ، وكانت في ذلك العهد كثيرة صعبة جداً ، وعهد إليهم دون بوسكو في الوقت عينه ، بدروس الديانة ، والنظر في غرفة الطعام والورشات ومدرسة الأيتام .

أرسلهم يوم الأحد إلى المصلّيات ، وإذا بمصلّي الملاك الحارس بلا مدير ، فسَمّى دون بوسكو ميشيل روا مديراً له ، وهو في السابعة عشرة . إن الذين يتردّدون إلى المصلّي هم على الخصوص منظّفو المداخل الصغار . إنهم صبيان ينزلون في الخريف من وادي أوستا (Aosta) ، وعلى أكتافهم الحبل والقنفة الحديد ، فيجولون في الشوارع ، ويُطلقون صوتاً معروفاً ،
وينتظرون أن تدعوهم أسرة لينظّفوا داخل المدخنة قبل الشتاء ، فيرتفع فيها الهواء الحارّ من الموقد ، ويُدقّ البيوت .

إن هؤلاء الصبيان جدّاً لأن المجاري التي يجب عليهم ولجها ضيقة جداً . وجوههم وأيديهم مغطاة بالسناج .

ميشيل روا مدّة طويلة يصل في الصباح على المصلّي ، فيكّس الغرف الصغيرة ، ويرتب الكنيسة ، وإذا وصل أولُ الصبيان ، ساعدهم على الاعتراف إلى الكاهن الذي يأتي ليقم القدّاس . وفي الساعة التاسعة يحضر نحو مائة من الأحداث فيقوم ميشيل " مقام دون بوسكو " طوال النهار ، فيباشر الألعاب ويحدّث الصبيان ، ويسألهم عن همومهم ، ويُلقّي درس التعليم الديني .

وفي المساء ، عندما توقد في الشوارع مصابيح الغاز ، ينصرف الصبيان الى بيوتهم فيرافقه بعضهم على فالدوگو ويقولون له : " سنلتاقي يوم الأحد يا ميشيل " .

كان روا يعود منهوك القوى ، فيتناول شيئاً من الطعام تُرك ساخناً من أجله ، ومن أجل كالييرو وفرنتشيسيا وأنفوسّي الذين يرجعون من سائر المصلّيات منهوكي القوى مثله ، فيتسلّقون كلهم الى ما تحت كوى ، إلى السفائف التي تحتوي أسيرتهم ، فينام ميشيل لجينه كأنه مصعوق .
صباح يوم من أيام الاثنين أفاق كالييرو ، فرأى نفسه جالساً إلى كرسي وجراباه في يديه ، لأنه لم يقوَ على الذهاب إلى سريره فنام في مكانه .

تدقّ إشارة الاستيقاظ باكراً جداً ، على نحو مروّع : في الساعة الرابعة . ذكر يوحنا

كالييرو : " ليس الشتاء في تورينو أمراً ساراً . لم يكن لدينا في سقيفتنا تحت السطح مدفأة ، ولا ماء

حارّ . كنا نملأ طشوتنا من الماء عند المساء لكي نغتسل ، ولكن عند الصباح كان البرد قد حوّل الماء الى جليد ، فكنا نُضطرّ لنغتسل الى فتح الكوة وأخذ الثلج من السطح ، فنفرك به فركاً شديداً أيدينا ووجهنا وعنقنا ، فكانت بشرتنا بعد بضع دقائق تُصعد الدخان ، وكنا نلتفّ بغطاء فيبتدئ وقت الدرس : روا يدرس العبرية وفرنتشيسيا ينظم أشعارا لاتينية ، وكنت أوّل قطعاً موسيقية تلك التي فُرض عليّ نظمها " .

في تشرين الثاني (نوفمبر) ١٨٥٥ دُشّنَ المعهد للداخليين ، فأضاف فرنتشيسيا إلى سائر أعماله ، عمل معلم الأدب ، وروا عمل معلم الرياضيات ، وكالبيرو عمل معلم الموسيقى .
قد يخطر للمرء أن يقول : أتري دون بوسكو قد جُنّ فترك معاونيه الشبّان ينتحرون على هذا النحو بدرسهم وعملهم ؟ ثم يُفكّر المرء بعاقبة الأمور كيف انتهت : توقّي يوحنا كالبيرو كرديبالا ، وقد بلغ سنّ الثامنة والثمانين ، وعاش ميشيل روا المسؤول عن الرهبانية السالسيّة حتى الثالثة والسبعين ، ويوحنا فرنتشيسيا حتى الثانية والتسعين ، وقد نال الشهرة بعمله للاتينية في أوروبا كلّها . كان دون بوسكو " يعرف " أنّ العمل ، وإن كان مرهقاً جداً ، لن يقتلهم بسرعة فائقة كما توهم بعضهم .

حديث دار بين دون بوسكو والوزير

كان باب مكتب راتاسي ، وزير الداخلية ، مفتوحاً كلّ حين لدون بوسكو ، مع أنّهما كانا مختلفين اختلافاً واضحاً في آرائهما السياسيّة كلّها على وجه التقريب . فان وزير الداخلية يقدره لأنّه يعمل لخير الشعب ، وينقذ الحكومة من جبل من الهموم ، بايوائه الصبيان الفقراء .

في ١٨٤٥ فُتح على الطريق المؤدي الى ستوبينيغي (Stupinigi) سجن جديد في تورينو : السجّن العامّ . إنه " مركز إصلاحية الأحداث " وهو يتسع لثلاثمائة منهم . كان دون بوسكو يتردّد اليه تردّداً منتظماً ، ويحاول أن يجعل هؤلاء الصبيان أصدقاء له ، وقد حُكم عليهم للسرقة أو التشرّد ، على العموم .

كان الأحداث مقسومين ثلاثة أقسام : " المراقبون مراقبة خاصة " ، يغلق عليهم ليلاً في زنازنتهم ، " والمراقبون العاديون " وهم الذين يُسيرون سيراً مستقيماً بالوسائل التي جرت العادة باستعمالها في السجن ، و " الضعفاء " الذين وصلوا إلى السجن لأنّ أمراً ملّ منهم فتخلّى عنهم وسلّمهم إلى الشرطة . إنهم يقضون وقتهم في أعمال الزراعة وفي ورشات داخلية .

في الصوم الكبير لعام ١٨٥٥ ألقى دون بوسكو دروساً حسنة للتعليم الدينيّ ، ثم أقام ثلاثة

أيام من الرياضة الروحية خُتِمت باعتراف عامٍ حَقْلٍ .

وقد أخذ دون بوسكو بحسن عزيمتهم كلَّ مأخذ ، فوعدهم بشيءٍ خارق العادة . ذهب إلى المدير وعرض عليه أن يُعَدَّ للصديان ، وقد أدلهم حجز حريتهم ، رحلة جميلة الى ستوبينيجي ، فردَّ عليه الرجل مستغرباً :

- أتراك تتكلم كلامَ الجدِّ ؟
- أتكلم بكلِّ ما في الدنيا من جدِّ .
- أتعلم أنني سأكون مسؤولاً عن جميع الذين يهربون ؟
- لن يهرب أحد ، أعدك بذلك وعدَّ شرف .
- أصغ إلى فلا خير في المناقشة . إذا شئت مثل هذا الإذن ، فكلم الوزير .

ذهب دون بوسكو الى راتاسي وعرض عليه مشروعه بلهجة هادئة . فقال الوزير :

- أوافق . إنَّ نزهة ستعود بالخير على السجناء الصغار . سأمر الأوامر اللازمة لكي يكون على الطريق رجال من الشرطة في زيِّ مدنيّ وبعده كافٍ .

فتصدى له دون بوسكو بحزم :

- كلا ، إن الشرط الواحد الذي أشتراطه هو أن لا يَحْمينا أحد ، وعليك أن تُعِدنا ذلك وعدَّ شرف . أنا آخذ الخطر على عاتقي : إذا هرب واحد فإيَّاي تسجنون .

فضحكا معاً ، ثم عاد راتاسي إلى الجدِّ فقال :

- تعقل ، يا دون بوسكو ، إذا لم يكن هناك رجال الشرطة ، فلن تعودَ بواحد منهم إلى

البيت .

- وأنا أقول لك خلاف ذلك : إنني سأعود بهم جميعاً . فلئراهن .

فكر راتاسي قليلاً ثم قال :

- حسناً إنني أوافق . أتق بك ، وأثق برجال الدرك الذين في حال الهرب سوف لا يصرفون وقتاً طويلاً في استعادة أربعة صبيان .

يوم من الحرية

عاد دون بوسكو إلى السجن العام ، وأذاع خبر النزهة ، فرفع الأحداث أصواتهم وأعربوا

عن فرحهم بأشدَّ الصياح . وما إن ساد السكوت حتى أضاف :

- لقد وعدتُ وعدَّ شرف أنكم ستسلكون حسناً من أولكم الى آخركم ، وأنكم لن

تحاولوا الهرب . وقد وعدني الوزير وعدَّ شرف أنه لن يُرسل أحداً من الحرس ، لا في زيِّه

العسكري ، ولا في الزيّ المدني . فيجب الآن عليكم أنتم أيضاً أن تعدوني وعدّ شرف : فإذا هرب واحد لحقني العار ، ولا شكّ في أنّهم لن يأذنوا لي بعدنذ بأن أدوس هذا المكان مرة أخرى . أبوسعي أن أثق بكم ؟

تشاؤروا قليلاً ، ثم قال أكبرهم سيئاً :

- نعدك وعدّ شرف . سنعود ، وسنسلّك سلوكاً حسناً .

كان الجو في الغد لطيفاً : إنّه من أيام الربيع ، فذهبوا جميعاً إلى ستوبينيحي على دروب الريف وقفزوا وركضوا وهتفوا ، ودون بوسكو يتوسّط الجوقة الصغيرة ، ويمزح ويروي الحكايات . وجرى في المقدّمة الحمار الذي يحمل الزاد .

في ستوبينيحي أقام دون بوسكو القدّاس ، ثم أكلوا على العشب ، واسترسلوا في المباريات والألعاب بجانب نهر سانغونه (Sangone) وزاروا الحديقة والقصر الملكي ، ثم تناولوا طعام العصر ، وعادوا عند غياب الشمس ، ولم يبقَ شيء يحمله الحمار ، وقد أخذ التعب في دون بوسكو بعض الشيء ، فأركبوه على مؤخر الحمار ووصلوا إلى السجن ، وهم يشدّون الرسن ، ويعتّون ، فأسرع المدير إلى عدّهم : كانوا كلّهم حاضرين .

كان الوداع عند باب السّجن حزيناً . صافحهم دون بوسكو واحداً واحداً ، وعاد إلى البيت وقلبه منقبض لأنّه لم يستطع أن يحرّرهم سوى يوم واحد .

وأما الوزير فلما أطلعوه على ما جرى ، طار فرحاً كأنه أحرز فوزاً عظيماً . ذات يوم سأل دون

بوسكو :

- لماذا تستطيع أن تعمل مثل هذه الأشياء ، ونحن لا نستطيع ؟
- لأنّ الدولة تأمر وتعاقب ، ولا تستطيع أن تزيد شيئاً على ذلك . وأمّا أنا ، فاني أحب هؤلاء الأحداث . ولي ، لأني كاهن ، قوة أدبيّة لا يستطيعون أن تفهموها .

تسع صفحات ليشرح " طريقته "

طلب الى دون بوسكو أن يشرح في كتاب " نظامه التربوي " . ولكن قلة الوقت وعدم تمكنه من التفرّغ ليفكّر تفكيراً منظّماً في خطط عمله حالاً بينه وبين أن يترك لنا مشروعاً " علمياً " .

في السنة ١٨٧٦ عزم عزمًا ثابتاً على العمل هذا ، فخطّ " لمحة عامّة على النظام التربوي

الذي يُعمل به في البيوت السالسيّة " ، وهي كناية عن تسع صفحات ، يجدها السالسيّون ملحقاً بقانونهم ، ويُدعون الى الرجوع إليه كثيراً .

إننا نوجزها ، ونحن نكرّر أنّها ليست مؤلّفاً " علمياً " ، بل ملخّص أثرت فيه العجلة

ودواعي الضرورة والمسائل الخطيرة في تلك السنة . ومع ذلك يكتشف فيها المرء شيئاً حيّاً ، تلك

" الطاقة المتفجرة" التي تزوّد بها دون بوسكو ، وما من نصّ يكاد يُعبّر عنها تعبيراً وافياً .
بدأ دون بوسكو بتصنيف يُمكن القول إنّه ليس فيه كثير من الدقّة ، فجعل الطرق التربوية
فئتين :

- النظام القمعي (وهو الذي يُعمل به في الدولة والجيش والخ ...) . " إنّه يُطلع الذين
يَعْنِيهم الامر ، على القانون ، ثم يُراقبهم ليعرف المخالفين ويعاقبهم . يجب أن تكون الأوامر في
ذلك النظام شديدة ، ويجب على الرئيس أن يتجنب كل ألفة بينه وبين مأموريه ، فلا يختلط
بمروؤسيه إلا نادراً " .

- النظام الوقائي (وهو الذي يُريد أن يُعمل به في بيوته) .
فيشرح دون بوسكو النظام الوقائي كما يفهمه هو ، وكما عمل به دائماً في المصلّى .
" إنّ هذا النظام يعتمد اعتماداً تاماً على العقل والدين والمحبة . إنّه ينفي كلّ عقوبة
عنيفة ، ويحاول تجنّب حتى العقوبات الخفيفة .
إن المدير ومعاونيه هم أشبه بأباء محبّين : يتكلمون ويُرشدون ويَنصَحون ويهدّبون برفق .
فالتلميذ لا يهان ، ويصبح صديقاً ، ويجد في الناظر محسناً يُريد أن يجعله صالحاً وأن يجنّبه
خيبة الأمل والعقوبة والمذلة .

فاذا اكتسب المرَبّي قلبَ من وُكل إليه ، استطاع أن يتتبعه ، حتى عندما يصبح راشداً ،
فينصح له بل يقوم اعوجاجه .
إن العمل بهذا النظام مبني على هذه الكلمات للقديس بولس : " ان المحبة حليلة مترفة ،
تعذر كلّ شيء وترجو كل شيء وتصبر على كل شيء " . ولذلك لا يستطيع العمل بالنظام الوقائي
والنجاح فيه ، إلا المسيحي . فالعقل والدين هما الوسيّلتان اللتان يجب على المرَبّي أن يستعملهما كلّ
حين .

ويجب على الرئيس ، فوق ذلك ، أن يبذل جهده كله في سبيل الذين وُكل أمرهم إليه ، وأن
يكون معهم في جميع وقت فراغه " .

وانطلق دون بوسكو من ذلك ، فأظهر على وجه خاصّ أهميّة المعاهد التي احتكرت
معظم قوى السالسيّين السنة ١٨٧٦ . وفي هذه الأسطر اللاحقة لا يظهر دائماً دون بوسكو كما
" عهدناه في المصلّيات " .

" يجب على المعلمين ورؤساء الورشات والمعاونين أن يتحلّوا بالخلق الكريم الثابت . يجب
عليهم أن يهربوا هربهم من الوباء من كلّ لون من المحبة أو الصداقة المريية لتلامذتهم . وسيسبق
المعاونون التلاميذ ، على قدر ما في وسعهم ، إلى المكان الذي يجب عليهم أن يجتمعوا فيه ، فلا

يدعوهم فارغين .

فليمنحوهم أكبر حرّية للقفز والركض وإحداث الضجة على هواهم . ان الرياضة البدنية والموسيقى واللقاء والتمثيل والجولات هي أنجح الوسائل للحصول على الانضباط ولتنمية الخلق الكريم والصحة . كان القديس فيلبس نيري (Neri) يقول : " اعمل ما تشاء ، طالما لا ترتكب خطيئة " .

الإقبال على الاعتراف ، وعلى تناول القربان المقدس ، والقداس اليوميّ هي الأركان التي يجب أن يعتمدها المشروع التربوي ، ولا يُضطرّ الأولاد أبداً إلى الإقبال على الأسرار ، ولكن يجب حثّهم عليها ، وإتاحة الفرصة لهم في التقرب منها .

المربّي شخص منذور لخير أولاده ، ولذلك يجب عليه أن يكون متأهباً لتحمل أي إزعاج ، وأي تعب كان ، لكي يبلغ غايته ، وهي التربية الوطنية والخلقية والعلمية لأولاده .

على المربي أن يسعى لينال المحبة ، إذا أراد أن يهابه الأولاد ، (وكتب دون بوسكو مرّات اخرى : " أكثر منه أن يهابه الأولاد " ، " قيل أن يهابه الأولاد ") . فالجفاء الى حين عقوبة ، ولكنها عقوبة تحمل التلميذ على أن يحاسب نفسه ويسمو بها ، وتشجّعه ولا تذله أبداً . فالتهنئة للتلميذ عندما يُحسن العمل ، وتوبيخه اذا أهمل ما يجب عليه عمله ، مكافأة أو عقوبة .

ولا يكون التوبيخ في العلانية أبداً إلا في أحوال قليلة ، بل يكون التوبيخ على حدة ، على بعد من أتراب ولد ، ويُستعمل أكثر ما يمكن من الحيطة والصبر لكي يفهم التلميذ خطأه ، يفهمه بالعقل والدين .

يجب تجنّب الضرب أيّاً كان نوعه ، لأنّه يغيظ الأحداث كثيراً ويحطّ من كرامة المربيّ " .

الحلم بالمصلّي الأول

إذا كان يعسر على دون بوسكو تأليف المقالات ، فإنه ساحر عندما يروي الأحداث الحيّة ، ويشرك فيه القارئ . ولذلك أكد كثير من الخبراء أنه اذا كان المقال في النظام الوقائي ضعيفاً في معظمه ، فإنّ " الحلم " الذي رواه دون بوسكو في رسالة كتبت السنة ١٨٨٤ يعبرُ أصدق تعبير وأشغفه عن رقة إحساسه التربوي .

لقد كان دون بوسكو في رومة في أيار (مايو) تلك السنة ليعالج مسائل مهمّة من أجل رهبانيته ، " فرأى في حلم " ذات ليلة المصلّي الأول الذي فيه عاش دومنيك سافيو وميشيل روا ويوحنا كالييرو ، وشبّهه بالمصلّي القائم عند ذاك في فالدوگو . ثم أملى رسالة مؤرّخة في ١٠ أيار ١٨٨٤ . قال بييترو ستيلّا (Pietro Stella) : " يمكن عدّها من أكثر الوثائق التربوية فعالية ومن أثنى الوثائق التي وضعها دون بوسكو " .

وهذا موجزها :

" ظننت أنني في المصلى الأول في ساعة الفرصة . كان المنظر زاخراً بالحياة ، زاخراً بالحركة ،

زاخراً بالفرح . كان أناس منهم يركضون ، وأناس يقفزون والآخرين يقفزون غيرهم . كانوا

يلعبون هنا لعبة الضفدعة ، وهناك لعبة العَلَم ، وبالكرة . وكان جماعة من الأحداث معلّقين

بشفتي كاهن يروي لهم حكاية ، وكان شماس بين أحداث آخرين في مكان آخر يشاركهم في

ألعابهم الصبيانية . كانوا يَغَنُّون ويضحكون في جميع الجهات وكان في كل موضع شمامسة وكهنة ،

حولهم أحداث يُعلون أصواتهم فرحين . كان المرء يرى أن العلاقات بين الأحداث والرؤساء

يسودها أعظم الثقة والإخلاص . خلبنى ذلك المنظر فقال لي الذي معي :

- أترى كيف أن اللطف يجلب المودة ، والمودة تُلد الثقة . وهذا ما يفتح القلوب فيبوح

الأحداث بكل شيء ، من غير خوف ، للمعلمين والمعاونين والرؤساء ، ويصيرون صادقين في

الاعتراف وفي خارج الاعتراف ، وينقادون لكل ما يشاء أمره ذلك الذي يعرفون أنه يحبهم .

فدنا مني عند ذلك تلميذ قديم ، يوسف بوتسيي ، وقال لي :

- أترى أن ترى الآن الأحداث الذين يقيمون في المصلى في الوقت الحاضر ؟

رأيتم كلكم في أثناء الفرصة ، ولكن لم أسمع أصوات الفرحة والأغاني ولا تلك الحركة

وذلك الفرحة الذي كان في المشهد الأول . كان يُقرأ على الوجوه الملل والفتور والحذر . كان كثير من

الأحداث يلعبون ، وهم خالون من الهم . ولكن غيرهم كانوا وحدهم متكئين على الأعمدة ،

قاعدين على درجات السلالم ، وكان بعضهم يغمزون من حولهم غمزات مريبة : لو كان مار لويس

دي غونزاغا بينهم لما شعر بالارتياح إليهم . فهتف بوتسيي :

- كم يختلفون عما كنا عليه نحن في الماضي !

- أجل ، ولكن كيف السبيل إلى إنعاش أحداثي الأعزاء ؟

- بالمحبة .

- فأحداثي لا يحصلون على المحبة الكافية إذن ؟ أنت تعلم ما تحمّلت وأتحمّلت من أسباب

الحرمان والإهانة لكي أضمن لهم الخبز والمسكن والمدرّسين ، ولا سيما خلاص نفوسهم . وإنّ

الرؤساء والوكلاء والمعلمين والناظرين يبذلون أعوام شبابهم في سبيلهم .

فألحّ بوتسيي بقوله :

- يعوزهم الشيء الجوهري . يجب أن يكون الأحداث محبوبين ، ولكن يجب أن يعلموا

وأن يروا أنهم محبوبون .

- ألا يرون أنّ جميع ما نعمله إنما نعمله حباً لهم ؟

- كلا .

- فما الذي يريدون إذن ؟

- أن يشعروا أنهم محبوبون في الأشياء التي تُسرُّهم ، وأن يروكم تشاطرون مشاربهم

الصبيانية ليشعروا بالحبّ حتى في ما لا يسرُّ طبيعتهم كثيراً : الانضباط والدرس وملكهم

لنفسهم . أشرحُ ما أعني : أنظر الى الصبيان في الفرصة . أين رهباننا السالسيون ؟

فراقبت واعترفت أنّ قليلاً من الكهنة والشمامسة يخالطون الشبان ، وأقلّ منهم يشتركون في

ألعابهم . كفّ المسؤولون عن أن يكونوا الروح الذي يبعث الحياة في الفرصة . كان معظمهم

يتمشّون ذهاباً وإياباً ، وهم يتكلمون فيما بينهم ، من غير أن يهتموا بالتلاميذ ، وكان سائرهم

يراقبون عن بعد فينبهون هذا أو ذاك تنبيهاً ولكن بمنظر التهديد . ودّ بعض السالسيين الدخول في

هذه الجماعة أو تلك ، ولكنّ الأحداث كانوا يدبّرون أمرهم فيذهبون إلى مكان آخر .

ثم استأنف بوتسيّي كلامه :

- في الازمان الأولى ، كنتم دائماً معنا ، ولا سيّما في وقت الفرصة . أتذكرون تلك الأعوام

الحسنة ؟ كنا في زاوية من الفردوس ، في وقت نذكره بمحبة ، لأنّ المودّة كانت شيئاً مألوفاً ولم يكن

عندنا سرٌّ لا تعرفونه .

- أجل ، كان كل شيء فرحاً عندي ، والآن ، بالسوء الطالع ، ترى كيف تحوّل همومي

وحالتي الصحيّة دون أن أتصرف في الأمور كما تصرفتُ في ذلك الوقت .

- ولكن إذا كنت لا تستطيع إليه سبيلا ، فلماذا لا يقوم رهبانك السالسيون مقامك ؟ يجب

عليهم أن يُحبّوا ما يسرُّ الأحداث فيحبّ الأحداث ما يسرُّ الرؤساء . إنّ الرؤساء يُنظر إليهم الآن

النظر إلى الرؤساء ، لا إلى الآباء والإخوة والاصدقاء ، فيخافون ويحبّون قليلا . ولذلك إذا أردنا

أن نكون قلباً واحداً في سبيل محبة يسوع ، يجب كسر حاجز الحذر ليحلّ محله الثقة

التامة . إن الطاعة تقود التلميذ كما تقود الأمّ الطفل ، وحينذاك يسود المصلّى السلام والفرح اللذان

كانا يسودانه في الماضي .

- ما العمل لتحطيم هذا الحاجز ؟

- الألفة للأحداث ، ولا سيّما في أثناء الفرصة . فلا برهان على المحبة بلا ألفة ، وإذا لم يُقم

ذلك البرهان فلا سبيل إلى الثقة . من أراد أن يحبّ وجب عليه أن يُثبت أنّه يحبّ . جعل يسوع

المسيح نفسه صغيراً مع الصغار ، وأخذ على عاتقه أسقامنا . إنه معلم الألفة . إن المعلم الذي لا

يُرى إلا جالسا الى مكتبه هو معلم ، ومعلم فحسب ، ولكن إذا شارك الأحداث في الفرصة ،

صار أخصاً لهم . إنّ الذي يعرف أنّه محبوب يُحبّ ، والذي يُحبّ ينال كلّ شيء ، ولا سيّما من

الأحداث . إنّ هذه الثقة تمرّر تياراً كهربائياً بين الأحداث والرؤساء . إنّ هذه المحبة تجعل الرؤساء

يتحمّلون متاعب الشبّان ومضايقاتهم ونكرانهم للجميل وإزعاجهم وذنوبهم وإهمالهم . إن السيد المسيح لم يحطّم الغصن الذي أوشك أن ينكسر ، ولم يطفئ الشعلة الصغيرة التي ترتجف . هذا هو مثالكم . عندئذ لن يُرى أحدٌ يعمل للشهرة أو يُعاقب لينتقم ، لأنه جرح في كبريائه ، ولن يُرى أحدٌ يدع خليفة تسرق له قلبه ، فيهمل سائر الصبيان ليغازلها ، أو آخر فيه من الضعف ما يجعله يخاف أن يوبّخ من يجب توبيخه . لماذا يريدون أن يبدّلوا بالمحبة نظاماً بارداً ؟ " .

ختم دون بوسكو هذه الرسالة الطويلة بهذه الكلمات ، وقد أملاها وهو يبكي (كما شهد أمين سرّه) :

" يكفي أن يدخل صبي بيتا سالسيا حتى تتولاه السيدة العذراء لوقتها بحمايتها الخاصّة . يا أبنائي الأعزاء ، إنّه لآتٍ اليوم الذي فيه سأفارقكم ، وأذهب إله حياتي الأبدية . أتعلمون ما يرغب فيه هذا الشيخ الكبير المسكين الذي أفنى حياته في سبيل أحداثه الأعزاء ؟ لا شيء سوى العودة إلى أوقات المصلّى السعيدة : إلى أيام المحبة والثقة بين الأحداث والرؤساء ، إلى روح التفاهم والتحمّل المتبادل ، حبّاً ليسوع المسيح ، إلى أيام القلوب المفتوحة بكل براءة وبساطة ، إلى أيام المحبة والفرح الحقيقيّ بكل شيء " .

٣٤

الوداع لأمّ ولصبيّ

يوم الأحد الأول من شهر نيسان (ابريل) ١٨٥٥ ألقى دون بوسكو عظة إلى صبيانه وتكلّم على القداسة فتجهّمت وجوه بعضهم ، وأما دومنيك سافيو فقد أصغى إليه بانتباه ، وكلما شرح الموضوع بصوته الرخيم المؤثر المقنع ، بدا له أنّ العظة كانت خصوصاً من أجله . كلّمهم على بلوغ

القداسة ، كما بلغهما الأمير الشاب لويس دي غونزاغا ، والمرسل الكبير فرنسيس كسفاريو وشهداء الكنيسة .

أخذ دومنيك منذ ذلك الحين يحلم وحلمه هو القداسة .

اليوم الرابع والعشرون من حزيران (يونيو) عيد شفيع دون بوسكو ، وهو عيد كبير في المصلّى ، كما هو الحال في كلّ سنة . أراد دون بوسكو أن يقابل بالمثل ما يُظهر له الأولاد من المحبة وحُسن الإدارة فأعلن :

- ليكتب كلّ منكم على بطاقة الهدية التي يرغب في الحصول عليها منّي ، وأنا أوكد لكم أنني سأبذل كلّ ما بوسعي لألبي طلبه .

بطاقة فيها خمس كلمات

قرأ دون بوسكو البطاقات فوجد طلبات تتصف بالجدّ والتعقل ، ولكنه وجد أيضا طلبات غريبة جعلته يبتسم : طلب صبيّ مائة كيلو من " النوغا " لكي تكفيه مؤونة السنة كلها . وجد في بطاقة سافيو خمس كلمات : " ساعدني على أن أصير قديساً " .

حمل دون بوسكو هذه الكلمة على محمل الجدّ ، فدعا دومنيك وقال له : " أريد أن أعطيك ما يضمن القداسة . ها هوذا : أولاً : الفرح . فما يجعلك تضطرب ، ويسلبك الفرح ، لا يأتي من الله . ثانيا : واجباتك المدرسية والتقوية . أصغ إصغاء حسناً في الصفّ . ثابر على الدرس وثابر على التقوى . ذلك كله لا تفعله للطموح بل حباً للرّب . ثالثاً : عمل الخير

للآخرين . ساعد دائماً أبدأ أترابك ولو فرّض ذلك عليك البذل . القداسة كلها هي هذه الأمور " .

باشراً دومنيك العمل بنشاط . روى دون بوسكو ، في سيرة دومنيك سافيو التي كتبها لوقته بعد وفاة الصبي ، كثيراً من الأحداث البسيطة المؤثرة ، نذكر واحداً منها .

ذات يوم أدخل صبيّ إلى المصلّى جريدة مصوّرة فيها رسوم تخالف الحشمة ، فأحرق به لوقته خمسة أو ستة من رفاقه ينظرون ويتهكمون ، فدنا دومنيك وأخذ الجريدة من يدي صاحبها ومزّقها ، فاحتج الصبيّ ولكن دومنيك احبّت هو أيضاً بصوت أعلى نبرة :

- إنك تجيء الى المصلّى بأشياء جميلة! إنّ دون بوسكو يتعب طوال النهار ، لكي يجعل منا مواطنين صالحين ، ومسيحيين صالحين ، وأنت تجيء بهذه الأشياء الى بيته . إن هذه الرسوم تهين

الله الكريم ولا ينبغي أن تدخل إلى هنا .

جاءت العطلة المدرسية ومضت سريعاً ، فلما عاد الصبيان الى المصلى في تشرين الأول

(أكتوبر) رأى دون بوسكو دومنيك فأخذ منه القلق :

- ألم تسترح في أثناء العطلة ؟
- بلى ، دون بوسكو ، لماذا هذا السؤال ؟
- إنك أشحب لونا مما أنت عليه عادةً . لماذا ؟
- لربما السبب تعب السفر . . . - وابتسم هادئاً .

ولكن لم يكن ذلك التعب عابراً ، فإن عينيه الغائرتين ، ووجهه الشاحب الهزيل ،

يدلان صراحة على أن صحّة دومنيك غير حسنة ، فعزم دون بوسكو على اتخاذ بعض

الاحتياطات :

- لن تذهب هذه السنة الى المدرسة في المدينة . فقد يؤذيك الخروج في المطر والتلج . ستتبع
- دروس الأب فرنثيسيا (Francesia) هنا في البيت . هكذا يُمكنك أن تستريح أكثر في الصباح .
- ولا تُفرط في الدوس : إن الصحة عطاء من الله فيجب ألا نصيبها بأذى .

أطاع دومنيك ، ولكنه قال بعد بضعة أيام لدون بوسكو ، كأنه يتوقع أن ينزل به شيء

جسيم :

- ساعدني على أن أصير قديساً وأسرع فيه .

" جمعية البريئة من الدنس "

صار دومنيك صديق لِميشيل روا (Rua) ويوحنا كالبيرو (Cagliero) ، مع أنّهما أكبر منه ،

الأول بخمس سنوات ، والآخر بأربع . وسائر أصدقائه هم صبيان ممتازون الى المصلى في

السنوات الاخيرة : بونجيوفاي (Bongiovanni) ودوراندي (Durando) وتشيسروتتي (Cerruti)

وغافيو (Gavio) وماساليا (Massaglia) .

كان الداخليون في المصلى في أول السنة ١٨٥٦ مئة وثلاثة وخمسين : ٦٣ منهم تلاميذ و ٩٠

طلاب صناعة .

خطر لدومنيك خاطر في الربيع . لماذا لا يجتمع الأحداث ذوو الإدارة الحسنة كلهم في

" جمعية سرّية" لكي يؤلفوا جماعة كتماسكة من الرسل الصغار ، في جمهور الآخرين ؟ عرض

المسألة على بعضهم فسرتهم فكرته وعزموا على تسمية الجمعية " جمعية البريئة من الدنس " .

أذن لهم دون بوسكو ، ولكّنه نصح لهم أن لا يتعجلوا في الأمور ، فليقوموا بمحاولة ،

وليضعوا نظاماً صغيراً . ثم يُنظر في المسألة مرّة أخرى .

حاولوا فبحثوا في الاجتماع الاول ، عمّن يدعون الى الاكتتاب : يدعون عدداً قليلاً من

الصبيان الذين يُوثق بهم ، ويسعهم كتم السرّ ، وتناقشوا في أمر فرننتشيسيا ، معلّم الادب الشاب ، وهو يتحلّى ببراءة خالصة وصديق لجميع الناس . نَحْوَه لأئنه مهذار كبير ، فاذا أدخل لن يطول كتم السرّ .

عهدت الجمعية إلى ثلاثة بوضع مشروع نظام : ميشيل روا ، ١٩ عاماً ، يوسف بونجيوفانيّ ، ١٨ عاماً ، ودومنيك ، ١٤ عاماً . أكّد دون بوسكو أنّ دومنيك هو الذي كتب النص ونقّحه الآخرون .

يتضمن النظام الصغير واحداً وعشرين بنداً . لقد التزم المشتركون أن يصيروا أحسنَ مما هم عليه ، بحماية السيّدة ، وعون يسوع في القربان المقدس ، وأن يساعدوا دون بوسكو بأن يصيروا ، بفضة وحسن دراية ، رسلاً صغاراً بين أترابهم ، وأن ينشروا الفرح والسلام بينهم . ويُخصّص البند ٢١ ، وهو آخر البنود ، روح الجمعية : " نثق بمريم ثقة صادقة بنوية لا حدّ لها ، وتوليها مودةً خارقة العادة ، ونكرّمها تكريماً دائماً ، فنذلل جميع العقبات ونصير حازمين في ما نعزم عليه ، أشدّاء على أنفسنا ، عطوفين على القريب ، نراعي الدقّة في كلّ شيء " .

دُشنت الجمعية في ٨ حزيران (يونيو) ١٨٥٦ أمام مذبح السيّدة في كنيسة مار فرنسيس دي سال ، فوعد كلّ منهم بالوفاء بما التزم . في ذلك اليوم حقّق دومنيك أروع أعماله . لم يبق له من الحياة سوى تسعة أشهر ولكن جمعيته ، جمعية البريئة من الدنس ، دامت أكثر من مائة سنة (حتى ١٩٦٧ على وجه التحديد) . لقد كانت في جميع البيوت والمصلّيات السالسية نُخبة الصبيان الملتزمين ، والدعوات الكهنوتية .

يختار أعضاء الجمعية العناية بفئة من الصبيان يسمّونهم " زبائنهم " في لهجتهم التي اصطالحوها لهم ، وهم الخارجون على النظام ، ذوو اللسان السليط ، يتشاجرون بلا سبب . ويأخذ كل عضو من الجمعية على عاتقه العناية بواحد من هؤلاء ، ويقوم عنده " مقام الملاك الحارس " طوال الوقت اللازم لهدايته إلى الطريق السويّ . ويؤلف القادمون الجدد فئة ثانية من "الزبائن" فيساعدهم أعضاء الجمعية على أن يقضوا الأيام الأولى بسرور عندما لا يعرفون أحداً ، ولا يعرفون اللعب ، ولا يتكلمون إلا بلهجة بلدهم ويشعرون بالوحشة .

في أثناء الصوم الأربعيني للعام ١٨٥٦ استسلم دومنيك إلى الافراط في التقتّف فذكّر وجهه دون بوسكو تذكيراً شديداً بوجه لويس كوموّلو الشاحب الهزيل . أصغى ، لدى سماعه للقراءات الطقسية في تلك الأيام ، الى الحثّ على التقتّف ، فأراد أن يمارسه هو أيضاً . فننّبّه ناظرٌ في غرفة الطعام دون بوسكو الى أنّ دومنيك سافيو يصوم .

فواجهه لوقته ، وفي أثناء مكالمة صريحة ، علم أن دومنيك لم يقتصر " على مباشرة الصوم ،

مكتفياً بالخبز والماء ، على الأقلّ يوم السبت " ، بل ذهب الى أبعد من ذلك ، فنزع غطاء سريره ، مع أن الجوّ لم يزل بارداً ، ووضع على فراشه قطعاً من الأجرّ تحت شرشفه ، ليجعل النوم غير مريح . فردعه دون بوسكو بحزم :

- إني أنهاك نهياً مطلقاً عن كلّ تقشّف ، بل آذن لك بتقشّف واحد هو الطاعة . هذا تقشّف عسير يرضي الربّ ولا يهدم الصحّة . أطع ، وهذا كافٍ لك .

وفاة ماما مرغريتا

١٥ تشرين الثاني (نوفمبر) ١٨٥٦ مرضت ماما مرغريتا فأصيبت بذات الجنب فبدا المرض لحينه قتالاً لامرأة في الثامنة والستين وقد براها العمل الطويل . فكأنّ حياة المصلّى توقفت برهة . فكيف يُتابع النشاط من دونها ؟ تتابع حول سريره شمامسة دون بوسكو وأكبر الصبيان سناً . كم مرة دخلوا مطبخها وهم يقولون :

- ماما ، أنتعطيني تفاحة ؟
- ماما ، أترى الحساء معدّاً ؟
- ماما ، لم يبقَ عندي منديل .
- ماما ، مزقتُ بنطالي .

إن بطولة هذه السيدة العظيمة المشرفة على الموت هي بطولة قامت على أسمال تُرّقع وحصد العشب والقمح وغسل الثياب والطبخ في القدور ، ولكن في هذه الحياة المتواضعة قوّة لا تعرف

اليأس ، هي الثقة بالعناية الإلهية . فبينما تقشّر البطاطا ، وتحرك الحساء ، تظهر بوضوح أمثولات الايمان وحسن التدبير العملي ولطف محبة الأمّ .

منها تلقى دون بوسكو نظامه الوقائي : إنّه أوّل من تُربّى بالعقل والدين والمحبة . فقد

هدهدت ماما مرغريتا الرهبانية السالسيّة هلى ركبتيها ، وهي الآن توشك أن تنطفئ كالشمعة .

وصل من البكي يوسف وأولاده الأكبر سناً ، وأتاها بالزاد الأخير الأب بوريل الذي استمع

الى اعترافاتها منذ أن وصلت من تورينو . جمعت قواها بأسرها فقالت لابنها العزيز يوحنا :

- تنبّه لأنّ كثيراً من الناس نجاحهم الشخصي ، بدل أن يطلبوا مجد الله . بالقرب

منك أناس يحبون الفقر عند غيرهم ، ولكن لا يحبونه لأنفسهم . ما نطلبه من الآخرين يجب علينا

أن نكون أول من يعمل به .

لم تشأ أن يراها يوحنا تتألم ، إنّه تفكّر بالآخرين حتى اللحظة الأخيرة :

- لم تبقَ هنا ، يوحنا . . . انك تتألم ألماً لا يُطاق ، لأنك تراني على هذه الحال . أذكر

أن هذه الحياة جعلت للألم . إن السعادة الحقيقية هي في الحياة الأبدية . والآن إذهب ، أسألك ذلك ، إن شئت . صلّ لأجلي ، الوداع .

عبرت مرغريتا بوسكو بهذه الكلمات عن فكر المسيحيين في الحياة ، كما كان شائعاً عند أهل الريف . إنها عقيدة راسخة ساعدت رجال الريف ونساءه على تدبير أمورهم ، بمقاومة المجاعة وموت أطفالهم وتعبهم المرهق ، طوال القرون .

بقي بالقرب من الأم العجوز يوسف والأب ألا سوناتي ، ولفظت روحها في الساعة الثالثة من صباح الخامس والعشرين من تشرين الثاني (نوفمبر) ١٨٥٦ . وذهب يوسف الى غرفة دون بوسكو وألقى بذراعيه حول عنقه وهو يبكي .

ودعا دون بوسكو بعد ساعتين يوسف بوتسيي . إنه الصديق في أشدّ الساعات حزناً ، وأمامه وحده لا يستحيي بالبكاء . أقام القداس في معبد المدفن لكنيسة سيدة التعزية ، ثم جثوا لدى سيدة العذراء مريم فتمتم دون بوسكو : " لم يبقَ لنا الآن لي وأولادي أم في الأرض . فابقي بالقرب منا ، وقومي لنا مقام الأم " .

ذهب ميشيل روا بعد بضعة أيام إلى أمه حنينة ماريًا فقال لها :

- لا نعرف ما نعمل منذ ماتت ماما مرغريتا . فما من أحد عندنا يعرف إعداد الحساء وترقيع الجوارب . يا أمي ، ألا تريدان أن تأتي أنتي ؟
تبعث حنينة ماريًا ابنها وهي في السادسة والخميس وصارت الأمّ الثانية للمصلى ، وقد بقيت أمه عشرين سنة .

صبيّ يكلم الله

كانون الأول (دسمبر) ١٨٥٦ . أخذ الثلج يتساقط في شوارع تورينو . ولقد أظلم الليل ، وأوقدت المصابيح ، ودون بوسكو ، شأنه في كل ليلة ، مُنَحِن على طاولة عمله فوق كومة من الرسائل تنتظر جواباً ، وظل يكتب الأجوبة الى ما بعد نصف الليل فُقرع الباب برفق :

- أدخُل ! من الطارق ؟

قال دومنيك سافيو وهو يدخل مسرعاً :

- أنا هو ، هيّا ، هلمّ معي . هناك عمل محبة لا بُدّ من القيام به .
- الآن ، في الليل ؟ الى أين تريد أن تذهب بي ؟
- هيّا ، يا دون بوسكو ، هيّا !
تردّد دون بوسكو ، ولكنّه نظر الى دومنيك فرأى أنّ وجهه مُغمم جدّاً ، ومن عادته أن يكون هادئاً . حتى كلماته فيها لهجة الأوامر . فنهض دون بوسكو وتناول قَبَعته وتبعه .

فنزل دومنيك السلم على عجل ، وخرج من الساحة واجتاز غير مُتردّد شوارع المدينة ،

فجال في شارع أوّل ، ثم في شارع ثان ، وهو ال يتكلّم ولا يقف . ثم تقدّم في شبكة الشوارع والأزقة تقدّم الوثائق بنفسه ، فصعد سلماً وتبعه دون بوسكو : الطبقة الاولى فالثانية فالثالثة . وتوقّف دومنيك وقرع الباب ، فقال لدون بوسكو قبل أن يأتي أحد ليفتح الباب :

- يجب عليك الدخول هنا .

ثم عاد إلى البيت .

فُتح الباب فمثلت سيدة شعرها متلبّد ، فلما رات دون بوسكو هتفت :

- هو الله الرحيم قد أرسلك . هيّا ، هيّا وإلا فات الاوان . أبنتلي زوجي بفقد الايمان قبل سنين كثيرة ، وهو يوشك الآن أن يموت ، ويتلمس الشفقة فيتمكّن من الاعتراف .

دنا دون بوسكو من سرير المريض ، فوجد رجلاً مسكيناً مربوعاً ، على شفا اليأس . فاستمع الى اعترافه وحلّه من خطاياہ فتوّفي الرجل بعد بضع دقائق .

مضت بضعة أيام فظللّ دون بوسكو متأثراً كثيراً بما حدث له . كيف استطاع دومنيك أن

يعرف أمر ذلك المريض ؟ فدنا إليه في لحظة لا يستمع إليها أحد فقال له :

- يا دومنيك ، جئت الى مكتبي في ذلك المساء لتدعوني ، فمن كلمك على ذلك المريض ؟

كيف استطعت أن تعرفه ؟

فحدث ما لم يكن دون بوسكو يتوقّعه ، فنظر اليه الصبيّ نظرة حزينة وأخذ يبكي ، فلم

يجرؤ دون بوسكو على أن يسأله أسئلة أخرى ، ولكنه فهم أن في مصلاه صبيّاً يكلم الله .

أأستطيع أن أرى من الفردوس أترابي ؟

في شباط ١٨٥٧ اشتدّ البرد في الشتاء أشتداداً عظيماً ، وازداد لون دومنيك سافيو شحوباً ، واستولى عليه سعال عميق يهزه وأخذت قواه تذهب بسرعة ، فاستولى الهمّ على دون بوسكو فدعا طبيبين ليفحصاه . أعلن الاستاذ فالوري (Vallauri) بعد فحص دقيق :

- ان بنيته الضعيفة ، وجهده الفكري المتواصل هما كمبردين ينالان من حياته .

قال دون بوسكو ملحاً :

- ما الذي يمكنني أن أصنع له ؟

فهزّ فالوري كتفيه أسفاً ، ولم يكن للطبّ في تلك الأيام من وجود حقيقي . قال :

- أعده إلى وطنه ليتنشّق هواءه ومّره أن يقطع دروسه بعض الوقت .

فلما علم دومنيك بالقرارات ، أذعن لها ، ولكن ساءه كثيراً أن يترك دروسه وأصدقائه ، ولا

سيماً دون بوسكو .

- ولكن لماذا لا تُريد الذهاب إلى أهلك لتتمتع بوجودهم ؟
- لأنني اودّ أن أنهي حياتي هنا في المصلّى .
- لا تتكلم هكذا . الآن تذهب الى بيتك لتُشفى ثم تعود .

فابتسم دومنيك وهزّ رأسه فقال :

- لا ، لن يكون هذا . سأذهب ولن أعود . دون بوسكو ، هذه آخر مرّة يمكننا أن يكلم

الواحد منا الآخر . قل لي : ماذا يمكنني أن أعمل أيضاً للرّبّ ؟

- قدّم له آلامك مرّاتٍ كثيرة .
- وماذا أيضاً ؟
- قدّم له حياتك أيضاً .
- أيمكنني أن أرى من الفردوس أترابي في المصلّى ، وأهلي ؟

تمتم دون بوسكو ، وهو يحاول أن يملك نفسه :

- أجل .
- وسيمكنني أن أجيء إليهم لأراهم ؟
- اذا شاء الرب ، أمكنك أن تعود .

يوم الأحد في أول آذار (مارس) سلّم أشد سلامه تأثيراً على أصدقائه في الجمعيّة ، ثمّ جاءت

عربة أبيه التي ستقله الى موندونيو . ولما وصل زاوية الشارع لوّح بيده مرّة أخرى ، ليسلم على

المصلّى ، وأصدقائه ، ودون بوسكو العزيز عليه ، وقد لبثوا ينظرون ، وبهم حزن شديد ، الى

العجلة التي تبتعد . ذهب أحسن تلاميذه ، القديس الصغير الذي قدمته السيّدّة العذراء مريم

ثلاث سنوات الى مصلاها .

مات ميتةً شبه فجائية في ٩ آذار (مارس) ١٨٥٧ ، وأبوه بالقرب منه ، ولم يقوَ إلا بكّد على

أن يتمتم :

- وداعاً ، يا أبتاه . . . كان خوري الرعيّة يقول لي . . . ولكن لا أذكر قوله . . . ما أجمل

ما رآه . . .

أعلنه البابا بيوس الثاني عشر قديساً في ١٢ حزيران (يونيو) ١٩٥٤ . إنّه أول قديس في

الخامسة عشرة من عمره .

الوشاح الاحمر كالدّم

راه دون بوسكو مرة في الحلم الكبير الذي حلمه في لانتسو (Lanzo) ليلة السادس من كانون الأول (ديسمبر) السنة ١٨٧٦ . وقد شغلت روايته عشر صفحات من المجلد الثاني عشرة لذكريات السيرة . واننا نُضطرّ الى إثبات مُلخّص لها فحسب .

" كان يُخَيَّل إليّ أنّي على جانب سهل واسع جداً أزرق كالبحر لا ماء فيه : كان أشبهه بالبلور الصافي البرّاق ، وكانت تتهدى في الجو أنغم موسيقى لطيفة جداً .

فاذا بحشد من الأحداث يظهر ، لا يُحصَى عددهم . عرفت منهم أناساً كثيرين جداً : لقد كانوا في المصلّى وفي معاهدنا الأخرى ، ولكن لم أعرف أكثرهم . وكان ذلك الجمع الضخم يتقدّم نحوي ، وكان يمشي على رأسهم سافيو دومنيك فيتبعه لوقته عدد كبير جداً من الشماسية والكهنة ، يقود كلُّ منهم موكباً من الأحداث .

فانفصل سافيو دومنيك وحده ، ووقف قريباً جداً مِنِّي حتى إنِّي لو مَدَدْتُ يدي للمسّنه حقاً . ما كان أجمله ! كان عليه ثوب ناصع البياض ينحدر إلى قدميه ، وكان يشدُّ وسطه وشاح عريض أحمر ، وكان على رأسه إكليل من الورد وكان أشبه بملاك .

سألني دومنيك سافيو :

- لماذا تظنّ صامتاً ؟ ألسنت ذلك الرجل الذي لم يكن في الماضي يرتجف من شيء ، ويجابه افتراء الكذب عليه ، والاعداء والهموم والأخطار من كلّ نوع ؟ لماذا لا تتكلم ؟

فتمتمتُ :

- أنت سافيو دومنيك ؟
- أنا هو . ألا تعرفني ؟ جئت لأكلمك . كم كلّم الواحد منا الآخر في الأرض ! كم برهنت

لي عن صداقتك . ألم ألبّ المودّة الشديدة ؟ كانت ثقتي بك كبيرة !

- ولكن أين نحن ؟
- أنت في مكان السعادة!
- لماذا لبستَ هذا الثوب البهيّ ؟ ولمَ هذا الوشاح الأحمر على وسطك .

فأنشد صوتُ كلماتِ الكتاب المقدس : " إنهم أبقارٌ يصحبون الحمل كيفما سار " .

ففهمتُ حينئذ أن هذا الوشاح الاحمر اللون كالدّم هو علامة الإماتات التي بذلها ، لا بل علامة الاستشهاد الذي عاناه لحفظ فضيلة العفاف . فبياض الثوب هو علامة براءة المعموديّة المصونة .

- لماذا تُسير أمام الآخرين ؟
- أنا سفير الله . وأمّا الماضي ، فأؤكّد لك أن رهبانيتك صنّعت كثيراً من الخير . أترى عدد الشبان الذي لا يُحصَى ؟ أنت الذي أنقذهم ، أو أنقذهم ، أو أنقذهم كهنتك أو شمامستك أو الآخرون الذين جعلتهم على طريق الدعوة . ولو أمنتَ إيماناً أشدّ ووثقتَ ثقة أعظم بالرب لكان عددهم أكبر

كثيراً جداً .

- والحاضر ؟
- مدّ دومنيك طاقة زهور إليّ : ورد وبنفسج وزنبق وسوسن وسنبل قمح ، وشرح لي :
- قدّمها لأبنائك . الورد يمثل المحبة ، والبنفسج التواضع ، والسوسن التقشّف ، والزنبق العفاف ، والسنبل محبة القربان المقدّس .

- والمستقبل ؟
- إعلم أنّ الله يُعدّ أشياء عظيمة لرهبانيّتك . إنّ مجداً عظيماً ينتظرها ، ولكن اسهر لئلا يخرج السالسيون عن الطريق السويّ الذي دلّلتهم عليه . إذا ظلّ ذوك أهلاً لرسالتهم الرفيعة ، فإنّ المستقبل سيكون رائعاً وينقذ عدداً من الناس لا يُحصى ، بشرط ان يكون أبناؤك من الذين يكرّمون العذراء القديسة ويحسنوا التمسك بفضيلة العفاف التي تُرضي الله أعظم رضا .

- وأنا ؟
- آه ، لو كنت تعلم كم من المعارك يجب عليك أن تثبت لها أيضاً .
- فممدتُ يدي لأمسك هذا الصبي الصغير القديس ، ولكنّ يديه أفلتتا مني كأنهما من الهواء ولم يمكنني أن أعانقه "

٣٥

" أراهب أم غير راهب
إني أبقى مع دون بوسكو "

ذات يوم من صيف ١٨٥٧ استقبل الوزير راتاتسي دون بوسكو ، فدار الحديث على مشروع المصلّيات والوزير يُقدّره ، ولا سيّما منذ الخدمة التي قدّمها الأحداث في أيّام الكوليرا ، ومنذ حكاية السّجن العامّ . روى لموان أن الحوار دار على النحو هذا :

- أتمنى ، يا دون بوسكو ، ان تعيش طويلا ، ولكنك ستموت انت أيضاً ، فماذا يكون مصير صبيانك ؟

- أحيل عليك السؤال ، يا سيدي الوزير . ما الذي أستطيع أن أعمل في سبيل بقاء مشروعى ؟

- في رأيي أنه يجب اختيار بعض العلمانيين ورجالاً من الكنيسة تثق بهم ، فتؤلف جمعيةً وتُدخل إليهم روحك ، وتبثّ فيهم نظامك ، فيكونوا الآن معاونيك وتابعيك غداً .
ابتسم دون بوسكو وقال :

- لكنك عملتَ أنت بنفسك قبل سنتين ليوافقَ عل قانون يقضي بإلغاء عدد كبير من الجماعات الدينية . والآن تعرض أنت بنفسك جماعة جديدة . أتدعُها الحكومة تعيش ؟
فابتسم راتانسي وأجاب :

- إنني أعرف قانون الإلغاء معرفة حسنة . يمكنك إنشاء جمعية ليس لأي قانون ان يُلغيها .
- وكيف يكون ذلك ؟
- لا تستطيع دولة علمانية ان تعترف أبداً بجمعية دينية تابعة للكنيسة أي لسلطة غير سلطتها . ولكن إذا أنشيتَ جمعيةً يحفظ فيها كلُّ عضو حقوقه المدنية ، ويخضع لقوانين الدولة ، ويدفع الضرائب ، فإنّ الدولة لا يُمكنها أن تقول أيّ شيء كان . فإنّ هذه الجمعية عند الدولة ليست سوى ائتلاف مواطنين أحرار يتحدون ويعيشون معاً لغاية الإحسان ، كما يتحد غيرهم لغاية تجارية أو صناعية ، أو للتعاون المتبادل . فإذا تقبّل ، فوق ذلك ، هؤلاء الشركاء في سِرِّهم سلطة المطارنة والبابا ، فإنّ الدولة تتركهم وشأنهم . فإنّ كل جمعية لمواطنين احرار مُرَحَّصة ، طالما ترعى قوانين الدولة وسلطتها .

شكر دون بوسكو الوزير وأكّد له أنّه سيفكر في الأمر . إن راتانسي لم يتعدَّ إبراز في صيغة واضحة الأفكار التي يجول في خاطر دون بوسكو منذ أعوام كثيرة ، فيحاول أن ينشئ جمعية رهبانية " في نظر الكنيسة " ، يكون أعضاؤها مواطنين أحراراً " في نظر الدولة " . والصعوبة الكبرى هي أيرضى الكرسي الرسوليّ هذه الصيغة الجديدة التي تُسلم بمبدأ الأحرار القائم بالفصل بين الدولة والكنيسة ، وتحدث ثورة في الأشكال التقليدية لتنظيم الحياة الرهبانية . كان الرهبان الى ذلك الحين يُعدّون رهباناً " في نظر الكنيسة وفي نظر الدولة على حدّ سواء " .

أول معالم للرهبانية الناشئة

بينما دون بوسكو يفكر في " صيغة" الرهبانية كان أيضاً في همّ من الأشخاص الذين قد يؤلفون هذه الرهبانية . لقد تركه معاونوه الكهول ، الواحد تلو الآخر . إنّ السيدة العذراء مريم دلّته في أحلامه على الطريق الذي يجب عليه أن يسلكه : يُخرج الرعاة من القطيع .

نذر ميشيل روا (Rua) في آذار (مارس) ١٨٥٦ نذوره الأولى ، فجاء دور الأب الاسوناتّي (Alasonatti) بعد بضعة أشهر ، ودور يوحنا فرننتشيسيا (Francesia) في السنة ١٨٥٦ ، وهو نظم للمناسبة قصيدة فخمة باللاتينية .

ولكن ما من أحد من هؤلاء الثلاثة يفكر أن يكون عضواً في " رهبانية" . هم يعتقدون أنّهم مرتبطون بدون بوسكو أكثر من غيرهم قليلاً ليساعده .

واستمرّ دون بوسكو في حذره الشديد : إنّ الرهبانيّات و " الرهبان" كما يُسمّون لا يحظون بالتقدير في تلك الأيام . فقد اجتنب بدقّة " كلّ مظاهر العادات المألوفة في الاديّار : فلا تأمل في أوقات محدّدة ولا صلوات طويلة ، ولا أعمال تقشّف " ، على ما روى تشيريا (Ceria) .

حتى ١٨٥٩ ما من شيء يُؤهلّ دون بوسكو لأن يعلن نفسه " رئيس رهبانية" . حوله عدد حسن من رجال الكنيسة تلقّوا الثوب منه . ولكن أمكن ذلك لأمر واحد ، وهو أنّ رئيس الأساقفة رأى ضرورته " لمشروع المصلّيات " . ثم ان رجال الكنيسة هؤلاء ألزموا أن يقدّموا فحصاً لدى الهيئة الادارية لمطرانية المدينة ، وهم يتبعون دروس معهد الكهنوت ولا يُعفى أناسٌ منها الا اذا لم يمكن الاستغناء عن عملهم . كان دون بوسكو يدير المصلّيات وداخلية فالدوگو فالشمامسة ، وهو خاضع لسلطة رئيس الأساقفة ، المطران فرانسوني (Franson) .

لم يكن للرهبانية من معالم ظاهرة ، غير أن جوهرها أخذ يتشكّل ، وكان لا بدّ من أن تُخطّ معالم الرهبنة الناشئة ، بوضع قانون يحدّد الأمور الجوهرية التي تُبرز روحها وخطتها .

فباشر دون بوسكو ذلك العمل في ١٨٥٥ ، من غير أن يقول لأحد شيئاً ، فاقتبس من خبرته الشخصية ، ومن القوانين التي كان قد أنشأها للمصلّي ، واستشار ، وبحث بدقّة في قوانين الرهبانيّات القديمة والاكثر حداثة ، مثل مؤسسة المحبة لروسميني (Rosmini) وأعضاء مؤسسة الأب لانثيري (Lanteri) .

كان الحديث الذي دار بينه وبين راتاتسي (والذي فيه اقتصر الوزير على تكرير ما عرضه علانية في مجلس النواب) شعاع النور الذي أوضح له كيف يوفّق بين جوهر الحياة الرهبانية والشروط الجديدة التي تفرضها الضرورات السياسيّة . دافع دون بوسكو بحزم بعدد عمّا لرهبانه من حقوق مدنيّة .

في آخر السنة ١٨٥٧ كان النصّ الاول للقانون السالسيّ قد أعدّ ، وحن البدء في العمل

المُضني للحصول على موافقة السلطات الدينية .

أظهر المطران فرانسوني المنفي إلى ليون تشجيعاً كبيراً لمبادرة دون بوسكو ، ونصح له الذهاب إلى بيوس التاسع ليُكلمه على مشروعه ، بغية الحصول على زيادة من الضمان .

مقابلة للبابا

في الأيام الأولى من شباط (فبراير) ١٨٥٨ قضى ميشيل روا ساعات كثيرة من الليل في نسخ كتاب القوانين بخط أنيق ، فقد أوصاه دون بوسكو فقال :

- أحسن نسخه ، فسنحمله معاً إلى البابا .
في ١٨ شباط ذهب كلاهما إلى رومة ، وكان السفر طويلاً شاقاً في ذلك العصر : كان قسم من سفرهما برّاً ، والقسم الآخر بالبحر وهما يحملان جوازاً منظماً . واستحسن دون بوسكو قبل ذهابه أن يكتب وصيته ، فعهد بالمصلى إلى الأب الاسوناتي .

وفي ٩ آذار (مارس) حظي دون بوسكو بمقابلة أولى من بيوس التاسع ، فأظهر له البابا عطفاً لن ينقص أبداً ، ولم يُخف إعجابه الشخصي بما للكاهن التوريي من نشاط فياض ، ووافق على قصده إنشاء رهبانية ثلاثم عصره ، ولكنه أضاف بعض الوصايا أهمها أن يربط الاعضاء بعضهم ببعض لا بعود كما أوصى راتاتسي بل بنذور رهبانية حقيقية . وقال البابا لدون بوسكو إنه يحتاج إلى التفكير : " إذهب فصلّ وعُد بعد بضعة أيام فأقول لك رأيي " . سرّ دون بوسكو بهذا الاستقبال ، فأعاد النظر في نصّ القوانين مرة أخرى واستنسخه الأب روا .

٣١ آذار . المقابلة الثانية لبيوس التاسع . فُكر البابا وأوضح رأيه :

- إنني على يقين من أن مشروعك سيُمكنه أن يصنع كثيراً من الخير إلى الشبيبة ، فيجب

تحقيقه . لئن القوانين لينة ، يسهل العمل بها . لا يَلْفَنُّ الأنظار إليك طرازاً لبسكم ، ولا أعمال التقوى . ولذلك فلربّما كان الكلام على جمعية ، أفضل من الكلام على رهبانية . وخالصة القول ، اجتهد أن يكون كلّ من الأعضاء راهباً في نظر الكنيسة ومواطناً في نظر الدول .
رأى دون بوسكو لوقته أن بيوس التاسع وراتاتسي يكادان أن يكونا على وفاق ، فقدّم للبابا النصّ المختصر للقوانين وقال :

- ان هذا النظام الذي نُفّح وفقاً لوصاياك يحتوي القانون والروح اللذين يقوداننا منذ عشرين سنة .

ليس في القوانين شيء رهبانيّ ، بل يدور فيها الكلام على جمعية لرجال من الكنيسة والعلمانيين تؤلف بينهم النذور ، ويرغبون في نذر أنفسهم لخير الشبيبة الفقيرة . إنهم لدى الدولة

مواطنون : " لا يفقد أحد منهم ، عند دخوله الجمعية ، حقوقه المدنية حتى بعد نذره النذور ، لأنه يحتفظ بملكية ما عنده " . وأما عند الكنيسة فإنهم رهبان : " يجب أن يضع كلُّ منهم حقَّ الانتفاع تحت تصرف الرهبانية طوال أيام بقائه فيها " .

روى الأب تشيريا (Ceria) في حَوَليَّات الجمعية السالسيَّة : " إنَّ بيوس التاسع في المقابلة الثالثة والأخيرة في ٦ نيسان (أبريل) أعاد الكتاب إليه وهو يقول له أن يُسلِّمه إلى الكردينال كودي (Gaude) " .

كانت العلاقات بين هذا الكردينال البيمونتي ودون بوسكو حسنة جداً ، فقرأ الكاتب ونقحه أيضاً ، ثم نصح لدون بوسكو أن يحاول العمل بهذه القوانين المنقحة على هذا النحو ، ثم يعود الى المثول لدى البابا .

وغادر دون بوسكو رومة في ١٤ نيسان .

اسبوع واحد لتقرير مصير حياته

٩ كانون الاول (دسمبر) ١٨٥٩ . رأى دون بوسكو أنه حان الوقت ليتكلم صراحة على رهبانية ، فوجّه كلامه الى السالسيين التسعة عشر المجتمعين في غرفة على هذا النحو تقريباً : " فكَرْتُ منذ مدة طويلة في إنشاء رهبانية ، فهذا هو الوقت للانتقال من الكلام الى العمل . إنَّ الأب الاقدس بيوس التاسع شجّع مشروعى وباركه . لم تُبصر الرهبانية النور هذا اليوم ، فقد كانت قائمة بمجموعة القوانين التي عملتم بها دائماً عملاً تقليدياً . . . والآن يجب السير إلى الأمام ، وإنشاء الرهبانية رسمياً وتقبُّل قوانينها . ولكن اعلموا أنَّه لن ينتسب إليها سوى الذين يُريدون ، بعد ما يفكرون بجدّ ، أن يندروا في الوقت المحدد نذور الفقر والعفاف والطاعة . . . أتترك لكم أسبوعاً لتفكروا في الأمر " .

ساد في آخر الاجتماع سكوت غير مألوف ، وسرعان ما تحققوا ، لما انحلت عقدة الألسنة ، أنَّ دون بوسكو كان على صواب في سلوك الطريق ببطء وحذر . كان أناس منهم يدممون أنَّ دون بوسكو يريد أن يجعل منهم رهبانا (١) .

وكان كالييرو (Cagliari) يخطو خطوات واسعة ذهاباً وإياباً في الساحة ، تنازعه مشاعر مضادة .

ولكن الرغبة " في البقاء مع بوسكو " فازت بموافقة الأكثرية ، فلفظ كالييرو العبارة التي أصبحت تاريخية : " أراهبُّ أم غير راهب ، إني أبقى مع دون بوسكو " .

في "جلسة الانتساب" التي عقدت مساء ١٨ كانون الأول لم ينقص سوى اثنين من التسعة

عشر الذين حضروا الاجتماع السابق . هذا هو مختصر محضر الجلسة الذي كتبه الأب الاسوناتي :
" في غرفة الكاهن يوحنا بوسكو في الساعة التاسعة من المساء ، اجتمع الأب بوسكو
والكاهن فيثوريو ألسوناتي (Alasonatti) ، والاكليركيون أنجلو سافيو (Savio) الشماس
الانجيلي ، وميشيل روا (Rua) الشماس الرسائلي ، ويوحنا كالييرو (Cagliero) ويوحنا المعمدان
فرننتشيسيا (Francesia) ، وفرنسيس بروفيرا (Provera) ، وكارلو غيفارلو (Ghivarello) ،
ويوسف لازيرو (Lazzero) ، ويوحنا بونيتي (Bonetti) ، ويوحنا أنفوسسي (Anfossi) ، ولويس
مارسلينو (Marcellino) ، وفرنسيس تشيروتتي (Cerruti) ، وسلستينو دوراندو (Durando) ،
وسكندو بيتيفا (Pettiva) ، وانطون روفتو (Rovetto) ، وقيصر يوسف بونجيوفاي
(Bongiovanni) ، والشباب لويس كيانالي (Chianale) .

وقد سرّ المجتمعين أن يجعلوا من أنفسهم جمعية او رهبانية . . . فرجوا بالاجماع من دون
بوسكو المنشئ والباعث أن يقبل منصب الرئيس الأعلى ، فقبله بشرط أن يختار نائباً ، فبدا له ألا
يبدّل من هذا المنصب كاتب هذه الاسطر . . .

وانتخب بالاجماع الشماس الرسائلي روا ميشيل مرشداً روحياً ، وانتخب أنجلو سافيو
وكيلاً للمال معترفاً به ، وكان المستشارون الثلاثة الذين انتخبوا بالاقتراع الشماسية
كالييرو ويوحنا وبونيتي يوحنا وغيفارلو كارلو . وهكذا أقيم إقامة نهائية الهيئة الادارية
لجمعيتنا (قبل لها بعدئذ المجلس الأعلى للرهبانية) .

(١) كان ذاك اللقب سخريه عند أعداء الكنيسة في ذلك العصر (حاشية من المترجم) .

" لماذا تبقى في المصلى ؟ "

وُلدت الرهبانية ، فداخل دون بوسكو فرح عظيم . ولكي أعتقد أنه بقي في أعماق نفسه
شيء من الحزن : لم يكن يوسف بوتسيي ، وهو عزيز جداً عليه ، بين السابعة عشرة الذين
قبلهم .
فبينما هو يعالج مسدساً ليدافع عن أمتعة معروضة لأول يا نصيب ، أصيب بحادث جسيم ،
فاضطرّ إلى بتر سبابة يده اليسرى ، وكان ذلك الامر يُعدّ في تلك الأيام مانعاً ذا شأن لاقتبال
الكهنوت . كتب الأب لموان : إنّ هذا الحادث ، يضاف إليه التواضع ، حمل بوتسيي على التخلي
من الثوب الكهنوتي .

ولكنه كان يقدّم كلّ ساعة من يومه لدون بوسكو " العزيز عليه " ، وللمصلى . كان مسؤولاً

عن صيانة البيت ، على ما اوضح لموان ، وكان يراقب غرفة الطعام ، فيهيء الموائد ، ويهتم بالنظافة ، ويُلقى دروس التعليم الديني ، ويسير شؤون القراءات الكاثوليكية ويرسلها . وكان يدير صف الغناء ، الى أن ترك امره ليوحنا كالييرو سنة ١٨٦٠ . " كان بما له من فكر ثاقب وحمية ونشاط ، روح كل يانصيب ، وكان يذهب ليحصل على الطلبات للورشات ، ويشترى الخبز ويدفع النفقات " .

كان المصلى عنده فلذة كبده . ولما انهار البنيان الذي كاد أن يتم ، فلى قوائم الحساب بأقصى الدقة ، فوجد طلبات مواد من صنف رديء ، فلام المتعهد لوماً شديداً ، فاضطرّ دون بوسكو هو نفسه إلى تهدئته :

- يجب علينا أن نتحلى بالصبر . إنّ الربّ سيعيننا .
- أجل ، أجل ، أجل سيعيننا . ولكذك في أثناء ذلك ، تسهر وتعمل نهاراً وليلاً لتحصل على بضعة مئات من الليرات ، في حين أنّ هؤلاء يسرقون آلافاً منها في لحظة . إنهم يحتاجون إلى أن يُلقنوا درساً حسناً .

- لندع الأمور تجري . اذا احتاجوا إلى ذلك الدرس ، فإنّ الربّ سوف يلقنهم إياه .
أضاف لموان (وعنه اخذنا هذا الحوار) أن بوتسيي كان يعمل الملاك الحارس لدون بوسكو ، فيرافقه عندما كان يُخشى أن يكون في خطر ، ويذهب الى لقائه عند المساء . فإن قامته القويّة ولحيته الشقراء الكثة ردّتاً عدّة أشرار عن رغبتهم في الهجوم على كاهن فالدوگو . سأله إخوته البناؤون (قد صار كارلو أخوه معلّم بناء ماهراً) أكثر من مرّة :
- إذا كنت لا تريد أن تصير كاهنا ، فلماذا تبقى في المصلى ؟ اذا مات دون بوسكو ، فماذا تعمل ولا صناعة بك ؟

- أكّد لي دون بوسكو أنّه سيكون في متناولي كسرة خبز حتى بعد موته ، وهذا كافٍ لي .
ومع ذلك فإن هذا الشابّ الذي بلغ السابعة والعشرين في السنة ١٨٥٩ ، والذي لم يكن ليُحجم عن بذل حياته في سبيل دون بوسكو ، أبى أن ينذر نفسه ، وأن يصير سالسيّاً .
كان يوسف روسي (Rossi) أوّل علماني قُبل في الرهبانية السالسيّة . اجتمع المجلس الأعلى للرهبانية السالسيّة لكي ينظر في قبوله في ٢ شباط (فبراير) ١٨٦٠ ، ولدى دخول روسي ظهرت كلمة " معاون " في لغة الرهبانية ويُقصد بها السالسيّ العلمانيّ .

أزمة يوسف بوتسيي

إن اليوم الرابع عشر من أيار (مايو) ١٨٦٢ يُعدّ مرحلة جديدة في إنشاء الرهبانية

السالسيّة ، فقد اجتمع " اخوان " دون بوسكو على حسب عاداتهم في غرفته الصغيرة ولتوا نداءه " فوعدوا الله أن يحفظوا القوانين بنذرهم الفقر والعفاف والطاعة ثلاث سنوات ". وكانوا اثنين وعشرين ، ما عدا المنشئ .

وختم دون بوسكو الاجتماع بقوله : " بينما تنذرون هذه النذور لي النذور لي نذرئها أنا أيضاً لهذا الصليب ، طوال أيام حياتي مُقرباً نفسي ذبيحة لله " .

وكان في جماعة الاثنتين والعشرين علمانيّان أيضاً ، يختلف الواحد منهما عن الآخر اختلافاً حقيقياً . فالأول هو يوسف غايا (Gaia) وقد صار طوال سنين كثيرة طبّاح المصلّي ، وأمّا الآخر ، وهو فديريكو اوريليا دي سانتو ستفانو (Oreglia di S.Stefano) ، فقد كان من الطبقة الأرستقراطية في تورينو . وكان دون بوسكو قد ربحه في رياضة روحية فجعله يُنهي مدة من حياته قضائها في المغامرات ، فخدم المصلّي طوال تسع سنوات خدمات كثيرة ، ثم دخل الرهبانية اليسوعيّة .

تعرّض المصلّي بسهولة ، في السنوات التي تبعت ، لهذه التجربة وهي ان يَعُدّوا الذين ليسوا كهنة أو شمامسة " خدم البيت ، أو على الأقل ، " فرعاً من درجة ثانية " .
ويُرَجَّح أن " أزمة " بوتسيّي نشأت في هذه الأحوال . رواها الأب لموان في المجلد الخامس لذكريات السيرة ، ونحن نختصر ماورد فيها .

شعر أنّ الحياة القديمة ، حياة الأسرة ، توشك أن تُبدّلها الأنظمة ، ورأى ان ادارة البيت تنتقل شيئاً فشيئاً الى أيدي رجال الكنيسة ، ومثلها المناصب التي كان قد عُهد بها إليه في أوّل الأمر . فحمله الحزن وفتور الهمة على الذهاب ، فوجد عملاً في تورينو ومضى إلى دون بوسكو ليودّعه . قال له بصراحته المألوفة إنّه سيُصبح من بعد اليوم غير نافع ، وأنه سيجب عليه أن يُطيع من رآهم يدخلون أطفالاً صغاراً فعلمهم كيف يمخطون . وأعرب عن حزنه الشديد لا ضطرره الى مغادرة ذلك البيت ، وقد رآه يكبر منذ أيام مستودع بيناردي .

لم يُجبه دون بوسكو : " تتركني وحدي . كيف أعمل من دونك ؟ " . لم يرث لنفسه ، بل فُكر فيه ، في أعزّ صديق له : " وهل وجدتَ عملاً ؟ هل يدفعون لك أجرة حسنة ؟ لا مال عندك ، ولا ريب في أنّك تحتاج إلى شيء منه من أجل نفقاتك الاولى " . فتح درج مكتبته : " أنت مطلع على هذه الأدراج أحسن منّي . خذ كلّ ما تحتاج إليه ، واذا لم يكفك ما فيه ، فقل لي ماذا تحتاج اليه فأجده لك . يا يوسف ، لا أريد أن تحرم نفسك من أجلي " . ثم نظر إليه بتلك المحبة التي له وحده أن يُظهرها لصبيانه وأضاف : " لقد عشنا معاً دائماً على أحسن وجه . أرجو ألا تنساني أبداً " .

فأخذ توتسيّي يشهق وبكي طويلاً ، ثم قال : " كلا ، لا يسعني أن أترك دون بوسكو .

أبقى معك دائماً أبداً " .

" المعاون " الذي شُغِفَ به قلب دون بوسكو

ولا شك في أنّ هذا الحادث هو الذي دفع دون بوسكو الى إحكام تحديد مثال السالسيّ العلمانيّ ، " المعاون " في الرهبانية السالسية .

٣١ اذار (مارس) ١٨٧٦ . في " كلمة للمساء " خاصة بطلاب الصناعة ، أوضح ما هي دعوة السالسيّ العلمانيّ : " تنبّهوا إلى أنّه ما من فرق بين أعضاء الرهبانية . إنهم يُعاملون كلّهم المعاملة نفسها ، سواء اكانوا عمّالاً أم شمامسة ام كهنة : إنّنا نَعُدُّ بعضنا إخوة " .

في السنة ١٨٧٧ عزم بوتسيّتي على طلب الدخول في الرهبانية السالسيّة ، فأراد دون بوسكو أن يقدّم هو بنفسه هذا الطلب الى المجلس الأعلى المؤلّف كئله على وجه التقريب من هؤلاء الاطفال الذين " علمهم كيف يمشطون " . فقبِلَ باجماع الأصوات ، واعتقدُ أن ذلك اليوم كان من أجمل الأيام لقلب دون بوسكو .

إن كثيراً من " المعاونين " الآخرين صاروا أعضاء في الرهبانية السالسية وتولّوا مختلف الأعمال : فيلاتسا (Pelazza) وغامبينو (Gambino) هما رئيسا ورشة ، ومرسيل روسي (Rossi) بوّاب ، وناسي (Nasi) ممرّض ، ويوسف روسي (Rossi) مدير الشؤون الادارية ، وإنريا (Enria) يتولّى كل خدمة ، وفالكو (Falco) وروفاتو (Ruffato) طبّاخان ، ولكنهم " يعاونون " كلّهم الكاهن باعمال رسوليّة ، فيدرسون التعليم الديني وهم ناظرون ومُربّون .

ان " التجربة " التي تكلمنا عليها آنفاً تكرّرت في السنوات الأخيرة من حياة دون بوسكو .

فلما اجتمعت الهيئة العليا للرهبانية في ١٨٨٣ ، وكان ذلك اجتماعها الثالث ، قال بعضهم :

" يجب إبقاء المعاونين في الدرجة الثانية وإنشاء فرع خاصّ بهم " . فردّ عليه دون بوسكو بحدّة :

" لا ، لا ، لا . ان إخوتنا المعاونين هم مثل سائر الاعضاء " . وفي تلك السنة أكد تأكيداً شديداً

وهو يحدّث السالسيين المعاونين : " يجب أن تكونوا قادة لا أجراء أو عمّالاً . يجب أن تكونوا بمنزلة

أرباب عمل بالنظر إلى سائر العمال ، لا بمنزلة مستخدمين . . . هذه هي فكرة المعاون السالسيّ .

إنّي احتاج إلى الحصول على عدد كثير من هذا النوع ، يأتون فيساعدونني . ولذلك يسرّني أن يكون

لكم ثياب نظيفة تليق بكم وغرف وأسيرة حسنة فلا تكونوا مرووسين بل رؤساء " .

أكد بطرس برايدو (Braido) وهو المختص بالمسألة : " إنّ صورة المعاون (وفقاً لروح

دون بوسكو) لا تبرز خليقة كلها جديدة مبتكرة ، بل تظهر ظهوراً مُتدرّجاً من خلال التردّد

والارتياب " .

نبيح لنفسنا أن نؤكّد أنّ الصورة المثالية للمعاون الذي شغق به قلب دون بوسكو طوال تلك السنين الكثيرة ، كانت في الأرحح صورة يوسف بوتسييّي : وقيّ على الإطلاق ، متواضع ، حاضر دائماً أبداً في الأوقات العسيرة الدقيقة ، ينظر إلى المصلّى نظره إلى أسرته وقلّة كبدّه ، وينشرح صدره لأن " أسرته " تنمو : إته لا يُحسن فهم الأمور القانونية ، ولكنه يريد أن " يبقى مع دون بوسكو دائماً أبداً " .

٣٦

سبعة من رجال الدرك لاجل صبي

في السنين التي تبعت ١٨٥٠ سعى دون بوسكو كثيراً لتتفتح رهبانيته السالسيّة . ولكن من الخطأ الجسيم أن يُفكر المرء أن الهموم والأسفار واللقاءات لإنشاء الرهبانية فصلت دون بوسكو عن الأحداث . ما كان دون بوسكو " رئيس عمل " قط بل " أبو أسرة " وهو يعدّ حضور الأحداث أمراً جوهرياً في الأسرة .

فما ان يعود من أسفاره ومواعده وأعماله حتى يجلس الى كرسي الاعتراف . إنه يفكر دائماً
أبداً بصبيانه ، في غرف الانتظار وفي رومة وفي المحطة عندما ينتظر القطار .

كان ينتظر في محطة كارمانيو لا (Carmagnola) في مساء يوم من أيام الخريف ، وقد انتشر
الضباب فلجأ سائر المسافرين القليلين الى غرفة الانتظار ، هرباً من البرد الرطب . وأما دون
بوسكو فقد سمع أصوات صبيان يلعبون ، فبحث عنهم ، وهو يحدّق بنظره من خلال الضباب .
كتب : " كنت أسمع بوضوح من بين تلك الأصوات صوتاً يعطوها كلها ، كأنه صوت قائد
يطيعه كلُّ صبيٍّ كما يُطاع الأمر ، فنشأت لديّ رغبة شديدة في معرفة ذلك الذي يستطيع أن يرئس
مثل تلك الضجة العجيبة " .

فدنا وما إن خرج الثوب الكهنوتي من الضباب حتى هرب الصبيان بكل ما لأرجلهم من
قوة . " وبقي واحد منهم غير هيّاب ، ووضع يديه على خصره ، وكلمه بلهجة الحزم : " من
أنت ؟ ماذا تريد منا ؟ " .

أيدع القطار يفوته أم يفقد صبياً ؟

حدّق دون بوسكو إلى هذا الصبي الأشعث الشعر ، فرأى في أعماق الفانضتين عزّة
حياة جيّاشة تهدر هدرأ . فتحدّث إليه بضع دقائق ، فأزال حدّره وعلم اسمه " ميشيل ماغونه " (Magone)
وهو في سنّ الثالثة عشرة ، لا أب له " ومشروعه للمستقبل " اخترتُ صناعة
الكسل " .

صقّر القطار ، ودون بوسكو يتعرّض لأن يفوته ، ولكن إذا فقد هذا الصبي كان المصاب
أكبر . فوضع في يديه أيقونة للسيدة العذراء مريم وقال له بسرعة :
- إذهب إلى الأب أريتشيو (Ariccio) ، الكاهن المعاون في كنيسةك . قل له إن الكاهن
الذي اعطاك هذه الايقونة ، يودُّ أن يُزوّد بالاستعلامات عنك .

تلقّى دون بوسكو ، بعد بضعة أيام ، رسالة من الكاهن المساعد في كارمانيو لا ، جاء فيها :
" إنّ الصبيّ ميشيل ماغونه ولد مسكين ، يتيم الأب . أمّه مضطّرة الى إعالة الأسرة فلا تستطيع
الاهتمام به . إنّ قلة ثباته وطيشه كانا السبب في طرده عدّة مرّات من المدرسة ، بيدّ أنه واطب على
الصفّ الابتدائي الثالث بنجاح وسط . وأما من جهة أخلاقه فائيّ أعتقد أنّه حسن النية ، متواضع
في تصرّفه ، ولكن يعسر عليه أن يملك نفسه ، فهو مشاغب على وجه تامّ في أثناء الدروس في

الصف أو في التعليم الديني ، فإذا لم يتحرك سار كل شيء سيراً حسناً ، وعندما يذهب يرتاح جميع الناس . فالسِنَّ والفقر والطبع والذكاء ، ذلك كله يجعله أهلاً لكل عناية تتحلى بالمحبة " .
فأجاب دون بوسكو أنه مستعدّ لأن يقبل الصبيّ في مصلاه ، إذا وافق على ذلك هو وأمه .
فدعا الأب أريتشيو ميشيل وكلمه على ذلك الكاهن الذي له في تورينو بيت كبير يركض فيه مئات من الصبيان ، ويلهون ويدرسون أو يتعلمون صناعة ، وختم قوله : " إنّه مستعدّ لقبولك أنت أيضاً في بيته . أفتريد أن تذهب إليه ؟ " . فتلقّى الجواب : " مرحى ، نعم سأذهب ! " .
راففته أمّه إلى القطار ، ومعها صرة ثياب ، وقد انقبض قلبها من التأثر . وصل ميشيل ماغونه إلى فالدوگو . روى دون بوسكو أول حوار دار بينهما على الوجه هذا :

" قال لي وهو يركض نحوي :

- هاءنذا . أنا ميشيل ماغونه ذلك الذي صادفته في محطة سكة حديد كارمانيو لا .
- يا صديقي ، أعرف كل شيء . هل جئت بنية حسنة ؟
- نعم ، نعم ، ان حسن النية لا يعوزني .
- اداً أو صيک ألا تقلب البيت رأساً على عقب .
- آه ، كن على يقين من أنني لن أسبب لك متاعب . أسأت السلوك في الماضي ، وأما الآن فلا أريد ان يتكرر ذلك ، إن اثنين من أترابي هما في السجن ، وأنا ..

- سكينّ روعك . قل لي ما الذي تفضّل : الدرس أم تعلم صناعة ؟
- إني مستعدّ لأن اعمل ما تريد ، ولكن اذا تركت لي الخيار أفضل الدرس .
- وعندما تنتهي الدروس ، فماذا تُحبّ أن تصير ؟
- اذا كان لصبيّ شرير . . . - قال ذلك ، ونكس رأسه ضاحكاً .

- تابع : اذا كان لصبيّ شرير . . .
- إذا كان لصبيّ شرير أن يبلغ من حُسن الخلق ما يوصله ليصير كاهناً ، فسيُسرتني أن أكون

كاهناً .

- سنرى ماذا يُحسن صبيّ شرير . سأجعلك تدرس " .

صارت حياته منذ ذلك الحين الغناء والصياح والركض والقفز والضجة . أجل ، لم يصير قديساً صغيراً . انتدبت جمعيّة البريئة من الدنس حارساً بجانبه يساعده ويهدّبه بلطف ، والعمل لا ينقصه : فهناك الكلام الخشن والعبارات البذيئة والشتائم . . . ولكن ميشيل ، كلما وبّخه رفيقه ، شكره وعمل بنصحته ، على ما فيه من نزقه .

هناك شيء يكرهه ميشيل من كلّ قلبه : الجرس الذي يدقّ ليذن بانتهاء الفرصة ، ويدعو إلى الدرس أو الصفّ . إنه ، وهو يحمل كتبه تحت ذراعه ، أشبه بصغير السنّ حكيم عليه بالاعمال

حزن صبيّ

كان الجرس الذي يبشّره بانتهاء الدرس أحبّ إليه كثيرا . كتب دون بوسكو ن وكان يتتبعه من كتب ويعطف عليه : " كان منظره كمنظر من يخرج من فوهة مدفع ، فيركض إلى جميع الأطراف ويحرك كل شيء " . وكان في الملعب رئيس فريق ، فظل منذ وصوله أشبه بمن لا يُفهر . ومضى شهر .

ذات يوم أخذ ميشيل ينطوي على نفسه . كان يقف في زاوية ينظر الى أصحابه يلعبون ويهرب من معاشره أصدقائه الصاخبين ، ويكي أحيانا عندما لا يراه أحد ، فكان مندبلا من الحزن يُغطي وجهه . روى دون بوسكو :

" كنت مُطلعا على ما يحدث له ، فدعوته ذات يوم فقلت له :

- يا عزيزي ماغونه ، أرغب أن تُسرّني ، ولكني أبا أن تردّ طلبني .

فأجاب بجرأة :

- قل ما تريد ، فإني مستعدّ لأن أعمل أيّ شيء كان في سبيلك .
- وددت لو جعلتني هنيهة سيّد قلبك ، فصرحت لي لماذا أنت حزين منذ بضعة أيام .
- نعم ، هذا صحيح ، ولكني فقدت همّتي ، ولا أدري ما فعل .

وأخذ يبكي ، فتركه يعود الى نفسه ، ثم قلت له مازحا :

- أنت القائد ميشيل ماغونه ، رئيس عصابة كارمانيو لا كلها ؟ أيّ قائد أنت ؟ إنك لا

تقوى على أن تقول لي ما يجعلك حزينا مثل هذا الحزن ؟

- وددت لو استطعت ذلك ، ولكني لا أدري كيف أعبر عما في نفسي .
- قل لي كلمة واحدة .
- إن ضميري مشوّش .
- حسنا ، ها قد فهمت كل شيء . يمكنك ان تُسوّي كل شيء أيضا بسهولة . حسبك أن تقول للكاهن في اعترافك لديه إن هناك شيئا في حياتك الماضية تريد إعادة النظر فيه ، وهو يراجع جميع شؤونك تباعا على نحو لا يبقى لك فيه سوى أن تقول نعم أو لا " .

كان بعض الكهنة يأتون فالدوگو ليستمعوا إلى الاعتراف ، ولكن الصبيان كلهم على

التقريب يعترفون لدى دون بوسكو . في ذلك المساء ، ذهب ميشيل فقرع باب غرفته وقال له :

- يا دون بوسكو ، لربّما أزعتك ، ولكن الرّب انتظرني طويلا ، وأبى أن أطيل انتظاره ولا

الى غد .

ساعد دون بوسكو ماغونه فوضع عند قدَمي الصليب ذنوبه الصغيرة التي كانت تبدو له

عظيمة وطلب منه الغفران . شاهد دون بوسكو تلك القيامة من الموت فكتب : " فقد ميشيل

الفرح لما تَنَبَّه إلى أنّ الغبطة الحقيقية لا تأتي من القدرة على القفز ، بل من صداقة الربّ ومن راحة

الضمير . كان يرى أترابه يتقدّمون ليتناولوا القربان المقدّس فيصبحون أحسن مما كانوا ، في حين

أنه لم يكن يشعر براحة الضمير ، بل كان القلق الشديد يساور فكره . . . لما فرغ من اعترافه قال

بلهجة الفرحة : ما أسعدني ! " .

عاد ميشيل في الغد إلى ترأس فريقه في ساحة المصلّى وسار به إلى انتصار لا يزول ذكره . لقد

عاد ملك الفرحة .

الضربات بقبضة اليد في ساحة كاستلو

روى بوسكو حكاية ميشيل ماغونه ، فكشف لنا عن الخطة التي جرت بموجبها مئات ومئات

من اللقاءات بينه وبين الصبيان " الذين أخذ الشر يعمل فيهم " . عرف كيف يصلحهم مع الله ،

بوسائل بسيطة جداً ويدفعهم إلى طريق القداسة .

استأنف دون بوسكو كلامه فقال : " لم يبقَ بعد اليوم الجرسُ الذي يدعو إلى الكنيسة ،

بغضباً لدى ميشيل : إنه يدعو إلى لقاء يسوع ، وقد أصبح صديقه " .

فوضع بعون دون بوسكو " خطة للمعركة " ليحافظ على هذه الصداقة وينميها " الالتزام

بأن يحافظ على عفاف تامّ في حياته ، والالتزام التامّ بأن يُشعّ المحبة والفرح بين أترابه .

كتب ماغونه في دفتره الشخصي سبع عبارات سمّاها " رجال الدرك السبعة " للدفاع عن

صداقته للربّ ، وهذه هي :

١ . لقاء يسوع مرات كثيرة في تناول القربان المقدس والاعتراف .

٢ . محبة السيدة العذراء مريم من كلّ قلبي .

٣ . الاكثار من الصلاة .

٤ . التضرّع إلى يسوع والسيدة مرات كثيرة .

٥ . عدم الافراط في حُسن معاملة جسمي .

٦ . أشغل نفسي دائماً بعمل شيء .

٧ . الابتعاد من رفاق السوء .

(يسهل على المرء أن يرى ، في هذه الأمور السبعة ، الطريق الذي كان دون بوسكو يعرض

على صبيانه سلوكه ، لكي يظلوا صالحين) .

كان ميشيل يقود المعركة على جبهة المحبة والفرح بأسلوبه العاصف غير المبالي ، وهو يختلف

اختلافاً كبيراً عن أسلوب دومنيك سافيو . هناك ، في جمع صغير منعزل تحت الحنايا ، يروي صبيّ حكايات فيها بذاعة ، وأناس من الذين حوله يهتفون ساخرين ، في حين أنّ غيرهم يودّون الذهاب ولكنهم لا يجرؤون على ذلك . ادرك ميشيل الأمر كئله فدنا من الصبيّ من خلف ، وجعل في فمه أربعاً من أصابعه على طريقة الرعاة ، وأرسل في أذنيه صفيراً شديداً ، فقفز الصبيّ من الخوف ، والتفت وقال حانقاً :

- لقد جُننتَ ؟

- أنا جُننتُ أم أنت الذي يروي هذه الحكايات القذرة كالخنازير ؟

ذات يوم استصحبه دون بوسكو ليقضي بعض حاجاته فمرّاً بساحة كاستلو (Castello) ،

فكان صبيّان يقامران ، فأخذ أحدهما يكفر كفراً شديداً ، ويشتم اسم الرب ، فأسرع ميشيل إليه توّاً ، ولطمه لطمتين على خديّه ، فتلقّى الصبيّ اللطمتين مرتكباً ، ولم يكن يتوقّعهما ، ثم ردّ عليه لوقته ، فأخذ كلُّ منهما ينهال على الآخر بالضربات العنيفة في حلقة أناس تجمّعوا لينظروا اليهما . فاضطرّ دون بوسكو إلى أن يُلقي بنفسه بينهما ، لكي يفصل الواحد عن الأخرى . فصعّر ميشيل قائلاً :

- أشكر هذا الكاهن ، فلولاه لكنتُ ألبستك ثياب العيد .

اصطرّ دون بوسكو إلى إقناعه أنّه لا حاجة به إلى ضرب جميع الذين يكفرون .

وليس ميشيل قادراً على التضارب وغيره فحسب . فقد صار يوماً بعد يوم سريعاً إلى خدمة

الناس ، سخيّاً ، يساعد الصّغارَ على إصلاح سريرهم وتنظيف احذيتهم ، ويُعيد دروس الصف مع أقلّهم ذكاء .

يد دون بوسكو على رأس ميشيل

بلغ سرور دون بوسكو بسلوكه أنه استصحبه في الخريف مع أحسن التلاميذ ليقضوا بضعة

أيام عطلة في البكي .

وفي تشرين الاول (أكتوبر) بدأ ميشيل سنته المدرسية الثانية في فالدوگو .

في ٣١ كانون الأول (ديسمبر) ، بينما دون بوسكو يُلقي " كلمة المساء " ، أوصاهم جميعاً

بأن يُحسنوا بدء العام الجديد ويحسنوا السير فيه بنعمة الله ، لأنّه " قد يكون العام الأخير لحياة هذا

أو ذاك " . قال دون بوسكو هذه الكلمات ، وهو يضع يده على رأس ميشيل ففكر هذا : " أترى هذا التنبيه يتناولني ؟ " . لم يرتعب ، ولكنه قال في نفسه : " سأكون مستعداً " .

بعد ثلاثة أيام شكا ألماً في جوفه ، وهو ألمٌ شعر به في السنين الماضية ، وقد عاوده حيناً بعد آخر . لربّما كان يعود إلى الزائدة الدودية المزمنة ، فذهب إلى غرفة التمريض ، فلم تبدُ حالته مدعاة للقلق ، وراه دون بوسكو من نافذته فسأله ما به فأجاب : " لا شيء . إنه ذلك الألم المألوف " .

ولكن المرض اشتدّ في مساء التاسع عشر من كانون الثاني (يناير) فأسرع الطبيب واستمع الى ميشيل يلهث ، وهو يتنفس بعناء ، ورفع ذراعيه لعجز الطب في ذلك العصر . قال هذه الكلمة فحسب : " الحالة سيئة " . (إنّ أول العمليّات الجراحية للزائدة الدودية أجريت على سبيل التجربة في آخر القرن التاسع عشر ، لا قبل) .

في ٢١ كانون الثاني ١٨٥٩ أشرف ميشيل على الموت ، فأخذ أصدقاؤه يصلّون من أجله وقد استولى عليهم الغمّ ، وزوّد بالزاد الاخير .
والآن أزف نصف الليل . عادت أمّه إلى بلدها لثعنى باولادها الأصغر سيّناً منه ، ولكن دون بوسكو هنا بالقرب من سرير ميشيل فقال فجأة :

- ها قد وصلنا . ساعدني يا دون بوسكو . . . قل لامي تغفر لي كلّ ما سبّبت لها من أحزان . . . قل لها إنّي أحبّها فلنتشددّ . . . إنني أنتظرها في الفردوس . . .
كان نصف الليل . غفا ميشيل لحظة ، ثم قال لدون بوسكو ، وكأنّه قد أفاق من نوم عميق ، وأشرق أساريه :

- قل لأصدقائي إنني أنتظرهم في الفردوس . . . يسوع ويوسف ومريم . . .
لبث وجهه لا يتحرّك ، وقد ساده سلام الموت .

" السياسة العظمى "

ابتدأ عام ١٨٥٩ بالمأساة الصغيرة الأليمة ، وانتهى بالإنشاء الرسمي للرهائية الساليسية كما روينا في الفصل السابق .

جلبت السنة ١٨٥٩ على إيطاليا المغامرات والانقلابات .

إن تاريخ إيطاليا وأوربّا في السنوات بعد ١٨٤٨ واصل سيره صامتاً في أول أمره ، ثم أشتدّ الصراخ فيه يوماً بعد يوم .

في كانون الأول (ديسمبر) ١٨٥٢ أعلن لويس نابليون ، ابن أخي بوناپرت ، نفسه امبراطوراً ، بعد انقلاب وتسمّى نابليون الثالث ، وقدم نفسه لأوروبّا على أنّه يواصل مجد نابليون ، وأتته مستعد لتأييد الأمم التي تريد التحرّر من الامبراطورية النمساويّة .

وابتداً في إيطاليا عهد جديد ، عهد كافور الداهية ، فأرسل حملة عسكرية من البيمونتة إلى حرب القرم ، اشتركت مع الجيوش الفرنسية والانكليزية في محاربة روسيا ، فمات الجنود في بلاد بعيدة في حين أن اليّوس ساد البيمونتة ، فبيع كيلو الخبز بثمانين سنتيماً مع أن أجرة العامل ٤ ليرات في اليوم الواحد .

ولكن موتى حرب القرم أتاحوا لكافور فرصة الاشتراك في مؤتمر باريس للسلام في ربيع ١٨٥٦ ، " والعودة إلى مناقشة المشكلة الإيطالية " .

في ١٤ كانون الثاني (يناير) ١٨٥٨ فجّر أورسيني (Orsini) قنبلة في باريس ليقتل نابليون الثالث ، فجرح نحو مائة شخص ولم يُصَبْ نابليون بأذى . فقتل أورسيني في ١٣ آذار (مارس) ولكنه أرسل قبل موته كتابين الى الامبراطور يدعوه فيهما إلى تحرير إيطاليا .

في تموز (يوليو) ١٨٥٨ اتفق نابليون الثالث وكافور على محاربة النمسا وعلى مستقبل إيطاليا : ففي الشمال تقوم مملكة تخضع لأسرة سافويا وتشمل البيمونتة ، وفي الوسط تقوم مملكة تكون نصيب أمير فرنسي ، وفي الجنوب مملكة ثالثة لسليل من القائد الفرنسي مورا (Murat) . وأما الدولة البابويّة ، فتقتصر على اللاتسيو (Lazio) ، ويصبح البابا رئيس اتحاد الممالك الثلاث ، وتحصل فرنسا على نيس والسافويا مكافأة لها .

" اذا دعت الضرورة أقيمت المتاريس في تورينو "

في ٢٣ نيسان (ابريل) ابتدأت الحرب بين النمسا والبيمونتة ، ودخل الجيش الفرنسي يقوده نابليون الثالث ، فحاول النمساويون الاستيلاء على تورينو ، فدبّ الرعب في المدينة فأبرق كافور إلى الملك : " اذا دعت الضرورة أقيمت المتاريس في تورينو " .

وصل نابليون فهزم الفرنسيون النمساويين في ماجنتا (Magenta) في ٤ حزيران (يونيو) ، وبعد أربعة أيام وصل الخبر إلى تورينو : " دخل الامبراطور والملك ميلانو " . ولكن امبراطور النمسا فرنسوا جوزيف غادر فينّا ليقود الجيش بنفسه .

كانوا يستعدون لمعركة حامية الوطيس ، فاستولت الحماسة على أبناء الشعب في تورينو فاخذوا ينقسمون الى فريقين فيلعبون لعبة الحرب في الأراضي البور ، حول المدينة ، ويتقاذفون بالحجارة .

روى بطرس إنريا : " دخل يوم الأحد دون بوسكو المعبد ليرشد صبيان المصلّى ، فلم يجد

سوى الداخليين ، فسأل مستغرباً : " أين سائر الصبيان ؟ " . فلم يعرف أحدٌ مكانهم ، فخرج وذهب الى المروج ، فرأى صبيانَ المصلّى يتحاربون بعنف . كانوا نحو ثلاثمائة وكانت الحصى الكبيرة تصقّر في الهواء ، فزَجَّ دون بوسكو نفسه في المعمعة . رأيته عن بعد فخفت أن يُصاب بالحجارة ، ولكّنه خطا نحو خمسين خطوة إلى وسط المعركة . فلما رآه كلهم كَفُوا ، فقال لهم مبتسماً : " أمّا وقد فُتّم بالحرب فلنذهب ونُقم بالتعليم الديني " . فلم يحاول أحد منهم الهرب ودخلوا كلهم الكنيسة معه " .

في الساعة العاشرة تَفَتَّحت أبواب الجحيم

بدأت المعركة الحامية الوطيس بين النمساويين وبين الفرنسيين والبيموننتيين في ٢٤ حزيران (يونيو) عند الفجر ، وفي الساعة العاشرة تَفَتَّحت ابواب الجحيم فدوت أصوات المدافع ، ولعلع الرصاص ، وعلا صراخ عشرات الآلاف من المحاربين ، فاستبسل الجنود من الفريقين . وفي الساعة الثالثة بعد الظهر انتصر الجيش الفرنسي ، وفي الساعة الخامسة هجم الجنود البيموننتيون في زوبعة هائلة ، وفي الساعة الحادية عشرة قذف الملك فيثوريو عمانوئيل بفرسانه ، فكان الاصطدام الأخير مرّوعاً وهُزم النمساويون بعد معركة دامت ١٤ ساعة .

سقط في حقول سولفيرينو (Solferino) وسان مارتينو (San Martino) ٣٠ ألفاً من الرجال ، وارتفعت أصوات الجرحى والمحتضرين معاً ، كأثم ينشدون الرعب .
جال هنري دونان (Dunant)^(١) ، الشاب السويسري ، في ساحة الحرب ، وهو يحمل مصباحاً فكتب : " كنتُ كمن ينظر إلى جهنم ، لا بل إلى قعر جهنم . فالجرحى يزحفون من هنا وهناك ، طالبين عوناً لا سبيل إليه " . ولما طلعت الشمس صار الجو رهيباً : جنث منتنة ، وغيوم من الذباب ، وجراح يدبّ فيها الفساد ، وأصوات وحشية .

هذه هي الحرب الحقيقية . كتب دون بوسكو في كراس نشره في آخر السنة ١٨٥٩ : " بعد معركة سولفيرينو قلت دائماً إن الحرب شيء فظيع ، وأعتقدُ أنها مخالفة للمحبة حقاً " .
لم تجر الأمور كما توقّعها كافور ونابليون والملك فيثوريو عمانوئيل ، فاختلفوا ولم تتحقّق آمالهم .

وفي ٧ حزيران (يونيو) شاع خبر يكاد لا يُصدّق : مات كافور موته ضربة قاسية لمملكة إيطاليا الفتية .

(١) أنشأ بعدئذ جمعية الصليب الأحمر للدفاع عن حقوق الجرحى والأسرى والمنكوبين في الحرب (حاشية من المترجم) .

٣٧

نزهات في المونفراتو والحياة في المصلى

كان دون بوسكو يذهب كل سنة بأحسن تلاميذه إلى البكي ، من أجل عيد سيّدة الوردية .
كانوا في الأعوام الأولى نحوَ عشرين ثم كثر العدد ، وفي ١٨٥٨ بلغوا نحو المائة .
كتب الأب لموان : " في الأيام الأولى من شهر تشرين الأول (أكتوبر) ، كان يذهب من
المصلى جماعة المرثلين والموسيقيين وغيرهم ، وكان كلُّ منهم يحمل صرّة صغيرة فيها ثيابه ، لكي

بيدّل ملبسه في أثناء العطلة ، وبعض الأربعة الصغيرة وقليل من الجبن والفاكهة " .
كان يستقبلهم هناك يوسف بوسكو ، وهو صادق المودة دائماً ، ومستعد دائماً ليتغاضى ، إذا
أقلت الصبيان فذهبوا إلى الكروم لكي يخففوا من عبء القطف .
كانوا يحتفلون بالعيد في الأحد الأول من تشرين الأول ، وكانوا يشرعون في الغد بالرحلات
التي كانت تدوم عشرة أيام أو عشرين أو أكثر من ذلك .
بقيت البقيّة المركز العامّ حتى السنة ١٨٥٨ : كانوا يذهبون عند الصباح إلى بلد غير بعيد
كثيراً ، فيعودون في المساء . و منذ ١٨٥٩ تحوّلت النزاهات إلى رحلات حقيقيّة إلى المونفراتو .
كان دون بوسكو يُعدّ خطّ المسيرة سالفاً ، وكان خورانة الرعيّة والمحسنون مستعدّين
لاستقبال الجماعة ، وقد تعبت وجاعت . وكانوا يُسافرون سالكين طرق الرّيف والتلال
والكروم ، يسيرون فئات فئات ، وهم يُعَنّون ويدقّون الطبل ، ويستحثّون الحُمر الصغيرة التي
تحمل على عجزها الزينة والامتعة التابعة للمسرح . وكان دون بوسكو في أقصى المؤخرة ، يُحدق به
فرقة جميلة من الأحداث لا يملّون أبداً من الاستماع إلى حكايات البلدان التي يجتازونها .
كانت الفرقة كلّها تُرتّب صفوفها ، عندما يظهر بلد عن بعد ، وكانوا يدخلونها دخولاً رسمياً
تتقدمهم الموسيقى .

كتب أنفوسّي (Anfossi) : " إنني أذكر دائماً تلك الأسفار الحافلة بالمغامرات . كانت تُعمني
عجباً وغبطة . رافقتُ دون بوسكو خلال تلال المونفراتو من ١٨٥٤ إلى ١٨٦٠ . كُنّا نحو مائة

صبيّ نرى ما يحظى به دون بوسكو من صيت قداسة عظيم منذ ذلك الحين . كان وصوله إلى كلّ
من تلك القرى نصراً . كان خوارنة الأماكن المجاورة يقفون على الطريق الذي يمر بها ، وكذلك
السلطات المدنية على العموم ، وكان السكان يظهرون على النواذف أو يخرجون فيقفون عند
الأبواب ، وكان الفلاحون يتركون عملهم ليروا القديس ، وكانت الأمهات يدنين منه وهن يقدّمن
له أولادهنّ ، ويجثّين أرضاً فيطلبن بركته . جرت بنا العادة أن نذهب تواء إلى كنيسة الرعية ،
لنعبد المسيح في القربان المقدس ، فلا تلبث أن تمتلئ بالناس ، فيُلقي إليهم دون بوسكو لوقته
خطبة من المنبر . ثم كانوا ينشدون نشيد الزياح تتخلله الموسيقى . وكان الحضور ينالون البركة
بالقربان المقدس " .

كانوا يأكلون ما يسوقه الحظ اليهم ، ولكن الطعام كان وافرأ كما العادة هي عند الفلاحين .
كان الناس يأتون مسرورين هؤلاء الصبيان بسلال من الفاكهة والخبز الرّيفي والجبن ، وبأباريق
صغيرة فيها خمر . وكانوا ينامون في مستودعات التبن ، أو في غرف كبيرة وهم مضجعون على

أكياس كبيرة من ورق الشجر والتبن .

طفل في سنّ الخامسة : فيليبيو رينالدي

وصلت دون بوسكو وصبيان المصلّى إلى مدن كثيرة ، من ١٨٥٩ إلى ١٨٦٠ ، وفي السنة ١٨٦٢ نقلت السكك الحديد الخاصة بالدولة دون بوسكو والصبيان في حافلتين لدى رجوعهم إلى تورينو ، وفي ١٨٦٣ و ١٨٦٤ نُقلوا بالسكة الحديد في الذهاب والاياب . ولكن في ١٨٦٤ حالت سلسلة من المتاعب دون هذه النزعات الطويلة ، فاقترضوا على الذهاب إلى البغي والى موندونيو ، وَطَن دومنيك سافيو .

كانت تلك النزعات عند الصبيان مغامرات لا تُنسى ، وعند دون بوسكو بطاقة الدخول إلى بلاد المونفرّاتو ، حيث نجح في توجيه دعوات سالسيّة رائعة الى المصلّى . لما وصل الى لو (LU) في ١٨٦١ أمام بين رينالدي (Rinaldi) ، رأى تسعة أولاد يتدرّجون كأنايبب الأرغن ، وكان الثامن طفلاً صغيراً جدّاً في سنّ الخامسة يُدعى فيليبيو ، فنظر معجباً الى هذا الكاهن الذي يطلق بإشارة منه موسيقى الجوقة ، فلما انتهى العزف صَقَّق وقد أخذه الطرب . رأى دون بوسكو ذلك الطفل الصغير مرة أخرى بعد نصف ساعة في ساحة مزرعة رينالدي ، حيث أعاره كريستوفورو رينالدي أبو فيليبيو عربية تنقله الى سان سالفاتوري (San Salvatore) ، وقبل أن يذهب مرّ يده على جميع هؤلاء الصبيان الخجولين الذين يراقبونه متعجبين ، ونظر طويلاً إلى عينيّ فيليبيو الصغير . لقد صار في ما بعد ثالث خلف له في رئاسة الرهبانية السالسيّة واسمه الاب فيليبيو رينالدي .

صبيّ شعره أصهب والمطر

في السنة ١٨٦٢ وصلت الجوقة الموسيقية الى مونتيمايو (Montemagno) . كان صبيّ يلعب في الوادي ، فسمع أصواتَ أبواق الموسيقى ، فترك أترابه وحذائيه ، وركض نحو ساحة البلد ، فاندسّ بين الناس وهو يشق طريقه بمرفقه ، ووصل الى الصف الاول . رأى دون بوسكو هذا الناظر المحبّ للاستطلاع ، وهذا الشعر الكثيف الأصهب وسأله قبل أن يدعه يذهب :

- من انت ؟
- لازانيا لويجي (Lasagna Luigi) .
- أتريد أن تجيء الى تورينو ؟
- لماذا ؟
- لتدرس مثل جميع هؤلاء الصبيان .
- لمّ لا ؟
- إذا قلّ لأمك تأت فتكلمني غداً في فينيالي (Vignale) عند خوري الرعيّة .

لويجي لازانيا في الثانية عشرة . دخل المصلّى في آخر تشرين الاول (اكتوبر) . إنه سريع

الانفعال كالباردو ، ولكنه مرهف الشعور ، فاخذته الوحشة ، فهرب بعد بضعة ايام ، وعاد الى بيته ، فرأى واحد من الرؤساء ألا يُعاد الى المصلّى ولكن دون بوسكو أعلن أنه كفيل له : " في هذا الولد خصال كما ترون " .

عاد لويجي وتعلق بدون بوسكو وصار المطران السالسيّ الثاني ومُرسلاً عظيماً جداً .
عاد دون بوسكو بعد سنتين إلى مونتيمانيو في شهر آب (أغسطس) فجرى على يده حادث خارق للعادة .

انحبس المطر منذ ثلاثة أشهر والكروم تيبس على التلال ، ووصل دون بوسكو ليعظ في الأيام الثلاثة قبل عيد انتقال السيدة العذراء ، ليستعدّ الناس للعيد ، وأنبأ بغته في نصف العظة الأولى :
- إذا تصالحتم مع الله باعتراف جيّد في أثناء هذه الأيام الثلاثة ، وتناولتم جميعاً القربان المقدس يوم العيد ، فإني أعدكم باسم العذراء أن المطر سينزل غزيراً .
فلما نزل من المنبر ، رأى الخوري يقول له ، وهو مقطب :

- ان الشجاعة لا تعوزك أنت .
- في أي موضوع ؟
- وعدتَ علانية بنزول المطر يوم العيد .
- أنا قلتُ ذلك ؟

- سمعه جميع الناس وإنّ هذه الحكايات لا تعجبني كثيراً .
أقبل الناس على الاعتراف بايمان ، وبعد بضع سنوات لم يكفّ الأب روا والأب كالبيرو اللذان صحبا دون بوسكو عن ذكر ما أصابهما من التعب لا ستماعهما إلى الاعترافات ساعات طويلة .
ذاعت النبوة في بلاد المجاورة أيضاً ، فانتظر كثير من الناس حائرين ، وظلّ كثير منهم مرتابين . طلع صباح عيد السيدة العذراء ، يوم الخميس في سماء تامّة الصفاء . ولم يظهر عند الظهر ولا أثر للغيم .
وشهد الاب لويجي بورتا (Porta) : " كُنّا ، ونحن ذاهبون الى الكنيسة من اجل صلاة المساء ، مع المركز فاساتي (Fassati) نتكلم على المطر الموعود ، مع أنه لم يكن بين القصر والكنيسة سوى عشر دقائق من السير ، كان العرق يتصبّب من جبهتنا . فلما وصلنا إلى الموهف قال المركز لدون بوسكو :
- يا دون بوسكو العزيز لقد أخفقتَ هذه المرة إخفاقاً تامّاً . وعدتَ بالمطر ، وهناك ما هو مضادّ للمطر على وجه تام .

لما انتهت صلاة العصر لبس دون بوسكو القميص والبطرشيل . وصعد المنبر، وبينما هو يتلو " السلام عليك يا مريم " قبل العظة ، أخذت الشمس تُظلم ، ولم يمض على شروعه في الكلام سوى بضع دقائق حتى بدأت البروق والرعود ، فتوقف دون بوسكو لحظة وقد شعر بالانفعال الشديد ، فأخذ مطر هطال يضرب زجاج الكنيسة .

استأنف الأب بورتا قوله في شهادته التي نوجزها : " فُكروا في الكلام البليغ الذي فاض به قلب دون بوسكو في أثناء نزول المطر هطال يضرب زجاج الكنيسة .

استأنف الأب بورتا قوله في شهادته التي نوجزها : " فُكروا في الكلام البليغ الذي فاض به

قلب دون بوسكو في أثناء نزول المطر مدراراً . كان ذلك الكلام نشيد الشكر للسيدة مريم . ولما انتهت رتبة زياح القربان ظلّ الحضور في الكنيسة ، وتحت المدخل المسقوف ، لان المطر كان لا يزال يهطل " .

إنّ زوابع الصيف في المونفراتو يتخللها البرد أحياناً كثيرة ، فسقط شئ منه في ذلك اليوم . فاخذ " المتشدون " يُحَقِّقون لوقتهم وأوضحوا ان " البرد سقط على كروم أهل غرانا " (Grana) القرية المجاورة ، وهي بين كاليانو (Galliano) وميرابلو . فإنّ أهل غرانا كانوا قد نظّموا حفلة راقصة علنية في الساحة ، احتفالاً بعيد شفيع القرية ، الامر الذي أثار غضب خوارنة الرعايا .

صبية من مورنيزي: ماريّا مازارلو (Mazzarello)

في اثناء نزهة الخريف لتلك السنة ١٨٦٤ وصل دون بوسكو مع صبيانه الى مورنيزي

(Mornese) . كان الليل قد أظلم ، فجاء الناس الى لقائهم يتقدّمهم الخوري فالّي (Valle) والأب بستارينو (Pestarino) وكانت الموسيقى تعزف ، وكثير من الناس يجثون لدى مرور دون بوسكو وهم يسألونه أن يباركهم . فدخل الأحداثُ والجمعُ الكنيسة ، فأقيم فيها زياح القربان المقدّس وتناولوا من بعده طعام العشاء .

ثم إنّ صبيان دون بوسكو ، وقد شجّعهم التصفيق ، وأقاموا لاهل البلدة حفلة قصيرة عزفوا فيها قطعاً من الأناشيد العسكريّة والموسيقى الخفيفة . واكن في الصف الاول أنسة في السابعة والعشرين اسمها ماريّا مازارلو . فلما انتهت الحفلة الأقى دون بوسكو كلمة : " لقد تعبنا ويرغب صبياني في أن يناموا نوماً هنيئاً . غداً نتحدث حديثاً أطول " .

في الغد قدّم الأب بستارينو في ساعات الصباح " بنات البريئة من الدنس " فأثر في دون بوسكو لطفٌ هؤلاء الصبايا وشخاؤهن وكلمهن كلاماً وجيزاً فشجعهن على أن يبقين مثابرات على الحياة التي اخترنها وعلى عمل الخير . صارت ماريّا مازارلو أوّل رئيسة لرهبانية بنات مريم معونة المسيحين وهنّ الراهبات السالسيّات .

خلّفه فيليبّو رينالدي ، ومطران هو لويس لازانيا ، ومنشئة بنات مريم معونة المسيحيين :

هؤلاء كلهم حصيلةٌ حسنة لتلك النزهات في شهر تشرين الأول .

تكلّمتنا على هذه النزّهات في مونفرّاتو فخطونا بعض الخطّوات قبل أوانها في التاريخ ، فنعتذر ، ونعود إلى تسلسل الأخبار .

أول قدّاس أقامه الأب روا

في التاسع والعشرين من تموز (يوليو) ١٨٦٠ رُسم الأب روا كاهنا ، فأرسله قبل ذلك دون بوسكو ليستعد بالرياضة الروحية عند " كهنة الرسالة" (Pretres la Mission) . كتب ميشيل في آخر الرياضة رسالة بالفرنسية وهي اللغة التي كان يستعملها كهنة الرسالة فبعث بها الى دون بوسكو يطلب إليه " ذكراً" لأعظم أيام حياته شأنًا .

كان دون بوسكو في سانت اينيازيو (SanT' Ignazio) بالقرب من تورينو ، وكان هو أيضاً في رياضة روحية فأجابه باللاتينية : " كتبت إليّ بالفرنسية فأحسنتَ ، ابقَ فرنسيًا بالغة والكلام فحسب ، وأما نفسك وقلبك وعملك فكن فيها رومانيًا باسلاً شجاعاً " .

كتب الأب جيوفاني المعمدان فرننتشيسيا (Francesia) : " في ٢٩ تموز ذاك ، عاد دون بوسكو إلى سانت اينيازيو وكننتُ معه ، وكان دون بوسكو يتضايق من السفر في داخل العربة ، ويا

لدهشتنا لما رأينا ثلاثة أثواب كهنوتية سوداء تظهر عن بعد ، فعرفنا آخر الأمر دون روا والأبوين دوراندو (Durando) وأنفوسّي (Anfossi) . فرجا دون بوسكو من السائق أن يوقف العربة ، وسأل دون روا :

- إلى أين تذهب ؟
- إلى كازلي (Caselle) حيث المطران بالما (Balma) ، وهو الذي وُكل إليه أن يمنحني الرسامة الكهنوتية .
- ما أسعدني . صليتُ من أجلك ، أيها الأب روا العزيز ، وأرجو أن يستجيب لي الرب .

بلغ المطران بالما سلامي . نظرنا مسرورين على هؤلاء الرفاق الثلاثة الذاهبين سيراً على الأقدام مثل الفقراء إلى الرسامة الكهنوتية ؟

أقيمت حفلة العيد الكبرى إكراماً لأول قدّاس للأب روا في المصلّى ، يوم الاحد الذي بعده ، فزُين المذبح زينة بهيئة بالأزهار البيضاء أتى بها منظفو المداخل الصغار من مصلّى مار لويس . لما صعد الأب الى غرفته الصغيرة بعد يوم العيد وجد على طاولته رسالة من دون بوسكو

فقرأها : " ستري احسن مني المشروع السالسي يجتاز حدود إيطاليا ، ويترسخ في عدة أطراف العالم . ستعمل كثيراً ، وتتألم ولكن ، كما تعرف ، لا يبلغ المرء أرض الميعاد إلا بعد أن يجتاز البحر الاحمر والصحراء . تحمّل ذلك بشجاعة . وان عزاء الرب وعونه لن يُعوزاك حتى في هذا العالم " .

بعد أول قداس أقامه الاب روا شعر دون بوسكو في نفسه بسلام أكثر صفاء وبطمأنينة مؤثرة . لقد أصبح المصلى الآن بيناً واسعاً جداً . بلغ عدد الداخلين بعد قليل نحو خمسمائة . يتعلم ثلاثون من التلاميذ الصغار صناعة في ورشات تعمل بكل نشاط ، ويُضطرّ دون بوسكو إلى التغيب كثيراً ، فان إشباع هذا العدد الكبير من البطون ليس بالمسألة اليسيرة ، ولكنه يذهب ناعم البال إلى جولاته لجمع الاحسانات : أصبح الأب روا " بوسكو الثاني " للمصلى .

إن الثالث والعشرين من حزيران (يونيو) في تلك السنة ١٨٦٠ سبّب لدون بوسكو ألماً شديداً ، فقد تُوفي الأب كافاسو . اخبر بعد فوات الاوان بأن صديقه الكبير في حالة خطرة إلى أقصى حدّ ، فذهب لوقته يصحبه الشاب فرنسيس تشيروتي (Cerruti) ، فوصل إليه بعد أن لفظ روحه بقليل . إنه مدينٌ إلى الأب كافاسو كما لا يدين الا إلى عدد قليل من الناس ، فقد آمن الأب كافاسو به وبرسالته في حين أنه كان هو لا يزال يشك فيها . لقد ساعده الأب كافاسو وشجّع كل حين ، لقد كان أباه الروحي بالمعنى الحقيقي التام لهذه العبارة

اربعمائة رغيف في سلة فارغة

٢٢ تشرين الأول (اكتوبر) ١٨٦٠ . دخل المصلى فرنسيس دالماتسو (Dalmazzo) وهو في الخامسة عشرة ، وُلد في كافور وتلقى في بينيرولو (Pinerolo) دروس الصفوف الاولى . روى : " قرأت هناك أجزاء القراءات الكاثوليكية ، فسألت من هو دون بوسكو ، فلما علمتُ أن له بيتاً للأحداث في تورينو عزمت على الانضمام اليهم " .

قُبِل فرنسيس ليكون تلميذاً في السنة الاخيرة للمعهد . وبعد عشرين يوماً ذهبت عنه عزيمته : "تعودتُ العيش الرغيد في البيت فلم يمكنني تقبُّل الطعام الرديء حقا ، على المائدة المشتركة، وعادات المؤسسة، فكتبت إلى أمي لتأتي وتذهب بي لأنني عزمت العودة إلى البيت عزماً لارجعه فيه " .

١١ تشرين الثاني (نوفمبر) . جاءت الأم لتذهب به . " أردت مع ذلك قبّل الذهاب أن أعترف مرة أخرى لدى دون بوسكو ، فانتظرتُ دوري في أثناء القداس . وكان كلُّ صبي يُعطى عند الخروج من الكنيسة رغيفاً صغيراً من أجل طعام الصباح .

وبينما أنتظر دوري لأعترف جاء الصبيان اللذان يوزعان الخبز فقالا لدون بوسكو : " لم يبقَ خبز " .

فأجاب دون بوسكو :

- ماذا تريد أن أعمل ؟ إذهبا إلى ماغرا (Magra) ، خبّازنا فليُعطكما منه شيئاً .
 - قال ماغرا إنه لن يُعطينا شيئاً لأنه لم يُدفع ثمن الخبز .
 - سنفكر في الأمر . دعاني أسمع إلى الاعترافات .
- سمعت هذا الحوار الذي جرى بصوت خافت ، ثم جاء دوري فأخذتُ أعترف ، وكان الكاهن قد وصل في القداس إلى كلام التقديس ، فعاد الصبيان وقالوا :
- يا دون بوسكو ، حقاً لا شيء عندنا من اجل طعام الصباح .
 - دعاني أستمع على الاعترافات ثم ننظر في الأمر . إذهبا ففتشنا في غرفة المؤونة وفي غرف الطعام ، فلا بد من وجود شيء .

وبينما هما ذاهبان واصلتُ اعترافي وما فرغتُ منه حتى عاد واحد من الصبيّين مرة ثالثة فقال :

- جمعنا كل شيء وهذه هي الأربعة الصغيرة القليلة التي وجدناها .
- ضعها في السلة . سأتي انا بنفسي فأوزّعها . دعني أستمع إلى الاعترافات بسلام .

وواصل الاستماع إلى اعتراف الصبي الواقف امامه . وكانت سلة الخبز قد وضعت على غير بعد من الباب الذي يُفتح بعد مذبح السيدة ، فتذكرتُ الاحداث المعجزة التي كانت تُروى عن

دون بوسكو ، واستولى عليّ حُبّ الاطلاع فطلبت مكاناً مؤقتاً لأرى ما سيحدث . وكانت أمي تنتظرنني عند الباب فقالت لي : " تعال يا فرنسيس " . فأشرتُ لها بأن تصبر بضع دقائق أيضاً . فلما وصل دون بوسكو أخذتُ رغيماً صغيراً ونظرتُ إلى السلة ورأيت فيها خمسة عشر رغيماً أو عشرين ، فوقفْتُ من غير أن ينتبه اليّ أحد خلف دون بوسكو ، على الدرجة ، وعيناوي ترقبان ، فشرع دون بوسكو في التوزيع . كان الاحداث يمرّون امامه وهم سعداء بتلقي الخبز من يده فيقبّلونها ، وكان يقول لكل منهم كلمة أو يمنحه ابتسامة .

تلقي التلاميذ خبزهم وعددهم نحو أربعمائة . فلما انتهى التوزيع أردتُ أن أفحص السلة حقاً ويا لشدة دهشتي لما تحققتُ أن فيها من الخبز مثل ما كان قبل التوزيع . فبقيتُ مذهولاً فاسرعت تواء إلى أمي وقلت لها : " لن آتي ولا أريد الذهاب . أبقى هنا ، اعفي عني لأنني طلبتُ إليك أن تأتي تورينو " . ورويتُ لها ما رأيتُ بأَمّ عيني وأضفت : لا أريد أن اترك قديساً مثل دون بوسكو .

وهذا هو السبب الواحد الذي من أجله بقيتُ في المصلّى ، وانضمت بعدئذ إلى ابناء دون بوسكو" .

صار فرنسيس دالماتسو سالسيًا ، وظل ثمانية أعوام رئيس معهد فالساليتشه (Valsalice) وسبعة أعوام وكيلاً عاماً للرهبانية السالسيّة لدى الكرسيّ الرسوليّ .

الاحسان الى الفقراء دون سواهم

قبل رأس السنة الدراسية ١٨٦٠ - ١٨٦١ بقليل ، تحقّق دون بوسكو أنّ طلبات اكتتاب التلاميذ في المصلّى كثيرة جداً فخاف أن " يُعطى ثمرة الاحسان " أناساً لم يُجعل لهم ، ولذلك أعاد طبع نظام المدرسة الداخليّة ، وأضاف إليه بنداً صغيراً وهو أنّ التلاميذ سيدفعون في الشهرين الأولين أجره محددة ، ولن تخفض الاجرة أو تُلغى في بعض الأحيان الا إذا أثبتوا بحسن سلوكهم أنّهم أهل للإحسان الذي يحسن إليهم . قال الأب لموان وهو يروي هذا الخبر : " كان دون بوسكو ، لما فيه من المحبة ، يكثر من الاستثناءات " .

وهذه هي شروط القبول ، كما طُبعت ووُزعت في السنة الدراسية ١٨٦٠ - ١٨٦١ :

من أجل طلاب الصناعة :

- أن يكونوا أيتام الأب والأمّ .
- أن يكونوا قد أتمّوا الثانية عشرة من غير أن يتجاوزوا الثامنة عشرة .
- أن يكونوا فقراء متروكين .

من أجل التلاميذ :

- أن يكونوا قد أتمّوا الصفوف الابتدائية وأن يريدوا اتباع الحلقة الثانوية .
- أن يُشهد شهادة حسنة لذكائهم وحسن خلقهم .
- أن يُحفظوا شهرين على سبيل التجربة بأجرة شهرية قدرها ٢٤ ليرة ، ثم تُتخذ التدابير وفقاً لاستحقاقهم .

وفي التدابير العامّة التي بعدها ، يجدر التنبيه لهذا التدبير : " يتحمّل التلاميذ نفقة الثياب

كلّها إلا إذا استطاعوا أن يثبتوا عجزهم عنها لفقيرهم " .

" اللجنة السريّة " في السنة ١٨٦١

في السنة ١٨٦١ جرى حدث غريب يكاد أن يكون بغير مثل ، عظيم الشأن . اجتمع

الآباء الاسوناتيّ (Alasonatti) وروا (Rua) وفرنتشيسيا (Francesia) وعشرة سالسيين آخرين

فألفوا لجنة سرّية . كانوا مقتنعين كلهم أنّ ما يحدث حول دون بوسكو يتّصف أحياناً كثيرة بطابع خاص بل فائق الطبيعة حقاً . فضياع ذكر هذه الأحداث يعني فقدان كنز ، فيجب على كلّ منهم " أن يحفظ ذكرها" ، فيدوّن ما يعلّق بذهنه ، وعندما تُعقدُ اللجنة اجتماعاتها المنتظمة ، يقرأ على الحضور كلهم ما جرى تدوينه ويُصوّب وفقاً لشهادة كلّ منهم ، لكيلا يتدوّن سوى أمور صحيحة .

كتب الأب لموان وهو يروي ذلك في المجلد السادس لذكريات السيرة : " يمكننا إذاً أن نكون على يقين من حقيقة ما بلغه إلينا هؤلاء الشهود . وقد حلّ محلّهم آخرون على مرّ السنين ، ليواصلوا العمل بمحبة مماثلة لدون بوسكو وللحقيقة " .

إننا نشكر لهؤلاء السالسيين الأولين شكراً عظيماً ، فقد كان العمل فوق طاقتهم يتقلّ كاهلهم ، ومع انتزعا ساعات من نومهم في سبيل هذا العمل الذي لا بديل له ، الثمين جداً ، ولولاه لضاعت أخبار كثيرة جداً أو تطايرت في ضباب الاسطورة . وهذا لا يحول دون أن نعلّق بعض التعليقات على العمل الذي قاموا به ، وننبّه الذين كتبوا سيرة دون بوسكو معتمدين شهادتهم ، وليست غايتنا أن نلومهم (فذلك غباوة) بل أن نساعد على حسن تفهّم تاريخ دون بوسكو .

أولاً . كان دون بوسكو يستقيض في الكلام من غير تكلف ، وكان ذلك من حقّه ، فالذي يكلم الصبيان وتلاميذه الأحداث قلّ أن يفكر تفكير " من يُملي لكتابة التاريخ " .

جرى مثل ذلك لنابليون في روايته للاحداث في جزيرة القديسة هيلانة وللوثر (Luther) في كلامه وهو على المائدة ولخيرهما كثيرين . فما رواه نابليون يفيض شعورا وذكريات ولكن الويل للذين ينظرون إليها نظرهم إلى شهادة دقيقة مفصّلة للتاريخ ، بل يجب عرضها على الوثائق وخرائط المعارك والرسائل والمعاهدات . وأما دون بوسكو فقد اتفق ان بعض احاديثه " لم تكن ذا شأن كبير " فحُمِلت على محمل الجد حملاً دقيقاً مطلقاً في أصغر تفصيلاتها .

ثانياً . إن الذين جهدوا في جميع ذكريات دون بوسكو وأقواله دونوا أعماله كلّها ، غير انهم ، لكثرة انشغالهم في المصلّى ولقلة معرفتهم للمدينة ، لم يدوّنوا على وجه التقريب مما كان يجري في المدينة وجوارها ، ولذلك فكلّ ما يقولونه في دون بوسكو صحيح على الاطلاق ، ولكن يظهر من روايتهم للاحداث ان دون بوسكو كان يقوم وحده بهذه الاعمال ، في حين أنه كان في تورينو عدد لا يعرفه الا الله من الذين يحاولون مثل ذلك التجربات الرسولية ، ويؤيدون المطالب

الاجتماعية نفسها . لقد كان عظيماً جداً ، ولكن كان بجانبه وامامه ووراءه غيره كثير يبذل جهده في خطة تشبه خطته .

إن إنشاء كنيسة السيدة العذراء معونة المسيحيين التي سنتكلم عليه في الفصل الذي بعده ، يبدو معجزة فريدة في نوعها : نفقة كبيرة جداً وهبات عظيمة وسرعة البناء ، والجموع الضخمة لدى التدشين ، ولكن عندما يفحص المرء في تاريخ تورينو يجد أربع كنائس أخرى أنشئت بمثل تلك السرعة وبنفقة ذات شأن في الاعوام ١٨٦٣ و١٨٦٥ و ١٨٦٨ وقبل ذلك التاريخ في العام ١٨٥٣ .

إن بناء كنيسة السيدة العذراء مريم معونة المسيحيين معجزة من الشجاعة والايمان والمحبة ، ولكنها ليست وحدها .

ويمكن قول مثل ذلك في الدروس الليلية وورشات العمل وإرسال المرسلين : إنها أمور مدهشة ولكنها تعود إلى جملة من أعمال كاثوليكية أكثر مدعاة للدهشة فلا يبدو دون بوسكو حدثاً فريداً في نوعه بل قديساً في بيئة كاثوليكية ملتزمة ، يُسخر ايمانه لإحداث معجزات حقيقية ، وبجانبه كهنة آخرون لم يكونوا كلهم مثله قديسين ولكنهم عملوا بمثل ايمانه وشجاعته .

ثالثاً ؟ مَنْ الله على دون بوسكو بنعم عجيبة ، فلم أحلاماً كشفت له عن المستقبل ، وبشّرته بأحداث تحققت على نحو مُفصّل . ولكنه كان أيضاً انساناً مسكيناً يحاول مرات كثيرة بتواضع ، كما يفعل كل منا ، أن يرى ما هو أبعد من أنفه . وكان يحدث له أيضاً أن يُدلي بآراء

ويؤمل آمالاً ويفتّر تقديرات بدت صواباً في بعض الأحيان ، وخطأ في غيرها . فتدوين " كل " ما توقع حدوثه وآماله والادعاء بأنّ ذلك سيتحقّق كله ، يؤدّيان إلى تشويه شخصية دون بوسكو . إنّه يُجرّدّه من حقه لأن حقه لأن يكون إنساناً يتعرض مثل الناس لمساوى الوجود . ذلك العيب كان عيباً " الروح " الذي ساد جمع أحداث حياة دون بوسكو وأقواله . لو دون هؤلاء الشهود لا ما اصاب من نجاح باهر فحسب ، بل ما تردّد فيه وقلقة وأخطاءه ، لزاد شكرنا لهم ، ولا سيما في هذه الأيام ، من غير أن ينفي ذلك أنّ دون بوسكو كان مثلاً جبّاراً يتحلّى بأحسن الخصال " الانسانية " .

ولا يُعدّ ذلك كله لوماً ينزل بهؤلاء السالسيين الأولين ، وعلمهم يحتفظ بقيمته التي لا تتمنّى على ما فيه من عيوب ظاهرة .

الكنيسة الكبيرة كما رآها في الحلم

في تشرين الاول (اكتوبر) ١٨٤٤ حَلَمَ دون بوسكو حُلَمين تكلمنا عليهما في الفصل ١٨ ولكن يجب علينا أن نعود الآن اليهما ونتبسَّط في نقل ما ورد في المراجع . وأول ما نستشهد به نأخذه من ذكريات المصلّي كما رواها بنفسه ، وأما الثاني فنأخذه من القصة التي كتبها الأب بربيرس (Barberis) والأب لموان (Lemoyne) .

" دعنتي الراحية الى أن أنظر نحو الجنوب ، فنظرتُ فرأيتُ حقلا زرع فيه الدرة الصفراء

والبطاطا والقنبيط والسمندر والخسّ وغير ذلك كثير من البقول . فقالت لي : أنظر مرّةً أخرى ، فنظرت أيضاً فرأيتُ كنيسة رائعة كبيرة فدعتني فرقة الموسيقى والأصوات الى ترتيل القدّاس . وكان في داخل تلك الكنيسة شريط أبيض كتب عليه : " هنا بيتي ومنه ينطلق مجدي " (ذكريات المصلّى ، ص ١٣٦٤) .

الحلم بثلاث كنائس

" ظننت نفسي في سهل كبير يملأه جمع من الأحداث غفير . كان اناس منهم يتشاجرون ، وآخرون يكفرون وكان غمام من الحجارة يجتاز الجوّ يقذفه المتشاجرون . أزمعتُ أن أبتعد إذ رأيتُ بالقرب مني سيّدةً قالت لي :

- اذهب فادخل بين هؤلاء الأحداث وقم بعمل ما .

فتقدّمتُ ولكن ما العمل ؟ فلم يكن من موضع أووي اليه كائناً من كان . فالتفتُ إلى

السيّدة فقالت لي :

- هذا هو الموضع ! - وأرّنتني مرّجاً .

- ولكن ليس هناك سوى مرّج . - فأجابت :

- لم يكن لا بني وللرّسل قطعة من الأرض عرضها عرض اليد ، يضعون عليها رأسهم . أخذتُ أعمل في هذا المرّج ، فأرشد وأعظ وأستمع الى الاعترافات ، ولكن كلّ جهد أبدله

يذهب أدراج الرّياح اذا لم أجد أرضاً حولها سياج ، وفيها بناء ، فأجمع فيها الأحداث . فقالت لي
السيّدة :

- حدّد النظر .

فرأيتُ كنيسة صغيرة منخفضة وساحة صغيرة ، وعدداً من الاحداث كثيراً ، فعدتُ إلى

العمل ولكن الكنيسة ضاقت بي وبالأحداث ، فخاطبتُ السيّدة مرّةً أخرى ، فأرّنتني كنيسة أخرى أكبر كثيراً ، وبيتاً على غير بعد منها . ثمّ سارت بي إلى مكان غير بعيد من هناك ، الى مساحة من الأرض المزروعة تكاد أن تكون تجاه الكنيسة الثانية ، ثم أضافت :

- في هذا المكان الذي فيه استشهد الشهيدان من تورينو أفنتوري (Avventore) واوتافيو

(Ottavio) ، على هذه الكتل من الطين التي سقاها وقدّسها دمهما أريدُ أن يُكرّمَ الله تكريماً عظيماً .

وبينما هي تقول هذا الكلام ، قدّمتُ رجلها ووضعتها على المكان الذي جرى فيه

الاستشهاد . دلّنتي عليه بدقة ^(١) ، فأردتُ أن اضع فيه علامة لكي أجده عندما أعود إليه ، فلم

ألقَ شيئاً حولي ، غير أني تذكّرتَه بديقة .

في أثناء ذلك رأيتُ حولي عدداً كبيراً من الأحداث ظلّ يزداد دائماً . وبينما أنظر إلى السيدة كانت الوسائل والاماكن التي تتيسر لي تزداد أيضاً . ثم رأيت كنيسة واسعة جداً في ذلك المكان عينه ، الذي أشارت الي بآته جرى فيه استشهاد قديسيّ الكتيبة الثبيبة ، وحولها كثير من الأبنية ، وفي وسطها نصب جميل " (ذكريات السيرة ، ج ٢ ، ص ٢٩٨) .

تذكّر دون بوسكو دائماً أبداً " الحقل المزروع بالذرة الصفراء والبطاطا والقنبيط والسمندر والخسّ وبُقول أخرى " ، وكان قد عرفه بعد الجدار المُحدق بالمصلّى وكان قد سمّاه " حقل الاحلام " . وما إن أمكنه الامر في ٢٠ حزيران (يونيو) ١٨٥٠ حتى اشتراه ولكّنه في السنة ١٨٥٤ وهي سنة الكوليرا ، وفيها آوى عشرين يتيماً ، اضطرّ الى بيعه ، ليؤدّي ديوناً مستعجلة . بيد أنّه صار ملكه مرّةً أخرى في ١١ شباط (فبراير) ١٨٦٣ . ولكن وقع في الأشهر الاخيرة هذه حدث جديد .

" ستكون الكنيسة الأمّ لرهبانيتنا "

ذات مساء من كانون الأول (ديسمبر) السنة ١٨٦٢ سمع باولينو البيرا (Paolino Albera)

(١) انّ هذا المكان الذي أشار اليه دون بوكسو إشارة دقيقة هو في المعبد للذخائر القائم اليوم في كنيسة السيّدة مريم معونة المسيحيين ، وعلامته في البلاط صليب ذهب .

(وهو صبيّ في السابعة عشرة قبل في تلك السنة في الرهبانية السالسيّة) دون بوسكو يُسرُّ إليه بقول ، فقد استمع دون بوسكو إلى الاعترافات حتى الحادية عشرة ليلاً ، وفي تلك الساعة المتأخرة فقط ، أمكنه النزول يصحبه باولينو ليتناول شيئاً من الطعام . كان في همّ شديد فأخذ يروي فجأة : " قد استمعتُ إلى اعترافات كثيرة ، ولكنّي ، والحق يقال ، لا أعرف معرفة حسنة ما أعمل او أقول ، لكثرة ما ساورتني فكرة ، فكانت تجعلني أسهو وتستحوذ علي . فكّرتُ : إن كنيسةنا صغيرة تضيق عن الاتساع لجميع الصبيان ، ولذلك نبني غيرها أجمل وأوسع تكون رائعة . سنسمّيها كنيسة السيدة معونة المسيحيين . ليس لدي فلس ، ولا أدري من أين آخذ المال ولكن الأمر ليس ذا بال : إذا شاء الله ، فسوف نبنيها " .

وبعد قليل كلّم على هذا المشروع يوحنا كالبيرو فشهد : " في العام ١٨٦٢ قال لي دون

بوسكو إنّه يُفكّر في بناء كنيسة عظيمة تليق بالسيدة مريم العذراء القديسة قال :

- احتفلنا بأبّهة الى اليوم بعيد مريم البريئة من الدنس ، ولكن السيدة تريد أن نُكرّمها

بلقبها مريم معونة المسيحيين ، إن عصرنا تاعس جداً حتى إنّنا نحتاج الى أن تساعدنا السيدة العذراء القديسة على حفظ الايمان والدفاع عنه . أو تُعرف أيضاً لماذا ؟
أجبتُ : أرى أنّ تلك الكنيسة ستكون الكنيسة الأمّ لرهبانيتنا المستقبلية ، والمركز الذي منه تنطلق مشروعاتنا في سبيل الشبيبة .

قال لي : لقد حزرت . إن مريم معونة المسيحيين هي منشئة مشروعاتنا وستكون سنّها " (ذكريات السيرة ، ج ٧ ، ص ٣٣٤) .

كنيسة أكبر تتسع لجميع الاحداث ، الكنيسة الأمّ للرهبانية ، هذان هما السببان اللذان من أجلهما عزم على بناء كنيسة مريم معونة المسيحيين ، ولكنه أشار إلى سبب ثالث : إن عصرنا تاعس جداً . . . نرى من الضروريّ تفسير هذه الكلمات لكيلا تُصنّف في " عبارات التذمّر المبهمة " التي تنشأ في كل حقبة على شفاه الذين يحترقون الأسف على الماضي .

أحداث سبوليتو ومعونة المسيحيين

كتب جياكومو مارتينا : (Giacomo Martina) : " إن تاريخ الكنيسة في نصف القرن التاسع عشر تميّز بصراع عنيف بين القديم والحديث ، بين مقوّمات مجتمع هو ، من الجهة الرسمية ، مجتمع مسيحيّ ، والتأكيد الذي ازداد وضوحاً بعلمنة الحياة الاجتماعية " .
وكان من أشدّ اوقات هذا " الصراع العنيف " ، الوقت الذي فيه قامت مسألة رومة والدولة الباباوية . كان الكاثوليك يرون أنّه لا غنى عن الدولة الباباوية ، أو دولات الكنيسة ، لكي يبقى

البابا مستقلاً ، في حين كان غيرهم يرون أنه يجب على المملكة الايطالية أن تستولي عليها . ففي ١٢ شباط (فبراير) ١٨٦٠ دعا مطارنة اومبريا (Umbria) المؤمنين الى الصلاة لله بشفاعه قلب مريم الطاهر أمّ الله ، معونة المسيحيين .

في سبوليتو (Spoleto) ، وهي مدينة صغيرة من اومبريا ، شاع بين الشعب أنه حدثت معجزة كبيرة ، ففي اذار (مارس) ١٨٦٢ كلّمت السيدة مريم طفلاً في الخامسة ، وشفّت فلاحاً شاباً بواسطة صورة تقوية محفوظة في كنيسة متهدّمة ، فأخذ الحجاج يتدفّقون على هذه الكنيسة . فأرسل مطران سبوليتو أرنالدي (Arnaldi) مقالاً في هذه الاحداث يفيض حماسة ، إلى الجريدة الكاثوليكية الارمونيا (Armonia) التي تظهر في تورينو فتكلم على كثرة الحجاج من مختلف المدن .

ونادى المطران نفسه في ايلول (سبتمبر) ١٨٦٢ بفكرة بناء معبد كبير ، في مكان

المعجزات ، وأطلق على صورة السيدة التي كانت تُسمّى الى ذلك الحين " سيدة النجمة" الاسم الرسمي معونة المسيحيين .

قرأ دون بوسكو " بسرور عظيم" على أحداثه مقالَ المطران أرناledi ، وفي ذلك الوقت حلّم الحلم المُهمّ وموضوعه " العمودان" ، فرواه في ٣٠ أيار (مايو) للأحداث : إن سفينة الكنيسة يقودها البابا فتمخر بأمان الموج العاتي وتسلم من القذائف التي تطلق عليها من السفن العدوّة وهي كثيرة جدّاً . ووجدت السفينة آخر الأمر ملجأً بالقرب من عمودين ، فألقى البابا المرساة بينهما وكان على أحدهما القربانُ المقدس وعلى الآخر تمثال العذراء البريئة من الدنس ، وكُتِب على التمثال " معونة المسيحيين" .

كان هذا اللقاء بين الحقبة التاسعة جدّاً والآمال العظيمة ، السببَ الثالث الذي دفع دون بوسكو إلى الشروع في بناء كنيسة معونة المسيحيين .

لقب يدعو الى التكشير

عهد دون بوسكو إلى المهندس انطونيو سبيزيا (Spezia) وضع المخططات ، فأعدّ مشروعاً على شكل صليب لاتيني مساحته ١٢٠٠ متر مربع ، وكانت الكنيسة تبلغ ٤٨ متراً في أقصى طولها .

فأخذ دون بوسكو ملفّ المخططات تحت ذراعه ، ومثّل لدى البلدية لينال الموافقة عليها ، فلم يعترضوا أيّ اعتراض كان على الرسوم ولكنهم وعدوا وعداً اقتصر على الكلام بأن تحظى هذه الكنيسة بمعونة خارقة العادة قدرها ٣٠ الف ليرة ، تمنحها البلدية كلّ كنيسة للرعية .

ولكن ما جعل أهل البلدية يكشّرون هو اللقب ، كنيسة مريم معونة المسيحيين ، فإنّ أحداث سبوليتو ورسالة مطارنة أومبريا ، والمجادلات مع جريدة الأرمونيا دعت سلطات البلدية إلى حذر . كان يُسَمُّ من ذلك الاسم رائحة المعارضة .

- ألا يُمكن تبديل هذا اللقب الغريب ؟ سَمَّها كنيسة الوردية أو السلام أو الكرمل . . .

للسيدة مريم ألقاب كثيرة جدّاً !

فأخذ دون بوسكو يضحك وقال :

- وافقوا على مشروعى ، واما الاسم فلا بدّ لنا من أن نتفق عليه ذات يوم .

فلم يتفقوا عليه قطّ وتركه كما هو .

ثمانية فلوس للشروع في البناء

حصل دون بوسكو على رخصة البناء وعهد بالتنفيذ إلى المتعهد كارلو بوتسييتي (Buzzetti)

أخي يوسف . كان دون بوسكو قد صادفه في كنيسة مار فرنسيس الأسيزي ، وقد صار مديراً
لاعمال البناء يحظى بالتقدير .

ثم دعا وكيلَ المال الأب سافيو أن يعمل للشروع في تمهيد الارض فقال : " ولكن يا
دون بوسكو ، كيف العمل ؟ فليس المسألة مسألة معبد ، بل كنيسة تكلف غالبا جداً . في هذا
الصباح لم يكن لدينا من المال في البيت ثمن طوابع الرسائل المعدّة للبريد " .
أجابه دون بوسكو : " باشر أعمال تمهيد الأرض . متى بدأنا عملاً ولدينا سالفاً المأل
اللازم ؟ يجب أن نترك للعناية الالهية شيئاً تقوم به " .

أنفذ قسم من الأعمال في خريف ١٨٦٣ ، ثم عاودا اليها في آذار (مارس) ١٨٦٤ وفي آخر
نيسان (ابريل) دعا المتعهد دون بوسكو فنزل يصحبه كهنة وتلاميذه على كثرتهم ، الى مكان
الحفر ، ليضع فيه الحجر الاول ثم التفت بعد الحفلة الى كارلو بوتسيي فقال له :
- أريد ان أعطيك في الحل عربوناً من أجل الأعمال الكبيرة .
ثم أخرج محفظته ودفع في يدي المتعهد ثمانية فلوس وهي لا تساوي ولا نصف ليرة . فلما
رأى بوتسيي مرتبكا كلَّ الارتباك أضاف لوقته :
- كن ناعم البال . إنّ السيدة العذراء مريم ستفكر في جلب المال اللازم .
أجل ، ان السيدة مريم العذراء ستفكر في ذلك ، ولكنها ستستعمل لجلبه جميع أتعاب دون
بوسكو وعرقه .

من يدرس شخص هذين الوديسين الكبيرين المعاصرين أحدهما للآخر في تورينو ، وهما

كوتولنغو ودون بوسكو ، يدهش للفرق بينهما . لقد ساعدتهما العناية الالهية كلَّ يوم ، فعاشا من
العناية الربانية . ولكن كوتولنغو كان يقول : " إنّ العناية الالهية قد أعدت المال الذي نحتاج
اليه ، فلننتظر مجيئه الينا " . وأمّا دون بوسكو فكان يقول : " ان العناية الالهية قد أعدت المال
الذي نحتاج اليه ، فلنذهب في طلبه " .

قال الأب باولو الأبيرا (Albera) ، الخلف الثاني لدون بوسكو ، وقد عاش بجانبه في ذلك
الوقت : " إن الذي شهد ذلك ، يستطيع وحده أن يتصور تصوّراً صحيحاً العمل والنضحيات
التي بذلها أبونا في هذه السنوات ، ليتمّ كنيسة السيدة العذراء معونة المسيحيين . وقد عدّها كثير من
الناس مشروعاً لا فطنة فيه يفوق قوى الكاهن البسيط الذي أخذه على عاتقه " .

شحذ دون بوسكو مخيلته ، ليضطرّ الناس الى السخاء فأعرق تورينو والبيمونته بالرسائل
والنشرات ، ودعا الى الاكتتاب بالتبرّع ، والتمس عون " كبار " هذا العالم في تورينو وفيرنزي
ورومة ، ونظّم يانصيباً مهيباً يدعو الى الاعجاب . وفي ايار (مايو) ١٨٦٦ كتب دون بوسكو الى

الفارس أوريليا (Oreglia) : " انّ البنّائين الاربعين الذين كان يُتوقع أن يعملوا في الكنيسة ، قد خُفض عددهم الى ثمانية لانعدام الوسائل . انه زمن كارثة لنا " .

السيدة العذراء مريم تجمع المال من أجل دون بوسكو

وإذا استطاع " دون بوسكو المسكين " أن يذلل جميع الصعوبات ، فقد كان مدينا بذلك إلى عون السيدة معونة المسيحيين " التي اخذت تحصل على أحسن الصدقات قدراً " ، فإنّ ذكر النعم الصغيرة والكبيرة التي تمنحها السيدة العذراء مريم الذين يساعدون على بناء الكنيسة شاع بسرعة في تورينو وفي نواح من ايطاليا .

ولربّما كانت أكثر النعم صدَى النعمة التي نالها الصّير فيّ عضو مجلس الشيوخ ، يوسف كوتا (Cotta) وكان من قبلُ محسناً الى دون بوسكو ، ويعرفه كثير من الناس في البيئات السياسية والمالية في تورينو .

كان ذلك الشيخ في الثالثة والثمانين ، وكان مريضاً يلزم الفراش ، ولم يترك له الأطباء أيّ أمل كان في الشفاء ، فذهب دون بوسكو ، فاستطاع المريض أن يقول بصوت خافت : " بعد بضع دقائق يجب عليّ الذهاب إلى الأبدية " .

فأجابه دون بوسكو بلهجة الفرحة : " كلا أيّها الشيخ ، إن السيدة مريم العذراء لا تزال تحتاج اليك في هذا العالم . يجب عليك أن تساعدني على بناء الكنيسة " .

فَنَهَّد الرجل الطاعن في السن : " لم يبقَ من أمل . . . " .

فانضمّ إيمان دون بوسكو إلى رباطة جأشه وهدوئه وقال كمن يمزح : " وماذا تعمل إذا حصلت مريم العذراء معونة المسيحيين على نعمة شفائك ؟ " .

ابتسم الشيخ وجمع قواه وصوّب أصبعين نحو دون بوسكو وقال : " ألفا ليرة . إذا شفيتُ دفعتُ ألفي ليرة طوال سنة أشهر ، من أجل كنيسة فالدوگو " .

وبعد ثلاثة أيام جاء الشيخ ، وقد شفي فقال لدون بوسكو : " هاءنذا . إنّ السيدة مريم العذراء قد شفّنتني ، فجئتُ لأدفع أوّل قسط من ديني " .

سنروي نعمتين فقط ، في حين أن دون بوسكو كتب في ١١ شباط (فبراير) ١٨٦٨ إلى الفارس أوريليا : " ان السيدة مريم العذراء معونة المسيحيين تجري من اجل الكنيسة كل يوم أشياء باهرة ، كل واحد منها أعظم من الآخر ... إن ذلك قد يملأ كُتُباً برمتها " . ولما أُجري التحقيق لإعلان دون بوسكو طوباويًا ، شهد المطران برتانيا (Bertagna) بعد ما أدّى اليمين : " استشارني دون بوسكو في أثناء رياضة روحية ، هل يُواصل بركته للمرضى بصورة السيدة

الغذراء مريم معونة المسيحيين وبصورة المخلص ، لأنّ الناس كانوا يلهجون كثيراً ، كما قال ،
بمعجزات شفاء كثيرة كانت تتواصل وتشبه الخوارق . أذلك خير أم شر؟ بدا لي أن أنصح لدون
بوسكو مواصلة بركاته " .

أمّ ورضيع وحليّ بخسة الثمن

ذهب دون بوسكو ذات يوم إلى المدينة ، وبينما هو عائد إلى المصلّى رأى بالقرب من المدخل
أمّاً مسكينة تحمل على ذراعها طفلاً يناهز عمره السنة ، مهزولاً تُغطيه جروح عليها قشور ، وهو
عديم الحركة وأخرس أشبه بالميت . فوقف وسأل الأمّ .

- منذ كم مَرَضَ ؟
- لقد كان على هذه الحال منذ مولده .
- هل عرضته على الأطباء ؟
- نعم ، ولكنهم يقولون إنه لا سبيل الى أيّ شيء يمكن عمله .
- أيسرُك أن يُشفى ؟
- يسرنّي كثيراً – وأخذت تقبّله .
- أوتؤمنين ان الغذراء تستطيع أن تشفيه ؟
- نعم ، ولكنني لا أستحقّ مثل هذه النعمة . إذا شَفَّته الغذراء أعطيتها أثمن ما عندي .
- دبّري أمرك اذاً عندما يتيسر لك ، فاذهبي واعترفي وتناولي القربان المقدّس ، واتلي تسعة

أيام صلاتي أبانا الذي في السماوات ، والسلام عليك يا مريم ، واطلبي الى زوجك أن يتلوهما
معك . إن السيدة الغذراء ستستجيب لكما .

ثم بارك الطفل بركة السيدة الغذراء معونة المسيحيين .

يوم الأحد بعد خمسة عشر يوماً ، كان في موهف المعبد بين الذين يطلبون التحدث إلى دون
بوسكو امرأة تحمل طفلاً عيناه مشرقتان ، كلهما حياة ، فلما وصلت إلى دون بوسكو صاحت
متهللة :

- هذا هو ابني الصغير .

- ماذا تريدني مني يا سيدتي ؟

لم يذكر دون بوسكو البركة التي منحها ، فذكّرت به السيدة ، ورَوّت أنّ الطفل شُفي في
اليوم الثالث أو الرابع من التساعية وأضافت : " والآن جنّت لأفي بوعدني " ، وبينما تقول ذلك ،
أخرجت علبة فيها حليّ بخسة الثمن : طوق صغير من الذهب ، وخاتم ، وقرطان للأذنين .
فاضطرب دون بوسكو ، ولا شكّ في إنه فكّر في حليّ أمه ، وهي تكاد تشبهها ن ولكن المرأة
واصلت كلامها :

- وعدتُ السيدة العذراء أن اعطيها أثمن ما عندي ، وأرجو منك أن تتقبله .

فهزّ دون بوسكو رأسه :

- يا سيدتي الكريمة أعندك ما يكفيك مؤونة معيشتك ؟

- كلا ، اننا نعيش يوماً بيوم على أجرة زوجي الذي يعمل في معمل السبّك .

- هل وقفتما الى ادّخار شيء ؟

- كيف تريد ادّخار ، والأجرة ثلاث ليرات في اليوم ؟

- وهل يعلم زوجك أنّك تريدان أن تعطي السيدة العذراء هذه الاشياء ؟

- نعم ، إنّهُ يعلم وهو مسرور .

- ولكن إذا تجرّدتما من كلّ شيء ، فماذا تعملان عند وقوع حادث أو مرض ؟

- إنّ الرب يرى أنّنا فقيران وهو يدبّر الأمر . يجب عليّ أن أفي بما وعدت .

فتأثر دون بوسكو تأثراً شديداً فقال :

- أصغي ، نعمل هذا : إنّ السيدة مريم العذراء لا تطالبك بمثل هذه التضحية الكبيرة .

فإذا شئت أن تُقدّمي لها علامة لشكرك ، فانك تُعطيني الخاتم وحده ، وأما الطوق والقرطان

فتعودين بها الى البيت .

- هذا ما لا أرضاه ، كلا ، وعدتُ بكلّ شيء ، ويَجِب عليّ أن أعطي كلّ شيء .

- اعلمي كما أقول لك . إنّ السيدة تُسرّ هكذا .

- أهذا صحيح ؟ فاني لا أريد أن أخلف وعدي .

- لن تُخلفي وعدك . إني أضمن لك ذلك من قبلها .

بدأت السيدة مُتردّدة ، ثم ختمت كلامها فقالت :

- اذاً ، أعمل ما تقول ولكن اذا اردتَ ذهبي كلّهُ ، فلك أن تأخذه .

فكرّر دون بوسكو قوله لها لا تُهتّم ، وداعبَ الطفل (ذكريات السيرة ، ج ١٠ ، ص

٩٤ - ٩٥) .

عامل من ألبا

وصل رجل مسكين من ألبا سيراً على قدميه ، بعد ما سافر نهراً وليلاً ، فاعترف وتناول

القربان المقدّس ، ثم مثّل بين يدي دون بوسكو ، لكي يفي بوعد ، فروى له أنّه مرض ، فقال له

الاطباء أن حياته قد انتهت ، فوعد بأن يحمله الى السيدة العذراء مريم كلّ ما لديه من المال إذا

شفي ، وقد شفي بعتة . فنظر دون بوسكو الى ذلك الرجل اللابس ثياب البؤساء ، وقد أخرج من

جيبه ورقة وفتحها بحذر : ها هوذا المال في وسط الورقة : ليرة ، فقَدّمها الى دون بوسكو وقال

بلهجة الجَدِّ :

- هذا كل ما أملك . هذه ثروتِي كُلِّهَا .
- ما عمَلِك ؟
- عامل في الزراعة . أعمل يوماً بعد يوم .
- كيف تعود إلى البيت ؟
- أعود كما جئت : سيراً على قدميَّ .
- أَلستَ تَعَباً ؟
- قليلاً لأن السفر طويل .
- ألا تزال على الرِّيق ؟
- أجل ، لأنني أريد تناول القربان المقدس ، ومع ذلك أَكَلْتُ ، قبل نصف الليل ، كسرة من الخبز كانت في جيبِي .
- والآن ما عندك من أجل طعامك ؟
- لا شيء .
- إذاً هذا ما نعمل : اليوم تبقى عندي فأعطيك طعام الغداء والعشاء ، وغداً ، إذا وافقك

ذلك ، تعود إلى البيت .

- ما أحلى ذلك !أتِيكَ بليرة وتُطعمني بما يكلف ليرتين او ثلاث ليرات !
- أصغ : قدّمتَ الى السيِّدة مريم . ودون بوسكو الين يقدّم لك تقدمته وهي قليل من الحساء وكأس خمر .
- اقول لك : لا ، أعلم أن لدون بوسكو وللسيِّدة صندوقاً واحداً . هاءنذا أعود سيراً على قدميَّ . إذا جعتُ طلبتُ الصدقة . إذا تعبتُ قعدتُ تحت شجرة . وإذا نَعَسْتُ فسيَدعني النَّاسُ اضَّجع على التَّبن . أريد أن أتمَّ وعدي كما يجب . أحبيك . صلّ من أجلي .
- لم يُقل غير ذلك ومضى (ذكريات السيرة ، ج ١٠ ، ص ٩٧ - ٩٨) .

الأب روا : من ميرابلو الى تدشين الكنيسة

في ميرابلو ، في ابرشية (Casale) مونفراتو ، رغب خوري الرعية في الحصول على مدرسة في رعيته ، فدعا دون بوسكو فقبل هذا بعد ما تكذ أنه " سيكون السيّد في بيته" ، واشترط أن المعهد سيُفضّل قبول طالبي الكهنوت .
كان عند ذلك غارقاً حتى عنقه في بناء كنيسة السيدة معونة المسيحيين . وقد ابتدأ العمل قبل قليل ولكنه اتخذ كل التدبيرات اللازمة لنجاح مبادرة ميرابلو ، فوافق السيد كالاينا

(Calabiana) مطران كازالي موافقة تاما ، ولم يكن لديه سوى عدد قليل جداً من طلاب الكهنوت ، وأطلق على الدار اسم " الاكليريكية الصغيرة " .
في خريف ١٨٦٣ دعا دون بوسكو الاب وقال له :
- هناك تضحية كبيرة أطلبها منك . عرض علينا فتح " اكليريكية صغيرة " في ميرابلو في مونفراتو . أنوي إرسالك لكي تديرها . هذا أول بيت يفتحه السالسيون في خارج تورينو . إن آلافاً من العيون سوف تحدقّ الينا لترى كيف " ندبر أمرنا " . إنني أثق ثقة تامة بك فسأعطيك كل ما يلزمك من معاونين لكي يبدأ هذا البيت بداءة حسنة .
كان روا في السادسة والعشرين . درس معه دون بوسكو جدول السالسيين الذين سيرافقونه ، فاختر الشمامسة بروفيرا (Provera) وبونيّي (Bonetti) وتشيروتي (Cerruti) وألبيرا (Albera) ودالماتسو (Dalmazzo) وكوفيا (Cuffia) . ودرسا أيضاً خطة تنتج بسرعة نتائج حسنة : يُنقل أناسٌ من أحداث مصلى تورينو الى معهد ميرابلو ليكونوا خميرة صالحة بين الصبيان التسعين الذين قبلوا للسنة الأولى .

أربع صفحات قيمتها قيمة وصية

ذهب الأب روا ميرابلو بعد عيد الوردية ، في أول تشرين الأول (اكتوبر) فحمل معه أربع صفحات من النصائح الثمينة ، كتبها له دون بوسكو .

قال بيترو ستيللا (Pietro Stella) في هذه الصفحات الأربع الصغيرة : " لها قيمة دستور ووصية ، فقد رسم فيها خطة تحوي أهمّ ما يساور فكره ليكون أباً ومُربياً ، وكاهناً يهدف الى خلاص النفوس " .

وشعر دون بوسكو أيضاً أنّه أفصح في أن يخطّ في هذه الاسطر موجزاً من أحسن موجزات " طريقه للتربية " حتى إنّه نسخ بعد حين هذه الصفحات (مع بعض التبديلات والاضافات) ليطلّع عليها جميع الرؤساء السالسيين ، وجعل عنوانها ذكريات سرّية من أجل الرؤساء .

فلنحاول ان نُجملها بايجاز .

" إنني أكلّمك بصوت أب ودود يفتح قلبه لولد من أعزّ أولاده .

أنت وفسك

- لا تدع مجالاً للقلق .
- تَجَبَّبِ التَّقَشُّفَ فِي الطَّعَامِ . لَا تَسْتَرِحْ كُلَّ لَيْلَةٍ أَقَلَّ مِنْ سِتِّ سَاعَاتٍ .
- أَوِّمِ الْقِدَاسَ وَأَتْلُ الْفَرَضَ بِتَقْوَى وَتَعَبُّدٍ وَانْتِبَاهٍ .
- تَأَمَّلْ كُلَّ صَبَاحٍ بَعْضَ الْوَقْتِ ، وَزُرْ الْقُرْبَانَ الْمُقَدَّسَ فِي أَثْنَاءِ النَّهَارِ .
- أَبْذَلْ جُهْدَكَ لِكَيْ تَكُونَ مَحْبُوبًا ، قَبْلَ أَنْ تَكُونَ مَرْهُوبًا ، إِذَا أَمَرْتَ وَأَدَبْتَ أَحَدًا فَاجْعَلْهُ دَائِمًا يَفْهَمُ أَنَّكَ تَبْغِي الْخَيْرَ لَا هَوَى النَّفْسِ . لَا تَدَّخِرْ وَسْعًا لِتَحْوِيلِ دُونَ ارْتِكَابِ الْخَطِيئَةِ .
- فَكِّرْ مَلِيًّا قَبْلَ أَنْ تَعْزِمَ عَلَى شَيْءٍ ذِي بَالٍ .
- عِنْدَمَا يُعْرَضُ عَلَيْكَ مَسْأَلَةٌ تَتَنَاوَلُ بَعْضَهُمْ ، فَاجْتَهِدْ أَنْ تَوْضِحَهَا قَبْلَ أَنْ تَحْكُمَ فِيهَا .

علاقاتك بالمعلمين

- إَجْتَهِدْ أَنْ تُكْثِرَ مِنْ مَحَادِثِهِمْ . إِذَا عَلِمْتَ أَنَّ هُنَاكَ شَيْئًا نَاقِصًا ، فَابْذَلْ كُلَّ مَا يَوْسَعُكَ لِكَيْ تَحْضُرَهُ .
- فَلْيَتَجَنَّبُوا الصَّدَقَاتِ الْمَرِيئَةَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ التَّلَامِيذِ ، وَالْمَحَابَبَةِ .

علاقاتك بالناظرين

- إَجْتَهِدْ أَنْ تَحَدِّثَهُمْ لِتَعْرِفَ رَأْيَهُمْ فِي سُلُوكِ الْأَحْدَاثِ . لِيُرَاعُوا الدِّقَّةَ فِي عَمَلِهِمْ . لِيَقْضُوا فَرَصَهُمْ مَعَ الْأَحْدَاثِ .

علاقاتك بصغار التلاميذ

- لَا تَقْبَلْ لِأَيِّ سَبَبٍ كَانَ صَبِيًّا طُرِدَ مِنْ مَدَارِسٍ أُخْرَى ، أَوْ نُبِّهْتَ بِطَرِيقَةٍ أُخْرَى إِلَى أَنْ لَهُ عَادَاتٌ سَيِّئَةٌ .
- اْعْمَلْ كُلَّ مَا يَوْسَعُكَ لِكَيْ تَقْضِيَ وَقْتَ الْفُرْصَةِ كُلِّهَا بَيْنَ الْأَحْدَاثِ ، فَاسْعَ لِأَنَّ تَهْمَسَ فِي أَدَانِهِمْ بَعْضَ الْكَلِمَاتِ الْوَدِيَّةِ الَّتِي تَعْرِفُهَا ، عِنْدَمَا تَسْنَحُ الْفُرْصَةَ أَوْ تَرَى أَنَّ ذَلِكَ ضَرُورِيٌّ . هَذَا سِرٌّ عَظِيمٌ لِكَيْ تَمْلِكَ قَلْبَ الْأَحْدَاثِ .
- اْعْمَلْ كُلَّ مَا يَلْزِمُ لِكَيْ تَنْشِئَ جَمْعِيَّةً مِنَ الدَّنَسِ .

علاقاتك بالخارجيين

- إِنَّ الْمَحَبَّةَ وَالنَّادِبَ هُمَا مِيزَتَا الرَّئِيسِ فِي مَعَامَلَتِهِ لِلدَّخَالِيِّينَ وَالْخَارِجِيِّينَ عَلَى حَدِّ سَوَاءٍ .
- فِي الْأُمُورِ الْمَادِّيَّةِ كُنْ مَتَسَاهِلًا إِلَى أَقْصَى حَدِّ ، وَلَوْ كَلَّفَ ذَلِكَ بَعْضَ الْخَسَارَةِ ، مَا زَالَتْ

المحبة سليمة .

- في الأمور الروحية أو الخُلقية فحسب ، يَجِبُ أن يُحَلَّ كُلُّ شيء في سبيل مجد الله الأعظم وخير النفوس . فالمشاغل والزهو ، وحب الثأر ، والإعجاب بالنفس ، والتعلق بالرأي والادّعاء بل الشرف نفسه ، ذلك كله يجب أن يُبذَلَ في تلك الحالة " .

وهذه هي أهمّ الإضافات التي زادها لدى نسخه هذه الاسطر وتقديمها للرؤساء وجعل عنوانها ذكريات سرّية من أجل الرؤساء .

- تَنَبَّه فلا تأمر أحداً قطّ بما يفوق طاقته أو كان خطراً على صحّته .
- ارفع دائماً قلبك الى الله لحظة قبل أن تعزم على شيء .
- أبذل جهدك لكي يعرفك تلاميذك وتعرفهم ، بقضاء أطول وقت ممكن معهم .
- إعهد إلى غيرك في أعمال القمع والتأديب .
- إهتمّ اهتماماً كبيراً بتشجيع ما يوافق مُيول كلِّ واحد ، فاعهد بالمناصب الى الذين تُسرُّهم أكثر من غيرهم .

- يجب الاقتصاد في كل شيء بشرط أن لا ينقص شيء لدى المرضى على الاطلاق .
- ان التفكير والزمان والخبرة جعلتني ألمس دائماً لمس اليد أن الشراهة والطمع والكبرياء سبّبت خراب جمعيات عظيمة الازدهار ، ورهبانيات ذات شأن . إنّ الأعوام سُنِّيَسَّرْ لك معرفة حقائق وربما تبدو غير قابلة للتصديق في الحاضر .

" الكلمات الصغيرة التي يهمس بها دون بوسكو في الأذن "

أوصى دون بوسكو الأب روا : " إسمع لأن تهمس في آذانهم بعض الكلمات الودّية التي تعرفها" .كانت الكلمة الصغيرة التي " يهمس بها دون بوسكو في الأذن" ، كما شهد تلاميذه ، سرّاً من أسرار تربيته . حاول الاب لموان أن يجمع هذه " الكلمات الصغيرة" فسأل الذين كانوا صبياناً عند دون بوسكو ، وهذه بعضها مأخوذة من جدولته :

- " - كيف حالك؟ وكيف حال نفسك؟
- عليك أن تساعدني في مسألة عظيمة . أتعرف ما هي؟ أن تصير صالحاً .
- متى تشرع في أن تكون عزائي؟
- متى تُريد أن تحطم قرني إبليس باعتراف حسن؟
- أتريد ان نصير صديقين في شؤون نفسك؟
- أتخشى أن يكون الرب مستاءً منك؟ التفت الى السيدة مريم العذراء .
- إن الفردوس لم يُجعل للكسالى .

- صلِّ وأحسن الصلاة فتتال الخلاص من غير شك .
- أتجدُ نفسك في العاصفة؟ أدعُ السيدة مريم العذراء ، إنها نجمة البحر .
- فُكر في دينونة الله .
- لا تُسرف في الاتكال على قواك .
- فُكر في الله ، تصبح أحسن خُلقاً وأكثر سعادة .
- إذا ساعدتني ، فاني أريد أن أجعلك سعيداً في هذه الحياة وفي الحياة الأخرى .
- من يثبت الى النهاية فذلك الذي يخلص .
- العمل ! العمل ! فالراحة في الفردوس .
- تشجّع ! فان زاوية صغيرة من الفردوس سئصلح كلَّ شيء " .

أمُّ وعَمَل كثير

رغب دون بوسكو أن تصحب الأبَ روا أمُّه الى ميرابلو . ذلك منه عطف ولطف ، إنها سئعنى بثياب الصبيان وتكون على الخصوص عنصرَ توازن في الاوقات التي لا مناص منها ، إذ تخور قوى ابنها الشاب .

قامت بعض المشاكل بادئ ذى بدء بسبب شهادات التعليم ، ولكن السالسيين في ميرابلو ما عثموا أن حصلوا على نتائج حسنة جداً ، ولا سيما في ايفاظ الدعوات الكهنوتية . جاء في بعض

الاخبار بلهجة الثناء أن " الأب روا تصرف في الامور في ميرابلو تصرفَ دون بوسكو في تورينو " . هكذا لمدّة سنتين .

في أوّل السنة ١٨٦٥ كان في الرهبانية السالسية ثمانون عضواً ، فيهم أحد عشر كاهناً ، فمن بين الشامسة الذين أرسلوا مع الأب روا إلى ميرابلو صار الأب بونيّتي (Bonetti) والأب بروفيرا (Provera) كاهنين ، وفي تورينو أيضاً ، بالقرب من دون بوسكو والأب الاسوناتّي (Alasonatti) ، تلقّى الكهنوت الآباء كالييرو (Cagliari) وسافيو (Savio) وفرنتشيسيا (Francesia) وروفيّنو (Ruffino) وغيفارلو (Ghivarello) ، ودورانّو (Durando) .

ومع ذلك ففي تلك السنة نزلت بالرهبانية الفتية محنة شديدة ، ذلك بأن خمسة من أعضائها الأوّلين انقطعوا عن العمل لأسباب مختلفة في بعض أشهر ، بينما يتجاوز الداخلون السبعمئة ، وكنيسة مريم معونة المسيحيين تبتلع أموالاً ضخمة ، وتُسبب للأب روا تعباً بلغ حدود استنزاف

صورة مريم معونة المسيحيين

في الأشهر الأولى للعام ١٨٦٥ تسلطت على ذهن دون بوسكو الصورة الكبيرة التي ستوضع في الكنيسة ، فعهد باخراجها إلى المصور لورنزوني (Lorenzone) وحاول أن يشرح له كل ما يرغب أن يراه في هذه الصورة :

- في الأعلى السيدة العذراء بين الملائكة ، يحدقُ بها الرسل والأنبياء والعذارى والمعترفون ، وأما في الأسفل فشعوبٌ مختلفٌ أطراف العالم يبسطون أيديهم اليها ويطلبون عونها .

تركه لورنزوني يفرغ من كلامه ثم قال :

- وهذه الصورة ، أين توضع ؟

- في الكنيسة الجديدة .

- أو تظن ان الكنيسة ستنتسع لها ؟ أين أجد ردهة لأرسمها؟ فإذا أردت الحصول على

المساحة الملائمة لما تتخيَّله ، وجب العمل في ساحة كاستلو .

فأضطرَّ دون بوسكو الى الاعتراف أنّ الرسام على صواب ، فأثفقَ على أن يرسم حول السيدة

العذراء الرسل والأنجيليين وحدهم ، وفي أسفل الصورة يُرسم المصلّى .

استأجر لورنزوني بهواً كبيراً جداً في قصر ماداما (Madama) وشرع في العمل ، فدام عمله

ثلاث سنوات وقد وُقِّعَ في أن يرسم وجه مريم معونة المسيحيين بملامح يُشرق فيها كلها لطف

الأمّهات .

وروى كاهن من المصلّى : " دخلتُ ذات يوم مكان عمله لأرى الصورة . كان لورنزوني ،

وقد ارتقى الكرسي ، يُنهي بريشته رسم وجه مريم ، فلم يلتفت للضجة التي أحدثتها عند

دخولي ، وواصل عمله ، ثم نزل بعد قليل وأخذ يتأمل ، وإذا به يشعر بوجودي فيمسك بذراعي

ويقودني الى مكان يسطع فيه النور ويقول لي : " أنظر ما أجملها . إنها ليست عملي ، كلا ، فلست

أنا الذي أصوّر . هناك يدُ تقود يدي . قل لدون بوسكو إنّ الصورة ستكون رائعة " . كان

متحمّساً الى حد يفوق كلّ وصف ثم عاد إلى العمل " .

لما حُملت الصورة الى الكنيسة وعُلقت بمكانها ، جثا لورنزوني على ركبتيه وأخذ يبكي

كالطفل .

صباح الثامن من تشرين الأول (أكتوبر) ١٨٦٥ وصل الشماس شيراريو (Cibrario) من لانسو (Lanzo) إلى فالدوگو ، يحمل إلى دون بوسكو خبر وفاة الأب الاسونائي في الليل (وكان قد ذهب ليستعيد شيئاً من صحته) وسلم إليه رسالة . قضى السنين الاحدى عشرة الأخيرة من حياته في عمل بَدَلَ فيه نفسه صامتاً . كانت كومة الملفات والقوائم ودفاتر الحساب قد بلغت مبلغاً عظيماً حينذاك ، حتى إنّه قضى ليلاليه الاخيرة من غير أن ينام . كان قد ضمن لنفسه الفردوس ضماناً جيّداً كما طلب لدى وصوله . في أيلول (سبتمبر) أذاقته قرحة في حلقه آلاماً مبرّحة . أحياء دون بوسكو ذكراه لدى الصبيان بتأثر كالذي يُظهره لأخ له . كانت وفاته خسارة جسيمة جداً للمصلّى .

كان الأب روا يُعدّ البرنامج للسنة الدراسية ، وقد أوْشكت أن تبتدئ فجاء الأب بروفيرا من تورينو وقال له :

- ان دون بوسكو يطلبك إلى المصلّى . سيتولّى الأب بونيتي إدارة المعهد . اذهب إليه باسرع ما يُمكنك .

ذكر الأب بروفيرا : " كان الأب روا يكتب جالساً الى طاولته ، فلم يتردّد ولا لحظة بل نهض من غير أن يسأل سؤالاً أو يطلب تفسيراً ، وأخذ كتاب صلاة الفرض وقال : " لنذهب " . ترك في ميرابلو أمّه الى أن يجدوا من يهتمّ بتياب الصبيان " . فلما وصل إلى تورينو اكتفى دون بوسكو بقوله هذا :

- لقد عملتَ عملَ دون بوسكو في ميرابلو ، والآن تعمله في فالدوگو . سلّم إليه كل شيء : ورشات طلاب الصناعة الثلاثمائة والخمسين ، ورشات بناء

الكنيسة ، ونشر القراءات الكاثوليكية (١٢٠٠٠ مشترك) وعبء قراءة معظم الرسائل التي يتلقاها والجواب عنها .

الصباح تلتهمه المقابلات

صار صباح دون بوسكو بعد ذلك " تلتهمه " المقابلات . روى الأب لموان : " ابتدأت منذ اول عهده أي في ١٨٤٦ وتضاعفت شيئاً فشيئاً . في السنة ١٨٥٨ كان لا يزال بوسع دون بوسكو أن يخرج من البيت نحو الساعة العاشرة والنصف ، أو الحادية عشرة ، ولكنّ الاقبال بلغ في السنة ١٨٦٠ مبلغاً اضطرّه إلى البقاء في غرفته طوال الصباح ، من الساعة التاسعة حتى الساعة الواحدة بعد الظهر ، واستمرّ ذلك حتى مرضه الاخير . ولما تُوفي الأب كافاسو صار وارثاً فعلياً لروحه . كان كلُّ ما في تورينو من صالح ووجيه ورفيع في

مختلف الطبقات الاجتماعية يُراجع دون بوسكو في أموره " .

أضاف الأب كالبيرو : " رأيتُ دائماً كثيراً من الناس يصعدون إليه ليروه ، فكانوا يأتون فيسألونه أن يصلّي من أجلهم ، أو يباركهم أو ينصح لهم في أعمال صالحة يقومون بها ، أو يأتونه بهيات من أجل صبيانه ، وكانوا يأتون أيضاً ليروه ويتحدثوا إليه . كانوا من أبناء الشعب ومن أصحاب السلطة ، والوزراء أيضاً ومن رؤساء المعاهد الكهنوتية والمطارنة " .

ذَكَرَ محامٍ استقبله دون بوسكو كثيراً : " ولا شكّ في أنّه كان هناك أشياء ضرورية عليه أن يعملها من غير تأخير ، ومع ذلك لم يكن يُظهر شيئاً من قلة الصبر لكي يُقصر الحوار ، كان يرضى حرمة الناس وكان بسيطاً ودوداً . سمعتُ عدّة مرّات من قال : ما أحسن استقبال دون بوسكو للناس ! " .

سمعه الأب يواكيم برتو (Berto) أمين سره يُشجّع مراراً المرضى ، فكان يسندهم عندما يدخلون إليه . كان دون بوسكو يُكرّر القول : " إنّ الربُّ أبٌ حنون ولن يسمح أبداً أن تُجرّب فوق طاقتنا " . وإذا ذكّرهُ المرضى بالأعمال الصالحة التي قاموا بها ، صاح : " إنّ الله لا ينسى شيئاً وسيدفع كل شيء بسخاء في الفردوس . إنّه أحسن من يؤدّي ما عليه " .

روى الأب دلماتسو (Dalmazzo) : " جاءه ذات يوم تاجر غنيّ جداً غير مؤمن ، جاء بدافع الفضول فحسب . رأيتُهُ يخرج وقد أخذهُ الدهش كل ماخذ وهو يصيح ثلاث مرّات أو أربع : " يا للرجل هذا رجل ! " . سألتُهُ ماذا تعلم من دون بوسكو فقال : " تعلمتُ أشياء لا يتعلمها المرء من سائر الكهنة . فبينما يصحبني إلى الباب قال لي : لنعمل أنت بمالك وأنا بفقرتي على وجه يمكننا من أن نجد نفسنا في الفردوس ذات يوم " .

التمثال الكبير تحت القبة

في السنة ١٨٦٦ بلغت أعمال الكنيسة القبة ، ثم توقفت إذ لم يبق شيء من المال ، فأمر دون بوسكو بأن يبذل بالقبة عقدٌ بسيط وبإنهاء الأعمال على النحو هذا ، فلبث المتعهد بوتسيتي ووكيل المال الأب سافيو منكدرين وقد فاجأهما الأمر : فإن الكنيسة تفقد هكذا شيئاً كثيراً من جمالها ، فقرّرّا التريث شهراً والسير في الأعمال الأخرى لعلّ دون بوسكو يغيّر رأيه في أثناء ذلك . فإذا بعضو من مجلس الشيوخ يحضر فيقول :

- صحيح أنّك تريد إلغاء القبة ؟

- ما من أحد يريد الغاء شيء . إن الوسائل ناقصة ويجب إنهاء السطح قبل الشتاء .

- نقدّوا مخطط الكنيسة كما هو . إنّ الوسائل لن تنقص .

وقال أيضاً لدون بوسكو :

- ائي آتٍ بأحداث تُثبت أنّ الرب يردّ عليّ منذ الآن مائة ضعف ما أعطيتّه في سبيل حبّه .

رُفعت القبة ويوم الاحد الموافق ٢٥ أيلول (سبتمبر) ١٨٦٦ صعد دون بوسكو يصحبه صبيُّ إلى السقالة فوضعا الحجر الذي يختم آخر حلقة من الحجر .
في العام ١٨٦٧ وُضع تمثال في قمة القبة . كتب دون بوسكو : " طولها نحو أربعة أمتار ، وتعلوها إثننا عشرة نجمة . إنها من النحاس المطلي بالذهب وهي نيرة تتلألأ لمن ينظر إليها عن بُعد ، عندما تضربها أشعة الشمس ، كأنها تتكلم فتريد أن تقول : إني ههنا أتقبل صلوات أبنائي فأعمر بالنعمة والبركات أولئك الذين يحبونني " .

كان لا يزال فالدوكزو وبورغو دوار ضاحيتي فقيرتين كئيبتين في بعض الاحيان لما فيها من حقول بور ، وبيوت وأكواخ يسكنها الفقراء ، وفيها الدار الكبيرة مأوى الالم التي يقال لها " الكوتولنغو " ومشروعات السيدة بارلو ودون بوسكو .
كانت الأسر النبيلة الغنيّة من المدينة ، وهي تقود عربتها إلى الريف ، تنزل مراراً في هذا الحيّ .

وقد نزل به أيضاً دوموندو دي أميتشس (Edmondo De Amicis) الكاتب الشهير ، وكان أهل عصره مولعين به فكتب : " يوافق حزن هذا الحيّ الغريب الريفُ المحيط به المنبسط الصامت ولا سيما في الشتاء ، ساعة الشفق عندما يتلألأ في آخر أشعة الشمس تمثالُ مريم معونة المسيحيين في العالم المذهب ، وهو منتصب فوق قبة الكنيسة المنعزلة ، وذراعاها مفتوحتان نحو جبال الألب ، إنها ترتفع فوق الأسطح والحقول التي يُغطيها الثلج ، وقد غرقت في ظل المساء الضارب إلى الزرقة " .

عندما تتمّ " النبوءات الجنونية "

في ١ حزيران (يونيو) ١٨٦٨ كرّست كنيسة السيّدة معونة المسيحيين .
في الساعة العاشرة والنصف صعد المطران ريكاردي (Ricardi) ، رئيس أساقفة تورينو ، إلى المذبح الكبير ، ليقيم أول قدّاس ، ثمّ أقام القداس دون بوسكو لوقته ، يعاونه الأب فرننتسيسيا (Francesia) والأب لموان (Lemoyne) . كان في الكنيسة ١٢٠٠ من الأحداث .
فكانت تلك الساعة ساعة تأثر شديد في جميع الحضور ، فان " النبوءات الجنونية " التي أنبأها دون بوسكو هي حقيقة تراها العيون كلّها . إن " الكنيسة الرائعة الكبيرة " ارتفعت على نحو عجيب " في الحقل المزروع بالذرة الصفراء والبطاطا " ، وكان حول القبة الشريط الأبيض الذي كُتب عليه " بأحرف كبيرة : هنا بيتي ، ومنه ينطلق مجدي " وكان " يحدق بالمذبح عدد كبير جداً من الأحداث " .

قنّبته للأمر امرؤ بصوت عالٍ في ذلك اليوم ، كأنه يريد أن يكافئ دون بوسكو على كل ما تحمّله من مشقات في السنوات الاخيرة ، فأجاب بتواضع : " لستُ صانع هذه الامور العظيمة .

إن الرب ، إن مريم معونة المسيحيين هما اللذان شاء أن يستخدمنا كاهناً فقيراً لكي يحققها . إنَّ كل حجر في هذه الكنيسة نعمة من السيدة العذراء مريم " .

بعد يومين كتبت جريدة الوحدة الكاثوليكية في كلامها على تكريس الكنيسة جملةً سرُّ بها دون بوسكو سروراً لحدِّ له : " شَيْدَ الكنيسة الفقراءُ من أجل الفقراء " .

ان ذلك اليوم وهو عيد عَظِيم لم يُفقد دون بوسكو رُشده . ولو تعرَّض لتلك التجربة ، فإن المصاعب الشديدة التي عادت تساوره في الغد ، كانت كافية لتمنعه من ذلك لوقته .

كتب في أثناء تلك الأيام : " إن ثمنَ الخبز يذهلنا ، ففي تورينو وميرابلو ولانتسو (Lanzo) (هو المعهد الثالث الذي فتحه حينذاك) يجب علينا أن ندفع اثني عشر ألف ليرة من اجل الخبز وحده " .

الأب روا ينهار

إن الذي بذل نفسه أكبر بذل في ذلك الوقت وهو يلزم الصمت دائماً ، هو الأب روا . لم ينم طوال أكثر من شهر ما يزيد على ثلاث ساعات او أربع في الليل ، فنال الافراط في العمل آخر الامر من جسمه . في ٢٩ تموز (يوليو) ١٨٦٨ انهار فسقط بالحرف الواحد بين ذراعي صديق له ، في مدخل المصلى .

فُنقِل إلى غرفته ، فحصه طبيب فحدّر بقوله : إنه مصاب بالتهاب حادّ للصفاق .

كان دون بوسكو غائباً فأرسلوا لوقتهم يطلبونه ، فوصل عند المساء ولكنه ، لما عاد ، كان الصبيان يملأون الموهف وهو ينتظرون أن يعترفوا لديه . كان دون بوسكو مشرق الوجه على نحو عجيب . قال له الأب سافيو :

- هَلَمْ في الحال لترى الأب روا ، فقد يذهب من لحظة إلى لحظة .
 - كلا ، إن الأب روا يذهب من غير إذني . انا ذاهب لأستمع إلى اعتراف الصبيان .
- سمع الاعترافات حتى جاء الليل ، ثم لم يصعد إلى المستوصف بل ذهب فتناول طعام العشاء ، فساد حوله سكوت فيه تَوَثَّر . فما من أحد يفهم لماذا يُظهر مثل هذا الإعراض عن أهمِّ معاون له ، وهو يُلجَّح في طلب مشاهدته ، في حين أن من عادة دون بوسكو أن يعطف عطفاً شديداً على المرضى .

تناول الطعام ثم صعد إلى غرفته ليضع فيها حقييته، وعزم عند ذلك فحسب على الذهاب إلى الأب روا . كان عرق بارد يغطي جبين المريض . إن حالته سيئة حقاً . رأى دون بوسكو فتمتم :

- إذا كانت هذه الساعة ساعتى فقل لي : إنِّي لا أخاف الموت .

فصاح دون بوسكو : " الموت ؟ أيُّها الأب روا العزيز، إني لا أريده . أفهمتَ ؟ لا أريد ان تموت ، سأكون مُرتبكاً من دونك . يجب علينا أن نعمل أيضاً ، وأن نعمل ، فلا مجال للموت " .

رأى على الطاولة علبه الزيت المقدس من أجل مسحة المرضى فسأل :

- من ذا الذي يريد مسح الأب روا المسلحة الاخيرة ؟

أجاب الأب سافيو : " أنا " .

- إنكم اناس قليلو الايمان حقاً . تَشَجَّع أيُّها الأب روا . إسمع : ولو قذفتُ بك من النافذة فلن تموت . والآن أعيدوا الزيت المقدس إلى مكانه ودعوه يستريح .

شُفي الأب روا بعد ثلاثة أسابيع ، وبعد شهر ونصف الشهر من النقاهة عاد إلى الساحة مثل صبي من الصبيان . لا يَسْعُه بعد أن يركض ، ولكنَّه يلعب " بالكلل " مع أصغر الصبيان سيئاً ، فيقعد القرفصاء ويستهدف كريات من الفخار بإبهام متوتر العصب .

في آب (اغسطس) ١٨٧٦ سأل راهب سالسيُّ دون بوسكو بغتةً بعد العشاء :

- أضحك أن رهباناً سالسيين ماتوا لإفراطهم في العمل ؟

فأجاب : " لو صحَّ ذلك لما أصيبت الرهبانيَّة بأذى ، بل العكس بالعكس . ولكن ليس ذلك صحيحاً . هناك واحد قد يستحقَّ لقب ضحية العمل هو الأب روا . ولكن الحمد لله ، إن الرب قد حفظه لنا متيناً قوياً " .

٤٠

" مرحلة جديدة" للسالسيين

يشعر المرء ان دون بوسكو ، منذ إن شرع في الاهتمام بكنيسة مريم معونة المسيحيين ، شبه جامد وسجين مشروعه ، وكأنَّ التاريخ الذي حوله لا يتصل بتاريخه.

يبدو أنَّ " التاريخ السالسي " قد بدأ مستقلاً عن التاريخ " الآخر " . إنَّه التاريخ السالسي بما فيه من مراحل ونجاح، ومعارك خاصَّة به : إنشاء بنات مريم معونة المسيحيين ، وذهاب المرسلين ، وقدم عهد معاونين ، والمقاومة الحميدة على ما فيها من المشقة لأصحاب السلطة الكنسية في تورينو في سبيل استقلال الرهبانية ، وما وجب استعماله من المحاولات المُضنية في رومة لنيل الموافقة على القوانين السالسية . ومع ذلك فقد امتزج تاريخ ايطاليا وما فيه من تقلب وصراع شعبي لتحسين أحوال التعليم ، وغير ذلك ، بتاريخ عمل دون بوسكو في سبيل الخير العام . لقد استوحى من احداث إيطاليا ما يساعده في حكمه على ماجريات الأمور .

كان عدد سكان إيطاليا قبل احتلال دولات الكنيسة ٢٢ مليوناً ، ثمانون بالمائة منهم أميون ، وعدد طلاب الجامعة لا يتجاوز ٦٥٠٠ ، وكان سبعون بالمائة من الإيطاليين يُقيمون في الريف ويحرثون الأرض . طول السكة الحديد ألفاً كيلومتر ، والاسطول التجاري الإيطالي هو الثالث في العالم بعد انكلترا وفرنسا .

وكانت الحالة السياسية والاجتماعية عسيرة في إيطاليا ولا سيما في الجنوب ، وكانت عصابات من اللصوص تعيثُ فساداً في أماكن كثيرة ، فكانت الحكومة تكافحها بوسائل العنف من غير أن تحاول القضاء على أسباب اللصوصية ، وهي الجهل والبؤس الاجتماعي وثورة أهل الريف على أصحاب السلطة الذين يفرضون ضرائب باهظة ، ويجنّدون الشبان .

قُتل نحو خمسة الاف لصّ في السنوات بين ١٨٦٠ و ١٨٦٥ ، ولكن مشاكل جنوب إيطاليا ظلّت على حالها ، فأخذ أهلها يهاجرون بعد السنة ١٨٦١ ، وكان المعدل السنوي للمهاجرين ٢٣ الفا كل عام ، وبلغ في السنة ١٨٧٦ خمسمائة .

لما بعث دون بوسكو بمرسليه الأولين إلى الأرجنتين قال لهم : " اذهبوا فابحثوا عن إخوتنا

الذين ساقهم البؤس والمغامرة إلى أرض غريبة " .

المعارك في تورينو

في السنة ١٨٦٢ تجدد الصراع بين الدولة الإيطالية والكرسيّ الرسوليّ من أجل رومة ، ف وقعت معارك عنيفة فمُنيت الحكومة بالهزيمة ، وعزمت على نقل عاصمتها من تورينو إلى فيرانزي بناءً على اتفاق مع نابليون الثالث الذي رضي بأن يُخرج جيشه الفرنسي ، وكان قد دخل إيطاليا للدفاع عن البابا .

فلما بلغ الخبرُ أهلَ تورينو ثار ثائرههم ، فنكّلت بهم قوى الأمن الداخلي ، وسقط عدد من الموتى والجرحى . هاج الشعب فخاف وزير الداخلية وقوع حرب أهلية فاستدعى ٢٨ ألف جندي ، ووُضعت المدافع على مكان يشرف على المدينة ، وفوهاتها مصوّبة إلى قلب المدينة .

في مساء الواحد والعشرين من أيلول (سبتمبر) جمع دون بوسكو أحداثه كلهم تحت حنايا فالدوگو ، فصلوا من أجل تورينو وأهلها .

وفي ٢٢ أيلول تجدد الشغب وقتل ٢٦ رجلاً ونقلت العاصفة من تورينو إلى فيرانزي وشعر أهل تورينو بأنهم أُصيبوا بالخيانة .

أزمة دينية: الكتاب المقدس وأسعار البورصة

وشعر البابا أيضاً بأنه مُني بالخيانة . رأى بيوس أنه حُرّم حماية نابليون العسكرية فتشدّد في مواقفه المخالفة للحرية مستنكراً في وثيقة قيل لها " الجدول " (Syllabus) استنكاراً شاملاً " العقائد الحديثة" ، وانكر البابا في الأسطر الأخيرة من الوثيقة أنه " يسع الكنيسة بل يجب عليها أن تصالح وتوافق التقدم والحرية والمدنية الحديثة " .

كان البابا وكثير من الهيئات الكاثوليكية في خوف من الأزمة الدينية الشديدة ، التي تبدو كأنها تبدّل منظر العالم .

قال ترانييلو (Traniello) : " كانت الطبقات الحاكمة الجديدة ، ورؤساء الاعمال ، تفضّل قراءة أسعار البورصة على قراءة الكتاب المقدس . وكانت الطبقات الكادحة ، وقد أقتلعت من جذورها ، واستُغلت ، تعتنق صراع الطبقات أكثر مما تعتنق الطوباويات الانجيلية . فإنّ هجرة أهل الريف إلى المدن ، والتبديل القسري للصناعة والأعمال ، وأحوال المعيشة الجديدة ، وانحلال النسيج الاجتماعي القديم على العموم ، ذلك كله سبّب تبديلاً عميقاً في أساليب التفكير ، وحوّل فئات من الناس مهمّة عن حواراتهم وورعاتهم ، وقد ظهر ذلك بمظهر الرفض

للمبادئ الكاثوليكية التقليدية والتخلي عن أعمال التقوى المسيحية أو تضاولها . وفوق كل شيء المقاومة لأصحاب السلطة الكنسية . وقد بقيت متعلقة مدة طويلة بعالم قد ولى عهده " .

بلغت هذه الحالة ذروتها لما استولت الجيوش الايطالية على رومة في السنة ١٨٧٠ ، فدفعت الكاثوليك إلى الاعتصام بأنفسهم وتنظيم أمورهم فاصبحوا " دولة في الدولة " . أرادوا أن يُنقذوا قِمَمَ الخاصة ويربّوا أجيالاً جديدة في جوّ مسيحي ، فانشأوا (بالمحاذاة مع مؤسسات الدولة المعادية للكنيسة) تعاونيات " كاثوليكية" ، ومصارف شعبية " كاثوليكية" ووكالات ضمان " كاثوليكية" ومدارس ومعاهد "كاثوليكية"، من أجل تربية أولادهم .

عاش دون بوسكو هذه الحقبة من تاريخ ايطاليا فبذل شيئاً كثيراً من قواه ليفتح " معاهد ومدارس كاثوليكية" ، حتى جعل رهبانيته تعيش " مرحلة جديدة" : مرحلة المعاهد . وسنفيض في الكلام عليها في القسم الآخر من هذا الفصل .

تاريخ العمال غير الرسمي

وقعت في محاذاة تاريخ ايطاليا الرسمي ، أحداث أخرى دار الكلام عليها في الكتب التي تروي التاريخ " الكبير " .

فبؤس العمال والفلاحين شديد : العمل طويل والاجرة ضئيلة لا تكفي لسدّ الجوع ولا تزال هذه الحالة في أقصى جنوب إيطاليا عند كعب قدم شبه الجزيرة في السنة ١٩٨١ كما كانت حينذاك ، فيهاجر كثير من الايطاليين في بعض الاشهر الى فرنسا وسويسرا ويهاجر غيرهم إلى أمريكا فلن يعود .

في السنة ١٨٦٤ ولد " اتحاد العمال الاول" في لندن . وسيطر عليه بعدئذٍ كارل ماركس وفرض عليه الشيوعية . وفي السنة ١٨٦٤ نشر الاسقف كيتلير (Ketteler) الالمانى مطران ماينس كتاب المسألة العمالية والمسيحية . إنه برنامج الحركة الكاثوليكية الاجتماعية الالمانية القوية : دعت إلى تدخّل الدولة لِسَنّ القوانين في شؤون العمل والضمان الاجتماعى ، يجب أن تضمن هذه القوانين حدّاً أدنى من الأجرة ، وتحدّ من ساعتا العمل وتضمن العطلة الاسبوعية ، وتحظر تشغيل النساء والأولاد ، وتحتاط للضمان الاجتماعى .

وقد حصل العمال بعد كفاح طويل على شيء من حقوقهم : في ١٨٦٤ اعترفت حكومة نابليون في فرنسا بحق الإضراب ، وفي ١٨٦٦ منحت حكومة بسمارك الألمانية جميع المواطنين حق الاقتراع ، فاستطاع العمال لأول مرة إرسال ممثليهم إلى المجلس ، وفي ١٨٦٦ اعترفت الحكومة البلجيكية ، على اثر ضغط شديد من الجمعيات الكاثوليكية ، بنقابات العمال الأولى وقد تبعتها في

مثل ذلك النمسا (١٨٧٠) وانكلترا (١٨٧٦) وفرنسا (١٨٨٤) .

في أول أيار ١٨٦٦ بدأت الحملة الدولية لتقليل ساعات العمال ، وجعلها ثماني ساعات ، وفي السنوات الأخيرة من القرن التاسع عشر خفّضت جميع دول أوروبا على وجه التقريب ساعات العمل حتى العَشر ، وحظرت استخدام الصبيان في سنّ دون الثالثة عشرة طوال النهار ، ووافقت على قوانين تجنب حوادث العمل ومراعاة أسباب الصحة وعطلة يوم الأحد ، وأدخلت الضمان الالزامى لمعالجة إصابات العمل والمرضى والشيخوخة .

" ضريبة الجوع "

في السنة ١٨٦٨ فُرض على فلاحي إيطاليا ، على ما فيهم من الفقر ، ضريبة جائرة هي الضريبة على الدقيق : فُرض على طحن الحنطة والحبوب رَسْمٌ باهظ يؤخذ من الذين يعيشون على الخبز والبولنتا أي على أفقر الناس ، فهبَّ عاصفة من الفتن الداعية إلى الفلق حقاً في البلاد كلها . كتب فرنسيس ترانيو (Traniello) : " استنجدت الحكومة بالجيش لقمع أهل الفتنة ، وقد خرجوا أحياناً وهم يصيحون : " عاش البابا والنمساويون " ! فقتل وجُرح مئات من الناس وأبقيت الحكومة " ضريبة الجوع " سارية المفعول .

في المصلّى أيضاً وفي سائر بيوت دون بوسكو ، حيث يبتلع صبيانهُ " جبالات من الارغفة

الصغيرة " ، زاد الرّسْمُ على الدّقيق النفقاتِ زيارة كبيرة . كَتَبَ في تلك الأشهر : " إن غلاء ثمن الخبز يُثقل كاهلنا " .

مولد " المعهد السالسي "

لما فتح دون بوسكو " الإكليريكية الصغيرة " في ميرابلو في السنة ١٨٦٣ طلب إليه من عدّة نواح في إيطاليا أن يُنشئ ، لا مصليات بل معاهد ، فرضي ولكنه فتح مصلى كلّ مرة بلزق كلّ معهد .

وهكذا وجدت الرهبانيّة السالسيّة نفسها ملزمة في بضع سنوات بمدارس كثيرة تنشر التعليم الابتدائي والثانوي والمهني . كيف صار ، خلال بضع سنوات ، سالسيو دون بوسكو ، وقد وُلدوا في مصلى ، " اختصاصيين في معهد لأبناء الشعب " ؟

لقد رسمنا الموضوع رسماً سريعاً في الصفحات السابقة وها هوذا جواب أكمل نقلاً عن بيترو ستيليا (Pietro Stella) : " ازدهرت المعاهد الكاثوليكيّة ، وتضاعف عددها في النصف الثاني من القرن التاسع عشر ، لما اعتمدت السياسة والشريعة الايطالية أكثر فأكثر على قواعد حرة . كان بين

ايطاليا الشرعية المؤلفة من الطبقة الحاكمة ، وبين ايطاليا الحقيقة المؤلفة من طبقات كثيفة من المعارضة الكاثوليكية وسائر القوى المتقدمة (كالاشرافية) خلاف عميق أدى في المدارس الرسمية إلى اتجاه علماني عدوّ للكنيسة وإلى منازعات عنيفة على تعليم الدين في الصفوف . وردّ الكاثوليك على ذلك ، بأن مالوا إلى تنظيم شؤونهم في جميع الجوانب من جمعيات دينية ، ومكاتب تعاون ، ومصارف شعبية ، وجمعيات ضمان ، ومعاهد لتربية الأولاد يأتي أكثرهم من طبقات البورجوازية الصغيرة والشعب العامل والفلاحين فأنشأوا شبه مجتمع في مجتمع الدولة .

وهذا ما يُفسر كيف شهد الناس في السنة ١٨٦٣ تضاعف عدد المعاهد والبيوت والمدارس لطلاب الصناعة ، والمدارس الزراعية والاكلييريكيات يفتحها السالسيون أو يُديرونها ، وهم يفضلون المدارس الداخلية . ان المعهد السالسي ساهم في تغذية القوى الكاثوليكية في إيطاليا والعالم إذ قدّم عدداً ضخماً من الأجيال الشابة " .

" ربّوا الاحداث الفقراء "

سُمّيت المؤسسات لطالبي الصناعة بيوتاً ، فلا يُقبل فيها سوى " الصبيان الأيتام المنتشردين " ، وسُمّيت معاهد المؤسسات للتلاميذ العاديين ، وهي أيضاً مخصوصة بالصبيان الفقراء . تلك كانت دائماً إرادة دون بوسكو الواضحة .

في مساء السابع من اذار (مارس) ١٨٦٩ رجع من رومة ، فبلغ السالسيين بعض وصايا

بيوس التاسع : " اقتصروا في عملكم على أولاد الشعب الفقراء . ربّوا الأحداث الفقراء . لا يكن لكم أبداً معهد للاغنياء والنبلاء . حدّدوا سعراً معتدلاً للاجرة المفروضة ، ولا تزيده . لا تقبلوا إدارة البيوت الغنيّة . إذا ربّيتم الفقراء ، وإذا بقيتم فقراء ، يدعونكم وشأنكم وتعملون الخير " . (ذكريات السيرة ، ج ٩ ، ص ٥٦٦) .

وافقت ماجريات الأمور التوجيهات ، لا في السنوات الاولى فقط. كان لدون بوسكو أن يكتب في السنة ١٨٧5 : " في الأسيو (Alassio) وفاراتسي (Varazze) وسامبيردارينا (Sampierdarena) رصيدنا المالي صفر" . في السنة ١٨٩٨ ، عشر سنوات بعد موت دون بوسكو كان ١٨١ صبيّاً يقومون في بولونيا (Bologna) يديرها أمين سره السابق ، ولم يكون يدفع الاجرة كلها ، وهي ٢٥ ليرة، سوى ٣٣ صبيّاً ، في حين أنّ سائر الصبيان ، وعددهم ٩٩ ، يساهمون بما لا يكاد يبلغ نصف الأجرة. كان الداخل السنوي ٢٣ الف ليرة والصادر ٤٦ الف : هناك خسارة " صافية" قدرها مائة بالمائة .

المعاهد الخمسة الاولى

في السنة ١٨٦٤ فُتح معهد لانتسو (Lanzo) . أرسل دون بوسكو الأب روفينو (Ruffino) ، وعمره ٢٤ سنة ، لكي يكون رئيساً ، وسبعة من الشمامسة . كان الفقر والحرمان صاحبيهما في الأشهر الأولى. كتب الشماس سالا (Sala) الذي صار بعدئذ وكيل الرهبانية العام : " دار فارغة ، جدرانها نصف متهدمة ، ولم يكن من كرسي أو طاولة . كان جيفونه (Givone) يصلح الحساء ، وكنا نتناوله على باب مُحطّم موضوع على قاعدتين ، ولم يكن للنوافذ زجاج ، فُسِدَّت بمناشف وأغطية ، وكنا ننام على التبن " . لم يكن في السنة الأولى سوى ٣٧ تلميذاً ، وحشد كثير من الخارجيين الذين لا يرعون نظاما . في آذار (مارس) اضطرَّ المرضُ الشماس بروفيرا الى ترك كل عمل ، وقد زاد الارهاق مرَضَه سِوَاءاً ، وفي تموز (يوليو) اصيب الرئيس الشاب بالسّل فقضى نحبه ، فُسِّمَ المعهد الى الشمامسة السبعة الباقين. ذكر الأب سالا : " كم عملنا ! كنا نأبى أن يُقال المعهد لا يسير سيراً حسناً لانه لم يكن فيه سوانا ونحن شمامسة " .

في السنة التي بعدها تولّى الأب لموان (Lemoyne) الادارة ، وأخذت الامور تتحسن . وفي السنة ١٨٧٠ فُتح معهد الاسبو (Alassio) وكان الرئيس الأب تشيروتي (Cerruti) في السادسة والعشرين .

وفي السنة ١٨٧١ فُتح بيتٌ في ماراسي (Marassi) نقل بعد سنة إلى سامبيردارينا وكان

الرئيس ألبيرا (Albera) في السادسة والعشرين : بدأ العمل في ثلاث ورشات " للصبيان الأيتام
المشردين " ، وأراد دون بوسكو بجانب الدروس المهنية فرعاً للصبيان " الذين يفكرن في الدعوة
الكهنوتية " .

في السنة ١٨٧١ دخل عشرون سالسيا المعهد المدني في فاراتسي (Varazze) فتولّى توجيههم
الأب فرنثيسيا (Francesia) وهو واحد من أول تلاميذ دون بوسكو . قام هؤلاء السالسيون
العشرون بفتح معهد في كراسكو (Cherasco) ثلاث سنوات ، ولكنهم اضطروا إلى التخلي عنه .
جاء دون بوسكو إلى المعهد وكلهم جماعة من الناس في فاراتسي فصقّوا له ، فقال ضاحكاً :
" لا أحتاج لإعالة الأحداث إلى أناس يضربون أيديهم في الهواء ، بل إلى أناس يضربون أيديهم في
جبهم ! فلو اكتفيتُ عند ساعات الطعام بضرب يديّ ، لكان الصبيان على اسوأ حال " .
في السنة ١٨٧٢ قبل دون بوسكو معهد فالساليتشي (Valsalice) من أجل شبان من الأسر
الارستقراطية .

كانت تلك الحقبة عسيرة على الرهبانية ، فقد فتحت جمعية من سبعة كهنة معهداً للنبلاء

الأحداث فانتهى الأمر بالافلاس . كان رئيس الأساقفة الجديد لتورينو المطران غاستالدي
(Gastaldi) وكانت علاقته بالسالسيين سيئة . دعا دون بوسكو وفرضَ عليه أن يتسلم هو زمام
المعهد ، فلم يُرد أن يسمع شيئاً من ذلك وقد جزم منذ سنين كثيرة : " لا أقبل هذا أبداً ما كنتُ حياً
ففيه خرابنا " . ولكن رئيس الأساقفة كان ينيوي أن يفرضه عليه بأسم الطاعة .
فعرض دون بوسكو المسألة على مجمع الرهبانية الحديث العهد ، فأجمعوا على ردّه فصعد إلى
لا نتسوا ليستشير الأب لموان ، فسمعه يجيبه : " أرفض . ألم تقل لنا مراراً : إن قبول معاهد النبلاء
يعني انحطاط رهبانيتنا ، وأتّه يجب علينا ان نقتصر دائماً على أولاد الشعب الفقراء ؟ " .
رضي دون بوسكو مكرهاً لتجنب الاصطدام بالسلطة الكنسية .

كان ذلك المعهد عبءاً باهظاً على الرهبانية خلال خمس سنوات ، فعدّد التلاميذ قليل جداً
ويكفون نفقات ضخمة فاضطرّ مصلى فالدوكو إلى مساعدته بمعونات ماليّة كبيرة . صرخ دون
بوسكو صراخاً مرّاً : " إنّ الفقراء هم الذين يُضطرونّ إلى مساعدة الأغنياء " .

في السنة ١٨٨٧ صار دون بوسكو آخر الامر مالكا للدار بعد دفع قدرأ من المال عظيماً
(١٣٠ الف ليرة) فبدّل بالنبلاء شمامسة سالسيين . وأعلنت لوحة كبيرة في باب المدخل غاية
المعهد الجديدة : " إكليريكية الرسالات الأجنبية " . إنحلت مشكلة فالساليتشي بعد خمس عشرة
سنة .

منعطف يُبرز مبدأ أساسيا

نوقف هنا جدول المؤسسات الجديدة . لما مات دون بوسكو كانت دور الرهبانية المتفرقة في
سنة 6٤ وكان السالسيون ٧٦٨ .

نختم كلامنا بملاحظة : في السنة ١٨٦٤ ، أخذت تنشأ المعاهد بجانب المصليات
والبيوت .

بقي مصلى يوم الأحد ، (ويُقام كلَّ يوم إذا أمكن الأمر) العمل الأول للرهبانية . إن
قوانين السالسيين تؤكد ، وحقيقة عملهم تظهره . فبجانب المشروعات العظيمة التي فُتحت في
إيطاليا والتي فُتحت بعد قليل في الأحياء الشعبية في الأرجنتين وإسبانيا والبرازيل ، تكررت
" البلبلة المحببة" التي وُلد فيها مصلى فالدوكو . ألحّ خلفاء دون بوسكو : لكل مشروع سالسي
مصلى .

ولكنّ دون بوسكو أدرك في أوّل السنة ١٨٦٤ حاجة جديدة لأولاد الشعب : الحاجة الى
مدارس حسنة مؤهلة تمنح تعليماً متيناً ومسيحياً . إنّه منعطف حاسم في الرهبانية : فقد انتقل عدد

أكثر من السالسيين من بلبلة المصليات إلى صفوف المعاهد المنظمة .

لم يتردّد دون بوسكو سلوك هذا المنعطف ، فكأنه قد رسّخ مبدأ أساسياً لرهبانيته :
إنّ العنصر الأساسي غير القابل للتبديل في الرسالة السالسية هو الشبيبة الفقيرة أي أولاد
الشعب . يجب على السالسيين أن يُطوّروا مشروعهم ليكون ملائماً لهؤلاء بعد أن يفطنوا بسرعة
وشجاعة لآيات العصر ومتطلّباته . وخلاصة القول : ليست الشبيبة الفقيرة هي التي يجب عليها
أن تتطور لتلائم السالسيين ومشروعاتهم ، بل يجب على السالسيين ومشروعاتهم أن يتطوروا
ليلائموا الشبيبة الشعبية .

موريزي مثل فالدوكو

٢٤ حزيران (يونيو) ١٨٦٦ . كانوا يحتفلون في المصلى بعيد شفيع دون بوسكو ، فجاء رئيسا البيتين السالسيين الأولين ميرابلو (Mirabello) ولانتسو (Lanzo) . روى الأب لموان (Lemoyne) رئيس لانتسو :

" غابت الشمس وتلأل القمر بهياً في السماء . صعدتُ إلى غرفة دون بوسكو وانفردتُ به نحو ساعتين ، وكان يصعد من الساحة ضجّة الصبيان وهم في حفلة عيد . كانت قد أوقدت على النوافذ وحواجز الشرفات مئات من الشُّعل في زجاجات ملوّنة ، فنقّدمتُ ودون بوسكو إلى النافذة . كان المنظر خلّياً فابتسم دون بوسكو فإذا بي أقول :

- دون بوسكو ، أتذكّر الأحلام القديمة ؟ ها هم الأحداث وها هم الكهنة والشمامسة الذين وعدتكم بهم السيّدة العذراء مريم . فقد مضى نحو عشرين سنة ولم يُعوز الخبز أحداً .

فأجاب دون بوسكو : " ما أطيب الربّ ! "

فعدنا إلى الصمت وقد تأثرنا تأثراً شديداً ثم تكلمتُ مرّة أخرى .

- دون بوسكو ، ألا يبدو لك أنّ هناك شيئاً ناقصاً لكي يكونَ عملنا كاملاً ؟
- وماذا ؟
- الفتيات . ألا تريد أن تصنع شيئاً لهنّ ؟ ألا تعتقد أنّه لو كان لنا مؤسّسة راهبات انشأتها أنتَ ، لكلّ ذلك عملنا بالنجاح ؟ أيُّ عمل لا تعمله الراهبات لخير تلاميذنا المساكين ؟ وقد يمكنه أن يعملن للفتيات ما نعمله للصبيان .
- لبث يفكر بعض لحظات ثمّ قال :
- أجل ، سيتحقّق ذلك ، سيكون لنا راهبات ولكن لا في الحال ، بل بعد وقت قليل .
- في رأي بيتروستيلا (Pietro Stella) أنّ دون بوسكو أمّل مدة من الزمن أن يضمّ الى الرهبانية السالسيّة مشروعات ماريّا لويّزة كلارك ، وهي راهبة من راهبات المحبة تعمل على غير بعد من مصلى مار لويّس .

إنّ ذلك المشروع وإن سعى دون بوسكو في تحقيقه ، لم يعيش إلا وقتاً قليلاً ، في حين أن لقاءاته وشخصين هما الأب بستارينو (Pestarino) وماريّا دومينكا مازارلو (Maria Domenica Mazzarello) كانت حاسمة .

التيفوس والساحر وعين النحس

في السنة ١٨٦٠ ظهر التيفوس في اثناء الصيف في تلال مورنيزي (Mornese) . إنّ حرب الاستقلال الثانية في السنة التي مضت أودت بحياة عدة آباء أسر . والآن خرج التيفوس من بئر فيها الماء اجتمع وأسّ خلال الصيف ، فأشاع الذعر في الناحية كلها .

وجرى ما يجري كلما تفشّى مرضٌ مُعدٍ ، فتحدّث الناس حديث السحرة وعين النحس فالجراثيم والنظافة والتعقيم كلمات كانت لا تزال مجهولة .

كان الناس جميعاً يتخلون عن الأسر التي يظهر فيها التيفوس فيعتصم الأصحاء في منازلهم . وكانت أسرة تحمل اسم مازارلو (Mazzarello) من الأسر الأولى التي أُصيبت : أُصيب الزوج أولاً ثمّ زوجته ثمّ أولادهما ، وبعد بضعة أيام ساءت حالة الأب وكبير أولاده حتى أشرفا على الموت .

فعاد هؤلاء الناس الأب بستارينو ، الكاهن الذي لُقّب في موريزي " بريفي " (Previn)

لأنّه قصير القامة ولأنّه مُحبّب إلى الشعب ورأى أنهم يحتاجون الى من يساعدهم فذهب توّاً إلى بيت

فيه يُدعى الأبوان أيضاً مازارلو ، ودعا ماريًا وهي فتاة متينة البنية في سنّ الثالثة والعشرين . إنّها تعمل عمل الانسان وتصلي الملاك . قال لها :

- في بيت عمّك اثنان يتعرّضان للموت . ما قولك لو ذهبت لتساعديهما قليلا ؟

فسادَ السكوت برهة ، ذلك بأن ماريًا خائفة كما أن جميع الناس خائفون . فنظر الكاهن

إليها بهدوء وانتظر ، فتمتت ماريًا :

- إذا رضي أبي ، ذهبتُ إليهما .

أبوها مسيحي صادق . دخلت مريم بيت المرضى ، فعاد إليه الترتيب والنظافة بسرعة

وأعدت الأدوية والطعام في الساعات المحددة .

شفي المريضان ونزلا من السرير ، ولكن التيفوس أصاب ماريًا دومنيكا فصار وجهها

الجميلُ البياضويّ الشكل ، في بضعة أيام ، مُتَلَتًا من الجلد الشاحب المُقَطَّب . جاء الطبيب فهزّ

رأسه : إن الموت قد حضر . ووصف أدويةً أخرى فقالت له ماريًا وهي منهوكة القوى :

- شكرًا ولكن إذا شئت فلا تفرض عليّ ابتلاع عقاقير أخرى . لا أحتاج إلى شيء ما عدا

مجيء الله إليّ لكي يأخذني إليه .

واكن ساعتها لم تأت بعد . ستعملُ كثيرًا في هذه الارض ، قبل أن يجيء الله إليها

فيأخذها .

أسرّت ماريًا الى بترونيا

وهكذا شُفيت ماريًا على غرّة من غير أدوية ، وعادت إلى وجهها ألوانُ الصحة ولكن بقي في

أعضائها فتور ووهن لا يُقهر ، فإنّ الحمى الشديدة حطمت شيئًا في بنيتها المتينة .

فماذا تعمل الآن ؟ إنّ غير واحد من الشبان يرغب في أن يحدثها حديث الزواج . فما من

شيء ينقصها لتصير زوجة جميلة وأما حنوننا ، ولكنها تأبى حتى الشروع في التحدث بهذا الموضوع ،

فهي تساءل نفسها : ماذا أعمل في حياتي ؟

إنّ اسم ماريًا مازارلو مكتوب في اتحاد التقوى لبنات مريم البريئة من الدنس . وقد

انطلقت مشروع هذه الجماعة من فكر مُدرّسة البلد ، الشابّة أنجيلا مكانيو (MaCcagno) فأوحى

إليها الأب بستارينو أن تضع مشروع نظام أرسل الى خوري شهير في جينوى . في السنة ١٨٥٥

اعتمد الأب فراسينيتي (Frassinetti) تلك الاقتراحات ، فألف " نظام اتحاد التقوى لبنات مريم

البريئة من الدنس " فانتشر الاتحاد انتشاراً سريعاً وبنجاح غير منتظر في ايطاليا كلّها .

انشأ الأب بستارينو أول اتحاد تقوى في مورنيري في ٩ كانون الأول (دسمبر) ١٨٥٥ بمعونة

خمس فتيات ، وكانت أصغرهنّ سنًا ماريًا مازارلو ، وهي في الثامنة عشرة من عمرها .

ولمأريا هذه صديقة لا تكتمها سرّاً من أسرارها اسمها بترونيلا (Petronilla) وهي أيضاً بنت " البريئة من الدنس" وتحمل اسم الأسرة نفسها مازارلو . ذات يوم من ١٨٦١ قالت لها ماريّا :
- عزمْتُ على تعلُّم صناعة الخياطة ، وعندما أحسن الصناعة هذه ، أفتح مشغلا وأعلم البنات الفقيرات الخياطة . أويسرُك أنت أيضاً أن تعلمي خياطة فنبقى معاً ونعيش كما تعيش أسرة ؟

مضت سنة فيها أنشأت ماريّا وبترونيلا مشغلاً صغيراً للخياطة في ضاحية البلد ، فجاء نحو عشر من البنات ليتعلمن الخياطة . ولكن ها هو شيء جديد يقلب الأمور رأساً على عقب .

زوجان من الأعين ظهر فيهما الخوف

جاء شتاء السنة ١٨٦٣ فما إن عادت البنات الصغيرات الى بيوتهن وهن يرِددن الثلج عنهن بقباقيهن ومظلاتهن حتى سمعت ماريّا وبترونيلا قارعاً يقرع الباب ، فوجدتا نفسيهما أمام بائع

جوّال بقي أرمل مع طفلتين ، فسألها أن تقبلاهما ، لا في النهار فحسب ، بل في الليل أيضاً ، لأنه لا يمكنه هو أن يبقى في بيته ، ولا أن يرهاهما . حضرت اليتيمتان الصغيرتان ولكلّ منهما زوجان من الأعين ظهر فيهما الخوف . أكبرهما في سن الثامنة وأصغرهما في سن السادسة . أمسكت بترونيلا بيد الكبيرة وأخذت ماريّا الصغيرة بين ذراعيها ، فأوقدتا نارا كبيرة في الموقد . وهكذا من غير سابق تصميم تحوّل المشغل الصغير ، منذ تلك الليلة ، إلى بيت للطفلات الفقيرات . ذهبت ماريّا وبترونيلا فقرعتا أبواب الجيران وأفلحتا في استعارة سريرين صغيرين وقليل من الدقيق لإعداد البولنتا .

فما إن سمع الناس في مورنيزي أن المازارلو أضافتا في بيتهما يتيمتين صغيرتين حتى جاء كثير من الناس يحملون حزمة حطب وغطاءين ونصف كيس من الدقيق ، ولكنهم أتوا ايضاً بطفلات غيرهما يحتجن إلى بيت ، فصار عددهنّ سبعاً بعد وقت قليل .

كانت الطفلات يتلون " السلام عليك يا مريم" قبل العمل في المشغل . إذا دقّ الجرس علقت ماريّا على ذلك بقولها : " ذهبت ساعة من هذ العالم ، ودنونا ساعة من الفردوس " وهي تريد أن تعمل طالبات الصناعة للرب : " كل شكّة إبرة عمل حبّ الله " .

وأرادت ماريّا أن " تعمل الخير لجميع طفلات البلد " يوم الأحد أيضاً ، فأنشئ ما يشبه المصلّى وكانت الصديقتان تجمعان الطفلات أيام العيد وتصحبانهن إلى الكنيسة ، وتساعدانهن بالألعاب والنزهات على أن يبقين فرحات .

خوري رعية يطلب عملا

ولد الأب دومنيك بستارينو في مورنيزي ورُسم كاهناً في سنّ الثانية والعشرين في معهد

كهنوت جينوى فلبث يعمل في معهد الكهنوت ، ثم عاد إلى بلده وهو في الثلاثين ، وقد دعا خوري الرعية الطاعن في السن وطلب إليه أن يساعده . فعرف نفسه في المنبر إلى أهل بلده بهذا الكلام : " إني أطلب عملاً ، لا في كرومنا بل هنا في الكنيسة في كرم الله الكريم . عرض عليّ أماكن مختلفة ، ولكني سأبقى هنا بينكم إذا قدّمتم لي العمل الذي أطلبه " .

التقى ودون بوسكو في جينوى أوّل ما تلاقيا ، وكان ذلك اللقاء في بيت الاب فراسينيتي (Frassinetti) ولكن الالتقاء الحاسم حصل في القطار في أثناء سفر لهما من أكوي (Acqui) إلى ألسندرية (Alessandria) فعرض عليه دون بوسكو زيارة مصلاه في فالدوگو .

فذهب إليه بستارينو بعد بضعة أشهر ، فذهب قلب الزائر منظر ذلك العدد الكبير من الصبيان الذين يكبرون بفرح في مدرسة العمل والايمان . قال له : " خذني معك " فوافق دون

بوسكو على أن يصير سالسيًا (وقد نذر الاب بستارينو النذور الرهبانية في العام القابل) ولكنه أراد أن يبقى في مورنيزي حيث أشياء كثيرة جدًّا تجعله ضروريًا لا يُستغنى عنه . ومهما يكن من أمر ، فقد صارت علاقاته بدون بوسكو علاقات تعاون وخضوع ، فأخذ الأب بستارينو منذ ذلك الحين يحضر اجتماعات الرؤساء السالسيين .

وفي أثناء ذلك حدث في مورنيزي أمر جديد ، فقد طلبت فتاتان من " البريئة من الدنس " إلى ماريًا وبترونيلا أن تعملتا مثلهما فسئّل الأب بستارينو فأجاب : " ولمَ لا ؟ انكما كلتيكما مشغولتان بأمر كثيرة جدًّا ، حتى إنكما لتعجزان عن القيام بها " . وهكذا أُلّف نوع من الجمعية : فالفتيات الأربع يعلمن البنات الصغيرات الخياطة ، ويقمن مقام الأمهات لسبع طفلات يعشن عندهن في النهار والليل .

في السنة ١٨٦٤ وصل دون بوسكو إلى مورنيزي كما ذكرنا في الفصل ٣٧ ، وكان يصحبه صبيانه في أثناء العطلة لنزهات الخريف ، فلبث فيها خمسة أيام فحضرت ماريًا مازارلو المحاضرة التي ألقاها إلى بنات " البريئة من الدنس " ، وأفلحت في الاستماع كلّ مساء إلى " كلمة المساء " التي يوجهها إلى صبيانه ، فلامها بعضهم وعدّ ذلك تطقلاً فأجابت : " ان دون بوسكو قدّيس ، إني أحسن ذلك " .

في العام الذي بعده انقسمت بنات مريم البريئة من الدنس قسمين ، فاللواتي عزم على العيش عيشة جماعية مع ماريًا وبترونيلا أقمن في بيت قدّمه لهن الأب بستارينو ، وسكناهن أحسن من ذي قبل ، وهي بالقرب من الكنيسة وتسمّين بنات البريئة من الدنس ، وأمّا سائر الفتيات اللواتي فقد فضّلن مثل أنجيلينا مكانيو (Maccagno) البقاء في أسرتهنّ فسمّين الأرسولنيات الجديديات (Nuove Orsoline) .

الدفتـر الصغـير المفقود

كان أهل مورنيزي بينون في الحي الذي يقال له بورغو ألتو (Borgo Alto) معهداً لصفوف الصبيان ، فوعد دون بوسكو أن يرسل إليه رهبانه السالسيين ، عندما يتمّ البناء واشترك جميع أهل البلد في الأعمال بهباتهم أو بتقديم طوعيّ لليد العاملة .

في السنة ١٨٦٧ تمّ بناء معبد المعهد ، فجاء دون بوسكو ليقيم فيه القدّاس ، فالتمس بركات الله على المعهد الجديد وأهل مورنيزي ، وتوقف أربعة ايام في البلد ، وألقى محاضرة خصّ بها الجماعة الصغيرة " لبنات البريئة من الدنس " .

في السنة ١٨٦٩ عجلّ دون بوسكو في الحركة لإنشاء " أسرته الثانية" فقد شخص بعينه منذ

ذلك الحين إلى " بنات " مورنيزي المتواضعات ، وأرسل من غير طبل ولا زمر إلى ماريا وبترونيلا دفتراً صغيراً " كتبه بيده ، وفيه ساعات الدوام اليوميّ ونظام صغير لكي تباشرا وطفلاتهما حياة أكثر نظاماً " (ذكريات السيرة ، ج ١٠ ، ص ٥٩١) . فقد ذلك الدفتـر . ذكرت الأخت بترونيلا هذه النصائح : " بذل الجهد للعيش بحضرة الله ، والصلاة باستعمال ابتهلات كثيرة ، والسلوك بلطف وصبر ومحبة ، والسهر بانتباه على البنات وابقاؤهنّ مشغولات دائماً ، وإعدادهنّ لحياة التقوى ، حياة بسيطة فيها الصراحة والثقة " . (ذكريات السيرة ، ج ١٠ ، ص ٥٩٢) .

١٨٧٠ . ذهب دون بوسكو ثلاثة أيام الى مورنيزي ليسترّيح قليلاً ، ويراقب أيضاً من كتب حياة الجماعة ، فأراد أن يرى ما كانت النتيجة التي حصل عليها الدفتـر في حياتهن ، فسرّ تمام السرور .

١٨٧١ في ٣٠ كانون الثاني (يناير) . عُقد في المصلّى اجتماع الرؤساء السالسيين ، فاشترك فيه الأب بستارينو وقدم عرضاً للتطوّر الذي جرى في مورنيزي .

٢٤ نيسان (ابريل) ١٨٧١ . جمع دون بوسكو مجمع الرهبانية ، فحضر لأباء روا كالبيرو وسافيو وغيفارلو ودوراندو وألبيرا ، فأعلن أنّه جمعهم لمسألة عظيمة الشأن . وهذا كلامه نقلا عن محضر الجلسة :

" إن عدداً من الناس كثيراً حتّوني مراراً على أن أعمل في سبيل الإناث قليل الخير الذي نعمله بنعمة الله في سبيل الصبيان . لو أطلعت ميولي الشخصية لما أوجبت على نفسي هذا النوع من الرسالة ، ولكنني أخاف أن أقاوم مقصدا للعناية الالهية ، فلذلك أدعوكم إلى التفكير لدى الرب ، لتتمكّنوا من العزم على أمر سيكون لمجد الله الاعظم وخير النفوس الأعظم . سنوجّه صلواتنا في هذا الشهر لكي ننال من الرب النور اللازم من أجل هذه المسألة العظيمة الشأن " .

عندما ينقص الدقيق من أجل البولنتا

وصفت فيليشينا مازارلو شقيقة مريا الحياة كما كانت في الأوقات الأولى : " كان الطعام الضّروري ، ولا سيما الدقيق من أجل البولنتا ، ينقص الجماعة الصغيرة مراراً كثيرة جداً . ولما كان يتوافر ، كان ينقص الحطب اللازم لطبخها .

فكانت مريا وبعض رفيقاتها يخرجن إلى الحقول ويذهبن تحت الشجر ليجمعهن حزمًا من الحطب اليابس ، ويعدن بها وهنّ يحملنها على ظهرهنّ ليصلحن الطعام . فإذا طبخت البولنتا حملنها إلى الساحة ووضعنها في قصعة على الأرض ، ودعون الجماعة إلى المأدبة الفاخرة . كانت تنقصهنّ الصحون ولوازم المائدة ، وأما الشهية للطعام والبشاشة فلا " .

في آخر أيار (مايو) ١٨٧١ جمع دون بوسكو المجمع مرّة أخرى وطلب من كلّ منهم رأيه ، فارتأوا جميعاً أنّ المبادرة في سبيل الإناث من الشبيبة ملائمة جداً ، فاستنتج دون بوسكو النتيجة اللازمة : " في هذه الحال يمكننا القول الآن أنّ الله يريد حقاً أن تُعنى بالفتيات أيضاً . إذا أردنا أن نصل إلى شيء ملموس ، فإني أقترح أن تكون الدار التي يُتيم الأب بستارينو بناءها مسكناً لهذا المشروع " .

في وقت قريب من نصف حزيران (يونيو) دعا دون بوسكو الأب بستارينو على عجل . إنّ التقرير الذي خلّفه ذلك الكاهن الطيّب هادئ اللهجة جداً كُتِب بأسلوب محض رسمي ، ولكن يُرَجَّح أن الحوار كان مختلفاً جداً حامياً الوطيس خشناً ، اذا كان لنا أن نصدّق الأخت بترونيلا ، فقد روت " أنه كان من عادة الأب بستارينو عندما يرجع من مقابلة لدون بوسكو أن يبدو وكأنه في السماء السابعة ، في حين أنّه كان في تلك المرة يبدو مشغول البال مضطرباً مغتماً " .

إلى القارئ ما ورد في تقرير الأب بستارينو : " أعرب دون بوسكو عن رغبته في أن يُعنى بتربية بنات الشعب تربية مسيحية ، وأعلن أن مورنيزي هي المكان الأصح في رأيه : ان بنات البريئة من الدنس اللواتي يقمن فيه يتيسر لهن تلبية نداء الحياة المشتركة المنفصلة عن العالم ، والشروع في مؤسسة لبنات السيدة مريم العذراء معونة المسيحيين ، لخير عدد كثير جداً من فتيات الشعب ، فأجاب الأب بستارينو من غير تردد (على ما جاء التقرير) : " إذا قبل دون بوسكو إدارة المؤسسة ورعايتها فإني أجعل نفسي في يديه " .

كان في ذلك الحين بالقرب من ماريّا وبترونيلا تريزيا بامبورو (Pampuro) وكاترينا مازارلو وفيليشينا مازارلو ، وحنة فرّيتينو (Ferretino) والفتيات روزينا مازارلو باروني (Baroni) ومريم غروسو (Grosso) وكورينا أريغوتّي (Arrigtti) .

هناك مشكلتان تجعلان الأب بستارينو مشغول البال مضطرباً : إن هؤلاء الفتيات

مسيحيات صالحات ، ولكن ما من إحداهن فكرت بعد أن تصير راهبة . أراد دون بوسكو أن يجعل معهد بورغو التو (Borgo Alto) داراً لسكني بنات السيدة مريم العذراء معونة المسيحيين ، في حين أن البلد عمل للبناء راجياً أن يجعل منه معهداً لصفوف الصبيان ، فقد يثير التبدل نصف ثورة .

رأي البابا واستياء البلد

ذهب دون بوسكو في ذلك الشهر شهر حزيران (يونيو) ١٨٧١ الى رومة ليعرض مشروعه الجديد على بيوس التاسع فطلب البابا أن يدعه يفكر في الأمر بضعة أيام ثم قال : " يبدو لي أنّ

مشروعك مشروع يريد الله . رأى أنه يجب على هؤلاء الراهبات أن يجعلن غايتهن الاولى تعليم الإناث وتربيتهم كما يفعل السالسيون للذكور . أمّا ارتباطهن فإِنَّهن مرتبطات بك وبخلفائك . ولذلك فكر بقوانينهن ، واشرع في تجربتها ، وأمّا البقية فستأتي بعدئذ " .

في ٢٩ كانون الأول (ديسمبر) ١٨٧٢ جمع الأب بستارينو ، بأمر من دون بوسكو ، بنات السيدة مريم العذراء معونة المسيحيين السبع والعشرين لكي ينتخبن أول رئيسة لهنّ ، فكان واحد وعشرون صوتاً نصيب ماريا مازارلو ، فأخذها الرعب ، وطلبت لوقتها من رفيقاتها أن يعفيناها ، فأصررن على اختيارهن ، وعزم الأب بستارينو على تسليم الأمر كله إلى قرار دون بوسكو ، فتنقّست ماريا الصعداء : إنّ دون بوسكو يعرف أنها عاجزة عن الأمر ، وسوف يُعفيها ، ولا ريب في ذلك . غير أنّ دون بوسكو يعرف كم هي قادرة على الأمر فثبتها في منصبها ، فاغتمت غمّاً شديداً .

والآن يجب إعطاء بنات السيدة مريم العذراء معونة المسيحيين مسكناً ثابتاً ، ولكن كيف السبيل إلى ذلك من غير إثارة استياء البلد ؟

فقد ساعد حادث على حلّ المشكلة . كان بيت خوري الرعية يُنذر بالانهيار ، فعزمت البلدية على هدمه وإعادة بنائه ، فطلبت من الأب بستارينو ، إلى أن يتم ذلك ، أن يجعل في في متناول الخوري ، البيت الذي يمتلكه بالقرب من الكنيسة .

- وإلى أين أرسل الفتيات اللواتي يقمن بتدريس الخياطة ، ويُضفن الطفلات الصغيرات ؟
فكر المستشارون واقترحوا :

- أرسلهن الى بورغو ألتو ، فقد انتهى بناء الطبقة الأرضية هناك ولا أحد يسكنها .
فتنقّس الأب بستارينو الصعداء : لقد أمره أن يعمل ما لا يجرؤ على طلبه ، فتم الانتقال في عربات للفلاحين من غير أن يُنسى دود القز : فهو مورد من موارد رزقهن الضئيلة .
لم يُثر الانتقال لحينه أيّ استغراب كان ، ولكن شاع في البلد أنّ بنات السيدة مريم العذراء

معونة المسيحيين (و عددن يزداد بسرعة) سوف يشغلن المعهد ، لينشئن فيه مؤسَّسة رهبانية جديدة ، " فحدث لوقته تذرّ واحتجاج عامان " . (ذكريات السيرة ، ج ١٠ ، ص ٦١٣) .

كتب فيرث (Wirth) وصفاً أكثر تفصيلاً : " صاح أهل مورنيزي : أنّها خيانة . خَطت بنات السيدة مريم العذراء معونة المسيحيين خطواتهن الأولى في جوٍّ من قلة التفهّم لهن ، وشبه عداوة ، فضلاً عن الفقر والحرمان وكان كبيرين " .

كتب الاخت فيليشينا مازارلو : " شاع أن ذلك كله لن يدوم كثيراً " .

وذلك ما كان يجب حدوثه من الوجهة البشرية ، لأن أشياء كثيرة كانت ناقصة ، غير أن

ماريا دومنيكا لم ترتعب بل واصلت حياتها ، حياة التعب والبذل . لم يكن البناء قد تمّ ، فكانت تُشغل نفسها طوال النهار بتكديس الحجارة والغيسل . نهر الروفرنو (Roverno) يبعد قليلاً من البلد ، فاذا جاء يوم الغيسل ، أخذت شيئاً من الخبز وقدرأ من البولنتا ، وذهبت إلى النهر مع بعض أترابها ، وكُنّ يقمن بعملهن هناك ، فاذا عادت إلى البيت متعبة ومبللة اهتمت بتبديل ثياب غيرها ، وأعدت لهنّ طعاماً ساخناً . كانت مثل الأمّ الحنون .

رائحة حفنة من الكستنة

في آب (اغسطس) ١٨٧٢ تلقّت بنات السيدة مريم العذراء معونة المسيحيين الثوب الرهباني ، ونذرت أيضاً إحدى عشرة منهنّ نذوراً لثلاثة أعوام ، وكانت ماريا مازارلو بينهنّ .

سلم الاسقف شياندرا (Sciandra) مطران أكوي الصليب إلى خمس عشرة راهبة : " خذن يا بناتي الصالحات صورة يسوع حبييكن . سيكون سنَدُكُنّ في الصّعاب التي تعترضكن " .

حضر دون بوسكو حفلة ارتداء الثوب الرهباني والنذور ، ثم قال بلهجة بسيطة ودّية : " إنكُنّ مغتّمات ، كما أرى بأَمّ عيني ، لأنّ جميع الناس يخالفونكن ، ويسخرون منكن ، حتى أهلكن يُؤلونكن ظهورهم . يجب عليكُنّ أن لا تستغربين . قرأتن في فرض السيدة العذراء مريم : إن نارديني أرسل رائحة زكية . أتعرفن متى تفوح رائحة الناردين ؟ إنها تفوح عندما يُحسن هرسُهُ . لا تعجبين ، يا بناتي العزيزات ، إذا أسيئت معاملتكُن في العالم ، كما يحدث ، ولكن الآن تَشجَعن وتعزّين لأنكُنّ هكذا تُصبحن قادرات على القيام برسالتكن . إذا عشتن عيشة تليق بحالتكن أمكنكُنّ عملُ خيرٍ كلبير لنفسكن ولنفس قرييكن " .

استمر الفقر حتى بلغ حدّ البؤس . كان أهمّ الوان طعام الجماعة البولنتا ، والكستنة اليابسة المغليّة . روت راهبة من تلك الأيام الأولى : " كانت رائحة تلك الحفنة من الكستنة تنتشر ساعتين

قبل الطعام وتسبب لنا الاغماء " .

كانت كثير من الراهبات يستعملن حطبة ملفوفة بالخرق ، لتكون مخدّة لهن . كانت جميع الوسادات التي في البيت للطفلات الصغيرات . لم تُرد ماريّا مازارلو أن تقوم الراهبات الشابات بأعمال التقشف هذه ولكنها لم تستطيع أيضاً أن تشرح لماذا كانت هي أول من اخترع ذلك التقشف .

الموت يقرع الباب

في ٢٩ كانون الثاني (يناير) ١٨٧٤ دخل الموت المعهدَ أوّل مرّة . توقّيت ماريّا بوجيو

(Poggio) وهي راهبة شابة من الرعيل الاول ، كانت مرحلة متأهبة كلّ حين لتؤدي خدمة ، ولتنفع غيرها ، وتسهر على المرضى . فقد جاءت وبردت كثيراً في ذلك الشتاء وتوقّيت صامتة من غير أن تُزعج أحداً .

اجتمع أهل البلد كله للاشتراك في تشييع تلك الراهبة الشابة في مورنيزي ، " فبكي كثير من الناس " كما ذكر الأب بستارينو ، فأوقع ذلك الأمر الصلح بين السكان وهؤلاء الفتيات الشاحبات ، اللواتي سرن وهنّ لابسات ثياب الراهبات يتلون السبحة . ومنذ ذلك اليوم لم ينقص بيت المؤونة دقيق الدرة الصفراء من أجل البولنتا ، ولا دقيق الحنطة من أجل الخبز . ولكنّ الموت قرع الباب مرّة أخرى .

في ١٥ أيّار (مايو) كان الاب بستارينو يقرأ على الراهبات صفحة على قصر الحياة . قال : " لربّما فاجأني الموت بعد سنة أو ستة أشهر أو أسبوع أو ساعة ولربّما في آخر هذه القراءة " . وعندئذ أخذ الكاهن بيكي ، فاضطربت الراهبات اضطراباً شديداً .

وفي الساعة الحادية عشرة ، بينما هو مكب على عمله ، وقع أرضاً فمات بعد بضع ساعات وكان في سن السابعة والخمسين .

ذهبن ثلاثاً والتلج يتساقط

٩ شباط (فبراير) ١٨٧٦ . ذهبت الراهبات الثلاث الأوليات والتلج يتساقط ، ذهبن الى

فاليكروزيا (Vallecrosia) في ليغوريا ليدشن مصلى ومدرسة للاناث .

٢٩ اذار (مارس) . ذهبت سبع راهبات إلى تورينو فافتحن مصلى ومدرسة للاناث على

بعد خمسين متراً من مصلى فالدوگو . صارت تلك الدار طوال مدة تزيد على أربعين سنة ، الدار المركزيّة لبناث مريم معونة المسيحيين .

وفي السنة ١٨٧٦ ذهبت ٢٦ راهبة أخرى من مورنيزي : ذهبن ليفتن مدارس ومصليات

في بيلا (Biella) والاسيو (Alassio) ، ولو (Lu) مونتفراتو ولانتسو (Lanzo) تورينيزي . وذهبت سبع منهنّ إلى سيستري ليفانتي (Sestri Levante) : ذهبن ليُنشئن أوّل الحمامات البحرية لمائة صبيب وبنت مصابين بالخنزارية .. بين هؤلاء الوجوه الكريهة تعمل بفرح مشرق الأخت هنريت سوربوني (Sorbone) وقد وصلت في الماضي إلى مورنيزي يتيمة صغيرة السنّ ، وهي تُمسك بيد أخواتها الأربع الصغيرات .

١٨٧٨ . لقد أصبحت بنات مريم معونة المسيحيين أسرة كبيرة منتشرة في العالم كله ، فانتقل مركز الرهبانية ، بأمر من دون بوسكو ، من مورنيزي إلى نيتسا موتفراتو

(Nizza Monferrato) . تفتّر قلب ماريا مازارلو لذلك الانتقال ، فودّعت أباهَا وأمّها الطاعنين في السنّ ، والمقبرة التي فيها يرقد الأب بستارينو ، وبعض أترابها الأوليات ، والبيت الصغير الذي فيه علّمت أول البنات الصغيرات الخياطة .

إنّ تولي ماريا مازارلو الرئاسة العامة لم يفقدها قطّ الشعور بضرورة العلاقات بغيرها ، فقد واصلت رعاية البنات في المهجع ، وهي تنظر إليهنّ بعطف وانتباه . هناك طفلة ألصق الحَصْر (١) قدّمها وجرابها وحذاءها بعضها ببعض ، فنظرت حولها لتعرف هل يراها احد وانسابت بين شرفيها بحذاءها وما إليه . فتنبّهت مازارلو لتصرّفها ، فلم تقل شيئاً ، بل نزلت إلى المطبخ فأنت بطست من الماء الفاتر ، وشاش وقطن ، ووضعت ذلك كله بجانب سرير الطفلة وهمست في أذنيها : " الآن أريني قدميك . لا تخافي لن أصيبك بأذى " .

جاء الموت وأزهار أيار

كانون الثاني (يناير) ١٨٨١ . أخذت الراهبات يرين أن صحة الأمّ مازارلو تتدهور ، فهمس لها بعض الناس أنّه يجب عليها أن ترعى صحتها ، أكثر مما تفعل ، ولكنها أجابت مبتسمة :

- إنه من الخير لجميع الناس أن اذهب عن هذا العالم ، فهكذا تُنتخب رئيسة أحذق منّي . اشتدّت وطأة المرض إذ كانت ترافق جماعة من المرسلات الذاهبات الى أمريكا . فقد عرض لها حادث طارئ اضطرها الى أن تقضي ليلة منطوية على نفسها في زاوية ، وهي لا بسة ثيابها ترتجف من البرد . ففي الصباح لم تقو على أن تنتصب قائمة . ومع ذلك جارت على نفسها بعد قليل ، لثرافق بناتها إلى الميناء .

ولكن قواها خارت بعد بضع ساعات فشخصّ الطبيب أنها مصابة بذات الجنب الحادة ، فبقيت أربعين يوماً مصابة بالحمى ، بعيدة من ديرها ، تُعاني من اللبّخات التي تُحدث الالتهاب ،

وتسلخ لها جلدها ، وهي المعالجة المعروفة وحدها في ذلك العصر .
ثم زالت الحمى ، ولكن الطبيب ظلّ يتكلم صراحة الى حد الخشونة : لن تعيش سوى
بضعة أشهر .

وعادت إلى نيتسا ودون بوسكو وقالت له :

(١) تورّم يسببه البرد الشديد في الأصابع والقدمين (حاشية من المترجم) .

- كان كلام الطبيب صريحاَ جداً . دون بوسكو ، أسألك ، أيسعني أن أشفى ؟
لم يُجب دون بوسكو جواباً مباشراً ، بل روى لها حكاية : " ذهب الموت فطرق باب دير وقال
لجميع الراهبات اللواتي صادفهن : تعالين معي ، ولكنهنّ تملصنّ منه جميعاً ، فقد كُنّ مشغولات
بأمور كثيرة فذهب إلى الرئيسة وقال : عليك أنت أن تكوني قدوة حسنة . تعالي ! فاضطرت
الرئيسة إلى الانقياد والطاعة " .

فَهَمَّت الأمّ مازارلو مغزى الحكاية فطأطأت رأسها وحاولت أن تبتسم .
فَعَادَت إلى نيتسا شاحبة اللون منهوكة القوى ، فأثرت فيها حفلة العيد التي أُقيمت
لاستقبالها تأثيراً شديداً فشكرت باخلاص :

- لا ينبغي لنا في هذا العالم ، مهما حدث ، أن نُفرط في الفرح ، وفي الحزن . إننا في يد
الله ، وهو أبونا ويجب علينا أن نكون متأهبات دائماً للعمل بما يشاء .

وقعت الخاتمة في الربيع ، إذ رأت من خلال زجاج نافذتها ، الخضرة والازهار ، وكانت
تحب صوت الطفلات ، وهنّ يركضن ويلعبن ولا همّ لهنّ . وأرادت أن تخاطب أخواتها فقالت
لهن :

- أحببنّ بعضكن بعضاً حباً شديداً . ابقينّ مُتحدات دائماً أبداً . إنكنّ تركتن الدنيا ، فلا
تصنعن دنيا اخرى هنا في داخل الدير . فُكّرَن في ما دخلنّ الرهبانية من أجله .
تألّمت ولكنها أبّت حتى النهاية أن تُحزن أحداً بل حاولت ان تُغَيّ . وجاء الله ليذهب بها في
صباح ١٤ أيار (مايو) فأفلحت في أن تُتمّتم : " إلى اللقاء في السماء ! " . كانت في الرابعة
والأربعين .

فُدُعيت كاترينا داغيرو (Daghero) وهي راهبة شابة في سنّ الخامسة والعشرين ، الى أن

تخلفها رئيسة لبنات مريم معونة المسيحيين وكانت قد دخلت الرهبانية . وهي في الثامنة عشرة ، فساعدتها الام مازارلو على التغلب على ما في الايام الاولى من الكآبة والخشونة . وكانت قد أصبحت في السنة ١٨٧٩ رئيسة مؤسسة تورينو . إن مجاورة دون بوسكو قد أيقظت فيها المبادرة في إدارة المصلى والمدرسة ، فظهرت خصالها الدفنية من متانة وتوازن ورفق .
وبدافع منها أنمت بنات مريم معونة المسيحيين مشروعاتهن في إيطاليا وفرنسا وأمريكا الجنوبية ، ولما ثوقي دون بوسكو ، كُنّ قد اجتزن طريقاً طويلة فكنّ يدرن ٥٠ ديراً وكان عدد الراهبات ٣٩٠ ، وعدد المبتدئات نحو مائة .

٤٢

فتح رومة وقشعريرة النهاية

في السنة ١٨٧٠ وقع حادثان لهما شأن عظيم جداً في تاريخ الكنيسة وايطاليا ، وهما المجمع الفاتيكاني الأول واحتلال الجيش الايطالي لرومة .

مجمع في رومة ومجمع مضاد له في نابولي

أفتتح المجمعُ افتتاحاً رسمياً في ٨ كانون الاول (دسمبر) ١٨٦٩ ، وجعل له بيوس التاسع هدَفين رئيسين : هما عرض واضح للعقيدة الكاثوليكية تجاه الضلالات العصرية ، وتحديد عصمة البابا من الغلط .

مضى ثلاثمائة سنة على آخر مجمع وهو المجمع التريدينيني . وجّه بيوس التاسع نداءً فيه إلحاح إلى أساقفة الكنائس الشرقية المنفصلة لكي تشترك في المجمع ، فكانت الأجوبة سلباً وليس فيها كثير من الكياسة .

ودُعي البروتستانت أيضاً ، ولكن عبارة الدعوة تكلمت " على الفرصة السانحة للرجوع إلى القطيع الواحد للمسيح " ، فكان لها صدى سيئ جداً في مسامعهم .

وكانت الماسونية الايطالية في حقبة من العداة الحادّة للكنيسة ، فأعلنت مجمعاً مضاداً في نابولي ، فكان أوّل من تقبل الدعوة إليه جوزيف غاليبالدي (Garibaldi) والكاتب الفرنسي فيكتور هوغو (Hugo) . وقد نُظمت ، في عدة ولايات ، مظاهرات شعبية لإعلان " حرب على

البابا لا هوادة فيها " .

وكان عدد الأساقفة الحاضرين لدى افتتاح المجمع المجمع ٢٠٠ إيطالي ، وسبعين فرنسيا و ٤٠ نمساوياً وهنغارياً ، و ٣٦ اسبانياً ، ١٩ إرلندياً ، و ١٨ ألمانياً ، و ١٢ إنكليزياً و ٥٠ شرقياً و ٤٠ أمريكياً من الولايات المتحدة الأمريكية و ٩ من الكنديين ومائة من مختلف الأمم وبلاد الرسالات . وحضر مع الأساقفة الرؤساء العامون للرهبانيات ، وكان مجمل عدد آباء المجمع نحو ٧٠٠ .

في ٢٠ كانون الثاني (يناير) ١٨٧٠ ذهبَ دون بوسكو إلى رومة فوصل إليها في اليوم الرابع والشعرين ، وفي ٨ شباط (فبراير) تحدّث إلى البابا حديثين خاصين طويلين ، فطلب منه بيوس التاسع أن ينشر بين الشعب كتاباً صغيراً لتاريخ الكنيسة يُبرز عصمة البابا من الغلط . فأطاع دون بوسكو أمر البابا ، وأرسل في آخر السنة إلى جميع المشتركين في القراءات الكاثوليكية طبعة جديدة لكتابة تاريخ الكنيسة وقد أضاف إليه فصلاً على المجمع الفاتيكاني الأول وعصمة البابا من الغلط .

" صوت السماء يكلم راعي الرعاة "

في أثناء مقابلة بين البابا وبين دون بوسكو في ١٢ شباط (فبراير) ، سلّم إليه دون بوسكو بضع صفحات من " النبؤات على المستقبل " . وجاء في الأسطر الأولى : " في الليلة قبل عيد الغطاس للعام الجاري هذا ١٨٧٠ ، غابت عن بصري أمتعة غرفتي ، ووجدتُ نفسي أتأملُ أشياء عالم الغيب ، وقد دار ذلك وقتاً قليلاً ، ولكني رأيتُ أموراً كثيرة " . وكُتِبَ البيان (وقد حُفِظَ الأصل بخط دون بوسكو) بإنشاء تكثير قيه الصور والنبؤات وتختلط الإنذارات والكلام على المستقبل والنداءات وكثير منها غامض ملتبس . وكانت الفقرة التي أثرت في البابا أكثر من غيرها (التي ما زالت إلى يومنا غير واضحة لنا أيضاً على وجه كافٍ) هذه الفقرة :

" والآن يُكلم صوتُ السماء راعي الرعاة . إنك في المؤتمر الكبير مع الأعضاء ، ولكن عدوّ الخير لا يهدأ لحظة واحدة ، بل يدرس جميع الحيل ويعمل بها ليوقع بك . سيبدُر بذور الشقاق بين الأعضاء ، ويبيعث لك أعداء بين أبنائي ، وستتدفق قوَّات الدنيا ناراً وتبذل الجهد لِخنق الكلام في فم حراس الايمان ، ولكن لن يكون هذا . سوف يفعلون الشر ولكن لأنفسهم . واما أنت فعجّل ، وإذا كان لا يمكن حلُّ المشاكل ، فاقطعها قطعاً . واذا وقعت في الضيق فلا تتوقف ، ولكن واصل سيرك حتى يُقطع رأس وحش الرعب . إن تلك الضربة ستزلزل الأرض والجحيم ، ولكن العالم سيستعيد الطمأنينة وسيفرح الصالحون . فادعُ اليك عُضوين فقط ، ولكن أينما ذهبتَ

فواصل سيرك ، وأتمّ العمل الذي عُهد به إليك . وإن الأيام تمضي سريعة وإن السنين تسير إلى العدد المحدد ، ولكن الملكة العظيمة ستكون دائماً أبداً عونك ، وكما كانت في الماضي فستكون في المستقبل عون الكنيسة العظيم القدير " .

وتكلم دون بوسكو بعد عشرين سطرأ على مستقبل البابا فقال : " أنت الآن كبير السنّ ، نال منك الضعف ، ولا حماية لك ، لقد جردت ، ولكنك بكلامك المؤيّد تجعل العالم يرتجف (ان احتلال الدولة البابوية لم يحدث إلا في ٢٠ أيلول سبتمبر) .

الانذارات القادمة لفرنسا

إن الصفحة التي بدت أكثر غموضاً حينذاك هي الصفحة التي تتناول فرنسا . ففي تلك الأشهر كان نابليون الثالث أقوى ملك في أوروبا . ماكان ليخطر ببال أحد وقوع كارثة الحرب بين فرنسا وبروسيا (وقد بدأت في ١٩ تموز يوليو ١٨٧٠) ومذابح الحكومة الثورية في باريس (اذار مارس - أيار مايو ١٨٧١) . وهذا كلام دون بوسكو كما كتب :

" ان قوانين فرنسا كفت عن الاعتراف بالخالق ، وسيعرّف الخالق نفسه ، ويتفقدّها ثلاث مرّات بعضاً غضبه . سيخفف كبرياءها بالهزائم والنهب وإبادة الغلات وذبح الحيوانات والناس . إنّ اعداءك سينزلون بك الشدائد والجوع والخوف ورجاسة الأمم . ولكن الويل لك إذا لم تعرفي اليد التي تضربك . ستسقطين في أيدي غريبة ، ويرى اعداؤك عن بُعد قصورك تلتهمها النيران ، وتصبح دُورك كومة من الأنقاض تسبح في دم أبطالك الغابرين " .

والتقى ، في الأيام بعدئذ ، وكثيراً من الأساقفة ، واستعمل ما يَنمّتع به من مكانه ، لِيُشجّع على التعجيل في تحديد عصمة البابا من الغلط . ويبدو أنّه ألحّ أشدّ إلحاحه على السيد غاستالدي (Gastaldi) ، وكان حينذاك مطران سالوزو (Saluzzo) وصديقه الحميم .

وأكدّ الأب لموان (Lemoyne) أنّ بيوس التاسع سرّاً أعظم السرور بنشاط دون بوسكو حتى إنه قال له ذات يوم :

- ألا يمكنك أن تترك تورينو فتجيء لتقيم هنا في رومة ؟ أترى جمعيتك تخسر شيئاً في ذلك ؟

- أيّها الأب الأقدس ، إن ذلك يؤول إلى خرابها . (لموان ، حياة دون بوسكو ، ج ٢ ،

ص ٤٤) .

غادر دون بوسكو رومة في ٢٢ شباط (فبراير) .

وفي ٢٤ نيسان (أبريل) وافق المجمع بإجماع الاصوات على الوثيقة " ابن الله " وفيه عرضٌ

مُكثف واضح للعقيدة الكاثوليكية على الله والوحي والايمان . وقد أبرزت على وجه خاص القول
إن العلم والايمان ، إذا أحسن المرء تفهّمه لها ، لا يخالف الواحد منهما الآخر ، لأنهما كليهما
من الله .

أثرى البابا معصوماً من الغلط

في ١٥ أيار (مايو) بدأ النقاش في عصمة البابا من الغلط ، في ردهة اجتماعات المجمع ،
واستمرّ الجدل العامّ حتى حزيران (يونيو) ، فكتبَ الكردينال بونشوز (Bonnechose) في

دفتره : " يبدو أننا أبحرنا لرحلة عسيرة ، في سفينة يضربها الموج ، وأصيب جميع ركابها
بالدوار " .

قسّم آباء المجمع تيّاران ، فتجادلوا جدالاً عنيفاً في داخل المجمع ، وخارجه ، فكانت
الأكثرية تؤيد عصمة البابا من الغلط في حين أن الأقلية (نحو ستين أسقفاً من الالمان والفرنسيين
والايطاليين والأميركيين) كانت ترى في إعلان تلك العصمة عقبه كآداء دون التقارب من الكنائس
البروتستانتية . وقد أشعر بيوس التاسع عدّة مرّات بما له من السلطة لكي تُعلن عصمة البابا من
الغلط .

في ١٨ تموز (يوليو) وافق المجمع على النصّ الذي يتناول العصمة من الغلط ، فروى
شاهد : " كان ذلك اليوم يومَ مطر هطال على رومة ، وزوابع متواصلة شديدة جداً ، وبينما يقرأ
المطران فالنزياني (Valenziani) النصّ ، كان الرعد يهزّ النوافذ ، ولما كانت البروق تكفّ عن
وميضها ، كان يسود الجوّ ظلامٌ يدعو الى الكآبة " .

أعلن قرار المجمع ، وقد وقّع عليه البابا ، هذه الحقيقة عقيدةً من الايمان :
" إن الحبر الروماني يتكلّم من أعلى عرشه ، عندما يقوم بعمله قيامَ الدليل والمعلم لجميع
المسيحيين ، إستناداً إلى سلطته الرسولية العليا ، فهو يتمتّع بالعصمة من الغلط . عندما يُحدّد في
هذه الأحوال أنّ عقيدة تتناول الايمان أو الأخلاق يجب على الكنيسة العامة أن تتقبلها قبولها
لعقيدة ايمانية . فقد شاء الفادي الالهي ، بالتأييد الذي وعد به الرسول بطرس ، أن يزود الكنيسة
بهذه العصمة من الغلط ، لذلك فان هذه التحديدات التي يقوم بها الحبر الأعظم هي غير قابلة
للتعديل ، لا لأن الكنيسة تحكم بأنّها كذلك ، بل لأنها غير قابلة للتعديل في حدّ ذاتها " .
ولما فرغ من الأعمال المخصوصة بالعصمة من الغلط ، تقرّر التوقّف عن العمل مدة أربعة
أسابيع ، يعود من بعدها المجمع إلى العمل لئناقش مسألة المطارنة . ولكنّ أحداثاً جسيمة أوشكت
أن تقع في أوروبا .

الجيش الايطالي يحتل رومة

في ١٩ تموز (يوليو) ١٨٧٠ أعلن نابليون الثالث الحرب على بروسيا ، فأصيب بكارثة فهُزم جيشه وأسر هو بنفسه في ٢ أيلول (سبتمبر) . فأعلنت الجمهورية في فرنسا وقامت ثورة قمعها الجيش الفرنسي قمعاً وحشياً .

غلب نابليون فأرادت الحكومة الايطالية الاستيلاء على رومة . فنصح بعض الناس لبيوس التاسع أن يغادر المدينة ، فاستشار البابا من يتق بهم ، ودون بوسكو واحد منهم ، ليعرف ما يحسن

به أن يعمل ، فأجابه دون بوسكو : " ليقّ الخفير ، ملاك الرب في مكانه ، ويحرس صخرة الله والتابوت المقدس " .

في ٢٠ أيلول دخل الجنود الايطاليون المدينة ، فأمر البابا برفع الراية البيضاء ، وأمر قائد جيشه أن يستسلم حقناً للدماء ، وأنزل بالمسؤولين عن الاستيلاء على رومة الحرم الأعظم ، " وإن كان لهم أعلى المناصب " .

كتب الأب لموان : " تلقى دون بوسكو خبر الاستيلاء على رومة ، وهو في لانتسو (Lanzo) ، وقد تلقاه بهدوء ، الأمر الذي تعجّب منه الحضور ، وكأنه سمع الكلام على شيء يعرفه منذ عهد بعيد " .

وبعث البابا إلى آباء المجمع ، وكانوا لا يزالون في رومة ، ببلاغ جاء فيه : " في هذه الأحوال المحزنة ، وقد رأينا أن آباء المجمع لن يتمتعوا بالحرية الضرورية ، وبالأمن والسلام ، ليبحثوا معنا في شؤون الكنيسة ... فإننا نعلق الاحتفالاً بمجمع الفاتيكان المسكوني " .

قشعريرة الموت في فاراتسي

كان لاحتلال رومة ونهاية الدولة الباباوية صدى عظيم لا يُمكننا أن نتخيّله . كان ذلك الحدث نهاية عهد دام ١٥٠٠ سنة ، فظنّ كثير من الناس أنه نهاية الكنيسة . وبعد سنة شعرت الرهبانية السالسية الفتية النحيلة ، هي أيضاً ، بقشعريرة الموت تنتابها لحظة من الزمن .

ففي ٦ كانون الاول (ديسمبر) ١٨٧١ ، بينما دون بوسكو في فاراتسي (Varazze) في الريفيرا الايطالية على بعد نحو أربعين كيلومترا من جينوى إلى الغرب) وقع أرضاً وأغمي عليه ، فخاف الحاضرون أنه أصيب باحتقان في دماغه ، فرفعوه وحملوه إلى البيت السالسي ، واضطروا الى وضعه في السرير ، كما يُوضع الطفل .

بعد بضعة أيام من الحيرة بدا أنّ المرض جسيم جداً ، فقد غطت حيناً بعد آخر ، جسمَ دون بوسكو بثورٌ صغيرة صلبة ، فسببت له آلاماً لا تُطاق ، وارتفعت الحمى ارتفاعاً يدعو الى القلق فرؤد المريض بالزاد الأخير ، وهو على حافة القبر .

فعمّ الأسى تورينو . إذا مات دون بوسكو ، فماذا يُنقذ من مشروعه ؟ فالأب روا ، ذراعه اليمنى ، في سنّ الرابعة والثلاثين فقط . فقدّم كثير من السالسيين حياتهم بدل حياة دون بوسكو في تلك الأيام . ويروى أنّه قال بعدئذ : " كُتبت عليّ أن أموت في فاراتسي ، فالأعوام التي تبعت كانت هبة من الله لكلّ من أبنائي " .

دام المرض شهرين ، وكانت الأخبار ، أول الأمر تدعو الى القلق الشديد ، حتى إنهم كانوا يبلغونها بالبرقيات فحسب وبعبارات لا تفصيل فيها ، ليتجنبوا إشاعة الاضطراب في حياة المصلّى .

ولكن هذا الايجاز أتاح الفرصة السانحة لإظهار علامات المودّة المؤثرة لدون بوسكو .

فبين فاراتسي (حيث نزل بطرس إنريا ، اليتيم على أثر الكوليرا في السنة ١٨٥٤ ، ليسهر على دون بوسكو) وبين يوسف بوتسيي الذي يرتعد في تورينو ، لأنه محروم الأخبار المفصلة عن صحة دون بوسكو ، بدأ في العمل نوع من البريد الخفي . إن رسائل هذين الشخصين اللذين تقبّلها دون بوسكو صبيّين ، رسائل خالية من الزخرف ، مليئة بالعبارات العامّة ، ولكنها تحتوي شعوراً رقيقاً جداً كله صدق وطرافة .

رسائل المودّة

اننا نورد بعض ما جاء فيها :

٢٣ كانون الأول (ديسمبر) ١٨٧١ . من إنريا إلى بوتسيي :

" أشعر بحزن شديد ، وانا أضطرّ إلى إطلاعك على أخبار غير حسنة عن أبنينا المسكين . ان الحمى لم تفارقه اليوم لحظة واحدة . كان طوال النهار غارقاً في العرق الذي يتصبّب منه . وقد أصابني الخوف عليه كثيراً لأنه كان يئنّ أنيناً شديداً ، وهو يحلم في نومه ، فدنوت من سريره فقال لي إنّ ذلك ليس بشيء .

آه ، يا بوتسيي العزيز ، إنّ حزني شديد جداً حتى إنني لا أقوى على الكتابة . أتوسّل إليك أن تقول لهم يُصلّوا ولكن من صميم قلوبهم ، فيشفق الطفل يسوع علينا . الساعة هي الساعة الثانية في الصباح ، فكأنه الآن قد نام قليلاً ، أتمنى لكم جميعاً عيداً سعيداً سأقضيه ، وقلبي ينفطر ، بالقرب من سرير أبي وأبيكم العزيز " .

فأجاب بوتسيي :

" لم أقوَّ على إتمام قراءة رسالتك المؤرخة في ٢٣ لِمَا أصابني من الحزن الشديد والضيق ، ولأنني لم أقوَّ على حبس دموعي ، لَمَّا علمت ان دون بوسكو العزيز يتألم ، فيزداد ألمه قليلاً كلَّ يوم . صليتُ وطلبتُ الى جميع الذين معي أن يصلُّوا ، لا بل طلبتُ الى الطفل يسوع أن يجعلني أتألم جميع آلام دون بوسكو ، وأن يُميتني إذا وجب الأمر ، لكي يُعافى سريعاً ويعيش أعواماً طويلة . واصلت الكتابة ولا تُخَفُّ إزعاجي ، فأبُكُّ تُزعجني إذا تركتَ يوماً واحداً يمضي من غير أن تُطلعني على حال صحَّة أبنينا العزيز . قَبَّلَ يده المقدسة من قِبَلِي وقل له بياركني " .

" ٣ كانون الثاني (يناير) ١٨٧٢ . بوتسيتي العزيز ، إن صحَّة أبنينا المحبوب في تحسُّن مستمرٍّ ولكن بطيء . إنَّ بثوراً صغيرة لا تزال تصيبه ، فتعدِّبه قليلاً وتسبِّب له شيئاً من الحمى " . فأجاب بوتسيتي : " يا بطرس العزيز ، إننا ننتظر أخباراً طيبة . أنهيت المبارحة التساعية ، ولذلك اذا رأت مريم معونة المسيحيين أننا نستحقُّ حبَّها ، فانها سنتردُّ علينا عزيزنا دون بوسكو معافى ، وإلا فسنواتها إبرامها طوال ما كان ذلك ضرورياً . لا شكَّ في أنك تعلم بالبرد الشيطاني الذي نعاني منه ، ففي كل يوم نجد كثيراً من الأباريق ، وقد حطَّمتها الجليد . كان مصير إبريقك في السقيفة مثل مصيرها " .

فلما أخذ دون بوسكو يتمائل إلى الشفاء حقاً ، أرسل إنريا برقية إلى بوتسيتي : " البارحة عيد . أبونا قام . زيارتك تُسرُّه . اليوم حالته حسنة " .

ان الكلمتين " أبونا قام " انتشرت على الفور في المصلى ، وسببت فرحاً عظيماً . واستمرَّ التحسُّن ، فلبث إنريا يومين أو ثلاثة من غير أن يُرسل خبراً ، فكتب إليه بوتسيتي : " يا بطرس العزيز ، ألا تزال حيّاً ؟ إذا كنتَ حيّاً كما أرجو ، فلماذا لا تُفي بعودك بالأدع يوماً واحداً يمضي من غير أن تُطلعني على أخبار دون بوسكو العزيز ؟ إذا دَعَّ عنك كل خز عيلة " .

فأجاب إنريا لوقته : " إن صحَّة دون بوسكو لا تزال تتحسن ، فقد صاح عدة مرات : " آه يالليوم الذي فيه نعود الى المصلى " ، ولبث متأثراً وقد غرق فكره في ما سيحدث عندما يعود الى بيتنا المبارك " .

في ١٥ شباط استطاع دون بوسكو العودة إلى تورينو فدخل كنيسة مريم معونة المسيحيين من الرتاج الكبير وكان ينتظره فيها صبيان فالدوگو وكثير من الأصدقاء . فلما وصل إلى الخورس أمام المذبح أنشد بوتسيتي المزمور " سبحوا الرب أيّها الاطفال " فجئنا دون بوسكو عند بيت القربان والعذراء معونة المسيحيين وصلّى طويلاً ثمَّ شكر الصبيان ، ودعاهم إلى شكر السيدة مريم . ذكر

الأب أماديي (Amadei) : " لبث إنرياً جاثياً في الخورس ، فأمسك بوتسيتي بذراعه ، وصحبه إلى خارج الكنيسة " . فقبل الواحد منها إلى خر وهما بيكيان .

٤٣

المعاونون : سالسيون في العالم

في السنوات من ١٨٧٠ إلى ١٨٧٩ تَبَلَّوْ مشرور السالسيين معاونين . ولم يُرتجل هذا الفكرَ دون بوسكو ، كما لم تُرتجل سائر أفكاره ، فقد كانت جذوره قديمة ، وكتب هو بنفسه : " ما إن ابتدأ مشروع المصلّيات في ١٨٤١ ، حتى جاء عدّة كهنة وعلمانيين أتقياء ليساعدوا في رعاية الحصاد الذي بدا كثيراً منذ ذلك الوقت في قطاع الأحداث المعرضين للخطر . إن هؤلاء " معاونين أو المساعدين " كانوا في جميع الاحوال ، سنَدَ المشروعات التي تُعهد إلينا بها العناية الالهية " .

الوداع للأب بوريل

ذكر دون بوسكو أوّل الأمر الكهنة ، وقد صادفناهم نحن أيضاً في أثناء روايتنا للتاريخ في مصلاه المتنقّل أوّلاً ، ثم في فالدوگو ، وقد وقعت خلافات في أفكاره " الجنونية " ثم في شأن موقفه السياسي . ولكن الحُبّ العملي للشبيبة تغلب على العقبات والحوازر ، فقد ارتبط بمشروع دون بوسكو دائماً أبداً بطرس ميرلا (Merla) ولويجي ناسي (Nasi) وليوناردو موريلدو (Murialdo) واغناطيوس ويوسف فولاً (Vola) وجياسنتو كاربانو (Carpano) ولا سيما الأب كافاسو (Cafasso) والأب القصير بوريل (Borel) .

اطبق الأب القصير عينيه في هذه الأرض في ٩ أيلول (سبتمبر) ١٨٧٣ ، فبكى دون بوسكو بجانب الذي انطفأ سراجُه وقال : " كان منظر من لا شأن له على الاطلاق في حين أن عشرة

من الكهنة الصالحين لم يكونوا ليصنعوا كلَّ الخير الذي صنعه هذا الخادم الكبير لله " .
لما تُوفي ، لم يترك حتى الضروري لجنازته ، ولكن دون بوسكو عرف كم مرّة أفرغ محفظته في يديه ، من غير أن يهتم هل كان ما فيها عملة صغيرة أو ليرات ذهب ، عليها صورة نابليون . وحمل الرؤساء السالسيون الذين دعاهم دون بوسكو إلى الجنازة نعش الأب بوريل على أكتافهم ، وشيَّعه إلى المقبرة الشمامسة والأحداث وموسيقى المصلّى . وهؤلاء الكهنة والشمامسة والأحداث هم الذين قال دون بوسكو في شأنهم السنة ١٨٤٤ : " ومع ذلك إنهم موجودون فأبي أراهم " .

رجال ونساء أصحاب همّة حسنة

بالإضافة إلى الكهنة ، كان يعاونه العلمانيون ، وكان بعضهم ينتسبون إلى أسر ارستقراطية ، كالكونت كايس (Cays) (الذي صار سالسيًا كاهنًا ، بعد ما طعن في السنّ) ، والمركز فاساتي (Fassati) من مونتني مانيو (Montemagno) والكونت كالتوري من فيينالي (Callori di Vignale) والكونت سكارامبي من بروني (Scarampi di Pruney) . وكان غيرهم عمّالًا بسطاء أو تجارًا . كان دون بوسكو يذكر بكثير من الامتتان نحاسًا يُدعى يوسف غالياردي (Gagliardi) يَخُصُّ أحداثَ المصلّى بفراره وبما يدّخره .

كانت مساعدة هؤلاء العلمانيين متنوعة ، فكان دون بوسكو يطلب منهم خصوصا أن يتفرغوا للقيام بالتعليم الدينيّ ، يوم الأحد وأيام الأعياد في الصوم الكبير . وكان أناس منهم يساعدونه أيضا في الدروس المسائية ومراقبة الأحداث ، وكان غيرهم يبحثون عن عمل جيّد للصبيان ولا سيما للذين خرجوا من السجن .

ولم يكن الرجال وحدهم ، فقد أشرنا إلى " الأمهات " اللواتي عملن في المصلّى : ماما مرغريتا ، وأم الأب روا ، وأم ميشيل ماغونه وأخت ماما مرغريتا ، وأم الأب غاستالدي . وقد تولّت هذه الاهتمام بأن تغسل ثياب صبيان الداخلية ، وتوزّعها يوم السبت . قال دون بوسكو : " كان ذلك ضروريا ، فبين هؤلاء الصبيان المساكين أناس لا يمكنهم أبداً تبديل القميص الوسخ الذي على ظهرهم ، وكانوا قذرين جدًّا حتى إنه ما من ربّ عمل كان يرضى قبولهم في معمله " .

كانت السيدة غاستالدي تجمع الأولاد يوم الأحد وتقوم ، " كأنها قائد جيش " ، بتفتيش دقيق لثياب كلّ منهم ولنظافته ، بما فيها أسرتهم ، وقد صارت مرّاتٍ كثيرة أوجرة صغيرة رائحتها كريهة .

وكان كثير من الناس لا يعانون بالعمل بل بالمال . كان كاهن يعطي للانفاق على الصبيان

كلّ المال الذي يتلقاه من ذويه الميسورين ، وكان صيرفي يدفع على نحو منتظم أجرة كأنه " نزيل " مدرسة دون بوسكو ، وكان حرفي يأتي على نحو منتظم بكل ما يذخره .

المعاونون الخارجيون يُرفضون

ازداد دون بوسكو تيقناً يوماً بعد يوم من أنه يحسن جمع هؤلاء معاونين في جمعية .
فحاول محاولة أولى في ١٨٥٠ ، فجمع سبعة رجال ثقة ، " كلهم كاثوليك علمانيون " ، فلم يُفلح .

حاول في ١٨٦٤ محاولة أخرى ، فلما قدّم قوانين رهبانية الى رومة ، أدخل اليها فصلاً جعل بضعة من أصحاب السيادة يُقبلون شفاهم . كان يتكلم على " سالسيين خارجين " . فكل امرئ ، ولو كان يعيش في أسرته ، يستطيع أن يصير سالسيًا : فليس عليه أن ينذر نذراً ، بل يعاون في عمل السالسيين في سبيل الصبيان الفقراء . واستدرك في البند الخامس أن كل سالسي يخرج من الرهبانية " لسبب مقبول " يُصبح " عضواً خارجياً " فيها .
رُفِضَ ذلك الفصل لدى فحصه ، فعاد دون بوسكو بما فيه من عناد أهل البيمونتة إلى تقديمه مرّة أخرى ، بعدما حوره ، ثم جعله ملحقاً . فلم يُجده ذلك نفعاً ، واضطّرّ لينال الموافقة على القوانين (وقد نالها في ١٨٧٤) إلى قبول حذف ذلك الفصل ، الذي قد يُعدّ اليوم " حدساً عبقرياً " .

رُفِضَ مشروع السالسيين الخارجين ، فأكبّ دون بوسكو لوقته على العمل لاستنباط ما يُشبهه . ففي ١٨٧٤ رسم مخطّطاً أولياً لاتحاد مار فرنسيس دي سال ، فأبدى الرؤساء الذين استشارهم ، قليلاً من التحمّس للمشروع ، فهو أشبه باحدى الأخويات الكثيرة العدد . قال :
" إنكم لا تفهمون ، ولكنكم سترون أن هذا الاتحاد سوف يكون سنَدَ رهبانيّتنا . ففكروا فيه " .
كان دون بوسكو يجعل للاتحاد ثلاثة أهداف :

- إحسان الانسان إلى نفسه بالقيام بأعمال المحبّة للقريب ، ولا سيما للأولاد الفقراء المشرّدين ،
- الإسهام في أعمال التقوى والدّين التي يقوم بها السالسيون ،
- تقبّل المرء للأولاد الفقراء ، وتعليمهم في بيته ، والدفاع عنهم لانقاذهم من الأخطار .

المعاونون السالسيون

في ١٨٧٦ اهتدى الى الصيغة النهائية . سمّى الاتحاد التقوي لمساعدية معاونين السالسيين فكتب قانونهم ، وطبعه على عجل ، وأرسله الى البابا ليُوافق عليه ، فعاد ومعه رسالة من البابا

بيوس التاسع في ٩ ايار (مايو) ١٨٧٦ .

إنّ الأهداف هي التي وردت في جدول ما قبل سنتين : إحسان الانسان إلى نفسه بحياة مسيحية ملتزمة ، ومساعدة السالسيين في مشروعاتهم ، ودفع الأخطار التي تُهدّد الشبيبة ، ووسائلها هي الوسائل التي يستعملها السالسيون : التعليم الديني والرياضيات الروحية ، والاهتمام بالدعوات الكهنوتية ، ونشر الطباعة الصالحة والصلاة والصدقة .
إن الكلمة الاخيرة هذه دعت إلى كثير من الالتباس . فقد قلص السالسيين نشاط

المعاونين وقصرها على العون المالي لمشروعاتهم ، فاحتجّ دون بوسكو بحزم على هذا الحطّ من شأن معاوني .

قال في طولون في السنة ١٨٨٢ : " يجب على المرء أن يُحسن تفهّم هدف الاتحاد التقوي ، ولا ينبغي للمعاونين السالسيين أن يقتصروا على جمع الهبات لمشروعاتنا ، بل يجب عليهم أيضاً أن يسعوا بكل ما لديهم من الوسائل ليؤازروا في خلاص إخوتهم ولا سيما الأحداث " .

بذل دون بوسكو كثيراً من الجهد في أثناء أسفاره في إيطاليا وفي خارجها ، ليُنمي عدد

المعاونين . كتب موران فيرث (Morand Wirth) : " إن جينوى والليغوريا (Liguria) زودتاه بعدد كبير منهم ، وصارت نيس في فرنسا مركزاً ذا شأن ، بسبب تعدّد جنسيات أهل المدينة . كان معاونون في مرسيليا متحمّسين أشدّ الحماسة حتى ان دون بوسكو شعر بأنه يُقيم في أسرته " .
وفي اسبانيا عاشت امرأة من أكثر المعاونات طرافة وهي السيدة دورتيا دي تشوبيتيا (Dorotea De Chopitea) . فقد صارت أمّ المشروعات السالسيّة ، وشُرع في دعوى إعلانها طوباويّة .

" النشرة السالسية " تصل إلى سوّو المونتي نفسها

أراد دون بوسكو أن يعطي معاونين وسيلة تحفظهم متّحدين بعضهم ببعض وبمركز المشروعات السالسيّة ، فأصدر النشرة السالسيّة كلّ شهر (صدر العدد الأول في آب أغسطس ١٨٧٧) .

كانت النشرة عظيمة الشأن عند دون بوسكو ، حتى إنه أعَدَّ هو بنفسه الأعداد الأولى . ولما

تعدّر عليه الأمر ، حرّم إخوانه رئيساً ، ليسلم النشرة إليه ، وهو الأب يوحنا بونيّتي (Bonetti) الذي صار عضواً في المجلس الأعلى للرهبانية . ولما سُئِل دون بوسكو إلى من تُرسل النشرة أجاب :
" الى من يريدّها وإلى من لا يريدّها " .

في النشرة السالسيّة طُبعت الرسائل الأولى التي بعث بها المرسلون السالسيون ، فقرأها الأحداث والكهول بشغف . وفيها طُبِع أوّل تاريخ لمصلّى دون بوسكو ، في بضعة اعداد ، انتظر

القرء بتشوق شديد للاطلاع عليها ، وُقِرئ فيها على نحو منتظم اخبار المشروعات السالسيّة في طول الأرض وعرضها ، وأهمّ النِعَم التي جاءت بها مريم معونة المسيحيين .
دخلت تلك المجلة الشهريّة البسيطة كلّ مكان ، واكتسبت كثيراً من الأصدقاء لدون بوسكو ومشروعاته . ذكر البابا يوحنا الثالث والعشرون الذي وُلد في إلمونتي (Sotto il Monte) :
" إن السنوات الأولى من حياتي نالت الفرح والحماية من صورة معونة المسيحيين العزيزة . أجل

كانت صورة بسيطة جداً ، فقد اقتطعت من النشرة السالسية التي كان كبير أعمامي زافيريو (Zaverio) يتلقاها ويقرأها بحماسة شديدة . كانت الصورة التقوية عند رأسي في السرير .
كم من الصلوات والثقة قبالة هذه الصورة البسيطة ، وقد ساعدتني معونة المسيحيين دائماً أبداً " .
في السنة ١٨٨٤ ، بينما دون بوسكو يخاطب الأب لموان ، كشف له عن فكر ازداد وضوحاً عنده شيئاً فشيئاً : " إن غاية معاونين الحقيقية ليست مساعدة السالسيين بل مساعدة الكنيسة والمطارنة والخوارنة ، يديرهم السالسيون من علّ " .
كتب موران فيرث : " لما مات دون بوسكو في ١٨٨٨ كان هناك أمر واضح ، وهو أن القوة الرسولية للرهبانية السالسيّة المتواضعة تضاعفت عشر مرّات بفضل العون الأخوي الذي أتاها من معاونيها ، وإنّ كثير منهم يستحقّون أن يُعدّوا بالفعل ، إن لم يكن في القانون ، سالسيين حقيقيين في العالم " .

فرنسيس وأوسيبو وفيلبس وميشيل وغيرهم كثيرون من الاصدقاء

في ١٨٧٠ أتمّ دون بوسكو الخامسة والخمسين . كانت حياته حياة حزم ونشاط كالسيل الجارف النازل من الجبال في العشرات الأولى ، فانتسعت وصارت نهراً . فدوّنت الأعوام الثمانية عشر الأخيرة من حياته تدويناً دقيقاً في القناطير من الوثائق والشهادات ، ثم كُتفت في تسعة مجلّدات من ذكريات السيرة يحتوي اثنان منهما أكثر من ألف صفحة لكل واحد .

من الواضح أنّه يجب على كلّ كاتب سيرة دون بوسكو أن يترك جانباً أموراً كثيرة . إن الأحداث واللقاءات والارشادات للصبيان والاحلام مؤثرة وذات طابع إنساني عظيم ، ويأسف الكاتب على تركه جانباً عشرات وعشرات منها . ومع ذلك بعدما نكون قد حسبنا حساب صفحات كتابنا ، نضطرّ نحن أيضاً إلى التقصيب والتشذيب بحزم .

ولكننا نُعوّضُ نفسنا تعويضاً صغيراً في هذا الفصل ، فنروي رواية حرة طائفة من هذه الأحداث واللقاءات في هذه الاعوام ، تلك التي أثرت فينا من غيرها ، ونعتذر إذا لم نُفلح في وصل بعضها ببعضها الآخر ، برباط منطقيّ ، علماً بأن الحياة لا تسلك دائماً المنطق طريفاً رئيساً لها .

" سرقت رغيفين "

أب (اغسطس) ١٨٧٢ . دقّ الجرس وخرج من الصفوف والورشات جيش ضخم من الأحداث ، وهم يصيحون : " الخبز ! الخبز ! " .

وَصَعَّ خَبَازَانِ سَلْتَيْنِ كَبِيرَتَيْنِ مِنَ الْخِيزِرَانِ تَمْلَأُهُمَا أَرْغَفَةً صَغِيرَةً طَرِيئَةً تَفْوَحُ مِنْهَا رَائِحَةُ طَيِّبَةٍ ، فَعَلَا الصَّيَّاحُ : " رَغِيفٌ لِكُلِّ وَاحِدٍ فَحَسَبُ ! " .

فرنسيس بيكولو (Piccollo) صبيّ في الحادية عشرة وصل لعهد قريب من بيجيئو تورينيزي (Pecetto Torinese) نظر هذا الازدحام وانتظر دوره . لقد تناول قدراً حسناً من الحساء عند

الظهر ، ولكنَّ شهيته ثارت على مر الساعات ، فَفَكَّرَ أَنْ رَغِيفاً صَغِيراً واحداً غير كافٍ لِسَدِّ جوعه ، بل يجب أن يُضَاعَفَ الوجبة . بيد أن المصلى فقير ، ثم إن الخبز مقتن في تلك السنة (١٨٧٢) .

وبينما هو يُفَكِّرُ في هذه الامور كُلِّها ، رأى أن أناساً من أصحابه يأخذون أول رغيف ، ويضعونه في جيبيهم ، ثم يعودون بهدوء الى الوقوف في الصف ، ويأخذون رغيفاً ثانياً وثالثاً من دون أن يشعربهم أحد .

روى فرنسيس بعدئذ : " واستسلمت أنا أيضاً الى شهيتي فسرقت رغيفين ، وذهبت إلى ما وراء الحنايا لأكلها بشراهة ، ثم داخلني الندم . قلت في نفسي : سرقتُ ، فكيف أجرؤ على تناول القربان المقدس في الغد ؟ يجب علي أن أعترف .

ولكن دون بوسكو هو الذي كنت أعترف له . وخطر ببالي كم سيتألم عندما يعلم أنني سرقت . فما العمل ؟ لا لِمَا يِنَالِنِي مِنَ الْخَجْلِ ، بل لكيلا أحزن دون بوسكو ، فهربتُ من باب الكنيسة وأسرعت تَوَّأ الى كنيسة سيدة التعزية وهي غير بعيدة .

فدخلت الكنيسة المظلمة واخترت كرسي الاعتراف الأكثر خفاء وشرعت في اعترافي :
- جنئتُ أعترف هنا بخجلي من الاعتراف لدون بوسكو (ولم أكن ملزماً أن أقول ذلك ، ولكني كنت قد تعودتُ الصدق إلى حدِّ بعيد حتى إن ذلك بدا لي مُهِمّاً) .

فأجابني صوت : تكلم ، إن دون بوسكو لن يعلم شيئاً من ذلك .
كان ذلك الصوت صوتَ دون بوسكو . رحماك ربَّ ! أخذ العرق البارد يتصبَّب مني ، إذ كان دون بوسكو قد دُعي جرياً على العادة ليستمع الى الاعترافات في كنيسة سيدة التعزية ، فاتفق لي أن ألقى ذلك الذي كنت أريد الهرب منه .

- تلکم يا بُنَيَّ العزيز . ماذا حدث لك ؟

كنتُ أرتجف كالورقة .

- سرقت رغيفين .

- وهل أضرا بك ؟

- كلاً .

- اذا لا تغتم . أكنت جائعاً ؟

- نعم .

- الجوع للخبز ، والعطش للماء ، جوع حسن ، وعطش حسن : فإذا احتجتَ إلى شيء

ما فاطلبه من دون بوسكو ، فإنه يعطيك كل ما شئت . ولكن تذكّر أن دون بوسكو يُفضّل أن تثق

به ، على أن تُوهمه أنّك بريء . إذا وثقتَ به ، أمكنه أن يساعدك ، ولكن إذا تظاهرت بالبراءة ،

فقد تزلّ قدمك فتسقط ، وما من أحد يمدّ إليك يده . إن ثروة دون بوسكو هي ثقة أبنائه به . لا

تنسى ذلك أبداً ، يا فرنسيس .

في السنة بعدها كنتُ في الصف الثاني ، فقبل لي ذات يوم بعد الطعام إنّ والدتي تنتظرني في

ردهة الاستقبال فوجدتها تبكي .

- ما الذي جرى لك ، يا أمّاه ؟

- لا شيء ، يا فرنسيس ، لا شيء . ولكن أنت تعرف أننا فقراء ، وقال لي المحاسب إنه

سيُضطرُّ إلى صرفك إذا استمر عدم دفعنا لأجرة معيشتك .

وكانت تبكي لهذا التهديد ، وتركّتها ودموعها تسيل ، لأنه كان عليّ ان أذهب إلى الصف .

ولكنّي رأيتها تنتظرني في فرصة بعد الظهر في غرفة البواب ، وكانت عند ذلك سعيدة تبتسم فقالت

لي : ثرى ، يا فرنسيس ، اتّي لا أبكي الآن . ذهبتُ إلى دون بوسكو فقال لي : يا سيّدتي الطيّبة ،

قولي لابنك ، إذا صرفه المحاسب من الباب ، عليه أن يدخل من الكنيسة ويجيئ إليّ . لن يصرفه

دون بوسكو أبداً .

ثم عانقتني والدتي ومضت . في ذلك المساء دعاني المحاسب فارتعبتُ ، وقبل أن أذهب إليه

أسرعتُ إلى دون بوسكو فقرعتُ الباب .

- من الطارق ؟

- أنا بيگولو فرنسيس .

- أدخل ، أدخل . اذاً ماذا ، يا فرنسيس ؟ - فأخذ ورقة وسألني : - كم شهراً من معيشتك

يجب على والدتك أن تدفع ؟

قلتُ العدد فكتب دون بوسكو بما فيه من اللطف وصلاً بأجرة المعيشة للسنة كلها ، ووقع

عليها ، فلم يشعر أحد بسخائه حتى ولا المحاسب الذي حملت إليه الوصل ، فأخذ مني كلّ مأخذ

طريقته اللطيفة لمساعدتي ، أكثر من عمله نفسه .

مضت ثلاث سنوات وكنت عندئذ في الصف الخامس . ذات يوم كُنّا ، نحن أكبر

التلاميذ ، نُحدق بدون بوسكو وكنا نمشي معه تحت الحنايا ، فأردتُ أن أخاطبه وحده ، ولكن لم

- اجرؤ على أن اطلب إليه ذلك ، فشعر بالأمر على عادته وانفرد بي من غير سؤال وقال لي :
- في ظني أنك تريد أن تقول لي شيئاً ، أليس كذلك ؟
 - لقد حَزرتَ . ولكن لا أريد أن يسمعه الآخرون . - وهمستُ في أذنه : - أريد ان أهدي إليك هدية ، وأظن أنها ستعجبك .

- وما هديتك اليّ ؟
- إقبلني بين السالسيين .
- فابتسم دون بوسكو وقال :
- وماذا تريد ان أصنع بامرئ غريب الأطوار مثلك ؟
- وإذا به يصير جاداً ويقول لي :
- شكراً يا فرنسيس . لم يكن بوسعك أن تهدي إليّ هدية أحلى من هديتك . إني أتقبلها لا لأجلي ، بل لأقدمك وأندرك ككك للرب ولمريم معونة المسيحيين .
- صار فرنسيس بيگولو كاهناً سالسياً وعمل أكثر من ثلاثين سنة في صقلية مُدرّساً ورئيساً ثم مسؤولاً عن المشروعات السالسية في إقليمه الرهباني ، وعاش حتى السنة ١٩٣٠ .

أوسيبو كافي من بالسترو

- في تلك السنة عينها ١٨٧٢ كان صبيّ طيّب آخر اسمه أوسيبو كافي (Calvi) من بالسترو (Palestro) في هَمَّ لآن والديه يعجزان عن دفع أجرة معيشته فرآه دون بوسكو حزينا فسأله :
- ما لك أوسيبو ؟
 - آه يا دون بوسكو . إن والديّ أصبحا عاجزين عن دفع أجرة معيشتي ، وأنا مُضطرّ إلى قطع دروسي .
 - ولكن أنك لست صديقاً لدون بوسكو ؟
 - بلى .
 - اذاً فإن المسألة تحلّ بسهولة . أكتب إلى والدك ليترك الماضي وشأنه ، وأما المستقبل فليدفع من أجله ما أمكنه .
 - إن والدي سيطلب تلقى رقم دقيق لأنه يريد أن يلتزم دفع كلّ ما بوسعه .
 - كم كانت أجرة المعيشة إلى اليوم ؟
 - اثنتا عشرة ليرة في الشهر .
 - اكتب إليه أننا جعلناها خمسا ، وأنه سيدفع إذا أمكنه الدفع . هلمّ إلى مكتبي لأكتب لك

بطاقة إلى المحاسب .

صار أوسيبو كالفى هو أيضاً كاهناً سالسيياً ، وعمل في كالابريا وصقلية وعاش إلى السنة ١٩٢٣ . كتب الأب أماديي (Amadei) : " كم من الصبيان تلقوا من دون بوسكو علامات المودة هذه " .

دون بوسكو يُفاجأ مفاجأة غير سارة

لما وصل دون بوسكو الى لو (LU) في أثناء رحلاته الخريفية (كما رويهاها في الفصل ٣٧) مرر يده على طفل في الخامسة من عمره اسمه فيلبس ، في ساحة دار أسرة رينالدي .
لما بلغ سنّ العاشرة عاد اسم دون بوسكو يُدويّ صداه في حياته ، فقد فتح دون بوسكو إكليريكية صغيرة في بلد ميرابلو على بعد طلقة بندقية من لو .
أخذ الصبي ، وهو قوي البنية لطيف ، صرّته تحت ذراعه وعانق أمّه وذهب إلى المعهد في عربة أبيه . كان قلبه منقبضاً قليلاً ، شأن جميع الأطفال عندما يتركون البيت أوّل مرة ، ولكنه كان رصيناً ، حسن التفكير ، يفهم أنّ هذه التضحية قد تفتح لمستقبله آفاقاً غير آفاق حقول أبيه وكرومه .

كان مُدرّسه الأب باولينو البيرا . كتب بعدئذ : " كان الاب البيرا ملاكاً حارساً لي فهو الذي وُكل إليه أن يسهر عليّ . قام بعمله بمحبة عظيمة حتى إنني أتعجب منه كلما فكرتُ فيه " . ولكن لم يكن الأب البيرا وحده ، ويا لسوء الحظ . فقد كان هناك ناظرٌ أساليبه خشنة مؤلمة .
جاء دون بوسكو مرتين من تورينو لينفّقد معهد الكهنوت فخاطب فيلبس طويلاً فنّصّادقا .
ولكن لما جاء الربيع ، وقعت المأساة ، ويا لسوء الحظ . تعب فيلبس من الدروس الشديدة في أشهر الشتاء وكان ذات يوم موثّر الأعصاب على نحو حادّ ، فأغاظه الناظر الغليظ في أساليبه على وجه أحرق . فلم يغضب فيلبس بل ذهب توّاً إلى الرئيس ، وأخبره أنّه يبغى العودة غلى البيت ، فظنّوا الأمر عمّل طيش في حين أنه جدّ . فقد عزم فيلبس عزمه وما من أحد يمكنه أن يبدّل له رأيه .

لما عاد دون بوسكو إلى ميرابلو المرة الثالثة في تلك السنة علم أن فيلبس رينالدي قد عاد إلى أسرته . ففوجئ مفاجأة غير سارة ، فكتب إليه رسالة إلى لو سأله فيها أن يرجع عن عزمه . تلقى فيلبس في السنوات بعدئذ رسائل من دون بوسكو أشبه بهذه : " أذكّر ، يا فلّبس ، أن بيوت دون بوسكو مفتوحة لك كلّ حين " .

قلّ أنّ دون بوسكو ألحّ على أحد مثل الإلحاح ، فكأنه رأى شيئاً واضحاً في مستقبل هذا الشاب الذي ظلّ صديقه ولكّنه أبى أن يُصغي إلى أيّ شيء كان .

١٨٧٤ فيلبس في سنّ الثامنة عشرة . جاء دون بوسكو إلى لقائه في لو ، وجاءت في ذلك

الحين إلى البيت امرأة مسكينة تمشي متوكئة على عكازين ، وذراعها مريضة . جاءت تتوسل إلى دون بوسكو أن يشفيها ، فباركها القديس بركة مريم معونة المسيحيين فألقت تلك المرأة عكازيها بمرأى من فيلبس ، وعادت إلى بيتها معافاة . فأخذ الأمر من فيلبس كل ماخذ ، ولكنه أجاب

" لا " عن دعوة جديدة أضافها دون بوسكو إلى دعواته السابقة التي لا يُحصى لها عدد . لقد ندم على قوله " لا " هذا طول حياته . كتب ذات يوم بعدئذ بتواضع : " ليسأ الرب والسيدة مريم ألا أسئ استعمال النعمة في المستقبل ، بعد ما قاومتها في الماضي " .
ان " لا " هذه صارت أول "لا" في سلسلة من " لاءات" غيرها . فأخذ يقول " لا" للصلاة ، ولأمه التي وبخته بأنه أخذ يُقحم نفسه في صداقات خطيرة ، ثم لخوري رعيته الذي دعاه إلى المجيء إلى الكنيسة أكثر مما يفعل . أصابته " أزمة" دينية حقيقية تغلب عليها بصلوات أمه .

عندما يشنّ دون بوسكو معركة

١٨٧٦ بلغ فيلبس رينالدي سنّ العشرين . جاء أهل فتاة الى والده كريستوفورو (Cristoforo) ليُقَدِّموا طلباً للزواج ، ولكن دون بوسكو وصل هو أيضاً من تورينو عازماً على شنّ معركة ليمضي بفيلبس .

كانت المواجهة طويلة حاسمة ، فعرض فيلبس جميع اعتراضاته بكل ما في طبيعة الفلاحين من عناد ، ولكنّ دون بوسكو هو أيضاً فلاح ففدّ بهدوء الاعتراضات واحداً بعد الآخر ، فقد اكتشف في مخاطبه مزاج سالسيّ كبير ، فهو يأبى أن يُفلت من يده . كتب فيلبس بعدئذ : " كان يَنَغَلَب عليّ شيئاً فشيئاً ، وتركني اهلي حراً وقد اخترتُ دون بوسكو " .

تشرين الثاني (نوفمبر) ١٨٧٧ . ذهب فيلبس إلى سامبيير دارينا (Sampierdarena) بالقرب من جينوى ، حيث فتح دون بوسكو بيتاً " للدعوات المتأخرة " . عاد فلاح لو (Lu) ، وهو في الحادية والعشرين ، إلى تعلّم قواعد الايطالية واللاتينية . كانت الأيام الأولى شاقّة جداً : كان على أول فرض كتبه مقبرة من الصبان ، فضلاً عن علامة الى الخجل . ومع ذلك فقد كان له مثلُ العناد الذي قاوم به دون بوسكو مدة طويلة ، حتى إنه ارتقى يوماً بعد يوم طريق الدروس الشاقّ . كان الرئيس في سامبيير دارينا الأب بولس ألبيرا ذاك الذي سرّ به سروراً عظيماً في ميرابلو ، وقد لقي منه التشجيع في الساعات العسيرة . قلت له ذات يوم : " أخشى أن اقوم بحماقة فأهرب " ، فأجابني : " وأنا أمضي للبحث عنك " .

١٣ آب (أغسطس) ١٨٨٠ . جثا فيلبس عند قدَمي دون بوسكو ولفظ نذور الفقر والعفاف والطاعة . صار سالسيّاً وهو في الرابعة والعشرين . في الخريف أخذ في الصعود نحو

الكهنوت فتلقى الرتب الصغيرة ، فرُسم شماساً رسائلياً وإنجيلياً . وهناك أمر يدعو إلى الاستغراب : إن فيليب يتقدم ، لا لأنه يريد ذلك ، بل لأن دون بوسكو يأمره بذلك ، وقد وثق به فيليب ثقة تامة . روى بعدئذ : " كان يقول لي دون بوسكو : في كذا تُقدّم فحص كذا ،

تتلقى درجة كذا ، فأطيع كلما أمرني بشيء " . لم يتصرّف دون بوسكو قطّ مثل ذلك التصرف مع شخص آخر : كان يوصي أو يدعو ، ولكّنه كان يتصرّف تصرف من يترك للمرء أن يعزم عزمه . فلا بدّ أنه اطلع اطلاعاً واضحاً على مستقبل ذلك الشاب .

في اليوم قبل الميلاد ١٨٨٢ ، أقام فيليب رينالدي قدّاسه الأول ، فسأله دون بوسكو وهو يعانقه : " والآن أنت مسرور ؟ " فكان الجواب ما يدعو إلى العجب : " إذا حفظتني عندك ، وان لم تحفظني فلن أدري ما أعمل " .

ولكن بعد بضعة أشهر عاد الأب كوستامانيا (Costamagna) من رسالات أميركا الجنوبية ، فاستولت الحماسة على الأب فيليب أوّل مرّة فطلب من دون بوسكو ان يدّعه يذهب إلى الرسالات فأتى دور دون بوسكو ليقول له لا : " ستمكث هنا وتُرسل الآخرين إلى الرسالات " . كان الأب روا أول خَلْف دون بوسكو في رئاسة الرهبانية الساليسية ، وكان الثاني الاب بولس ألبيرا والثالث فيليب رينالدي . قال فيه الأب فرننتشيسيا (Francesia) وهو طاعن في السن : " لا ينقصه من دون بوسكو سوى صوته في حين أنّ له سائر ما عند دون بوسكو " .

الكاهن الذي كان يستريح

في السنة ١٨٧٢ ذهب دون بوسكو إلى جينوى لزيارة سريعة . روى الأب أماديي (Amadei) : " كان في من جاؤوا إليه فزاروه الأب أمبونياتي (Ampugnani) الذي كان يسكن ماراسي (Marassi) وقد ساعده في شراء معهد الاسبو (Alassio) . فسأله دون بوسكو :

- والآن ماذا تعمل ؟
- أنا لا أعمل شيئاً . إني أستريح ؟
- كيف ، أنت تستريح ؟ صِحَّتْكَ جيّدة وما زلتَ شاباً .
- لقد عملتُ سنين في أمريكا وإني أستريح .
- فبلغ الجدّ من دون بوسكو مبلغاً كبيراً وقال :
- ألا تعرف أن الكاهن يأخذ نصيبه من الراحة في الفردوس ؟ وأننا سنؤدّي حساباً لله دقيقاً جدّاً عن كل الوقت الذي أضعناه ؟ " .

أصاب كلام دون بوسكو الكاهنَ في الصميم ، فلم يعرف من أين يجد لنفسه مخرجاً . فعاد في اليوم الثاني إلى البيت السالسي ، وطلب إلى الرئيس أن يدعه يعزف على آلات الموسيقى ،

ويُلقي الدروس والعظات . صاح : " قال لي دون بوسكو كلمات رهيبة ! " .
ولقي دون بوسكو ايضاً الرئيس العام لرهبانية الإخوة الصغار لمار فرنسيس دي بولا . وكان

- رجل علم كبير ، وكان يقوم بعمل خوري رعية ، فحيّاه بوقار ، وقال له :
- ما أكثر عملك وأنت رئيس عام لرهبانيتك .
 - الصواب أنّ عملي قليل جداً لا بل لا عمل لي . إنّ عددنا قليل كما تعلم .
 - كم مبتدئاً عندك ؟
 - ليس عندي ولا مبتدئ واحد .
 - كيف ؟ - فعبس دون بوسكو ، وأخذ صوته يرتجف - . وأنت لا تعمل شيئاً لتُحوّل دون موت رهبانية خدمت الكنيسة خدمات جليلة ، ولم تبلغ بعد الهدف الذي من اجله أنشأها مؤسسها ، والتي لا يزال لا نبؤات مجدية يجب أن تتمّ !
 - ولكن ليس عندنا دعوات !
 - إذا لم يكن لديك دعوات في ايطاليا ، فاذهب إلى فرنسا واسبانيا وأميركا وأوقيانيا . عليك عبء خطير جدا وحساب شديد تؤدّيه الله . كم من التعب وكم من الآلام أضطرّ مار فرنسيس دي بولا إلى ان يتحمّل لئيشئ رهبانيته ! أفترضى أنت أن تضيع تلك الصلوات جميع تلك المتاعب والأشياء التي تترجى ؟
- كان الأب المسكين أشبه بمن ناله الفناء ، فوعد أن يبذل كل جهده ليجد دعوات .

البنائون الصغار لمصلّى يوم الأحد

قد يشعر الناظر إلى حياة دون بوسكو في تلك الحقبة أن مُصلّى أيام الأحاد الذي عاش وياها أعواماً مجيدة ، قد زال عن أفقه ، في حين أن ذلك لم يحدث . أجل إنّ دون بوسكو يصرف ٩٠ بالمائة من وقته في الدار الكبيرة التي تؤوي ٨٠٠ من التلاميذ وأولاد الصناعة ، وفي سائر المشروعات السالسيّة التي تضاعف عددها ، ولكنه لم ينسى المصلّى . إن الشهادات ليست كثيرة ولكنها كافية لتُظهر هذا الجانب أيضاً .

روى إنريكو أنجلو برنا (Berna) : " وصلتُ إلى المصلّى في أيام الصوم الكبير لعام ١٨٧١ وقد جنّت من مانيانو بيئيسي (Magnano Biellese) فكُنْتُ أنهُكُ قواي وأنا أعمل ببناءً . ولما سُنحت فرصة العيد أول مرة ذهبتُ الى مصلّى دون بوسكو ، كما أوصاني بذلك خوري رعيتي وكما أوصى سائر الصبيان الذين يغادرون البلد ، فسَرَّني ما لقيت في المصلّى . وكلّما رجعت الى تورينو كلّ سنة من آذار (مارس) إلى تشرين الثاني (نوفمبر) واطبْتُ على التردُّد الى المصلّى الى أن ذهبتُ

إلى خدمة العلم .

كان مدخل المصلى ، في ذلك العهد ، إلى الشمال من كنيسة السيدة مريم معونة

المسيحيين . كان المدخل باباً كبيراً من ألواح الخشب ، وكان معنا ثلاثة كهنة أو أربعة ، وبضعة شمامسة ، وكان من عادة دون بوسكو أن يأتي في الصباح للقداس ، وبعد الظهر للتعليم الديني .

وفي السنة الثانية لقدمي إلى تورينو ، تناولتُ القربان المقدس أول مرة في المصلى . كان على جميع الأولاد ثياب نظيفة وكان الذين لا يُمكنهم الحصول عليها من أهلهم يتلقونها من دون بوسكو ، وهو الذي أقام القداس في كنيسة مار فرنسيس ، وناولنا القربان المقدس . ثم خرجنا من الكنيسة ، فإذا مائدة مُعدَّة من أجلنا ، عليها خبز وجبن ونقانق ، ومَرَّ دون بوسكو بيننا ، وقَدَّم لنا جرعة من الخمر صبَّها في كأس كلِّ منا ، ووزَّع أيضاً قطعاً من الحلوى . إذا كانت سترة بعض الأحداث ممزقة ، أو كان بنطاله أو حذاؤه ممزقاً ، أعطاه دون بوسكو ثياباً أو أحذية قد تكون مُرَقَّعة ، ولكنّها في حالة جيدة . وما كان يجذبنا إلى المصلى هو السباق أو خطوة العملاق أو الهدايا التي كنا نتلقاها . وكانت الموسيقى وجوقة آلات النغم تجذبنا هي أيضاً " .

في السنة ١٨٧١ تلك جاء عامل شاب اسمه فرنسيس أليمانو (Alemanno) مع أسرته كلها من فيلا ميرووليو (Villa Miroglio) إلى تورينو ، وأخذ يتردّد إلى مصلى يوم الأحد . وفي أول يوم ذهابه إليه صادف دون بوسكو ، وبعد صلوات الطقس أقيم يانصيب صغير فربح فرنسيس ربطة عنق فوضعها دون بوسكو حول عنقه وسأله :

- ما اسمك .
- فرنسيس أليمانو .
- أتجيء إلى المصلى منذ وقت بعيد ؟
- هذه أوّل مرّة .
- أتعرف دون بوسكو ؟
- فبدا الصبي حائراً ثم رفع عينيه بحياء :
- أنت دون بوسكو .
- ستعرف دون بوسكو معرفة جيدة إذا تركته يعمل الخير لنفسك .
- ذلك ما أنشده . إنني أنشد صديقاً يُعنى بي .
- يا للعجب العجاب . في هذا المساء ربحت ربطة عنق ، وإنني سأشذك بهذه الربطة شدّاً

وثيقاً إلى المصلّى ، فلا يمكنك أن تتعد منه .

صار فرنسيس صديقاً لدون بوسكو وانتقل من المصلّى إلى الرهبانية السالسيّة .

البنائون الصغار ، وتوزيع الثياب على أفقر الأولاد ، ومحادثة الصبيان من غير تكلف : هذا مصلّى دون بوسكو ، يواصل حياته وازدهاره في ظل الكنيسة .

عهد دون بوسكو بإدارته بضع سنوات إلى الأب بريبرس (Barberis) ، ثم طوال سنين كثيرة إلى الأب بافيا (Pavia) ، يساعده الأخ المعاون الشهير يوحنا غاربلوني (Garbellone) . كان ذلك الرجل بمزاجه الغريب الأطوار بعض الشيء ، دليلاً حياً على قدرة دون بوسكو التربوية العجيبة ، فاستطاع أن يُنمّي المواهب الطبيعية لأقلّ الأمزجة شأنًا .

كان غاربلوني طوال خمسين عاماً روح مصلّى يوم الأحد . حفظ في دفتر صغير سنّة آلاف إسم للصبيان الذين أعدّم لتناول القربان المقدس أول مرة . وصار منذ العام ١٨٨٤ مديراً الجوقة الموسيقيّة ، وقد أدارها على وجه رائع حتى العام ١٩٢٨ وفيه توفي .

كسب دون بوسكو صداقته بعمل فيه ثقة عظيمة ، إذ وضع في يده ثلاثين ألف ليرة لكي يذهب فيؤدّي دينا ، وقيمتها تساوي نحو ٢٥٠ ألف فرنك . كان غاربلوني في الثامنة والعشرين ، وكان فقيراً مُعدماً فأخذ منه ذلك العمل كل مأخذ ، حتى ليقدف بنفسه في النار في سبيل دون بوسكو .

ميشيل أونيا ، فلاح

في ١٩ اذار (مارس) ١٨٧٧ وصل إلى المصلّى فلاح في السابعة والعشرين اسمه ميشيل اونيا (Unia) فقال لدون بوسكو إنه يرغب في الدرس ليصير كاهناً لا سالسيّاً :

- أودُّ أن أعود إلى بلدي روكافورتى دي موندوفي (Roccaforte di Mondovi) .

- ولكن ماذا إذا أَرادكَ الرَّبُّ لرسالة أعظم ؟

- إذا أفهمني الربُّ أن مشيئته هي هذه . . .

- إذا كشف لي الربُّ عمّا تعرفه أنت وحدك عن نفسك ، وقلته لك هنا ، أفبيدو لك ذلك

علامة كافية على أنه يريدك كاهناً سالسيّاً ؟

لم يدر ميشيل أونيا هل يجب عليه أن يحمل الأمر على محمل الجدّ أو المزاح ، ففكر ثم قال :

- أجل ، قل لي شيئاً تراه في ضميري .

فقال له دون بوسكو كلّ شيء فأظهر له لائحة لأعماله الصالحة وخطاياها مفصّلة تفصيلاً

دقيقاً جدّاً ، فبدأ لأونيا أنه يحلم ، فأضاف دون بوسكو :

- وأنا أعرف من ذلك أكثر مما تعتقد . كنتَ ذات يوم وأنت في الحادية عشرة في خورس كنيستك عند صلاة المساء ، وكان بالقرب منك صاحبٌ لك وكان نائماً ، ورأسه مرفوع ، وفمه

مفتوح ، وكان في جيبك شيء من الخوخ فَبَحَثْتَ عن أكبر خوخة ، وتركتها تسقط في فم ذلك الصبي المسكين المفتوح ، فأحسَّ أنه يكاد يختنق ، وأخذ يركض في جميع الجهات كأنه مجنون ، فاضطروا إلى قطع صلاة المساء ، وكنتَ تضحك وتُقهقه ، ولكن الكاهن لطمك ستاً لطمتن شديدة على خديك " .

بقي ميشيل أونيا مع دون بوسكو فكان أول سالسيّ ذهب إلى البُرص في كولومبيا (Colombia) إلى مكان مغمور يقال له أكوآ دي ديوس (Agua de Dios) فعاش بين ٧٣٠ مريضاً مصابين بهذا الداء الوبيل ، وقام بعمل مُضن أودى بحياته آخر الامر ، فأعاد إلى هؤلاء المرضى كرامتهم على أنّهم أبناء آدم وأبناء الله .

الذهاب إلى البلاد البعيدة

حلم دون بوسكو حلماً رهيباً في ما بين ١٨٧١ و ١٨٧٢ ، ويبدو أنه رواه أوّل الأمر لبيوس التاسع ثم لبعض السالسيين ، وقد دوّنه بكثير من الدقّة إثنان منهم هما الأب بربيرس (Barberis) والأب لموان (Lemoyne) :

" ظنّنتُ نفسي في برّية مجهولة على وجه تامّ ، وهي كناية عن سهل واسع لا زرع فيه ولا جبل ولا تلّ ، ومع ذلك كان يظهر في الأفق البعيد جدّاً صورة مُتقطّعة للجبال . ورأيت أناساً يجولون في ذلك السهل ، وهم شبه عُراة ، وقامتهم عظيمة ومنظرهم وحشيّ ، وشعرهم طويل كعثّ ، ولونهم أسمر يضرب إلى السواد . ولم يكن عليهم سوى أردية عريضة من فرو الحيوانات ، تنزل من أكتافهم ، وكان السلاح الذي يستعملونه ومحاً طويلاً ومقلاعاً . وكانت هذه العشائر البشرية المتفرقة تظهر للعيان في مشاهد مختلفة : فبعضهم يركض ، وهو يصطاد الوحوش الضارية ، وبعضهم الآخر يسير حاملاً قطعاً من اللحم معلقة في طرف الرماح ويسيل الدم منها ، وكان أناسٌ منهم يتحاربون في حين أنّ غيرهم يقاومون جنوداً لا بسين الزيّ الاوروبي ، وكانت الجثث تُغطي الأرض .

فلما رأيت ذلك المشهد أخذتُ أرتجف ، وإذا بكثير من الناس يظهر في الأفق : فأدركت من زيهم وتصرفهم أنهم مُرسَلون من مختلف الرهبانيات . كانوا يتقدّمون ليعطوا هؤلاء البرابرة ، ويبشروهم بدين يسوع المسيح ، فراقبهم مراقبة حسنة ، ولكنني لم أعرف أحداً منهم . فدخلوا بين البرابرة ، ولكن البرابرة ، ما إن رأوهم ، حتى هجموا عليهم ليقتلوهم ، وكانوا يعلقون في رؤوس رماحهم الطويلة غنائم مروّعة " .

مُتطوعون آخرون متأهبون للمخاطرة بأنفسهم

" رأيت تلك المشاهد الهائلة فقلت في نفسي : ما العمل لهداية مثل هؤلاء الناس

فرايتُ عند ذلك ، على بعد ، جماعة من المرسلين الآخرين ، على رأسهم زمرة من الشبان يدنون من البرابرة بوجه فرحة ، فارتعدتُ وقد جال في فكري : " إنهم سوف يُقتلون " . فدنوتُ منهم فإذا هم شمامسة وكهنة ، فحدقتُ إليهم وعرفتُهم : إنهم سالسيون من عندنا . كنتُ أعرف الأولين منهم ، ومع أنني لم أعرف غيرهم كثيرين يتبعونهم ، فقد شعرتُ أنهم هم أيضاً مرسلون سالسيون ، وأنهم من عندنا حقاً .

قلتُ في نفسي : " كيف حدث ذلك ؟ " وددتُ ألا أدعهم يتقدمون ، وكنتُ هناك لأمنعهم وأنا أتوقع أن يكون مصيرهم مثل مصير المرسلين الأولين ، في هذا الحين أو ذلك فإذا بي رأيتُ أن قدمهم يسرُّ جميع هؤلاء العشائر البربرية ، فخفضوا سلاحهم وتخلَّوا من منظرهم الوحشي ، ورحبوا بإخواننا ، وأظهروا لهم علامات التأدب . فأخذني العجب العجاب ، وقلتُ في نفسي : " دعنا ننظر كيف ينتهي الأمر ! " . فرايتُ مرسلينا يتقدمون نحو هؤلاء البرابرة ، فكانوا يعلمونهم ، فيصغون إليهم بارتياح ، وكانوا يرشدونهم ، وهم يتقبلون ارشاداتهم ويعملون بها . لبثتُ أراقب : كان المرسلون يتلون الوردية فيردُّ البرابرة على صلاتهم . وبعد قليل ذهب السالسيون إلى الجماعة ، فأقاموا وسطها وكانت تُحدق بهم ، فجنثوا فترك البرابرة سلاحهم من أيديهم ولووا هم أيضاً ركبهم ، وإذا بسالسيي قد أخذ ينشد : احمدا مريم يا أصوات المؤمنين ، فواصلت هذه الجموع النشيد بقلب واحد وبقوة عظيمة حتى إنني ارتعبت فاستيقظت " .

كان لهذا الحلم شأن عظيم في حياة دون بوسكو فأكد هو بنفسه : " شعرت في نفسي بعد هذا الحلم برغبتي القديمة في العمل للرسالات تنتعش " .

أخذ دون بوسكو يفكر في الرسالات ، وهو طالب شاب في كيري (Chieri) . روى الأب لموان : " كان عمل نشر الايمان يبلغ مبلغاً عظيماً عند أهل الليمونته فكانوا يقرأون بشغف ما يُكتب في وصف متاعب المرسلين ، واستشهادهم ، فكان دون بوسكو يشعر برغبة شديدة في نذر حياته للرسالات الغريبة " .

وقد ساهم المجمع الفاتيكانى الأول (١٨٦٩ - ١٨٧٠) مساهمة حسنة في تنمية الرسالات ، فكان مطارنة الأميركيتين وأفريقيا وآسيا ينتهزون فرصة سفرهم إلى ايطاليا ، فيحاولون أن يجندوا كهنة وراهبات للعمل في بلادهم وكان رجال الكنيسة كثيرون جداً في ايطاليا ، إذا قيس بما في بلاد الرسالات من نظرائهم .

وصلت طلبات واضحة إلى فالدوگو أيضاً . طلب المطران باربيرو (Barbero) إلى دون

بوسكو راهبات من أجل حيدر آباد في الهند ، وطلب إليه الأسقف اليماني (Alemany) ، مطران سان فرنسيسكو في كاليفورنيا ، أن يفتح هناك مدرسة صناعية ، فلم يُلبَّ دون بوسكو تلك

الطلبات لأنه لم يكن آنذاك قد وضع خطة " عمليّة " للاهتمام بالرسالات .

حلم دون بوسكو بعد سنة حلم " السهل الواسع والرجال ذوي المنظر الوحشي " ، فشعر " بالرغبة القديمة " تنتعش فيه ، فحاول منذ ذلك الحين أن يعرف البلد الذي جعلته العناية الربانية للمرسلين السالسيين ، واستمرّت طلبات إنشاء المشروعات في ما وراء البحار تصل إلى مكتبه ، فيفحصها بانتباه يختلف كثيراً عن فحصه لغيرها .

بَحْثٌ عَنْ نَهْرَيْنِ وَصَحْرَاءِ

روى : " ظننت أول الأمر الرجال الذين يضرب لونهم إلى السواد ، افريقيين من الحبشة ، ولكنني سألت بعدئذ الذين يعرفون تلك البلاد ، وقرأت كتب الجغرافيا فتخلّيت من تلك الفكرة ، ثم توقفت عند هونكونغ ، وهي جزيرة من الصين فسألت أيضاً عن استراليا ، فتلقّيتُ شرحاً لحالة هؤلاء السكان ، فلم يوافق وصفه ما رأيته . ثم وجّهتُ ذهني إلى مانغالوري (Mangalore) في مالابار (Malabar) ...

آخر الأمر في ١٨٧٤ جرى لقاء بين السيّد غازولو (Gazzolo) قنصل الأرجنتين في سافونا ، ورئيس أساقفة بونس فكلمه على السالسيين فأعرب هذا عن رغبته في أن يذهب السالسيون إلى الأرجنتين ليعملوا فيها . فطلبتُ كتب جغرافيا على أميركا الجنوبية وقرأتها بانتباه ، فبدا لي أمرٌ عجيب وهو اني لما قرأتُ هذه الكتب ، ونظرت إلى سائر الصور ، عرفتُ على وجه تامّ البرابرة ، والبلاد التي رأيتها في الحلم : إنها الباتاغونيا وهي بلاد واسعة جداً في جنوب الارجننتين " .

وكان هناك شيء بحث عنه دون بوسكو بحثاً مُستمرّاً في خرائط الجغرافيا ليكتشف " المكان الذي أشار إليه الله " . ذكر الأمر الأب اماديي (Amadei) ، وهو واحد من كتبة سيرة دون بوسكو الأكثر تنبّهاً : " كان دون بوسكو قد لاحظ ، في حقل الرسالة الذي تُبدي له في الحلم ، نهريين عند مدخل صحراء واسعة جداً ، ولم يكن يوقّق إلى العثور عليهما في الخرائط التي يفحصها بصبر . كان ذاك النهران الريو كولورادو (Rio Colorado) والريو نيغرو (Rio Negro) في باتاغونيا ، وعلم ذلك لدى مُحادثته الاولى للسيّد غازولو (Gazzolo) قنصل الأرجنتين في سافونا . وأذكر أنّي رأيتُ أنا بنفسني واحداً من مجلدات الخرائط الجغرافية التي فحصها دون بوسكو ، وقد ورد فيها في ذيل صفحة اميركا الجنوبية هذه الكلمات : بلاد الباتاغونيين

والسكان فيها عمالقة . (ذكريات السيرة ، ١٠ ، ص ١٢٧٣) .

فَكر بييترو ستبلا (Pietro Stella) في هذه الأحداث فعَلق عليها : " إن اتجاه دون بوسكو

هو على وجه واضح البحث عن باب لنشر مشروعاته في خارج أوروبا . إنّه يُفكر ويحلم في رسالة بكل معنى الكلمة ، إلى بلاد غير المؤمنين ، أي غير المسيحيين وبالمعنى الأكثر إثارة للمخيلة في ذلك العهد : الرسالة إلى الشعوب الشرسة المتوحشة . كان له في الأرجنتين القبائل المتوحشة ، بل قبائله المتوحشة " المنشودة" . القبائل المتوحشة كلمة سحرية تبعث الاهتمام وحبّ الاطلاع . كان جوُّ أسطوريّ يحيط بقوم باتاغونيا المتوحشين ، وقد وصفهم الرحّالون الأقدمون بأنهم عمالقة ، وقد صوّروا في القرن التاسع عشر وفقاً لما تخيّله رسّامو كتب الرحلات ، كأنهم جبابرة لا يصل الاوربيون الا بكدّ إلى ما فوق زناهم ، أو إلى ما يقرب من أعلى المواليد الصغار من أهل تلك البلاد . وكان هؤلاء القوم المتوحشون حتى في ١٨٦٤ يُصوّرون في قاموس المعارف المفيدة المطبوع في تورينو : " أعراض الأكتاف ، ضخام الرؤوس ، شعرهم أسود كثيف ، لهم لحية صغيرة ومنظرهم لا رواء فيه ، وقامتهم نحو مترين تجعلهم أطول أهل الكرة الأرضية " . وكانت شراستهم على قدر أرضهم البور ، ولا شجر فيها ، وهي غير صالحة للسكن ، وتعصف فيها أرياحٌ شديدة ويسير العمالقة على خيل سريعة العدو وسلاحهم الوهق^(١) والرماح يُلوّحون بها بمهارة " .

رسالة عامة لتجنيد المتطوعين

وصل من رئيس أساقفة بونس أيرس طلب واضح في آخر ١٨٧٤ . كتب دون بوسكو : " قرأتُ الرسائل الاولى في مجمع الرهبانية في مساء ٢٢ كانون الأول (دسمبر) " . كان العرض مزدوجاً : التولي في بونس أيرس رعيّة يسكنها مهاجرون إيطاليون ، ومنذورة لأم الرحمة ، وإدارة معهد للذكور فُرغ من إنشائه قبل وقت قليل في سان نقولا ، وهو مركز مُهمٌ جداً في أبرشية بونس أيرس . فأجاب دون بوسكو بكتاب إلى الأرجنتين عرّض فيه ثلاثة أجزاء برنامجه :

- يُرسل بضعة كهنة إلى بونس أيرس ليينوا فيها مركز انطلاق السالسيين في أميركا ويوكل إليهم " الشبيبة الفقيرة المشرّدة على الخصوص ، والتعليم الديني ومدارس ومواعظ ومصليات يوم الأحد " .
- يتولى السالسيون في مرحلة ثانية مشروع سان نقولا أيضاً .

(١) الوهق : حبل في طرفه يطرح في عنق الدابة أو غيرها لتؤخذ (حاشية من المترجم) .

- بوسع السالسيين من بعد ذلك أن يتلقوا الدعوة من تينك القاعدتين الأوليين للذهاب إلى أماكن أخرى .

وقد ضمّن دون بوسكو هذه النقطة الثالثة ، وأخفى إلى حدّ ما ، قصده في " الوصول بأسرع مايمكن على الأقموا المتوحّشين " .

وهكذا حدّدت بعبارات عملية حسّية طريقة للتبشير الرسولي : إن رهبان دون بوسكو لن يُلقوا بأنفسهم لوقتهم بين القبائل البعيدة ، بل يُنشئون مراكز في أرض أمينة، بين المهاجرين الايطاليين ، وهم كثيرون جداً في الأرجنتين ومحرومون حقاً الاسعاف الديني والخلقي . ومن هناك يذهبون للشروع في محاولاتهم الرسولية في الجبهة الأمامية .

في ٢٧ كانون الثاني (يناير) ١٨٧٥ أخبر القنصلُ دون بوسكو أن شروطه قد قُبِلت .
روى الأب تشيريا (Ceria) : " حينذاك أعدّ القديس مفاجأة حسنة من غير أن يدعّ أحداً يشعر بشيء في البيت ، ففي مساء ٢٩ كانون الثاني ، وهو عيد مار فرنسيس دي سال ، جمع طالبى الصناعات والطلاب والرهبان في ردهة الدرس وقد أُقيمت فيها منصّة ، فصعد دون بوسكو إليها مع قنصل في زيّه الطريف ، وأعضاء المجلس الأعلى ، ورؤساء البيوت السالسيّة " .
فأخبر دون بوسكو الحشد المقبل عليه بسمعه ، أنّ السالسيين الأولين سيذهبون بعد وقت قليل إلى رسالات أمريكا الجنوبية ، وقد وافق البابا على ذهابهم . فلم تبعث هذه الكلمات خوفاً من الأخطار التي قد تُعرض للذاهبين ، ومن عمل قد يبدو مغامرة ، بل أثارت حماسة لا توصف بين الأحداث والسالسيين .

" فقد أُلقيت خميرة جديدة بين التلاميذ والسالسيين الشبان ، وتضاعف على اثر ذلك عددُ الدعوات الكهنوتية وازدادت طلبات الاكتتاب في الرهبانية زيادة ملموسة واستولت الحماسة الرسوليّة على جميع الناس " .

كتب هذه الكلمات اوجينيو تشيريا في حوليات الرهبانية : " إذا أردنا أن نقدرّ التأثير الذي كان لكلام دون بوسكو ، وجب علينا أن نعود الى ذلك الوقت الذي كانت الرهبانية تبدو فيه أسرة مُلتمةً تماماً وثيقاً حول رئيسها ، فحملها الاندفاع الذي هزّ مخيلتها في ذلك اليوم على تحطّي الآفاق المحدودة وعظّم مرة واحدة تقدير الناس العالي لدون بوسكو ومشروعه . لقد بدأ تاريخ جديد للمصلّى وللرهبانية السالسيّة " .

في ٥ شباط (فبراير) أعلن دون بوسكو إلى جميع السالسيين المقيمين في خارج فالدوگو ، أوّل رحلة رسوليّة ، فسأل في رسالته جميع المتطوّعين أن يقدّموا طلباً مكتوباً ، وكان التاريخ المحدّد

مَبْدِيًّا شهر تشرين الاول (اكتوبر) . تضاعفت الحماسة في كل مكان ، فعَرَضَ جميع السالسيين

على وجه التقريب أنفسهم للذهاب الى الرسالات . إنَّ الكلمات " بدأ تاريخ جديد " لا تبدو مبالغة .

رئيس الرحلة : صبي العمالقة

نَظَّم دون بوسكو هو بنفسه إحدى عشرة رحلة رسولية في أثناء حياته ، ولكن لم تُفَقَّ أيُّ منها حماسة الرحلة الاولى وَحَمِيَّتْهَا ، فقد نُظِّمَتْ تنظيماً تناولَ أصغر الأمور فيها .

أراد دون بوسكو أن يُستقبل ابنأوه كما يُستقبل " الأصدقاء عند أصدقائهم " ، فأتصل بأناس لهم شأن عظيم في بونس أيرس ، وأراد أن يحصلوا على كل حاجاتهم فالتمس مساعدة المعاونين ، ودعش هو بنفسه من سخائهم .

يَجِب على الذاهبين ان يجعلوا الناس يعرفون أحسن ما لدى الرهبانية الفئدة الصغيرة العدد ، فاختار دون بوسكو من الذين لُتوا نداءه (وكانوا جماعة كثيرة) ستة كهنة وأربعة إخوة معاونين . وكانت آخره بعضهم سيئة ، فإنَّ دون بوسكو لم يُحسن الاختيار كل مرة ، ولم يَتَلَقَّ دائماً الأنوار التي تُرسل من أعلى السماء .

صار يوحنا كالبيرو (Cagliero) رئيس الرحلة ، فهو الصبي الذي رأى دون بوسكو في الماضي جنديين عملاقين ، لونهما نحاسيٌّ ، ينحنيان عليه . كان في السابعة والثلاثين من عمره ، وكان كاهناً قويَّ البنية مَرِحاً ، حادَّ الذكاء زاخراً بالنشاط ، فتأهَّب ليكون في أميركا الرجل الملائم للموقف . ويعسر تَحْيُلُ المصلّي من دونه : حصل على شهادة في علم اللاهوت ، وهو أستاذ الشمامسة ومعلم لا نظير له ، ومؤلف موسيقى ، ومسؤول عن أعمال يلزمها كثير من الفطنة ، ومرشد روحيّ لعدة مؤسسات رهبانية في المدينة . فلا بدَّ من أن يترك ذهابه فراعاً مؤلماً جداً . دعاه دون بوسكو على وجه غريب لينضمَّ إلى الرحلة . روى الأب تشيريا :

" بقي دون بوسكو يُفَكِّر ملياً ، وهو صامت فذات يوم من أيام اذار (مارس) قال للأب

كالبيرو الواقف بجانبه :

- أودُّ أن أرسل كاهناً من أقدم كهنتنا ليرافق المرسلين إلى أميركا ، فيبقى معهم هناك ثلاثة أشهر ، حتى يُنظِّموا إقامتهم تنظيماً حسناً . فإنّه يبدو لي أمراً عسيراً بعض الشيء أن أتركهم لوقتهم من غير سنَد أو مرشد .

فأجاب كالبيرو :

- إذا لم يجد دون بوسكو احداً غيري وفكّر فيّ من أجل هذا العمل ، فإنّي على أهبة للذهاب .

فختم دون بوسكو الكلام بقوله : " حسن "

مرّت الأشهر من غير تلميح الى هذه المحادثة ، ولكن لما اقترب تاريخ الذهاب ، قال له دون بوسكو ذات يوم بغتة :

- أتراك لا تزال على رأيك في مسألة الذهاب إلى أميركا ؟ فلربما قلت ما قلت على سبيل المزاح .

- أنت تعلم حقّ العلم أنني لا أمزح في كلامي إلى دون بوسكو .

- حسناً . فاستعدّ إذن ، ها قد حان الوقت .

نشط الأب كالبيرو ليعدّ العدة وأكبّ على العمل حتى أحكم تهيئة كلّ شيء " .

وهكذا بدأ أوّل المرسلين السالسيين وأعظمهم رسالته بما عهد فيه من بساطة ولطف .

ودامت الأشهر الثلاثة " المتوقعة " للعمل ثلاثين سنة برمتها .

وذهب كاهن آخر ذو قيمة هو الأب فانيانو (Fagnano) وكان جندياً قديماً لغاريبالدي ،

ونفسه نفس رائد ، وأما سائر الكهنة الأربعة فهم الآباء كاسينيس (Cassinis) وتوماتيس

(Tomatis) وباتشينو (Baccino) وألافينا (Allavena) وكان الإخوة المعاونون الأربعة

سكلفيني (Scalvini) المعلم النجار ، وجيويو (Gioia) الطباخ ومعلم صناعة الأحذية ،

وموليناري (Molinari) معلم الموسيقى ، ويلمونتي (Belmonte) المدبّر .

عشرون ذكريات مكتوبة بالقلم الرصاص

صرف الذاهبون إلى أميركا الصيف في تعلّم الإسبانية .

وفي شهر تشرين الأول (أكتوبر) سار بهم الأب كالبيرو إلى رومة لينتلقوا بركة الباب ، " فما

إن دخل بيوس التاسع الرّدهة حتى قال : ما أشقاني من رجل كبير السنّ . أين مرسلّي الصغار ؟

أنتم إذا أبناء دون بوسكو ، وستذهبون لتبشّروا بالانجيل في الأرجنتين . أمامكم مجال واسع

لتعلموا الخير . كونوا بفضائلكم قدوة حسنة بين هؤلاء الشعوب . أرغب في أن يكثر عددكم لأنّ

العمل لا حدّ له ، والحصاد فائض بين القبائل المتوحشة " .

عادوا إلى تورينو فجاء في ما رواه اوجينيو تشيريا : " كان لرحلة مرسلين إلى مجاهل أميركا في

١٨٧٥ صفة البطولة في نظر العائشين في تلك الزاوية المغمورة من تورينو التي يقال لها فالدوگو .

كانوا ينظرون إلى الذاهبين نظرهم إلى أبطال كرام يتّبنون بجرأة إلى لقاء الغيب ، فإذا رأوهم يرفلون

في ثوبهم الغريب حاولوا الدّثو منهم ليبادلوهم بعض العبارات " .

في الحادي عشر من تشرين الثاني (نوفمبر) ١٨٧٥ ودَّعَهم دون بوسكو في كنيسة السيِّدة

مريم معونة المسيحيين وفي الساعة الرابعة بعد الظهر كانت الكنيسة تغطّ بالحضور وفي آخر صلاة المساء اعتلى دون بوسكو المنبر ، ورسم للراجلين برنامج عملهم .

عليهم أن يَهتمّوا أوّل الأمر بالإيطاليين المهاجرين إلى الأرجنتين :

" إني أوصيكم على نحو خاص ، بحالة كثيرين من الأسر الإيطالية المؤلمة . ستجدون عدداً

كبيراً من الأولاد وحتى من الكهول يعيشون في جهل يؤسف عليه للقراءة والكتابة ولكلّ مبدأ

ديني . اذهبوا فابحثوا عن إخواننا الذين قادم البؤس والشقاء إلى أرض الغربية . . . " .

ثم يشرعون في تبشير الباتاغونيا :

" إنّنا نبدأ عملاً عظيماً ، لا لأننا نظن أنّنا سنَهدي العالم بأسره في بضعة أيّام ، ولكن من

يدري ما سيكون هذا الذهب ، فلربّما تُخرج هذه الحَبّة الصغيرة شجرة كبيرة ! من يدري ؟ فقد

تكون تلك الحَبّة الذرّة الصغيرة أو حَبّة الخردل التي تنمي وتخرج خيراً عظيماً " .

ولما فرغ دون بوسكو من كلامه ، عانق الراحلين معانقة أخوية . كان الانفعال عظيماً ، لما

اجتاز المرسلون العشرة الكنيسة بين الشبان والأصدقاء ، فكانوا يزدحمون حولهم ووصل دون

بوسكو بعدهم كلهم إلى عتبة المدخل . كان المنظر رائعاً فقد ملأ الجمعُ الساحة وانتظرت صفوفُ

طويلة من العربات المرسلين ، وأضاءت المصابيح ظلامَ الليل .

وقال الأب لموان لدون بوسكو وهو واقف بجانبه :

- دون بوسكو ، أهذا بدء الآية : من هنا ينطلق مجدي ؟ (راجع الفصل ٣٨) .

فأجاب دون بوسكو وهو شديد الاضطراب : " صدقت " .

تلك لحظات قد يفقد فيها المرء معنى الامور الراهنة ، ولكن قَدَمي دون بوسكو راسختان

رسوخاً ثابتاً في الأرض . قال قبل بضعة أشهر فقط : " ما هو مصلى فالدوگو في العالم ؟ إنه ذرّة .

ومع ذلك ما أكثر العمل ، وها إنّنا نُفكّر في ان نرسل من هذه الزاوية الصغيرة اناساً الى هنا

وهناك . يا للطف الله ! " .

تلقى كل ذاهبٍ ورقة صغيرة عليها " عشرون ذكرى خاصة " كتبها دون بوسكو ، وقد دَوّنها

بالقلم الرصاص في دفتره ، وهو يسافر بالقطار ، وطلب اليهم كلهم أن ينسخوها ، وفيها خلاصة

تصوّره للمرسل السالسي .

وهذه هي البنود الأكثر عبرة :

- ١ . اطلبوا النفوس لا المال ، ولا أسباب التكريم ، ولا المناصب .
٥ . أعنوا عناية خاصة بالمرضى والأطفال وكبار السن والفقراء ، فتكسبوا بركة الله وعطف

الناس.

١٢ . دعوا الناس يَرون أنكم فقراء في ثيابكم وطعامكم ولبوتكم ، وتكونوا أغنياء عند الله ، وتمكّلوا قلوب الناس .

١٣ . تحابّوا ، ولينصح أحدكم الآخر ، وليؤدّبهُ ولكن دعوا عنكم كلّ حسد وحقد ، بل ليكن خير الواحد منكم خيركم أجمعين . لئُعدَّ أقدارُ الواحد منكم وآلامه أقداركم وآلامكم جميعاً ، وليبذل كلّ منكم جهده ليشفيهُ منها ، أو على الأقلّ ليخفّفها عنه .
٢٠ . لا ننسى في المتاعب والمحن أنّ لنا مكافأة كبيرة مُعدّة في السماء . أمين .

في ١١ تشرين الثاني (نوفمبر) رافق دون بوسكو المُرسلين إلى جينوى حيث أبحروا في الرابع عشر منه على السفينة البخارية الفرنسية " سافوا " وذكر شاهد عيان أنه كان شديد الاحمرار لما بذل من الجهد ليملك نفسه .

لم يكن المستقبل الذي يبدو في الأفق يدعو إلى الارتياح التام ولكن الأب كالبيرو يحمل رقعة كُتِبَ له فيها دون بوسكو : " اعمل ما بوسعك والله يعمل ما لا يسعنا نحن أن نعمل . ثق ببسوع القربان وبالسيدة مريم معونة المسيحيين ، ثرّ ما هي المعجزات " .

باتاغونيا ارض الميعاد

نزلوا إلى الأرض في بونس أيرس في ١٤ كانون الأول (ديسمبر) ١٨٧٥ ووجدوا أنفسهم بين أصدقاء ، فكان مع رئيس أساقفة المدينة والكهنة ، مائتا مهاجر إيطالي يُرحَّبون بهم ، بأعلى أصواتهم ، بل وجدوا جماعة من تلامذة فالدوگو القدامى .
ولكنهم ذُهلوا " لرؤيتهم شعباً لئِن العريكة حسن التقاليد ، يوقر الكهنة ويوجد عليهم ولكنه غاية في الجهل ، محتاج على الخصوص إلى الاسعاف الدنيي . كان في بونس أيرس ، على ما جاء في رسائلهم الاولى ، نحو ٣٠ ألف إيطالي ونحو ٣٠٠ ألف في الأرجنتين كلها ، متروكين لشأنهم لقلة الكهنة من أمّتهم ، فشعر الأب كالييرو وإخوته أنّهم مُنتظرون كما يُنتظر المطر على الأرض اليابسة . (بيترو ستيليا) .

وانقسم الساليون بعد بضعة أيام فرقتين ، كما فُررَ لدى ذهابهم من تورينو ، فاتخذ الأب كالييرو مع إثنين من إخوانه مقاماً لهم بالقرب من كنيسة أم الرحمة ، لكي يسيروا الرعية التي يسكنها المهاجرون الايطاليون ، وسار الأب فانيانو بالسنة الآخرون إلى سان نقولا لرعاية معهد للذكور .
وما بدا نعمة من السماء حقاً ، هو مصلى أيام الأحد ، وقد فُتِحَ لوقته ، ولم يكن أيّ إسعاف كان للصبيان في المدينة الكبيرة . كتب الأب ستيليا : " ذهل الأب كالييرو ومعاونوه لما وجدوا أنفسهم يحدق بهم أحداث جاؤوا إليهم طوعاً . كان أكثرهم إيطاليين ، فلما رَجى منهم أن يرسموا إشارة الصليب ، نظروا مستغربين ، ولم يفهموا معنى ما يقال لهم ، ولما سئلوا ليعرّف هل يذهبون إلى القديس أجابوا أنّهم لا يتذكرونه ، لأنهم لا يعلمون متى يكون يوم الأحد ومتى لا يكون " .
وكانت المدارس على الخصوص قليلة جداً ، وانهاالت الطلبات على الأب كالييرو في بضعة أسابيع ، لا من الأرجنتين فحسب بل من الاوروغواي المجاور ، فحثه القاصد الرسولي في مونتي فيديو (Montevideo) على إرسال السالسيين إليها ، وأطلعه على أرقام مؤلّمة : ليس في الاوروغواي ، وهويساوي نصف إيطاليا ، معهدٌ كهنوت للصغار ولا للكبار ، ما من طالب كهنوت واحد ولم يكن في العاصمة ولا مدرسة كاثوليكية واحدة .

أين المتوحشون ؟

وترك جانباً التفكير بالمتوحشين الذي كان حمل كثيراً من السالسيين على اجتاز المحيط فوجه الأب كالبيرو واهتمامه نحو ثلاثة مشروعات بدا له فتحها حاجة ماسة ، أولها مدرسة صناعية . " ان مدرسة للصنائع والحرف حدث تاريخي ، حدث بارز في تاريخ الوطن ، تُعجّب به الجمهورية كلها ، ويصنع خيراً عظيماً " ، كما جاء في رسالته إلى دون بوسكو كتبت في ٥ شباط (فبراير) ١٨٧٦ . ثم معهد في مونتي فيديو ، وهو أول معهد مسيحي في عاصمة الاورغواي . وآخر الأمر مشروع للصبيان في الحي الأشد فقراً في بونس أيرس " البوگا " وسكانه إيطاليون وتسيطر عليه الماسونية ، ولم يكن يجسر أحد على المرور في شوارع ذلك الحي . فذهب إليه الأب كالبيرو ولوقته وجمع زمرة من الصبيان بتوزيعه عليهم أيقونات السيدة مريم العذراء ، وأفلح في التحدث إلى بعض الأسر ، فبلغ الخبر رئيس الأساقفة فقال له :

- لقد خالفت الفطنة مخالفة كبيرة . لم أذهب قط إليه ، ولا أذن لأحد من كهنتي بالذهاب إليه . فالمرء يتعرض فيه لأخطار جسيمة .

- ومع ذلك أشعر بالرغبة في العودة إليه .

فبعد يومين أو ثلاثة عاد إليه فأسرع الصبيان نحوه وهم يصيحون بلهجة أهل جينوى :

" كاهن الأيقونات " . حينذاك تجددت المشاهد القديمة التي جرت في ضواحي تورينو : " أعطيتها أحسنكم . . . ، أسوأكم . . . أتعرفون رسم اشارة الصليب ؟ والسلام عليك ؟ " .

فخرج الرجال والنساء إلى عتبة الدار ليروا ذلك الكاهن الذي يجسر على البقاء بين رعاهم الصغار ويعد بأرض للعب والغناء والموسيقى والفرح

ولكن أهل فالدوگو كانوا يطلبون بإلحاح أخبار المتوحشين . كتب اوجينويو تشيريا (Ceria) : " كانت كلمة باتاغانيا تلهب مخيلة الأحداث . كم منهم كان يحلم بمغامرات بين الهنود يجوبون تلك الرحاب غير المأهولة " . كان على دون بوسكو أن يغذي أو هام الشبيبة ولا يدع حماسها تزول .

وكان المرسلون يبعثون في رسائلهم بأخبار يتلقونها من هنا وهناك ، وكان أكثرها غير صحيح أول الأمر ثم صارت أكثر دقة على مرّ الأيام . ورد في رسالة مؤرخة في ١٠ اذار (مارس) ١٨٧٦ :

" إن أحوال الهنود أي القبائل البامبا والباتاغونيين ، أحوالهم المادية والروحية تملأ نفوسنا مرارة شديدة . إن رؤساء تلك القبائل يحاربون الحكومة . إنهم يشكون الإذلال وسوء المعاملة ويتجنبون

الجيوش المعسكرة لكبحهم ، ويسيرون في الأرياف فيسرقون ، وهم يحملون بندقيات رمنكتون (Remington) فيأسرون الرجال والنساء والأولاد ، ويستولون على الخيل والغنم . وإن جنود

الحكومة من جهتهم يحاربونهم حتى الموت فتستعزّ العقول غيظاً وتتحمس للانتقام بدل أن تتفاهم . ولربّما صارت الحالة غيرما هي عليه ، لو أرسلت جماعة من الكبوشيين أو غيرهم من المرسلين عوض الجنود : فالراجح أنهم يُخَلِّصون كثيراً من النفوس فينشأ الازدهار والرخاء الاجتماعي بين هؤلاء المتوحشين . فلما كان الهنود في نزاع مع الحكومة وساخطين عليها ، فلا يسع المرسلين أن يعلموا شيئاً ولن يعملوا إلا شيئاً قليلاً "

صبيان واصلوا من تورينو

فهم دون بوسكو الموقف وهو في فالدوگو : إن بونس أيرس ، وقد اكتظت بالمهاجرين ، فكرته بمدينة تورينو بما فيها من صبيان كانوا ينزلون من الوديان العالية إذ كان كاهناً شاباً . فأعدّ بعثة ثانية فأرسل في ٧ تشرين الثاني (نوفمبر) ١٨٧٦ الى امريكا ٢٣ سالسيا ليتمكن الأب كالبيرو من أن ينشئ هناك المشروعات التي يبدو أن الناس يحتاجون إليها أمسّ الحاجة وكان بينهم الأب بودراتو والأب لويجي لازانيا (الصبي الأصهب) فدفعنا النشاط السالسيّ دفعة شديدة إلى الأمام . إن ذلك الجهد أصاب الرهبانية الفتية التي كانت لا تزال نحيفة ، بنزف لقواها . كتب إلى الأب كالبيرو : " إنّ تلك البعثة دفنتنا حتى عنقنا ولكن الله يُعيننا وسنخرج من المحنة " . ولكن دون بوسكو لم يشأ التخلي السريع عن المشروع الاول ، وهو تبشير الهنود بالانجيل ، فعرض خطة تبدو عن بُعدٍ صالحة ليعمل بها ، أي فتح معاهد في المدن القريبة من أراضي الهنود ، وتقبّل أولاد المتوحشين ، والاقتراب عن يدهم إلى الراشدين ، " والاعتناء بالوقت نفسه بالدعوات التي قد تظهر بين التلاميذ ، وهكذا يُرجى إعداد مُرسلين من أجل البامبا والباتاغونيين فيصير المتوحشون مبشّرين للمتوحشين " .

ولكن الخطة غير صالحة لأن يُعمل بها هناك . قام الأب كوستامانيا والأب لازانيا بجولات رسولية بين القبائل التائهة في الأرياف الواسعة على بعد كبير من مراكز الحياة المدنيّة ، ولكنهم لم يصادفوا قطّ وجه امرئ متوحش . إن " المدن القريبة من أراضي الهنود " غير موجودة ، فمن أراد الوصول إلى أراضي الهنود ، وجب عليه أن ينضمّ إلى المغامرين والتجار الذين يسافرون إلى الجنوب في قوافل على مراكب شراعية ، ويقطع ألف كيلومتر ، فهناك تجمّعات لبضعة بيوت ، وكثير من الأكواخ صارت مُدناً بعدد .

في تشرين الثاني (نوفمبر) ١٨٧٧ أرسل دون بوسكو الى الارجننتين جماعة ثالثة من السالسيين عددهم ١٨ سُمّيت " حملة الأطفال " لأنها حوت ثمانية شمامسة صغار السنّ ، ولكن النتائج دلت

على أنه كان صواب .

وذهب مع السالسيين لأول مرة بنات السيدة مريم العذراء معونة المسيحيين : كنّ جماعة صغيرة وشيئاً من تلك الأشياء القليلة الشأن التي اعتاد دون بوسكو دائماً أبداً أن يياشر بها أعماله العملاقة . وراء هؤلاء البنات ، بنات مريم معونة المسيحيين اللواتي رافقتهن الأمّ مازارلو إلى السفينة ، اجتاز المحيط بعدئذ آلاف من المرسلات .

أدرك رئيس أساقفة بونس أيرس أن دون بوسكو يعمل في سبيل أبرشيته " أشياء تفوق حدود ما يمكن عمله " ، فأراد أن يظهر عرفانه للجميل بالعمل وفقاً لأرائه ، فأرسل نائبه صاحب السيادة اسبينوزا (Espinosa) وسالسيين ليقوموا برحلة إلى أراضي الهنود في باتاغونيا ، وهكذا يتسنى لدون بوسكو ان يتلقى آخر الأخبار على المتوحّشين التي يرغبون فيها .

في ٧ آذار (مارس) ١٨٧٨ ركب الأب كوستامانيا والأب رابالياتي والنائب على شاطئ نهر بارانا (Parana) سفينة بخارية ذاهبة إلى الجنوب ، فنزلوا في باهيا بلانكا (Bahia Blanca) على بعد ألف كيلومتر عند البحر ، وواصلوا من هناك " على وجه ما " طوال ٢٥٠ كيلومتراً آخر رحلتهم إلى باتاغونيس على الديو نيجرو (Rio Negro) الذي يفضل بين البامبا وباتاغونيا .

فلم تُخفق المحاولة فحسب ، بل كادت أن تتحوّل إلى مأساة ، ذلك بأن عاصفة هبت فهزت ريح بامبيرو (Pampero) بعنف ثلاثة أيام وليلتين السفينة البخارية فاضطّرت آخر الأمر إلى العودة إلى ميناء بونس أيرس ، بعدما نزل فيها عطب جسيم .

فأصابت الرسالة الطريفة جداً التي وصف فيها الأب كوستامانيا العاصفة لدون بوسكو ، نجاحاً خيالياً بين أحداث فالدوگو وقرّاء النشرة السالسيّة .

" الصليب يسير وراء السيف ! علينا بالصبر! "

بدأت الحملة الثانية على أرض الهنود في ١٦ نيسان (ابريل) ١٨٧٩ فذهب جوليو روكا (Julio Roca) وهو قائد ووزير للحرب ، نحو الجنوب ومعه ٨٠٠٠ جندي : إنها عملية " تطهير " واسعة هدفها قبائل ذلك المكان الذي فيه يثيرون بلا هوادة الفتن وحرب العصابات .

قُتل في المعارك السابقة كثير من الهنود ، وسيق اخرون إلى بونس ايرس ، ووُزّعوا عبيداً في الأسر ، فساد القبائل التي نجت بغض شديد ، ومن اليسير التنبؤ أنها ستفضّل أن تباد على أن تستسلم ، ومن اليسير أيضاً التنبؤ أن الجنود سوف يقومون بالمجازر المألوفة .

أراد مع ذلك وزير الحرب أن يحاول استعمال " وسائل أخلاقية " فطلب الى رئيس الأساقفة

كهنة يعملون عمل المرشدين العسكريين بين الجنود ، وعمل المرسلين بين قبائل الأهلين ، فبعث إليه رئيس الأساقفة بنائبه ، وسالسيين هما الأب كوستامانيا والأب بوتّا (Botta) .

" فلم تُرَق هذه المسألة الأب كاستامانيا كثيراً " ، كما كتب الأب بودراتو إلى دون بوسكو في ذلك الحين . " إنه يخشى أن يُبعد الكاهن المختلط بالجنود الناس عن الانجيل . ومهما يكن من أمر ، فمن الضروري أن يصلّي من أجلهم أكثر منه في أي وقت كان " .
بونس أيرس وأزول (Azul) ، كارهوي ('Carhue') فشويلي شويل (Choele – Choel) فباتاغونيس (Patagones) : نحو ١٣٠٠ كيلومتر قطعوها على ظهور الخيل ، أو في عربات متأرجحة من طراز عربات الغرب البعيد (الفارويست) . هذه أول " رحلة رسولية قام بها سالسيان ، ورواها بأسلوب شعبي حيّ الأب كوستامانيا في رسائل إلى دون بوسكو بعث بها في أثناء السفر ، فقرأها أهل فالدوكو ، فأثرت فيهم تأثيراً شديداً ، وطُبعت في النشرة السالسيّة والجرائد الكاثوليكية ، فسببت حماسة لا حدّ لها .

وهذا بعض ما جاء فيها :

" ذهبنا مع وزير الحرب وكثير من العسكريين من أزول ، وهو آخر بلد في الأرجنتين ، وبعده تبدأ الصحراء الكبيرة ، صحراء البامبا .

الصليب يسير وراء السيف : علينا بالصبر! رضي رئيس الأساقفة وطأنا الرأس . جعل لنا حصان ، وجعل لنا كُنّا عربة فنقلنا إليها المذبح والهرمونيوم وحفائنا .

رأينا في اليوم الأوّل ، حيناً بعد آخر ، خياماً أو أكواخاً مصنوعة من جلد الحيوانات ، إنها لهنود البامباس وكادوا أن يصبحوا متمدّنين ، لونهم شديد السمرة ووجههم عريض مسطح . عندما نمرُّ بالقرب منهم ، نسلم عليهم ببعض الكلمات من لغتهم ونواصل سيرنا في الصحراء .

كارهوي ('Carhue') محطة في قلب صحراء البامبا ، والحد الفاصل بين الأرجنتين وقبائل الهنود ، وتتألف المحطة من حصن مصنوع من التراب ومن نحو أربعين بيتاً وخيمة لقبيلتين هنديتين الايريبيالا ('Eribayla') والمانويل غراندي (Manuel Grande) : قد استعرتُ حصاناً ولحقت بالقبيلتين .

فلما دنوتُ من الخيام شعرت بقلبي يخفق . فما العمل ؟ هُوذا ابن رئيس الايريبيالا أت

للقائي ، ومن حسن الطالع أنه يتكلم الاسبانية ، فاستقبلني استقبالاً ودّيّاً ، وسار بي إلى أبيه ، وكان لي ترجمانا . فاستقبلني الرئيس بلطف وقال لي إنه يرغب رغبة شديدة في أن يتعلموا كلهم الديانة الكاثوليكية ، ويتلقوا العماد . فجمعت الصبيان بكلّ بساطة وشرعتُ في التعليم الدينيّ وعلمتُ بشيء من الصعوبة إشارة الصليب . . .

منحنا في كارهوي العماد نحو خمسين صبيّاً هنديّاً وعشرين ولداً أهلهم من المسيحيين ، ولو

شاء الله ، لوددنا أن نبقي هناك شهراً على الأقل ، ولكن الوزير رجا منا أن نتبعه ، فذهبنا على كره

منا وبنا رغبةً شديدةً جداً في العودة بأسرع ما يمكن . . .

سيرنا في طريق الصحراء لا بصحبة الجيش فحسب ، بل بصحبة قبائل هندية أمرهم الوزير ان ينقلوا خيامهم إلى شويلي شويل ، ليصيروا شعباً جديداً في هذه الحدود الجديدة ، وسيرنا في الصحراء على نحو متواصل طوال شهر . . .

وفي ١١ أيار (مايو) بعدما مررنا في الجبال والوديان والبحيرات المالحة والأنهار ، وصلنا آخر الأمر إلى ريو كولورادو (Rio Colorado) وهو نهر عَرَضه يكاد أن يكونَ كعرض نهر البو (Po) ، في تورينو ، فأقمنا القداسَ على ضفته .

فطلبتُ ونلتُ أن أرافق المقدّمة التي سبقت موكب العربات لكي تصل قبل سواها إلى الريو نيغرو . تقدّمتُ وأنا راكب حصاني ثلاثة أيام بين أدغال الشوك ، فأعمل ما لا يُستطاع لكيلا أترك ثيابي تُمزقَ شذراً مَدراً . وفي صباح يوم الرابع والعشرين من أيار نهضت عند الفجر ، ونفضت عني الصقيع من على ما كان يجب أن أسميه سريري ، واستدفأتُ بنار حسنة وذهبت راكباً حصاني ، يخبّ تارو ويعدو تارة حتى وصلتُ إلى شويلي شويل ، وفي الساعة الرابعة ظهراً والدقيقة ٣٤ ، لما غابت الشمس وراء الكورديليرا (Cordigliera) ترجّلتُ عند ضفة الريو نيغرو ، أي على جانب الباتاغونيا لأنّ هذا النهر يفصلها عن البامبا ، وأنشدت من صميم قلبي نشيداً لأمتنا العزيزة السيدة مريم معونة المسيحيين في ذلك اليوم ، يوم عيدها . . . " .

مطاردة الانسان

" وفي الغد بحثت في شويلي شويل ، من غير تأخر ، عن الهنود أسرى الحرب ، لأعلمهم الدين المسيحي . إن حالة البؤس التي وجدتهم فيها سيئة جداً ، فبعضهم نصف عراة ولم يكن لهم خيام ، فكانوا ينامون تحت السماء ، ولا ملجأ لهم . يا لهم من مساكين . فلما رأوني واصلا النفوا حولي نساء ورجالا وفتياناً وفتيات . . . " .

وذهب المرسلون إلى باتاغونيس ، وهو مركز فيه ٤ آلاف من السكان على ضفة الريو نيغرو ، وعادوا من هناك إلى بونس أيرس في آخر تموز (يوليو) .

ولكن الحملة العسكرية على الريو نيغرو استمرت نحو سنتين حتى نيسان (ابريل)

١٨٨١ ، فاستولى الخوف واليأس على الهنود ، فهربوا من الكورديليرا إلى الشيلي واستوطنوه .
وهرب القائد الأبّي عمانوئيل نامونكورا (Namuncura') مع جماعة صغيرة من الهنود إلى الكورديليرا ، واعتصم في واد عالٍ .

ولم يبقَ الهنود منذ ذلك الحين ، منظّمة عسكرية ، فقد أصاب الخوف والجوع التجمّعات

التي نجت ، فتعرضت في السنين بعدها لمطاردة صامتة لا هواده فيه ، وهدفها أن تجعل منهم عبيداً للمزارع أو أن تبيدهم إبادة تامّة .

في ٥ آب (اغسطس) ١٨٧٩ قدّم أساقفة بونس ايرس رسالة باتاغونيس لدون بوسكو ، فعهد هذا إلى الأب كوستامانيا بأن يبحث مع رئيس الأساقفة بجدّ في مسألة " فتح بيت مركزي للراهبات والسالسيين . سأهتم أنا بالأشخاص وسنهتم معاً بالوسائل الماديّة " .

وفي رسالة التهنئة بالعام الجديد إلى معاونين المؤرّخة في أول كانون الثاني (يناير) ١٨٨٠ أعلن بدء الرسالة في باتاغونيس : " قبلتها وقد ملأتني الثقة بالله وبمحبّتكم " .

كان قد نما على كلّ من ضفتي الريو نيغرو ، عند مصبّه ، تجمّعان للمساكن ، هما باتاغونيس وفبيدما (Viedma) . في ١٥ كانون الأول (ديسمبر) ١٨٧٩ ذهبت جماعتان صغيرتان من السالسيين إلى بونس أيرس ، فقد وكلّ إليهما رسالتا باتاغونيس وفبيدما .

فسيجب على الأب فانيانو خوري باتاغونيس ، يؤازره كاهنان ومعاونان وأربع راهبات ، أن يهتّم بجميع المستعمرات والقبائل بين الريو نيغرو والريو كولورادو ، المبعثرة على أرض يقال لها " البامبا" مساحتها تساوي أرض ايطاليا من البيمونتة إلى الفينيسيا ، وسيجب على الأب ميلانيزيو (Milanesio) خوري فبيدما أن يهتّم بجميع الساكنين في جنوب الريو نيغرو في البقعة التي يقال لها باتاغونيا وهي أرض مساحتها تساوي مساحة ايطاليا من نهر البو إلى كالابريا .

اتخذ الأب فانيانو له خُطة أن يجلب إلى بيتنا أكبر عدد ممكن من الناس وفي عشرة أشهر أنشأ مدرستين للذكور والانات ، وكان عدد الجماعة الاولى ٨٨ من الأحداث فيهم أولاد هنود .

واتخذ الأب ميلانيزيو له خُطة مختلفة كلّ الاختلاف فذهب يبحث عن الناس في بيوتهم .

ركب الحصان وذهب للبحث عن الهنود ، فتعلّم لهجتهم بوقت قليل ، ووصل إلى قبائل كثيرة وأصبح صديقاً لها ، وأنقذ كثيراً من الجماعات والأسر المعزولة ، من مضايقة البيض لها ، وصار بلحيته التي تعبت بها الريح مثال المرسل الرائد ، وأظهر له الهنود الثقة والتوقير ، وبلغ بهم الأمر إلى الاستغاثة باسمه كأنه اسم سحريّ إذا أساء معاملتهم البيض الذين يُزعم أنّهم متمدّنون .

ان خُطتي المرسلين الكبيرين كانت الواحدة منهما تُنمّم الأخرى فصارت فبيدما وباتاغونيس

مكانيين لمدارس ذات نفوذ ومعاهد ، تهياً فيهما جيل جديد من المواطنين المستقيمين المسيحيين المراعين لحقوق الهنود ، وصارتا المركزين اللذين منهما انطلق المرسلون الجوّالون الذين سلكوا مجرى الأنهار فتقدموا وهم يمّرون بالوديان والثلال والجبال ، ليزوروا خيام الهنود وبيوت المستعمرين البيض .

فلما عزم عمانوئيل نامونكورا (' Namuncura) ، وهو آخر قائد كبير ، على مفاوضة الحكومة

الأرجنتينية في استسلامه ، اختار الأب ميلانيزيو ، وتلقى بدل عمله هذا لقب لواء في الجيش وبزته وراتبه .

" رأيت في جوف الجبال "

في السنة ١٨٨٣ تلك رأى دون بوسكو في حلم جديد ، وهو على بعد آلاف من الكيلومترات ، مستقبل أميركا الجنوبية ومُرسليها .

" . . . نظرت من نافذة فرأيت تهرب أمامي مناظر مختلفة مدهشة ، من غابات وجبال وسهول وأنهار طويلة جداً فخمة . . . وحاذينا طوال آلاف من الفراسخ ، طرف غابة بكر لم يدخلها أحد إلى ذلك اليوم . . .

ورأيت ما في جوف الجبال وأعماق السهول . ظهرت لعيني ثروات لتلك البلد لا مثيل لها وسيُكشف عنها ذات يوم . ورأيت مناجم كثيرة للمعادن الثمينة ، ومناجم فحم لا تُقنى ، ومخزونا من النفط غزيراً جداً لن يوجد مثله في مكان آخر . . .

وعاد القطار إلى السير في البامبا والباتاغونيا . . . فوصلنا إلى مضيق ما جلانو

(Magellano) فنزلنا فإذا بنا أمام البونتا آريناس (Punta Arenas) وكانت تغطي الأرض ، على مساحة عدة فراسخ ، أكداس من الفحم الحجري والعوارض واكداس عظيمة من المعدن بعضه خام وبعضه الآخر مصنّع . أشار صديقي إلى هذا كله وقال لي : ما هو مشروع الآن ، سيصبح حقيقة ذات يوم .

فاستنتجت : حسبي ما رأيت ، فسِر بي الآن إلى أبنائي السالسيين في باتاغونيا .

فعدنا إلى المحطة ورجعنا إلى القطار وقطعنا مسافة طويلة جداً ، فتوقفت القاطرة بالقرب من قرية كبيرة ، فنزلت من القطار ولقيت السالسيين لوقتي ، فدخلت بينهم فكانوا كُثراً ولكني لم أعرفهم ولم يكن فيهم واحد من أبنائي القدامى ، فكانوا كلهم ينظرون إليّ متعجبين كأني غريب ، فقلت لهم :

- ألا تعرفوني ؟ ألا تعرفون دون بوسكو ؟

- إيه ، دون بوسكو نعرفه بسمعته ، ولكننا لم نره إلا في الصورة . أمّا هو بنفسه فلا

نعرفه أبداً .

- والأب فانيانو والأب كوستامانيا والأب لازانيا والأب ميلانيزيو ، أين هم ؟

- لم نعرفهم . هم الذين جاؤوا إلى هنا في الماضي ، وهم أول السالسيين الذين وصلوا من

أوروبا . وأمّا الآن فقد ماتوا منذ سنين كثيرة .

فلما سمعتُ ذلك الجواب فكرتُ مدهوشاً : أتراني في الحلم أم في اليقظة ؟
وصعدنا إلى القطار فصقّر وسار إلى الشمال ، فتقدّمنا ساعات كثيرة على ضفاف نهر طويل
جداً ، وكان القطار يسير على الضفة اليمنى تارة وعلى اليسرى تارة .
وكان يظهر على تلك الضفاف قبائل متوحشة كثيرة وكان ريفيكي يُكرّر القول : هُوذا حصاد
السالسيين ! هُوذا حصاد السالسيين !

وفي أثناء هذا الحلم الطويل الغريب ، كان دليل دون بوسكو العجيب يُنبئه بالوقت اللازم
ليتمّ فداء الشعوب المتوحشة في جنوب أميركا : " سيتمّ الأمر قبل زوال الجيل الثاني ، وعمر كل
جيل ستون سنة " .
ودله أيضاً على الطريقة التي يحصل بها المرسلون على طلبهم : " بالعرق والدم " .

آخر حلم رسولي حلمه دون بوسكو

في الليلة بين التاسع والعاشر من نيسان (أبريل) ١٨٨٦ ، حلم دون بوسكو آخر حلم في
شأن الرسائل ، فرواه بصوت متهدّج ، لما أصابه من التعب والانفعال ، للأب روا وأمين سره
فيليتي (Viglietti) . كان ذلك الحلم رؤيا للمستقبل فخمة هادئة . إننا نختار مما دوّنه السامعان
الفقرات التي تبدو لنا جوهرية .
" . . . فألقى نظره من أعلى قمة إلى الأفق فرأى عدداً من الشبان كثيراً جداً ، يركضون
حواله ويرافقونه قائلين :

- انتظرناك ، انتظرناك طويلاً جداً ولكنا الآن ههنا ولن نُفلت منا . . .
- قالت له راعية ترعى قطيع حملان كبيراً جداً :
- حدّد النظر ، حدّدوا النظر جميعاً . ماذا ترون ؟
- أرى جبالات البحر ثم تلالاً وجبالاً أيضاً وبحوراً .
- قال صبيّ : أقرأ كلمة فالباريزو (Valparaiso) .
- وقال آخر : أنا أقرأ كلمة سانتياغو (Santiago) .
- فواصلت كلامها : أجل ، إذهب من هذا المكان ترّ جميع ما يجب على السالسيين أن يعملوا
في المستقبل . أنظر من هنا إلى الأمام .

فحدّق الأحداث فصاحوا كلهم صيحة واحدة : نقرأ كلمة بكين (Pekin) .
فقالت الراحية : الآن ارسم خطأ واحداً من مكان آخر ، من بكين الى سانتياغو ،
وارسم مركزاً في وسط افريقيا ، فتعرف معرفة صحيحة ما يجب على السالسيين أن يعملوا .

فصاح دون بوسكو : ولكن كيف نعمل ذلك كله ؟ إن المسافات كبيرة جداً والبلاد عسيرة

المنال والسالسيين قليلون .

- لا تضطرب . إن ابناؤك يصلون إليها ، أبناء أبنائك وأبناؤهم . ارسم خطأ من سانتياغو

في وسط افريقيا . ماذا ترى ؟

- عشرة مراكز محطات .

- أجل ، إن هذه المراكز التي تراها ستكون مراكز درس ، أو دياراً لطالبي الحياة الرهبانية

وتُخرج جماعات من المبشرين ليسدوا حاجات هذه البلاد . والآن التفت نحو الجهة الأخرى . إنك

ترى عشرة مراكز أخرى من وسط أفريقيا إلى بكين ، وسوف تخرج هذه المركز أيضاً مرسلين لجميع

هذه البلاد . هنا بكين وهناك كلكتا (Calcutta) ثم هنالك مدغشقر (Madagascar) . سيكون

لهم ولبضعة غيرهم بيوت ومراكز للدروس وأديار لطالبي الحياة الرهبانية " .

لما بلغ دون بوسكو اجله الأخير كان ١٥٠ سالسيًا وخمسون بنناً للسيدة مريم العذراء معونة

المسيحيين يعملون في أمريكا اللاتينية . كانوا قد رسّخوا أقدامهم في خمس أمم : الارجننتين

والاوروغواي والبرازيل والشيلي والاكوادور ، ففي ١٣ سنة تمَّ عمل عظيم .

دون بوسكو ورئيس الأساقفة غاستالدي

في السنة ١٨٧٢ بينما دون بوسكو يُحدّث الأب كولومياتي (Colomiatti) قال في رئيس أساقفة تورينو لورينزو غاستالدي (Lorenzo Gastaldi) : " لم يبقَ إلا القليل حتى يغرر سكيناً في قلبي " .

إن هذا القول الشديد خليق بأن يوقف دعوى تطويب أيّ امرئ تفوّه به . ومع ذلك فحص هذا القولَ خبراءُ الكرسي الرسوليّ بالمجهر طويلاً ثم أعلنوا أن فضائل دون بوسكو بطولية ، جميع فضائله حتى الصبر . لم يجدوا في ذلك الكلام شتيمة لأسقفه ، ولا نزوة غضب أو قلة صبر ، بل وجدوا فيه صوتاً بشرياً أطلقه كاهن بلغ حدود التحمل ولم يتجاوزها .
نروي في هذا الفصل أحداثاً بدّت في الماضي حرجة في رأي الذين كتبوا سيرة دون بوسكو ، فأغفلوها أو ذكروها ذكراً عابراً .

نعتقد أن المسيحيين في أيامنا قد كبروا وبلغوا سنّ الرشد ، ونعتقد أنه ليس هناك سبب للعتار بل سبب للبناء أن يعرف الناس كيف أخطأ أكبر " رجال الله " أيضاً ، وكيف كان لهم لا أن يتألّموا فحسب بل أن يسببوا الألم ، لأننا جميعاً على وجه الأرض قوم مساكين أيّاً كانت البرّة التي نلبسها أو الشارات التي على أكمامنا .

فتور المطران ريكاردي

وقع خلاف طويل مُذِلّ مؤلم كاكليل من الشوك بين دون بوسكو ومطرانه ، فعانى دون بوسكو طوال السنين التي قام فيها بأعظم المشروعات التي حقّقها .
مات المطران فرانسوني منفياً في ليون السنة ١٨٦٢ وكان قد رَسَمَ دون بوسكو كاهناً ، ورأى مشروعه ينشأ وينمو ، فأيدّه دائماً وسمّى مصلاه " رعية الصبيان الذين لا رعية لهم " .
وكانت المنازعات السياسية سبباً حال دون حصول تورينو على رئيس إلا في السنة ١٨٦٧ ، وهو المطران ريكاردي (Riccardi) ، وكان من نبلاء نيترو (Nietro) . كان يكبر دون بوسكو بسبع

سنوات ، وكان له صديقاً جليماً وتلقى تسميته لكرسي تورينو وهو مطران سافويا (Savona) .
فذهب دون بوسكو إلى زيارته فألقى المطران بذراعه حول عنقه وقال له إنه يعرف قدرته المشهود له
بها ، على العمل بين الأحداث ، والخير الذي يصنعه إلى الكهنة في معهد الكهنوت للصغار في
ميرابلو ، وهو ذاهب على تورينو ولديه خطة واضحة يقصد بها أن يعهد إليه بانعاش معهدي
الكهنوت في جيافينو (Giaveno) وبرابرا (Bra) وإعادة تنظيم معهد الكهنوت في كيري (Chieri) .
ولكن شيئاً ما إنكسر بينهما أول ما تلاقيا في تورينو ، فأخبره دون بوسكو بأنه أنشأ رهبانية منذ
١٨٥٩ وأن الكرسي الرسولي وافق عليها موافقة أولى ، وضم إليها قراراً ثناء في السنة ١٨٦٤ ،
فصعق المطران ريكاردي فقال وقد انفعل بعض الانفعال :

- كنت أعتقد أن مؤسستك عائدة للأبرشية وأنها خاضعة لأبرشيتي خضوعاً تاماً . . .

يسهل تفهم ذهول المطران ريكاردي ومرارته ، ففي وقت كانوا قد خرجوا فيه من شذائد
كثيرة فحاولوا جمع قوى الأبرشية وتحقيق الوحدة والالتفاف في صفوف متراسة حول رئيس
الأساقفة ، بدا دون بوسكو كمن يهرب . كان هذا يصبو إلى رسالة أوسع ، فينظر الآن إلى الكنيسة
أكثر من نظره أبرشية تورينو .

وإزداد المطران ريكاردي فتوراً في معاملته لدون بوسكو ومشروعه على مرّ السنوات الثلاث
بعده .

لما أغلق معهد الكهنوت لكبار الطلاب لجأ كثير منهم إلى فالديغو ، وغيرهم إلى دار
الكوتولنغو ، فاكتسب دون بوسكو كثيراً من المودة من جراء ذلك ، فظهر المصلّي بمظهر قلعة جادت
بها العناية الإلهية ، وملجأ للشبان الذين يُرجى أن يكونوا رجال الكنيسة في تورينو .

وأما الآن فقد تبدلت الحالة تبدلاً تاماً ، ففي ١١ أيلول (سبتمبر) ١٨٦٧ كتب رئيس

الأساقفة إلى دون بوسكو :

" وأما شمامسة أبرشيتي فإني لا آذن بعد اليوم أن يُعلموا أو يُلقوا دروساً أو يعملوا عمل
الناظرين في المهاجع أو الصفوف ، وما ذلك إلا لكي يُقبلوا على دروسهم . ولقد عازمت ألا أمنح
الرُتب المقدسة إلا الذين هم في معهد الكهنوت " .

فبدأت الأوقات المظلمة لدون بوسكو ، فإن كثيراً من طلاب الكهنوت الذين لم يكونوا
يبيغون البقاء عند دون بوسكو تركوا المصلّي ، وانتقلوا إلى معهد الكهنوت وأما الذين كانوا قد
ارتبطوا به بنذور ، فقد ساءلوا أنفسهم قلقين هل يتأتى لهم ذات يوم أن يصيروا كهنة .

فذهب دون بوسكو إلى مطران ريكاردي وحدّثه في الأمر وأعرب عن رأيه بشيء من

الاحتداد :

- قضت أوامرك بأن يذهب الكهننة والشبان إلى المركز الكهنوتي ، وطلاب الكهنوت إلى معهدهم . أفريقي دون بوسكو وحده بين صبيانهم كلهم ؟
فضّل رئيس الأساقفة ثابتاً في مواقفه . ومن حسن الحظ أنّ الحبل لم يبقَ مشدوداً مدة طويلة جداً ، ففي أول آذار (مارس) ١٨٦٩ وافق قرار من المجمع المقدس ، كان دون بوسكو التمسّه بالحاح ، موافقة رسمية على الرهبانية السالسية ، ومنح قرار آخر دون بوسكو إذناً صالحاً لعشر سنوات بأن يعطي رسائل تؤهّل للرسامات المقدّسة طلاب الكهنوت الذين دخلوا المصلّى قبل الرابعة عشرة ، ومعنى ذلك أنه يحقّ لدون بوسكو أن يُقدّم للرسامات من نشأ في المصلّى منذ حدثته ، مُزوّداً إياه بضمّانه (رسائل تأهيل للرسالة) ولو لم يتردّد إلى معهد الكهنوت .
مات المطران ريكاردي في السنة ١٨٧٠ .

" أنت تريده فأنا اعطيك إياه "

كان لدون بوسكو شأن عظيم عند بيوس التاسع . فاستشاره البابا في اختيار المطران الجديد لتورينو ، فاقتراح دون بوسكو المطران لورينزو غاستالدي مطران سالوزو (Saluzzo) وكان بيوس التاسع يعرف ما لغالستادي من طبع حادّ ، فرأى غير ذلك الرأي ، ولكن دون بوسكو ألحّ فقبل البابا الاقتراح قائلاً علة ما شهد الأب أمادي (Amadei) :
- أنت تريده فأنا اعطيك إياه وأترك لك أمر إعلام غالستالدي إنني أجعله الآن رئيس أساقفة تورينو ، وسأجعله بعد سنتين أكثر من ذلك . (وفي هذا القول تلميح لا يخلو من الوضوح إلى شرف الكردينية) .

أبرق دون بوسكو لوقته إلى المطران غاستالدي :

- يا صاحب السيادة لي الشرف بأن أكون أول من يخبرك بانك سيُمتّ رئيس أساقفة

تورينو .

فما إن عاد دون بوسكو من رومة حتى ذهب المطران غالستالدي غلى جناح السرعة إلى

تورينو .

"صادف الأب لموان فعانقه وصعد وإياه ، وهو لا يقوى على البقاء في مكانه ، وعلى أحرّ من

الجمر ، لشدة انفعاله . وإذا دون بوسكو يظهر فأمسك المطران بيده وصحبه وظلّ يخاطبه وقتاً

طويلاً " (ذكريات السيرة ، ج ١٠ ، ص ٤٤٦) . وبدر من دون بوسكو شيء من قلة الحذر

فلمّح في آخر المحادثة إلى أنه ساهم هو أيضاً في التسمية ، وبلغ المطران ذات الكلمات التي فاه بها

البابا : " الآن رئيس أساقفة وبعد سنتين أكثر من ذلك " فقاطعه المطران بقوله : " لندع العناية

الإلهية تعمل ما تشاء " . كان ذلك عمل تواضع ولكّنه ايضاً ستاراً للاستياء .

كان يمكن القول بحق إنّ صداقة دون بوسكو وغالستادي لاتنال منها القنابل . علمت أمّ المطران سنين كثيرة في المصلّى ، وعدّت دون بوسكو ابناً لها ، وكان دون بوسكو والمطران غالستدي في سنّ واحدة .

لما أراد دون بوسكو الحصول من مطران على رسالة توصية ، لكي توافق رومة على رهبانية ، كتب له المطران غالستادي رسالة رائعة :

" إني أشهد أن فرانسوني ، وهو في منفاه الأليم في ليون ، قال إنه يعدّ هذه الرهبانية بركة خاصة من السماء ، لأن كثيراً من الشبّان استطاعوا أن يستعدّوا فيها للكهنوت ، إذ كانت معاهد الكهنوت للبرشّيّات مغلقة " (١١ تموز يوليو ١٨٦٧) .

وكتب ايضاً بعد عشرة أشهر :

" إن الله الرحيم يُسبغ بركاته بغزارة : رسالة خاصة في سبيل ظاهرة هنا . . .

فقد رأى صاحب التوقيع ما يُشبه المعجزة إذ قامت في حضان الرهبانية كنيسة جبارة (كنيسة السيدة مريم معونة المسيحيين) هي آية عجيبة لمن يفحص أمرها ، فقد أنفق أكثر من نصف مليون ليرة تولى جمعها كهنة فقراء لا شيء عندهم ، فكانت أشبه بمعجزة تثبت أن الله يبارك هذه الرهبانية " .

وكتب في مؤلّفة ذكريات تاريخية في كلامه على حيّ فالدوگو :

" إن هذه الأرض قد نالت على وجه جليّ بركة الله بمختلف مؤسسات المحبة والتقوى التي أنشئت فيها . يكفي القول إن المرء يُعجب فيها بالبيت الصغير للعناية الإلهية (كوتولنغو) ومصلّى مار فرنسيس دي سال " .

كلّمة دون بوسكو دائماً كلامه لصديق هو أخ له ، وأرسل إليه مُخطّط كنيسة السيدة مريم معونة المسيحيين ليفحصه وتقبّل بضعة تبديلات أشار بها .

كان رئيس أساقفة عظيماً

كان المطران غالستادي أسقفاً عظيماً في تورينو .

وصفه المطران دون (Duc) أسقف أوستا هذا الوصف : " وُلد ليكون مطراناً . كان له طبع شديد التأثير في الناس وحزم في خطبه وعزائمه ، وسعة في معارفه ، وسهولة في الكلام وتقوى حارّة ، وتعلق بتعليم البابا وحبّ للنفوس والكنيسة المقدسة الى حدّ العشق ، فكان ينبئ ذلك كلّهُ بأنه سيكون قائداً للشعب " .

وإذا أردنا أن نُثَمِّ هذا الوصف ، وجب أن نضيف إليه كلام المطران ري (Re) أسقف ألبا

(Alba) الذي شهد بعد ما أدّى اليمين : " كان لرئيس الأساقفة كثير من الخصال الحميدة ، ولكنه كان يببالغ بعض المبالغة في تقديره لسلطته ومعرفته ، فضلا عن أنه كان من طبعه التسرع في ما يعزم عليه ، فلا يُحبّ الرجوع عنه ، خوفاً من أن تقلّ هيبة سلطته " .

زال عهد الحماسة المضطربة " للنهضة " وأدار المجمع الفاتيكانى الدُفة نحو المركزية في الكنيسة ، فكانت كلُّ أبرشية تُعيد تنظيم شؤونها على وجه محدّد حول مطرانها ، وكان المطران مُتصلاً بالبابا توتاً .

كان المطران غالستالدي مُصلحاً كبيراً لأبرشية تورينو فأعاد الحياة والنظام إلى معهد الكهنوت ، وجمع في يديه كلَّ ما في المدينة من قوى كنسية ، وأفهم المؤمنين في رسائله الرعائية ما في الكنيسة من مسائل حسية ، ودعاهم إلى إيمان أكثر متانة في حياتهم .

وهذان نموذجان : كتب في رسالته الرعائية للعام ١٨٧٣ : " نُوقِي في السنة الماضية أربعون

كاهناً من الأبرشية ولم نرسم سوى ١٤ كاهناً . ما قولكم يا أخوتي وأبنائي الاعزاء ؟ ما الذي يبقى من رجال الكنيسة بعد بضع سنوات اذا لم تمدّوا إلينا يد المساعدة ، و إذا تزوّدونا بالوسائل اللازمة لرعاية هذه الأبرشية التي تُعدّ نصف مليون نفس ، والتي تحتاج إلى كثير من الكهنة الجديرين بهذا الاسم على وجه أكيد ؟ " .

وكتب في رسالته للعام ١٨٧٧ على تربية الفتيات : " أن التربية التي تقتصر على تنمية العاطفة الدينية عند الفتيات ، وتُحبّب إليهن كل ما هو عاطفي في الأعمال الايمانية فتكتفي بوضع صور العذراء مريم في أماكن حسنة من المعابد ، وبالقناديل وزينات المذابح ، وبروعة الطقوس والأنغام ، وبرائحة البخور والعطّات لبعث مشاعر القلب ، من غير أن تصل أبداً الى عمل البذل والتضحية والتواضع والعفو حباً ليسوع ، إن هذه التربية لا يحقّ لها أبداً أن تُسمّي نفسها مسيحية ، إلا بمعنى ناقص جدّاً ، ولن تجعل الفتيات مسيحيات حقاً يقتدين بالمسيح حقاً " .

كان يكرّم السيدة تكريماً صادقاً ، فأراد قبل موته أن يذهب إلى كنيسة سيدة التعزية وقال : " لنذهب إلى أمنا العزيزة ، لنذهب فنجعل أنفسنا في حمايتها . يشعر الانسان بالعزاء في حياته وفي موته عندما يجعل نفسه في حمايتها " .

لما بلغ خبر وفاته في ٢٥ اذار (مارس) ١٨٨٣ الى الفاتيكان شعر الكردينال نينا (Nina)

الحامي الرسمي للرهبانية ، بحزن شديد ، وكتب بعدئذ : " فُكرت ان أعمال نشاطه الرعائي الأخيرة التي أساء فيها إلى أبنائي السالسيين لن تكون عقبة دون إعلان قداسته " . لا يفكر أحد في إعلان قداسته رجل قليل الشأن .

الخطأ الأساسي الذي ارتكبه دون بوسكو

فلماذا هبّت إذاً تلك العاصفة الشديدة بين دون بوسكو وغاستالدي ؟ ولماذا صارت المشادة حادة جداً حتى إنه وجب في الفاتيكان إقامة دعوى ، وتدخل البابا فيها ؟

ارتكب دون بوسكو خطأ أساسياً ، ودفع ثمنه غالياً ، فقد أرسل في ١٤ أيار (مايو) ١٨٧٣ كتاباً طويلاً جداً من بورغو سان مارتينو (San Martino) إلى رئيس الأساقفة ، وضرب على جميع الأوتار لكي يُقنعه بالعودة إلى أن يكون صديقه العزيز كما كان في الماضي ، ولكنه كتب في آخر الكتاب هذه الأسطر المشؤومة : " أودّ إعلامك أن هناك فقرات محفوظة في مكتب الحكومة دونها بعض الناس وتتداولها الأيدي في تورينو . ويظهر من هذه الفقرات أن الأب غاستالدي إنما صار مطران سالوزو بناء على اقتراح دون بوسكو ، وإذا صار ذلك المطران رئيس أساقفة تورينو فقد جرى هذا الأمر أيضاً بناء على اقتراح دون بوسكو " .

كان خطأ دون بوسكو الأساسي إعتقاده بأن هذا الكلام ، ومثل هذا التصرف بيعثان عرفان الجميل ، في حين أنه لم يكن للمطران غاستالدي سوى أن يستاء لهما استياء شديداً .
فقد كانت مشاعره قد بلغت درجة عالية من الحيرة والمرارة ، فبيل أن تُكتب الرسالة المذكورة . ولكن دون بوسكو أخطأ هو أيضاً لما كتب العبارات المذكورة أعلاه ، فما كان لغيب المطران غاستالدي إلا أن يتفاهم .

كان على دون بوسكو أن يدرك ذلك منذ الأيام الأولى التي فيها ارتكب أخطاء غيرها مماثلة لها ، وإن كانت أقل شأنا . فما إن سُمّي مطراناً على تورينو حتى بادره بون بوسكو ، من غير أن يستشير الأسقف الجديد ، واقترح عليه اسم اللاهوتي برتانيا ليكون نائباً له . ولما دخل رئيس الأساقفة المدنية كان دون بوسكو إلى جانبه ، كان قد أكد له أنه حصل من السلطات العودة للكنيسة في مدينة تورينو على استقبال بأبهة عظيمة لدى دخوله ، غير أن ذلك لم يحدث . إن أمثال هذا التصرف تبقى عند امرئ ليس مرهف الاحساس ، تصرف صديق ، ولكن أمراً مرهف الاحساس إلى درجة تفوق ما عند أغلب الناس (كما شهد بذلك المطران ري Re) ، يرى في هذا التصرف أعمال من يجعل نفسه " حامياً " مستعلياً . فما إن وصل المطران غاستالدي إلى الكاتدرائية ، واعلى المنبر حتى أكد بقوة " أن انتخابه كان عملاً غير منتظر من العناية الالهية لم تساهم فيه أي محاباة بشرية كانت ، فإن الروح القدس وحده دون سواه ولاه رئاسة أبرشية تورينو " .

كرر هذه الكلمات عدة مرات في الخطاب نفسه وشدد عليها على وجه غير مألوف ، فكان في ذلك علامة ظاهرة على أنه يبغى أن ينزل عن كتفيه " كل حماية " وكان في ذلك أيضاً علامة عدم

قبوله للإشاعة التي ورد فيها أن دون بوسكو حصل على تسميته وكانت الإشاعة تسري في المدينة .
كان الأب سوارازيو (Sorasio) حاضراً فتمتم :
- هذا ينذر بالسوء لدون بوسكو . . . هذا ينذر بالسوء ! . . . (ذكريات السيرة ، ج ١٠ ، ص ٢٣٠) .

كتب الأب أماديي (Amadei) أن ذلك " أول وميض برق للزوبعة غير المنتظرة " . ولكن رسالة ١٤ أيار (مايو) ١٨٧٣ أثارت عاصفة هوجاء ، فلم يهضم المطران غاستالدي تلك الأسطر الاربعة قَطُ . فإن عسر على المرء أن يسمع صديقاً له يقول : " أنا حصلت لك على وسام فارس " ، فكم بالأولى عسر قبول تلك الكلمات على رئيس الأساقفة غاستالدي " الذي كان يبالغ في تقديره لسلطته " . حتى بعد أربع سنوات قال مستاءً للاهوتي تريسو (Tresso) وهو تلميذ قديم لدون بوسكو ، حاول أن يوقع الصلح :
- إنه يتبيح بأنه كان السبب لتسميتي مطراناً ، لا بل كتب إليّ رسالة يمنّ فيها عليّ بذلك ، ولكنني بعثت بها إلى رومة لكي يروا ما هو القديس العظيم الذي يولونه ثقتهم العظيمة .

الجرائد والخلاف بينهما

أحسّت الجرائد العدوّة للكنيسة أنه بوسعها إثارة نقمة المطران غاستالدي على دون بوسكو ، ولم تدع فرصة سانحة واحدة دون أن تفعل ، فكتبت الفانفولا (il Fanfulla) في ١٦ تشرين الأول (أكتوبر) ١٨٧١ : " لما أرادوا تسمية المطارنة للابريشيات الايطالية ، عمدوا إلى اقتراحات دون بوسكو المقيم في تورينو ، بعد ما استدعوه خصوصاً إلى رومة " . ودعت جريدة في ميلانو دون بوسكو " بابا بيمونته الصغير " (وعلى رئيس الأساقفة كما يعرف الناس أن يكون بلامرة البابا) . وكتبت لاغازيتا دي تورينو (La Gazzetta di Torino) في ٨ كانون الثاني (يناير) ١٨٧٨ : " ان دون بوسكو المشهور هو الآن في رومة ، وهو ينعم بدخوله إلى المقامات العالية في الفاتيكان حيث ينظر إليه البابا بعين الرضا ، والأبواب مفتوحة له حتى لدى الحكومة " . وبلغ الأمر بجريدة لالانتيرنا ديل فيگانا و (La Lanterna del Ficcanaso) (في عددها المؤرخ في ٦ - ٧ أيار (مايو) إلى القول إن رئيس الأساقفة حظر على دون بوسكو إقامة القدّاس "لما له من العلاقات في رومة " ، ولتحرره من سلطة المطران ، ولإسلبه المشرفين على الموت ميراثهم . وختمت قولها : "سنرى من سيكون أقوى أدون بوسكو أم المطران غاستالدي" .
ان هذه التلميحات من الصحافة ومن سائر الذين لا يمكننا ان نحصي عددهم صبّت كثيراً من الخل على القروح .

إذا اقتصر الأمر على تفسير الخلاف بين بوسكو وغاستالدي بهذه العبارات فحسب ، كان

ذلك تمويهاً . فقد كان فيه نصيب لشعبية دون بوسكو العظيمة ، ولشدة إحساس غاستالدي " كان يأبى أن يعمل في تورينو عمل نائب دون بوسكو " وذلك ما قاله المطران للاهوتي بيلازيو (Belasio) في ١٨٧٦ . وكان نصيب أعظم كثيراً لأمر غيرهما سنحاول بأكثر ما يمكن من الايجاز أن نحلّ خيوطها ، وقد اختلطت بعضها ببعض وزادت تعقيداً طوال ١٣ سنة .

عهد السلطنة والسلطة المطلقة

قام رئيس الأساقفة بأشياء كثيرة لا عادة تنظيم شؤون الأبرشية ، ولكن الثمن الذي كلفه الناس ، لأجل تحقيقها كان غالباً ، من عقوبات كنيسة ، وتصلب ، وأوامر قابلة للجدل وطرق بغیضة .

وكلما مرّت السنون ازداد طبعه الشديد قساوة . كان الأب سورازيو ، أمين سرّ إدارة الأبرشية ، بوافق ولا ريب في ذلك الوقت ، على بعض التدخلات الشديدة الوطأة التي قام بها المطران ، ولكنه كتب في ١٩١٧ إلى الكردينال رئيس مجمع الطقوس : " غفر لي الله . كان ذلك العهد عهد السلطنة المطلقة ، أقول ذلك لنأ أقول أكثر منه " .

كان يحرم بشيء من السهولة على كهنته إقامة القداس ، والاستماع إلى الاعترافات ، وهما عقوبتان شديتان جداً في البيئة الكنسية ، فرجع كثير منهم الدعوى إلى رومة . كان في شباط (فبراير) ١٨٧٨ لدى الكرسي الرسولي زهاء ٣٠ مسألة بين المطران غاستالدي وكهنة أبرشية تورينو .

فمنذ الأوقات الأولى ، إذا لم يكن الحبل قد شدّ بينهما شدّاً مفرطاً ، شفع دون بوسكو بكاهن من كييري ، فيه شيء من العناد ، ولكنه رجل صالح طيّب السريرة . ومع ذلك حظر عليه رئيس الأساقفة إقامة القداس والاستماع إلى الاعترافات فكان ذلك الحرم فضيحة واضطرّ الكاهن المسكين إلى مغادرة المدينة لما ناله من الخجل .

والراجح أن الحادث الأشدّ ضجة كان ما جرى للاهوتي برتانيا (Bertagna) الذي أوحى دون بوسكو إلى المطران بتسميته نائباً . علم اللاهوت الأدبي في المركز الكهنوتي منذ اثنتي وعشرين سنة ، فكفّت يده عن أعماله بغنة في ١ أيلول (سبتمبر) ١٨٧٦ فتحمل الضربة صامتاً ، ولجأ الى بلده كاستلنوفو ، في حين أنّ المركز أغلق بأمر من السلطة . كانت وطأة ذلك الازدلال شديدة على الأب برتانيا فأصابه مرض جسيم . ودعاه بعد مدة في السنة ١٨٧٦ مطران آستي السيد سافيو (Savio) إليه ، وسمّاه نائبه العامّ ، وكان يُعدّ بحق واحداً من أحسن علماء الأخلاق في

عصره ، وفي ١٨٨٤ رسمه الكردينال اليموندا (Alimonda) ، خلف غاستالدي ، مطرانا معاوناً

لأبرشيته وأقامه لمعهد الكهنوت فيها .

وكتب في ذلك الوقت الأب لويجي تيستا (Luigi Testa) وكان راهباً يسوعياً مسموع الكلمة كثيراً في رومة : " لقد أصلحت كثيراً من الخلافات بين المطران غاستالدي ومختلف الأشخاص ذوي الشأن . . في رومة تعب أولو الأمر من حكايات الأبرشية هذه ، وطفح الكيل فوق الرؤوس " .

قد يكون أمراً سطحياً أن نحكم بأن المطران غاستالدي امرؤ شرس ، فقد كان من طبيعته متواضعاً ، سخيّاً لطيفاً . كان له " قلب من ذهب " كما يقال ولكن عندما تُعرض له مسائل يعالجها ، فما إن يشعر بأنه يتولى سلطته الاسقفية حتى يحدث له ما حدث لكثير من الناس في التاريخ الكنيسة (وهو أمر اعتقد أنه يمكن قوله) : كان يصبح متسلطاً متصلباً . إن هؤلاء الأشخاص يتصرفون تصرفاً " لا رحمة باسم الله " . يستشعر المرء فيهم ممثّل القدير على كلّ شيء ، أكثر مما يستشعر ممثّل النجار ابن الله الذي جعل نفسه خادم العباد ، والذي غسل أقدام سائر العباد وارتضى أن يُصلب .

الموضوع الأول ، قلة الانضباط

استعمل تصلبه ، وقد زاده شدّة خوفه من أن يبدو " صنيعة دون بوسكو " لأنظار أهل أبرشيته ، فأساء للرهبانية السالسية الفتية ، وهي كالعشب في أول ما ينبت .
كان أول موضوع حمل عليه " قلة الانضباط " في المصلّى . كتب بييترو ستيلّا (Pietro Stella) : " كان يسوءه ما في المصلّى والرهبانية السالسيّة من حماسة بركانية . إنّ دون بوسكو يمسك بزمام الأمور بيد حازمة ، ولكن ربّما بدا كلّ من المصلّى والرهبانيّة صاحبة لا نظام فيها ، من القوى غير المتماسكة ، وقد تُضطرّ السلطات الشرعية إلى التداخل في مستقبل قريب على نحو مؤلم " .

وكان قوم آخرون في تورينو قد استأوا من جوّ الالفة الصافية الذي يشيعه فرح دون بوسكو . كتب المطران غايتانو طورطوني (Gaetano Tortone) القائم بالأعمال من قبيل الكرسي الرسولي لدى حكومة تورينو في السنة ١٨٤٨ في تقرير طويل : " شعرتُ شعوراً أليماً جداً لما رأيتُ في ساعات اللعب هؤلاء الشمامسة المختلطين بسائر الشبان يتعلمون صناعة الخياط أو النجار أو الحداء الخ . . . يركضون ويلعبون ويقفزون بقليل من الوقار . . يسرُّ دون بوسكو الطيب السريرة أن يكون طالبو الكهنوت خاشعين في الكنيسة فلا يُعنى بان يلقنهم مشاعر الوقار الموافقة

للحالة التي يريدون اعتناقها " .

في رأي المطران طورطوني أنه كان يجب على دون بوسكو أن يعلم الشماسة أن " يجعلوا فاصلاً" بينهم وبين السوقة كالخياطين والحذائين ، وذلك أبعد ما يكون من شعور دون بوسكو .

سبب آخر للتوتر

يبدو أنّ المطران غالستالدي أراد أن يداوي بنفسه " قلة الانضباط " هذه . تُورد الحادئين غير الخاليين من الغرابة اللذين لم نفلح في تفسيرهما على وجه تام ولربّما أخفياً سبباً آخر للتوتر . ما إن وصل رئيس الأساقفة الجديد حتى مرض دون بوسكو مرضاً شديداً في فاراتسي (Varazze) كما شرحنا آنفاً ، فعلم المطران غالستالدي بذلك وعرف فداحة المرض فسأل الأب كالبيرو :

- كم عدّد الراسخين الحازمين منكم في دعوتكم ؟
- أكثر من خمسين .
- وإذا اتفق لأبيكم دون بوسكو أن يموت ؟
- نبحث عن عمّ يخلفه .
- أجل ، أجل ، ولكن لنتمنّى من الله أن يحفظه .

علّق الأب أماديي (Amadei) على ذلك بقوله : " بدا للأب كالبيرو أنّ المطران فكّر أنّ السالسيين ، اذا مات دون بوسكو في ذلك الحين ، يلتمسون منه أن يديرهم " . وكان شعور الأب مارينغو (Marengo) أيضاً مثل ذلك ، فقال ، بعد ما روى له الأب كالبيرو مواجهته للمطران : " إيّه لشرُّ أقلّ أنك لم تقل أكثر من ذلك ، ولو اقترحت اقتراحاً لكنك اسأت إلى الرهبانية " . لما عاد دون بوسكو من فاراتسي معافى ، ذهب رئيس الأساقفة ليسلم عليه . روى الأب أنفوسّي ، وكان حاضراً في فالدوگو بينما الصبيان يحاولون ارتجال كلمة ترحيب ، " رأيت رئيس الأساقفة ينزل الدرجات بخطى سريعة جداً حتى لم يكن بوسع دون بوسكو أن يتبعه ، ولم يحفل بتحيات الصبيان ، فقلت لدون بوسكو : انتهى العيد نهاية سيئة . هل حدث أمر ؟ فأجاب : ماذا تريد ؟ إن رئيس الأساقفة يودّ أن يرئس الرهبانية وذلك غير ممكن ، على كل حال سنرى . . . " (ذكريات السيرة ، ج ٢١٠ ، ص ٣١١) .

أي اقتراح عملي كان المطران غالستالدي يقترح ؟ أن يعود دون بوسكو إلى الورا ، ويكتفي بأن يجعل السالسيين رهبانية تابعة للأبرشية ؟ ذلك هو الرأي الأرجح ، ولكن أثيرى من باب المجازفة الاعتقاد بأنّه كان يعلل النفس بخطّة تجعله الرئيس الفعلي للرهبانية السالسيّة ؟ في السنة

ولكنه يبدو أنه ليس له هذه الملكة لتربية رجال الكنيسة " . وكان غاستالدي يعتقد أنه حاصل على هذه الملكة فبوسعه أن يقبض بحزم على زمام الرهبانية " ويضع كل شيء في مكانه " فيبقى دون بوسكو ، وقد أصبح منهوك القوى ، " الأب " الحنون للمصلى .

ولما تلاشت هذه الامكانية أخذ المطران يفرض على السالسيين نظاماً شديداً كالحديد ، تحوّل بوضوح إلى اضطهاد ، فكان كل نقيصة أو تأخير يوصّف بأنه " عصيان " أو " تمرد " أو " قلة انضباط " ، وتفصيل ذلك قلة ذوق ، فإن الهراء يظلُّ هراء .

الموافقة النهائية على القوانين

في ٣٠ كانون الأول (ديسمبر) ١٨٧٣ ذهب دون بوسكو إلى رومة ، وكانوا لدى الكرسيّ الرسوليّ بعد المرجعات المضنية وإعادة النظر يناقشون المسألة الحيويّة للرهبانية السالسيّة ، وهي الموافقة النهائية على القوانين .

سمّى البابا لجنة مؤلّفه من أربعة كرادلة ، فطالت المجادلات والتصويبات المتوالية للنصّ حتى شهر نيسان (ابريل) ، فتدخّل المطران طالباً ألا يُوافق على القوانين ، فكتب إلى الكردينال بيزّاريّ (Bizzarri) رأيه الذي أوردناه آنفاً وهو أن دون بوسكو يصلح لتربية الأحداث ولكنه لا يصلح لتربية الشمامسة والكهنة .

في أول نيسان اقترعت لجنة الكرادلة اقترحها الأخير فوافق ثلاثة منهم وخالف صوت واحد ، فبلغ بيوس التاسع أنه ينقص صوت لحسم الجدل ، فأعلن : " أن ذلك الصوت سيكون صوتي " .

كان ذلك في ٣ نيسان وبعد عشرة أيام نُشرت الموافقة النهائية على القوانين السالسيّة . كانت الرهبانية بإمرة البابا على وجه حاسم ، فانه يمنح دون بوسكو لعشر سنوات الحقّ بان يقَدّم أيّ سالسيّ كان للرسامات الكنسيّة .

ولكن الأمور في تورينو لم تتبدّل .

جدول " الاجراءات التأديبية "

في ١٦ كانون الأول (ديسمبر) اضطرّ دون بوسكو إلى أن يعرض في كتاب إلى الكردينال فرّيري (Ferrieri) لأهمّ " أسباب الاختلاف " ، وهذا جدولها :

- في أيلول (سبتمبر) ١٨٧٥ حُرّم دون بوسكو سلطة الاستماع إلى الاعتراف (علق

النائب الاسقفيّ زبّاتا Zappata على ذلك في سورة غضب : إيّما هذه امور تُنزل بالسكيرين !)

فاضطّرّ دون بوسكو إلى ترك تورينو ، لأنه كان من عادة الأحداث أن يعترفوا عنده . ولم يُبين رئيس الأساقفة قط أسباب ذلك الإجراء ،

- يُحظرّ وعظ الرياضات الروحية في بيوت السالسيين على معلمين من خارجها ،
- إلغاء الإذن بالوعظ الممنوح بعض الكهنة السالسيين ،
- رفض رئيس الأساقفة منح سرّ التثبيت صبيان المصلّي وحظر أن يمنحهم إياه أساقفة آخرون .

علّق دون بوسكو في رسالته بقوله : " إن هذه الاجراءات تُتخذ لأسباب خطيرة ، ولا علم لنا بها ، الأمر الذي يدعو إلى الاستياء في المدينة " .

وفي ٢٥ اذار (مارس) ١٨٧٨ أُطلع دون بوسكو الكردينال اوريليا (Oreglia) على جدول جديد من الاجراءات التأديبية :

- أُنذر دون بوسكو بأنه سيُحرّم لوقته سلطة الاستماع إلى الاعترافات ، إذا كتب أي شيء لا يوافق رئيس الأساقفة في رسائل غير الرسائل إلى البابا والكردينال أمين سرّ الدولة والكردينال المسؤول عن الرهبان ،
- عوقب أناس من الكهنة السالسيين بالربط الكنسي ، ولا يزالون على هذه الحال منذ ثمانية أشهر ،
- تُرْفَض الرسامة للشمامسة السالسيين الذين يُقدّمون له ، الأمر الذي يسبّب أذى كبيراً لِدُور السالسيين ورسالاتهم .

ولكن المطران كان يرسل هو أيضاً إلى رومة جداوله . كتب الأب تشيريا : " ان الشكاوى المتواصلة من غير انقطاع لأيّ سبب يرى فيه المطران مأخذاً على دون بوسكو ورهبانيته ، أدت آخر الأمر إلى بثّ سوء السمعة عند الكرادلة الذين لم يكونوا مطلعين إطلاعاً صحيحاً على الاحداث". فإن الكردينال فرييري ، على سبيل المثال ، قاوم السالسيين ، لأنه اقتنع أنهم " كومة مصطنعة من الناس لن يُكتب لها أن تدوم " .

ولكن ما ألم دون بوسكو أكثر من أي شيء سواه هو أن بيوس التاسع نفسه الذي كان دائماً أبدأ صديقه وحاميه ، أخذ يُظهر الفتور في شأنه . كتب الأب تشيريا : " إن نعت دون بوسكو على نحو متواصل بأنه امرؤ عنيد متمردّ أثر أيضاً في شعور البابا " .

مات بيوس التاسع في ٧ شباط (فبراير) ١٨٧٨ وكان دون بوسكو حينذاك في رومة يقرع جميع الأبواب ليحصل على مواجهة فلم يمكنه أن يراه مرّة أخرى .

كان البابا الجديد الذي انتخب في ٢٠ شباط ، لاون الثالث عشر ، فاستقبل دون بوسكو أول مرة في ١٥ آذار (مارس) فكتب دون بوسكو وصفاً لتلك المواجهة بلهجة الظفر : رضي البابا أن يُكتب بين معاونين ، واعترف أنّ " أصبح الله " في المشروعات السالسيّة ، وأرسل بركاته الحارّة إلى المرسلين ، وذكر الوصف مسألة واحدة بسرعة :أمّا مسألة "خلافاتنا مع رئيس أساقفة تورينو ، فقد قال إنّه ينتظر تقريراً رسمياً من مجمع الرهبان " .

وأما في حديثه الخاصّ إلى بضعة سالسيّين ، فقد كان كلام دون بوسكو أقلّ فخراً : " فقد أفهم البابا بوضوح كم عانى لأنه مُنع مراراً أن يواجه البابا ، وحُجزت رسائله ، وتعرّض كثيراً للمقاومة في السرّ والعلانية من عدّة جهات ، وتلقى عبارات قاسية مُذمّة " .

من الواضح أنّ البابا كان مُطلّعا على المنازعات الشديدة المتراكمة فوق رأس هذا الكاهن من تورينو ، والتي تنذر بالسوء ، وإذا عامله بلطف في لقاءاته الرسمية ، فقد اهتم بأن يرى الأمور رؤية جليّة ، إذ كان في حاشيته أعداء لدون بوسكو كُثُرٌ أشدّاء المراس .

كان من أكثر أصدقاء دون بوسكو وفاءً له في ذلك الوقت ، الكردينال اليموندا (Alimonda) وكان يبحث عن وسيلة يثبت فيها للاون الثالث عشر قداسة دون بوسكو ، وتكون برهاناً ذا شأن يُظهر كلّ ما لهذا الكاهن المسكين من قيمة .

وكانوا في ذلك الزمان يحاولون أن يبنوا في رومة كنيسة لقلب يسوع الأقدس . وكان البابا قد ساهم مساهمة كبيرة بشخصه فدعا مطارنة العالم كلّهُ إلى تأييد المشروع ، فجُمعت الهبات في أمم كثيرة ، ومع ذلك توقفت الاعمال قبل أن يرتفع البنيان عن وجه الأرض فخارت عزيمة البابا ، وعليه تدخل الكردينال أليموندا وقال :

- أيها الأب الأقدس أقترح عليك وسيلة مضمونة لنجاح المشروع .
- وما هي ؟
- أن يُعهد به إلى دون بوسكو .
- أو يقبل دون بوسكو ؟
- أيها الأب الأقدس ، إنني أعرف دون بوسكو وتكريمه التام المطلق للبابا ، فإذا عرضته قداستك عليه ، فإني على يقين تام من أنه سيقبله .

كان دون بوسكو حينذاك يخلتق لكثرة ما عليه من أعباء . كان بيني كنيسةتين : كنيسة لمار بوحنا البشير في تورينو وكنيسة السيدة مريم معونة المسيحيين في فاللي كروزيا (Vallecrosia) وقد شرع في بناء ثلاث دُور : في مرسليليا وفي نيس (Nice) وفي لاسبيسيا (La Spezia) وكان في سنّ الخامسة والستين .

في ٥ نيسان (أبريل) ١٨٨٠ دعاه لاون الثالث عشر وعرض عليه الأمر ثمّ أضاف أنه إذا

قبل أتى عملاً مقدّساً ، يسرُّ البابا سروراً عظيماً فأجاب دون بوسكو :

- إن رغبة البابا هي عندي أمر . أقبل ما عهدت به اليّ قداستك في لطفها .
- ولكن لن أستطيع أن أعطيك مالاً .
- إني لا أطلب شيئاً . أطلب بركتك فحسب ، وإذا أذن لي البابا فسوف نبني بالقرب من الكنيسة مصلى وداراً كبيرة يمكن أن يوجّه فيها كثير من الأحداث المساكين إلى الدروس والفنون والصناعات ، ولا سيّما من كان منهم في هذا الحيّ المهمّل .
- حسن جداً . إني أباركك وأبارك جميع من يساهمون في هذا المشروع المقدس .

دعوى في الفاتيكان

وازدادت العلاقات برئيس الأساقفة سوءاً في تلك الأشهر ، فاضطرّ دون بوسكو للدفاع عن رهبانيته ، إلى رفع المسألة إلى الفاتيكان طالباً أن يفتح فيه دعوى قانونية .

قالت لورينزينا مازي دي لاروش ('Larenzina maze de La Roche') بنت أخت رئيس الأساقفة حين جرى البحث في مسألة إعلان دون بوسكو طوباوياً ، بعد ما أدت اليمين :

" قامت منذ السنة ١٨٧٣ منازعات بين دون بوسكو والمطران غالستالدي خالي المكرم . علمت هذه الخلافات من الإشاعات بين الناس وبما أسرّه دون بوسكو إليّ وإلى والدتي ، وهو يحثنا على أن نجد وسيلة تُطلع بها سيّدنا رئيس الأساقفة إطلاعاً مباشراً على الحكيات الملقّقة التي تروج على الخصوص بين رجال الكنيسة ، وتروج أيضاً في الصحافة ، فنسبيء إلى الفريقين . إنّ تلك الخصومات كانت شوكة دائمة في قلب أمي وفي قلبي .

كان يظهر في كل ما يقول دون بوسكو لأمي ولي بنفسي في هذا الموضوع ، كم كان يُعاني بسبب هذه المحن ، ولكنه كان يتكلم دائماً على رئيس الأساقفة بكثير من الوقار والمحبة حتى إنه كان قدوة حسنة .

وجدتُ في دفتر ذكرياتي لتلك السنوات كلماتي التي قلنتها أنا بنفسي : لماذا تبدّل خالنا المطران هذا التبدل ؟ أه إنّ الذي قام بإيقاظ هذا الخلاف سيشعر ولا ريب بندم شديد .

يبدو لي أنّ واحداً من أهم المسؤولين عن هذه المنازعات كان أمين سرّ خالي رئيس الأساقفة أي اللاهوتي توما كيوزو (Chiuso) الذي مات منذ عدة سنوات . فيه افكر وأنا أكتب هذه العبارات المذكورة آنفاً . فقد دعيتُ كثيراً إلى مائدة خالي رئيس الأساقفة فسمعتُ كلام الهزء والسخرية على

أهل فالدوگو والأخرى على أهل " هناك " .

دَوَّنتُ في دفتر ذكرياتي هذه الكلمات لدون بوسكو : " مهما أراد المرء أن يكون حازماً ملازماً الشجاعة ، فإن قلبه المسكين يتأثر ويتفطر لما يتراكم فيه من الاشمئزاز على الاشمئزاز " . لم أرَ قط طوال حياتي منظر دون بوسكو يتغير ، بيد أنّ وجهه في ذلك اليوم كان يصفّر تارة ويحمّر تارة في اثناء

حديثه .

ويجب عليّ أن أشهد من جهة أخرى أن خالي الموقر كان يبدو ، وهو يحدثني ، مغتمًا لا في كلامه بل بما يظهر عليه من الحزن ، لأنّ علاقته بدون بوسكو لم تكن في ذلك الوقت كما كانت في أوّل المصلّى " .

فُحصت الدعوى بين دون بوسكو ورئيس الأساقفة في ١٧ كانون الأول (ديسمبر) فاشترك فيها ثمانية كرادلة فأوقف البابا المناقشة ، بعد ما اطلع على محضر الجلسة ، وقال للكردينال نينا (Nina) المحامي الرسميّ للسالسيين : " يجب إنقاذ السلطة . إن لدون بوسكو من الفضيلة ما يجعله يتكيف وكلّ شيء " . تلك وسيلة أخرى أراد البابا أن يستعملها ليقدّر قداسة دون بوسكو .

كأس مرّة لدون بوسكو

حدّد البابا نفسه الشروط " للوفاق " فانتهى كلمات لا يجدها المرء إلا في الوثائق الدبلوماسية المحكّكة ، ومع ذلك كانت الخلاصة واضحة جدًّا لا تدع المكان لأيّ مَهْرَب كان : يجب على دون بوسكو أن يكتب رسالة يلتمس فيها عفوَ رئيس الأساقفة ، ويجب على رئيس الاساقفة أن يُجيب أنه سعيد بدفن الماضي .

وجَدَ دون بوسكو الكأس مرّة ، فجمع الهيئة الاداريّة للرهبانيّة وتلا عليها نصّ " الوفاق " فاغتموا جميعاً ، فعرض واحد منهم أن تُطلب مهلة للتفكير فحَسَم الأب كالبيرو المشكلة بصراحته : " تكلم البابا فوجبت الطاعة . إن البابا قرر ذلك لأنه يعرف دون بوسكو ويعلم أنه يمكنه الوثوق به فلا حاجة إلى انتظار أي شيء كان : الطاعة ولا شيء آخر " .

كتب دون بوسكو الرسالة ، فأتاه الجواب : " إني أمنح العفو من كل قلبي " .

كتب بعدئذ من غير ابطاء الى الكردينال نينا (Nina) رسالة تمكّن المرء من أن يقدر طعم العلقم الذي اضطرّ إلى ابتلاعه والنتائج المرّة التي أخذت تحدث :

" إن رجال ديوان المطران يُهتّون بعضهم بعضاً بأسباب الإذلال التي أنزلها بدون بوسكو .

إن هذه الثرثرة تُشاع مشوّهة ، ويُساء تفسيرها فتسحق السالسيين المساكين . فقد طلب مُعلمان رئيسان لبيّتين الخروج من رهبانية يبدو لهما أنها صارت موضوع سخريّة السلطات ، وهناك آخرون

من كهنتنا وشمامستنا يطلبون ذلك الطلب أيضاً ، ومع ذلك أريد أن ألزم الصمت التام ، كما كتبتُ إلى نيافتكم " .

حكيم أصابه الفناء

قام منذ ذلك الحين البابا لاون الثالث عشر ، وهو بابا عظيم جداً في تاريخ الكنيسة ، بأعمال لطف سامٍ في سبيل دون بوسكو ، فهو الذي أقام الأب يوحنا كالبيرو أوّل مطران سالسيّ ، ومنح الامتيازات التي جعلت الرهبانية معافاة لا عشر سنوات فحسب بل إعفاء دائماً من سلطة المطارنة في المسألة الحرجة ، مسألة الرسامات .
ولكنه لما انتُخب بابا ، وجد في الفاتيكان بيئة عدوّة لدون بوسكو ، فقدّر ما عنده من القداسة ، بامتحائين .

إذا أراد المرء أن يعرف هل في حجرة ذهبٌ ، فانه يُلقبها في البوتقة في حرارة صاهرة ، فإذا خرج منها ذهب فهي معدن ذو قيمة وإلا فإنها نفاية . أمُحن دون بوسكو هكذا ، فخرج منه ذهب خالص ، ولكن طبيعته البشرية فنيت واحترقت كما كتب موران فيرث (Morand Wirth) : لم يبقَ دون بوسكو منذ ١٨٨٤ سوى ظلّ دون بوسكو .

إن التماسه عفو رئيس الأساقفة الذي جلده عشر سنوات كلفه ثمناً غالياً جداً ، ولم يولد ، كما قلنا ، ليعرض الخدّ الآخر ففرضه على نفسه فرضاً ، وبذل جهداً شديداً عليه . إن بناء كنيسة القلب الأقدس التي ابتلعت مليوناً ونصف المليون من الليرات اضطرّته في سنين ضعفت فيها قواه ، إلى متاعب تفوق قوة الانسان .

تقبل ما فُرض عليه لإيمانه بنائب المسيح ، ولحبّه لرهبانيّته التي كانت تحتاج احتياجاً مطلقاً إلى تقدير البابا .

خرج دون بوسكو من امتحانيه حكيماً ولكنه فني ، ولذلك ازدهرت رهبانيته ازدهاراً رائعاً : فقد ولدت من كاهن صُلب .

بدأ صليب كنيسة " القلب الأقدس " يعمل في دون بوسكو ، فأرسل أوّل مرّة إلى رومة الأب دلماتسو (Dalmazzo) ثم الأب أنجلو سافيو (Savio) للاطلاع على العمل و " تفتيش النفقات " . من سوء الطالع أنه رومة تقليد شائع ، وهو " أنه في أعمال البابا مأكّل لجميع الناس " . بلغ دون بوسكو الأب دلماتسو عدة طلبات ألح فيها ومعناها : " هل هناك مفتش للموادّ التي تُسَلَّم أم لا ؟ " ، " راقب الأسعار " ، " العمل قليل . يُسرق في البيت وفي خارجه . يُتلفون الأثاث ولا سيّما الطاولات " ، " إقامة خبير للمراقبة " . . .

ثم إنّه سيرّ لوقته الجهاز الذي اختبر مرات كثيرة لجمع المال ، من رسائل عامة بعدّة لغات ، ويانصيب ، واكتتابات ورسائل شخصية . إن هذا الجهاز ليس عصا سحرية : إنّه يتطلب متاعب وأسباب اذلال وتفتيشات وعبءاً ثقيلاً على كثير من إخوانه وأمّا الحمل الأثقل فقد جعله دون بوسكو على كتفيه .

" أحمل كنيسة القلب الأقدس على كتفي "

شهد الأب روا بعدما أدّى اليمين في أقواله لإعلان دون بوسكو طوباويّاً : " كان يتكدر المرء إذا رأى دون بوسكو يصعد وينزل السلالم ليطلب الصدقة ، فيعرض نفسه للاهانات الشديدة ، وقد عانى كثيراً في بعض الأحيان حتى إنّه أجاب اذا خلا بذويه وسألوه ، وقد رأوه محنياً ، كيف يستطيع امرؤ أن ينحني ذلك الانحناء : أحمل كنيسة القلب الأقدس على كتفي . وقال مرة أخرى مازحاً : يقال إن الكنيسة تُضطهدّ وأمّا أنا فيسعني القول إنّ الكنيسة هي تُضطهدني . يمكن القول أن ذلك المشوع استنزف شيئاً كثيراً من قواه فضلاً عن سوء حالته الصحية منذ عدة سنوات " .

وأشدّ التعب الذي تحمّله هو رحلته إلى فرنسا ، وقد قام بها وهو يشحذ من مدينة إلى مدينة أربعة أشهر من ١١ كانون الثاني (يناير) إلى ٣١ أيار (مايو) ١٨٨٣

نُبِّح لِنفسنا أن ننبه الأذهان في معرض كلامنا لهذا الأمر ، وهو أنّ دون بوسكو في الثامنة

والستين من عمره ، لم يبقَ من الحياة سوى خمس سنوات . إن رهبانيته قد نمت نموّاً واسعاً ، ويجتاز العالم مرحلة من أشدّ المراحل في إعادة تنسيق الأفكار والأنظمة ، فكان دون بوسكو يحتاج إلى التصرف بجميع وقته ، ليحاول جمع فكره وحدهسهما أشبه بأساس مشروعاته . كان عليه أن يستعمل ما بقي له من الوقت ليعيد الفكر في حُطط عمله في بيئة اجتماعية تتبدّل تبدّلاً سريعاً لكي

ينظم الرهبانية تنظيمًا متيناً .

فكان الأمر خلاف ذلك إذ أُضطرَّ في السنوات الأخيرة من حياته وهو حسن الصحة إلى " جميع الفلوس " لبناء كنيسة . ويا ليت الفلوس تُجمَع لسد حاجات الأحداث الفقراء . كانت تجمع لجدران كنيسة في رومة . فإن هذه الحكاية محيرة من الأعلى إلى الأسفل . ولكن هذه السنوات التي " ذهبت فريسة النار " اضطرت في الوقت نفسه دون بوسكو إلى رحلتين كبيرتين (فرنسا واسبانيا) عادتتا بالظفر على " رجل الله " . فقد أتاحت له الفرصة السانحة ليلهب " الشعور بالله " في جماهير شعبية ضخمة .

كان ماركس قد عرف الدين بأنه " أفيون الشعب " وكان الفوضوي باكونين (Bakunin) يفرض على أتباعه شهادة صريحة بالإلحاد ، وكانت حكومة باريس الثورية لعهد قريب قد أظهرت علامات واضحة للإلحاد المجاهد . كتب فرنسيس ترانييلو (Traniello) : " كان على الكنائس المسيحية أن تحسب حسابها لا لمجابهة أحداث كفر تقتصر على جوانب ضيقة من البيئات الحاكمة بل لتجابه ابتعاداً كبيراً في طبقات اجتماعية كثيفة عن العمل بشعائر الدين والطاعة للكنيسة " .

كان المجتمع كله يفقد الشعور بالله والحرمة الإلهية للحياة البشرية . في أيام الحكومة الثورية لم يكن كفر الثائرين الملحدين أسوأ من كفر أهل الطبقة البورجوازية ، الذين أخدموا الثورة بطلقات المدافع ، وأبادوا ١٤ ألف عامل ، وكان العمال في ذلك الوقت رجالاً ونساءً وأولاداً .

إن آخر ما عاناه دون بوسكو من تعب لم يكن في سبيل كنيسة أو أحداث فقراء بل في سبيل جيل بأسره كان يتهدهد الخطر بأن يفقد الشعور بالله وبأعظم قيم الحياة ، فقد استعاد هذا الجيل عن يده في فرنسا واسبانيا الشعور بالله . والميل إلى البذل في سبيل الآخرين .

التهبت باريس

نتبع رحلة دون بوسكو إلى فرنسا نقلاً عن رواية دقيقة لهنري بوسكو وقد انشأها لا بالاستناد إلى الوثائق السالسيّة فحسب بل إلى الجرائد الفرنسية في ذلك الحين أيضاً .

كان ، حين ذهب ، يكاد لا يرى شيئاً فعلاً ، وكانت رجلاه تكادان لا تحملانه وكان يُعاني من الدوالي . كان جسمه منهوك القوى على وجه تامّ . دخل فرنسا من نيس ولم تُعد إيطاليا منذ

ثمانية عشرة سنة فقط ، وصعد إلى باريس بعدما مرَّ بطولون (Toulon) ومرسيليا (Marseille) وأفينيون (Avignon) وليون (Lyon) ومولان (Moulins) وكان صعوده بطيئاً دام شهرين و ١٩ يوماً . وما من أحد توقع ، وما توقع هو أقلّ من غيره ، الانفعال العظيم والحماسة وتجمع الشعب والتهاب الايمان وكل ما سببه حضور " كاهن من الريف مسكين " .

نصح له قوم " حذرون " فقالوا : " لا تذهب إلى فرنسا ، فإنهم يبنون في باريس كنيستهم الكبرى للقلب الأقدس في مونمارتر (Montmarter) كلفت ملايين ولم تتم . من يعطيك فلساً ؟ " . وقد خطأً دون بوسكو مرةً أخرى القوم " الحذرين " . ففي أفينيون (Avignon) احتشد الجمهور في المحطة وجرى الناس وراء عربته ، واقتطعوا بالمقصات قطعاً من ثوبه فاضطراً معاونوه إلى أن يأتوه على جناح السرعة بثوب آخر .

امتلات الكنائس في ليون ، وطوقت العربّة التي قدّمها له مضيفوه ليستعملها ، وأوقفت ومُنعت من السير ، فصاح حوذيٌّ وقد أغضبه هيجان الجمهور : " إن السير بالشيطان أيسر من السير بكاهن مثل هذا " .

كان يُخشى ان يُمنى دون بوسكو في باريس باخفاق تامّ . كانت إيطاليا الرسمية قد انتقلت من تحالف وفرنسا إلى تحالف والمانيا والنمسا في معاهدة التحالف الثلاثي . وكان دون بوسكو إيطاليّاً فضلاً عن أنّ الحكومة الفرنسية كانت عدوة لرجال الكنيسة .

رحّبت باريس ، على ما فيها من شدة التحسّس ، برسول الفقراء واستقبلته بحرارة شديدة . وصل إليها في ١٩ نيسان (ابريل) ١٨٨٣ وبقي فيها خمسة أسابيع (ما عدا جولة صغيرة في مدينتي أميان Amiens وليل Lille) . استقبلته أسرةً باريسية صديقة في الرقم ٣٤ من جادة مسين (Messine) (في الحي السابع) ولكنه كان يذهب بعد الظهر من كلّ يوم إلى شارع لافيل ليفيك (la Ville- leveque) على غير بعد من كنيسة المادلين (Madeleine) ، إلى دير رهبان القلب الأقدس ، لكي يستقبل زائريه ويخفّف عن الذين أضافوه ضغط الجمهور وقد وثب إليه لوقته .

كان الناس يقولون : " إنه قدّيس " . في هذا القول خطر ، فقد حاول كثير من الناس أن يشكّوا فيه ، وكان شيء طفيف جداً كافياً لكي يتحوّل كلُّ شيء إلى السخرية . وكان يدع بصوره كل من شاء ذلك ، فيصوّر وحده أو مع جماعة من الناس ، فلاموه في ذلك على أنّه إعجاب بنفسه ، فكان جوابه : " هذه وسيلة حسنة لا لكي أعرف بل لكي يهتّم الشعب بمشروعي " . وسهّل كذلك عمل كُتّبة سيرته كالدكتور ديسبيني (d' Espiney) الذي كان أوّل من كتب سيرته بالفرنسية : كان في كتابه أخطاء جسيمة ولكن طبع منه خمسون ألف نسخة في بضعة أشهر .

صورة شمسية في باريس

هناك صورة شمسية لدون بوسكو ، وهي أشهر صورته في باريس . إن وجه دون بوسكو في هذا الرسم ، وجه شيخ منهوك القوى ، محطّم ، حفرت الأخايد جبهته ، وعاث التّعصّن في جبينه وتهذّل فمه من كل جهة ، وقد شوّهه تعب لا يطاق ، وغارت العينان وراء حاجبين كثيفين ،

لا تدعان يمرّ سوى شعاع ضئيل من النور ، لقد كاد البصر ينطفئ . إن الشخص الذي يحيا خلف هذا الوجه يعرف معنى الألم وألم سائر الناس ، وقد جعلهم ذويه ، وأنقذهم لكي يخفّ عذابهم وهم يحيون في هذا العالم ، ويروا السماء ساعة موتهم . كان يُتَوَقَّع لأول وهلة أن يوحى هذا الوجه الشفقة أكثر منه الحماسة .

وتُرى في هذه الصورة يدا دون بوسكو ، وهما يدا عامل كريم الخلق ، عامل يعالج الحياة بقوة . انبسطت هاتان اليدان لتباركا المرضى ولتداعبا الأطفال وتشفيا كما يشفي ماء لورد (Lourdes) . لما رأى الباريسيون تينكَ اليدين ، لم يشفقوا على دون بوسكو ، بل التمسوا منه أن يُشفق عليهم . رأوا فيه رسول الرجاء ورسول الله والموزّع الذي أرسلته العناية الالهية ، ليمنح الشفاء والنعم .

في تلك الأيام قرأ الناس في الفيغارو (Le Figaro) : " أمام بيت لافيل ليفيك ، حيث نزل دون بوسكو ، وقفت أرتال من العربات طوال النهار منذ اسبوع . إنّ أعظم السيدات يتوسلن إليه أن يُجري المعجزات لهنّ ولأهلنّ ، وهو يجري تلك المعجزات بسهولة كبيرة ، على ما يقال " . وكتبت مجلة البيلران (Le Pelerin) : " كانوا يروون ويخترعون المعجزات . . . وكانت سيّدات الطبقة العليا يجرين وراء آثار القديس الذي لا يُبالي بتصفيق الناس ، ولا يُعدُّ العظّات التي يفوه بها في كنيسة المادلين ، أكثر مما يُعدُّ ما يقوله لشحاذ ، ويمنح من وقته عاملاً على قدر ما يمنح أميراً " .

يوم كاهن مسكين

إنّه ينهض من النوم مبكراً جداً ، في الساعة الخامسة ، ويذهب للنوم في نصف الليل منهوك القوى . تبتدئ الزيارات في الساعة السادسة ثم يذهب ليقيم القداس في هذه الرعية أو تلك ، والناس يترصدونه عند خروجه ، فيزحمونه بطلباتهم ، ويطاردونه بالتماساتهم ، ويُقبلون عليه بتوسلاتهم وصلواتهم . يريد الناس أن يكلموه وأن يلمسوه وعلى الأقلّ أن يروه . يوقفونه في كلّ مكان ، في السلم ، وفي الرواق ، وعند باب الموهف ، وفي الشارع . إن لغته الفرنسية رديئة ولهجته لهجة الغرباء وبلاغته بسيطة .

بينما هو يتأهب لإقامة القداس في " أخوية توبة الخاطئين " ، احتشد جمهور ضخم فأراد بعضهم أن يدخل ، فلم يسعه الدخول فاستغرب الأمر وقال : " ما الخبر؟ " ففسرت له امرأة ما يحدث : " جننا لنحضر القداس ، قداس الخاطئين . إن قديسا سيقدّس " .

عندما يطلبون إليه معجزة " من عنده " يجيب : " إني خاطئ ، صلوا من أجلي ، ولكن لنرفع دعاءنا إلى السيدة مريم معونة المسيحيين ، فهي التي تشفي ، وتستجيب ، وتفهم ،

وتشفق ، إنها تجيب من السماء ، وأما أنا فليس بوسعي سوى أن التمس منها " . ولكن عندما يلتمس " هكذا الكاهن المسكين " شيئاً منها ، فإن السيدة تجيبه دائماً ، فكأنها هنا بالقرب منه ، قد جعلت نفسها في متناوله .

رحبت به أعلى السلطات ترحيباً ودياً فانتظره الكردينال لافيغري (Lavigrie) في كنيسة القديس بطرس في الحي السابع ، وكلم الحضور فأوصاهم بحرارة أن يقبلوا عليه بسخائهم ، وسمّاه " مار منصور دي بول الايطالي " .

ولم يلبّ النداء الى السخاء الأسر الغنية فحسب بل القوم غير الميسورين أيضاً فأعطى جميع الناس ورقات نقدية ونقوداً صغيرة وقطعاً من الذهب ، لا بل حلياً ، وجاء حين لم يعرف فيه أين يضع ذلك .

و غاب عن باريس ليذهب إلى مدينتي ليل وأميان فكانت الحماسة مماثلة ، فصاح بالذين يقتطعون رقعاً من ثوبه بمقصات لا تعرف الشفقة : " ليس جميع المجانين في مأوى المجانين " . ثم جاء وقت الرجوع في القطار الذي يعود به إلى تورينو . كان رفيقاه الأب روا والأب باروييل (Barruel) صامتين وكانا يفكران في تلك الأيام تفكيرهما في حلم لن ينساه أبداً . فخرج بغت بهما من ذلك الصمت فقال :

- أتذكر ، أيها الأب روا ، الطريق التي تؤدي من بوثيليرا إلى موريلدو ؟ هناك في جهة اليمين ثلة عليها بيت صغير . كان ذلك البيت بيتي وبيت والدتي . كنت أرى ، وأنا صبي ، بقرتين في تلك المروج . لو علم جميع هؤلاء الأسياد أنهم حملوا حمل الظفر فلاحاً مسكيناً من البكي . . .

الكردينال الذي حمل السلام

في ١٨ تشرين الثاني (نوفمبر) من تلك السنة ، وصل إلى تورينو وصولاً صامتاً تماماً الكردينال غايتانو أليموندا رئيس الأساقفة الجديد . سمع دون بوسكو في أثناء مواجهة بينه وبين البابا لاون الثالث عشر في ١٨٨٤ هذا الكلام : " فكرت بك وأنا أرسله . إن الكردينال أليموندا

يحبك كثيراً بل كثيراً جداً .

كتب الأب تشيريا (Ceria) : " إن لطف الكردينال كان تشجيعاً من العناية الالهية لدون بوسكو ، في السنوات الأربع الأخيرة من حياته " .

بعد ما وصل الكردينال بوقت قليل ، أرسل دون بوسكو من يسأل هل الكردينال في داره وهل يسعه أن يستقبله ، فركب الكردينال عربته ووصل لوقته إلى فالدوگو . " أردت أن يتيم الأمر

بسرعة فجئت أنا بنفسى " .

كانت الساعة العاشرة والنصف من الصباح ، على ما ذكر كاتب السيرة الذي كان حاضرا ، فدام الحديث في مكتب دون بوسكو ، وهو مكتب صغير ، أكثر من ساعة ، فأخبر بالأمر الأحداث وكانوا في الورشات والصفوف فأسرع الموسيقيون إلى أخذ آلاتهم وعُلقت الأعلام على عجل في طول الشرف ، ولما ظهر الكردينال في الشرفة التي يُخرج إليها من مكتب دون بوسكو ، عزفت الجوقة الموسيقى ، وصقّق الصبيان فقال الكردينال ضاحكاً : " أردتُ أن أفاجئكم ففاجأتموني أنتم " .

ولوح بيديه نحو الصبيان وقال لهم ببساطة : " أيها الأبناء الأعزاء ، أشركم وأبارككم وألتمس صلواتكم" .

ثم زار الورشات ولبت برهة طويلة يصلي أمام صورة السيدة معونة المسيحيين .

" إذا لم أعد "

كان المال جمعه في فرنسا كثيراً ، ولكن ظهر أن كنيسة القلب الأقدس في رومة بُنر لا غور لها . في أول ١٨٨٤ كان هناك ديوم باهظة يجب أداؤها ، في حين أن الصندوق فارغ ، وفي ١٨ شباط (فبراير) كتب دون بوسكو إلى رهبانه ، مع أن الحالة كانت مفجعة :

- إني ذاهب مرة ثانية إلى فرنسا .

فحاول الأب روا والأب كالبيرو أن يصرفاه عن ذلك ، فطلبوا إلى الطبيب البيروتوتي

(Albertotti) أن يأتي لمعاينته ، ففحصه الطبيب فحسباً طويلاً ثم قال :

- عندي أن الأمر سيكون معجزة إذا وصلت حياً إلى نيس .

فتمتم دون بوسكو :

- صبراً جميلاً اذا متُّ . فقبل أن أذهب سأرتب كل شيء ، ولكن يجب عليّ أن أذهب .

فما إن خرج البيروتوتي من الغرفة حتى قال للأب روا :

- خذوا حذرکم . لن أدهش إذا مات بغتة ، من غير أن تشعروا بالأمر . دعوا عنكم

الأوهام .

فدعا دون بوسكو كاتباً عدلاً وشهوداً أملى وصيته ، ثم استحضر الأب روا والأب كالبيرو

وأراهما الوثيقة الرسمية على الطاولة وقال :

- هذه وصيتي ، لقد جعلتكما كليهما وكيليّ العامّين لتنفيذ وصيتي . إذا لم أعد فإنكما تعرفان

كيف تدار الامور .

فخرج الأب روا من الغرفة وقلبه يكاد ينفطر وبقي الأب كالبيرو ، وهو يكاد يذرف

الدموع . قال لدون بوسكو :

- أتريد الذهاب حقاً وأنت على هذه الحال ؟

فأجاب : " كيف تريد أن نعمل غير ذلك ؟ ألا ترى أنه ليس لنا وسائل أخرى للسير إلى الأمام ؟ إذا لم أذهب أين أجد لك المال اللازم لتؤدي الديون التي يقترب موعد دفعها ؟ أيجب أن نترك الأولاد بلا خبز ؟ لا يُمكنني أن أحصل على المعونة إلا من فرنسا ."

أخذ الأب كالييرو بيكي ثم ملك نفسه وقال :

- لقد سرنا دائماً إلى الأمام بالمعجزات الواحدة تلو الأخرى ستري أن السيدة مريم ستساعدنا مرة أخرى . اذهب وأما نحن فسنصلي .

- أجل ، أنا ذاهب . وصيتي هنا ، أسلمها إليك في هذه العلبة . احفظها حفظك لآخر ذكر مني .

لم تطل الرحلة فقد ذهب إلى جنوب فرنسا فقط ولكن استطاع أن يجمع مالا حسناً فإن أسرة الكونت كوليّ (Colle) في طولون وضعت في يده ١٥٠ ألف ليرة في دفعة واحدة .

وخاف الأب البيرا في مرسيليا على صحته ، فطلب إلى الطبيب كومبال (Combal) أن يفحصه ، وكان ذا شهرة عالميّة . فلما فرغ كومبال من الفحص الدقيق الذي أجراه ، أعرب عن رأيه بكلام وردت فيه الاستعارات :

- أنت ثوب بالٍ جدّاً ليس أيام الأسبوع وأيام الأحد . فإذا أردنا أن نحفظه بعدئذ فلا سبيل إلى ذلك إلا بوضعه في الخزانة . وأنت تُدرك أنّي أوصيك بالاخلاص إلى الراحة المطلقة .
- أشكرك ، أيها الطبيب ، ولكن هذا هو الدواء الوحيد الذي لا يمكنني تناوله .

واضطرتّه المصاعب أيضاً إلى رحلة أخيرة للاستعطاء في ١٨٨٦ ، قبل موته بسنتين فسافر إلى اسبانيا ، فكان الاستقبال في برشلونة تكريماً لاستقبال باريس . فغصّت الشوارع بالناس وغازيت السطوح ، وتعلّقت عناقيد بشرية بأعمدة الإنارة ، وكم من السخاء ! قدّموا له في ما قدّموا ، ثلّة تُشرف على المدينة وتنتظر إليها منظراً عظيماً .

فعاد بعد ما مرّ بجنوب فرنسا : مونيبله (Montpellier) وتاراسكون (Tarascon) وفلانسانس

(Valence) وغرنوبل (Grenoble) : كانت عودته إلى وطنه إيطاليا بطيئة وكانت الأخيرة فقال

لا مرئ يرافقه :

- كل شيء من عمل السيدة العذراء ، كل شيء يأتي من صلاة السلام عليك تلك التي

تُلّيت مع صبيّ قبل خمس وأربعين سنة في كنيسة مار فرنسيس الأسيزيّ .

وبينما جسمه يزداد انحناءً كلّ حين ، كانت نفسه تشعّ نوراً يزداد سطوعاً . أسرّ إليه ذات

يوم الأب بلمونتي (Belmonte) ، رئيس سامبيير دارينا :

- إني تعب جداً حتى إني لا أقوى على شيء .

فانحنى دون بوسكو إلى الأمام قليلاً ورفع ذيل ثوبه وكشف عن ساقيه ، وقد تورمنا تورماً

شديداً وفاضنا عن حذائيه بما شبه الكرى اللادنة ، وأضاف هذه العبارة فحسب :

- يا عزيزي ، تشدّد . سنستريح في الفردوس .

وفي مساء ٢٥ حزيران (يونيو) كرّمه التلاميذ القدامى تكريماً حاراً ، للاحتفال بعيدة ،

فتأثر دون بوسكو وشكرهم ولكنه مُتعباً جداً فلم يقوَ على أن يقول غير هذه الكلمات :

- لست سوى زيز يصيح ثم يموت .

وإذا راه امرؤ يمشي وحده ، وقد اشتدّ انحناءه فذهب إليه ليساعده وسأله : " إلى أين

نذهب ، دون بوسكو ؟ " نظر إليه وهو يبتسم وأجابه : " إننا ذاهبان إلى الفردوس " .

الأولى ثم يعود ، فيبقى فيها نحو سنتين .

في السنة ١٨٨٧ أرسل إليه دون بوسكو جماعتين جديدتين من السالسيين على رأسهما رجلان بوسعهما ان يمسا بزمام الأمور هما الأب لويس لازانيا والأب يعقوب كوستامانيا .
فعاد الأب كالبيرو ، في السنة ١٨٧٧ اجتمعت الهيئة العامة للرهبانية أول مرة فكان من الطبيعي أن يشترك في هذا الاجتماع هو أيضاً ، وهو المرشد الروحي للرهبانية والخبير الوحيد في مسائل الرسائل .
وعهد إليه دون بوسكو في السنوات بعدئذ بعمليتين دقيقين هما : أن يُنشئ المشروع السالسي في اسبانيا ، وأن يدير رهبانية بنات مريم معونة المسيحيين وكانت تخطو خطواتها الأولى .

" مَنْ لَهُ أَنْ يَحِلَّ مَحَلِّي ؟ "

في السنة ١٨٧٩ لم يكن لدون بوسكو من العمر سوى أربع وستون سنة ، ومع ذلك فقد شعر بأنه منهوك القوى وهي تتحط انحطاطاً سريعاً ، فأراد أن يختار لنفسه من بين أول الذين تبعوه واحداً يضطلع رويداً رويداً بعبء شؤون الرهبانية ، ويسعه أن يحلّ محله في الوقت الموافق ، وخلاصة القول هي أنه أراد نائباً له . كان بين الاسماء اسمان : روا وكالبيرو . كانا وقيين مقتدرين ، فكان دون بوسكو يُحبُّهما جميعاً حباً جماً ، وكان على قدر ذلك متردداً فإذا اختار الواحد منهما أفلا يكدر الآخر ؟

استعمل دون بوسكو هذه الطريقة اللطيفة . ففي صباح ذات يوم من خريف ١٨٧٩ كان ذاهباً إلى فوليزو (Foglizzo) فطلب إلى الأب كالبيرو أن يرافقه وسأله في أثناء السفر :
- إذا متُّ ، في رأيك ، يصلح لأن يحلّ محلي ؟
لم يتعوذ الأب كالبيرو بل حَمَلَق وهو يجيب :

- يا دون بوسكو العزيز ، ألا تعتقد أن الكلام على هذه الأمور سابق لأوانه ؟
- فلنُسلِّم بذلك ، ولكن لنفترض الأمر مع ذلك ، فبأيّ أسماء تشير علي ؟
- أيّ أسماء؟ أختار اسماً واحداً ، فليس هناك سوى واحد يصلح لأن يحل محلك .
- وأما أنا فأختار اسمين أو ثلاثة .
- ربما كان بعدئذ اسمان أو ثلاثة ، وأما الآن ، فلا أعتقد . قل لي من هم هؤلاء الثلاثة ؟
- قل لي قبل ذلك أسم من تقترحه .
- الأب روا ، فليس هناك سوى الأب روا .
- أنتَ على صواب ، لقد كان لي دائماً ذراعي اليمنى .

- الذراع والرأس والقلب ، يا دون بوسكو العزيز ، فهو وحده أهل لأن يقوم مقامك ،
عندما يشاء الله حقاً أن يدعوك إلى ملكوته .
كان دون بوسكو لطيفاً جداً ، وتنحى الأب كالييرو بمثل اللطف . فلم يعرّ ولا ظلّ صفاء
اختيار " دون بوسكو الثاني " .
لم يقل دون بوسكو ذلك قط للأب كالييرو ، ولكنه حفظ له جميلاً كبيراً لتلك الكلمات التي
فاهَ بها بتواضع عظيم الصراحة ، في عربة ذاهبة الى فوليزو .

المعانقة الشديدة لأول مطران

في ١٦ و ٢٠ تشرين الثاني (نوفمبر) ١٨٨٣ نَشَرَ الكرسيّ الرسوليّ وثيقتين مُهمّتين فإن
الباتوغونيا الشمالية والوسط (أرض الـريو نيغرو Rio Negro وشوبوت Chubut وسانتا كروز
Santa Cruz) أعلنتنا نيابة رسولية بإمرة الأب يوحنا كالييرو ، وقد سُمّي نائباً رسوليّاً ، وأعلنت
أرض النار (وهي أقصى الباتاغونيا في الجنوب) مديريّة رسوليّة رسميّ الأب فانيانو مديراً
رسوليّاً ؟
كان على الأب كالييرو أن يعود إلى أمريكا وهو نائب لا مطران ، فُيرقى إلى الدرجة الأسقفية
بعدئذ ، ولكن دون بوسكو كان مخالفاً لذلك الرأي ، فحدّث الكردينال اليموندا وكتب إلى
الكردينال نينا (Nina) حامي السالسيين ، وألحّ في السؤال على البابا . كان الكردينال فرييري هو
الذي يرفض ذلك رفضاً تامّاً ، ولكن البابا استجاب هذه المرة طلب دون بوسكو . في ٩ تشرين
الأول أول (أكتوبر) ١٨٨٤ بُعثَ برسالة من رومة إلى فالدوگو جاء فيها : " إنّ الأب الأقدس في جلسة
يوم الجمعة الماضي تقبّل قبولاً حسناً التماس دون بوسكو ورضي بأن يُمنح الأب كالييرو النائب
الرسولي في باتاغونيا ، الرتبة الأسقفية " .

كان ذلك اليوم يوم سعادة عند دون بوسكو ، فقد تحقّق الحلم القديم ، حلم الحمامة
وغصن الزيتون والكلام الذي قاله لصبيّ مشرف على الموت : " سوف تسلّم كتاب الفرض
إلى غيرك . . . وسوف تذهب إلى مكان بعيد ، بعيد . . . " ، لم يكن وهماً سريع الزوال ، بل
صار حقيقة راهنة .

أقيمت الرسامة الأسقفية في كنيسة السيدة مريم معونة المسيحيين في ٧ كانون الأول
(ديسمبر) ١٨٨٤ . وكان ذلك الحدث في فالدوگو حدثاً لا يُنسى ، فإن صديقاً صغيراً من الذين
ربّاهم دون بوسكو ، ودخل إلى المصلّى في الثالثة عشرة ، وهو يتيم الأب ، رُسم في السادسة
والأربعين مطران قطر رسولي واسع جداً .

ووقع حدثان صغيران . لما انتهت الحفلة المهيبة انفصل المطران الشابّ عن الموكب واتجه

نحو أمه . كانت السيدة العجوز القصيرة القامة تریز الطیبة (وعمرها ثمانون عاماً) آتية إلى لقتنه ، بسندها ابن لها وابن أخيها . فضمّ المطران كالييرو إلى صدره الرأس الأبيض ورافقهما بعطف إلى مكان قعودها فتأثر الحضور تأثيراً شديداً مما راوا . وكان دون بوسكو ينتظره في جهة الموهف ، ويديه قبعة ، فأسرع إليه الأسقف وضمه إلى صدره بيد قوية وأخفى في طيات ثوبه يده المزينة بالخاتم الأسقي ، فلا بيه دون بوسكو يعود الحق بان يكون أول من يقبل ذلك الخاتم .

الأب روا نائب دون بوسكو

أعلن دون بوسكو اختياره لنائبه بعد ما سُمّي الأب كالييرو مطران باتاغونيا . قال في ٢٤ تشرين الثاني (نوفمبر) ١٨٨٤ في المجلس الأعلى للرهبانية : " إني أحتاج إلى من أسلم إليه الرهبانية فاجعلها على كتفيه ، وأترك له عبءها . قد يسرّ البابا أن يتنحى دون بوسكو تماماً . إن رأسي المسكين يعجز عن العمل . . . " .
فكتب إلى البابا واقترح اسم ميشيل روا فأنته الموافقة في أول كانون الأول (ديسمبر) .

أمسكه دون بوسكو بيده

كان على المطران كالييرو أن يذهب من تورينو إلى أميركا الجنوبية في أول شباط (فبراير) ١٨٨٥ ويستصحب ١٨ سالتياً ، وستاً من بنات السيدة مريم معونة المسيحيين ، ولكنه في مساء الاول من شباط رافق المرسلين إلى المحطة فشرع بأنة تعب ، فعاد إلى فالدوگو ليقضي الليلة هناك ، فصعد إلى غرفة دون بوسكو ، وجلس بالقرب منه فلزما الصمت فترة طويلة ، ثم سأله دون بوسكو:

- هل ذهب رفاقك ؟
- نعم .
- وأنت ، متى تذهب ؟
- يجب عليّ أن أكون غداً في سامبير دارينا (Sampierdarena) .
- إذا أمكنك فاذهب بعدئذ . استرح استراحة حسنة .
- دعني أفعل ، والآن امنحني بركتك .
- لماذا أبارك هذا المساء . تعال إليّ غداً في الصباح سنتحدث مرة أخرى بهدوء .
- لا يا دون بوسكو ، سأذهب غداً مبكراً جداً .
- ولكنك متعب . . . مهما يكن من أمر فاعمل ما تراه الأفضل .

- اذاً باركني وبارك أصحابي .
- جثا المطران فأمسك دون بوسكو بيده :
- على الطائر الميمون . إذا لم يرَ أحدنا الآخر في هذه الارض فسنرى بعضنا بعضاً في الفردوس .
- لا تقل ذلك ، سيرى أحدنا الآخر ثانياً .
- سيكون ما يشاء الله ، فهو الرب . سيكون لك في الأرجنتين وباتاغونيا عمل كثير ، فاعمل كثيراً ، والسيدة العذراء تعينك .
- فأخذ يتلو كلام البركة وكان يتكلم بصوت بطيء فإذا به لا يذكر الألفاظ ، فهمس بها إليه بلطف ، وأعادها دون بوسكو طائعاً وهو لا يزال مُمسكاً بيده ، فنهض المطران آخر الأمر وقال :
- اذاً ، ليلتك سعيدة ، يا عزيزي دون بوسكو ، استرح الآن .
- بلغ سلامي رفاقك في السفر وسلم على اخوتنا الذين يعملون في أميركا ، وعلى معاونين . كم عندي من الاشياء وددتُ أن أقولها لك . . . باركك الله .

كان بيت المطران كوخاً من جذوع الشجر

تابع دون بوسكو في سنواته الاخيرة بمودة الأعمال الرسولية التي قام بها الصبيّ الويّ الشدسد الحماسة . كان يقرأ رسائله ، ويحوّلها لوقته إلى النشرة السالسية لئطّيعَ فيها .

في تموز (يوليو) ١٨٨٦ أعلم المطران كالبيرو أنّ الجزء الأهمّ والأكثر سگاناً في شمال باتاغونيا قد أصبح معروفاً وقد زاره المرسلون السالسيون ، وعلموا فيه التعليم المسيحي .

وفي أثناء ذلك الشهر ، شهر تموز جاء إلى دير باتاغونيس ، ابن القائد سايوهويك

(Sayuhueque) فطلب إلى المطران أن يصعد إلى وادي شيشينال (Chichinal) لبيشّر الراشدين من أهل القبائل . روى المطران كالبيرو : " في وادي شيشينال الواسع جداً عمّداً ١٧٠٠ من الأهلين ودرّسنا التعليم المسيحي ثلاث ساعات قبل الظهر ، وثلاث ساعات بعد الظهر في كلّ يوم . كان بيت المطران كوخاً من جذوع الشجر والطين ، يعلوه سطح من الغصون ، ليقيني الشمس والمطر ، ولا أثر لسرير ما . كُنّا ننام على فرو أعطانا إيّاه بكثير من العطف هؤلاء الأهلون الطيّبون بما فيهم من دماثة الخلق وقدرة على الحماسة " .

في ١٨٨٧ باشر المطران كالبيرو رحلة رسولية جديدة يصحبه الأب ميلانيزو وسالسيان آخرون . كان يُقدّر أنّ الرحلة التبشيرية ستمتد إلى مسافة ١٥٠٠ كيلومتر ، وتشمل وادي الريو نيغرو ، ووديان الأند والممرّ الجبلي في الكورديليرا والمُنحدر الى كونسيبيسيون في الشيلي . اجتازوا

ألفاً وثلاثمائة كيلومتر وهم راكبون على الخيل فسار كلُّ شيء سيراً حسناً، فاستطاع المطران أن يمنح ٩٩٧ عماداً، (وجميع المعمدين على وجه التقريب من الهنود الراشدين) ، وأن يبارك مائة زوج وزواجا ، ويوزّع القربان المقدس على نحو ألف من المتناولين ، ويثبت ١٥١٣ شخصاً . ويتعذر إحصاء الساعات التي صُرّفت في إلقاء دروس التعليم المسيحي الى الصغار وتبشير الكبار : في صباح الثالث التي من أذار (مارس) ما كادوا يغادرون مالباركو (Malbarco) على ضفة نوكوين (Neuquen) حتى وقعت حادثة جسيمة رواها المطران نفسه في رسالة له :

" اجتزنا الكورديليرا في مكان ارتفاعه ألفا متر ، فكان علينا أن نصعد إلى كثير من الآلاف غيرها . كان الدرب يمر في منحدرات صخرية صلبة تشرف إشرافاً عمودياً على الهاوية ، فإذا حصاني قد جفل ، وأخذ يرفس كالمجنون ، فاستغثت السيدة مريم معونة المسيحيين ، وألقيت بنفسي من السرج إلى الأسفل ، فنفذ رأس صخرة في جسمي ، وكسر لي ضلعين ، وثقب رتتي فلبثت كالميت أتنفس تنفساً عسيراً ولم أقوَ على التكلم . ثم وصل رفاقي ، ولما استطعت أن أتمم بعض الكلمات ، حاولت ان أظهر شيئاً من النكتة لكي أشجعهم ، قلت : لما كان لنا ٢٤ ضلعاً ، يسعنا أن نضحّي ببعضها . فاضطررنا إلى العودة القههري ، واجتياز نهري ، وجبلين ، لنجد مركزاً نتوقف فيه لمعالجة حالتي ، ولكن يا للمعالجة ! لم يكن هناك سوى متطبّب ، يعالج الأمراض بطرق بدائية ، فسألته هل يعمل عمل الحداد ليصلح لي ضلعي . فمكثت شهراً ، وأنا أتقدم تقدماً بطيئاً حتى شُفيت فعدت إلى ركوب الحصان ، وما زلت في طور النقاهة ، وسافرت مع رفاقي المرسلين أربعة أيام ، فاجتزت مرة أخرى الكورديليرا على ارتفاع يزيد على ٣ آلاف متر ، وانحدرت مرة أخرى من التلال الشيلية المعتدلة الانحدار نحو شاطئ المحيط الهادئ ، فأقمت هناك أسس الأديار السالسيّة الجديدة في كنسيبيون ، وتالكا وسانتياغو وفالبارايو . وهكذا

اجتزت تلك السنة اميركا من شاطئ إلى شاطئ آخر ، مع رفاقي الثلاثة ونحن راكبون الحصان ، ننام في الحفر وتحت الشجر " .

مقابلة صحفية مع دون بوسكو

في نيسان (ابريل) ١٨٨٤ كان على دون بوسكو أن يذهب إلى رومة فقد وعد بعض المحسنين بإعطاء مقادير من المال كبيرة ، للإيقاق على كنيسة القلب الأقدس ثم كفوا عن الظهور ، فقال دون بوسكو وهو يبتسم ابتسامة حزينة : " يجب الذهاب اليهم لدقّ الأجراس " . ورضي دون بوسكو في تلك الفرصة السانحة أن يمنح مقابلة صحفية لأول مرة في حياته وكانت هذه الطريقة من اختراع الاميركي هوراس غريللي (Greely) في السنة ١٨٥٩ . وفي رأينا أنّ مطالعة أجوبة دون بوسكو عن أسئلة مباشرة سألها صحافيّ من جريدة رومة في ٢٥ نيسان

(ابريل) ١٨٨٤ أمرٌ لا يقتصر على حب الفضول بل فيه فائدة .

س - بأيّ معجزة استطعت أن تُنشئ جميع هذه الدور الكثيرة في بلاد من العالم يختلف بعضها عن البعض الآخر مثل هذا الاختلاف الكبير؟

ج - لقد استطعت أن أحقق أكثر مما رجوت ، ولكن كيف كان ذلك الامر ، فأنا أيضاً لا أعرفه . إنّ السيدة العذراء التي تعرف حاجات عصرنا ، تساعدنا .
س - كيف تساعدكم ؟

ج - أصغ . ذات يوم كتبوا إليّ وأنا في تورينو أنّه من عشرين ألف ليرة خلال ثمانية أيام من أجل الكنيسة التي تُبنى في رومة . ولم يكن عندي حينذاك شيء من المال ، فجعلت الرسالة بالقرب من جرن الماء المقدس ، ورفعتُ إلى السيّدة دعاءً حاراً وسلمتُ المسألة إلى يديها ، واستلّقيتُ على السرير . وفي صباح الغد تلقّيتُ رسالةً من امرئ مجهول هذه خلاصتها : " نذرتُ للسيدة أن أهب عشرين ألف ليرة إلى مشروع خيري ، إذا منحتني نعمة أطلبها ، وقد حصلتُ على النعمة ، فأنا أجعل هذا المال في تصرفك " . وكنتُ مرّةً أخرى في فرنسا فبلغني خبر مزعج وهو أن داراً من دوري تحتاج إلى ٧٠ ألف ليرة لتتجنب خطراً كبيراً . ولم أرَ كيف أعالج الأمر على جناح السرعة ، فلجأتُ أيضاً إلى الصلاة ، وفي الساعة العاشرة من الليل ذهبتُ لأنام فسمعتُ من يقرع باب غرفتي ، فذهبتُ وفتحتُ فدخل صديق لي يحمل ملقاً كبيراً بيديه وقال لي : " يا دون بوسكو العزيز ، كنتُ قد استدركت في وصيّتي قدراً من المال ، من أجل مشروعاتك ، ولكن تبادر إلى ذهني اليوم أنّه من الأفضل لمن أراد عمل الخير ألا ينتظر الموت ، وقد حملتُ اليك لوقتي ذلك المال ،

فها هوذا سبعون الف ليرة " .

س - هذه معجزات . دعني أتطفل عليك : هل أجريت معجزات أخرى ؟

ج - لم أفكر قطّ إلا في القيام بواجبي . صليتُ وفوضتُ أمري إلى السيّدة .

س - أتريد أن تقول لي ما طريقتك في التربية ؟

ج - إنّها غاية في البساطة : أن يُترك للاحداث الحرّية التامة ليعملوا ما يحلو لهم . والمسألة

هي الكشف عن بزور خصالهم الحميدة وصنع ما يلزم لتنميتها . فكلُّ امرئٍ يَطيب له أن يعمل ما يعرف أنه قادر على النجاح فيه فحسب . اني اعتمد هذا المبدأ ، وتلاميذي يعملون بأجمعهم لا بنشاط فحسب بل بمحبة أيضاً . في ٤٦ سنة ، لم أنزل عقوبة بأحد قط . واجروا عى القول إن تلاميذي يحبّونني .

س- ماذا عملت لتبسط مشروعاتك إلى الباتاغونيا وأرض النار ؟

ج - قليلاً قليلاً .

س - ما رأيك في أحوال الكنيسة كما هي الآن في أوروبا وإيطاليا ، وما رأيك في

مستقبلها ؟

ج- لستُ نبياً ، في حين أنكم جميعاً ، يا معشر الصحافيين أنبياء ، ولذلك يحسن أن

تُسالوا أنتم ما سيحدث . فما من أحد يعلم المستقبل إلا الله . ولكن إذا أردنا أن نتكلم كلام

البشر ، يسعنا الاعتقاد أن المستقبل سيكون عسيراً . إن توقعاتي تدعو غلى الحزن الشديد ولكن لا

أخاف شيئاً ، سيُنقذ الله دائماً أبداً كنيسته ، وإن السيِّدة العذراء التي تحمي عالم عصرنا حماية

ظاهرة للعيان ، ستبعث منقذين .

٥٠

الدموع السخينة

ازدادت روحانيّة دون بوسكو صفاء ونقاوة في أعوامه الأخيرة ، فقد يدفع الألم المرء إلى قَمّة

اليأس ، وقد يُنمّي فيه القداسة . كان ذلك النموّ يظهر للعيان في دون بوسكو يوماً بعد يوم ، بل

كانت طبيعته الانسانية نفسها تكتسب إشعاعاً على أثر ذلك .

كتب بييترو ستيلّا : (Pietro Stella) " بدأ دون بوسكو في الأعوام العشرة الاخيرة من حياته

ولا سيما بعد العام ١٨٨٢ كمن استوعب كلّ الخير الذي تراكم بعد خبرة طويلة . يبدو أنه لا

يتحمل بعدُ الخلافات التي اضطُرَّ إلى تحملها في علاقاته مع انطون أخيه ، ومعاونيه الأولين ، والمطران غالستالدي ، إنه ينفّر ، أكثر منه في أي وقت مضى ، من المنازعة ، وهو لا يُحبّ المجابهات . إنه يفرض حتى في أثناء المنازعات والمخاصمات ، ألا يرفعَ أحدُ الصوتَ وألا يُهاجمَ أحدُ الآخر ، ولا يقتدوا بالجرائد الكاثوليكية في المهاترات المرّة اللاذعة . إنه يريد أن يسعوا " إلى المرور من غير بلل بين القطرات في أثناء الزوبعة " . كانت أعوامه الأخيرة خلافات كبيرة وقليلاً من مظاهر الإكرام الرسميّ ، ومضايقات ماليّة كثيرة تنزلها به السلطات الإدارية والسياسية ، ولكنه يبدو دائماً أبداً بمظهر من استولى عليه مثال أعلى من الوداعة والتفهم " .

كاهن شاب جادٌ مفكّرٌ

في السنة ١٨٨٣ جاء من لومبارديا كاهن شابٌ جادٌ مفكّرٌ يراه ، واسمه أكليّه راتي (Ratti) فحدّثه دون بوسكو نصف ساعة وأطلّعه على كلّ ما اراد معرفته ثم قال له :
- الآن عدّ نفسك صاحب هذا البيت . لا يسعني أن ارافقك لأني مشغول كثيراً ، ولكن اذهب وانظر كلّ ما تريد أن تنظره .
وكان في ذلك الوقت في فالدوگو رؤساء الدور السالسيّة ، وقد جاؤوا للاجتماعات . وكانوا بعد الطعام يأتون ويعرضون مشكلاتهم على دون بوسكو ، وقد ظلّ واقفاً يستند إلى الطاولة ، فأراد الأب راتي أن يذهب ، فقال له دون بوسكو على نحو غريب :

- لا ، لا ، أمكث هنا .

صار ذلك الكاهن الشاب بعدئذ البابا بيوس الحادي عشر ، فروى ذلك الحدث بعد تسعة وأربعين سنة في كلامه على دون بوسكو إلى الشمامسة الرومانيين فقال : " كان هناك أناس أتوا من كلّ مكان ، بعضهم بمشكلة وبعضهم الآخر بغيرها وأما هو فكأنّ الامر عنده مسألة لحظة ، فيُصغي إلى كل شيء ويجيب عن كل شيء . كان ذلك الرجل مُتنبّهاً بكلّ ما يحدث حوله ، ويبدو في الوقت نفسه كمن لا يهتمّ بشيء ، كأنّ أفكاره في مكان آخر . وكان في مكان آخر حقاً : كان مع الله . والأمر العجيب هو أنّه كان يقول على أكمل وجه ما يجب أن يقال لكلّ منهم . كان دون بوسكو يعيش حياة القداسة تلك التي قوامها المواظبة على الصلاة في أثناء مشاغل دائمة لا هوادة فيها " .

زهرة لتفكّري بالأبدية

كان في نيسان (ابريل) ١٨٨٥ يخطو بعض الخطوات في جنينة سيّدة دعتة إلى طعام الغداء هو وأمين سرّ له شابّ ، والأب فيليّتي (Viglietti) . وبينما هو يمشي مشياً وثيداً ، وقف أمام مكان فيه زهور فقطف بنفسجة ، وذهب إلى سيّدة البيت وقدمها لها وقال :

- لقد كان من لطفك أنك دعوتنا الى طعام الغداء ، يا سيدتي ، فأريد أن أشكرك بزهرة توحى فكرةً .

- وما تلك الفكرة ، يا دون بوسكو ؟

- فكرة الأبدية ، هذه فكرة يجب أن تلازمنا دائماً أبداً . كل شي يزول في هذا العالم ، ولن يدوم سوى الأبدية . فلنعمل لكي تكون أبديتنا سعيدة .

كان دون بوسكو يفكر في الموت ، في لقاء وجه الله وكانت تلك الفكرة تجعله جاداً ، مشغول البال . فسلم ذات يوم في السنة ١٨٨٥ على رجل في سان بينينييو (San Benigno) فقال له :

- صلّ من أجلي .

- آه ، يا دون بوسكو ، إنك لا تحتاج إلى ذلك .

فشهد الأب بيثيتّا (Piscetta) وكان حاضراً : " حينذاك صار جاداً كثير الجّد ، واغرورقت عيناه بالدموع وقال بلهجة من الصدق عميقة : أحتاج إليه حاجة شديدة " .

السيدة العذراء هنا

في آب (اغسطس) تلك السنة ذهب إلى نيتسا مونفرّاتو (Nizza Monferrato) لحفلة إرتداء

بنات السيّدة مريم معونة المسيحيين الثوب الرهباني ، وحفلة نذورهنّ . كان منهوك القوى كثيراً ، حتى إنه لم يستطع أن يُنال القربان المقدّس سوى بضع منهن . فشهد حفلة إرتداء الثوب والنذور وهو جالس إلى كرسي ، ولكنه أراد أن يتكلم قليلاً فكان صوته ضعيفاً فكان الأب بونيتي يقوم " مقام مذياع " يكرر بصوت عالٍ العبارات التي لا يفهمها الحضور .

- إذا تُردن أن أقول لكنّ بعض الكلمات . لو كان بوسعي أن ألقى خطاباً فكم من الأشياء

كان لي أن أقول ، ولكني كبير السن عاجز كما تُرين . يسعني أن أقول لكنّ أمراً واحداً ، وهو أن السيدة مريم العذراء تحبّكنّ جميعاً حباً جمّاً عظيماً ، عظيماً ، وأنتنَ تعلمن أنّها هنا بينكن .

فاراد الأب بونيتي أن يفسّر فقال بصوت عالٍ :

- أراد دون بوسكو أن يقول إن السيدة هي أمّكن وإنها تحرسكنّ وتحميكن .

فردّ عليه دون بوسكو بقوله :

- لا ، لا ، أريد أن أقول إن السيّدة هي هنا حقاً في هذا البيت وإنها مسرورة منكنّ .

فواصل الأب بونيّتي:

- يقول لكنّ دون بوسكو إن السيّدة ، إذا كنتن صالحات، ستكون مسرورة منكّن.
- فجمع دون بوسكو قواه وفتح ذراعيه وقال:
- لا، لا، أريدُ أن أقول إنّ السيّدة هنا حقّاً ، هنا بينكن . إنّ السيّدة تجول في هذا البيت وتغطّيه بردائها .

دون بوسكو والاعنياء

- تداولت يدًا دون بوسكو في السنين الخمس والعشرين الأخيرة من حياته أقداراً من المال عظيمة ضخمة ، ملايين من الليرات حقيقية (ملايين لسني ١٨٠٠) . مع ذلك ظلّ فقيراً معدماً ، ولم يبقَ ولا سنتيم واحد في يديه. ولكن تساءل بعض الناس : " ألم يفرط دون بوسكو في تمثّق الاغنياء الذين أعطوه مالا كثيراً ؟ ألم يبلغ به الأمر إلى طمأنة ضمائرهم في تبعّتهم الاجتماعية ؟ " . إن السؤال هذا جدير بأن يُسأل .
- أمّا وقد درسنا سيرة دون بوسكو ، فإنه يبدو لنا أنه تصرّف بلطف كثير في صلاته بجميع الذين أحسنوا إليه : الفلاح والعامل اللذان أعطياه عشرة فلوس ، والكونت كولي (Colle) الذي أعطاه ١٥٠ ورقة كل منها ألف ليرة .
- إننا نوّد أن نأتي بالأحداث أكثر منا بالكلمات (ولا سيما في مسألة " طمأنة الضمائر ") .

ذهب في سامبيير دارينا (Sampierdarena) في السنة ١٨٨٢ إلى راهب كبوشي كان مرشداً

لنبييل من جينوى ، يملك عدة ملايين ، وقد طعن في السن ولا ولد له . فلما فرغ دون بوسكو من مقدّمات الكلام سأله :

- لماذا لا يفعل هذا الرجل خيراً على قدر ثروته ؟
- إنك على خطأ ، يا دون بوسكو . إنّه يعطي الفقراء كل سنة عشرين ألف ليرة .
- عشرين ألف ليرة فقط ؟ إذا أراد أن يطيع يسوع المسيح ، أي أن يعطي على قدر ما يملك ، فإنّ مائة ألف غير كافية .
- إنني أدرك ذلك ، ولكّني كيف أقتعه ؟ ماذا تعمل لو كنتَ مكاني ؟
- كنتُ أقول له إنني أرى أن أذهب إلى جهنم بسبب منه . إذا أراد يذهب إليها ، فليذهب إليها وحده . وإن أرى ، فإنّي أقول لا يسعني البقاء مسؤولاً عن نفسه .
- فوعد الراهب وقال : " سأقول له " . وفعل كما وعد ، فلم تُرَق كلماته ذلك السريّ الكبير

فصرفه (ذكريات السيرة ، ج ١٥ ، ص ٥٢٠) .

كان المتعهد بورغو (Borgo) هو أيضاً من سامبييردارينا . خدم الدار السالسيّة خدماتٍ كثيرة في سبيل الصبيان الفقراء حقاً ، فقد سلّف أقدراً من المال كبيرة ، من غير أن يطلب فائدة ، وقد أنفذ مخططات ولم يطالب بأجرة لمراقبته أعمال البناء طوال سنتين .

ماتت أمّاته قبل عشرين سنة وقد خطط لديه جواهر الفقيده وثيابها الفاخرة . ذات يوم قال لدون بوسكو ، كَمَنْ يتكلم على سبيل المصادفة ، إنّه يودّ أن يصنع شيئاً ، إحياءً لذكرى زوجته ، ومن أجل خلاص نفسها . . . فقال له دون بوسكو بشيء من الخشونة :

- إذا شئت أن تسلك سلوكاً مسيحياً ، فلماذا تحفظ في بيتك جميع هذه الأشياء الغالية الثمينة غير المفيدة ؟

- بأي شيء تنصح لي ؟

- انتِ بها إلى هنا وقدمها لهؤلاء الصبيان وليس لديهم حتى ما هو ضروريّ .

ابتعد المتعهد ابتعاداً من نزلت به إهانة . هذه التضحية تجاوز الحدّ ، ولكنه فكّر فيها آخر

الأمر ، فعاد بعد بضعة أيام ، وكان دون بوسكو لا يزال في سامبيير دارينا ، فسلم إليه جميع الأشياء الثمينة التي تركتها زوجته ذكراً .

كان الكلام الذي يستعمله دون بوسكو في حديثه إلى الأغنياء ، يبدو لكثير من السالسيين

كلاماً مُفطراً في القساوة ، ولكنه شرح الأمر في ٤ حزيران (يونيو) ١٨٧٧ قال : " رأيت في اللحم السيدة مريم العذراء في بعض الليالي ، فوبختني عدة مرات بأنّي لم أتكلّم على واجب الصدقة ، وقد أسفت لأن الكهنة في الكنيسة يخافون شرح واجب إعطاء الفقراء الفاضل عن الحاجة . فالذنب ذنبهم ، إذا كدّس الأغنياء ذهبهم في صناديقهم الحديد " .

في ٢٢ نيسان (ابريل) ١٨٨٧ ذهب والأب بلمونتي (Belmonte) والأب فيليتي (Viglietti)

من سامبيير دارينا الى سيستري بونينتي (Sestri Ponente) ليزور السيدة لويزا كاتالدي (Cataldi)

المحسنة إليه الكبيرة ، فسألته في آخر المواجهة ، وهي ترافقه إلى خارج الدار :

- يا دون بوسكو ، ماذا يجب علي أن أعمل لأخلص ؟

- إذا أردت أن تخلصي وجب عليك أن تصيري فقيرة مثل أيّوب .

فلبثت السيدة في حيرة ، وهكذا لبث الأب بلمونتي وقد سمع السؤال والجواب . فقال له

بلمونتي ، في العربة التي تعود بهم إلى الدير ، بالصراحة المألوفة عند السالسيين الأولين :
- دون بوسكو ، بكم من الجراءة خاطبت هذه المرأة المسكينة ؟ إنها توزع كثيراً من الصدقات .

فأجاب دون بوسكو :

- اسمع ، فما من أحد يجرؤ على أن يقول الحق للعظماء .

قام دون بوسكو في أثناء رحلته الأخيرة إلى فرنسا بجولة في هيير (Hyeres) ، فمرّ السيد أبيي (Abeille) ، رئيس جمعية مرسيليا للتجارة ، هو بنفسه من بين الصفوف في الكنيسة ليجمع الهبات من أجل دون بوسكو ، فلما انتهى ابتهج بأن كثيراً من الحضور أفرغوا محافظاتهم في السلة ، فقال له دون بوسكو :

- إنني أرى ذلك أمراً طبيعياً جداً ، فإذا كانوا مسيحيين وجب عليهم أن يُعطوا الفقراء الفاضل عن حاجتهم . ألا ترى ، أيها السيد أبيي ، أنك إذا ادّخرت مائة فرنك في الشهر (ومائة فرنك شيء كثير) وجب عليك أن تعطي الله البقية .

إن موت محسنة من المحسنات إليه ، وهي مركيزة في الرابعة والثمانين ، ظلّ مطبوعاً في ذهنه يؤلمه دائماً أبداً . كانت قد دعت له لدية ثم نظرت إليه نظرة حائرة وقالت له :
- إذا سأموت حقاً ؟

فحاول دون بوسكو أن يحدثها حديث الله ، ولكنها كانت تنظر الى ما حوّلها بقلق ولا تنفك تُنتم :
- قصري الجميل ، وغرفي وبهوي الذي أنعم فيه ، أفيجب علي أن أتركها حقاً ؟

طلبت أن يضع الخدم بجانب سريرها سجادة عجمية ثمينة فكانت تلمسها وتقول المرة تلو المرة كأنها فوّدت رَشدها : " ما أجملها ، لماذا يجب علي أن أتركها ؟ "

قال بحزم للأب انطون سالا (Sala) ، وقد رآه يتردد في الذهاب ليُمَدّ اليد للاستعطاء :

- اذهب وافعل ذلك بشجاعة . إن الاغنياء يخدموننا ، ولكننا نحن أيضاً نخدمهم عندما

نُتيح لهم فرصة مساعدة الفقراء .

في ١٨٧٦ بينما دون بوسكو يُمرّ بكبيرري رأى يوسف بلانشار (Blanchard) ، صديقه في أيام

الصبا ذلك الذي كثيراً ما أفرغ سلة الثمار في البيت لكي يغذيه ، وكان قد صار هو أيضاً رجلاً

- مسناً قصير القامة . كان يسير في الشارع وهو يحمل صحناً وزجاجة خمر ، فترك دون بوسكو الكهنة الذين كان يحدّثهم وذهب إليه فرحاً :
- يا بلا نشار العزيز . ما أسعدني بأن أراك ! كيف حالك ؟
- فأجاب بلانشار مرتبكاً :
- حسنة ، حسنة ، يا سيدي الفارس .
- فعلا الحزن وجه دون بوسكو فقال :
- لماذا تدعوني فارساً ؟ ألا تدعُ عنك التكلّف في مخاطبتي ؟ أنا دون بوسكو الفقير ، وما زلتُ فقيراً كما كنتُ إذ كنتَ تعطيني ما أكل .
- ثم التفت إلى الكهنة وقد دنوا منهما :
- أيها الأسياد ، هوذا أوّل من أحسن إلى دون بوسكو الفقير . أترى ، يا بلانشار ؟ أودُّ أن يعرفوا ذلك ، لأنك علمتَ كل ما بوسعك من أجلي . كلما جئتَ إلى تورينو وجب عليك وجوباً مطلقاً أن تجيء اليّ لتتناول طعام الغذاء عندي .
- في ١٨٨٦ بعد عشر سنوات بلغ بلانشار أنّ صحة دون بوسكو قد ساءت ، فذهب إلى تورينو ليراه ، فقال له أمين السر في غرفة الانتظار :
- إنّ دون بوسكو مريض يُخلدُ إلى الراحة ولا يُمكنه أن يستقبل أحداً .
- قلّ له إني بلانشار ، ترأّاه سيستقبلني .
- فعرف دون بوسكو الصوت من وراء الباب ، فنهض بمشقة وذهب إلى لقائه ، وأخذ بيده وأدخله وأجلسه بالقرب منه وقال :
- يا بلانشار الطيّب ، ذكرتَ دون بوسكو الفقير . كيف حالك ؟ وكيف أسرتك ؟
- فتحدّثا طويلاً ثم حانت ساعة الطعام ، فقال دون بوسكو :
- إنيّ ، كما ترى ، كبير السنّ مريض ، ولا يسعني النزول لتناول طعام الغذاء معك ، ورجلاي عاجزتان عن سلوك السلم ، ولكني أريد أن تنزل فتأكل مع أبنائي السالسيين .
- فدعا أمين سره وقال له :
- تذهب بصديقي إلى غرفة طعام الرؤساء وتجلسه في مكاني . سأصلي من أجلك ، يا بلانشار ، وأنت لا تنسَ صديقك دون بوسكو الفقير .
- فخجل شيخ كبير السنّ ، القصير القامة ، وتناول الطعام في ذلك اليوم ، بين أعضاء المجلس الأعلى للرهبانية ، فروى لهم خبر صداقته ليوحنا في كييري ولقائها قبل عشر سنوات .

عشرة أيام للنزول إلى رومة

في أيار (مايو) ١٨٨٧ حان الوقت لتكريس كنيسة القلب الأقدس وقد انتهت في رومة .
بُذِل لبناء حجارتها سبع سنوات من العمل والجهد والصحة المتهدمة .
لم يكن دون بوسكو ليتحمل مشقات السفر إلى رومة ، ففكروا في أن يجعلوه يقوم به في
مراحل صغيرة كثيرة ، فمضى صباح العشرين من نيسان (أبريل) . كتب الأب لزيرو
(Lazzeri) : خرج من الدار ، وكان يبدو أنه لن يقوى على الوصول حتى إلى مونكاليري
(Moncalieri) (وهي في خارج تورينو) . كان يرافقه الأب روا والأب فيليبي ، فرضي دون
بوسكو أول مرة في حياته أن يجلس في حافلة من الدرجة الأولى ، وتوقف فترات للاستراحة في
الدور السالسيّة التي على الطريق ، وفي بيوت المحسنين ، وقد بُلغوا خبر مروره بهم .
فلقي في فيرنزي الكونتسا اوغوشيني (Ugucioni) ، الطاعنة في السن ، فوصل إليها
يسنده الأب فيليبي ، وكانت هي تُدفع دفعاً في كرسيّ متحرك على عجلتين فقال دون بوسكو
مازحاً :

- يسعدني أن أراك يا سيدتي الكونتسا . أتودين القيام بجولة رقص ؟
 - آه يا دون بوسكو . أنظر إلى الحالة التي أنا عليها . . .
 - حسناً . . . حسناً ، لا تخافي . إن جولة الرقص سنقوم بها في الفردوس .
- كان اللقاء في محطة اريتسو (Arezzo) غير متوقّع ، فما إن رآه مدير المحطة حتى أسرع إليه

وعانقه وقال له وهو يبكي من الفرح :

- دون بوسكو ، ألا تذكرني ؟ كنت ولداً شريراً في تورينو ، لا أب ولا أم ، فأويتني
وعلمتني وكنت تحبني حباً جماً . والآن لي أسرة حسنة ، وأنا مدين لك بهذا العمل .
- وَصَلَ إلى رومة بعد الظهر من ٣٠ نيسان (ابريل) فذهب به ليزور معهد الكهنوت
اللومباردي ، فُطِلب إليه أن يقول كلمة لطلاب الكهنوت ، فاستطاع أن يقول جملة واحدة :
- فَكَّرُوا دائماً أبدأ في ما يقول فيكم الرب ، لا في ما يقول فيكم الناس ، سواء أكانَ ذلك
خيراً أم شراً .

استقبله البابا فأجلسه بجانبه ووضع على ركبته فروة فاخرة عريضة فتمتم :

- أيها الأب الأقدس ، إني طاعن غي السنّ ، وهذا آخر أسفاري وخاتمة كل شيء
عندي . . . هناك عمل كثير ، ولا حاجة بي إلى أن أوصي أبنائي بالعمل ، لا بل يلزمي أن
أوصيهم بالاعتدال ، (وكان فيما يقول ذلك يغمز إلى الأب روا الواقف بالقرب منه) فهناك كثير

منهم يدمرون صحتهم لأنهم يعملون لا في النهار بل في الليل أيضاً .

فقال الأب روا :

- أيها الأب الأقدس ، إن الذي كان سبباً لهذه الكارثة هو دون بوسكو .

فابتسم البابا ثم نصح نصيحة حكيمة :

- يهمني أن أوصيك ، وأن أوصي نائبك ألا يفوق اعتناؤكم بعدد السالسيين عنايتكم

بقداستهم . ليست الكمية هي التي تُمجد الله بل الفضيلة والقداسة . ولذلك كونوا حذرين

متشددين في قبولكم للراغبين في الرهبانية .

وبينما هو ينزل السلم الكبيرة تهباً الحرس السويسري للتحية فقال لهم دون بوسكو ضاحكاً :

- استريحوا ، فلست ملكاً بل كاهن فقير أحذب كله .

الدموع السخينة

كُرِّست كنيسة القلب الأقدس في حفلة رسمية في ١٤ أيار (مايو) ١٨٨٧ .

وفي الخامس عشر منه ، أراد دون بوسكو النزول إلى الكنيسة ليقيم القداس على مذبح

السيدة مريم معونة المسيحيين ، فما إن بدأ حتى رآه الأب فيليبي الذي كان يساعده ، يبكي ،

فسالت الدموع لا تتضب ولا يقوى حبسها طوال وقت القداس على وجه التقريب ، ولما

انتهى اضطروا إلى حمله أو إلى ما يشبه حمله إلى الموهف ، فتمتم الأب فيليبي وقد ساوره القلق :

- ما بك يا دون بوسكو ؟ أترأك تشعر بوعكة ؟

فهزّ دون بوسكو رأسه وقال :

- بدا لِعَيْنِي مشهدٌ حيٌّ ، مشهد حُلْمي الأول ، وأنا في التاسعة . رأيت حقاً وسمعت أمي

وإخوتي يتجادلون في حلمي . . .

كانت السيدة العذراء قد قالت له في ذلك الحلم البعيد : " ستفهم كل شيء في الوقت

الموافق " . وأما الآن فقد نظر إلى ماضيه فبدا له أنه يفهم كل شيء حقاً . إن ذلك يستحق كل ما

بذله من تضحية والجهد لانقاذ هذا العدد الكبير من الأحداث .

في ١٨ أيار ترك دون بوسكو رومة آخر مرة .

لويس اوريوني : ثلاثة دفاتر خطايا

لم يبتعد دون بوسكو عن صبيانه حتى في سنواته الأخيرة التي التهمتها الأسفار والديون ،

فكلما رآهم واستمع إليهم وخطا وإيآهم عشر خطوات ، عادت إليه الحياة حتى بعد أيام قتالة من

التعب .

في تشرين الأول (أكتوبر) ١٨٨٦ قبل صبيّ من بونتيكوروني (Pontecurone) في سنّ الرابعة عشرة واسمه لويس أوريوني (Orione) ، وهو ابن مبلّطٍ للشوارع فقير ، وقد جثا هو أيضاً بالقرب من أبيه ساعات تلو الساعات ، وركبته في الرمل ، ليضع البلاط بجانب البلاطة ، ويضرب بالمطرقة ضربات خفيفة . حاول أن يصير راهباً في فوغيرا (Voghera) ولكنه مرض فاضطّر إلى العودة إلى البيت ، فقبله سالتيو فالدوگو .

فتنّ دون بوسكو لويس وسحره ، وعندما ينزل إلى الساحة (ذكر " أن ذلك أصبح قليلاً وحيناً بعد آخر ") يزدحم حوله الأحداث عشرات ومئات وهم يتنازعون الأماكن الأقرب إليه ، ويُسعدهم أن يحصلوا على كلمة منه .

اقتحم لويس الزحام على قدر ما استطاع ليصل إلى الصفّ الأول ، فنظر إليه دون بوسكو وابتسم له ، وساله هل حجم القمر في بلده كبير كحجمه في تورينو ، فلما رآه يبتسم قال له مازحاً : أنت عجيب طيّب حقاً .

رغب لويس أوريوني رغبة شديدة في الاعتراف لدون بوسكو ، ولكن ما العمل ؟ دون بوسكو منهوك القوى ، لا يُعرّف إلا بعض السالسيين ، وتلاميذ الصف الأخير الذين يتأهبون لدخول دير الابتداء ، ولا ندري كيف حصل هذا الامتياز النادر ، فرأى أنه يجب عليه أن يحسن الاستعداد للامر .

روى الأب أوريوني نفسه : " أردت ان أفحص ضميري فملأت ثلاثة دفاتر " . خاف أن

ينسى شيئاً فطالع أسئلة الاعتراف ونسخ كل شيء واعترف بكل شيء ، ولم يُجب نفيّاً إلا على سؤال واحد : هل قتلت ؟ فكتب : لم أفعل هذا . ثم وضع الدفاتر في جيبه ويده على قلبه ، وخفض عينيه ووقف في الصف لينتظر دوره وهو يرتجف لشدة ما به من الانفعال .

- ما عسى دون بوسكو ان يقول عندما يقرأ هذه الخطايا ؟

جسّ بيده الدفاتر ولما جاء دوره جثا فنظر إليه دون بوسكو مبتسماً :

- أعطني خطاياك .

فأخرج الصبي الدفتر الأول ، فأخذه دون بوسكو وبدأ كأنه يزنه ليعرف ثقله ثم مزّقه .

- أعطني سائر الدفاتر .

فكان مصير الدفاترين الآخرين مثل ذلك المصير ، فلبث الصبي ينظر ، وقد أخذت منه

الحيرة ، فقل دون بوسكو :

- والآن انتهى اعترافك ولا تُفكّر قطّ بعد اليوم بكلّ ما كتبت .

وابتسم له فلم ينسىَ لويس تلك الابتسامة قط ، وقد أفلح بعد هذا الاعتراف في الاعتراف
بضع مرات لديه . ذات يوم حدّد دون بوسكو النظر في عينيه وقال له :
- أذكر أننا سنكون كلانا صديقين دائماً أبداً .

لم ينسى لويس أوريوني وعده قط ، ولما علم أن حياة دون بوسكو آذنت بالانتهاء ، قدّم حياته
بدلاً ، ليعيش دون بوسكو . ولما صار أبا رهبانية لها مصليات ودور لأفقر الصبيان ، قال وهو يُفكر
بدون بوسكو :

- لو قدّر لي ، لمشيت على الجمر الملتهب لأراه مرّة أخرى وأقول له : شكراً .
سمّى السنوات الثلاث التي قضاها في فالدوكو " أسعد فصل من فصول حياتي " .

٥١

الوداع للأرض

في آخر آب (أغسطس) ١٨٨٧ أقيم على التلة التوربيّة في فالساليّشي (Valsalice)

اجتماعات من الرياضة الروحية للأحداث الذين طلبوا دخول الرهبانية السالسيّة فذهب دون
بوسكو إليها ، وعرض نفسه لخدمة من يريدون الاعتراف لديه .

لم يرئس منذ ٢٥ أيار (مايو) اجتماعات المجلس الأعلى للرهبانيّة ، فترك الأمر لنائبه الأب

روا ، واشترك في اجتماع ١٢ أيلول (سبتمبر) الذي عُقد في فالساليّشي .

في النصف الثاني من أيلول شعر بوعكة فكانت تساوره الحمى والألم الشديد في رأسه حتى إنّه

لم يستطع إقامة القداس في بعض الأيام . ذكر الأب فيليبي ، أمين سره ، في دفتر تلك الأيام :
" وكان مع ذلك فرحاً كلَّ حين ويعمل ويكتب ويستقبل الناس . كان يحتاج إلى من يشدّده وهو
الذي يُشدّد الآخرين دائماً أبداً " .

وبينما يحاول تناول طعام ذات مساء من آخر أيلول ، كان بمعيته الأب فيرونيزي (Veronesi)
رئيس المدرسة الزراعية في موليانو فينييتو (Mogliano Veneto) فقال له دون بوسكو بغتة :
- لم يبقَ لي من الحياة سوى القليل ، وإن رؤساء الرهبانية غير مقتنعين بذلك ، وهم
معتقدون أن دون بوسكو سيعيش طويلاً . . . لا يَشقُّ عليّ أن أموت : ما يشقُّ عليّ هو ما على
كنيسة القلب الأقدس من ديون ، مع أنّ مالاَ كثيراً قد جُمع . إنّ الأب العزيز دالماتسو طيّب ،
ولكنّه لا يُحسن الإدارة . ماذا يقول أبنائي إذا وجدوا هذا العبء على اكتافهم ؟ صلّ من أجلي . في
العام القابل لن أكون حياً في وقت الرياضة الروحية .

شعر بأنّ العزلة تشمله شيئاً فشيئاً

كان على الأب بولس ألبيرا ، مفتش الدُور السالسيّة في فرنسا ، أن يرحل فذهب إلى دون
لوسكو ليودّعه فنظر دون بوسكو بعطف إلى حبيبه " باولينو " وتمتم وعيناه تدمعان :
- أنت أيضاً تذهب . إنكم تتركوني بأجمعكم . أعلم أنّ الأب بونيفيّي ذاهب هذا المساء

وسيدّهب الأب روا أيضاً . إنهم يتركوني هنا وحدي .

أخذ يبكي صامتاً . إنه امرؤ مسكين متعب يشعر بأنّ العزلة تشمله شيئاً فشيئاً ، بعد كلّ ما
قام به من العمل ، فتأثر الأب ألبيرا فاسترجع دون بوسكو حزمه وقال :
- لا ألومك بشيء . إنك تقوم بواجبك ولكنيّ كبير السنّ مسكين . . . سأصلي من
أجلك . الله معك !

قضى دون بوسكو ، قبل أن ينزل إلى فالسالييتشي ، بضع دقائق مع الأب بربيرس مدير
فالسالييتشي ، فحدّد النظر إلى السلم الكبيرة ، وقال بلهجة هادئة :

- سأكون بعد الآن في حماية هذه الدار . . . - ثم قال بعد هنيهة : - قل لهم يُعدّوا الرسم .
- ظنّ الأب بربيرس أنه يعني الجانب الأخير من البناء الذي يُشاد فقال :
- سأطلب إعداده ، وأقدّمه لك في هذا الشتاء .
- لا في هذا الشتاء بل في الربيع القادم . سنقدّم الرسم للأب روا .
- وظلّ ينظر إلى السلم الكبيرة .

حُفر بعد أربعة أشهر تحت هذه السلم قبرُ دون بوسكو ، فقدّم الأب بربيرس رسم النصب

الصغير الذي يزيتنه إلى الأب روا في ربيع ١٨٨٨ فتذكر الكلمات الغامضة .

مثل شمعة تنطفئ

عاد إلى فالدوگو في ٢ تشرين الأول (اكتوبر) فرحّب به الصبيان بحماسة ، ورافقه فرحين في الساحة كلها حتى أسفل السلم التي يصعد بها إلى غرفته ، وساعده الأكبر سناً على الصعود درجة درجة . فلما وصل دون بوسكو إلى أعلاه ، حيّاهم من الشرفة بيده ، فأجاباه الصبيان ، وهم يهزّون أيديهم ويصيحون : " عاش دون بوسكو " .
إنه شمعة تنطفئ .

أقام القدّاس في المعبد الصغير الخاصّ به ، يساعده كاهن ، كما جرت العادة بذلك . يعسر عليه الكلام والتنفس ، ويمزح مع الزائرين : " أبحث عن منفاخين للتبديل ، فإنّ منفاخيّ لا يُحسنان العمل " .

في ٤ كانون الأول (ديسمبر) صعد إليه الأب تشيروتي (Cerruti) المسؤول عن الادارة العامة للمصلّى لكي يحدّثه ، وبعد الفحص الجادّ للامور ، قال له دون بوسكو :
- أراك شاحب اللون . كيف حالك ؟ اهتّم بنفسك ، اعمل لنفسك ما تعمل لدون بوسكو لو احتاج إليك .

فاضطر الأب تشيروتي فقال له :

- تشجّع أيّها الأب تشيروتي العزيز ، ستري في الفردوس أننا سنكون سعداء .
سلم إليه أمناء السرّ كثيراً من الرسائل المفتوحة التي وصلت ، فكتب فيها بضع كلمات ، ليوجّه الجواب اللازم ، ولم يسعه أن يكتب جواباً لأحد من الناس . وكانت آخر رسالة زاد عليها بيده سطرين ، رسالة للسيدة بروكويه (Broquier) : " لِنُعْطِ كثيراً إذا أردنا أن ننال كثيراً .
باركك الله وسدّد خطاك " .

ضاق نفسُه في أثناء القدّاس وهو يقيمه في الرابع والسادس من كانون الأول ١٨٨٧ ، وأراد أن يحاول ذلك يوم الأحد الموافق ١١ كانون الأول فوصل إلى آخره خائر القوى : كان ذلك القدّاس قدّاسه الأخير .

وصل المطران كالييرو

في مساء ٧ كانون الاول وصل المطران كالييرو من أميركا ، فقد أبرق إليه الأب روا :

" حالة أبينا تؤذن بالخطر " . فانطلق لوقته .

وبينما يجتاز المطران الساحة حياة الصبيان ، ولكنه رفع عينيه نحو النوافذ التي ينطفئ وراءها دون بوسكو . ثم دخل الغرفة ، فإذا دون بوسكو جالس إلى أريكة بسيطة فجثا المطران كالبيرو لديه ، فقبله وضمه إلى صدره وسند رأسه إلى كتفه ، فأنعشته قوة تلميذه القديم هذا وشجاعته ، فلامس ملامسة خفيفة صدره وفيه كسرت ضاعان لما سقط سقطة شديدة في جبال الاند وسأله :

- أترى صحتك جيدة الآن ؟

- أجل ، دون بوسكو ، صحتي جيدة .

وبينما هو يُجيب تفحص دون بوسكو : كم شاخ وكم ضعف في ثلاث سنوات .

فسهرها معاً ، وهما جالسان إلى الأريكة ، فأخبره المطران ما أمكنه من الأخبار عن

الرسالات ، والسالسيين الذين يعملون هناك ، والأهلين الذين علموهم وعمدوا منهم الآلاف .

وإذا به يطلب إليه ، كما لما كان طفلاً :

- دون بوسكو ، استمع إلى اعترافي .

كتب المطران في ورقة النصائح التي زوّده بها دون بوسكو في ذلك المساء ، وحملها معه إلى

أميركا . وأهمّ ما قال له دون بوسكو :

" أودّ أن تبقى حتى يُرتب كلُّ شيء بعد موتي .

قل لجميع السالسيين يعملوا بحمية ونشاط : العمل العمل .

أحبّوا بعضكم بعضاً تحابّب الاخوة ، تحابّوا وتعاونوا وتحملّوا بعضكم بعضاً " .

وكلمه دون بوسكو طويلاً في الأيام بعدئذ ، وإذا به يقول له كأنّ به كرباً شديداً :

- دنا أجلي ، فعليكم الآن أن تعملوا لخلاص الشبيبة ، ولكن يجب عليّ أن أبوح لك بما

يساورني من خوف . أخاف أن يُسيء بعضنا فهمّ العطف الذي كنه دون بوسكو للأحداث ،

فأفرط في اجتذابه إليهم بدافع رقة الشعور ، فيتدّرّعوا بهذه الحجة ليُزكوا مشاعر المودّة الطائشة لأي

كان .

- كن نائم البال ، يا دون بوسكو ، فما منّا أحد أساء تفسير طريقة معاملتك الأحداث .

وأما خوفك من أن يتدّرّع بها أحد ، فدعني أهنّم بالامر : سنكرّر هذه الوصية لهم جميعاً .

في ١٦ كانون الاول (دسمبر) أمر الطبيب بنزهة في العربة : فإنّ الهواء الطلق سينفعه ،

فسنده الأب روا والأب فيلبتي في السلم ورافقه ، وبينما هم يعودون ، وقد أخذت العربة تصعد

ببطء جادّة فيتوريو عمانوئيل ، رأى الأب فيلبتي الكردينال اليموندا (Alimonda) تحت الحنايا

فقال له دون بوسكو :

- اذهب إليه وادعُهُ ليأتي هنيهة . أرغب في أن أخاطبه ، ولكني لا أقوى على المشي إلى هناك .

فما إن سمع الكردينال كلام فيليبي حتى خَفَّ إلى العربية وفتح ذراعيه وصاح :

- آه ، دون بوسكو !

وصعد إلى العربية وقبّله وعانقه بحرارة ، فنزل الأب روا ، وتحادث الكردينال ودون بوسكو نصف ساعة والعربية تسير بهدوء وهي تمرّ بشارع تشرنايا (Cernaia) .

خواطر لها طعم الابدية

في ١٧ كانون الاول ١٨٨٧ أخذت قواه تذهب عنه ذهاباً تاماً . كان ذلك اليوم يوم السبت وكان نحو ثلاثين صبيّاً في خارج الغرفة ينتظرون ، وهم يريدون الاعتراف لديه فقال للأب فيليبي :

- حقاً اني لا أشعر بما يلزم من الشجاعة لذلك . . .

ثم قال بعد هنيهة :

- ومع ذلك فهذه آخر مرة يسعني أن أستمع إلى اعترافهم . هذه آخر مرة . . . قل لهم

يأتوا . . .

في ١٨ كانون الاول ١٨٨٧ جاء الأب اوجين رفو (Reffo) من رهبانية مار يوسف ، ليراه

فقال له بلطف :

- أيها الصديق العزيز ، كُنْتُ لك المودّة دائماً وسأكُنُّها لك دائماً . ها هي ذي أيامي الأخيرة . صلّ من أجلي ، وسأصلي أنا من أجلك .

في ١٩ كانون الأول رأى الأب فيليبي حالته تحسّنت فسأله أن يكتب بضع كلمات في صُور يُرسلها إلى معاونين السالسيين فأجاب دون بوسكو : " بكل ارتياح " .

فجلس قليلاً على الأريكة وجعل أمامه لوحة خشب ، وكتب في ظهر صورتين :

"يا مريم احصلي لي من يسوع على صحة الجسد إذا كان في ذلك خير لنفسي ، ولكن

إضمّني لي الحياة الابدية " .

" إعملوا الصالحات ، فقد لا يُتاح لكم الوقت لذلك بعد حين " .

فقطع كتابته عندئذ وقال مدهوشاً للاب فيليبي :

- أتُعلم أي أصبحت عاجزاً عن الكتابة الآن ؟ إنّي متعب تعباً شديداً .

فأشار عليه الأب فيليبي بأن يضع القلم فَرَدَّ عليه :

- لا ، يجب عليّ أن أواظب . . . هذه آخر مرة أكتب .

وواظب على كتابة خواطر في صور صغيرة . خواطر لها طعم الأبدية :

" طوبى للذين يهبون أنفسهم لله على وجه دائم في شبابهم " .

" من أبطأ في هبة نفسه لله كان في خطر شديد بأن يفقد نفسه " .

" يا بني لا تضيعوا وقتكم فلا يضيعكم الوقت في الأبدية " .

" إذا عملنا الخير وجدناه منذ هذه الحياة ، وفي الآخرة " .

" من زرع الصالحات قطف الثمار الطيبة " .

" يقطف الانسان في آخر حياته ثمر الصالحات " .

دنا الأب فيليبي من سريره ، فقرأ تلك الفكرة فلم يستطع حبس دموعه وقال :

- ولكن ، يا دون بوسكو ، أكتب ما يدعو إلى الفرح أكثر من ذلك .

فقال مازحاً :

- يا لك من ولد ، يا كارلوجيو . . . لا تبك . لقد قلت لك إن هذه الكلمات آخر كلمات

أكتبها ، ومع ذلك فسأحاول أن أكتب .

فعاد إلى الكتابة :

" بارككم الله وحفظكم من كل سوء " .

" أعطوا الفقراء كثيراً إذا أردتم أن تصيروا أغنياء " .

" أعطوا تُعطوا " .

" باركنا الله ولتكن السيدة العذراء دليلنا في أخطار الحياة " .

" الأطفال نعيم يسوع مريم " .

" بارك الله جميع المحسنين إلينا وجزأهم خيراً كثيراً " .

" يا مريم ، كوني خلاصي " .

في تلك اللحظة عاد دون بوسكو ، من غير أن يشعر ، إلى كتابة خواطر يفوح منها رائحة

الأبدية :

" من خلص نفسه خلص كل شيء . من فقد نفسه ، فقد كل شيء " .

" من حمى الفقراء ، نال مكافأة عظيمة لدى المحكمة الالهية " .

" ما أعظم المكافأة التي ننالها من أجل كل الخير الذي نفعله في حياتنا " .

" من فعل الخير في حياته لقي ذلك الخير في موته " .

" ينعم الانسان في الفردوس بجميع الخيرات ، للأبد " .

هذه آخر جملة كتبها ، وهو يخط خطوطاً تكاد لا تقرأ .

الصمت في الساحة الكبيرة

في ذلك الصباح منح الناس آخر مواجهاته . كان منذ أربعين سنة يصرف كلَّ صباح وهو ينصح ويبارك ويعزّي ويساعد ويشجّع الذين يريدون التحدث إليه . كان ذلك الأمر عبءاً ثقيلاً طوال حياته . وختمت السلسلة الطويلة لتلك الزيارات الكونتسّا موتشينيغو (Mocenigo) ، وكانت الساعة الثانية عشرة ونصف في ٢٠ كانون الأول (ديسمبر) ١٨٨٧ .

أمر الطبيب عند المساء بنزهة جديدة في العربية . فدون بوسكو يحتاج حاجة ماسّة إلى الهواء الطلق ، فأنزل من السلم في كرسيّ ، على رغم معارضته ، وبينما تسير العربية ببطء ، في جادة الملكة مرغريتا ، أوقفه مجهول هو امرؤ من بينيرولو (Pinerolo) كان تلميذاً له أوّل عهد المصلّى ، فعرفه دون بوسكو وعانقه :

- كيف تسير أعمالك ، يا عزيزي ؟
- إنها تسير سيراً مضطرباً . صلّ من أجلي . قيل لي عند الباب إنك ستَمُرّ من هنا ، فأردتُ أن أسلم عليك .
- مرحى ! ونفسك كيف حالها ؟
- أحاول أن أظلّ دائماً تلميذاً جديراً بدون بوسكو .

- مرحى . مرحى ! إن الله سيكافئك . صلّ من أجلي . عِش دائماً مسيحياً صالحاً . يبدو أن الهواء الطلق نفعه ، ولكنه ما إن رجع حتى وجده الطبيب البيروتوتي في حالة أسوأ ، فأمر باضجاعه في السرير . كان الشماس فستا (Festa) حاضراً فسأل دون بوسكو :

- كيف حالك ؟

- الآن لم يبق لي سوى أن أقوم بخاتمة حسنة .

وفي ما بين العشرين والواحد والثلاثين بدا الأجل الأخير وشيكاً جداً . وأوجز هذه الأيام العسيرة الأخ المعاون بطرس إنريا (Enria) ، الذي سهر عليه كلّ ليلة ، بهاتين الكلمتين : " إته يتألم صامتاً " .

كانت الحرارة مرتفعة والتنفس عسيراً فقال الطبيب :

- إنه يحتاج إلى الغذاء أمسّ الحاجة .

وكان الأب فيليبيّ بجانب سريره يحاول أن يناوله حساء خفيفاً ، فمدّ دون بوسكو يده ليأخذ

الإناء في حين أن فيليبيّ أراد أن يمسه فقال دون بوسكو ساخراً :

- أجل ، إِيَّكَ تريد أن تأكلها ، أليس كذلك ؟
- في الساحة الكبيرة ، وقد ملأها الصبيان ، ساد صمت غير مألوف . حتى أصغرهم سيئاً ينظرون نحو هذه النافذة التي يوشك أن يموت وراءها صديقهم الكبير .

" والآن أحتاج إلى أن يقال لي ذلك "

- في ٢٣ كانون الاول ١٨٨٧ ظنوا عند الظهر أنه قد دنا أجله الأخير فتمتم :
- ليتأهب واحد منكم لمسحي بزيت المرضى .
- كان الأب بونيتي بجانب السرير ، فأخذ دون بوسكو بيده بغتة ، وضغط عليها :
- كن دائماً السنذ المتين للأب روا .
- ولما وصل المطران كالبيرو جمع قواه وقال له :
- تقول للبابا إنّ الرهبانية والسالسيين ، حيثما كانوا وعملوا ، يستهدفون على وجه خاصّ تأييد سلطة الكرسيّ الرسوليّ . سنذهبون إلى افريقيا فيحملك البابا . . . ستجتازونها . . . إلى آسيا وإلى أماكن أخرى . . . ليكن فيكم الايمان .
- وكان يوسف بوتسيي حاضراً بالقرب منه ، بلحيته الشقراء المهيبة ، فلم يقوَ دون بوسكو على الكلام ، ولكنه حاول أن يُضحكه فحيّاه تحيةً عسكرية ثم استطاع أن يتميم :
- آه يا صديقي العزيز.

- وجلس عند المساء بالقرب منه الأب كاسيني (Cassini) ، وهو مُرسل عاد من أميركا بمعية المطران كالبيرو ، فهمس دون بوسكو في أذنه :
- إنّي أعلم أنّ أمك فقيرة . قل لي ببساطة ، لي وحدي ، من غير أن تبوح بأسرارك للآخرين . سأعطيك كلّ ما تراه ضرورياً لها .
- خدمه بطرس إنريا أوضع الخدمات فقال له بصوت ضعيف :
- مسكين يا بطرس ، عليك بالصبر .
- آه يا دون بوسكو . إنّي لأبذل حياتي في سبيل شفائك ، وأنت تعلم أنني لا أحبك وحدي بل يُحبُّك كثيرون آخرون حباً جماً .
- فاستطاع دون بوسكو أن يجيبه :
- ما يَشْتَقُّ عليّ فوق كل شيء عندما أموت هو أن أفرقكم .
- في ساعة متأخرة وصل الكردينال أليموندا ، فقد أخبروه أنّ تلك الليلة قد تكون الليلة الاخيرة ، فضمّه إلى صدره وقبّله فحاول دون بوسكو أن يقول له شيئاً :
- يا صاحب النيافة صلّ لكي يمكنني أن أخلص نفسي .

- ولكنك يا دون بوسكو ، يجب عليك ألا تخاف الموت . كم أوصيتَ غيرك بأن يكونوا متأهبين له !

- أجل ، والآن أحتاج إلى أن يقال لي ذلك .

في صباح الرابع والعشرين زُوِّد بالزاد الأخير ومسحه المطران كالييرو بزيت المرضى ، فشوهد له تحسُّن خفيف .

في ٢٦ كانون الأول (ديسمبر) ١٨٨٧ جاء لرؤيته كارلو توماتيس (Tomatis) ، وهو تلميذ قديم من أيام دومنيك سافيو ، وأتاه بصبيٍّ له لكي يباركه ، ولم يخطر له أنه سيراه وقد نال منه المرض كلَّ منال ، فجثا عند مؤخر السرير ولم يسعه أن يقول سوى هذه الكلمات :

- وا دون بوسكو ! وا دون بوسكو !

ولما خرج من الغرفة أشار دون بوسكو للأب روا ، وقد حنى عليه ، وهمس في أذنه :

- أنت تعلم أنه في حالة عسيرة فادفع له أجرة سفره من قبلي .

وفي ذلك اليوم جاءت الأم كاترينا داغيرو (Daghero) تعودته فالتمست منه بركته لجميع

بنات السيدة مريم معونة المسيحيين ، فتمتم دون بوسكو :

- نعم ، نعم أبارك جميع دُور بنات السيدة مريم معونة المسيحيين ، أبارك الرئيسة العامة

وجميع الراهبات . . . اسعينَ لخلاص كثير من النفوس .

أمر الطبيب المريض أن يلزم الصمت التام وحظر الزيارات فقضى دون بوسكو النهار غافيا ، في نصف نوم متواصل .

في آخر اليوم التاسع والعشرين من كانون الأول دعا الأب روا والمطران كالييرو وأخذ بيدهما وقال بلهجة هادئة :

- تحابُّوا كالأخوة ، تحابُّوا ، تعاونوا ، وتحملُّوا بعضكم بعضاً كالأخوة . إنَّ عون الله والسيدة مريم معونة المسيحيين لن ينقصكم . . . عدوني بان تتحابُّوا كالأخوة .

وطلب في الليل من إنريا جرعة ماء ، ثم أضاف :

- يجب على الانسان أن يتعلم كيف يحيا وكيف يموت .

الساعة التي تعود فيها " الوحوش "

بدا أن كل شيء قد انتهى ، فوقع خلافُ ذلك ، إذ حدث من أول كانون الثاني (يناير)

١٨٨٨ إلى العشرين منه تحسُّن لا يُصدَّق فكأنَّ الصحة أخذت تعود إليه ، وكان الجذع الشيخ قد عاد يزهر . كانت تلك الفترة فترة وهبها الله ولكنها تلاشت بسرعة .

في ٢١ كانون الثاني دخل الغرفة المطران كالبيرو فقال :

- يا دون بوسكو العزيز ، يبدو ان الخطر الذي كنا فيه قد دُرئ . دُعيتُ إلى لو (LU) من أجل عيد شفيع البلد . إن ذلك البلد أعطانا كثيراً من المُرسلين الصالحين ، وكثيراً من الراهبات .
- ثم سأذهب إلى جولة بين صبياننا في بورغو سان مارتينو (Borgo San Martino) .
- اذهب ، إنني مسرور ولكن عليك بالسرعة .
- وبعد الظهر لليوم الثاني والعشرين زال كل رجاء ، فقد ساءت حالته سريعاً ، وقال الأطباء إنّه قد يُفقد في هذا الحين أو ذاك ، وعاد إلى الاغفاء العميق ، إلى سبات يتخلله الهذيان . فرآه بطرس إنريا ، وكان دائماً حاضراً ، يصقّق بيديه بغتة وأدرك أنّه يريد أن يصيح :
- هلموا ، هلموا على عجل فأنقذوا هؤلاء الأحداث . . . أيتها القديسة مريم ساعديهم . . . أمّاه ، أمّاه !

قال بعضهم إن دون بوسكو ، إذ لفظ هذه العبارات وهو يهذي ، أعرب عن الخوف على الأحداث ولم يُعرب عن الشعور بالثقة . إن علم النفس القويم يؤكد اليوم خلاف ذلك : يبدو أن الخوف والمشاعر التي كبتت قوّة الارادة الحازمة في أثناء الحياة ، تنتعش في ذلك الحين . هي " الاوهام والوحوش " التي تعود وقد خرجت من أعماق اللاوعي ، عندما تُشَلّ الارادة التي قيّدتها ، بعد ما لاشئ سبات المرض تلك الارادة .

حفظ دون بوسكو من السنين البعيدة في معهد الكهنوت مخطّطاً تربوياً خلاصته الثنائي الخوف – الثقة ، وقد رسب في لاوعيه ، ولكنه كان قد حوّلّه طوال حياته إلى ثنائي آخر هو الصداقة – الثقة .

فما يدعو إلى الدهش هو أنه ما غلبه دون بوسكو في نفسه طوال حياته ، بدا غالباً له في ذلك الحين .

" قولوا لاولادي "

- في ٢٦ كانون الثاني ١٨٨٨ عاد المطران كالبيرو ، فذهب لوقته الى سرير المريض ، ففهم أنّ حالته قد ساءت ولكنه حاول أن يعلم من دون بوسكو هل هناك أمل فقال له :
- دُعيتُ إلى رومة . أيسعني الذهاب إليها ؟
 - ستذهب ولكن بعد حين .
 - لم يبقَ من صوته الرخيم سوى نفس ، فأصبحت الآلام لا تطاق أحياناً واقترح الأب لموان :
 - فكّر في المسيح على الصليب . كان هو أيضاً يتألم من غير أن يستطيع الحركة .
 - أجل ، هذا ما أفعل على نحو متواصل .

مضى اليوم السابع والعشرون وصباح الثامن والعشرين ، ودون بوسكو يهذي هذياناً لا انقطاع فيه ، وبعد الظهر من الثامن والعشرين عاد إلى دون بوسكو إحساسه ، في آخر لحظات استمتع فيها بوعيه التام ، وكان الأب بونيبي بجانبه ، فتمتم دون بوسكو :

- قولوا لأولادي إني أنتظرهم جميعاً في الفردوس .

في اليوم التاسع والعشرين وجده الأطباء في حالة عسيرة جداً فقال له الدكتور فيسوري (Fissore) :

- تشجّع ، قد تتحسن الأمور غداً .
- وأما هو فأجاب وقد زاغ بعد ذلك بصره :
- غداً ؟ . . . غداً ؟ سأرحل رحلة طويلة .
- وفي الساعات الأولى من الليل قال بصوت عالٍ :
- باولينو ، باولينو / أين أنت ؟ لماذا لا تأتي ؟
- كان الأب باولينو ألبيرا مفتش المشروعات السالسيّة في فرنسا ولم يصل بعد .
- في ثلاثين من كانون الثاني ١٨٨٨ تتمتم للأب روا في لحظة من الوعي :
- اجعل الناس يُحبّونك .

في الساعة الواحدة من بعد الظهر كان يوسف بوتسيبي والأب فيليبي بجانبه ، ففتح دون بوسكو عينيه على سعتهما ، وحاول التبسّم ورفع يده اليسرى وسلّم عليهما فأخذ بوتسيبي يشهق .

في ٣١ كانون الثاني ١٨٨٨ شعر الأب روا في نحو الساعة الثانية من الصباح أنّ الأمور تتسارع ، فلبس البطرشيل وأخذ يتلو الصلاة من أجل المحتضرين ، فدُعي سائر رؤساء الرهبانية على عجل . فلما جاء المطران كالييرو تخلى له الأب روا من البطرشيل ، وانتقل إلى يمين دون بوسكو وانحنى على أذنه وقال له :

- دون بوسكو نحن ابناؤك هنا . نسألك العفو عن جميع ما سببنا لك من الآلام ، فباركنا مرّة أخرى علامة لعفوك وعطفك الأبوي . سأوجّه يدك ، وألفظ عبارة البركة .
- رفع الأب روا يد دون بوسكو وقد أصبحت هامدة ولفظ كلام البركة للسالسيين الحاضرين والأبعاد . علت في الغرفة حشجة المحتضر ، وفي الساعة الرابعة والنصف انقطعت بغتة ، وأصبح التنفّس قصيراً بضع ثوان ثم انطفاً ، فرفع الأب بلمونتي صوته حتى كاد يصيح :
- دون بوسكو يموت !

لهت ثلاث لهثات عشيرة في فترات قصيرة ، فقال المطران كالييرو بصوت عالٍ الصلاة التي تعلمها من دون بوسكو لما كان طفلاً :

" يسوع ومريم ومار يوسف أعطيكم قلبي ونفسي وحياتي .
يسوع ومريم ومار يوسف ساعدوني في نزاعي الاخير .
يسوع ومريم ومار يوسف اجعلوني أموت وانا أنعم بلطف صحبتكم " .
ثم نزع البطرشيل من عنقه وجعله على كتفي دون بوسكو ، وقد انتقل إلى النور .

دون بوسكو

سيرة جديدة

كتب كثير من المؤلفين على دون بوسكو . انه موضوع « حكايات رائعة » تارة ، وبحوث كلها نقد تارة ، فيتعرض للخطر وهو ان لا يعرفه الناس معرفة حسنة وان يبدو في الوقت نفسه شخصاً محبط به الأساطير الداعية الى الشك . ان مؤلف هذه السيرة حاول سلوك طريقاً ثالثاً : فكل ما اتى به يعتمد على شهادات معاوني دون بوسكو وتلاميذه ، ومع ذلك فان روايته للاحداث تبقى دائماً حيّة طريفة .

كانت بلاد البيمونتة في القرن التاسع عشر ميدان منازعات شديدة لتحقيق الوحدة الايطالية ، وكانت خليطاً غريباً من العداوة لرجال الكنيسة ، والمبادرات المسيحية الكثيرة . كان دون بوسكو مربيّاً بالفطرة ، وقد ساوره القلق على بؤس الشبيبة العاملة في أيام نشوء الصناعة الكبرى ، فأنشأ بحكم الاحداث أسرتين دينيتين عظيمتين : الرهبانية السالسية وراهبات السيدة مريم العذراء معونة المسحيين ، وهدف كل منهما خدمة الاحداث . ان تلاميذه وتلميذاته يعملون اليوم في طول الارض وعرضها .

توفي دون بوسكو في السنة ١٨٨٨ ولكن بساطته وفضته وخفة روحه يضاف اليها درايته في التربية وروح ايمانه تجعل منه شخصاً عصرياً بكل معنى الكلمة .

ان مؤلف هذا الكتاب ، الاب تريزيو بوسكو (Teresio Bosco) ، وهو راهب سالمي من تورينو ، كاتب وصحافي معروف على وجه حسن في ايطاليا .

رقم الإيداع لدى مديرية المكتبات

والوثائق الوطنية ١٩٨٣/١٢/٥٨٠